

هَذَا الْحَبِيبُ

مُحَمَّدٌ رُسُلُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

يَا مُحَبِّ

تَأْلِيفَ

أَبُو بَكْرٍ جَابِرُ الْحَزَائِرِيِّ



جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
الطبعة الثانية
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م



للنشر والتوزيع والطباعة

الإدارة - كيلو ثلاثة - طريق مكة - هاتف ٦٨٧٣.٧٧
ص.ب. ٤١٤٦ جدة - الرمز البريدي ٢١٤٩١
برقيا - مشكاتها - تليكس SHORCO, SJ ٦٠١٣.٩
المكتبة - شارع البغدادية - هاتف ٦٤٤٣٥١٨ - ٦٤٣٦٦١٠
المكتبة - كيلو ثلاثة - طريق مكة - هاتف ٦٨٧٣٨٠٠

هَذَا الْحَيْبُ

« محمد رسول الله ﷺ »

يَا مُحِبُّ

رسالة العلم والإيمان والحب الصادق

للحبيب محمد ﷺ

يقدمها للعالم الإسلامي والإنساني
معاً ، إذ لا غنى لكل منهما عنها لما
حوته من علم صحيح ومعرفة بسيرة
خاتم الأنبياء وافية شافية تهدي إلى
الحق وإلى طريق مستقيم يفضي
بسالكه إلى كمال وسعادة الدارين :

أبو بكر جابر الجزائري
الواعظ بالمسجد النبوي الشريف

المدينة النبوية في ١٤/١/١٤٠٨ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين . وصَلَاةُ اللَّهِ وسلامه ورحماته وبركاته على صفوة عباده . وخيرته من خلقه محمد عبده ورسوله ، وعلى أهل بيته الطاهرين ، وصحابته أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد فهذه رسالة في سيرة الحبيب محمد ﷺ رغب في جمعها وتأليفها بعض إخوة الإسلام لتكون تكملة « لمنهاج المسلم » الذى اشتمل على أصول الدين وفروعه إلا ما كان من السيرة العطرة للحبيب محمد ﷺ وتحقيقا لرغبتهم وضعت هذا الكتاب معنونا بهذا العنوان :

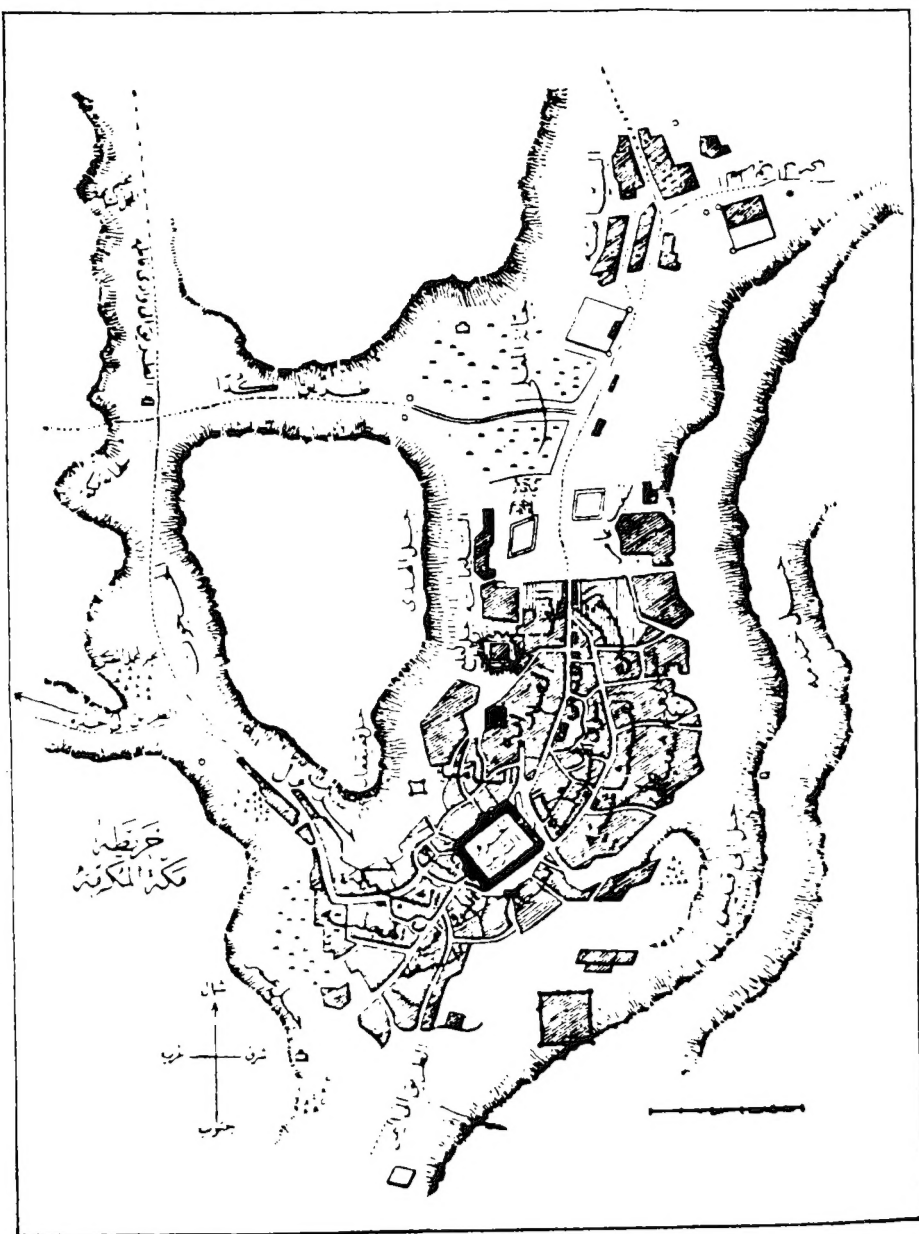
هذا الحبيب محمد ﷺ يا محب

فكان حقا — الكتاب — رسالة العلم والإيمان والحب الصادق للحبيب محمد ﷺ .

ونظراً لكثرة ما جُمع وألف في هذا الفن — السيرة — فإنى تجنّبا للتكرار والإطالة والاختصار سلكت بتوفيق الله مسلكاً في جمعه وتأليفه ما جعله بفضل الله تعالى أمثل ما كتب في هذا الفن سهولةً ووضوحاً وشمولاً مع حسن التبويب ، وجمال التفصيل ، وزانه ما امتاز به من ترصيع كل مقطوعة منه

بذكر نتائجها وعبر قد لا تخلو منها في غالبيتها . فكان بحمد الله تعالى كتاب البيت المسلم الذي يُشيع بين أفراد حب الحبيب المصطفى ، وينيرُ ببيانِ حُسْنِ الأسوةِ مَعَالِمِ الهدى ، في دروب الحياة كلها الدينية منها كاجتماعية والسياسية . ولهذا فإني أدعو أهل كل بيت مسلم أن يجتمعوا على قراءته فيقتطعوا نصف ساعة من يومهم أو ليلتهم يقرأون فيها صفحة أو صفحتين حسب طول المقطوعة من الكتاب وقصرها ، ويقفون على ما فيها من النتائج والعبر يقوّون بذلك إيمانهم . وينمّون معارفهم ويهذبون أخلاقهم . وأعظم من ذلك اكتسابهم حبّ نبيّهم وحبّ أهل بيته الطاهرين . وصحابته الغرّ الميامين . وأخيراً فاللهم اجعل عملي في هذا الكتاب صالحاً واجعله لوجهك خالصاً ، وارزقني به ، ومن يقرأه مؤمناً محتسباً حبّ نبيّك وشفاعته في النجاة من النار ، واللحاق بمنازل الأبرار مع الرفيق الأعلى ياذا الجلال والإكرام .

سبحان ربّك ربّ العزة عما يصفون
وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين



هذه مكة

هذا البلد الأمين

هذا الوادي الذي قال إبراهيم فيه : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ
مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ .

أرض النبوة

بجبال فاران ، بالوادی الأمين ، بالأرض المباركة حيث بُني فيها أول بيت للناس ، كلّ الناس بمكة المكرمة دائرة المجد ، ومهبط الوحي .

بالبلد الأمين حيث كان مولد سيد جميع العالمين .

بديار الحجاز معقل الإيمان^(١) في آخر الزمان .

بها — مكة — طابت مغانيها ، وجلّت عن الحصر معانيها ، بعث نبي آخر الزمان ، الذي سنحدث عنه — إن شاء الله — الأحباء ببيان أيما بيان .

ولنحبس الآن القلم ساعة ، لنعود إلى الحديث عن أرض النبوة بعد ساعة .

الدوحة الكريمة

من ديار الكفر والطغيان ، من أرض الشرك والظلم للإنسان خرج مهاجرًا إبراهيم مع ابن أخيه هاران لوط عليه وعلى إبراهيم وآله السلام .

واتخذ إبراهيم الأرض المباركة مهاجرًا أرض الشام التي باركها الله للأنام ، وحل إبراهيم يوما بديار مصر وهو يحمل رسالة التوحيد فكان أن أكرم الله سارة^(٢) زوج إبراهيم بعطية هي نعم الهدية إنها هاجر المصرية أم إسماعيل وجدة العدنانيين أجمعين .

وهبت سارة الكريمة جاريته إبراهيم فتسرّاهَا فأنجبت إسماعيل . ويسوق

(١) ثبت هذا المعنى بالحديث .

(٢) تقرأ هذه القصة في صحيح البخارى . « كتاب الأنبياء » .

الله أقدارًا إلى أقدارٍ . فتضيق بسارة الدار حيث آلمها أن تلد جارتها غلاما زكياً ، وتحرمه هي !!

وبإذن من الله يخرج إبراهيم بجارته أمّ ولده مستخفيا مستحيا فتعفى هاجر آثار أقدامها مبالغة في إخفاء أمرها .

ولنخرج القلم الآن من الحبس : لتتابع الحديث عن أرض الأنس والقدس . إنه بالواد الأمين ، المحاط بجبال فاران من أرض طيبة مباركة ، وتحت دوحة عظيمة ، وضع إبراهيم هاجر وطفلها تاركاً لهما جراباً فيه طعام ، وسقاءً فيه ماء وقفل راجعاً . ونظرت إليه هاجر والدهشة تأخذها ، والحيرة تنتابها ، ثم تقول : إلى من تكلنا يا إبراهيم ؟ وأردفت تسأولها قائلة : الله أمرك بهذا يا إبراهيم ؟ فأجابها السيد الرحيم قائلاً : نعم . فردت عليه وهى قريرة العين إذا فاذهب فإن الله لا يضيّعنا . وذهب إبراهيم عائداً إلى أرض الشام .

ولما بعد حيث لا تراه هاجر استقبل مكان البيت قبل بنائه وقال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ .
وقفه قصيرة :

فهياً بنا معشر الأحباء نجلس مع هاجر نؤانسها في وحشتها ، ونستجلى العبرة من موقفها :

هاجر امرأة مؤمنة كسائر المؤمنات تهاجر من بلدها ، وتخرج من دارها حتى لا تؤذى وليّة نعمتها ، تلك المؤمنة الأولى سارة بنت هاران عم إبراهيم الزوج الكريم . علمت هاجر ما أصاب سارة من العيرة فأثرت غربتها عن أذية سيدتها . فيآله من موقف تقفه هذه المصرية الزكية فهلاً تأسى بها الضرات^(١) !!

(١) تأسى : أى اقتدى والضرات جمع ضرة : المرأة تكون مع أخرى تحت رجل واحد والضرة مشتقة =

وهلّا عرف هذا أجبأؤنا أحبهم الله فيؤثر أحدهم بالنفع أخاه ويتحمل الأذى
فى سبيل رضاه !

هذه عبرة ، وأخرى : تُترك هاجر بوادٍ قفر موحش لا أنيس به من قريب
ولا من بعيد ، وتظهر مخاوفها ولا تكتم ما انتابها من غم وهم . فتقول
لإبراهيم : إلى من تكلمنا ؟ وما إن تسمع جواب إبراهيم : نعم الله أمرنى بهذا
حتى تتجلى حقيقة إيمانها فى مستوى لن يرقى إليه غيرها من نساء العالمين ،
إذ تقول : اذهب فإنه لا يضيّعنا .

هذا هو الإيمان الذى نطلبه أيها الأحباء . وهذا هو التوكل الثمرة الشهية
لعقيدة الإيمان الحية .

إن إيمانًا لا يثمر توكلًا كهذا إيمانٌ ناقص قصير ، وقليل يسير .
فلننشد أيها الأعبة إيمانًا كاملاً يثمر لنا الخشية والمحبة معًا وتوكلًا كهذا !!!
ولنترك هاجر تبيت ليلتها بالواد الأمين لنعود إليها بعد حين نستقصى أخبارها
ونتعرف على أحوالها ؛ لأنها رحم لنا ، ومنبت عزٍّ ومجدٍ كآنا لنا ، إنها أمُّ
إسماعيل أحد آباء سيد المرسلين محمد الحبيب عليه أفضل الصلاة وأزكى
التسليم .

تقول الأخبار الصادقة : إن هاجر قد نَفِدَ ماءُ سقائِتها وعطِشت وعطش
إسماعيل طفلها ، فدارت تطلب الماء وحارت ، وكبدها كَادَ يرفض^(١) وهى
ترى طفلها يتلوى من شدة العطش . ونظرت فإذا أقرب مكانٍ عالٍ إليها هو
جبل الصفا فأتته ورقيته ونظرت يمينًا وشمالًا فلم تر ماءً ولا أحدًا ونظرت
أمامها فإذا أقرب مكانٍ عالٍ إليها جبل المروة فهبطت ذاهبةً إليه .

= من الضرر ، لأن كل واحدة منهما تتضرر بالأخرى .
(١) ارفض الكبد تفتت من العطش أو الحزن أو كاد .

فانتهت إلى بطن الوادى فأسرعت وخبّت^(١) فيه حتى اجتازته ، وواصلت سعيها حتى انتهت إلى جبل المروة فرقيته ، ونظرت يمينا وشمالا فلم تر شيئا فهبطت عائدة إلى الصفا حتى اكتمل سعيها بين الصفا والمروة وهى تطلب الماء لولدها ولها سبع مرات .

وعندها وهى على أحد الجبلين تسمع صوتًا غريبًا فتقول فى لهفة : أسمعَتَ أسمعَتَ فهل من غياث ؟!

وترمى ببصرها نحو ولدها فإذا برجل قائم على رأس الطفل تحت الدوحة^(٢) وما إن دنت منه حتى قال بعقبه هكذا يرفس الأرض ، وإذا بعين ماءٍ تفور وكم كانت فرحة هاجر بسقيا إسماعيل ؟! وأخذت تزُمُّها بالتراب والحجارة تمنع سيلانها على وجه الأرض خشية أن تنضب ، ولو تركتها فلم تحطها بما أحاطتها به من تراب وحجارة لكانت عينًا معينا كما أخبر بذلك حفيدها السيد الجليل محمد إمام المرسلين وسيد جميع العالمين ، عليه أفضل الصلاة وأزكى وأبرك التحية والتسليم .

ثمرة القصة :

إن لهذه القصة التى قصصناها ثمرة من أغلى الثار وأشهاها إلى النفوس المؤمنة الطاهرة الزكية إنها ثمرة التوكل على الله بتفويض الأمر إليه ، والاعتماد عليه . أتذكر أيها المحب لما قالت هاجر لإبراهيم : إلى من تتركنا الله أمرك بهذا ؟ فقال لها : نعم . فقالت إذا فاذهب فإنه لا يضيعنا ! إنها توكلت على الله ربنا وربها وأحسن الظن به تعالى . فهذه العين الثرة (زمزم) كانت ثمرة توكلها على ربها وحسن ظنها به عز وجل .

(١) وخبّت : أسرع .

(٢) الدوحة : الشجرة العظيمة ذات الظل الوارف .

بداية أمر مكة :

لما أكرم الله تعالى هاجر أم إسماعيل بماء زمزم مرت رفقة من قبيلة جرهم^(١) قريباً من وادى مكة فبعثوا من يرتاد لهم ماء ينزلون عليه فرأى رائداهم طائراً يحوم فعلم أن هناك ماءً فأتى المكان وإذا فيه هاجر وولدها إسماعيل وهما إلى جنب ماء زمزم فعاد الرائد فأخبر رفقته فأتوا الماء واستأذنوا هاجر في النزول معها فأذنت لهم ، واشترطت أن لا يكون لهم حق في الماء فقبلوا الشرط ونزلوا ، فكانت هذه بداية عمارة مكة في العهد الإبراهيمي السعيد .

عبرة :

أين الذين يتمشدقون بالديمقراطية والعدالة الاجتماعية أين هم ؟ إنهم في الحضيض الأسفل إزاء هذه الواقعة التاريخية الثابتة بالوحي الإلهي : امرأة غريبة الدار تملك بئر ماء في صحراء تستأذنها في النزول إليها رفقة كاملة برجالها ونسائها تستأذنها في النزول إلى جوارها فتشترط عليهم في النزول بجوارها وهي تحب الأنس : أن لا يكون لهم حق في الماء فيقبلون الشرط ويرضونه وينزلون !!

هذه خلة فاضلة كريمة من خلال العرب في الجاهلية فكيف بهم في الإسلام لولا الصرفة التي صُرفوها بِمَكْرِ الثالوث الأسود : المجوس واليهود والنصارى .

عمارة مكة

وعمرت مكة بهاجر أم إسماعيل أولاً ثم بنزل الرفقة الجرهمية^(١) ثانياً .

وكبر إسماعيل ، وأصبح أهلاً لأن يسعى ويعمل ولو برعى الماشية وصيد الطباء والطيور . وجاء إبراهيم يتعهد تركته إسماعيل ابنه وهاجر أم ولده عليهم

(١) جرهم قبيلة يمانية قحطانية وقحطان من ذرية سام بن نوح عليه السلام .

جميعا السلام ، وأوحى إليه الرب تعالى منامًا — ورؤيا الأنبياء وحى — أن اذبح إسماعيل قربانا لنا . واستشار إبراهيم إسماعيل في ذلك قائلا : ﴿ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ فأجاب إسماعيل قائلا : ﴿ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

وأراد إبراهيم تنفيذ أمر ربه فخرج بإسماعيل ولده إلى منى ليدبحه قربانا لربه حيث أمره ، ولما تله للجبين والمدية بيده وقبل الإجهاز عليه ناداه ربه : ﴿ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ﴾ ، وفداه بذبح عظيم أى بكبش أملح كبير ، فترك الولد وذبح الكبش ، وفاز بالرضا الولد والوالد .

عبرة :

إن في صبر هاجر على ذبح ولدها وصبر إسماعيل على ذبح نفسه لآية دالة على طيب الأم وولدها فلذا اختيرا لأن يكونا جدين لسيد المرسلين الحبيب محمد ﷺ . إن طيبة الأصول تنتقل إلى الفروع ، وقد تزهر الفروع على أصولها .

وجاء الخليل مرة أخرى يتعهد تركته^(١) ، وكان إسماعيل عليه السلام قد كبر وبلغ وتزوج امرأة جرهية من الرفقة التى جاورتهم بمكة ، ومن لحق بهم من قومهم . فدخل إبراهيم وسلّم على امرأة ابنه ، وكانت هاجر قد توفيت فقال أين إسماعيل ؟ قالت : ذهب يصيد ، وسألها عن حالها مع زوجها فلم تذكر خيرا ، فقال لها إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولى له يغير عتبة بابه . وجاء إسماعيل من الصيد وأخبرته بالخبر فقال : ذاك أبى وقد أمرنى بطلاقك ، فالتحقى بأهلك .

ومضى زمن يطول أو يقصر وبدا^(٢) لإبراهيم أن يتعهد تركته فجاء مكة

(١) التركة : ما تركه الإنسان وخلفه وراءه ، ومن هذا تركه الميت .

(٢) بدا أى ظهر له .

ودخل حجر إسماعيل فسلم وقال : أين إسماعيل ؟ وسألها عن حالهم فذكرت خيراً ، فقال لها : إذا جاء زوجك فأقرئه السلام وقولى له : ثبّت عتبة^(١) بابك .

وعاد إبراهيم إلى الشام ، ومضت الأيام وقد تطول أو تقصر وبدأ لإبراهيم أن يطلع على تركته فجاء مكة فوافق إسماعيل من وراء زمزم يُصلح نبلاً له تحت دوحة عظيمة قريباً من زمزم ، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد ، والولد بالوالد . فقال إبراهيم : يا إسماعيل إن الله أمرني بأمرٍ قال إسماعيل فاصنع ما أمرك ربك ، قال إبراهيم وتُعيني ؟ قال : وأعينك ، قال : فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتاً ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها .

نتائج وعبر :

من نتائج هذه المقطوعة من السيرة وعبرها ما يلي :

(١) تعهد الوالد أهل ولده بزيارتهم والتعرف على أحوالهم من الوقت إلى الوقت .

(٢) قوة الفراسة والعمل بها ، فإن إبراهيم عليه السلام تفرس في امرأة ابنه أنها غير صالحة له ، لما سمعه منها من شكاة ، وإن إسماعيل عمل برأى والده وطلق امرأته .

(٣) مشروعية استعمال الكنايات في المخاطبات فقد كنى إبراهيم عن المرأة بعتبة الدار .

(٤) مشروعية معانقة الولد للوالد وعكسها ، ويقاس عليهما غيرهما .

(٥) مشروعية استشارة الوالد ولدّه وطلب العون منه على أمره .

(١) كناية عن امرأته .

(٦) قَدِمَ الْبَيْتَ الْعَتِيقَ ، وَإِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وَضَعَ لِلنَّاسِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وَضَعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بَيْكَةً مُبَارَكًا وَهَدَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴾ .

بناء إبراهيم عليه السلام للبيت العتيق

ولما وافق إسماعيل على إعانة والده على بناء البيت شرع إبراهيم في البناء ، وقد هداه ربّه تعالى إلى مكانه الذي كان به رفعه^(١) عام الطوفان ، أو هدمه بفعل السيول الجارفة ، وعدم وجود من يقوم ببناؤه ، فأخذ إبراهيم يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان ما أخبر تعالى به عنهما في قوله : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ .

ولما ارتفع البناء جاء إسماعيل بحجر كبير مرتفع فصار إبراهيم يعلو فوقه ويواصل رفع البناء حتى فرغ ، وبقي الحجر تحت جدار البيت وقد ارتسمت عليه قَدَمَا إبراهيم وهو صُلْبٌ ليس برطب لتكون آية للعالمين .

ولما جاء الإسلام — ومرحبًا به — شرع الله تعالى الصلاة خلفه ؛ إذ قال تعالى من سورة البقرة : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ .

ولما فرغ إبراهيم من بناء البيت أمره الله تبارك وتعالى أن يُؤذِّنَ في الناس بالحج . كما قال : ﴿ وَأُذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ .

(١) ذكر أهل العلم قولين في البيت منهم من قال : إن الله تعالى رفعه قبل الطوفان ومنهم من قال : لم يرفعه وإنما انهدم بمفعول الطوفان كغيره من سائر المباني والله أعلم بأى القولين أصح .

فطلع إبراهيم عليه السلام على جبل أبى قُبَيْس وهو من أقرب الجبال إليه ،
ونادى باسم الله تعالى قائلا : أيها الناس إن ربكم بنى لكم بيتاً فَحُجُّوهُ ،
والتفت بندائه يميناً وشمالاً كما يَلْتَفِت المُوْذِن اليوم فى أذانه للصلاة ، فأَسْمَعَ
الله تعالى نداءه كل نسمة خلقها الله تعالى فمن لبث حجت ، ومن لم ثَلَب
لم تحج أبداً . ومعنى لَبَث : قالت : لَبَّيْكَ اللهم لييك أى أجبت طلبك مرّة
بعد مرّة .

نتائج هذه المقطوعة من الحديث :

لهذه المقطوعة من سيرة الحبيب العطرة نتائج نجم لها فيما يلى :

- (١) تقرير بناء إبراهيم للبيت العتيق شرفه الله وكرمه .
- (٢) بيان تعاون إبراهيم مع ولده إسماعيل على بناء البيت .
- (٣) بناء البيت كان على أسس وقواعد قديمة كان عليها قبل حادثة الطوفان
وفى هذا ترجيح للقول بأن البيت كان من عهد آدم عليه السلام .
- (٤) ارتسام قَدَمَيَّ إبراهيم على صخرة المقام آية خالدة من آيات الله تعالى
التي كان يعطيها الأنبياء عليهم السلام .
- (٥) تقرير القول بأن الأرواح مخلوقة قبل خلق أجسامها ، وأن الملك الموكل
بالأرحام ينفخها فى المضغة بإذن الله تعالى فتسرى فيها فتحيا .

بداية أمر الحبيب

محمد ﷺ

إنه أثناء قيام إبراهيم وولده إسماعيل ببناء البيت العتيق كانا عليهما السلام
يتقاولان ما أخبر به تعالى عنهما فى قوله : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ
يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴾ إذ الضمير فى قوله ﴿ فِيهِمْ ﴾ عائد على ذرية إسماعيل وإبراهيم
عليهما السلام . فكان هذا مَبْدَأُ أمر الحبيب محمد ﷺ .

وقد قرر هذه الحقيقة بنفسه ﷺ : إذ سئل عن مبدأ أمره فقال : « أنا دعوة أبى إبراهيم^(١) وبشارة أخى عيسى عليهما السلام » .

إسماعيل وذريته

لقد عاش إسماعيل بجوار البيت العتيق وفي مكة أصهاره من قبيلة جرهم
اليمانية القحطانية ، وقد نبىء فيهم ، وأرسل إليهم وإلى كافة من بالحجاز من
العماليق . وأنجب إسماعيل أولادًا بلغوا اثنى عشر ولدًا منهم نابت وهو أكبرهم
وهو حلقة السلسلة الذهبية المحمدية ، فنابت من أولاد إسماعيل الاثنى عشر
هو الذى اختير لأن يكون من آباء دعوة إبراهيم وإسماعيل ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ
رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ . واختفت حلقات السلسلة الذهبية فيما بين نابت وعدنان
لظروف غامضة غير معروفة . وكان عدد الآباء ما بين نابت بن إسماعيل
وعدنان يقدر بستة آباء ، والجميع عاشوا بالحرم المكي ولم يخرجوا منه . ومع
هذا لم تضبط أسماء هؤلاء الآباء الستة وصاحب النسب الزكى الشريف حبيب
الأحباء وسيد الأنبياء محمد ﷺ انتهى بذكر نسبه جازمًا بما ذكر إلى عدنان ،
ثم سكت وقال : كذب^(٢) النسابون . قال تعالى : ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ
كَثِيرًا ﴾ فلهذا كان الانتهاء إلى حيث انتهى النبى ﷺ بنسبه أولى .

نتائج هذه المقطوعة :

لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج هي كالاتى :

- (١) النسب الشريف بين إسماعيل وعدنان مجهول ولا يصح الجزم بما ذكر
النسابون حيث بلغوا بالنسب الشريف إلى آدم عليه السلام .
- (٢) صحة النسب الزكى من عدنان إلى عبد الله بن عبد المطلب والد
النبى ﷺ بالصحة لا يخالطها شك قط .

(١) صح هذا الخبر بروايات سليمة صحيحة .

(٢) علم عليه السيوطى فى جامعہ بالصحة .

(٣) توهين أقوال النسابين وعدم الجزم بما يقولون .

سلسلة الطهر

النسب الشريف

بين يدى الحديث عن سلسلة الطهر الذهبية أقدم كلمة عن العرب موجزة لما لهم من شرف الأصل ، وطيب المختد فأقول : إن العرب بأقسامهم الثلاثة : العرب البائدة ، والعاربة ، والمستعربة يعودون إلى أصل واحد هو سام بن نوح عليه السلام . أمّا الذى ينسب إليه العرب ويعرفون به فهو يعرب بن يشجب ابن قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح الرسول عليه السلام .

العرب البائدة :

إن العرب الذين بادوا أى هلكوا هم طَسَمٌ وجليس^(١) ، وعاد وثمرود هكذا يقول النسابون والمؤرخون . فأما طسم وجديس فقد اقتتلوا أى قاتل بعضهم بعضا حتى هلكوا جميعا ، وأما عاد وثمرود فقد أصروا على الشرك والتكذيب لرسولهم هود وصالح عليهما السلام حتى أهلكهم الله تعالى ، وقد جاءت أخبارهم فى القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ^(٢) * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ .

العرب العاربة :

إن العرب العاربة هم الأصلاء فى نسبهم إلى يعرب بن يشجب بن قحطان ، ولذا يقال لهم القحطانيون وبنو عمهم هم العمالقة^(٣) الذين يسكنون الحجاز

(١) ثمود أخو جديس .

(٢) الطاغية هى الصيحة التى أخذتهم وقيل فيها طاغية لأنها تجاوزت الحد فى صوتها .

(٣) العمالقة هم أولاد عملاق ، وبنو أميم هم أولاد أميم ، وعملاق وأميم هما أولاد لاوذ بن سام بن نوح .

والشام ودخلوا مصر وتفرقوا في البلاد المجاورة للجزيرة العربية ، وبنو أميم أيضاً وقد لازموا الجزيرة ولم يخرجوا منها . أما القحطانيون وهم أولاد يعرب بن يشجب بن قحطان فقد لازموا الديار اليمنية زمناً ، ثم تفرقت قبائلهم^(١) في الجزيرة والشام^(٢) ومن قبائلهم الذين^(٣) سكنوا الحجاز قبيلة جرهم التي سكنت مكة بإذن هاجر أم إسماعيل عليه السلام .

العرب المستعربة :

إن العرب المستعربة هم أولاد إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام وقيل لهم العرب المستعربة ، لأن إبراهيم عليه السلام لم يكن من أولاد يعرب وإنما كان من أولاد عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، ولذا كانت لغته غير العربية وهي السريانية لغة الكلدانيين من سكان بابل العراق كما تكلم بلغة الكنعانيين بالشام أيضاً عند هجرته إلى الشام ، ولم يتكلم بالعربية .

وأما إسماعيل عليه السلام فإنه بحكم نشأته بين أفراد قبيلة جرهم اليمنية القحطانية التي سكنت مكة بإذن والدته هاجر كما تقدم تعلم العربية ونفس أهلها فيها أى تفوق عليهم فيها بياً وأدباً وبلاغة ، كما تعلمها أولاده منه ومن أمهم السيدة بنت مضاض الجرهمية ومن أخوالهم المجاورين لهم بمكة أيضاً ؛ فلهذا قيل لهم العرب المستعربة نظراً إلى أن جدهم غير عري وهو إبراهيم ، وإن ولده إسماعيل استعرب هو وبنوه حيث تعلموا لغة العرب وتكلموا بها وفازوا فيها ، ومن هنا قيل في القبائل العدنانية^(٤) عامة العرب المستعربة .

(١) من أشهر قبائلهم حمير وكهلان .

(٢) ممن سكن الشام لحم وجذام وأولاد جفنة ملوك الشام .

(٣) وكذا طيء إذ سكنوا شمال الحجاز ، وسكن الأوس والخزرج المدينة النبوية حيث نزلها جدهم ثعلبة بن عمرو الأزدي مهاجراً من اليمن بعد خراب سد مأرب بمفعول سيل العرم الذي ذكره الله تعالى في سورة ساء .

(٤) نسبة إلى عدنان أحد أبناء ذرية إسماعيل عليه السلام .

عودة سريعة إلى النسب الشريف

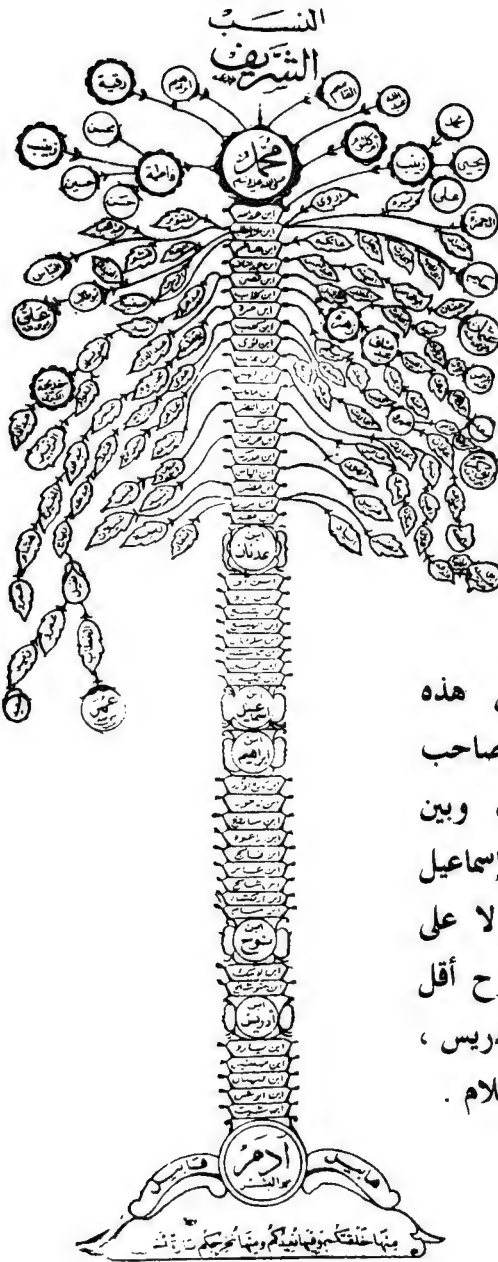
سبق أن ذكرنا أن النسب الشريف ما بين إسماعيل وعدنان فيه غموض وخفاء حتى إن صاحب النسب الشريف عليه السلام قال : لا ترفعوني فوق عدنان . ولذا فكل ما يحسن أن يقال هو أن أولاد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وهم اثنا عشر ولدًا عاشوا مع أخوالهم من جرهم ، ونبئهم ورسول الله إليهم أجمعين هو إسماعيل عليه السلام . وكان من بين أولئك الإخوة نابت وقيدار ، والإجماع على أن عدنان هو ابن أحدهما لا محالة ثم إن عدنان أنجب من البنين عَكَّا وَمَعْدًا ، أما عك فقد نزع إلى اليمن وعاش بها مع أصهاره الأشعرين . وأما معدُّ فقد بقي بِمَكَّة وأنجب من البنين نزارًا ، وقضاعة ، وقُصْصًا ، وإيادًا ، أمَّا قُصْصٌ فقد هلك بنوه إلا قليلا منهم وكان منهم النعمان ابن المنذر . وأما إياد فقد أنجب قبيلة والنسبة إليها إيادى ومنهم قس بن ساعدة الإيادى . وأما قضاعة فقد نزحت إلى حمير باليمن وأقامت بها . وأما نزار فقد عاش بالحرم كأخيه إياد وأنجب مضرًا وربيعة وأنمارًا . وأنجب مضر إلياس وعيلان ، وأنجب إلياس مدركة^(١) وطابخة وقمعة ، وأنجب مدركة خزيمية ، وهذيلًا ، وأنجب خزيمية كنانة وأسدًا ، وأسدة والهُون . وأنجب كنانة ملكان والنضر ومالكًا وعبد مناة . وأنجب النضر وهو أبو قيس حيث كافة قبائلها تعود إليه أنجب مالكًا ومخلدًا وأنجب مالك بن النضر فِهْرًا^(٢) . وأنجب فهر غالبًا ومحاربًا والحارث وأسدًا . وأنجب غالب بن فهر لؤيًّا وتيمًا وقيسًا ، وأنجب لؤى بن غالب كعبًا وعامرًا وسامة وعوفًا . وأنجب كعب بن لؤى مرة وعديًا

(١) اسم مدركة عامر واسم طابخة عمرو واسم قمعة عمير والأسماء المذكورة ألقاب لهم لقبوا بها لحادثة معروفة .

(٢) اسمه قريش أو لقب له وهو أب قريش الأول .

وَهَصِيصًا . وَأَنْجَبَ مَرَّةُ بْنُ كَعْبٍ كِلَابًا وَتَيْمًا وَيَقْظَةً . وَأَنْجَبَ كِلَابُ بْنُ
مَرَّةٍ قَصِيًّا وَزُهْرَةَ ، وَأَنْجَبَ قَصِيٌّ بْنُ كِلَابٍ عَبْدَ مَنْفٍ ، وَعَبْدُ الدَّارِ ،
وَعَبْدُ الْعُزَى وَعَبْدُ قَصِيٍّ . وَأَنْجَبَ عَبْدُ مَنْفٍ بْنُ قَصِيٍّ هَاشِمًا وَعَبْدَ شَمْسٍ
وَالْمَطْلَبَ وَنُوفَلَ . وَأَنْجَبَ هَاشِمُ بْنُ عَبْدِ مَنْفٍ عَبْدَ الْمَطْلَبِ ، وَأَسَدًا وَأَبَا صَيْفَى
وَنُضْلَةَ . وَأَنْجَبَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ الْعَبَّاسَ وَحَمْزَةَ وَعَبْدَ اللَّهِ وَأَبَا طَالِبَ وَالزَّيْبَرَ
وَالْحَارِثَ وَحَجَلًا وَالْمَقُومَ وَضُرَّارًا وَأَبَا لَهَبٍ .

شجرة النسب الشريف



تنبه المقطوع بصحته من هذه
 الشجرة المباركة هو ما بين صاحب
 النسب الشريف محمد ﷺ ، وبين
 عدنان . وما بين عدنان إلى إسماعيل
 وإبراهيم مقطوع بصحته لكن لا على
 التعيين . وما بين إبراهيم إلى نوح أقل
 صحة ، وهكذا ما بين نوح وإدريس ،
 وما بين إدريس وآدم عليه السلام .

قبل الفجر المحمدي

حالة العرب السياسية

والاقتصادية ،

والاجتماعية ،

والدينية

لقد اجتمعت كلمة المؤرخين عامة على أن العالم الإنساني قاطبة ، والعالم العربى بصورة خاصة كان يعيش فى دياجير ظلام الظلم والجهل ، وظلمات الطغيان والاستبداد ، تتنازعه الإمبراطوريتان الفارسية شرقا ، والرومانية غربا . ويؤكد هذه الحقيقة قول الحبيب محمد ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى سَكَانِ الْعَالَمِ فَمَقَّتَهُمْ ^(١) عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ جَمِيعًا إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ » ^(٢) . فالأحوال متردية ساقطة هابطة فى العالم الإنساني بأسره ، لا سيما فى العالم العربى حيث الفساد فى كل جوانب الحياة السياسية منها كالاقتصادية ، والاجتماعية كالدينية الكل سواء .

وهذه نظرة خاطفة نلقيها على ديار العرب ، وكلمة عابرة نقولها على تلك الأوضاع المتدهورة المتهاككة ، يُعرف مدى الحاجة إلى فجر النبوة المحمدية لتبديد تلك الظلم المتراكمة ، وإبعاد تلك الولايات الملازمة للحياة الخاصة والعامة فى ربوع ديار العروبة قاطبة ؛ إذ لا فرق بين يمنها وشامها ، ولا بين

(١) الحديث أخرجه مسلم فى كتاب الجنة ضمن خطبة له ﷺ .

(٢) يعنى من اليهود والنصارى ، ومعنى مقَّتَهُمْ : اشتد بغضه لهم إذ المقت شدة البغض .

حجازها ونجدها . ولتَعْظُمَ عند ذى الوعى العاقل مِنّة أنوار الفجر المحمدي
التي ستغمر الجزيرة والكون من ورائها هداية ونورًا .
ولنبداً بالحالة السياسية في بلاد العرب .

الحالة السياسية

في بلاد العرب

إن مُجمل القول في الحالة السياسية في بلاد العرب هو أن بلاد العرب
وهي شبه جزيرة لوقوعها بين ثلاثة أبحر ؛ الأحمر غربًا ، والهندي جنوبًا ،
والخليج شرقًا من المناطق السياسية ذات الأثر على الحياة الاجتماعية . ففي اليمن
حيث ملوك حمير من التبابعة وغيرهم . والحيرة شرقًا إلى العراق حيث
المناذرة ، والشمال حيث الغساسنة . أما الوسط وهو نجد والحجاز وتهامة فإنه
دائرة المجد ، وموضع طلوع الفجر ، فأرض حماها مولاها من سطوة الجبابة ،
وسياسة المتاجرة ، فلم تصل إليها يد الأحباش الأوباش ، ولا يد الفوارس
الأنجاس ، ولا يد الروم ولا الرومان الأنكاس ، لأنها مشرق الأنوار ، ومكمن
الأسرار ، وعما قريب يطلع نجمُها ويعلو كعبها ، وتسود الدنيا وما فيها .

فالبلاذ اليمنية تداولتها ملوك حمير من التبابعة وغيرهم كما حكمها في فترات
ملوك الأحباش مباشرة أحيانًا ، وبواسطة أبنائها أحيانًا أخرى ، وقد عظم ملك
اليمنيين أحيانًا حتى غزوا الشرق ووصلت طلائع جنودهم إلى بلاد فارس
متجاوزة أرض العراق إلى أعماق الشرق . وآخر ملوكهم ذو نواس وهو
صاحب الأخدود وكان يهودي العقيدة ، فكان آخر ملوك حمير ببلاد اليمن .
كما أن آخر ملوك التبابعة باليمن كان أبا كرب تَبَّان بن أسعد الذي غزا المدينة
ودخل مكة وكسا الكعبة المشرفة وعاد إلى اليمن ، وهلك بها .

وأما المناذرة بالحيرة فإن ملوكهم وآخرهم النعمان بن المنذر كانوا تابعين
في الغالب لملوك إيران . وكذلك الحال بالنسبة إلى الغساسنة بأرض الشام فإنهم

تابعون في الغالب للملوك الروم . مع العلم بأن ملوك الحيرة كملوك الشام أصلهم يمنيون نزحوا من اليمن بعد خراب سد مأرب ، بواسطة سيل العرم ، والأوس والخزرج بالمدينة النبوية وطبىء بجبل طبىء شمالا الكل من مهاجرى اليمن بعد خراب سدهم الذى كان مصدر غناهم وثروتهم ، إذ أرسل الله تعالى عليهم سيل العرم عقوبة لهم بعد ما ظلموا . قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ ^(١) فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ أى عن طاعة الله وطاعة رسوله ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ .

وأما العدنانيون وهم سكان مكة وما حولها من ديار تهامة والحجاز فمجمل القول في الحالة السياسية عندهم : أن قبيلة جرهم التى استوطنت مكة مع هاجر أم إسماعيل وعاشت زمناً في ظل حكم إسماعيل وأحفاده إلى أن استولت على الحكم بمكة وانتزعت من يد أبناء إسماعيل عليه السلام وبقي الحكم في جرهم إلى أن جارت وظلمت واستحلت المحرم في مكة فسلط الله تعالى عليها - كما هى سنته تعالى في الظالمين المعرضين عن طاعة الله وطاعة رسوله - بنى بكر من كنانة ، وغبشان خزاعة ^(٢) فأجلوهم عن مكة وهم ييكون فالتحقوا باليمن ديارهم الأولى والأبيات التالية ترسم صورة صادقة لجرهم بمكة وحزنها عند جلائها عنها :

وقائلةٍ والدمعُ سكبٌ مبادِرُ وقد شَرِقتْ بالدمع منها المحاجرُ
كَأَنَّ لم يكنُ بينَ الحُجُونِ إلى الصفا أنيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكة سامرُ
فقلتُ لها والقلبُ متى كأتما يُلجَلجُهُ بينَ الجناحَيْنِ طائرُ
بلى ، نحنُ كُنَّا أهلها فأزالنا صروفُ الليالى والجدود العواثرُ

(١) اسم أى قبيلة سبأ وكان يسمى عبد شمس فلما سبى وكان أول من سبى قالوا فيه سبأ .

(٢) خزاعة قبيلة يمانية قحطانية وسميت خزاعة لأنها تخزعت أى تأخرت بمكة وأقامت بها ، وذلك عند هجرة أهل اليمن بعد خراب سد مأرب .

وكنا ولاية البيت من بعد نابت
ونحن ولينا البيت من بعد نابت
ملكننا فعزّزنا فأعظم بملكننا
فليس لِحَيِّ غيرنا ثم فاحر
نطوف بذاك البيت والخير ظاهر
بعزّ فما يحظى لدينا المكائر
إلى أن قال :

وصرنا أحاديثًا وكنا بغطّة
فسحت دموع العين تبكى لبلدّة
وتبكي لبيت ليس يؤذى حمامه
وفيه وحوش لا تُرام أنيسة
بذلك عَفَّتْنا السنون الغوابرُ
بها حَرَمٌ أَمْنٌ وفيها المشاعرُ
يظل به أَمْنَا وفيه العصافرُ
إذا خرجت منه فليست تُغادرُ
ولاية قصيّ بن كلاب :

وبعد مرور زمن طويل ومكة يحكمها بنو بكر وغُبْشان^(١) خزاعة أى من
يوم انتزعوا الحكم من يد جرهم تغلبت غبشان خزاعة على بنى بكر واستقلوا
بالولاية وتداولوها زمناً ، وكان آخر من وليها منهم حُلَيْل بن حُبْشِيّة بن سلول
الخزاعى ، فخطب ابنته حُبَيّ قصيّ بن كلاب فزوّجه إياها فولدت له
عبد الدار ، وعبد مناف وعبد العزّى ، وعبدًا وكبروا وكثر ما لهم وعظم
شرفهم ، ومات حُلَيْل فرأى قصيّ أنه وبنه أولى بولاية الكعبة فكلّم رجلا
من قريش وبنى كنانة طالبًا نصرتهم فأعانوه على إخراج خزاعة وبنى بكر
فأخرجوهم واستتب الأمر لقصيّ وبنه بعد قتال شديد بينهم وبين خزاعة وبنى
بكر انتهى بصلح وتحكيم عمرو بن عوف الكنانى ، كانت نهايته ولاية قصيّ
على مكة والكعبة فجمع قصيّ قومه من قريش من منازلهم إلى مكة وملكوه
فكان أول أمير من قريش فى مكة المكرمة ، وكانت له الحجابة والسقاية
والرفادة ، والندوة واللواء ، وبهذا حاز شرف مكة كله .

(١) أبو غبشان يقال له سليم وهو من خزاعة .

وَجَمَعَ قَصَى قِبَائِل قَرِيشَ فِي مَكَّةَ وَالْحَرَمِ ، وَبَذَلَكَ سُمِّيَ مُجْمَعًا ، وَفِيهِ يَقُولُ الشَّاعِرُ :

قَصَى لَعْمَرَى كَانَ يُدْعَى جَمْعًا بِهِ جَمَعَ اللَّهُ الْقِبَائِلَ مِنْ فَهْرٍ
حَقَائِقُ وَعَبْرُ :

مِنْ اسْتِعْرَاضِنَا لِلْحَالَةِ السِّيَاسِيَّةِ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ نَسْتَخْلَصُ الْحَقَائِقَ التَّالِيَةَ :

(١) إِنَّ الْبِلَادَ الْإِمَانِيَّةَ اعْتَوَرَتْهَا حُكُومَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ أَعْظَمُهَا حُكُومَاتُ التَّبَاعَةِ مِنْ قَبِيلَةِ حَمِيرٍ .

(٢) إِنَّ كَلَامَ مِنَ الْأَحْبَاشِ وَالْفَوَارِسِ قَدْ اسْتَعْمَرُوا الْيَمْنَ بِوِاسْطَةِ الْيَمَنِيِّينَ الَّذِينَ يَسْتَنْجِدُونَهُمْ فِي ظُرُوفٍ مُعَيَّنَةٍ .

(٣) شَرْقَ الْجَزِيرَةِ مِنَ الْحَيْرَةِ إِلَى الْعِرَاقِ لَمْ يَكُنْ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا وَلايَاتٌ تَابِعَةٌ لِلْحَكْمِ الْفَارِسِيِّ طِيلَةَ الدَّهْرِ حَتَّى جَاءَ الْإِسْلَامُ ، وَأَنَّ مَلُوكَ الْمَنَازِرَةِ لَمْ يَكُونُوا مُسْتَقْلِلِينَ فِي الْغَالِبِ ، وَإِنَّمَا هُمْ تَابِعُونَ سِيَاسِيًّا لِلْحَكْمِ الْفَارِسِيِّ الْجَوْسِيِّ .

(٤) شَمَالَ الْجَزِيرَةِ كَشَرَقِهَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ فِي الْغَالِبِ حَكْمٌ عَرَبِيٌّ خَالِصٌ ، وَإِنَّمَا كَانَ تَابِعًا لِحَكْمِ الرُّومِ وَالْغَسَاسِنَةِ فِيهِ كَالْمَنَازِرَةِ فِي الشَّرْقِ سَوَاءً بِسَوَاءٍ .

(٥) وَسَطَ الْجَزِيرَةِ حَيْثُ الْحَرَمُ وَمَا جَاوَرَهُ مِنْ دِيَارِ الْعَرَبِ الْعَدْنَانِيِّينَ كَانَ مُسْتَقْلِلًا لَمْ يَحْكَمْهُ الرُّومُ وَلَا فَارِسٌ وَلَا الْأَحْبَاشُ كَرَامَةَ اللَّهِ تَعَالَى لِحَرَمِهِ وَسَكَانِهِ وَجِيرَانِهِ وَهِيَ عِبْرَةٌ لِمَنْ اعْتَبَرَ . وَحَتَّى عَهْدَ الْاسْتِعْمَارِ الْغَرْبِيِّ الَّذِي حَكَّمَ الْعَالَمَ الْإِسْلَامِي فَإِنَّهُ لَمْ يَحْكَمْ هَذِهِ الدِّيَارَ الطَّاهِرَةَ كَرَامَةَ اللَّهِ لِحَرَمِهِ وَحَرَمِ حَبِيبِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَسَكَانِهَا وَجِيرَانِهَا .

وَفِي هَذِهِ الْمَقْطُوعَةِ مِنَ الْعَبْرِ مَا يَلِي :

(١) إِنَّ الظُّلْمَ لَا يَدُومُ^(١) وَإِنْ طَالَ زَمَانُهُ سَنَةُ اللَّهِ وَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا .

(١) إِشَارَةٌ إِلَى ظُلْمِ جَرَمِهِمْ وَجَلَاتِهَا ، وَظُلْمِ خِزَاعَةِ وَغِيْشَانِهَا وَجَلَاتِهَا .

(٢) حماية الله لبلده وحرمة بإهلاك وإبعاد كل من يظلم فيهما ويستبيح المحرم فيهما .

(٣) من فضائل قريش الرفادة والسقاية^(١) ؛ إذ الرفادة هي جمع المال من أفراد القبائل القرشية سنوياً وإنفاقه في إطعام الحجاج كل عام والسقاية كذلك وهي إحضار الماء محلياً أحياناً بالزبيب وسقى الحجاج أيام حجهم من كل عام .

الحالة الاقتصادية

في بلاد العرب

إن بلاد العرب بأقسامها الآتفة الذكر لم يكن فيها اقتصاد ذو قيمة تُذكر بَوَادٍ صحراوية ، إلا ما كَانَ من بلاد اليمن فقد كانت بلاداً خصبة في الجملة ولا سيما أيام سد مأرب حيث ازدهرت الزراعة والفلاحة عامة بصورة تدعو إلى العجب ، وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم إذ قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ فلم يشكروا وأعرضوا عن طاعة الله ورسوله ، فسلبهم الله تعالى ما أعطاهم فخرّب سدهم ، وأجدت أرضهم ، ورحل عنها أكثرها فالتحق بعضهم بالعراق وبعضهم يثرب ومنهم الأوس والخزرج وآخرون بالشمال والشام . ومع هذا فقد وجدت في اليمن صناعات فاخرة في وقتها كصناعة الكتان والسلاح من سيوف وحرا ب ودروع وغيرها .

هذا بالنسبة إلى أهل اليمن ، أما القبائل العدنانية فكان جلها يعيش في الصحراء ينتجع الكلاء والعشب لماشيته ، ويعيش على ألبانها ولحومها إلا ما كان

(١) كانت قبائل قصى تنقسم هذه المكارم لكل قبيلة لهم منها وقد كانت السقاية لآل العباس ، والحجاجة لبنى عبد الدار .

من قبائل قريش القاطنين بالحرم ، فإنهم يعيشون على رحلتى الشتاء إلى اليمن والصيف إلى الشام ، وقد امتن الله تعالى ذلك عليهم فى قوله : ﴿ لَا يَلَا فِ قُرَيْشٍ إِيْلَفُهُمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾ فكانوا فى رغد من العيش ، على خلاف غيرهم ، فإنهم كانوا يعيشون على شظف العيش وضيقه ، وما كان لقريش من سعة الرزق إنما كان لها من أجل حماها للحرم وتقديسها له ، كما هو كرامة الله لأرحام وأصلا ب يتنقل فيها رسول الله ﷺ .

نتائج هذه المقطوعة :

لهذه المقطوعة من السيرة العطرة ما يلى :

(١) بيان أن الاقتصاد فى بلاد العرب بصورة عامة لا يعتبر شيئا يذكر إلى جانب غيره فى البلاد الأخرى .

(٢) بيان أن شمال بلاد اليمن كان ذا اقتصاد لا بأس به لوجود خصب وصناعة .

(٣) خراب سد مأرب وهجرة أهله من بلادهم كان نقمة إلهية سببها الكفر والإعراض عن طاعة الله ورسوله .

(٤) بيان إكرام الله تعالى لقريش بتحقيق أهم هدف للإنسان فى هذه الحياة ، وهو الأمن من الخوف ، والإطعام من الجوع .

(٥) وجوب شكر الله تعالى على نعمه إذ طلب ذلك من قريش بقوله : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ والعبادة هى الشكر وأعظمها إقامة الصلاة فمن لم يصل ما شكر .

الحالة الاجتماعية

فى بلاد العرب

إن الفترة التى عاشتها الأمة العربية بدون وحى إلهى ولا من يحمل هدايته

كانت طويلة جدًا وهى تلك التى كانت بين إسماعيل والنبي الخاتم محمد ﷺ .
فلذا نشأت فى المجتمع العربى عادات سيئة للغاية ، وأخرى حسنة للغاية أيضًا
إلا أنها قد أخفتها العادات السيئة . وإنى ذاكر من كل منهما طرفًا ، وبذلك
تعرف بوضوح الحالة الاجتماعية للأمة العربية فى الجاهلية قبل الإسلام ، والقصد
من ذكر ذلك أن تعرف السيئة لتجتنب والحسنة لترتكب ، ويحمد الله ويشكر
على ما من به على أمة العرب من نعمة الإسلام . وبهذا نكون قد توخينا ما
يتوخاه العلماء من كتابة التاريخ وقراءته .

العادات السيئة :

من جملة العادات السيئة التى هبطت بالمجتمع العربى قبل الإسلام هى :

(١) القمار والمعروف بالميسر ، وهذه عادة سكان المدن فى الجزيرة كمكة
والطائف وصنعاء وهجر ويثرب ودومة الجندل وغيرها وقد حرمه الإسلام بآية
سورة المائدة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ
رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .

(٢) شرب الخمر والاجتماع عليها والمباهاة بتعتيقها وغلاء ثمنها ، وكان هذا
عادة أهل المدن من أغنياء ، وكبراء وأدباء شعراء ، ولما كانت هذه العادة
متأصلة فيهم متمكنة من نفوسهم حرمها الله تعالى عليهم بالتدرج شيئًا فشيئًا ،
وذلك من رحمة الله تعالى بعباده فله الحمد وله المنة .

(٣) نكاح الاستبضاع وهو أن تحيض امرأة الرجل منهم فتطهر فيطلب
لها أشراف الرجال وخيارهم نسبًا وأدبًا ليطؤوها من أجل أن تنجب ولدًا يرث
صفات الكمال التى يحملها أولئك الواطعون لها .

(٤) وأد البنات وهى أن يدفن الرجل ابنته بعد ولادتها حية فى التراب
خوف العار . وجاء فى القرآن الكريم التنديد بهذا العمل وتقبيحه وذلك بذكر
توبيخ فاعله يوم القيامة . قال تعالى من سورة التكويد : ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ

سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ؟ .

(٥) قتل الأولاد مطلقاً ذكوراً كانوا أو إناثاً ، وذلك عند وجود فقر وحالة مجاعة ، أو لمجرد توقع فقر شديد عند ما تلوح في الأفق آثاره لوجود محل وقحط بانقطاع المطر أو قلته . فحرم الإسلام هذه العادة السيئة القبيحة بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ﴾ في آية الأنعام ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ ﴾ في آية الإسراء . والإملاق شدة الفقر وعظمه .

(٦) تبرّج النساء بخروج المرأة كاشفة عن محاسنها مارة بالرجال الأجانب متغنجة^(١) في مشيتها متكسرة كأنها تعرض نفسها وتُغري بها غيرها .

(٧) اتخاذ الحرائر من النساء الأخدان من الرجال وذلك بالاتصال بهم وتبادل الحب معهم في السرّ وهم أجنب عنهن ، فحرم الإسلام هذه العادة بقوله تعالى : ﴿ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾ من سورة النساء ، وحرّم على الرجال ذلك بقوله من سورة المائدة : ﴿ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾ .

(٨) إعلان الإماء عن البغى بهن وذلك بأن تجعل إحداهن راية حمراء على باب منزلها لتعرف أنها بغية ويغشاها الرجال وتأخذ على ذلك أجراً أى مالاً مقابل الاستبضاع .

(٩) العصبيّة القبلية وهي مبدأ : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » فجاء الإسلام فأمر بنصرة الأخ المسلم قريباً كان أو بعيداً ، إذ الأخوة المعتبرة هنا هي أخوة الإسلام . ونصرته إذا كان مظلوماً بدفع الظلم عنه ، ونصرته إذا كان ظالماً بمنعه من الظلم وحجزه عنه ، قال رسول الله ﷺ في رواية البخاري : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » ، فقيل يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً : فكيف أنصره إذا كان ظالماً ؟ قال : « تحجزه عن الظلم » .

(١٠) شن الغارات والحروب على بعضهم بعضاً للسلب والنهب فالقبيلة

(١) تغنجت المرأة : تدللت على زوجها بملاحة ، كأنها تخالفه وليس بها خلاف .

القوية تغيير على الضعيفة لتسلبها مالها ؛ إذ لم يكن لهم حكم ولا شرع يرجعون إليه في أغلب الأوقات وفي أكثر البلاد .

ومن أشهر حروبهم حرب داحس والغبراء التي وقعت بين عبس من جهة وذبيان وفزارة من جهة أخرى . وحرب البسوس حتى قيل : أشأم من حرب البسوس التي دامت كذا سنة وكانت بين بكر وتغلب . وحرب بُعث التي وقعت بين الأوس والخزرج بالمدينة النبوية قبيل الإسلام . وحرب الفجار التي دارت بين قيس عيلان من جهة وبين كنانة وقريش من جهة مقابلة ، وسميت حرب الفجار لأنها وقعت في الأشهر الحرم .

(١١) عدم الامتحان تكبراً وأنفة ؛ إذ كانوا لا يمتنون الحداثة والحياكة والحجامة ولا الفلاحة ، وإنما يسندون هذه المهن لإمائهم وعبيدهم . أما الأحرار فحسبهم التجارة وركوب الخيل وشن الغارات وإنشاد الشعر والمفاخرات بالأحساب والأنساب .

هذه معظم العادات السيئة التي كانت في المجتمع العربي قبل الإسلام وهي كما مرّت تحيل المجتمع إلى مجتمع ساقط هابط لا سعادة فيه ولا هناء إلا أنه إزاء ذلك كانت فيه كمالات نوردها تحت عنوان :

العادات الحسنة هي :

(١) الصدق والمراد به صدق الحديث وهو خلق كريم عرف به العرب في الجاهلية قبل الإسلام فزاده الإسلام تقريراً وتمتيناً .

(٢) قرى الضيف وهو إطعامه ، وهو من الكرم الذي يحمد صاحبه عليه ، ويحمد له ويثنى به عليه فجاء الإسلام بتقريره وتأكيده إذ قال رسول الله ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » في رواية البخارى .

(٣) الوفاء بالعهود وعدم نكثها ومهما كلفت من ثمن وهو خلق سام شريف وجاء الإسلام بتقريره وتأكيده قال تعالى : ﴿ وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾ في بيان صفات المؤمنين من سورة البقرة .

(٤) احترام الجوار وتقرير مبدأ الحماية لمن طلبها ، وعدم خفزه مهما كانت الأحوال ، وفي الحديث : « أجزنا من أجزت يا أم هاني » وأجار المسلمون أبا العاص بن الربيع وهو مشرك حتى دخل المدينة واسترد ودائعه وأمواله وعاد إلى مكة ثم أسلم بعد .

(٥) الصبر والتحمل . حتى قالوا : « تجوع الحرة ولا تأكل بشديها » وجاء الإسلام فزاد هذا الخلق قوة ومتانة وفي القرآن : ﴿ اصْبِرُوا وَصَابِرُوا ﴾ وفي الحديث : « مَنْ صَبَرَ ظَفَرَ » .

(٦) الشجاعة والنجدة والأنفة وعدم قبول الذل والمهانة وهي خلال امتاز بها العرب نساءً ورجالاً ، وفي أشعارهم وأقاصيصهم شواهد ذلك .

(٧) احترام الحرم والأشهر الحرم ، بعدم القتال فيها إلا من ضرورة ، وتأمين الوافدين إلى الحرم ، ولو كانوا ذوى سوابق في الشر .

(٨) تحريمهم نكاح الأمهات والبنات .

(٩) اغتسالهم من الجنابة .

(١٠) المداومة على المضمضة والاستنشاق .

(١١) السواك والاستنجاء ، وتقليم الأظافر ، ونتف الإبط .

(١٢) الختان للأطفال . والخفاض للبنات .

(١٣) قطعهم يد السارق اليمنى .

(١٤) الحج والعمرة .

فهذه جملة من العادات الحسنة الحميدة التي عرف بها العرب في الجاهلية قبل الإسلام . وإنها وإن لم تكن عامة في كل فرد فإنها الطابع العام على غالبيتهم ولولا إرادة الاختصار ، وثقة القارئ فيما أقدمه له لذكرت شواهد ذلك من كلامهم ووقائعهم نظماً ونثراً ، وحسبنا من ذلك أن أبا سفيان بن حرب لما حضر عند هرقل ملك الروم بالشام وسأله عن النبي ﷺ لم يكتمه شيئاً مما سأله عنه ، مع العلم بأنه ما زال مشركاً وفي حرب مع الإسلام والمسلمين .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً لنا نبرزها للقارئ إزاء الأرقام الآتية :

(١) إن الصفات الذميمة كالحميدة لا تخلص كاملة لأية أمة من الأمم مهما كان رُقيها أو انحطاطها ، وإنما العبرة بالحال الغالبة فقط . فمتى غلبت الصفات الحميدة كان المجتمع راقياً صالحاً ، ومتى غلبت الصفات الذميمة كان المجتمع هابطاً فاسداً .

(٢) لما جاء الإسلام وهو دين الله عز وجل الذي لا يقبل دينا سواه أقر العادات الحسنة ورغب فيها وواعد عليها بحسن المثوبة حتى أصبحت دينا يتقرب بها إلى الله عز وجل .

وأبطل العادات السيئة الذميمة ، ونفّر منها ، وتوعّد عليها بالعذاب ، ووضع لبعضها حدوداً رادعة ، فاقتلع جذورها وطهر المجتمع العربي منها ؛ إذ لا مقام لها بين أمة الإجابة والقيادة .

(٣) الخلال الحميدة كالذميمة صفات يُساعد على تأصل الأولى في الإنسان وتثبيتها فيه الإيمان والعلم ومجاهدة النفس ومقاومة الشيطان والهوى ويساعد على تأصل الثانية وبقائها في الإنسان الكفر والجهل واتباع الشيطان والشهوات والهوى .

(٤) ضعف الإيمان وقلة العلم في الأمة الإسلامية اليوم وقبل اليوم أصل فيها كثيرًا من عادات الجاهلية الأولى، وذلك كاللبرج، وارتكاب الفواحش وعدم احترام الحرم، وشرب المسكرات ولعب الميسر وإجهاض الحبال واستعمال الحبوب لمنع النسل خشية الفقر، وما إلى ذلك من الأفعال القبيحة التي كانت في الجاهلية وحرّمها الإسلام، وسبب عودتها ضعف الإيمان والجهل واتباع الأهواء والجرى وراء الشهوات والعياذ بالله تعالى.

الحالة الدينية في بلاد العرب

إن مما لا شك فيه أن هاجر أم إسماعيل كانت مسلمة، وأن ولدها إسماعيل كان مسلماً كأبيه إبراهيم وأمه هاجر، وأن الله تعالى نبأه وأرسله رسولاً إلى أهل بيته من زوجة وولد، وإلى أخواله وجيرانه من قبيلة جرهم اليمنية، وأن دين الله وهو الإسلام قد عمّمهم وانتظم حياتهم زمناً طويلاً لا يُعرف منتهاه.

وكما هي سنة الله في الناس إذا انقطع الوحي عليهم جهلوا وظلّوا كالأرض إذا انقطع عنها الغيث — المطر — أمحلت وأجدبت، وتحولت خضرتها ونضارتها إلى قفرة وظلام يجهل فيه الإنسان ذاته ويتنكر فيه لعقله.

وأول ما بدأ الشرك في العرب المستعربة من ولد إسماعيل أنهم كانوا إذا خرجوا من الحرم لطلب الرزق أخذوا معهم حجارة من الحرم، فإذا نزلوا منزلاً وضعوها عندهم وطافوا بها طوافهم بالبيت ودعوا الله عندها، وإذا رحلوا أخذوها معهم. وهكذا. وبموت من أحدث لهم هذا الحدث وبمرور الزمان نشأ جيل جاهل ينظر إلى تلك الأوثان من الحجارة وأنها آلهة يتقرب بها إلى الله تعالى رب البيت والحرم.

فكان هذا مبدأ الوثنية في أولاد إسماعيل من العدنانيين.

أما الأصنام والتماثيل فإن أول من أتى بها من الشام إلى الديار الحجازية عمرو بن لُحَيّ الخزاعيّ ، إذ سافر مرة من مكة إلى الشام فرأى أهل الشام يعبدون الأصنام ، فسألهم قائلاً : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا : نعبدها نستمطرها^(١) فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا . فقال لهم : أفلا تعطوني منها صنماً فأذهب به إلى بلاد العرب فيعبدوه ؟ فأعطوه صنماً يقال له : هُبَل وهو الذي نصبوه حول الكعبة وبقي حولها إلى يوم الفتح الإسلاميّ حيث حطم مع ثلثمائة وستين صنماً ، وأبعدت ، فطهر البيت الحرام ، وطهرت مكة والحرم منها ، والحمد لله رب العالمين .

وكان عمرو بن لُحَيّ محترماً في مكة مقدّساً عند أهلها ، يشرع لهم فيقبلون شرعه ، ويتندع لهم فيحسنون بدعته ، فكان أول من بدل دين إبراهيم وإسماعيل في الحجاز ويشهد بهذا قول النبي ﷺ في حديثه الصحيح : « رأيت عمرو بن لُحَيّ يجر قصبه^(٢) في النار .. إنه كان أول من غير دين إسماعيل فنصب الأوثان ، وبخر البحيرة ، وسب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وحَمَى الحامي .. » .

وبمقتضى بدعة عمرو بن لُحَيّ في جلب الأصنام إلى الحجاز من الشام انتشرت الأصنام في بلاد العرب ، وهذا بيان أسمائها ومواقعها ، والقبائل التي كانت تعبدها ، كما ذكر ذلك ابن إسحق وغيره من المؤرخين .

- (١) سواع يرْهَاط بِساحل ينبع تعبدته قبيلة هذيل المضرية .
- (٢) ود بدومة الجندل شمال المدينة قريبا من الشام تعبدته كلب القضاعية .
- (٣) يغوث بجُرَش يعبدته أهل جرَش ، وهم بمخاليف اليمن جنوب مكة المكرمة .

(١) نستمطرها : نطلب منها إنزال المطر .

(٢) القُصب : بوزن قفل ، اسم للأمعاء كلها .

(٤) يعوق بأرض همدان من أرض اليمن تبعده قبيلة حَيَوَان وهم بطن من همدان .

وفيه يقول قائلهم :

يريش^(١) الله في الدنيا ويرى ولا يرى يعوق ولا يرش

(٥) نسر بأرض حمير من اليمن وتبعده قبيلة ذو الكَلَاع من حمير .

(٦) عميانس^(٢) بأرض خولان تبعده قبيلة خولان اليمانية وهم الذين قسموا له أنعامهم وحروشهم ، ونزل فيهم قول الله تعالى من سورة الأنعام : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا ﴾ الآية .

(٧) سعد بأرض ملكان بن كنانة المضريّة وتبعده قبيلة ملكان وفيه يقول شاعرهم :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وهل سعد إلا صخرة بتنوفة^(٣) من الأرض لا تدعو لغيري ولا رُشد
وذلك أن هذا الشاعر أقبل بإبل مؤبلة ليقفها على سعد « الصنم » رجاء
بركته فلما رآته الإبل وكان ملطخاً بدم القربان نفرت الإبل وشردت فذهبت
كل مذهب فأخذ صاحبها حجراً وهو غضبان وضرب سعداً الصنم وقال له :
لا بارك الله فيك نفرت على إبلي ، ثم طلب إبله وجمعها بعد تفرقها ثم أنشد
يقول : أتينا إلى سعد ليجمع شملنا إلخ ..

(١) يقال راش السهم وبراه .

والمراد أن الله تعالى ينفع ويضر وأن يعوق الصنم لا ينفع ولا يضر .

(٢) لعله محرف عن « عم أنس » إذ لم يعثر في العربية اسم على هذا التركيب .

(٣) التنوفة من الأرض هي القفر التي لا تنبت عشباً ولا كلاً .

(٨) ذُو الْخَلْصَةِ بَنَاءُ جَنُوبِ مَكَّةَ بِلَادِ الْيَمَنِ وَكَانَتْ تَعْبُدُ دُوسَ وَخَثْعَمَ وَبَجِيلَةَ . وَهَذَا الصَّنَمُ بَعَثَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيُّ فَهَدَمَهُ عِنْدَمَا نَصَرَ اللَّهُ دِينَهُ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ الْحَمْدُ وَالْمُنَّةُ .

(٩) إِسَافٌ وَنَائِلَةٌ وَهُمَا صَنَمَانِ كَانَا بِالْكَعْبَةِ ثُمَّ وَضَعَ عَلَى الصِّفَا وَالْمَرْوَةِ كَانَتْ تَعْبُدُهُمَا قَرِيشٌ مِنْ جَمَلَةِ أَصْنَامِهَا . وَيُرْوَى أَنَّ أَصْلَهُمَا كَانَ رَجُلًا وَامْرَأَةً مِنْ جَرَاهِمَ فَجَرَا فِي دَاخِلِ الْكَعْبَةِ فَمَسَخَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى فَالرَّجُلُ يَدْعَى إِسَافًا وَالْمَرْأَةُ تَدْعَى نَائِلَةً . وَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ تَخَرَّجَ أَنَاسٌ فِي السَّعْيِ بَيْنَ الصِّفَا وَالْمَرْوَةِ لِمَكَانِ إِسَافٍ وَنَائِلَةٍ مِنْهُمَا فَرَفَعَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ الْحَرْجَ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ : ﴿ إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ الْآيَةُ : أَيْ لَا حَرْجَ عَلَيْهِ فِي السَّعْيِ بَيْنَهُمَا .

(١٠) الْعَزَى^(١) وَكَانَتْ بَنَخْلَةً عَنْ يَمِينِ الصَّاعِدِ إِلَى الْعِرَاقِ مِنْ مَكَّةَ وَكَانَ سِدْنَتُهَا وَحَجَابُهَا بَنُو شَيْبَانَ مِنْ سُلَيْمٍ حُلَفَاءُ بَنِي هَاشِمٍ ، وَكَانَتْ تَعْبُدُ وَتَقْدَسُ تَقْدِيسَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ .

(١١) اللَّاتُ وَكَانَتْ بِالطَّائِفِ وَكَانَتْ ثَقِيفٌ تَعْبُدُهَا ، وَمِنْهُمْ سِدْنَتُهَا وَحَجَابُهَا .

(١٢) مَنَاةٌ وَكَانَتْ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ مِنْ نَاحِيَةِ الْمَشَلَّلِ قَرِبَ قَدِيدٍ وَتَعْبُدُهَا قَبِيلَتَا الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ ، وَمَنْ دَانَ بِدِينِهِمْ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ « الْمَدِينَةِ » وَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ وَانْتَصَرَ التَّوْحِيدُ عَلَى الشِّرْكِ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَبَا سَفْيَانَ أَوْ عَلَى ابْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَهَدَمَهَا .

(١٣) فُلَسٌ بِجَبَلَتَى طَيْءٍ وَهُمَا سَلَمَى وَأَجَا مِنْ أَرْضِ طَيْءٍ شَمَالَ الْحِجَازِ

(١) هَدَمَهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ يَقُولُ :

كُفْرَانُكَ يَا عَزَى لَا سَبْحَانَكَ إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكَ

قريبا من حائل المدينة المعروفة اليوم كانت تعبد طيء بأنواع من العبادات كالهدى إليه . والاستسقاء به ، والاثنان بساحته وبعث إليه النبي ﷺ على ابن أبي طالب فهدمه ، وكان شبه إنسان لاصق بجبل أجا .

(١٤) رثام وهو بيت لحمير بصنعاء من اليمن يعظمونه وينحرون عنده ، وتكلمهم الشياطين عنده لفتنتهم .

(١٥) رُضَاء وهو بيت أيضا لبنى ربيعة بن كعب بن زيد مناة بن تميم . ولما جاء الإسلام هدمها المُسْتَوْغَر^(١) بن ربيعة وهو يقول :

ولقد شددت على رُضَاء شدةً فتركها قفراً بقاعٍ أَسَحَمَا

(١٦) ذو الكَعْبَات وهو بيت لَبَكْر وتغلب ابني وائل وإياد وكان بِسَنَدَاد ، وهى منازل لإياد أسفل سوار الكوفة وفيه يقول أعشى بن قيس بن ثعلبة :
بَيْنَ الْحَوْرَتَيْنِ^(٢) وَالسَّيِّدِ وَبَارِقِ وَالْبَيْتِ ذِي الْكَعْبَاتِ مِنْ سِنَادِ

عمل العرب مع أصنامهم :

أكثر ما يعمله العرب مع أصنامهم أن أحدهم إذا أراد السفر توجه إلى صنمه فتمسح به ثم سافر وإذا عاد من سفره أول ما يبدأ به يتمسح بصنمه ثم يدخل على أهله .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نوجزها فيما يلي :

(١) لقد عَمَّرَ طويلاً فعاش ثلثمائة وثلاثين سنة وهو القائل :

ولقد سئمت من الحياة وطولها	وعمرت من عدد السنين مئينا
مائة حدثها بعدها مئتان لى	وازدادت من عدد الشهور سنينا
هل ما بقى إلا كما قد فاتنا	يوم يَمُرُّ وليلة تحدونسا

(٢) قصر بناه النعمان بالخير كان آية في البناء ، وخاف من بانيه أن يبنى لغيره مثله فرماه من أعلاه فقتله واسم المقتول سنار فصار مثلاً : جزاه مجازة سنار .

(١) بيان منشأ الشرك في العرب المستعربة وهو نقلهم الحجارة من الحرم للتبرك بها والطواف ، ولذا وجب سد هذه الذريعة فلا ينقل شيء للتبرك به حتى إن عمر رضي الله عنه قطع شجرة بيعة الرضوان مخافة أن تعبد بمرور الزمان اللهم إلا ما كان من آثار النبي ﷺ كشعره أو ثوبه ، أو سلاحه ، ولم يبق من ذلك شيء لمرور الزمان الطويل .

(٢) طاعة عمرو بن لحيّ وتعظيمه والغلوّ فيه هو الذي جرّاه على نقل الأصنام لهم وأمرهم بعبادتها ، ولذا وجب التحذير من الغلوّ في المشائخ ، وعدم قبول قولهم وطاعة أمرهم إلا ببرهان من كتاب أو سنة يدل على ذلك ويأمر به .

(٣) عبادة العرب لآلهة قوم نوح بعد مرور القرون الطويلة أمر عجب ، إلا أنه لا عجب مع خبث الشياطين ومكرهم بينى آدم لإغوائهم وإهلاكهم . إنهم كما زينوا لقوم نوح عبادتهم فعبدوهم زينوا كذلك للعرب عبادتهم فعبدوهم . ولا عجب فإننا في ديار القرآن والإسلام وزين الشيطان لإخوان لنا عبادة يعوق ونسر إذ كان لأهل قرية صغيرة تُلان أحدهما يسمونه يعوق والثاني نسرًا ، وكانوا إذا انقطع المطر عنهم وقحطوا خرجوا إليهما وقدموا لهما شيئًا قربانًا واستغاثوا بهما فإذا أمطروا بقدر الله قالوا مطرنا باستغاثتنا بيعوق ونسر .

(٤) بناء الأضرحة والقباب على قبور الأولياء والصالحين تركة موروثه عن الجاهلية قبل الإسلام زينت الشياطين وحملت الجهال على بنائها ثم عبادتها بأنواع العبادات كالنذر لها والاستغاثة بها وتقديم الشاة والبقرة لها ، وإيقاد الشموع عليها ، وتجميرها إلى غير ذلك من الحلف بها وتعظيمها وشد الرحال إليها ؛ إذ تقدم أن العزى ورتام ورضاء وذا الكعبات كانت بيوتا تعبد لها سدة وحجاب كما هي الحال للأضرحة في أكثر بلاد المسلمين .

البدع الدينية في عهد الجاهلية

إنه وإن كان كلُّ ما عليه عرب الجاهلية من دين هو بدع ابتدعوها بعد غياب العلم والعلماء إلا أن هناك أمورًا ظاهرة في الابتداع زائدة على أصل الدين الوثني الذي هم عليه ومن ذلك ما يلي :

(١) البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام فالبحيرة الناقة تشقُّ أذنُها وتترك فلا تركب ، ولا يُشرب لبنها إلا أن يسقوه ضيفًا من ضيوفهم ولا شك أن لهذه البدعة سببا ولا يبعد أن يكونوا فعلوه تقربًا لآلهتهم . كما أن السائبة الناقة تسيب أي تترك للآلهة في نذر أو غيره كمجرد التقرب فلا يركب ظهرها ولا يشرب لبنها ولا يؤكل لحمها .

وأما الوصيلة فالابتداع فيها ظاهر إذ هي الشاة تُنمُّ بأن تلد عشر إناث في خمسة أبطنٍ ليس بينهما ذكر فيطلقون عليها اسم الوصيلة بمعنى الواصلة ؛ إذ وصلت بين إناثها العشرة . ثم هي بعد ذلك إذا ولدت ، فما تلده لذكورهم دون إناثهم إلا أن يولد ميتًا فإنهم يشركون فيه إناثهم فيأكلونه جميعًا . وهذا ما ذكره تعالى في قوله من سورة الأنعام : ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلذَّكَورِنا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ﴾ هذه الوصيلة ، وأما الحامى ^(١) فهو الجمل إذا بلغ حدًا معينًا من النتاج يحمون ظهره فلا يركب ولا يُحمل عليه ، ويتركونه للضراب ^(٢) فقط ، ولا شك أن هذا يفعلونه تعبدًا وتقربًا للآلهة .

(٢) بدعة الوقوف في الحج بمزدلفة دون عرفة ، وهذه البدعة ابتدعها أشراف مكة وهم الذين يعرفون بالحمس ^(٣) أما سائر العرب فإنهم يقفون

(١) الحام يجمع على حوم .

(٢) الضراب هو اللقاح بواسطة اتصال الفحل بالأنثى .

(٣) جمع أحمس وهو المتحمس للدين وشعائره من قريش .

بعرفات ولا يسمح لهم أن يقفوا بمزدلفة .

(٣) بدعة عدم الطواف في ثياب عُصَى فيها الله عز وجل ، فلا يُحَلُّون لأحد من غير الحمس أن يطوف في ثوب قديم ، فإن لم يجد من الحمس ثوباً يطوف فيه طاف عريانا ، حتى إن المرأة تطوف عارية وتضع شيئا تستر به فرجها ، ويؤكد هذا قول إحداهن :

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله
وفي إبطال هاتين البدعتين أنزل الله تعالى قوله : ﴿ ثُمَّ أَفِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ وقوله ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ .. ﴾ .

(٤) بدعة الاستقسام بالأزلام ، وهى عبارة عن ثلاثة قداح كتب على أحدها أمرنى ربى ، والثانى نهانى ، والثالث يُترك غفلا لا يكتب عليه شيء ، فإذا أراد أحدهم أن يتزوج ، أو يطلق ، أو يسافر ، أو يتاجر يذهب إلى صاحب الأزلام « القداح » فيقدم له شيئا من المال ويجعل القداح فى خريطة ، فإذا خرج أمرنى أمضى ما عزم عليه ، وإذا خرج نهانى رنى توقف ، وترك العمل الذى استقسم من أجله ، وإن خرج القدح الغفل أعاد العملية بإجالة القداح مرة أخرى ، وقد حرم الله تعالى هذه البدعة بقوله من سورة المائدة : ﴿ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ﴾ وسمى هذا العمل استقساما لأنهم يطلبون به معرفة ما قسم لهم .

(٥) بدعة النسيء وهى تأخير حرمة شهر المحرم إلى صفر من أجل استحلال القتال فى الشهر الحرام ، وأصحاب هذه البدعة يقال لهم النسأة ويفاخرون بهذه البدعة حتى قال قائلهم .

ألسنا الناسئين على معد شهور الحِلّ نجعلها حراما
ولما جاء الإسلام حرم هذه البدعة فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي

الْكُفْرُ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاظِنُوا عَدَّةَ
مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْكَافِرِينَ ﴿١٠﴾ .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة في السيرة العطرة نتائج وعبرا نَجْمِلُهَا في ما يأتي :

(١) إذا غاب نور العلم بموت العلماء نجمت البدع ، واستبدل الناس الهدى
بالضلال .

(٢) ضعف الإنسان الفطري هو الذى يحمله على طلب ما يجلب له النفع
ويدفع عنه الضرر ، فإن اهتدى إلى الطريق الصحيح الذى يحصل به على ما
يرغب وينجو به مما يرهب فذاك ، وإلا سلك مسالك الغواية والضلال من
الظلم والشرك والابتداع .

(٣) مع طول العهد من فقد العدنانين للعلم الصحيح بالله تعالى ودينه
فقد بقيت لهم بقايا صالحة كالحج والعمرة ، وتعظيم البيت واحترام الحرم
والأشهر الحرم ، والتقرب إلى الله تعالى بالهدى وإطعام الحاج وسقايته ودفع
الظلم عنه .

كانت هذه نتائج ، وأما العبر فهي :

(١) إن المسلمين الذين فقدوا العلم الصحيح في ديارهم ابتدعوا بدعا شبيهة
بيدع أهل الجاهلية ، فقد نذروا لأصحاب الأضرحة والقباب وساقوا لهم الشاة
والعجل ، وحلفوا بأسمائهم وكسوا تواييتهم^(١) بأفخر أنواع الكسوة .

(١) التواييت جمع تابوت ، وهو صندوق من خشب يوضع على القبر ويوضع عليه الثياب الحريرية
تقربا إلى الميت الولي ، هكذا يزعم الجاهلون .

(٢) بدعة خط الرَّمْل للتعرف على المغيَّبات عند جهال المسلمين كبدعة الاستقسام بالأزلام عند أهل الجاهلية المشركين .

(٣) احتيال بعض المشائخ على تحليل بعض المحرمات لمنافع خاصة لهم أو لغيرهم هو مسلك النِّسَاء^(١) في تأخير الشهر الحرام لاستحلاله وهكذا فكل فتيا يراد بها استحلال ما حرم الله بالتأويلات البعيدة فهي اتباع لأهل الجاهلية ، واستئنان بستمهم الجاهلية والعياذ بالله تعالى .
وأخيرًا

النصرانية واليهودية في بلاد العرب

بمناسبة ذكر الدين الذى كان عليه العرب العدنانيون قبل الإسلام وهو الوثنيّة يحسن ذكر نبذة عن الديانتين النصرانيّة واليهودية في بلاد العرب جنوبا وشمالا ليعلم القارئ بكامل الحال التى كان عليها الناس في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام وليعلم أن الإسلام كان حاجة الناس في تلك البلاد كما هو حاجة كل الناس وفي كل ديارهم أمْسِر واليومَ وغداً ، إذ لا كمال لإنسان ولا سعادة إلا به وعليه .

يروى ابن إسحق حديث وهب بن منبه في دخول النصرانية إلى نجران جنوب مكة من بلاد اليمن فيقول : إن رجلاً يُقال له فيمميون من أهل الشام كان على دين المسيح عليه السلام ، وكان صالحاً ورزقه الله كرامات فأحبه رجل من أهل البلاد يقال له صالح ولازمه .

ولما عرف فيميون بالصلاح وظهور الكرامات خرج مع ذلك الرجل الذى

(١) النِّسَاء جمع ناسئ وهو الذى ينسأ الشهر الحرام أى يؤخره .

أحبه فدخل بلاد العرب فعدوا عليهما وباعوهما عبيدين في مدينة نجران . وأهل نجران يومئذ على دين العرب وهو الوثنية ، وكانت لهم نخلة يعبدونها فجعلوا لها عيداً سنوياً يأتونها فيه فيعلقون عليها أجمل الثياب وأحسن حلّي النساء .

واشترى فيميون أحد أشراف نجران ، وكان فيميون إذا قام من الليل يتهدّد أشرق له البيت نوراً . فعجب سيده من هذه الكرامة ، فسأله عن دينه ؟ فأخبره بأنه على دين المسيح ، وأعلمه أن ما عليه أهل نجران هو الباطل ، كما أعلمه أن الله تعالى هو الإله الحق ، وأن هذه النخلة لا تنفع ولا تضرّ ، وأنه لو دعا الله تعالى عليها لأسقطها ، وفعلاً دعا الله تعالى فعصفت بها عاصفة فاقتلعتها من جذورها .

ولذلك آمن الرجل الشريف بدين المسيح ، وتبعه آخرون فكان هذا مبدأ دخول دين المسيح في نجران ، ثم بمرور الزمان طرأ عليهم ما طرأ من البدع والتحريف لدين المسيح حتى أصبحت نصرانية ضالّة كما هي في سائر البلاد .

ومما يذكر هنا أن عبد الله بن الثامر وكان على دين المسيح كان له أثر كبير في نشر المسيحية في نجران بعد العبد الصالح فيميون .

وكان من أمر ابن الثامر أنه لما انتشرت المسيحية بين الناس دعاه ملك البلاد وقال له : أفسدت على أهل قريتي وخالفت ديني ودين آبائي لأمثلك بك وجعل يعرضه لكل ألوان التعذيب ، والقتل ولم يقدر على قتله ، فقال له ابن الثامر : إنك لا تقدر على قتلي حتى توحد الله تعالى ، ففعل الملك ، وضرب ابن الثامر فقتله ، ثم مات الملك على الفور إلى جنبه ، وبذلك استجمع أهل نجران على الدين المسيحي ، ثم أصابهم ما أصاب غيرهم من البدع والفساد ، فكان هذا أصل النصرانية في نجران .

ولما ملك ذو نواس الحميري ، وكان قد دان باليهودية ، ووجد أهل نجران على المسيحية فدعاهم إلى دينه فأبوا عليه فحفر لهم الأخاديد وأحرق عدداً كبيراً منهم بالنار ليرجعوا على دينهم فلم يرجعوا وهم الذين ذكر تعالى في سورة

البروج ، وحدث عنهم رسول الله ﷺ ، ثم إن رجلا يقال له دَوْسٌ قد نجا من الحريق ، وذهب إلى ملك الروم فاستعده على ذى نواس الذى قتل النصارى من أهل دينه ، فكتب له كتابًا إلى ملك الحبشة حيث هو على دين النصارى فأعطاه جيشًا قوامه سبعون ألفًا غزا به ذا نواس فهزموه ودخلوا البلاد وحكموها بعد موت ذى نواس ، وكان على رأس الجيش الحبشى أرياط وأبرهة فتنازعا الملك وغلب أبرهة أرياط وقتله وأصبح أبرهة الحاكم العام فى البلاد ، وملك الحبشة يدعمه ويشد من أزره . هذه قصة النصرانية فى نجران من بلاد اليمن .

أما اليهودية : فإنها لم تدم طويلا فى بلاد اليمن وسبب ذلك أن تُبْعَا ذا نواس لما دخل المدينة خرج معه حبران من أحبار اليهود وهما اللذان دعواه إلى اليهودية فقبلها ودان بها ، وعذب نصارى نجران كما تقدم ، وانتهى ملكه بموته على يد أرياط وأبرهة الحبشيين كما سبق ذكره . إلا أن اليهودية كانت بشمال الجزيرة بفدك وتيما وخيبر والمدينة التى كانت تسمى يثرب ، وسبب دخول اليهود إلى الحجاز من أرض الجزيرة هو الضغط الذى أصابهم من ملوك الروم بعد بختنصر هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تطلعهم إلى النبىِّ المُبَشِّرِ به فى التوراة والإنجيل ، وأنه يخرج من جبال فاران ، وأن مُهاجره يثرب ذات النخيل والأرض السبخة ، فنزلوا ديار الحجاز الشمالية رجاء أن يبعث نبيّ آخر الزمان فيؤمنوا به ويقاتلوا أعداءهم معه ويستردوا مُلكهم المسلوب منهم من عدة قرون .

مع العلم أن اليهود كالنصارى قد فسد معتقدهم وضاعت شريعتهم تحت تأثير التأويل للنصوص وتحريفها وتغييرها وتبديلها لتوافق الأهواء والأطماع الخاصة والشهوات العارمة ، فما أصبحت اليهودية ولا النصرانية تزكى النفوس ولا تصلح القلوب ولا تهذب الأخلاق بعد فسادها ، فحاجة أهل الملتين إلى الإسلام كحاجة غيرهم من المجوس والوثنيين . وقد كان اليهود يستفتحون على

مشركى العرب يقولون لهم إن نبياً قد أظل زمانه ويوم يظهر تؤمن به وثقاتلكم معه . نزل بقولهم هذا القرآن العظيم في سورة البقرة بقوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .

نتائج وعبر :

لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبر نجم لها فيما يلي :

(١) لم تكن النصرانية ولا اليهودية في بلاد العرب ذات شأن يذكر ؛ إذ الوثنية هي الغالبة .

(٢) الفترة التي كانت النصرانية في نجران سليمة في معتقداتها وشرائعها كانت قصيرة جداً ، ولذا لم يقدر لها أن تنتشر في بلاد العرب .

ثم ما لبثت أن دخلها الفساد فلم تكن صالحة للهداية والإصلاح .

(٣) اليهودية ما دخلت بلاد العرب إلا بعد فسادها فلذا لم ينتفع بها أهلها في دار هجرتهم فضلاً عن العرب الذين نزحوا إليهم وسكنوا ديارهم .

(٤) نظرًا لفساد الديانتين السماويتين اليهودية والنصرانية ، وفساد الجوسية والوثنية بالأصالة فإن حال الناس تتطلب ديناً سماوياً جديداً تكمل عليه الأرواح وتزكو وتهذب به الأخلاق وتتحقق به للناس السعادة والكمال في الدنيا والآخرة . وهو ما ستكشف عنه الأيام عما قريب إن شاء الله تعالى .

هل من حنفاء في بلاد العرب ؟

إن الجواب عن هذا السؤال الملح هو — مع الأسف — أنه لم يكن في بلاد العرب في هذه الظروف حنفاء يؤمنون بالله وحده ويعبدونه بما شرع مخلصين له في ذلك . اللهم إلا ما كان من زيد بن عمرو بن نفيل الذي قال

فيه رسول الله ﷺ « إنه يُبعث يوم القيامة أمة وحده » . فقد كان ينكر أعمال أهل الجاهلية ويصرّح ببطلان دين قريش ويقول لهم : والذى نفس زيد ابن عمرو بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى . وقال محمد بن إسحق لقد حدث أن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وعمر بن الخطاب قالا لرسول الله ﷺ : أنستغفر لزيد بن عمرو بن نفيل ؟ قال : « نعم فإنه يبعث أمة وحده » .

وقد مات زيد قبل بعثة الرسول ﷺ . ومصدق هذا فى حديث مسلم إذ قال ﷺ : « إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب » فهذا الحديث دليل واضح أنه ما بعث النبى الحبيب محمد ﷺ وفى العرب رجل واحد على دين صحيح يعبد به الله تعالى .

أما اليهود ، والنصارى ففهم بقايا يعبدون الله تعالى بدين صحيح من دين موسى وعيسى عليهما السلام لكنهم قليل جداً لا يتم على أيديهم هداية الناس ولا إصلاحهم .

ومن شعر زيد بن عمرو بن نفيل المصرح بإيمانه وتوحيده قوله :

أربأ واحداً أم ألف ربٍّ أدينُ إذا تقسّمت الأمورُ
عزّلتُ اللات والعزى جميعاً كذلك يفعلُ الجلدُ الصبورُ
فلا العزى أدينُ ولا أبنتيها ولا صمى بنى عمرو أزورُ
ولا هبلا أدينُ وكان ربّاً لنا فى الدهر إذ حلّى يسيرُ

وأما ورقة بن نوفل فقد دان بالنصرانية ، ومات قبل بدء الدعوة الإسلامية كما أن عبيد الله بن جحش بن رئاب وإن أسلم فى أول الأمر لأنه حضر البعثة الحمدية إلا أنه ترك الإسلام وتنصر فى الحبشة كما هاجر إليها مع من هاجر من المسلمين ، وخلف زوجته أم حبيبة بنت أبى سفيان فتزوجها رسول الله ﷺ رحمة بها وأتاب عنه فى عقد نكاحها أصحم النجاشى ملك الحبشة رحمه الله تعالى .

وأما عثمان بن الحُوَيْرِث فقد قدم الشام وتنصر وكانت له منزلة عند قيصر ملك الروم النصراني . فهؤلاء الرجال الأربعة الذين كانوا قد أنكروا على قریش عبادة الأوثان ، وكانوا يصرحون بأنهم على دين إبراهيم عليه السلام إلا أنهم في آخر الأمر ماتوا على غير الحنيفية إلا ما كان من زيد بن عمرو بن نفيل فإنه مات حَنِيفًا مسلمًا على ملة التوحيد ، ويؤكد ذلك إذن النبي ﷺ لولده سعيد وعمر بن الخطاب بالاستغفار له ، وأخير أنه يبعث يوم القيامة أمة وحده .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نوجزها فيما يلي :

(١) بيان أن الناس عَرَبًا وعجمًا قد ضلوا سواء السبيل واستوجبوا مقت الله تعالى لهم . اللهم إلا أفرادًا قلائل من أهل الكتابين اليهود والنصارى فإنهم بقوا يعبدون الله تعالى بما شرع على ألسنة رسله حتى بُعث النبي الخاتم الحبيب محمد ﷺ وهم قليل .

(٢) بيان أن العرب لم يبق منهم رجل واحد على دين الله الذي أرسل الله به إبراهيم وإسماعيل والأنبياء من قبل ومن بعد يعبد الله تعالى بما شرع ويوحده في عبادته ، لأن زيد بن عمرو بن نفيل وإن كان موحدًا إلا أنه لم يكن له شرع يعبد الله تعالى به هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنه قد مات قبل البعثة المحمدية .

(٣) حال الناس هذه في ضلالهم وعدم هدايتهم كانت مستوجبة للبعثة المحمدية متطلبية لها بل كانت حاجتها الملحة التي لا بد منها .

تباشير الصباح

إن من سنن الله تعالى في الكون أن الانفراج يكون بعد الشدة ، والضياء يكون بعد الظلام ، واليسر بعد العسر .

إنه بعد ذلك الظلام الحالك الشديد الذى غطى سماء الحياة البشرية حيث عتم ظلام الشرك والكفر والظلم والشر والفساد ؛ إذ نظر الله تعالى إلى الناس فمقتهم عربهم وعجمهم لما هم عليه من الكفر والشر والفساد إلا بقايا من أهل الكتاب . فى هذا الظرف بالذات أخذت تباشير الصباح تلوح بقرب انبثاق النور المحمدى ، تلوح هنا وهناك فى الآفاق المظلمة المدهمة .

وها هى ذى بين يديك أيها القارئ الكريم كواكب زهر تلوح فى الأفق كوكبا بعد كوكب مؤذنة بقرب انبلاج الفجر المحمدى .

فأولا : دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام :

فقد أخبر تعالى عنهما أنهما سألاه أن يبعث فى ذريتهما رسولا منهم جاء ذلك فى قوله تعالى من سورة البقرة : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

كما أخبر هو بنفسه ﷺ مقررًا هذه الحقيقة مؤكّدًا لها فقال « أنا دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى »^(١)

ثانيا : أخذ الميثاق له ﷺ :

لقد أخذ الله الميثاق على كل نبي نبأه ورسول أرسله أن يؤمن بمحمد ﷺ

(١) تقدم تخرج هذا الخبر ونصه أطول من هذا .

وينصره متى بُعث ، ولازم هذا أنه عرفه باسمه وصفاته . جاء هذا في قوله تعالى من سورة آل عمران : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ .

ثالثا : بشارات الكتب الإلهية به :

ففي التوراة يروى البخارى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه قوله قال : وجدت في التوراة في صفة النبي ﷺ يقول الله سبحانه وتعالى يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ ، لَيْسَ بَقَظٌ وَلَا غَلِيظٌ ، وَلَا صَخَابٌ فِي الْأَسْوَاقِ ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ ، وَلَكِنْ يَعْفو وَيَصْفَحُ وَلَنْ يَقْبِضَهُ الْوَحْيُ يَقِيمُ بِهِ الْمَلَّةَ الْعُوجَاءَ ، وَيَفْتَحُ عَيْوَنًا عَمِيًّا وَآذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا بَأَنْ يَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ .

وفيهما أى في التوراة أيضا : تجلى الله من طور سيناء وأشرف من ساعير ، واستعلّى من جبال فاران . فتجليه سبحانه وتعالى من طور سيناء المراد به إنزاله التوراة على موسى ، وإشراقه من ساعير المراد به إنزاله الإنجيل على عيسى واستعلاؤه من جبال فاران إنزاله القرآن الكريم على الم بشر به محمد ﷺ إذ جبال فاران هي جبال مكة المكرمة .

وجاء في التوراة أيضا :

أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك ، وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به . فالذى يجعل الله تعالى كلامه في فمه لن يكون إلا محمدا ﷺ إذ هو الذى يقرأ القرآن على ظهر قلب ، ولا ينطق إلا بما جاء فيه ودعا إليه من الحق والهدى والخير .

وجاء في الإنجيل :

في تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز في بَرِّيَّة اليهود قائلا : تربعوا لأنه قد اقترب ملكوت السماوات . فقلوه قد اقترب ملكوت السماوات إشارة إلى النبي محمد ﷺ وبشارة به وبقرب بعثته إذ هو الذى ملك وحكم بقانون السماء الذى هو شرع الله تعالى .

وجاء فيه أيضا :

قدّم لهم مثلا آخر قائلا : يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها إنسان وزرعها في حقله وهى أصغر جميع البذور ، ولكن متى نمت فهى أكبر البقول ، فهذه البشارة هى عينها التى فى القرآن إذ قال تعالى فى سورة الفتح : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۖ ﴾ .

وجاء فيه أيضا :

أنطلق لأنى إن لم أنطلق لم يأتكم « البار قليط » فأما إن انطلقت أرسلته إليكم فإذا جاء ، ذاك الذى يوبخ العالم على خطيئته . فهذه بشارة كاملة بالنبي الذى يوبخ العالم على خطيئته ؛ إذ بعث ﷺ والعالم كله فى ظلمات الشرك والكفر ، وقد مقت الربّ تبارك وتعالى الناس عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب ، وقد تقدم بيان ذلك .

وجاء فى الزبور :

ومن أجل هذا بارك الله عليك إلى الأبد فتقلد أيها الجبار^(١) بالسيف لأن البهاء لوجهك ، والحمد الغالب عليك ، اركب كلمة الحق ، وسمّة التأله ،

(١) قال أهل العلم إن هذه الصفات لا تنطبق على أحد بعد داود إلا على محمد ﷺ ذكر هذا شيخ الإسلام ابن تيمية فى الجواب الصحيح ، لمن بدل دين المسيح .

فإن ناموسك وشرائعك مقرونة بهيبة يمينك ، وسهامك مَسْنُونَةٌ ، والأُمم
يَخْرَوْنَ تحتك .

رابعاً : قال أشعيا النبي عليه السلام :

وُلد لنا غلام يكون عجباً وبشراً ، والشامة^(١) على كتفيه ، أركان^(٢)
السلام الدجيار وسلطاناه سلطان السلم يجلس على كرسي داود .

وقال أيضاً :

قل لي قم ناظراً ، فانظري ماذا ترى ؟ قلت أرى راكبين مقبلين أحدهما
على حمار والآخر على جمل ، ويقول أحدهما لصاحبه : سقطت أصنام بابل
للبحر . إن الراكبين هما عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم وسقوط أصنام
بابل كان على يد أمة محمد ﷺ .

وقال حزقيل عليه السلام :

قال حزقيل عليه السلام وهو يصف للناس أمة محمد ﷺ : إن الله يظهرهم
عليكم ، وباعث فيهم نبياً ، ومنزل عليهم كتاباً ، ويملكهم رقابكم فيقهرونكم
ويذلونكم بالحق ، ويخرج رجال من بني قيذار^(٣) في جماعات الشعوب
ومعهم ملائكة على خيل بيض^(٤) متسلحين فيحيطون ، وتكون عابثكم إلى
النار .

(١) الشامة هي خاتم النبوة بين كتفيه ﷺ .

(٢) الأركان : العظيم بلغة الإنجيل .

(٣) أولاً قيذار هم ربيعة ومضر من ولد عدنان بن إسماعيل ، وفي هذا الخبر ترجيح أن العدنانيين هم
من قيذار لا من نابت أخيه . إلا أن الخطب سهل ، لأن نابتا شقيق قيذار فأياً ما كانوا فهم أولاد
عدنان بن إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام .

(٤) هذا الوصف لا ينطبق إلا على أمة محمد ﷺ : إذ هم الذين قاتلت معهم الملائكة في بدر وغيرها .
وكانت خيولهم بيضا .

وقال دانيال عليه السلام :

فظهر لى الملك فى صورة شاب حسن الوجه فقال : السلام عليكم يادانيال
إن الله يقول : إن بنى إسرائيل أغضبونى ، وتمردوا علىّ وعبدوا من دونى آلهة
أخرى وصاروا من بعد العلم إلى الجهل ، ومن بعد الصدق إلى الكذب ،
فسلّطت عليهم بختنصر فقتل رجالهم وسبأ ذرياتهم ، وهدم بيت مقدسهم
وحرّق كتبهم ، وكذلك فعل من بعده بهم . وأنا غير راض عنهم ، ولا مُقبلهم
عثراتهم فلا يزالون مغلوبين عليهم الذلة والمسكنة حتى أبعث فيهم نبياً^(١) من
بنى إسماعيل الذى بشرت به هاجر وأرسلت إليها ملاكى فبشّرها ، وأوحى
إلى ذلك النبىّ وأعلّمه الأسماء وأزيّنه بالتقوى ، وأجعل البرّ شعاره ، والتقوى
ضميره والصدق قوله ، والوفاء طبيعته ، والقصد سيرته ، والرشد سنته أحصه
بكتاب مصدّق لما بين يديه ، وناسخ لبعض ما فيها ، أسرى به إلىّ من سماء
إلى سماء حتى يعلق فأدنيه ، وأسلم عليه ، وأوحى إليه ، ثم أرده إلى عبادى
بالسرور والغبطة ، حافظاً لما استودع ، صادعاً بما أمر ، يدعو إلى توحيدى
باللين من القول ، والموعظة الحسنة لا فظ ولا غليظ ولا صخب فى الأسواق
رعوف بمن والاه ، رحيم بمن آمن به ، حَشِشٌ على من عاداه ، فيدعو قومه
إلى توحيدى وعبادتى ، ويخبرهم بما رأى من آياتى فيكذبونه ويؤذونه .

شهادات أهل الكتاب :

قال بعض أهل المدينة ممّن أنعم الله عليهم بنعمة الإسلام فأسلموا لله ظاهراً
وباطناً : إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه لنا أنا كنا نسمع من
رجال يهود ، إذ كنا أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب عندهم
علم ليس عندنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور فإذا نلنا منهم بعض

(١) فقوله عليه السلام حتى أبعث فيهم نبياً إلى آخر كلامه وهو يخبرهم بما رآه هو وصف كامل وإخبار
صادق محمد ﷺ وكتابه ودعوته .

ما يكرهون قالوا لنا : إنه قد تقارب زمان نبيٍّ يبعث فقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فكنا كثيرا ما نسمع ذلك منهم . فلما بعث الله رسوله محمداً ﷺ أجبناه حين دعانا إلى الله ، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به ، فبادرناهم إليه فأمنوا وكفروا به وكذبوه ، وفيهم نزلت هذه الآيات من البقرة ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .

وقال ابن الهيثان اليهودي : عند موته بالمدينة وقد جاء من الشام : يا معشر يهود ما ترونه أخرجني من أرض الخمر والخبز إلى أرض البؤس والجوع ؟ فقالوا له : أنت أعلم . فقال : إني قدمت هذه البلدة أتوقع خروج نبيٍّ قد أظلم زمانه ، هذه البلدة مهاجرة ، فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه إنه قد أظلمكم زمانه فلا تسبقن إليه يا معشر يهود !!

وقال صاحب عمورية^(١) : وكان على دين المسيح ، قال لسلمان الفارسي وقد تنقل إليه من رحل دين إلى آخر حتى انتهى إليه بوصية وصى بها ، وقد حضره الموت قال له : والله ما أعلم أنه أصبح اليوم أحد من الناس على مثل ما كان عليه هؤلاء — الرهبان الذين تنقل بينهم سلمان — أمرك أن تأتيه ، ولكنه قد أظلم زمان نبيٍّ هو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام ، يخرج بأرض العرب مهاجرة إلى أرض بين حرتين بينها نخل — إنها المدينة ورب الكعبة — به علامات لا تخفى يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبوة فإن استطعت أن تلحق به بتلك البلاد فافعل .

هتاف الجن بالبشرى :

إن من جملة تباشير الصباح التي سبقت طلوع الفجر الحمدي ، أن كثرت الشهب في السماء ورجمت الشياطين الأمر الذي اندهش له الناس وفزع

(١) عمورية : بلد في بلاد الروم غزاه المعتصم حين شراة العلوية .

له الكهان من نساء ورجال ، وهذا سواد بن قارب رضى الله عنه يَمُرُّ بين يدي عمر بن الخطاب فيقول له رجل : يا أمير المؤمنين هل تعرف من المار ؟ فيقول عمر : لا ، ومن هو ؟ فيقول له : هذا سواد بن قارب الذى أتاه رثيّه بظهور النبى ﷺ وعندها أرسل إليه عمر فجاء فقال له : أنت سواد بن قارب ؟ قال : نعم ، قال أنت الذى أتاك رثيُّك من الجن بظهور النبى ﷺ ؟ قال : نعم ، قال : أفأنت على ما كنت عليه من كهانتك ؟ فغضب سواد وقال : ما استقبلنى بهذا أحد منذ أسلمت يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : سبحان الله ما كنا عليه من الشرك أعظم مما كنت عليه من كهانتك . فأخبرنى بإتيانك رثيُّك بظهور النبى ﷺ . قال نعم يا أمير المؤمنين بينا أنا ذات ليلة بين النائم واليقظان إذ أتانى رثيٌّ فضربنى برجله وقال : قم يا سواد بن قارب فاسمع مقالتي واعقل إن كنت تعقل : إنه قد بعث رسول من لوى بن غالب يدعو إلى الله وإلى عبادته ثم أنشأ يقول :

عجبت للجن وتطلّابها وشدّها العيس^(١) بأقصابها
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ما صادق الجنّ ككذابها
فارحل إلى الصّفوة من هاشم ليس المقاديم^(٢) كأذناها

ثم ذكر أنه أتاه ليلتين بعد الأولى وهو فيها كلها بين النائم واليقظان وقال له : قم يا سواد بن قارب واعقل إن كنت تعقل إنه قد بعث رسول من لوى ابن غالب يدعو إلى الله وإلى عبادته وأنشده فى كل ليلة أبياتاً منها :

قوله : أتانى نجىّ بعد هذه ورقدة

ولم يك فيما قد تلوّث بكاذبٍ

(١) العيس : الإبل البيض اللون .

(٢) أى أوائلها كأذناها أى أواخرها يريد الفضل لأهل السبق الذين بادروا إلى الإسلام وسبقوا غيرهم إليه .

ثلاث ليال قوله كل ليلة

أتاك رسول من لؤي بن غالب

ولما بعث النبي ﷺ أسلم سواد وأتى النبي ﷺ وقصّ عليه قصة رثيه ، وأنشد
الآيات التالية :

فأشهد أنّ الله لا ربّ غيره وأنك مأمونٌ على كل غائب
وأنت أدنى المرسلين وسيلة إلى الله يا ابن الأكرمين الأطايب
فمُمرّنا بما يأتيك من وحى ربّنا وإن كان فيما قلت شيبُ الذوائب
وكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعة بمُغنٍ فتيلًا عن سواد بن قازب

أما كثرة الشهب ورُمي الشياطين بها ، ومنعهم من استراق السمع فقد
جاء ذكره في القرآن الكريم ، وهو قوله تعالى : من سورة الجن :

﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْكًا خَرَسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا * وَأَنَا كُنَّا
نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا * وَأَنَا
لَا نَذَرِي أَشْرًا أُريدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ .

حادثة أصحاب الفيل :

إن المراد من حادثة أصحاب الفيل هو غزو أبرهة الأشرم عامل ملك الحبشة
على اليمن وكان سبب غزوه مكة حماها الله من كل جبار ظالم أنه أراد التقرب
إلى ملك الحبشة لأمرٍ حدث بينهما فبنى بصنعاء بيتًا لم يُر مثله وسمّاه
« القليس » وقال إنه يدعو الناس لحجه بدل الكعبة في مكة المكرمة لتتحول
تجارة العرب إلى اليمن ، فسمع بذلك رجل كِنَانِي فَأَتَى الْقَلِيسَ وأحدث^(١) فيه
وذهب ، فبلغ ذلك أبرهة ، فحلف أن يغزو مكة ويهدم الكعبة . وجهر جيشًا

(١) أى تَعَوّط ولطخ جدران البيت بالعذرة .

قويًا ، وأخرج معه الفيل المسمى محمودًا ، وسار في طريقه وكلما اعترضته
 قبيلة من القبائل العربيّة لتصدّه قاتلها وهزمها ، حتى انتهى إلى مشارف الحرم ،
 فبعث رجاله فساقوا ماشية أهل مكة ومن بينها مائتا بعير لعبد المطلب بن هاشم
 شيخ مكة ورئيس قريش بها ، ثم جرت سفارة انتهت بمفاوضات طالب فيها
 عبد المطلب بإبله . وأما البيت فقد قال قولًا سار مثلاً : « إن للبيت ربًّا
 يَحْمِيهِ » ولما علم عبد المطلب عجز قومه على مقاومة هذا العدو الظالم ذى
 الجيش العرمم الجرار أمر أهل مكة أن يلتحقوا بشعاف الجبال وقممها حتى
 لا تلحقهم معرة الجيش الغازي ففعل ذلك أهل مكة ، ووقف عبد المطلب
 بباب الكعبة آخذًا بحلقته وهو يقول :

لاهُمَّ إِنْ الْعَبْدَ يَمُنْ	سَع رَحْلُهُ فَاَمْنَعِ جِلَالِكَ ^(١)
لَا يَغْلِبُنَّ صُلَيْبِهِمْ	وَمِحَالُهُمْ غَدَاً مَحَالِكَ ^(٢)
إِنْ كُنْتَ تَارِكُهُمْ وَمِ	لَتُنَا فَاَمْرٌ مَا بَدَا لَكَ
وَانْصُرْ عَلَى آلِ الصَّلِيبِ	وَعَابِدِيهِ الْيَوْمَ آلَكَ

فلما أصبح أبرهة ، وتبيأ لدخول مكة ، ووجه الفيل إلى مكة أبى الفيل
 أن يمشى ، فإذا وجهه إلى غيرها مشى ، وما زال يُحاوله حتى أرسل الله تعالى
 عليهم طيرًا أبابيل من البحر يحمل كل طير ثلاثة أحجار ، واحدة بمنقاره واثنتين
 برجليه فما أصابت رجلاً إلا أخذ لحمه يتساقط ، وطلبوا من يدهم على الطريق
 ليعودوا هارين إلى اليمن . فقال دليلهم :

أَيْنَ الْمَفْرِّ وَالْإِلَهُ الطَّالِبُ وَالْأَشْرَمُ الْمَغْلُوبُ لَيْسَ الْغَالِبُ

وانتهت الحال بهزيمة جيش أبرهة وهلاكه ، وأما أبرهة فقد نُقل مشحناً

(١) جمع جَلَّة : المجموعة من البيوتات وأهل حلول بها .

(٢) المحال : القوة . وغدواً بمعنى غداً ردت الواو المحذوفة منه في الشعر .

بجراحاته إلى صنعاء فمات بها ، وقد أنزل الله تعالى سورة الفيل متضمنة هذه الحادثة إجمالاً وهي آية صدق النبوة المحمدية .

نتائج وعبر :

لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبر نجملها فيما يأتي :

(١) بيان بداية أمر النبي ﷺ . وأنها كانت من عهد إبراهيم عليه السلام .

(٢) بيان استجابة الله تعالى دعوة خليله إبراهيم عليه السلام .

(٣) بيان علو شأن الحبيب محمد ﷺ وكال شرفه الذي لا يُداني فيه ؛ وذلك بأخذ الله تعالى الميثاق على الأنبياء وأممهم بأنه متى بعث النبي محمد ﷺ آمنوا ونصروه وعزروه .

(٤) بيان كمال خلق الحبيب محمد ﷺ الذي تجلّى فيما وصفه به ربّه تعالى في التوراة ، وعلى لسان المَلَك الذي نزل على النبي دانيال عليه السلام .

(٥) بيان شرف العرب ، وما حباهم ربهم تعالى به من بعثة أفضل أنبيائه ، وجعله حرّاً لهم فكمّلوا وسعدوا به بعد أن آمنوا به وبما جاء به واتبعوا النور الذي أنزل عليه وهو القرآن الكريم .

(٦) إثبات نبوة الحبيب محمد ﷺ وتقريرها بشهادات التوراة والزبور والإنجيل وأنبياء بنى إسرائيل ومؤمنى الجن وصالحى أهل الكتاب من يهود ونصارى ، الأمر الذى يصبح معه إنكار رسالته ﷺ ضرباً من السفه والحمق والضلال العقلى ، والحكم بالخسران الأبدى لصاحبه .

(٧) فى هزيمة أبرهة وجيشه بخارقة لم يُعرف مثلها أكبر آية على قرب طلوع الفجر المحمدي .

(٨) إن العبرة من هذا الذى تقدم فى هذه المقطوعة من السيرة هو وجوب الإيمان اليقيني بنبوة محمد ﷺ ، ووجوب اتباعه وتعظيمه ومحبته فوق محبة النفس والمال والأهل والولد .

طلوع الفجر المحمدي أو الميلاد السعيد

من عام الفيل وفي شهر ربيع الأول الذي أصبح يعرف بربيع الأنور ، ومن ليلة الاثنين الثاني عشر منه طلع فجر النبوة المحمدية .

هذا الذي عليه أكثر المؤرخين للميلاد النبوي السعيد .

الحمل قبل الميلاد والمصاهرة قبل الحمل

والوالد قبل الولد ولكلّ زمانّ ومكان

في بطحاء مكة ، وفي بيت عريق في الشرف بيت شيبه الحمد عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف بن قصي زوج عبد المطلب ولده عبد الله الذيح سليله الشرف أشرف فتاة وأعفها وأكملها خلقًا وخلقًا آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب الزهرية القرشية .

أما عبد الله الولد فللقبه بالذبيح قصة من أظرف القصص وأطرفها تتشرف الآذان بسماعها ، وتنفو القلوب لذكرها ، وهذا عرضها باختصار حتى لا نبعد من ساحة الأنوار .

كانت زمزم قد طمرتها جرهم عند مغادرتها مكة لظلمها فانزاهها وكان ذلك منها نقمة على أهلها الذين حاربوها وطردها . وظلت زمزم مطمورة إلى عهد شيبه الحمد عبد المطلب فأرى في المنام مكانها وحاول إعادة حفرها ، ومنعته قريش ، ولم يكن له يومئذ من ولد يعينه على تحقيق مراده إلا الحارث فنذر لله تعالى إن رزقه عشرة من الولد يحمونه ويعينونه ذبح أحدهم ، ولما

رزقه الله عشرة من الولد وأراد أن يفى بنذره لرّبه فاقترح على أبيهم يكون الذبيح فكانت القرعة على عبد الله ، وهمّ أن يذبحه عند الكعبة فمنعته قريش ، وطلبوا إليه أن يرجع في أمره إلى عرافة بالمدينة فتفيه في أمر ذبح ولده . فأرشدته إلى أن يضع عشراً من الإبل وهى دية الفرد عندهم ، وأن يضرب بالقداح على عبد الله وعلى الإبل ، فإن خرجت على عبد الله الذبيح زاد عشراً من الإبل وإن خرجت على الإبل فانحرها عنه فقد رضيها ربكم ، ونجا صاحبكم !! فوصلوا إلى مكة وجيء بالإبل وصاحب القداح ، وقام عبد المطلب عند هبل داخل الكعبة يدعو الله عز وجل ، وأخذ صاحب القداح يضربها ، وكلما خرجت على عبد الله زادوا عشراً من الإبل حتى بلغت مائة ، كل ذلك وعبد المطلب قائم يدعو الله عز وجل عند هبل فقال رجال قريش قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب فأبى إلا أن يضرب عنها القداح ثلاث مرات ففعل فكانت في كل مرة تخرج على الإبل ، وعندها رضى عبد المطلب ونحر الإبل وتركها لا يصد عنها إنسان ولا حيوان ، ونجى الله تعالى والحمد لله لا لسواه عبد الله والد رسول الله . فهذا سبب لقب عبد الله بالذبيح ، وهو أحب أولاد عبد المطلب العشرة إليه ، وزاده حباً فيه هذه الحادثة العجيبة .

وأكرم الله تعالى عبد المطلب بإعادة حفر زمزم إذ وافقته قريش على حفرها ، وكانت موافقتها لآية شاهدها لعبد المطلب وهى أنهم لما منعوه من حفرها وأبى عليهم ذلك قالوا نختصم إلى الكاهنة وهى كاهنة بنى سعد وكانت بأعلى الشام ، فذهبوا إليها وأثناء سيرهم في طريقهم إليها عطشوا لنفاد مائهم فلما ظنوا الهلاك ، وإذا بعين تتفجر تحت خف ناقة عبد المطلب فقاموا فشربوا وسقوا وعندها أذعنوا لأمر عبد المطلب ورضوا له بحفر بئر زمزم خالصة له دون غيره من أهل مكة .

نتائج وعبر :

إن من نتائج وعبر هذه المقطوعة من السيرة العطرة ما يلي :

(١) فزع عبد المطلب إلى الله تعالى يدعوه وفي كل النوائب دليل على أن مشركى العرب ما كانوا ملاحدة بل كانوا يؤمنون بالله رباً خالقاً رازقاً مدبراً والقرآن شاهد بهذا .

(٢) دعاء عبد المطلب الله تعالى عند هبل استشفاعاً به وتوسلاً ورثه الشيطان جهال المسلمين فإن أحدهم يأقئ قبر الولي ويدعو الله تعالى عنده استشفاعاً بالولي وتوسلاً به على سنة عبد المطلب الجاهلي والعياذ بالله تعالى .

(٣) كرامات عبد المطلب التي أكرمها الله بها كرؤيا بئر زمزم وحفرها ، والماء الذى نبع من تحت خف ناقته ، وخروج القداح على الإبل لا على ولده هي فى الظاهر كرامات لعبد المطلب إلا أنها فى الحقيقة هي آيات النبوة المحمدية وتبشيرها .

(٤) مواصلة ضرب القداح حتى بلغت مائة كانت مبدأ تقرير دية الرجل وهى مائة من الإبل وأقرها الإسلام فكانت دية الرجل المؤمن والمرأة على النصف منها .

الحمل والميلاد

لقد تزوج عبد الله آمنة زوجه بها والده عبد المطلب على إثر نجاته من الذبح وفاءً بالتذر ، وبنى بها عبد الله وحملت منه بالحبيب محمد ﷺ وواكبت حمله ووضع آيات نبوته التالية :

(١) إنه ولد ﷺ من نكاح شرعى لا من سفاح جاهلى وهى عصمة إلهية لا يقدر عليها إلا الله .

(٢) إن أمه آمنة لم تجد أثناء حملها به ﷺ ما تجده الحوامل عادة من

الوهن والضعف فكان هذا آية .

(٣) إن آمنة لما حملت به ﷺ ولما وضعته رأت نورًا خرج منها فأضاء لها قصور الشام : فقد سئل ﷺ عن نفسه فقال : « أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام » .

(٤) إن آمنة لما حملت به ﷺ أتاها آت : إنك حملت بسيّد هذه الأمة ، فإذا وضع في الأرض فقولى : أعيذه بالواحد ، من شرّ كل حاسد وآية ذلك أنه يخرج معه نور يملأ قصور بصرى من أرض الشام فإذا فسميه محمدًا فإن اسمه في التوراة أحمد يحمده أهل السماء وأهل الأرض .

(٥) إنه ولد ﷺ مسرورًا أى مقطوع السرة على خلاف المواليد في قطع القوابل سيرارهم المتصلة بأمهاتهم .

(٦) إنه ولد ﷺ مختونًا أى مقطوع غلفة الذكر فلم يختن كما يختن المواليد ولهذا أعجب به جده عبد المطلب . وقال سيكون لابنى هذا شأن عظيم وحظى عنده بأكرم منزلة .

(٧) انكسار البرمة التى وضعت عليه بعد ولادته على عادة النساء من قریش ؛ إذ وجدت منكسرة على شقين ولم يبت تحتها ﷺ فكانت آية نبوته ﷺ .

(٨) ارتجاج إيوان كسرى بفارس وسقوط أربع^(١) عشرة شرفة من شرفاته .

(٩) خمود نار فارس التى لم تحمد منذ ألف سنة .

(١) أول هذا اللفظ يسقط أربعة عشر ملكًا من ملوكهم وملكاتهم ، فسقط عشرة منهم في أربع سنوات ، وأربعة تم سقوطهم على عهد الفتح الإسلامى .

(١٠) امتلاء البيت الذى ولد به نورًا ، ورؤية النجوم وهى تدنو منه حتى لتكاد تقع عليه ﷺ ، رأت هذا أمه والقابلة التى كانت معها وحدثتا به ، وهو حق لا باطل وصدق لا كذب .

فهذه عشر آيات واكبت ميلاده ﷺ : إعلًا عن نبوته ، وإعلًا معلًا شأنه ، وإخبارًا بما سيؤول إليه أمره فصلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا .

ولد ﷺ بدار المولد المعروفة بدار محمد بن يوسف أخى الحجاج بن يوسف ، وهى الآن مكتبة عامة . وكان ذلك عام الفيل كما تقدم أى بعد غزو أبرهة الأشرم وهزيمته بقرابة خمسين يومًا ، فكانت تلك الهزيمة آية أخرى لمحمد ﷺ دالة على صدق نبوته وصحة رسالته وعظم شأنه فى العالمين .

ولد بعد وفاة والده عبد الله بكذا شهرًا ، إذ تركه حملا فى بطن أمه وسافر للتجارة فى أرض غزة من فلسطين حيث توفى جده هاشم إلا أن عبد الله عاد منها فمرض فى طريق عودته فنزل عند أخواله من بنى عدى بن النجار فمات عندهم بالمدينة النبوية ، وقبره معروف المكان إلى عهد قريب حيث أخفى لزيارة الجهال له والاستشفاع به ، وحتى دعائه والعياذ بالله وهذا لغلبة الجهل على المسلمين لقلة العلماء وقلة الرغبة فى طلب العلم .

نتائج وعبر :

إن هذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجملها فى الأرقام التالية :

(١) بيان شرف أبوى الرسول ﷺ وطهارتهما وفى هذا ما يوجب إكباره ﷺ ومحبته وتقديره .

(٢) الآيات العشر التى واكبت حمله وولادته تقرّر نبوته وسيادته على الناس أجمعين .

(٣) فى الآفة الثالثة إشارة واضعة إلى عموم رسالته وانتشار دینه فى الشرق والغرب .

(٤) فى الآفة الثامنة وهى سقوط أربع عشرة شرفة من شرفات القصر آفة نبوته ﷺ إذ تداول ملك الفرس فى خلال أربع سنوات عشرة ملوك وملكات ، وتمّ الأربعة الباقون فى عهد الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين .

رضاع الحبيب ومراضعه صلى الله عليه وآله

إن أول مرضع تشرفت برضاعه ﷺ والدته الشريفة العفيفة الطيبة الأردان آمنة بنت وهب الزهرية التى رأت من آيات النبوة ما رأت ، ثم ثوية مولاة أوى لهب التى أرضعت عمه حمزة كذلك فكان أخوا للنبيّ من الرضاعة ، وهو عمه صينؤ أبيه . ثم أرضعته حليلة بنت أوى ذؤيب السعدية من بنى سعد بن بكر رضع مع ابنتها الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى . وقد رأت فى إرضاعه ﷺ آيات فلتتركها رضى الله عنها تحدثنا بنفسها عما شاهدت من آيات نبوته ﷺ :

إنها قالت : خرجت من بلدى مع زوجى وابن صغير لنا نرضعه فى نسوة من بنى سعد نلتمس الرضعاء ، وذلك فى سنة شهباء لم تبق لنا شيئاً خرجنا على أتان^(١) لنا قمرء ، ومعنا شارف لنا ، والله ما تبض بقطرة ، وما ننام ليلنا أجمع من بكاء صبيّنا الذى معنا من الجوع ؛ إذ ما فى ثديّ ما يغنيه وما فى شارفنا ما يغذيه ، ولكننا كنا نرجو الغيث والفرج ، خرجنا نلتمس الرضعاء فى مكة فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل لها :

(١) حمارة .

إنه يتيم ، وذلك أنا كنا نرجو المعروف من أوى الصبىّ فما بقيت امرأة قدمت معى إلا أخذت رضيعا غيرى ، فلما أجمعنا العودة إلى بلدنا قلت لزوجى : والله إنى لأكره أن أرجع ولم آخذ رضيعا ، والله لأذهبنّ إلى ذلك اليتيم فأخذه ، فقال لى : لا عليك أن تفعلى عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة فذهبت إليه فأخذه ، وما حملنى على ذلك إلا أننى لم أجد غيره ، فلما رجعت به إلى رحلى ووضعتة فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرب حتى روى وشرب معه أخوه حتى روى ، ثم نام ، وقام زوجى إلى شارفنا تلك فإذا هى حافل^(١) فحلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعنا فبتنا بخير ليلة ، فلما أصبحنا قال لى زوجى : تعلمين والله يا حليلة لقد أخذت نسمة مباركة ، قلت والله إنى لأرجو ذلك ، ثم خرجنا وركبت أتانى وحملته عليها معى فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شىء من حمرهم حتى إن صواحبنى قلن لى يا ابنة أوى ذؤيب ويحك أربعى^(٢) علينا ، أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ؟ فقلت لهن : بلى والله إنها لهى هى ، فقلت والله إن لها لشأنا . ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سعد ، وما أعلم أرضا من أرض الله أجذب منها ، فكانت غنمى تروح على حين قدمنا به معنا شباعا^(٣) فنجلب ونشرب وما يجلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها فى ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم : ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أوى ذؤيب فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنمى شباعا^(٣) لبنا ، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه (أى ستتا رضاعه) وفصلته ، وكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان ، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاما خفرا « غليظا شديدا » فقدمنا به على أمه ، ونحن أحرص شىء

(١) حافل : اجتمع فيه اللبن .

(٢) ربت الإبل : سرحت فى المرعى وأكلت وشربت كيف شاءت .

(٣) كثيرة اللبن .

على مكثه فينا ؛ لما كنا نرى من بركته ، فكلمنا أمه وقلت لها لو تركت بنىً
عندى حتى يغلظ فإنى أخشى عليه وباء مكة ، فلم نزل بها حتى رده معنا
فرجعنا به ، وبعد مقدمنا بأشهر وإنه لفى بهم^(١) لنا مع أخيه خلف بيوتنا ،
إذ أتانا أخوه يشتدّ ، فقال لى ولأبيه : ذاك أخى القرشى قد أخذه رجلان
عليهما ثياب بيض فأضجعا فشقّا بطنه ، قالت فخرجت أنا وأبوه نحوه
فوجدناه قائما منتقعا « متغيرا » وجهه فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له : مالك
يا بنى ؟ قال جاء لى رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعا وشقّا بطنى فالتمسا
فيه شيئا لا أدرى ما هو فرجعنا به إلى خبائنا ، وقال لى أبوه يا حليلة لقد
خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب فألحقه بأهله قبل أن يظهر ذلك به ،
فاحتملناه فقدمنا به على أمه ، فقالت : ما أقدمك به يا ظئر^(٢) وقد كنت
حريصة عليه وعلى مكثه عندك ؟ فقلت لها قد بلغ الندى يا بنى ، وقضيت الذى
على وتخوفت الأحداث عليه فأدبته إليك كما تحبين ، قالت : ما هذا شأنك ؟
فأصدقينى خبرك فلم تدعنى حتى أخبرتها . قالت أفتخوفت عليه الشيطان ؟
قلت : نعم ، قالت : كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل ، وإن لبنى لشأنا ،
أفلا أخبرك به ؟ قلت : بلى قالت رأيت حين حملت به أنه خرج منى نور
أضاء لى قصور بصرى من أرض الشام ، ثم حملت به فوالله ما رأيت من حمل
قط كان أخفّ على ولا أيسر منه ، ووقع حين ولدته وإنه لو اضع يديه بالأرض
رافع رأسه إلى السماء . دعيه عنك وانطلقى راشدة .

هكذا كان استرضاعه ﷺ فى بادية بنى سعد شأنه شأن أبناء سادات
قريش يرضعون أولادهم فى البوادر ليصبحوا أجساما ، ويفصحوا لسائنا ،
ويقووا جنائنا . ولقد قال مرة ﷺ معتزا بشرف أصله واسترضاعه فى البادية :

(١) البهم واحده بهيمة : صغار الغنم .

(٢) الظئر : العاطفة على ولد غيرها المرضعة له .

« أنا أعربكم ، أنا قرشي واسترضعت في بني سعد بن بكر » .

نتائج وعبر :

لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبر نوجزها فيما يأتي :

(١) بيان عدد مرضعته وأنهن ثلاث الأم السريّة آمنة ، وثوية مولاة عمه أبي لهب ، وحليمة السعدية رضى الله عنها .

(٢) بيان مدة رضاعه وأنها كانت حولين كاملين وهي المدة التي قررها الإسلام .

(٣) بيان ما نال حليمة السعدية وأسرتها من خير وبركة وما فازت من شرف لا يقادر قدره بإرضاعها رسول الله ﷺ وحبا له .

(٤) حبّ النبي ﷺ موجب للخير دافع للشرّ فإن حبّ أبي لهب له لما بشر بولادته نفعه فرؤى في المنام وإنه يعذب لموته على الشرك والكفر إلا أنه يمتنع من أتملته ماء كل يوم اثنين وهو يوم ولادته ﷺ وتبشيره به .

(٥) تقرير الإسلام لمشروعية الإرضاع حولين كاملين لمن أراد ذلك .

(٦) بيان إعداد الله تعالى عبده ورسوله محمداً ﷺ لتلقى الوحي عنه بشق صدره ونزع مغمز الشيطان منه حتى لا يبقى له محل ينزل به ليوسوس .

(٧) بيان آيات نبوته التي رأتها آمنة والدته يوم حملها ويوم وضعها .

(٨) جواز الاعتزاز بالخير الذي يعطيه الربّ تبارك وتعالى عبده ، ويكرمه به لكن مع شكر المنعم سبحانه وتعالى على ما أولى العبد من خير وفضل .

كُفلاء الحبيب محمد ﷺ

وحاضنته

لقد عادت بالحبيب ﷺ مرضعته حليمة السعدية لتكفله أمه آمنة ، ويرعاه

جده عبد المطلب والله تعالى كالى الكل وحافظهم ، وبهذا كانت آمنة الوالدة أول كافل للنبي ﷺ فى صباه ، وشاء الله تعالى أن تخرج آمنة بغلامها الزكىّ النقى الطاهر إلى يثرب « المدينة النبوية » لِتُزِيرَهُ أُوْخُوَالَهُ من بنى عدى بن النجار إذ هم أُوْخُوَالُ أَبِيهِ ، وخال الأب خال الابن ، لأن أم عبد المطلب والد عبد الله هى سلمى بنت عمرو النجارية . ولما وصلت آمنة الأباء عائدة من المدينة إلى مكة أدركتها المنية فماتت بها ، وحضنت الحبيب محمدًا الغلام اليافع مولاة أبيه أم أيمن بركة باركها الله ورضى عنها ، إنها أم أسامة حب رسول الله ﷺ ابن حبه زيد بن حارثة مولاه رضى الله عنه وأرضاه ، فوصلت به حاضنته أم أيمن مكة المكرمة فسلمته إلى جده عبد المطلب فكفله ، فكان ثانى الكفلاء لرسول الله ﷺ ، ولقد لقي محمد الغلام الطاهر من الحفاوة والتكريم والإجلال والتقدير من جده الكفيل ما لا يقادر قدره ، ولا يعرف مداه .

ومات الجد الرحيم والكافل الكريم وسن النبي ﷺ ثمان سنوات ليكفله بوصية خصوصية من عبد المطلب عمه أبو طالب وهو شقيق أبيه . فكان أبو طالب ثالث الكفلاء لرسول الله ﷺ فى صباه ، وما زال فى كفالته حتى بلغ سن الرشد ، ثم لازمه أبو طالب العجم الكفيل فلم يتركه ولم يسلمه لقريب ولا لبعيد حتى قبضه الله فى السنة الحادية عشرة من البعثة النبوية العظيمة . ومات أبو طالب — مع الأسف — على غير ملة الإسلام لما سبق فى قضاء الله تعالى أنه يموت غير مسلم ، ولا راد لما قضى الله .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا هى كالتالى :

(١) بيان يُثم النبي ﷺ ؛ إذ مات والده وهو حمل لم يولد بعد ، ومات والدته وهو فى السادسة من عمره وفى القرآن الكريم : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾ .

(٢) بيان من شرفه الله تعالى بكفالة نبيه أيام طفولته ﷺ .

(٣) بيان شرف بركة أم أيمن مولاة رسول الله ﷺ إذ أكرمها الله بحضانهه بعد وفاة أمه ﷺ .

(٤) تقرير عقيدة القضاء والقدر ، وأن السعيد من سعد في بطن أمه ، والشقى من شقى في بطن أمه كذلك ، إذ رفعت الأقدام وجفت الصحف بما هو كائن .

(٥) بيان أن فعل الخير لا يعدم فاعله جوازيه^(١) فإن أبا طالب أخبر النبي ﷺ عنه أنه في النار لموته على غير الإسلام وأخبر أنه يخفف عنه العذاب لما قدم لرسول الله ﷺ من عون وحماية طيلة حياته معه في مكة .

مظاهر الكمال المحمدى

قبل النبوة

إن الفترة التى قضاهها الحبيب ﷺ من أيام طفولته إلى يوم مبعثه كانت حقاً زاخرة بمظاهر الكمالات المحمدية ، وكلها دلائل لنبوته ، وآيات كمالته وها نحن نستعرض مع القارئ الكريم طرفاً منها طلباً لكمال محبته واليقين فى الإيمان به ﷺ .

وإن أول تلك المظاهر الكمالية الاستسقاء به ﷺ وهو طفل لم يبلغ بعد . فقد ذكر الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله فى مختصره أن ابن عساكر روى عن جُلْهَمَة بن عرفة قال قدمت مكة وهم فى قحط ، فقالت قريش : يا أبا طالب أقحط الوادى وأجذب العيال ، فهلم فاستسق . فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجن تجلب عنه سحابة قماء ، حوله

(١) الجوازى : جمع جاز أى لا يعدم جزاء عليه .

أغيلمه فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ولاذ بأصبعه الغلام ، وما في السماء قُرْعة ، فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا وأغدق ، وانفجر الوادى وأخصب النادى والبادى . وفى هذا قال أبو طالب :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه

ثمال^(١) اليتامى عصمة للأرامل^(٢)

فهذه إحدى الكرامات الإلهية للحبيب ﷺ ، وهو مظهر من مظاهر الكمال ، إذ ألهم الله تعالى أبا طالب أن يستسقى به ﷺ وهو طفل فيأخذه ويأقئ به إلى الكعبة ، ويلصق ظهره بها ويرفع الغلام بين يديه ، ولسان حاله يقول اسقنا ربنا فقد توسلنا^(٣) إليك بهذا الغلام المبارك فيسقيهم الله تعالى حتى يجرى واديهم وتخصب أراضيهم . فكانت هذه من طلائع النبوة وتباشيرها .

نتيجة هذا المظهر :

إن نتيجة دراسة هذا المظهر من مظاهر الكمال المحمدى هى تقرير النبوة المحمدية وتأكيدها لتثمر بعد ذلك حب النبى ﷺ ، وتعلق القلب به حتى يكون أحب إلى المرء من نفسه التى بين جنبيه ، ويصبح المحب مستعداً نفساً لترك ما يحب لمحبه ﷺ ، وبذلك تتم الطاعة لرسول الله ﷺ ومتابعته فيما جاء به عقيدة وعبادة وخلقا وأدبا وهذه سبيل النجاة من المرهوب ، والظفر بالمحبوب فى الدارين وتلك غاية الطالبين الصالحين .

وثانى تلك المظاهر للكمال المحمدى : أنه ﷺ لم تكشف له عورة قط

(١) غيائهم وملجؤهم .

(٢) المساكين من الرجال والنساء ، وعصمتهم أى يمنعهم من الضياع ويسد حاجتهم .

(٣) توسلهم كان بحبهم وتعظيمهم له ﷺ فلذا سقاهاهم الله تعالى .

بعد أن حدث له مرة وهو ينقل الحجارة مع رجالات قريش لبناء الكعبة المشرفة وكانوا يرفعون أزرهم على عواتقهم يتقون بها ضرر الحجارة ، وكان هو ﷺ يضع الحجارة على عاتقه وليس عليه شيء ، فرآه عمه العباس رضى الله عنه فقال له : لو رفعت من إزارك على عاتقك حتى لا تضرك الحجارة . ففعل ﷺ فبدت عورته ، فوقع على وجهه فوق الأرض ، ونودى : استر عورتك أى ناداه ملك ، فما رؤيت له بعد ذلك عورة أبداً .

نتيجة هذا المظهر :

إن لهذا المظهر نتائج هى كالتالى :

(١) عناية الله تعالى بنبىه ﷺ ، وحفظه له من كل ما يسىء إلى مقامه الرفيع ، ومكانته السامية .

(٢) كشف العورات مما جاء الإسلام بتحريمه ومنعه إلا من ضرورة تطيب ونحوه .

(٣) بيان مشاركة النبى ﷺ قومه فيما هو خير ومعروف ، وهو مظهر من مظاهر كماله ﷺ ذاتاً وروحاً وخلقاً .

وثالث مظاهر الكمال : أنه ﷺ قد بغض الله تعالى إليه الأوثان وكل أنواع الباطل التى كان يأتيا فتيان قريش ورجالاتها من الغناء وشرب الخمر والقمار وسائر الملاحى ، وقد أخبر ﷺ عن ذلك عن نفسه فقال : « لما نشأت بُغِضت إلى الأوثان وبغض إلى الشعر ، ولم أهم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين ، كل ذلك يحول الله تعالى بينى وبين ما أريد من ذلك ، ثم ما هممت بسوء بعدهما حتى أكرمنى الله برسالته . قلت ليلة لفلان كان يرعى معى : لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة فأسمر كما يسمر الشباب ، فخرجت حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفاً بالدفوف والمزامير لعرس كان لبعضهم فجلست لذلك فضرب الله على أذنى فتمت

فما أيقظني إلا حرّ الشمس ، ولم أقض شيئاً ، ثم عراني مثل ذلك مرة^(١) أخرى .

نتائج هذا المظهر :

إن لهذا المظهر من مظاهر الكمال المحمدى قبل مبعثه ﷺ نتائج هي كما يلي :

(١) حماية الله لرسوله ﷺ من كل ما يسيء إلى سامي مقامه وعظيم منزلته فداه ألى وأمى .

(٢) بيان رعيه ﷺ الغنم في البادية وهي سنة الأنبياء من قبله فقد قال ﷺ : « ما من نبي إلا وقد رعى الغنم » فقالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ فقال : « ولا أنا فقد كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة » .

(٣) إن الحكمة من رعي الأنبياء للغنم هي الإعداد لسياسة البشر بالرفق والرحمة واللين ؛ لأن الغنم وهي الضأن والمعز أضعف من الإبل والبقر ، وأحوج إلى الرفق ، والإنسان أضعف منها ولذا يحتاج إلى سياسة الرفق واللين ، وعدم الشدة والعنف .

ورابع المظاهر للكمال : هو تحكيم قريش له في أعظم خلاف لها كاد يفضي بها إلى الحرب والقتال ، وذلك أن السيل كان قد طغى على الكعبة فغمرها بالمياه وزلزل بناءها وكاد يهد أركانها ، وتشاورت قريش طويلاً في إعادة بناء الكعبة بعد الذي أصابها ، وكانت تهيب أن تمس الكعبة بشيء لا سيما هدمها وتجديد بنائها مخافة أن تنالها عقوبة من الله رب الكعبة وحاميتها من كل كيد يُراد لها ، وبعد أخذ ورد أقدمت على هدمها وتجديد بنائها بعدما أعدت لذلك عدته ومنه المال الحلال ، وفعلاً وزعت أركانها على قبائلها ، وشرعت

(١) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه عليه الذهبي .

فى الهد والبناء ، ولما ارتفع جدار الكعبة وبلغ موضع الحجر الأسود اختلفوا فىمن يتشرف بوضع الحجر مكانه من الركن اليمانى الشرقى ، وتنافسوا فى ذلك وشحّوا به على بعضهم حتى كادوا يقتتلون . وأخيراً ألهمهم الله تعالى إلى تحكيم أول من يقبل من باب الصفا ، وما زالوا كذلك حتى أقبل محمد ﷺ فما إن رأوه مقبلاً حتى قالوا : هذا محمد الأمين رضينا به حكماً . وفعلوا رضى ﷺ بتحكيمهم له ، فأمرهم أن ييسطوا ثوباً فوضعه فيه ثم أمر ممثلى قبائل قريش أن يأخذ ممثل كل قبيلة بطرف ودفعوه ، ولما حاذوا به مكانه من الجدار رفعه بيديه الكريمتين فوضعه مكانه ، وبذلك حقنت دماء قريش ، و عادت الألفة والمودة بين رجالات قريش . فكان هذا الحكم والتحكيم أكبر مظهر من مظاهر الكمال المحمدى قبل إنبائه وإرساله نبياً ورسولاً .

نتائج هذا المظهر :

إن لهذا المظهر من مظاهر الكمال المحمدى نتائج هى فيما يلى :

- (١) تقرير الكمال المحمدى الذى دل عليه وصف قريش له بأنه الأمين إذ لم يعرف بخيانة فى عرض ولا مال ولا قول ولا عمل قط .
- (٢) حسن السياسة التى بها حقنت دماء قريش التى كادت تسيل من شدة الخلاف واحتدامه .

(٣) إظهار شرف محمد ﷺ على كافة رجالات قريش بتحكيمهم إياه ورضاهم بحكمه ، وبهذا وغيره قامت الحجة على أكثرهم فى إنكارهم نبوته واعتراضهم على رسالته ، واتهامهم إياه بالنقائص وهو أكملهم على الإطلاق .

وخامس المظاهر للكمال المحمدى اعتراف بحيرى الراهب بكماله ونبوته ووصيته عمه أبا طالب به ، وذلك أنه لما بلغ ﷺ الثانية عشرة من عمره أو ما يقاربها وأراد أبو طالب وهو عمه وكافله السفر إلى الشام صحبة قافلة تجارية عزّ على أى طالب أن يخلف محمداً وقد امتلأ قلبه بحبه ﷺ .

وعز على محمد ﷺ أن يفارقه عمه كذلك ، فتعينت الصبحه فصحبه أبو طالب معه إلى الشام مجتازين ديار ثمود وبلاد مدين إلى الشام ، وانتهوا إلى بصرى من ديار الشام فنزلوا منزلا قريبا من صومعة راهب هو بحيرى ، وكان بحيرى ذا علم بالمسيحية والكتب الأولى ، وكان رأسا فى المنطقة لعلمه وفضله .

وشاء الله تعالى أن يُطلَّ من أعلى صومعته فىرى قافلة قريش وهى مقدمة نحوه ، وأن بينها غلاما تظله غمامة من الشمس ولما وقفت القافلة للنزول ، ونزلت رأى الغمامة تقف فوق الغلام لا تتعداه تحفظه من حرّ الشمس ، فعلم أن لهذا الغلام شأنًا . وكيف يصل إليه ويجرى الحديث معه ليعرف شأنه ؟ فما كان من الراهب إلا أن دعا القافلة إلى طعام عشاء عنده بعنوان ضيافة ، وقبلت القافلة ذلك بعد تردد واستفسار عن مثل هذه الضيافة التى لم تحصل لقوافلهم المتعددة قط وطمأنهم بحيرى بأنه لا غرض له إلا إكرامهم ، والتعرف على أحوالهم .

ولما حضر الطعام وتقدم الأكل لم ير بحيرى الغلام الذى رأى الغمامة تظله فتعجب ، وقال للقوم : هل تخلف من قافلتكم أحد ؟ فقالوا : لا ، فقال : بلى ، أين الغلام الذى كان معكم فجاءوا به ، وقد تخلف لصغره وحيائه أن يطعم مع رجالات قريش فبقى فى رحل عمه . فلما جاء وجلس أخذ بحيرى يلحظه ويتأمله ، ولما انصرف القوم قام بحيرى إلى محمد ﷺ ، وقال له : يا غلام أسألك بحق اللات والعزى — جريا على حلف العرب بهما — ألا أخبرتنى عما أسألك عنه فقال له رسول الله ﷺ : « لا تسألنى باللات والعزى فوالله ما أبغض شيئا قط بغضهما » . فقال له أسألك بالله ألا ما أخبرتنى عما أسألك عنه . فقال له ﷺ : « سل عما بدا لك » فجعل بحيرى يسأله عن أشياء عن حاله فى نومه وهيبته وأموره فجعل النبى ﷺ يخبره فىوافق ذلك ما عند بحيرى من نعوت الرسول وصفاته التى عرفها من

الكتب السابقة ، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه وكان مثل أثر المحجم ، ثم التفت الراهب بحيرى إلى أبى طالب فسأله عن الغلام فأخبره فعلم أنه النبى المنتظر ، وأمره أن يعود به إلى دياره مخافة أن يغتاله يهود إذا رأوه وعلموا به فقضى أبو طالب حاجته من تجارته بسرعة وعاد بابن أخيه مُسرَّعا إلى مكة .

نتائج هذا المظهر :

إن لهذا المظهر من الكمال المحمدى نتائج نجم لها فيما يلى :

- (١) بيان مدى حب أبى طالب للنبي ﷺ .
 - (٢) آية تظليل الغمامة للنبي ﷺ .
 - (٣) تقرير النبوة المحمدية بشهادة بحيرى الراهب .
 - (٤) عصمة النبي ﷺ قبل بعثته من الشرك لبغضه الحلف باللات والعزى أشد بغض .
 - (٥) حرمة الحلف بغير الله تعالى ، وأن الحلف بغير الله شرك .
- وسادس المظاهر للكمال المحمدى : حضوره ﷺ حلف الفضول إن حلف الفضول كان بعد حرب الفجار التى كانت حربا فجر فيها أهلها بانتهاكهم حرمة الشهر الحرام ، وقد دارت تلك الحرب بين كنانة وقريش من جهة ، وقيس من جهة أخرى ، وكان سببها تافها لم يعد قتل رجل من قيس تداعى بعده الأحلاف للقتال ، ولما انتهت تلك الحرب الفاجرة الخاسرة إذ هى من عمل الجاهلية دعت قريش إلى حلف الفضول ، وسببه أن رجلا من زبيد جاء مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل وكان ذا قدر وشرف في مكة فمنعه حقه فاستعدى الزبيدى الأحلاف على العاص ، وهم عبد الدار ، ومخزوم ،

وَجُمَح ، وسهم ، وعدى فأبوا أن يعينوه على العاص بن وائل فما كان منه إلا أن علا جبل أى قيس ، وصاح بشعر يصف فيه ظلامته . وعندها مشى الزبير بن عبد المطلب وقال : ما لهذا مترك فاجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة فى دار عبد الله بن جدعان ومعهم النبى ﷺ وكان عمره إذ ذاك عشرين سنة ، فصنع لهم عبد الله طعاما وتحالفوا وهم فى شهر ذى القعدة أى حلف بعضهم لبعض متعاهدين متعاقدين بالله ليكوننَّ يداً واحدةً مع المظلوم على الظالم حتى يودى إليه حقه ما بل بحر صوفة ، فسمت قريش ذلك الحلف « حلف الفضول » وقالوا فقد دخل هؤلاء فى فضل من الأمر ، ثم مشوا إلى العاص بن وائل ، وانتزعوا منه حق الزبيدى . وفى هذا قال الزبير بن عبد المطلب وهو عم النبى ﷺ :

إن الفضول تحالفوا وتعاهدوا ألا يُقيم بيطن مكة ظالم
أمر عليه توافقوا وتعاهدوا فالجار والمعتر فيهم سالم

وفى هذا الحلف يقول الرسول ﷺ فى الإسلام : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحبُّ أن به حمر النعم ، ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت » .

وعبد الله بن جدعان هذا هو الذى كان يكسو ألف حلة وينحر ألف بعير فى كل موسم ، وقالت فيه أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : إن عبد الله ابن جدعان يا رسول الله كان يطعم الطعام ويقرى الضيف فهل ينفعه ذلك يوم الدين ؟ فقال : « لا ؛ لأنه لم يقل يوماً من الدهر : رب اغفر لى خطيئتي يوم الدين »^(١) .

(١) رواه مسلم وعبد الله بن جدعان يكنى بأبى زهير وهو تيمى من قرابة عائشة ولذا سألت عنه رضى الله عنها .

نتائج هذا المظهر :

إن لهذا المظهر من الكمال المحمدى نتائج وعبراً نلخصها فيما يلي :

(١) شعور أهل الجاهلية بالخطيئة وكراهيتهم لها ، ولذا سموا الحرب التي انتهكوا فيها حرمة الحرم بحرب الفجار ، وهو فعال من الفجور ؛ إذ تبادلوا فيه الفجور فصار فعلاً من باب فاعل كقاتل قتالا .

(٢) بيان ظلم وطغيان العاص بن وائل ، وهو الذى وقف في وجه الدعوة الإسلامية يحاربها حتى مات إلى جهنم .

(٣) بيان مروءة الزبير بن عبد المطلب ، إذ هو الذى كان السبب في تكوين حلف الفضول ، وإعادة حق الزبيدى إليه بعد انتزاعه من العاص بن وائل .

(٤) بيان فضل بنى هاشم على غيرهم ، وحسبهم شرفاً ومفاخرهم الجمعة وكون النبى ﷺ منهم .

(٥) تقرير الكمال المحمدى وتأكيده بحضوره ﷺ هذا الحلف ، ومفاخرته به في قوله الثابت الصحيح : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لى به حُمَرُ النعم ، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت » .

(٦) عدم انتفاع العبد بما يعمله من الخيرات والصالحات إذا مات مشركاً لقول الرسول ﷺ لعائشة وقد سألته عن عبد الله بن جدعان : « إنه لم يقل يوماً من الدهر رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين » . أى لا ينفعه عمله الصالح لموته على الشرك والكفر .

وسابع الكمالات المحمدية هو رغبة خديجة فيه ، وزواجها به ﷺ إنه ﷺ لما تجاوز العشرين من عمره ، وحضر حلف الفضول ، وقبله تحكيم قريش له في وضع الحجر الأسود ، واشتاره بالصدق والوفاء والأمانة والعفة والنزاهة زيادة على شرف الأصل ، وطيب المختد ، وكان بمكة امرأة سرية ثرية ذات

كالات نفسية من خلق فاضل ، وأدب رفيع تلك هى خديجة بنت خويلد
الأسدية القرشية رضى الله عنها وقد بلغها من مظاهر الكمال المحمدى ما جعلها
تعرض عليه الاتجار بما لها ، ليوفر له دخلا ماليا يستغنى به عن كفالة عمه
أبى طالب ورفادته ورضى الحبيب محمد ﷺ بالعرض وقبل الطلب وخرج
في قافلة تجارية إلى الشام ويصحبه لخدمته غلام خديجة المسمى بميسرة . وهذه
هى المرة الثانية التى يسافر فيها ﷺ إلى الشام ؛ إذ الأولى كانت مع عمه
وفي صباه ، وقد تقدم الحديث عنها في رابع الكمالات المحمدية .

ومن الآيات التى شاهدها ميسرة في سفره مع الحبيب ﷺ أنه رأى ملكين
يظللانه من حر الشمس إذا اشتدت الهاجرة ، كما أنه ﷺ نزل يوما تحت
ظل شجرة قريبة من صومعة راهب فرآه الراهب فسأل ميسرة عنه فقال له :
هو رجل من أهل الحرم قرشي فقال له الراهب : إنه ما نزل تحت هذه الشجرة
قط إلا نبئ ، وذلك لما شاهد من آيات النبوة التى تلوح لكل ذى بصيرة
وتأمل .

كما قال الأعرابى الذى نظر لأول مرة إلى الحبيب ﷺ فقال : والله ما هو
بوجه كذاب !!

وعاد الحبيب ﷺ بتجارة رابحة وسرت بها خديجة ، وزادها سرورا ما أنبأها
به غلامها ميسرة من خبر الراهب وأمر الملكين اللذين يظللانه من حر الشمس .
فرغبت لذلك ولغيره في الزواج به ﷺ وعمره يومئذ خمسة وعشرون عاما ،
وعمرها ما بين الخامسة والثلاثين والأربعين من السنين . وقد تزوجت قبله ﷺ
أبا هالة زرارة التميمي وتزوجت قبل هذا بعتيق بن عائذ المخزومي ، وولدت
له بنتا تدعى هندًا وبهذا كان كل من هند وهالة ربيبا للنبي ﷺ .

خطبة الزواج الميمون :

وكانت الخطبة كالتالى : بعثت خديجة إليه ﷺ تقول : يا ابن عم إني قد

رغبت فيك لقربتك وَسِطَتِكَ^(١) في قومك ، وحسن خلقك ، وصدق حديثك . ثم عرضت عليه نفسها ليتزوجها . وكانت رضى الله عنها يومئذ من أوسط نساء قريش نسباً وأعظمهنّ شرفاً وأكثرهنّ مالاً . وكل واحد من قوماها كان حريصاً على الزواج بها لو يقدر على ذلك .

فذكر ﷺ لأعمامه ، فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب ، وأبو طالب ، حتى دخلا على والدها خويلد بن أسد ، فخطباها إليه فزوجها ، وأصدقها رسول الله ﷺ عشرين بكرة ، وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ ولم يتزوج غيرها حتى توفاهما الله ، وانتقلت إلى جواره ، وكل أولاده^(٢) منها إلا ما كان من إبراهيم فإنه ابن مارية القبطية المصرية .

نتائج وعبر هذا المظهر :

إن لهذا المظهر من مظاهر الكمال المحمدى نتائج وعبراً نجمها إزاء النقاط التالية :

- تقرير النبوة المحمدية برؤية الملكين يظللانه من حر الشمس .
- شهادة الراهب له بالنبوة ، وهى شهادة عالم وكفى بها شهادة .
- بيان ما حبا الله تعالى به نبيه من الكمالات النفسية التى رغبت خديجة فى الزواج به .
- مشروعية إبداء المرأة رغبتها فى الرجل تريد الزواج به .
- مشروعية الخطبة للزواج و تولى ذلك قريب الزوج كما تولى حمزة

(١) شرفك وسيادتك .

(٢) الذكور هم : القاسم وبه يكنى ﷺ ، وعبد الله ، والطيب ، والإناث فاطمة ، وزينب ورقية ، وأم كلثوم على جميعهم السلام .

وأبو طالب خطبة خديجة من والدها خويلد بن أسد .

● بيان شرف خديجة أم المؤمنين وهى حقا سيدة نساء قريش ، وقد جاء جبريل عليه السلام ببشارة لها من أعظم البشريات جاء بها من الله عز وجل وهى : إن الله يقول لك — يريد رسول الله — أقرئ خديجة منى السلام وبشرها بقصر فى الجنة من قصب^(١) .

دنوّ ساعة طلوع

الشمس المحمديّة

لقد بلغ الحبيب الآن الأربعين من عمره ﷺ ، وأخذت ساعة طلوع الشمس المحمديّة تقترب ، وها هو ذا ﷺ إن غدا لحاجة أوراخ لا يمر بشجر ولا حجر إلا قال له : السلام عليك يا رسول الله ، فيلتفت حوله يمينًا وشمالًا فلا يرى أحدًا سوى الشجر والحجر يسلم عليه .
فكانت هذه مقدمة الإنباء العظيم .

طلوع الشمس المحمديّة

وفى ليلة الإثنين من شهر ربيع الأول طلعت الشمس المحمديّة حيث صار لا يرى رؤيا فى ليله ولا نهاره إلا جاءت كفلق الصبح . وهذا الزهرى يروى عن عروة عن خالته عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها وأرضاها قولها : إن أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من النبوة حين أراد الله كرامته ، ورحمة العباد به الرؤيا الصادقة لا يرى رسول الله ﷺ رؤيا فى نومه إلا جاءت كفلق الصبح ، قالت : وحبب إليه الخلوة : فلم يكن شئ أحب إليه من أن يخلو وحده . واختار ﷺ خلوته المحبة إليه جبل حراء وهو أحد جبال مكة المطلّة

(١) ذهب .

عليها فكان يخلو به مجاوراً فيه يتحنّث — أى يزيل الحنث عنه — وهو ما يراه ويسمعه من الشرك والباطل بين أفراد قومه من قريش . وفى ليلة من ليالى رمضان المبارك ولعلها السابعة عشرة منه نزل عليه جبريل عليه السلام يحمل بشرى النبوة تمهيداً لحمل الرسالة إلى الناس كافة .

وها هو ذا إمام المحدثين البخارى رحمه الله تعالى ورضى عنه يروى لنا عن أمنا عائشة رضى الله عنها قصة بدء الوحي . إذ تقول : أول ما بدىء به رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنّث فيه — وهو التعب — الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع^(١) إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء .

فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : « ما أنا بقارىء » . قال : « فأخذنى فغطنى^(٢) حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ ، فقلت ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال : ﴿ اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : « زملونى^(٣) زملونى » فزملوه حتى ذهب عنه الروع^(٤) . فقال لخديجة وأخبرها الخبر : « لقد خشيت على نفسى » ، فقالت : كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل^(٥) ،

(١) ينزع : يرجع .

(٢) غطنى : ضمنى إليه وعصرنى كما تضم الأم ولدها إلى صدرها رحمة به وشفقة عليه .

(٣) أدخلونى فى ثياب وغطونى بها .

(٤) الروع : الفزع والخوف .

(٥) الكل : التعب الحسر من الإعياء .

وتكسب المعدوم^(١) ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجملها فيما يأتي :

(١) تقرير سنة غالبية وهي أن الأنبياء يرسلون على رأس الأربعين من أعمارهم .

(٢) بيان آية من آيات النبوة المحمدية وهي سلام الأشجار والأحجار عليه ﷺ .

(٣) تقرير أن الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة ، إذ فترة الوحي كانت ثلاثًا وعشرين سنة منها ستة أشهر كانت مناما .

(٤) مشروعية العزلة إذا فسد الناس وأصبح المؤمن لا يسلم من شرهم .

(٥) بيان أن أول ما نبيء به النبي ﷺ هو ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ وأن النبوة كانت قبل الرسالة ؛ إذ نبيء ﷺ باقرأ وأرسل بالمدثر وبينهما فترة من الزمن .

(٦) تعين القراءة على المسلم وطلب العلم والتعلم ، إذ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

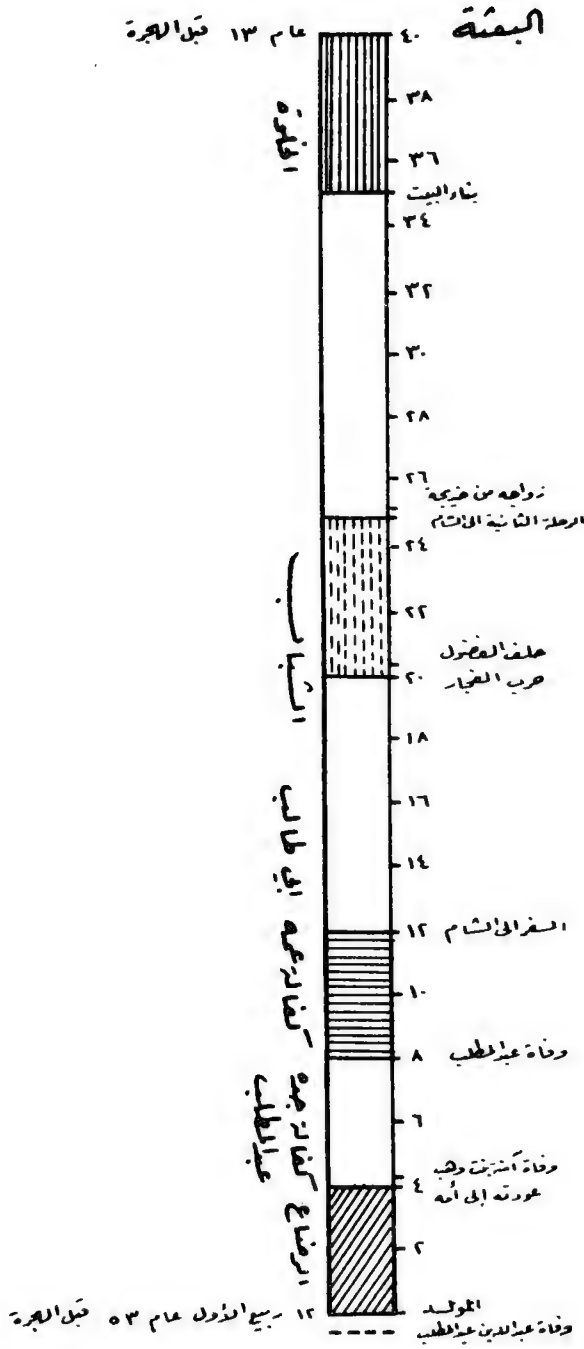
أشعة الشمس المحمدية

تضيء دار خديجة

وتطلع على ورقة بن نوفل

ما إن جاء ﷺ خديجة وقص عليها حتى قالت له : أبشري يا ابن عم فوالذي

(١) إنك بعزمك وقوة إرادتك تفوز وتظفر بما لا يحصل عليه غيرك ، هذا إن قرئ بفتح التاء تكسب ، وإلا فمعناه أنك تعطى ما لا يعطيه غيرك من المال وغيره .



نفس خديجة بيده إلى لأرجو أن تكون نبيّ هذه الأمة ، ثم جمعت عليها ثيابها وانطلقت إلى ورقة بن نوفل ابن عمها ، وكان قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل ، وقالت يا ابن عم اسمع من ابن أخيك . فقال له ورقة يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره الحبيب ﷺ خبرَ ما رأى ، فقال له : ورقة : هذا الناموس الأكبر الذى أنزل على موسى ، ياليتنى فيها جَدَع ، ليتنى أكون حيًّا إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ : « أَوْ مُخْرِجِيْهِمْ هُمْ ؟ » قال ورقة : نعم لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا .

وكان الحبيب ﷺ لم يقض المدة التى يقضيها فى غار حراء مُحْتَضًا فعاد إلى حراء لإتمامها . فلما قضاها وعاد من جواره بدأ بالبيت كعادته فطاف سبْعًا فلقيه ورقة وهو يطوف يا ابن أخي أخبرنى بما رأيت وسمعت فأخبره رسول الله ﷺ ، فقال ورقة والذى نفسى بيده إنك لنبىّ هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس^(١) الأكبر الذى جاء موسى ، وَلَتَكْذِبَنَّه وَلَتُؤْذِنَنَّه ، وَلَتُخْرِجَنَّه ، وَلَتَقَاتِلَنَّه ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرنَّ الله نصرًا يعلمه ، ثم أدنى رأسه منه فقبَّلَ يَافُوخَه^(٢) ، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله .

وحمل خديجة حرصها على تجلّى الحقيقة ومعرفة الأمر على حقيقته ليكون إيمانها بعلم ويقين فأجرت الاختبار التالى :

فقالت لرسول الله ﷺ : يا ابن عم هل تستطيع أن تجربنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذ جاءك ، قال : « نعم » . قالت : فإذا جاءك فأخبرنى به ، فجاءه جبريل عليه السلام كما كان يجيئه ، فقال رسول الله ﷺ لخديجة :

(١) المراد بالناموس جبريل عليه السلام ، وأصل الناموس سرّ الرجل فى الخير والشر .
(٢) يافوخ : وسط الرأس . روى الترمذى عنه ﷺ أنه رأى ورقة فى المنام وعليه ثياب بيض ورد أيضا قوله ﷺ : « رأيت القس فى الجنة وعليه ثياب الحرير ؛ لأنه أول من آمن بى » .

« يا خديجة هذا جبريل قد جاءني » ، قالت : قم يا ابن عم فاجلس على فخذي اليسرى فقام رسول الله ﷺ فجلس على فخذه اليسرى ، قالت هل تراه قال : « نعم » ، قالت : فتحول فاجلس على فخذي اليمنى ، فتحول وجلس ، وقالت : هل تراه ؟ قال : « نعم » قالت : فتحول فاجلس في حجرى ، فتحول فجلس في حجرها قالت : هل تراه ؟ قال : « نعم » . فتحسرت وألقت خمارها ورسول الله ﷺ جالس في حجرها ثم قالت : هل تراه ؟ قال : « لا » ، قالت يا ابن عم أثبت وأبشّر فوالله إنه ملك ، وما هذا بشيطان .

وبهذا كانت خديجة أول من استضاء بنور النبوة المحمدية وأول من آمن برسول الله ﷺ والوحي الذى جاءه ، كما أن ورقة كان من الفائزين بالأسبقية لولا أن المنية اخترمته فلم يشهد ضحى الشمس المحمدية .

نتائج وعبر :

- إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نلخصها كالآتي :
- (١) بيان كمال عقل خديجة وصحة علم ورقة ، وفضل كل منهما وكماله الروحى .
 - (٢) بيان ذكاء خديجة وسلامة فطرتها بإجرائها ذلك الاختبار العجيب الذى كانت نتيجته تقرير النبوة المحمدية فأمنت على علم وبيقين فرضى الله عنها وأرضاها .
 - (٣) الملائكة تكون مع الحياء والستر ، والشياطين تكون مع التفحش والوقاحة والعري .
 - (٤) استحباب ستر المرأة رأسها ولو فى خلوتها . حتى لا تقربها الشياطين .

فتر الوحي وعودته

إنه بعد تلك المفاجأة السارة له ﷺ ولخديجة رضى الله عنها وورقة بن نوفل غفر الله له فتر الوحي وانقطع قرابة الأربعين يومًا ، ومات ورقة ، واشتد

الألم النفسى بالحبيب ﷺ حتى صرح لخديجة بأنه خائف على نفسه ، بل كان كالهائم على وجهه فى جبال مكة وشعابها ، وكان كلما اشتد به الحزن تبدى له جبريل يقول له : يا محمد إنك رسول الله حقاً فيخف عنه حزنه ، ويقلُّ ألمه . وتمضى الأيام وفجأة وهو يمشى يسمع صوتاً من السماء فيرفع بصره فإذا الملك الذى جاءه بغار حراء قاعد على رفرف^(١) بين السماء والأرض ، فرعب منه أشد الرعب ورجع إلى أهله يقول زملوني زملوني^(٢) فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَتَذَكَّرْ * فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نلخصها فيما يلى :

(١) تشويق الرسول ﷺ إلى الوحي بانقطاعه عنه مدة من الزمن الأمر الذى تألم له رسول الله أشد الألم .

(٢) لطف الله تعالى ورحمته بنبيه ﷺ إذ كان يرسل إليه جبريل يناديه ويطمئنه وييسره بأنه رسول الله حقاً .

(٣) بيان أول ما أرسل به ﷺ وهو النذارة ، والبشارة لازمة لمن قبل النذارة فآمن ووحد الله فى عبادته ، وتابع الرسول فيما جاء به .

صور الوحي المحمدي

إن الوحي هو الإعلام السريع الخفى ، وله مع رسول الله ﷺ صور جاء ذكر بعضها فى قول الله تعالى من سورة الشورى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِّئٍ أَنْ

(١) الرفرف : البساط من إسترق ، والإسترق الحرير الغليظ .

(٢) التزمل والتدثر بمعنى واحد وهو التللف فى الثياب للتدفئة وذهاب الفزع .

يَكَلِّمُهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ مُّبِينٍ .

وبيان تلك الصور كالآتي :

(١) الرؤيا الصالحة الصادقة في النوم ، وقد بدى بها الوحي إلى رسول الله ﷺ واستمرت لمدة ستة أشهر ؛ إذ قالت عائشة رضي الله عنها : أول ما بدى به رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

(٢) الإلقاء في الروع والنفث فيه ، لقوله ﷺ : « إن روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها ، فاتقوا الله ، وأجملوا في الطلب ، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته »^(١) .

(٣) أن يأتي في مثل صلصلة الجرس وهو أشده على رسول الله ﷺ كما أخبر بذلك عن نفسه في حديث البخاري إذ قال ﷺ وقد سألته الحارث ابن هشام عن كيفية إتيان الوحي له فقال : « أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قاله » .

(٤) أن يأتيه الملك في صورة رجل فيوحي إليه ما شاء الله وهو أهون عليه لوجود التجانس المطلوب عادة للتفاهم بين المتخاطبين ، وقد جاء هذا أيضا في حديث البخاري ، إذ جاء فيه قوله : « وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول » . وكثيرا ما كان يأتيه ﷺ جبريل عليه السلام في صورة دحية بن خليفة الكلبي الأنصاري .

(٥) إن يخاطبه الرب عز وجل كفاحًا من وراء حجاب كما تم ذلك له ﷺ

(١) رواه ابن أبي الدنيا وأخرجه الحاكم وصححه .

ليلة الإسراء والمعراج حيث فرض عليه وعلى أمته الصلوات الخمس وتردد عليه في ذلك عدة مرات يسأله التخفيف وكان ذلك بإرشاد موسى عليه السلام ، وكما تم لموسى عليه السلام بجبل الطور عدة مرات فكان يسمع كلامه ولا يرى وجهه .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نذكرها فيما يلي :

- (١) تقرير الوحي المحمدي وإتيانه .
- (٢) بيان صور الوحي التي كان ينزل عليها .
- (٣) تقرير أن الرؤيا الصالحة من الوحي .
- (٤) ذم الحرص من عبد يؤمن بالقضاء والقدر .
- (٥) بيان حقيقة وهي أن ما عند الله ينبغي أن يطلب بطاعته تعالى لاجمعيته .
- (٦) تقرير سنة وهي أن التجانس ضروري لحصول التفاهم بين المتخاطبين .
- (٧) بيان شرف دحية بن خليفة الأنصاري إذ كان جبريل يأتي في صورته .
- (٨) أكمل صور الوحي ما كان كفاحاً^(١) مع الله عز وجل بلا واسطة .

بدء الحبيب ﷺ دعوته

وأول من أسلم

إن عودة الوحي كانت حامية حارة إذ أمر فيها رسول الله ﷺ بإندار قومه عاقبة ما هم فيه من الشرك ، وما هم عليه من الكفر والفساد والشر ، كما أمر هو ﷺ بتعظيم الله عز وجل وتوحيده ثم بتطهير ثيابه من النجاسات

(١) يقال لقيت فلانا كفاحاً أى مواجهة ليس بينهما شيء .

لأنه أصبح يتلقى الوحي في كل حين ، فتعين أن يكون ﷺ ، على أتم الأحوال وأحسنها ، كما أمر بالاستمرار على هجر الأوثان ، والبعد عنها ، وعدم الالتفات إليها بحال من الأحوال كل هذا تضمنه قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ .

ومن هنا بدأ ﷺ دعوته بعرضها على من يرى فيه الاستعداد لقبولها فكان أول من أسلم من النساء خديجة بنت خويلد أم المؤمنين رضى الله عنها وأرضاها وأول من أسلم من الصبيان علي بن أبي طالب رضى الله عنه إذ أسلم وعمره عشر سنين ، وصلى مع رسول الله ﷺ مختلفين بصلاتهما عن أعين قريش . وأول من أسلم من الرجال أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، واسم أبي بكر قبل الإسلام عتيق ، واسم أبيه عثمان بن عمرو التيمي القرشي ، وكنية عثمان أبو قحافة .

وأول من أسلم من الموالى زيد بن حارثة بن شُرْحَبِيل الكلبى ، وكان عبداً لحكيم بن حزام فوهبه لعمة خديجة بنت خويلد ، وهى زوجة لرسول الله ﷺ يومئذ فاستوبه منها رسول الله ﷺ فوهبته إياه ، فعتقه ﷺ وتبناه ، وذلك قبل البعثة النبوية ، وكان زيد قد خرجت به أمه وهو ابن ثمانية أعوام لِتُزِيرَهُ بعض أقربائه فأصابته خيل من بنى القين فباعوه في سوق حَبَاشَةَ من أسواق العرب ، فاشتراه حكيم بن حزام في جملة أعبد ووهبه خديجة كما تقدم وقد حزن لفراقه والده وقال في قصيدة منها الأبيات التالية :

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل	أحى فيرجى أم أتى دونه الأجل
فوالله ما أدرى وإنى لسائل	أغالك ^(١) بعدى السهل أم غالك الجبل

(١) أى أهلكك .

ويا ليت شعري هل لك الدهر أوبةً فحسبى ^(١) من الدنيا رجوئك لي بجل
تذكرنيه الشمس عند طلوعها وتعرض ذكراه إذا غربها أفل
وإن هبت الأرياح هيجن ذكره فيا طول ما حزنى عليه وما وجل ^(٢)
سأعمل نص ^(٣) العيس في الأرض جاهداً ولا أسأئم التطواف أو تسأئم الإبل
حياتي أو تأتى على منيتى فكل امرئ فإن وإن غره الأمل

وبعد زمن قدم والده مكة وعرف وعرف ولده زيذا ، وخيره الرسول ﷺ
بين الذهاب مع والده وبين البقاء معه فاختار رسول الله ﷺ ولذا عتقه وتبناه
وكان يعرف يزيد بن محمد حتى جاء الإسلام وكرم التبني فأصبح يعرف يزيد
ابن حارثة بدل محمد ﷺ .

نتائج وعبر :

- إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجلها تحت الأرقام الآتية :
- (١) بيان ما أمر به رسول الله ﷺ بعد فترة الوحي من النذارة والتوحيد ،
والطهارة ، والاستمرار على هجران الأوثان .
 - (٢) بيان أن أول من أسلم من النساء خديجة ، ومن الصبيان على ، ومن
الرجال أبو بكر ومن الموالى زيد بن حارثة رضى الله عنهم أجمعين .
 - (٣) بيان سبب عتق زيد وتبني الرسول ﷺ له ، وهو اختياره للرسول
ﷺ دون والده وعمه .

(١) يكفينى .

(٢) الوجل : الخوف .

(٣) نص العيس : سير الإبل .

إسلام الصديق وأثره في الدعوة

لقد أسلم الصديق مبكرًا ، إذ هو أول من أسلم من الرجال الأحرار ، كما تقدم ، وقد تَوَجَّهَ الرسول ﷺ بكلمة لم يظفر بها أحد غير أبي بكر الصديق وهى قوله ﷺ : « ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كِبَوة^(١) ونظرٌ وتردُّدٌ إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ما عكم^(٢) عنه حين ذكرته له ، وما تردد فيه » .

وكان الصديق رضى الله عنه فى سنِّ قرية من سنِّ الرسول ﷺ وكان ذا حَسَبٍ ونسب فى ديار مكة وبين سكَّانها ، وهو وإن لم يكن هاشميًّا فهو تَيْمِيٌّ قُرَشِيٌّ عَظِيمٌ ، يمتاز بحسن الخلق ، وكرم النفس ، والمعرفة بأنساب العرب حتى إنه لِيُضْرَبَ به المثل فى ذلك .

وما إن أسلم رضى الله عنه عن قناعة وعلم بما دخل فيه من دين الله تعالى حتى أخذ يَتَّصِلُ بخيار رجالات قريش فى مكة يعرض عليهم الإسلام سرًّا فأجابه وأسلم على يديه نخبة ممتازة كان لها الأثر الكبير فى نشر الدعوة داخل مكة وخارجها . وأفراد هذه الطليعة هم :

● عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس الخليفة الراشد رضى الله عنه وأرضاه ، يكنى بأبى عبد الله ، وبأبى عمرو . ويلقب بذى النورين لتزوجه بابنتى رسول الله ﷺ : رقية ، ثم أم كلثوم رضى الله عنهما .

● الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى القرشى ، يكنى بأبى عبد الله وهو حوارى رسول الله ﷺ ، وابن عمته صفية بنت عبد المطلب .

(١) الكِبَوة : التأخر وقلة الاستجابة .

(٢) ما ثَلَبْتُ ولا تَرَيْتُ بل أجاب بسرعة .

● عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد الحارث بن زهرة القرشي ، ذو الهجرتين رضى الله عنه وأرضاه .

● سعد بن أبي وقاص واسم أبي وقاص — وهو والد سعد — مالك بن أهيب بن عبد مناف القرشي ، خال الحبيب ﷺ إذ جد سعد أهيب عم آمنة بنت وهب أم النبي ﷺ . وكان رضى الله عنه مجاب الدعوة حتى قيل فيه : احذروا دعوة سعد^(١) . فرضى الله عن سعد وأرضاه .

● طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب القرشي يكنى بأبي محمد الفياض أحد العشرة المبشرين بالجنة ، قتل في وقعة الجمل رضى الله عنه وأرضاه .

فهؤلاء نفر الذين أسلموا على يد أبي بكر الصديق رضى الله عنهم ، يضاف إليهم عليّ وزيد وأبو بكر الصديق فيصبحون ثمانية أنفار هم أهل السبق في الإسلام إذ آمنوا وصلّوا مع رسول الله ﷺ قبل كل أحد من الناس باستثناء السيدة خديجة رضى الله عنها إذ كانت أول المؤمنين .

نتائج وعبر :

من نتائج هذه المقطوعة من السيرة العطرة ما يلي :

(١) بيان فضل أبي بكر الصديق .

(٢) بيان فضل الدعوة إلى الله ، وفضل من يهدى الله على يديه فردًا أو أفرادًا .

(٣) بيان شرف هؤلاء الأنفار الثمانية لسبقهم في الإسلام إذ أثنى تعالى عليهم

(١) روى أن سعدًا رضى الله عنه قال مرة للنبي ﷺ ادع الله تعالى أن يجعلني مجاب الدعوة يا رسول الله . فقال له الرسول ﷺ : « أَطْبَ مَكْسَبُكَ تَجِبَ دَعْوَتُكَ » .

في قوله : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ
بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ .

أفواج السابقين بعد الأولين

وما إن أسلم أولئك النفر الكرام حتى تتابع أشراف قريش يدخلون في
الإسلام فيؤمنون بالله رباً وإلهاً لا إله غيره ولا رب سواه وبمحمد نبياً
ورسولاً ، وبالقرآن هدى ونوراً ، فأسلم :

أبو عبيدة عامر بن الجراح القرشي الملقب بأمين هذه الأمة ، أحد العشرة
المبشرين بالجنة ، وهو الذي انتزع من رسول الله ﷺ حلقتى الدرع يوم
أحد فسقطت بذلك ثنياه رضى الله عنه وأرضاه .

وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال القرشي ، وأمه برة بنت عبد
المطلب فهو ابن عمه رسول الله ﷺ هاجر الهجرتين وشهد بدرًا وتوفي سنة
ثلاث من الهجرة ، وتزوج رسول الله ﷺ امرأته إكراماً له واعتراًفاً بفضله
في إسلامه أم سلمة فأصبحت أم المؤمنين ، وهذا من إكرام الله تعالى لها ولأبي
سلمة رضى الله عنهما وأرضاهما .

والأرقم بن أبي الأرقم وهو عبد مناف بن أسد القرشي أسلم عاشر عشرة
وكان النبي ﷺ قد استخفى في داره بالصفاء يدعو الناس إلى الإسلام سراً
حتى اكتمل عدد المسلمين أربعين رجلاً ، وكان آخرهم إسلاماً عمر بن
الخطاب رضى الله عنهم ويومئذ خرجوا من الدار وصلّوا جهرة حول الكعبة .

وعثمان بن مظعون القرشي ، ويكنى بأبي السائب وهو أخ للنبي ﷺ من
الرضاع وهو أول مهاجر توفي بالمدينة النبوية ، ومن فضائله وإكالاته الروحية
أنه امتنع من شرب الخمر في الجاهلية قبل الإسلام ، وقال : لا أشرب شراباً

يُذهب عقله ، ويضحك بى من هو أدنى منى ويحملنى على أن أنكح كريمتى .

وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف بن قصي القرشي ، وكان أسنَّ من النبي ﷺ بعشر سنين هاجر إلى المدينة مع أخويه الطفيل وحصين أسلم قبل دخول الرسول ﷺ دار الأرقم ، وكانت له منزلة عند رسول الله ﷺ ، وقدراً يكنى بأبى الحارث رضى الله عنه وأرضاه .

وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوي القرشي ابن عم عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، وصهره إذ كانت تحتها فاطمة بنت الخطاب رضى الله عنها التى كانت سبب إسلام أخيها عمر رضى الله عنهما .

وأسماء وعائشة بنتا الصديق أسلمت عائشة وهى طفلة صغيرة وأما أسماء فكانت متزوجة بالزبير بن العوام حين أسلمت فرضى الله عنهما وأرضاهما .

وخبّاب بن الأرت حليف بنى زهرة التميمي .

وعبد الله بن مسعود بن أم عبد الهذلي .

وعمير بن أبى وقاص أخو سعد بن أبى وقاص .

ومسعود بن القاربي بن ربيعة من القارة وهم قوم رماة لقبوا بالقارة .

وهكذا توالى إسلام من أكرمهم الله بالإسلام فأسلم جعفر بن أبى طالب وامرأته^(١) ، وأسلم عيَّاش وامرأته ، وخنيس ، وعامر بن ربيعة بن عنز بن وائل ، وعبد الله بن جحش وأخوه أبو أحمد ، وحاطب بن الحارث وامرأته فاطمة بنت المُجَلَّل ، وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر الصديق ، وخالد بن سعد بن العاص ، وعمار بن ياسر العنسي المذحجي حليف بنى يقظة ، وصهيب بن سنان الرومى نسبة إلى الروم إذ كان قد أسر فى أرض الروم وهى

(١) هى أسماء بنت عميس تزوجها أبو بكر الصديق بعد استشهاد جعفر فى مؤتة فرضى الله عنهم أجمعين .

الشام فاشترى منهم ، وورد فيه قول النبي ﷺ : « صهيب سابق الروم »
فرضى الله عنه وأرضاه وجعل الجنة مأوانا ومأواه ، آمين .

لقد بلغ المسلمون هذا العدد الكبير وما زالت الدعوة سراً لم يجهر بها بين
صفوف قريش ، لأن هذا العدد غير كافٍ في دفع ما يتوقع من أذى تصيب
به قريش المسلمين ، وقبل كل شيء أن الله تعالى لم يأذن بعد لرسوله والمؤمنين
بالجهر بالدعوة ، ولو أذن لهم لجهروا بها وكلفهم ذلك ما كلفهم ، وسيأتي
اليوم الذين يؤذن لهم وسوف يتعرضون لألوان من التعذيب والاضطهاد
ويتلقون ذلك بطيب نفس ورحابة صدر ؛ لأنه في ذات الله ، وما كان في ذات
الله فهو محبوب للحبيب الصادق .

نتائج وعبر :

لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبر نجملها فيما يلي :

(١) بيان فضل السبق في الخير وأهله .

(٢) تقرير مبدأ وضعه رسول الله ﷺ وهو قوله : « خياركم في الجاهلية
خياركم في الإسلام إذا فقهوا » .

(٣) بيان فوز الأرقم بن أبي الأرقم بمنقبة عظيمة وهي اتخاذ داره مركزاً
للدعوة أيام ضعفها واستخفافها وهي أخرج أوقات مرت بها الدعوة .

(٤) بيان فضيلة فاطمة بنت الخطاب بسبقها للإسلام وهداية أخيها عمر
بسببها .

(٥) إن من النساء من فزن بالسبق في الإسلام وهن عائشة ، وأسماء بنتا
الصديق ، وفاطمة بنت الخطاب ، وأسماء بنت عميس امرأة جعفر ، وأم سلمة
امرأة أبي سلمة أم المؤمنين وغيرهن رضى الله عنهن وأرضاهن .

الجههر بالدعوة

بعد الإسرار بها

إنه بعد أن اكتمل عدد المسلمين نيفاً وأربعين رجلاً وكذا امرأة .. وأسلم حمزة عمُ النَّبِيِّ ﷺ ، وعمر بن الخطاب استجابة الله لدعوة رسوله ﷺ حيث قال : « اللهم آيد الإسلام بأحد العمرين »^(١) . يعنى عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام « أبو جهل » .

وبإسلام حمزة وعمر رضى الله عنهما قويت شوكة المسلمين ، وأنزل قوله تعالى ﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ وأنزل الله سبحانه وتعالى قوله لرسول ﷺ : ﴿ وَأَلِدْزْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ فصعد ﷺ على جبل الصفا ونادى بأعلى صوته قائلاً : وا صباحاه !! وا صباحاه !! فهزّ صوته حثيات وادى مكة وأقبل الناس نحو النداء زرافاتٍ ووحداً حتى امتلأت ساحة الصفا فأقبل عليهم رسول الله ﷺ كالبدر ليلة هالته فقال : « يا معشر قريش : أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل ، تريد أن تغير عليكم صدقتموني ؟ » قالوا : نعم . فقال : « إلى نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، أنقذوا أنفسكم من النار » فقام أبو لهب فقال : تَبَّأ لك سائر اليوم ، أما دعوتنا إلا لهذا . فأنزل الله تعالى سورة المسد : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ .

وكانت المدة التى دعا فيها رسول الله ﷺ وأصحابه سرّاً ثلاث سنوات

(١) رواه الترمذى وصححه بلفظ : « اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك بعمر بن الخطاب أو بأبى جهل بن هشام » وقد تكلم بعضهم فى هذا الخير ولا حاجة إلى ذلك ما دام الله تعالى قد آيد دينه بعمر بن الخطاب رضى الله عنه .

لا غير ثم أمر بالجهر فجهر امتثالاً لأمر الله تعالى في قوله : ﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية من سورة الحجر .

نتائج وعبر :

- إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نذكرها فيما يلي :
- (١) بيان المدة التي كانت فيها الدعوة سرّاً وهي ثلاث سنوات .
- (٢) بيان مقتضى سرية الدعوة وهو قلة المؤمنين وكثرة المشركين .
- (٣) الجهر بالدعوة كان بأمر الله تعالى لآية الحجر .
- (٤) بيان سبب نزول سورة المسد ، وهو قول أبي لهب لرسول الله ﷺ :
تَبَّأ لَكَ سَائِرِ الْيَوْمِ .

(٥) بيان أنه لا دليل لمن يرى سرية الدعوة في بلاد المسلمين اليوم في سرية الرسول ﷺ لها ثلاث سنوات ؛ لأن الرسول وأصحابه كان لا يسمح لهم أن يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ولا أن يؤذّنوا أو يصلوا ، ولما قويت شوكتهم أمروا بالجهر بالدعوة ، فجهروا ولاقوا من الأذى ما هو معروف بين المسلمين .

(٦) ذكر إسلام حمزة ولم تذكر قصة إسلامه فلنذكرها لما فيها من العبرة ، وكذا الحال بالنسبة لإسلام عمر فإننا لم نذكر قصته في سبب إسلامه رضى الله عنه وسنذكرها إن شاء الله إزاء رقم سبعة بعد قصة إسلام حمزة رضى الله عنه .

قصة إسلام حمزة رضى الله عنه :

لقد مر يوماً أبو جهل عليه لعائن الله مرّ برسول الله ﷺ وهو عند الصفا فأذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره فلم

يردّ عليه رسول الله ﷺ ولم يكلمه ، وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن لها تسمع ما قاله أبو جهل ، وشاء الله تعالى أن يمر حمزة راجعا من قنص له متوشحا قوسه ، فقالت له المرأة يا أبا عمار لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفاً من أبي الحكم عمرو بن هشام وجده هاهنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف ولم يكلمه محمد ﷺ فاحتمل حمزة الغضب فخرج يسعى ولم يلتفت إلى أحد حتى أتى أبا جهل وهو جالس في نادى القوم حول المسجد فضربه بالقوس فشجّ رأسه شجّة منكّرة ، ثم قال أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول فرّد ذلك علىّ إن استطعت . فقام رجال من بنى مخزوم لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل دعوا أبا عمار فإني والله قد سببت ابن أخيه سبّا قبيحا . وثبت حمزة من ساعدت على ما قاله ، فأسلم وحسن إسلامه ، ويومها عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عزّ وامتنع بإسلام عمه حمزة المعروف بينهم بأنه أعزّ قتي في قريش .

(٧) قصة إسلام عمر رضى الله عنه :

وأما قصة إسلام عمر رضى الله عنه فهي كالآلى :

مرّ عمر برجل مخزومى قد أسلم فعابه عمر فرد عليه الرجل ، بأنه إن أسلم هو فقد أسلم من هو أحقّ باللوم والعتاب منى يا عمر . فقال عمر : من هو ؟ قال الرجل أختك وختنك — أى صهرك — فذهب عمر إلى دار أخته فاطمة وهى تحت سعد بن زيد ، وسأل ما هذا الذى بلغنى عنكما ؟ فردّا عليه ، وما كان منه إلا أن ضرب رأس أخته فأدماه ، فقامت إليه وقالت : وقد كان ذلك على رغم أنفك فاستحيا عمر حين رأى الدم يسيل من رأس أخته ، وجلس ، وقد رأى بينهما كتابا ، فقال أرونى هذا الكتاب ، فقالت له فاطمة إنه لا يمسه إلا المطهرون . فقام عمر فاغتسل ، فأخرجاه له صحيفة فيها ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فقال : أسماء طيبة طاهرة ﴿ طه ﴾ ما أنزلنا عليك

الْقُرْآن ﴿ إلى قوله تعالى : ﴿ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ فتعظم ذلك في صدر عمر وأسلم ، وقال لهما : أين رسول الله ﷺ ؟ فقالت له في دار الأرقم . فذهب إلى دار الأرقم ، ففرع الباب ، ففرع من في الدار فقال لهم حمزة : ما لكم ؟ قالوا : عمر . قال : افتحوا له الباب ، فإنه إن أقبل قبلناه وإن أدبر قتلناه . وكان رسول الله ﷺ في حجرة من الدار ، فلما سمع الحديث خرج فتشهد عمر ، فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها من في المسجد ، وقال عمر : ألسنا على الحق يا رسول الله ؟ قال : « بلى » قال فقيم الاختفاء فخرجوا صفين ، عمر في أحدهما وحمزة في الآخر ، وقد كان أسلم قبل عمر بثلاثة أيام ، ولما دخلوا المسجد ورأتهم قريش وبينهما حمزة وعمر أصابتها كآبة وحزن شديد . وسمى النبي ﷺ ساعتها عمر الفاروق .

ارتفاع ضوء الشمس المحمدية وعشا أبصار المشركين

إنه بعد أن أعلن النبي ﷺ دعوته وجهر بها في أوساط المشركين وهي دعوة واضحة سليمة لا عيب فيها ، واضحة لا غموض ولا لبس فيها عشت عنها أبصار المشركين ، فلم يروا ما تحمله من الخير والهدى فناصروها العداء ، وأصبحوا لها خصومًا ألداء ، يحاربونها بكل ما لديهم من قوة وشدة . وفي العرض التالي تتجلى هذه الحقيقة .

لقد مررنا في قصة إسلام حمزة قبل قليل أن أبا جهل وجد النبي ﷺ جالسًا عند الصفا فنال منه سبًا وشتما ، وعيبًا لأمره ، ولم يرد عليه النبي ﷺ إلا أن الله تعالى قيض له أسدًا من آساده ؛ حمزة بن عبد المطلب عم الحبيب ﷺ ، فضربه على رأسه فشجه شجة منكرة ، وأغاظه بأثم غيظ إذ أسلم أمامه وحسن إسلامه ، وبإسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما دخلت الدعوة في طور جديد فجاهر الرسول ﷺ وصدع بما يأمره به ربه ، فأقضى هذا

الموقف الجديد مضاجع المشركين ، وأفزعههم ، وزادهم هولاً وفرعاً تزايد عدد المسلمين وإعلانهم عن إسلامهم ، وعدم مبالاتهم بعداء المشركين لهم الأمر الذى جعل رجالات قريش يساومون رسول الله ﷺ ، وها هو ذا أبو الوليد عتبة بن ربيعة يُبعث من قبل المشركين ليعرض على رسول الله ﷺ ما رأوه حلاً للمشكلة فى نظرهم ، فيقول : يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت من السُّطَّة^(١) فى العشيرة والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفّهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفّرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها ، فقال له الرسول ﷺ : « قل يا أبا الوليد أسمع » . قال يا ابن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مآلاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مآلاً ، وإن كنت تريد به شرفاً سؤدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتىك رثياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى تُبترئك منه ؛ فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُدأوى منه .

وفرج عتبة من كلامه ورسول الله ﷺ يستمع منه فقال : « أَقَدْ فَرِغْتَ يا أبا الوليد ؟ » . قال : نعم . قال : « فاسمع منى » قال : أفعل . فقال الحبيب ﷺ « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ حَمَّ * تُنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ » ومضى رسول الله ﷺ يقرأ وقد ألقى عتبة يديه وراء ظهره معتمداً عليهما وهو يسمع مُنصتاً حَتَّى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة^(٢)

(١) السطّة : الشرف .

(٢) ورد فى هذه أن النبى ﷺ لما بلغ فى قراءته : ﴿ فَقُلْ أُنْذِرْتَكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادَ وَثُودَ ﴾ جعل عتبة يضع يده فى فم رسول الله ﷺ ويناشده الله والرحم خشية أن تنزل عليه صاعقة لما يعلمه من صدق رسول الله ﷺ .

فسجد ، ثم قال : « قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك !! » .
وعاد عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض : نخلف بالله لقد جاءكم أبو
الوليد بغير الوجه الذى ذهب به . فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا
أبا الوليد ؟ قال ورأى أنى قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما
هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، أطيعونى واجعلوها لى ، وخلوا بين هذا
الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكوننّ لقوله الذى سمعت منه نبأ
عظيم ، فإن تُصِبه العرب فقد كُفِيتُمُوهُ بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه
ملككم وعِزّه عِزّكم وكنتم أسعد الناس به . فما كان جوابهم إلا أن قالوا :
سحرك يا أبا الوليد بلسانه فقال : هذا رأى فيه فاصنعوا ما بدا لكم !! كان
هذا عرضاً .

وعرض ثان :

إن ما عرضه أبو الوليد على النبى ﷺ كان عرضاً معقولاً ، لولا أنه أراد
به الصّدّ عن سبيل الله ، بصرف الرسول ﷺ عن دعوته ، ولذا نزل القرآن
الكریم يأمر رسول الله ﷺ برفضه وعدم قبوله بالجملة فقال تعالى من سورة
الإنسان ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا يُطِعْ
مِنْهُمْ آيْمًا أَوْ كُفُورًا ﴾ كما أن رد عتبة على المشركين لما اتهموه بأنه سحر
كان ردّاً معقولاً ومقبولاً لولا العمّة والحيرة اللتان أصيب بهما المشركون ،
يدل على ذلك أن قولة عتبة أبى الوليد لهم تزن الذهب لو كان لهم عقل ،
أو كانوا يبصرون ، أو كانت لهم حنكة سياسية^(١) ، ويدل على عمّهم
وحيرتهم أيضاً أنهم بعد ما سمعوا الذى سمعوه من أبى الوليد كوّنوا وفدًا من

(١) هكذا كانت السياسة العالمية : إذا ظهر فى الأمة رجل طموح يطالب بأمر يفاوضونه مفاوضة أبى
الوليد للرسول ﷺ فيرضونه حتى يرضى ويسكت لهم إلى أن ظهر المذهب الشيعى أخيراً فعدلوا
عن المفاوضات والعروض والمساومات إلى التعذيب والتنكيل حتى يقطعوا أنفاسه فيسكت أو يهلك ، =

أعظم رجالاتهم ، وبعثوا به إلى رسول الله ﷺ ، ليساومه بنفس المساومة ويقول له نفس الكلام الذى قال له أبو الوليد وفعلأ أتى الوفد الجديد وكرر قوله أبى الوليد فرد الرسول ﷺ قائلاً : « إنه مَا بى مَا تقولون ، ما جئت بما جئكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولاً وأنزل عليّ كتاباً ، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فأبلغكم رسالات ربي ، ونصحت لكم فإن تقبلوا مِنِّي ما جئكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردُّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم » !! ولما سمعوا هذا الرد الكريم الحكيم من سيد المرسلين محمد ﷺ فقدوا صوابهم ، وجُنَّ جنونهم وأخذوا يهدرون ويهرفون بما لا يعرفون ، ومن جملة ما قالوه : أنهم طلبوا النبي ﷺ أن يدعو ربّه ليُحيي لهم من مات من آبائهم ، وأن يزيل عنهم الجبال المحيطة بمكة ، وأن يفجر خلالها الأنهار لتصبح حدائق من نخيل وأعنان ، وذكروا كلاماً وطالبوا بأمور ذكرها الله تعالى في سورة الإسراء في قوله : ﴿ وَقَالُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجَرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا رَعِمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ^(١) أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ^(٢) * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ ^(٣) أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِزُفَيْكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ ﴾ وهنا أمره ربّه أن يقول لهم : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّيْ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ .

= وذلك لأنهم لا يؤمنون بالله ولقائه فلذا هم يعذبون الإنسان وكأنه غير إنسان من شجر أو حجر ،

فباسم الله نلعنهم ونبرأ إلى الله من صنيعهم !

(١) قطعاً . جمع كسفة كقطعة .

(٢) أى مقابلةً لئراهم عياناً .

(٣) أى من ذهب إذ الزخرف هو الذهب .

ولما فرغوا من عرضهم وردهم السخيف وقام رسول الله ﷺ تبعه عبد الله ابن أُمَيَّة المخزومي وهو ابن عمه رسول الله ﷺ ؛ لأن أمه عاتكة بنت عبد المطلب فقال له : عرضت عليك قریش كذا وكذا ، ورفضت كل ذلك ، فوالله لا أومن بك أبداً . وعاد رسول الله ﷺ حزينا آسفا لما فاتته مما كان أمَّله من استجابة قومه لَمَّا دَعَوْه ليكلّموه في أمر دعوته . كان هذا عرضا .

وعرض ثالث :

إنه لما فشل رجالات قریش في المساومات التي تقدّموا بها إلى رسول الله ﷺ وسمعوا ما أياّسهم به رسول الله ﷺ من عدم التنازل عن شيء من دعوته وإن قلّ وعن عدم الترحيح عما يدعو إليه قيد شعرة قام أبو جهل ليشفي صدره الذي احتدم غيظا فأخذ حجرا كبيرا وقال : لأفلقنّ به رأس محمد ﷺ وهو يصلي ، وتحيّن عدو الله الفرصة ، فلما قام رسول الله ﷺ يصلي حول الكعبة بين الركنين مستقبل البيت ، جاء أبو جهل لعنه الله وتقدم نحو رسول الله ﷺ ليضربه بالحجر ، ورجالات قریش في أنديتهم ينتظرون ما يفعله طاغيتهم عليه لعائن الله ، فلما دنا من رسول الله ﷺ ولىّ هارباً منتقعاً^(١) اللون مرعوباً^(٢) قد ييسئ يدها على الحجر ، وقام إليه رجالات قریش يقولون مالك أبا الحكم ؟ ما أصابك ؟ قال : قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحلّ من الإبل ، لا والله ما رأيت مثل هامته^(٣) ولا مثل قصره^(٤) ولا أنيابه لفحل قط ، فهَمَّ بي

(١) أى متغير الوجه .

(٢) أى خائفاً .

(٣) ضخامة رأسه .

(٤) أصل عنقه ؛ إذ القصر أصل العنق .

لِيَاكُلْنِي . وفي هذه الحادثة نزل قول الله تعالى : ﴿ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا ^(١) بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ^(٢) ﴾ * سَدْعُ الرِّبَايَةِ * كَلَّا لَا تُطَعُّهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ آخر سورة « العلق » .

ولما سمع وشاهد هذه الحادثة النضر بن الحارث قام في قريش وقال : يا معشر قريش إنه — والله — قد نزل بكم أمرٌ ما أتيتم له بحيلة بعد ، فقد كان فيكم محمد غلامًا حدثًا ، أَرْضَاكُمْ فيكم ، وَأَصْدَقَكُمْ حديثًا ، وَأَعْظَمَكُمْ أمانةً ، حتى إذا رأيتم في صدغه ^(٣) الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به قلتم ساحر لا والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم ، وقلتم كاهن ، لا والله ما هو بكاهن قد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم . وقلتم شاعر ، لا والله ما هو بشاعر قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها هزجه ورجزه . قلتم مجنون لا والله ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه . يا معشر قريش فانظروا في شأنكم فإنه والله قد نزل بكم أمر عظيم . لقد كاد النضرُ هذا يُسلم لما تبين له من الحق ولكن منعه الحسد ؛ إذ هو الذي قال : ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ جاء هذا في سورة الأنفال ، ونزل فيه قوله تعالى أيضًا : ﴿ سَأَلْ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ .

إذ كان النضر بن الحارث هذا شيطان قريش ، كان أخبثهم نفسا وأشدهم عداوة لرسول الله ﷺ والمؤمنين ؛ إذ هو القائل أنا أحسن حديثا من محمد ﷺ وكان يقص أخبار ملوك فارس ويقول : ﴿ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ ﴾ لما أصابه من الحسد والغرور وعمى البصر والبصيرة . كان هذا عرضًا .

وعرض رابع :

إنه لما أعيت الحيل قريشًا ، ولم تجد ما تدفع به دعوة الحق التي عشت

(١) لتأخذن بناصيته .

(٢) أى رجال مجلسه ومثداه .

(٣) الصدغ المكان بين الأذن والحاجب حيث الشعر مسترسل من الرأس ، ولكل إنسان صدغان ، وأول ما يبدأ الشيب يظهر فبهما غالبًا .

أبصارها عن أنوارها الساطعة بعثت وفدًا إلى يثرب « المدينة » يُجلى لها حقيقة الموقف بواسطة أحبار اليهود لأنهم أهل كتاب ، وَذَوُّوْ عِلْمٍ بِالْأَدْيَانِ .

ويتكون الوفد من النضر بن الحارث شيطان قريش أميرًا ، وعقبة بن أبي معيط مساعدًا له ، وقالوا لهما : اسألا أحبار اليهود عن محمد ﷺ وصفاهم صفته وأخبراهم بقوله الذى يقول ، ودعوته التى يدعو إليها فإنهم أهل كتاب ، وعندهم علم بالأنبياء ليس عندنا . فخرجنا حتى أتينا المدينة فسألا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفاهم أمره وأخبراهم ببعض قوله ، وقالوا لهم : إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا . فقالت لهم أحبار يهود : سلوه عن ثلاث نأمركم بهنَّ فإن أخبركم بهنَّ فهو نبيُّ مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل مُتَقَوِّلٌ ، فروا فيه رأيكم : سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم ؟ فإنه قد كان لهم حديث عجب ، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ما هى ؟ فإن أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبيُّ ، وإن لم يفعل فهو متقوِّلٌ فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم .

وعاد الوفد إلى قريش وقال لهم قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ﷺ قد أخبرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها فإن أخبركم بها فهو نبيُّ ، وإن لم يفعل فالرجل متقوِّلٌ فروا رأيكم فيه .

وسألت قريش النبيَّ ﷺ وقال : « غداً أخبركم » ولم يستثن وانصرفوا عنه . وحبس الله الوحى عنه لعدم استثنائه قرابة نصف الشهر حتى حزن ﷺ وفرحت قريش . وقالوا الكثير من القول حتى قالوا : قلاه شيطانه الذى كان يأتيه ، ثم أنزل الله تعالى سورة والضحى ينفى فيها ماقلته قريش وادّعاه بعضهم من غلاة المبغضين له ﷺ من أن الله تعالى قد قلاه أى تركه وأضاعه مبغضًا له ، وأنزل سورة الكهف وفيها بيان حديث أصحاب الكهف تفصيلا ، وفيها خبر الرجل الطوافة وهو الإسكندر ذو القرنين ، ونزل فى شأن الروح قوله

تعالى في السورة التي قبل سورة الكهف «الإسراء» ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ
الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ رَدًّا على
اليهود . كان هذا عرضاً .

وعرض خامس :

ولما فشلت قريش في محاولتها الأخيرة بإرسالها وفدًا إلى أحبار اليهود لجّت
في الخصومة وأعلنت حربًا كلامية على رسول الله ﷺ محاولة بذلك إطفاء
نور الله بأفواهها وها هو ذا أبو جهل يقول هازئًا ساخرًا برسول الله ﷺ
وبما جاء به من الهدى ودين الحق : يا معشر قريش يزعم محمد ﷺ أن جنود
الله الذين يعذبونكم في النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر ، وأنتم أكثر الناس
عدداً وكثرة ، أفيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم ؟ وفي هذا نزل
قول الله تعالى من سورة المدثر ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا
جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآيات .

ويكشف أبو جهل عن وجه حسده وكبريائه فيأتيه الأخنس بن شريق
فيقول له : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ — يريد من قراءته
القرآن — فقال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ؛ أطعموا
فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا^(١) على
الركب ، وكنا كفரசى رهان قالوا منا نبى يأتيه الوحي من السماء ، فمتى
ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه .

ويحملهم البغض والخوف على أن يمنعوا سماع القرآن فيتخذوا في ناديم
قراراً بمنع سماع قراءة القرآن ، وأنزل الله تعالى في ذلك قرآناً ؛ وهو قوله من
سورة فصلت : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ

(١) يروى تحاذينا وكلامها صحيح .

لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿١﴾ .

وعزّ عليهم أن لا يسمعه وقد أصدروا قرارًا بمنع سماعه ، فخرج أبو سفيان وأبو جهل والأحنس بن شريق خرجوا ثلاثهم ليلا ليستمعوا قراءة الرسول ﷺ وهو يقرأ في صلاته في بيته ، واتخذوا مجالس لهم يستمعون فيها في الظلام ولا يدرى أحدهم عن الآخر ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فتلاوموا وتعاهدوا أن لا يعودوا لمثلها ، ولكنهم لم يصبروا فخرجوا في ليلة أخرى ، ولا يدرى أحدهم عن الآخر ، واستمعوا إلى قراءة النبي ﷺ حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعتهم الطريق فتلاوموا ، وتكرر هذا منهم ثلاث مرات ، وفي الرابعة تعاهدوا أن لا يعودوا لمثلها أبدًا .

وهكذا تجلّت الحقيقة واضحة لا غموض فيها ولا لبس ولا خفاء وهي أن المشركين عشت^(١) أبصارهم عن النور المحمدي فلم يروا فيما جاء به هدى ولا خيرًا فناصروه العداء وأصبحوا خصومًا ألداء يحاربونه ﷺ ويحاربون دعوته وأتباعه بكل ما لديهم من قوة ، كما هي حال الكافرين إلى اليوم ، فهم حرب على الإسلام والمسلمين دائمًا وأبدًا ، ولولا أن الله تعالى ناصر دينه وأوليائه لغلّبوا على الإسلام والمسلمين ، ولم يبق إسلام ولا مسلمون .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجملها في الآتي :

- (١) إثبات حيرة المشركين إزاء الدعوة المحمدية وإلى اليوم .
- (٢) بيان استعمال المشركين أسلوب المساومات لإحباط الدعوة وإطفاء نورها .
- (٣) ثبات النبي ﷺ ووقوفه كأنه جبل أشم أمام المساومات والتحديات .

(١) عشت أبصارهم ضعفت عن النظر لما أصابها من مرض العشا .

(٤) شهادة عتبة بن ربيعة بصحة الدعوة المحمدية وسلامتها وأحقّيتها — وهو من خصومها — لها قيمتها المعنوية . كما قيل : « والحق ما شهدت به الأعداء » .

(٥) بيان تعنت المشركين وصلفهم وكبريائهم برفضهم دعوة الحق بعد ثبوتها ، ومطالبتهم بأمر ليس تحقيقها من لازم النبوة ولا شرطاً في قبول دعوة الحق .

(٦) بيان خبث أئى جهل وشدة عدائه للنبي ﷺ ، ومحاربته لدعوته .

(٧) استحباب قول العبد إن شاء الله فيما يستقبل من قول أو عمل .

(٨) بيان تأثير القرآن فى نفس من يسمعه متدبراً له متفكراً فيه .

خية المشركين تتحول إلى نقمة على المستضعفين من المؤمنين

إنه بعد أن بذلت قريش كل ما فى وسعها من قوة وحيلة فى إطفاء أنوار الدعوة المحمدية ، وباءت بخيبة مريرة حولت ذلك إلى نقمة على المستضعفين من المؤمنين كبلال وعمار ووالده ياسر وأمه سمية ، وصهيب الرومى ، وخباب ابن الأرت وأئى فهيرة ، وأئى فكية ومن النساء زئيرة ، والنهدية ، وأم عبيس .

أما بلال فكان مملوكاً لأمية بن خلف الجُمحى ، وكان يعذبه بإلقائه فى الرمضاء على وجهه وظهره ، ويضع الصخرة العظيمة على صدره ، وذلك إذا حميت الشمس وقت الظهيرة ، ويقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتبعد اللات والعزى ، وبلال صابر يردد كلمة : أحد أحد ، وأخيراً استبدله أبو بكر الصديق بعبد مشرك عنده وأعتقه رضى الله عنهما .

وأما عمار وأمه ووالده ياسر فقد كانوا يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت

الرمضاء يعذبونهم بحرّ الرمضاء ، فمرّ بهم النبي ﷺ وهم يعذبون فقال : « صَبْرًا آل يَاسِرٍ فَإِنْ مَوْعِدُكُمْ الْجَنَّةُ » فمات يَاسِرٌ تحت العذاب رحمه الله رحمة واسعة .

وأما سَمِيَّةٌ فقد أغلظت القول لأبى جهل عليه لعائن الله فطعنها بحربة في قبلها فماتت شهيدة ، وكانت أول شهيد في الإسلام .

وشدد أعداء الله العذاب على عمار ونوّعوا العذاب عليه فمرة بالجّرّ ومرة بوضع الصخرة على صدره ، وأخرى بالغمس في الماء إلى حد الاختناق ويقولون له لا تترك حتى تسب محمدًا ، وتقول في اللات والعزى خيرًا وفعل ما طلبوا منه فتركوه ، فأتى النبي ﷺ يبكي فقال : « ما وراءك ؟ » فقال شرّ يا رسول الله كان الأمر كذا وكذا ، فقال له : « كيف تجد قلبك ؟ » قال : أجده مطمئنًا بالإيمان . فقال : « إِنْ عَادُوا بِأَعْمَارٍ فَعَدَّ » . وأنزل الله تعالى قوله من سورة النحل : ﴿ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ .

وأما خباب فقد أسلم سادس ستة فقد عذبه المشركون عذابًا شديدًا إذ كانوا يلصقون ظهره بالرمضاء ثم بالحجارة المحمّاة بالنار ويلوون رأسه .

وأما عامر بن فهيرة فقد أسلم قديمًا قبل دخول الرسول ﷺ إلى دار الأرقم ، وكان من المستضعفين فعذب عذابًا شديدًا ، ولم يرده ذلك عن دينه ، وكان يرعى غنمًا لأبى بكر ، وكان يروح بها على النبي ﷺ وأبى بكر وهما في الغار طوال المدة التي كانا فيها في الغار وأما أبو فكيهة واسمه أفلح أو يسار فقد كان عبدًا لصفوان بن أمية بن خلف الجُمحى أسلم مع بلال فأخذه أمية ابن خلف عليه لعائن الله وربط في رجله حبلا وأمر به فجرّ ثم ألقاه في الرمضاء ، ومر به جَعْلٌ « حشرة معروفة » فقال له أمية أليس هذا ربك ؟ فقال : الله ربى وربك وربّ هذا . فخنقه خنقًا شديدًا ، وكان معه أخوه

أبى بن خلف فيقول : زده عذاباً حتى يأتي محمدٌ فيخلصه بسحره . ولم يزالوا يعذبونه كذلك حتى أُغْمِيَ عليه فظنوه مات ثم أفاق فاشترى أبو بكر الصديق وأعتقه .

وأما النساء زينة وأم عُبَيْس ولبية والنهدية فقد عذبن كذلك أشد العذاب من قبل مواليهنّ ولم يرجعن عن دينهنّ ، فرضى الله عنهن وأرضاهنّ .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نذكرها إزاء الأرقام التالية :
(١) تقرير وتأكيد معنى قوله تعالى : ﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ .

(٢) بيان ما لاقاه المستضعفون المؤمنون من ألوان العذاب ، ولم يردهم ذلك عن دينهم .

(٣) بيان أن أول شهيد في الإسلام كان سمية أم عمار رضى الله عنهما .

(٤) بيان ما كان عليه طغاة المشركين من شدة وغلظة وحقن على المسلمين ، وما أنزلوه من عذاب بالمستضعفين من الموالى والعبيد نساءً ورجالاً .

المستزئنون بالحبيب ﷺ

وما أنزل الله تعالى بهم من أليم العذاب

إن تلك النعمة التي أنزلها المشركون بالمستضعفين من المؤمنين لم تكن في الحقيقة خاصة بالمستضعفين بل هي عامة في كل المؤمنين ، وعلى رأسهم سيد العالمين الحبيب محمد ﷺ ، إلا أن الأحرار من المؤمنين كان لهم من المنعة ما جعل المشركين لا يقدرّون على أن يعذبوهم مثل تعذيب المستضعفين من العبيد والإماء والموالى الأغراب ، وإلا فإنه لم يسلم مؤمن واحد من التعذيب والاضطهاد والاستهزاء به والسخرية منه . وهذا رسول الله ﷺ قد سخر

منه واستهزى به ، وسبّ وشتم ونال منه المشركون ما لم ينالوه من كثير من المؤمنين ، وكان شرّ من استهزأ برسول الله ﷺ من عناهم الله تعالى بقوله : من سورة الحجر : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وها هي ذى أسماؤهم عليهم لعائن الله ، مع بيان حالهم ونهاية حياتهم : (١) أبو لهب^(١) : وهو عبد العزى بن عبد المطلب وهو عم النبي ﷺ ، وكان من أشد الناس تكذيباً لرسول الله ﷺ وأكثرهم أذى له حتى إنه كان يطرح العذرة والتن على باب النبي ﷺ إذ كان مجاوراً له ، وكان النبي ﷺ إذا وجد ذلك يقول : « أَى جَوَارِ هذا يا بنى عبد المطلب ؟ » ومرّ حمزة مرة بأبى لهب وهو يطرح العذرة على باب النبي ﷺ فأخذها وطرحها على رأس أبى لهب .

وكانت امرأته أم جميل العوراء مثله في عداوة الرسول ﷺ وشدة بغضه ، وقد لقبها الرحمن في كتابه : بحمالة الخطب ، وهى القائلة :

مُذَمَّمَا^(٢) عَصِينَا وَأَمْرَهُ أَيْنَا وَدِينَهُ قَلِينَا^(٣)

قالت هذا لما نزلت سورة المسد تحمل البشرى لها ولزوجها بالهلاك في الدنيا والخلود في النار في الآخرة ، فقد أتت تطلب الرسول ﷺ وفي يدها فهر أى حجر كبير على قدر الكف وتقف عليه ولم تره حيث ذهب الله ببصرها ، ورأت أبا بكر فقالت له : أين صاحبك ؟ فقد بلغنى أنه يهجونى ووالله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه ، أما والله إني لشاعرة ، ثم قالت :

(١) نقلا عن الكامل لابن الأثير بتصريف .

(٢) تعنى محمداً ﷺ وكان هذا صرفاً لها من الله تعالى عن اسم نبيّه .

(٣) تركنا مبغضين له .

مُذَمِّمَا عَصِينَا وأمره أبينا ودينه قلينا

وأخذ الله جل جلاله أبا لهب بمكة إذ أصابه بمرض خبيث يقال له مرض العَدَسَة وكان ذلك يوم هزيمة المشركين ببدر ، فما إن بلغه خبر هزيمة قومه حتى أصيب بمرض العدسة ، فمات شراً ميتة حتى إنهم لم يقدرُوا على تغسيله فصبوا عليه الماء من بعيد من شدة الرائحة الكريهة التي تفوح من جسمه الذي نضح وتَهَرَّى ^(١) بصورة لم يُعرف لها نظير .

(٢) الوليد بن المغيرة المخزومي وهو القائل لقريش إن الناس يأتونكم في الحج فيسألونكم عن محمد فلا تختلف أقوالكم فيه بأن يقول بعض هو شاعر ، وآخر يقول هو كاهن و ... و ... ولكن قولوا كلمة واحدة هو ساحر ؛ لأنه يفرق بين المرء وأخيه وزوجته وكان سبب هلاكه : أنه وطئ سهماً فخدشه فتورمت رجله ، ومات بذلك شراً ميتة ، وكفى الله رسوله شره وشر كل مستهزئ بحبيبه ﷺ .

(٣) أبو جهل عمرو بن هشام : المخزومي وكان من أشد الناس عداوة للرسول ﷺ واسمه عمرو ، وكنيته أبو الحكم ، وكناهه المسلمون بأبي جهل لحبته وسوء أفعاله وقبيح صنائعه ، هلك ببدر قتله ابنا عفراء ، واحتز رأسه عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، إذ كان يعيره بآبن راعية الغنم ، وهو القائل : لئن سب محمد آلهتنا سببنا إلهه ، فأنزل الله تعالى من سورة الأنعام قوله : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ .

(٤) النضر بن الحارث : وكان من أشد الناس تكديبا للنبي ﷺ وأذى له ولأصحابه ، وكان يقرأ كتب الفرس ويخالط اليهود والنصارى ، ولما سمع

(١) انسلخ وتساقط .

ذكر النبي المنتظر وقرب مبعثه قال : إن جاءنا نذير لنكوننَّ أهدى من إحدى الأمم ، مصداق قوله هذا في قوله تعالى من سورة فاطر إذ قال تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا * اسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكُرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ .

وهو القائل : ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أُنْزِلْ عَلَيْنَا بَعْدَابٍ أَلِيمٌ ﴾ . وهو المعنى بقوله تعالى : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴾ وهو المعنى بقول الله تعالى من سورة لقمان : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ الآية .

هلك هذا الطاغية بيدٍ إذ أسره المقداد بن الأسود ، وأمر الرسول ﷺ بضرب عنقه لكثرة شره فقتله علي رضي الله عنه .

(٥) عقبة بن أبي معيط : الأموى وكان من أشد الناس أذى لرسول الله ﷺ وعداوة له وللمسلمين ، وهو الذى وضع سلى الجزور بين كنفى رسول الله ﷺ وهو يصلى عند البيت ورجالات قريش يضحكون ، حتى جاءت فاطمة وكانت جويرية صغيرة فحتته عن رسول الله ﷺ ونالت منه سباً وانصرفت رضى الله عنها وأرضاها .

هلك هذا الطاغية الخبيث بيدٍ حيث أسر بها وصلب وهو أول مصلوب فى الإسلام وكان أحيمراً أزرق العينين شَبَّهه رسول الله ﷺ بعافر ناقه صالح قُدار بن سالف عليهما معاً لعائن الله .

(٦) الأسود بن عبد يغوث : الزهرى كان من المستهزئين وكان إذا رأى فقراء المسلمين قال لأصحابه هؤلاء ملوك الأرض الذين يرثون ملك كسرى ، وكان يقول للنبي ﷺ مستهزئاً به : أما كُلَّمَتَ اليوم من السماء يا محمد !؟

خرج عدو الله من أهله يوما فأصابه السموم فاسودّ وجهه ، وأصابته الأكلة « مرض » فامتلاً جسمه قيحاً فمات شرّ ميتة ، فلا رحمه الله ، ولا خفف عنه يوما عذابه .

(٧) الحارث بن قيس السهمي : وكان أحد المستهزئين بالنبي ﷺ الذين لا يرحون يؤذونه طوال حياتهم ، وكان لجهله وشدة شغفه بالأوثان يأخذ الحجر يعبده ، فإذا غيره أحسن منه تركه وعبد غيره مما رآه أحسن في نظره . وكان يقول : قد غرّ محمد أصحابه ووعدهم أن يحيوا بعد الموت والله ما يهلكنا إلا الدهر . وفيه نزل قوله تعالى من سورة الجاثية : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿ وهلك هذا الطاغية الملحد الدهري بالذبح ، إذ أكل حوتاً مملوحاً فلم يزل يشرب حتى مات ، وقد امتلاً رأسه قيحاً فكانت موته شرّ ميتة وأنكرها .

(٨-٩) أَبِي وَأُمَيَّة ابنا خلف : وكانا من أشد الناس أذية لرسول الله ﷺ وعداوة له ولأصحابه ، واستهزاء بدين الله ؛ إذ جاء أبي عليه لعائن الله إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم ففتته بيده وقال : زعمت أن ربك يحيى هذا العظم ! وفيه نزلت آية يس : ﴿ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿ الآية . وضع عقبة بن أبي معيط طعاماً ودعا إليه رسول الله ﷺ فقال : « لا أحضره حتى تشهد أن لا إله إلا الله » ففعل فاتاه رسول الله ﷺ فقال أمية بن خلف لعقبة أقلت كذا وكذا . فقال إنما قلت ذلك لطعامنا فنزلت آية الفرقان : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ يُوبَلْتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا حَلِيلًا ﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ﴿ .

وهلك أمة يوم بدر مردولا مخزياً شرميتة ، وهلك أخوه أبى بطريق مكة
إذ ضربه الرسول ﷺ بحربة في ترقوته في أحد فهلك بها في طريقه إلى جهنم
وبئس المصير .

(١٠) أبو قيس بن الفاكه بن المغيرة : وكان ممن يؤذى النبى ﷺ ، ويعين
أبا جهل على ذلك هلك بيدى على يد حمزة عم الحبيب ﷺ ، ورضى الله
عن حمزة ومن ترضى عن حمزة موقنا موحدًا لا يشرك بالله شيئاً .

(١١) العاص بن وائل السهمي : والد عمرو بن العاص رضى الله عنه ،
وكان من المستهزئين وهو القائل لما مات القاسم بن النبى ﷺ : إن محمداً
أبتر لا يعيش له ولد ذكر ، فأُنزل الله تعالى فيه سورة الكوثر : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ
الْكُوثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ ^(١) هُوَ الْأَبْتَرُ ^(٢) ﴾ هلك العاص
اسماً ومسمى ، هلك بمكة بسبب لدغة في رجله انتفخت لها رجله حتى صارت
كعنق البعير فمات بعد هجرة النبى ﷺ إلى المدينة بشهر وكذا يوماً .. هلك
إلى جهنم وبئس المصير .

(١٢-١٣) ثِيهٌ ومُنْبُه ابنا الحجاج السهميان : وكانا من المستهزئين المؤذين
لرسول الله ﷺ والمؤمنين ، وكانا إذا لقيا رسول الله ﷺ يقولان له : أما
وجد من يبعثه غيرك ؟ إن ها هنا من هو أسن ^(٣) منك وأيسر ^(٤) . هلك كل
منهما بيدى فقتل على رضى الله عنه منبهاً ، والآخر لا يُدرى من قتله فألى
سخط الله وعذابه دائماً وأبداً . وذلك جزاء المستهزئين .

(١٤) الأسود بن المطلب بن أسد : ويكنى أبا زمعة كان من المستهزئين

(١) أى مبغضك .

(٢) أى الناقص المقطوع النسل فقد انقطع نسله وخلد نسل محمد ﷺ إلى يوم القيامة .

(٣) أى أكبر منك سناً .

(٤) أى أكثر منك مالاً وغنى .

إذ كان مع أصحابه يتغامزون بالنبي ﷺ وأصحابه ويقولون قد جاءكم ملوك الأرض ، ومن يغلب على كنوز كسرى وقيصر ويصفرون به ويصفقون لهواً وضحكاً وسخرية ، دعا عليه رسول الله ﷺ أن يعمى ويثكل^(١) ولده . فعمى وثكل ولده ومات بمكة والناس يتجهزون لأحد وهو يمرض الكفار على الخروج مع ما هو عليه من المرض من شدة بغضه لرسول الله وأصحابه ودين الله فهلك أعمى أثكل إلى جهنم وبئس المصير .

(١٥) طعيمة بن عدى بن نوفل : كان ممن يؤذون رسول الله ﷺ ويشتمونه ويكذبونه أسر بيدر وقتل صبراً بها فألى جهنم وبئس المصير .

(١٦) مالك بن الطلالبة بن عمرو بن غبشان : كان من المستهزئين وكان سفيها فدعا عليه النبي ﷺ فمات بمكة بعدما امتلأ رأسه قيحاً فألى جهنم وبئس المصير .

(١٧) ركانة بن عبد يزيد : وكان شديد العداوة للنبي ﷺ والاستهزاء به فقال يوماً للرسول ﷺ يا ابن أخى بلغنى عنك أمرٌ ولست بكذاب فإن صرعتنى علمت أنك صادق . ولم يكن يقدر على صرعه أحد ، فصارعه النبي ﷺ وصرعه ثلاث مرات ودعاه إلى الإسلام فأبى أن يُسلم وقال : لا أسلم حتى تدعو هذه الشجرة فقال لها رسول الله ﷺ : « أَقْبِلِي » فأقبلت تحذ^(٢) الأرض ، فقال ركانة : ما رأيت سحرًا أعظم من هذا ، مرها فلترجع . فأمرها رسول الله ﷺ فعدت إلى مكانها ، فقال رُكانة هذا سحر عظيم . ولم يؤمن عليه لعائن الله .

قال ابن الأثير هؤلاء أشد عداوة لرسول الله ﷺ ومن عداهم من رؤساء

(١) أى يفقد ولده بموته .

(٢) تحذ الأرض أى تشققها .

قریش كانوا أقل عداوة من هؤلاء كعتبة وشيبة ابني ربيعة وغيرهما .

وهناك جماعة كانوا شديدي الأذى والعداوة لرسول الله ﷺ وأصحابه ولكنهم آمنوا وأسلموا وحسن إسلامهم كأبي سفيان بن حرب والحكم بن أبي العاص ، وعبد الله بن أبي أمية المخزومي أخى أم سلمة لأبيها رضى الله عنهما .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة من النتائج والعبر ما نوجزه فيما يلي :

(١) تقرير أن الاستهزاء بالله أو آياته أو رسوله كفر موجب للخلود في العذاب كما أن الاستهزاء بالمؤمنين موجب لغضب الله وسخطه على فاعله .

(٢) بيان ما نال رسول الله ﷺ من أذى المشركين ، وكيف قابله رسول الله ﷺ بالصبر حتى نصره الله فأعزه وأعز دينه وأذل المشركين وأبطل دينهم .

(٣) تقرير سنة الله في أن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأئمة فالأئمة .

(٤) بيان صدق وعد الله تعالى لرسوله في قوله : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ فقد كفاه إياهم بأن أهلكهم كلهم والرسول ﷺ يشاهد هلاكهم ، وفي فترة وجيزة وزمن قليل .

(٥) إن الآيات والمعجزات لا تستلزم الإيمان فقد رأى ركانة أعظم آية وما آمن .

أول هجرة في الإسلام

إنه بعد أن جهر رسول الله ﷺ بدعوته وكثر عدد المسلمين ازداد حَنَقُ المشركين على المسلمين ، وبسطوا إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء . ورأى النبي ﷺ أنه غير قادر على حمايتهم فأذن لهم في الهجرة إلى الحبشة ، فقال لهم

— فداه أبى وأمى — « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن فيها ملكاً لا يظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » وقبل المسلمون العرض الكريم فخرجوا من مكة فراراً بدينهم يريدون بلاد النجاشى وذلك فى شهر رجب سنة خمس من البعثة وهى السنة الثانية من إظهار الدعوة والجهـر بها ، فوصلوها وكانوا قرابة عشرة رجال منهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت الرسول ﷺ ، وأبو حذيفة بن عنبسة بن ربيعة ومعه امرأته سهلة بنت سهيل ، والزبير بن العوام فأقاموا بالحبشة شهرين شعبان ورمضان من سنة خمس من البعثة ، وعادوا إلى مكة فى شوال ، وسبب عودتهم ما بلغهم من أن النبى ﷺ قد اصططح مع قريش ، وأنه لم يبق اضطهاد للمسلمين من قبل المشركين لما تمّ من الصلح بينهم وبين الرسول ﷺ .

وسبب هذه الشائعة الكاذبة أن النبى ﷺ كان يقرأ حول الكعبة سورة والنجم فلما بلغ قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴾ ألقى الشيطان فى مسامع المشركين قوله : تلك الغرائق العلاء ، وإن شفاعتهن لترتجى فخيّل للمشركين أن النبى ﷺ هو الذى قالها ، وأنه بذلك قد امتدحها فلما سجد ﷺ فى آخر السورة وهى سجدة من عزائم السجـدات سجد المشركون معه حتى إن الوليد بن المغيرة وكان كبير السن أخذ كفاً من البطحاء وسجد عليه ، ثم تفرق الناس ، وبلغ الرسول ﷺ أن سجود المشركين كان من أجل ما ألقى الشيطان فى مسامعهم من مدح للات والعزى مؤهما إياهم أن النبى ﷺ هو الذى امتدحها فحزن لذلك رسول الله ﷺ وآله الخبر فأنزل الله تعالى تسلية له وتخفيفاً عنه قوله من سورة الحج : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى ^(١) أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

(١) تمنى هنا بمعنى قرأ وتلا ، وقد تكون بمعنى أحب وتشهى .

فسر بذلك رسول الله ﷺ وذهب عنه ما وجد في نفسه من الخوف والحزن بما أعلمه به ربه من أن هذا الأمر جرى على سنة من سننه تعالى في أنبيائه ورسله لحكم عالية يعلمها تعالى .

ولما قارب المهاجرون دخول مكة تبين لهم أن إسلام أهل مكة باطل ، وأن المشركين مازالوا على الشرك والكفر ، وأنهم قد ازدادوا قسوة وشدة على المسلمين فلم يدخلوا إلا بجوار ، أو في استخفاء ، وأقاموا بمكة بعد عودتهم إليها يتلقون الأذى ويعذبون ويضطهدون كما كانوا قبل هجرتهم وعودتهم فأروا لذلك أن يعودوا إلى الحبشة مرة ثانية فعادوا وهاجر معهم خلق كثير بلغ عددهم ثلاثة وثمانين رجلا وهي الهجرة الثانية .

وبقى الحبيب ﷺ في مكة يدعو إلى ربه سرًا وجهراً صابراً موقناً بنصر الله له ولدعوته وهو يتعرض لأذى قريش كل يوم ، ومن أبرز ما سُجل في هذه الفترة من أذى نال رسول الله ﷺ ما حدث به عمرو بن العاص رضي الله عنه ورواه عنه ابن الأثير وغيره من أصحاب السير وهو قوله : حضرت قريش يوماً بالحجر فذكروا النبي ﷺ وما نال منهم وصبرهم عليه ، فبينما هم كذلك إذ طلع النبي ﷺ ومشى حتى استلم الركن ثم مرّ بهم طائفاً فغمزوه ببعض القول ، فعرفت ذلك في وجهه ، ثم مضى فلما مرّ بهم الثانية غمزوه مثلها ، ثم الثالثة فقال لهم : « أتسمعون يا معشر قريش ، والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح » فلم يتكلموا حتى لكأن على رؤوسهم الطير ، وإن أشدهم وصاة فيه ليرقوه^(١) بأحسن ما يجد . وانصرف رسول الله ﷺ حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر ، وقال بعضهم لبعض ذكرت ما بلغ منكم ، حتى إذا أتاكم بما تكرهون تركتموه !!

(١) أى يقولون له من القول ما يجمل ويحسن به كقول بعضهم : انصرف أبا القاسم فوالله ما كنت جهولا .

فبينما هم كذلك إذ طلع رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد يقولون : أنت الذى تقول كذا وكذا .. فيقول : « أنا الذى أقول كذلك » فأخذ عقبة بن أبى معيط بردائه ، وقام أبو بكر الصديق دونه يقول وهو يبكى ويلكم أقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، كالتى قالها مؤمن آل فرعون ثم انصرفوا بعد ما نالوا من الصديق ما نالوا رفسا بأرجلهم وضربا بأيديهم .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نجملها فيما يأتى :

(١) مشروعية الهجرة وهى الانتقال من بلد الكفر حيث تعذر على العبد أن يعبد الله إلى دار يتمكن فيها من عبادة الله تعالى بدون تعذيب .

(٢) بيان أول هجرة وقعت فى الإسلام وهى الهجرة الأولى إلى الحبشة .

(٣) بيان فضل أصحاب الهجرة إلى الحبشة ومن بينهم عثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله ﷺ .

(٤) بيان خطر الشائعات إذ بها رجع المهاجرون ولأقوا ما لاقوا من العذاب حتى اضطروا إلى الهجرة مرة ثانية .

(٥) تقرير قصة الغرانيق ، وأن من العجب أن يكذب بها أناس لمجرد الخوف من أن يقال : إذا صحت قصة الغرانيق فمن الجائز أن يكون الشيطان قد أدخل فى القرآن ما ليس منه وهو وهم بحت شبيهه بوهم الروافض القائلين بأن جبريل بدّل أن يأتى عليا بالوحى والرسالة أتى بهما محمداً ﷺ ، إذ لازم هذا أن الله تعالى عاجز ونسبة العجز إلى الله كفر وكذب وباطل ؛ إذ لا يمكن أن يقع فى الكون غير ما يريد الله سبحانه وتعالى .

ولو فرضنا أن الشيطان ألقى بكلمة أو كلمات فى قراءة الرسول ﷺ أليس الله قادراً على تبينها وإبطالها ؟ بلى وكيف وقد قال : ﴿ فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخْتِمْ

عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٠﴾
وكيف وقال في سياق الآية : ﴿ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ
آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

والذى ينبغى أن يعلم هنا هو أن الرسول ﷺ لم ينطق بكلمة تلك الغرائق
وما بعدها ، وإنما الذى نطق بها الشيطان فأسمع صوته أوليائه من المشركين
ليبقوا على اعتقادهم الفاسد فى آلهتهم من اللات والعزى .

ولذا لما سجد النبى ﷺ سجدوا معه كما هو فى صحيح البخارى رحمه
الله تعالى . وأحسن ما قيل فى قصة الغرائق هو قول الحافظ ابن حجر فى
الفتح ، وما ذكرناه هنا لا يختلف معه . والله أعلم ، وأعز وأحكم ، وصلى
الله على نبيه محمد وآله وصحبه وسلم .

إرسال قريش وفدها إلى النجاشى

لما علمت قريش باستقرار المهاجرين بالحبيشة ، وإيواء ملكها لهم ، وإكرامه
لهم خافت عواقب ذلك ، فكونت وفدًا من عمرو بن العاص السياسى المشهور
وعبد الله بن أبى أمية ، وحملتهما هدية فاخرة إلى الملك النجاشى وإلى أعيان
رجاله لتستميلهم نفسياً فيردوا المهاجرين قسراً إلى مكة لتعذيبهم وتعويقهم عن
آية حركة إيجابية تنتصر بها دعوة الإسلام .

ووصل الوفد يحمل الهدايا وقدمها فعلا إلى النجاشى وأعيان رجال الحكم ،
إلا أن الوفد بدأ فى تقديم الهدايا بأعيان رجال النجاشى وأخره هو ، سياسة
منه ليحصل على دعم الأعيان عند مطالبة الملك برد المهاجرين إلى مكة .

ولما فرغ الوفد من تقديم الهدايا تكلم عمرو وقال للملك ورجاله : إن ناسًا
من سفهائنا فارقوا دينهم وجاءوا بدين جديد مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم .

وما إن فرغ عمرو من كلامه حتى أشار أصحاب النجاشي بتسليم المهاجرين إلى وفد قريش متأثرين بالهدايا ، وما واعدوا به الوفد من المساعدة .

وهنا قال النجاشي : لا ، والله لا أسلم قوما جاوروني ونزلوا بلادى ، واختاروني على من سواى حتى أدعوهم وأسألمهم عما يقول هذان ، فإن كانا صادقين سلمتهم إليهما ، وإن كانوا على غير ما ذكر هذان منعتهما ، وأحسنْتُ جَوَارَهُم .

ثم أرسل النجاشي إلى المهاجرين أصحاب النبي ﷺ فحضرُوا وهم مجموعون على أن يقولوا الحق سواء سره أو أساءه ، وكان المتكلم عنهم جعفر ابن أبى طالب رضى الله عنه ، فقال لهم النجاشي : ما هذا الذى فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا فى دينى ولا دين أحد من الملل ؟ فقال جعفر : أيها الملك كنا أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفته فدعانا لتوحيد الله ، وأن لا نشرك به شيئا ، ونخلع ما كنا نعبد من الأصنام ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم ، وأمرنا بالصلاة والصيام ، وعدد عليه أمور الإسلام ، فآمنا به وصدقناه ، وحرمنا ما حرم علينا ، وحللنا ما أحل لنا ، فتعدى علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان . فلما قهرونا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك عن سواك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك . وهنا نطق الملك وقال هل معك مما جاء به عن الله شيء ؟ قال نعم فقرأ عليه قرآنا ، فبكى النجاشي وبكى أساقفته ، وقال النجاشي : إن هذا الذى جاء عيسى يخرج من مشكاة واحدة ، وقال لَرَجُلِي الوفد انطلقا ، والله لا أسلمهم إليكما أبدا .

فلما خرجا قال عمرو والله لآتيته غدا بما يُبيد خصماءهم فقال له عبد الله

لا تفعل فإن لهم أرحامًا ، وكان عبد الله أتقى من عمرو .

فلما كان الغد أتيا النجاشي وقال له عمرو : إن هؤلاء يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً ، فأرسل النجاشي إليهم فجاءوا فسألهم عن قولهم في المسيح ، فقال جعفر : نقول الذي جاءنا به نبيّنا هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول ، فأخذ النجاشي عودًا من الأرض وقال : ما عدا عيسى ما قلت هذا العود ، فنخرت^(١) بطارقه فقال لهم : وإن نخرتم ، وقال لجعفر وأصحابه اذهبوا فأنتم آمنون ، ما أحب أن لي جبلاً من ذهب وأنتي أذيت رجلاً منكم !!

ورد هدية قريش وقال ما أخذ الله الرشوة^(٢) منّي حتى أخذها منكم ، ولا أطاع الناس فيّ حتى أطيعهم فيه وأقام المسلمون بخير دار ، وأحسن جوار .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نوجزها فيما يلي :

(١) بيان أن ظلم قريش للمسلمين بلغ حدًا لم يتجاوزه ظلم عرفه العرب في بلادهم .

(٢) بيان خيبة وفد قريش وفشله في مهمته ؛ لأنه يحارب الله في أوليائه ومن يحارب الله يهزم ، ويخسر في الدنيا والآخرة .

(٣) بيان كمال جعفر بن أبي طالب العلمي والديني فرضى الله عنه وأرضاه .

(٤) بيان كمال أصحح النجاشي إيمانًا وعلمًا وكرمًا وحسن جوار ، فرحمه الله رحمة واسعة .

(٥) حرمة الرشوة وسوء أحوال أهلها معطين وآخذين .

(١) يقال نخر إذا رفع صوته بخشومه .

(٢) يريد حين رد الله عليه ملكه .

هجرة أبي بكر الصديق الأولى

إن أبا بكر لما هاجر ذلك العدد الكبير من المسلمين إلى بلاد الحبشة وراء اشتداد ضغط المشركين على المسلمين مع قلة الناصر ، وإنه لم يقدر على أن يدفع عن أحد من المسلمين قرر الهجرة إلى الحبشة ، وفعلوا استأذن الرسول ﷺ فأذن له ، فخرج حتى إذا سار مسافة قرابة اليومين من مكة لقيه ابن الدُّغْنَةِ وهو يومها سيد الأحابيش^(١) ، فقال له : إلى أين يا أبا بكر ؟ قال : أخرجني قومي ، وآذوني وضيقوا عليّ . فقال ابن الدُّغْنَةِ : ولم ؟ فوالله إنك لتزين العشيّة ، وتعين على النوائب ، وتفعل المعروف ، وتكسب المعدوم ارجع فأنت في جوارى ، فرجع معه حتى إذا دخل مكة . قام ابن الدغنه فقال : يا معشر قريش إني قد أجزت ابن أبي قحافة ، فلا يعرضنّ له أحد إلا بخير ، وحينئذ كفوا فلم يعرضوا له بسوء .

وكان لأبي بكر مسجد عند باب داره يصلى فيه ويقرأ القرآن فيبكي فيقف عليه الصبيان والعبيد والنساء يعجبون لما يرون من هيئته وبكائه وقراءته ، وبلغ قريشاً ذلك فأتوا إلى ابن الدُّغْنَةِ ، وقالوا له : إنك لم تجر هذا الرجل ليؤذينا ؛ إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرقّ ويبكى ، وكانت له هيئة ، فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم ، فأته فمره أن يدخل بيته فليصنع فيه ماشاء ، فذهب ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال له : يا أبا بكر إني لم أجرك لتؤذى قومك ؛ إنهم قد كرهوا مكانك الذى أنت فيه ، وتأذوا بذلك منك ، فادخل بيتك فاصنع فيه ما أحببت . فقال أبو بكر أو أرد عليك جوارك

(١) الأحابيش هم بنو الحارث من كنانة ، والهون بن خزيمية بن مدوكة وبنو المصطلق بن خزاعة تحالفوا جميعا بواد يقال له الأحبش بيطن مكة فقبل لهم الأحابيش .

وأرضى بجوار الله ؟ قال فاردد عليّ جوارى ، قال فرددته ، فقام ابن الدغنة فقال : يا معشر قريش إن ابن أبى قحافة قد ردّ عليّ جوارى فشأنكم بصاحبكم . فمرّ بأبى بكر وهو عامد إلى الكعبة سفيه من سفهاء قريش فحشى على رأس أبى بكر تراباً ، ومرّ بأبى بكر رجل من قريش ولعله الوليد بن المغيرة أو العاص بن وائل ، فقال له أبو بكر : ألا ترى ما يصنع هذا السفيه : فقال : أنت فعلت ذلك بنفسك ، ومضى أبو بكر وهو يقول : أى ربّ ما أحلمك ، أى ربّ ما أحلمك ، أى ربّ ما أحلمك !!

نتائج وعبر :

- لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبر نجملها فيما يأتى :
- (١) هجرة أبى بكر مثل حىّ لكل مؤمن يضطهد فى بلده ، فيخرج منه طالباً لعزة نفسه وحرية عمله الإسلامى .
- (٢) بيان فضل أبى بكر ، وما كان عليه من الإيمان والتقوى .
- (٣) فى ردّ أبى بكر جوار ابن الدغنة ورضاه بجوار ربّه مثل عال فى التوكل على الله تعالى .
- (٤) وقول أبى بكر ربّ ما أحلمك ثلاثا بعد ما وضع السفيه على رأسه التراب وشكاته إلى الرجل القرشى وردّه عليه بقوله : أنت فعلت ذلك بنفسك عبرة لكل مؤمن يضطهد فى ذات الله ، فيصبر على أذى قومه ، ينتظر عقوبة الله تحل بالظالمين .

فى شعب أبى طالب

إنه لما رأت قريش انتشار الإسلام وكثرة من يدخل فيه ، وبلغها ما لقى المهاجرون فى بلاد الحبشة من إكرام وتأمين مع عودة وفدها خائباً لم يحصل على طائل ، اشتد حنقها على الإسلام والمسلمين ، فقامت باتخاذ إجراء انتقام

ظالم جائر ، ما كان لها أن تتخذه لولا ما أصابها من خيبة أمل جعلها تفكر هذا التفكير وتعمل هذا العمل الشرير .

اجتمع رجالها واتخذوا قرارًا بكتابة كتاب يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب . على أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم ، وفعلاً كتبوا صحيفة بذلك ، وتعاهدوا عليها وتوثقوا ، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة تأكيداً لأمرهم بذلك . وكتب الصحيفة منصور ابن عكرمة بن عامر فدعا عليه رسول الله ﷺ فشلت يده .

ولما فعلت قريش هذا الفعل القبيح الجائر انحاز بنو هاشم وبني المطلب إلى شعب أوى طالب ، ودخلوا فيه برجالهم ونسائهم وأطفالهم ، إلا ما كان من الطاغية أوى لب ، فإنه لم يدخل معهم ؛ لأنه ظاهر قريشا على عملهم الإجرامى هذا . وكانت سنة سبع من البعثة واستمر الحصار في الشعب لبني هاشم وبني المطلب ثلاث سنوات ، عانوا فيها الجوع والحرمان ما لا يخطر ببال ، إنهم من شدة الجوع أكلوا ورق الشجر ، وكان يسمع من بعيد بكاء أطفالهم من الجوع .

ولما أراد الله تعالى تفريج كربهم بعد أن ضربوا الرقم القياسى في الصبر والاحتساب قيض الله جل جلاله رجالاً من ذوى المروءة والحسب وعلى رأسهم هشام بن عمرو بن ربيعة إذ هو الذى مشى إلى رجال من قريش عرف فيهم عدم رضاهم على قرار قريش الجائر ، فاستشار شعورهم وحملهم على أن يتعاونوا على نقض الصحيفة ، وكانوا خمسة رجال ، ولما اجتمعت قريش في أندية قام أحدهم وهو زهير بن أبى أمية وأقبل على الناس وقال : يا أهل مكة أنأكل الطعام ، ونلبس الثياب وبني هاشم هلكنى لا يباع لهم ولا يبتاع منهم ، والله لا أقعدن حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة وقام أحد الرجال الخمسة فقال مثل ما قال الأول ، وقام ثالث مؤيداً ، وقام رابع بنفس الروح ، وتقدم المطعم

ابن عدى إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا كلمة « باسمك اللهم » وكان أبو جهل يسمع ويرى ما يجرى فى القضية فلم يتالك اللعين حتى قال : هذا أمر دبر بليل .. ومزقت الصحيفة وبطل مفعولها ، ويومئذ خرج بنو هاشم وبنو المطلب من الشعب .

ومن آيات النبوة أن النبى ﷺ أخبر عمه أبا طالب بأن الأرضة قد أكلت كلمات الباطل والجور فيها وأبقت كلمة الحق فيها وهى « باسمك اللهم » وكان الأمر كذلك ، فإنهم لما انتزعوا الصحيفة من جدار الكعبة لم يجدوا فيها إلا جملة « باسمك اللهم » وبذلك وبخهم أبو طالب على صنيعهم فطأطأوا رؤوسهم ولم يجيئوا بشيء ، وقال فى هذا أبو طالب شعرا : وهو قوله :

وقد كان فى أمر الصحيفة عبرة متى ما يُخبر غائب القوم يُعجب
محي الله منها كفرهم وعقوقهم وما نقموا من ناطق الحق مُعرب
فأصبح ما قالوا من الأمر باطلا ومن يخلق ما ليس بالحق يكذب

نتائج وعبر :

إن هذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا هى كالتالى :

(١) بيان ما وصلت إليه قريش فى الظلم والتعسف والجور ، وذلك باتخاذها قرار المقاطعة الجائر الهادم لكل خلق وقيمة إنسانية .

(٢) بيان ما لقي رسول الله ﷺ والمؤمنون من أذى واضطهاد من كفار قريش .

(٣) بيان صبر المؤمنين وجلدهم وذلك فى ذات الله عز وجل .

(٤) بيان أن أهل المروءة والكرم لا يخلو منهم زمان ولا مكان ، والحمد لله .

(٥) تجلّى آية النبوة المحمدية فى أكل الأرضة الصحيفة الجائرة إلا اسم الله

تعالى ، وإخبار الرسول ﷺ بذلك ، فكان الأمر كما أخبر إذ نزعت الصحيفة فلم يجدوا فيها إلا جملة « باسمك اللهم » وما عدا ذلك أكلته الأرضة .

اشْتِدَادُ حُلُوكَةِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ عَلَى الْحَبِيبِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَى السَّلَامِ

إنه ما إن انفرجت تلك الأزمة الخانقة بالحصار في شعب أى طالب التى دامت ثلاث سنوات تقريباً حتى رزى ﷺ بأعظم رزء ، إنه وفاة أى طالب العم الكافل والطود الأشم المانع ، والأسد الحامى والحصن الواقى . ووفاة خديجة ومن هى خديجة ؟ إنها الملاذ بعد الله ، والأنيس بعد ذكره ، إنها كانت تؤمنه إذا خاف ، وتؤنسه إذا استوحش ، تريجه بعدوبة حديثها إذا تعب ، وتسدده بصائب رأيها إذ قلق أو اضطرب .

مرض أبو طالب مرضه الذى توفى فيه ، وعلم به كفار قريش فجاءوا يطلبون منه أن يفاوض لهم ابن أخيه عليهم يظفرون بصلح معه قبل وفاة عمه ، فبعث أبو طالب إلى النبى ﷺ فحضر ، فقال له يا ابن أخى هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك ، فقال رسول الله ﷺ : « نعم كلمة واحدة ثعطونها تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم » ، فقال أبو جهل : وأبيك وعشر كلمات . قال ﷺ : « تقولون لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه » فصفقوا بأيديهم وقالوا أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً ، إن أمرك لعجب . ثم قال بعضهم لبعض إنه والله ما هذا الرجل الذى يغطيكم شيئاً مما تريدون ، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه ، ثم تفرقوا وفيهم نزلت الآيات الأولى من سورة « ص » ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ ﴾ إلى قوله ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ .

واشتد المرض بأبى طالب فعاده الرسول ﷺ فوجد عنده بعض المشركين فعرض عليه الشهادة فقال : « يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله يوم القيامة » فنظر أبو طالب إلى أشياخ الشرك حوله فقالوا له : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فقال : هو على ملة عبد المطلب^(١) ، ومات فحزن الرسول ﷺ ، فقال : « لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك » فأنزل الله تعالى من سورة التوبة : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ .

وأخبر هو ﷺ بعد : أن عمه أبا طالب في ضحضاح من نار يصل إلى كعبيه يغلي منه دماغه .

وبعد خمسين يوما من موت أبى طالب تقرئاً ماتت أم المؤمنين خديجة رضى الله عنها وأرضاها ، وتتابع المصائب على رسول الله ﷺ واشتد الكرب وعظم الحزن . مات العم الذى كان عضداً قويا لرسول الله ﷺ ، وكان حرزاً منيعاً ، ومات بعده خديجة المؤنسة ساعة الوحشة ، والمؤمنة المطمئنة ساعة القلق والخوف وخلت الساحة للمشركين فأخذوا ينالون من رسول الله ﷺ ما لم يكونوا ينالونه من قبل ، فقد رموا بالأقذار عليه ، وعلى باب داره بل وداخل الدار حتى رموا بالقدر فى القدر الذى يطبخ فيه .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نوجزها فى التالى :

(١) بيان سنة وفاة كل من أبى طالب وخديجة رضى الله عنها وهى سنة عشر من البعثة .

(٢) ذكر آخر عرض عرضه المشركون على رسول الله ﷺ للصالح ؛ ولم

(١) وفى هذا نزل قوله تعالى من سورة القصص : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ .

يفلحوا لأنهم مصرون على الشرك .

(٣) بيان سبب نزول آيات : ص ، والتوبة ، والقصص فالأولى في المصالحة الفاشلة والثانية والثالثة في أذى طالب ، الثانية في عدم الاستغفار له ، والثالثة في تسلية الرسول ﷺ وحزنه على موته على الشرك .

(٤) تتابع المصائب على الحبيب ﷺ كان مؤذناً بالفرج القريب .

(٥) فيما أصاب رسول الله ﷺ من مصائب عزاء لكل مؤمن فيما يصيبه في هذه الحياة من بلاء ومصائب مهما عظمت إذ رسول الله ﷺ أسوة المؤمنين والمؤمنات .

خروج الحبيب ﷺ إلى الطائف بطلب النصر لدينه

وبعد أن فقد رسول الله ﷺ عمه أبا طالب الذي كان عضده القوى ، وحماه المنيع خرج إلى الطائف يطلب ناصراً من ثقيف ينصره على قومه ، ويعينه على إبلاغ دعوته ، خرج وهو راجٍ أن يقبل أهل الطائف منه ما جاءهم به من الله عز وجل ، ولما وصل الطائف قصد ثلاثة أنفار من ثقيف هم سادة ثقيف وأشرفها ، وهم الإخوة الثلاثة : عبد يالئيل بن عمرو بن عامر ومسعود ، وحبيب ، وكان عند أحدهم امرأة من قریش فجلس إليهم رسول الله ﷺ فدعاهم إلى الله ، وكلمهم بما جاءهم من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه فقال أحدهم : هو يمرط^(١) ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك !! وقال الآخر : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك !!

وقال الثالث : والله لا أكلمك كلمة أبداً ، لكن كنت رسول الله ﷺ كما

(١) يمرط ثياب الكعبة أى ينزعها ويلقيها بعيداً عنها ، وهو إم عظيم في نظره ، وهو إم ولكن تكذيب لرسوله وسخرية به وإغراء السفهاء به أعظم .

تقول لأنت أعظم خطراً من أن أردّ عليك ، ولئن كنت تكذبُ على الله ما ينبغي أن أكلّمك !!

فقام رسول الله ﷺ من عندهم وهو يائس من خير ثقيف ، وقد طلب إلى الإخوة الثلاثة أن لا يذكروا ما دار بينه وبينهم إلى قريش فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم و عبيدهم يسبونهم ويصيحون به بالحجارة حتى أدموا عقبيه ، وألجأوه إلى حائط « بستان » لابنى ربيعة عتبة وشيبة ، وعمد ﷺ إلى ظل شجرة عنب فجلس تحتها مستظلاً بها فلما اطمأن وسكنت نفسه قال : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس . يا أرحم الراحمين أنت ربُّ المستضعفين وأنت ربّي إلى من تكلني ، إلى بعيد يتجهّمنى^(١) أم إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك على غضبٍ فلا أبالي ، ولكنّ عافيتك أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تُنزل بى غضبك ، أو يحلّ علىّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك » .

ولما فرغ ﷺ من مناجاته ربّه عز وجل وراه ابنا ربيعة عتبة وشيبة دَعَوْا غلاماً لهما يقال له عدّاس وأمرّاه أن يأخذ قطعاً من عنب فيضعه فى طبق ثم يذهب به إلى رسول الله ﷺ ، فيضعه بين يديه ، ويقول له : كلّ من هذا ، ففعل عداس فلما وضع الرسول ﷺ فيه يده قال : « باسم الله » ثم أكل فنظر عداس فى وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد ، فقال رسول الله ﷺ : « ومن أهل أيّ البلاد أنت يا عداس ؟ وما دينك ؟ » قال : نصرانى وأنا رجل من أهل نَيْنَوَى ، فقال رسول الله ﷺ : « من قرية الرجل الصالح يونس بن متى » . فقال له عداس : وما يدريك ما يونس بن

(١) يتجهّمنى : يعبس فى وجهى ويرينى ما أكره .

مَتَّى ؟ . فقال رسول الله ﷺ « ذاك أخى كَانَ نَبِيًّا وَأَنَا نَبِيٌّ » . فَاكْبَ
عداس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ، ويديه وقدميه .

وهنا نظر ابنا ربيعة أحدهما للآخر وقال له : أما غلامك فقد أفسده
عليك . فلما جاءهما عداس قالوا له : ويحك يا عداس مالك تقبل رأس هذا
الرجل ويديه وقدميه ؟ قال يا سيدى ما فى الأرض شئ خيراً من هذا ، لقد
أخبرنى بأمر لا يعلمه إلا نَبِيٌّ ، فقالوا له : ويحك يا عداس لا يصرفتك عن
دينك ، فإن دينك خير من دينه .

وانصرف رسول الله ﷺ عائداً من الطائف بعد أن أيس من خير ثقيف ،
حتى إذا كان بنخلة^(١) قام من جوف الليل يصلى ، فمرّ به نفر من الجنّ
الذين ذكرهم الله تعالى فى سورة الأحقاف فى قوله : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ
نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ﴾ الخ .. وهم
من جنّ نصيبين^(٢) وكانوا سبعة نفر وحملوا رسالة الله تعالى إلى قومهم
منذرين ، كما نزلت سورة الجن فى شأنهم أيضاً وفيها من أخبارهم الكثير .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نذكرها إزاء الأرقام الآتية :
(١) بيان ثبات الرسول ﷺ وعدم يأسه مهما عظم البلاء ، يدل على
ذلك خروجه إلى الطائف يطلب النصرة .

(٢) بيان أن النبى ﷺ كان حكيماً بل أستاذاً فى الحكمة ، فانظر كيف اختار
النفر الثلاثة إذ كانوا سادة ثقيف فلو أجابوا دعوته لأجابت كل أهل الطائف ،
فلما رفضوها علم أن غيرهم سيرفضها فلذا لم يتصل بأحد غير نفر الثلاثة .

(١) مكان بين مكة والطائف .

(٢) مدينة بالشام .

(٣) بيان سوء معاملة أهل الطائف ومع هذا لم يدع عليهم ﷺ بل دعا لهم ، فقال « اللهم اهد ثقيفًا وأت بهم » واستجاب الله تعالى له فيهم فأتوا بعد حصارهم وآمنوا وأسلموا .

(٤) بيان فضل عداس ، وشهادته بنبوّة رسول الله ﷺ .

(٥) بيان مكان لقاء الجن النّبى ﷺ ، وحملهم رسالة الإسلام إلى أقوامهم .

الإسراء بالحبيب ﷺ والعروج به إلى الملكوت الأعلى

نبدأ الحديث باسم الله ثم بالسؤال التالى :

متى كان الإسراء والمعراج ؟

إنه فى السنة العاشرة من سنّى البعثة النبويّة ، إنه — الإسراء والمعراج — كان مكافأة ربّانية على ما لاقاه الحبيب ﷺ من أتراح وآلام وأحزان ؛ إذ كان بعد حصار دام ثلاث سنوات فى شعب أبى طالب . وما لاقى أثناءه من جوع وحرمان ، إنه كان بعد فقد الناصر الحميم ، وفقد خديجة أم المؤمنين إنه كان بعد خيبة الأمل فى ثقيف ، وما ناله من سفهائها وصبيانها وعبيدها .

بعد هذه الآلام كافأ الحبيب حبيبه فرفعه إليه وقربه وأدناه ، وخلع عليه من حلل الرضا ما أنساه كل ما كان قد لاقاه ، من حزن وألم ونصب وتعب ، وما قد يلاقيه فى سبيل إبلاغ رسالته ونشر دعوته ، فصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما ذكر الله الذاكرون ، وما غفل عن ذكره الغافلون .

وكيف كان الإسراء ؟

لقد كان الإسراء من بيت أم هانئ حيث أخرج الحبيب منه إلى المسجد الحرام إلى ما بين الحجر والحطيم حيث أجريت له عملية شقّ الصدر فأخرج

القلبُ وغُسلَ بماء زمزم المبارك ، ثم أُتِيَ بطست من ذهب مملوء إيمانًا وحكمةً فَحَشَى القلب بذلك الإيمان وتلك الحكمة ثم أعيد القلب كما كان . ثم أتى بدابة وهي البراق ، فركبه إلى بيت المقدس ، فربطه في حلقة باب المسجد ، ودخل المسجد فصلى فيه ، ثم وُضع له معراج ممتد ما بين السماء والأرض ، فخرج بصحبة أخيه في الرسالة جبريل عليه السلام ، فانتها إلى السماء الدنيا فاستفتح جبريل ، فسئل عمن معه ؟ ، فأخبر أنه محمد ﷺ وقد أذن له ، ففتح لهما .

وهكذا سماء بعد سماء حتى انتهيا إلى السماء السابعة ، وقد لاقاهما في كل سماء مُقَرَّبوها من الملائكة والأنبياء ، فلقيا في الأولى آدم عليه السلام وفي الثانية يحيى وعيسى عليهما السلام وهما ابنا الخالة ، وفي الثالثة يوسف عليه السلام ، وفي الرابعة إدريس عليه السلام ، وفي الخامسة هارون عليه السلام وفي السادسة موسى عليه السلام ، وفي السابعة إبراهيم عليه السلام .

وكان ﷺ يلقي في كل سماء من الترحيب ما تقرُّبه عينه وينشرح له صدره ، وتطيب به نفسه ، وهو لذلك أهل ، ثم رفعت له سدرة المنتهى وإذا ورقها كأذان الفيلة ، ونبقها كقلال هجر ، وغشيتها عند ذلك أمورٌ عظيمة ، وألوان متعددة باهرة ، وركبتها الملائكة مثل الغربان على الشجرة كثرةً ، وفراش من ذهب ، وغشيتها من نور الربِّ جل جلاله ما غشيتها ورأى ﷺ في هذا المكان جبريل عليه السلام وله ستائة جناح ما بين كل جناحين كما بين السماء والأرض : وهذا ما دل عليه قوله تعالى من سورة النجم : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ^(١) الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ إذ ثبت ينظر إلى المكان الذي حُدِّد له النظر إليه فلم يتجاوزه ، وهذا غاية الأدب منه ﷺ . كما رفع

(١) ما مال يميناً ولا شمالاً .

له البيت المعمور فإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك . ثم أوتى بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من غسل فأخذ اللبن ، فقيل له : هى الفطرة التى أنت عليها وأمتك .. ثم رفع وأُذِنَتِ حتى انتهى إلى مستوى سمع فيه صرير الأقلام ، وهنا قربه ربّه وناجاه ، وإن لم يره ، لأنه نور كيف يراه .

وفرض عليه وعلى أمته الصلوات الخمس ، ولما رجع عائداً مرّ بموسى عليه السلام فسأله فأخبره فطلب إليه أن يعود إلى ربّه يسأله التخفيف ؛ لأن موسى جرّب بنى إسرائيل ولم يجد لهم عزماً فخشى أن يحصل لأمة محمد ما حصل لأمة ، فعاد الحبيب ﷺ إلى حبيبه جل جلاله وعظم سلطانه يسأله التخفيف ؛ إذ فرضها أولاً خمسين صلاة ، فما زال يراجعها سائلاً التخفيف حتى كانت خمساً بدل الخمسين^(١) .

ونزل الحبيب ﷺ صحبة جبريل عليه السلام إلى بيت المقدس ، فنزلت الأنبياء يشيعون الحبيب ﷺ فصلّى بهم صلاة الصبح بالمسجد الأقصى . وركب البراق حيث تركه مربوطاً بحلقة الباب ، وعاد إلى مكة فى صبيحة تلك الليلة ، وقد ذهب عنه ﷺ كل كرب وغمّ وحزن وهمّ ، وعاد أوفر ما يكون ثقة وطمأنينة ، وتلك ثمرة هذه الرحلة المباركة إلى الملكوت الأعلى ، إذ رأى فيها بأمر عينيه ما كان أخبر وتلقاه وحياً من ربّه فصَدّق الخبرُ الخبر ، وما راء كمن سمع ، والحمد لله ذى الإنعام والجلال والإكرام وكيف قابلت قريش هذا النبأ العظيم ؟

إنه ﷺ قد عاد إلى المسجد الحرام وجلس فيه وهو لا يدرى بم تقابل قريش هذا النبأ العظيم ، والحدث الجلل ، فما زال جالساً حتى مرّ به أبو جهل

(١) أمّا بيان هذه الصلوات الخمس من حيث الوقت والكيفيّة فقد نزل جبريل بعد ذلك وصلى بالرسول والمؤمنين عند الكعبة يوماً وليلة فعلمهم الكيفيّة والوقت المطلوب لأداء الصلوات الخمس ، كما فى الموطأ والصحيحين .

عليه لعائن الله فسأله قائلًا مستهزئًا : هل استفدت الليلة شيئًا ؟ فأجاب المصطفى : « نعم أُسْرِىَ بى الليلة إلى بيت المقدس » . قال أبو جهل : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ قال النبى ﷺ « نعم » . فقال أبو جهل : أُجِبْ قومك بذلك ؟ فقال النبى ﷺ : « نعم » . فقال أبو جهل : يا معشر بنى كعب بن لؤى هلموا . فأقبلوا فحدثهم النبى ﷺ فمن مصدق ، ومن مكذب مصفّق واضع يده على رأسه استعظاما للخبر وإنكارًا له ، وتعجبًا منه .

ولشدة ما أثار الخبر من سخرية وتعجب ارتد بعض من آمن ولم يرسخ الإيمان فى قلوبهم ولم تخالط بشاشته قلوبهم .

ومشى رجال من المشركين المستهزئين إلى أبى بكر الصديق ، وقالوا له إن صاحبك يزعم أنه أُسْرِىَ به إلى بيت المقدس ، فقال الصديق : إن كان قال هذا فقد صدق ! إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك ، أصدقه فى خبر السماء يأتيه فى غدوة أو روحة . فلقب أبو بكر بالصديق من يومئذ .

واجتمع رجال من قريش وأرادوا امتحان النبى ﷺ فقالوا له : انعت لنا المسجد الأقصى فأخذ ينعته لهم ، فالتبس عليه فجىء له بالمسجد ينظر إليه وينعته لهم ، وعندئذ قالوا له أخبرنا عن غيرنا القادمة من الشام ، فقال قد مررتُ على غير بنى فلان بالروحاء ، وقد أضلُّوا بغيراً لهم ، وهم فى طلبه فسلوهم عن ذلك ، ومرت بغير بنى فلان وفلان وفلان ورأيت ركباً قعوداً بذى مرّ فنفر بكره منه فسقط فلان فانكسرت يده فسلوه . ومرت بغيركم بالتنعيم يقدّمها جمل أورق عليه غرارتان تطلع عليكم طلوع الشمس ، فخرجوا إلى الثنية فجلسوا ينتظرون طلوع الشمس ، ليكذبوه وفجأة قال قائل هذه الشمس قد طلعت فقال آخر والله هذه العير قد طلعت يقدمها بغير أورق كما قال . ومع هذا فلم يؤمنوا ، وقالوا إن هذا إلا سحر مبين . وأنزل الله تعالى مصداق ذلك فاتحة سورة الإسراء .

نتائج وعبر :

- إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نجملها فيما يأتي :
- (١) المعجزات ليست ضرورية لحصول الإيمان فقد رأى كفار قريش آيات عظاما ولم يؤمنوا .
- (٢) تقرير حادثة الإسراء والمعراج وثبوتها بالكتاب والسنة والإجماع وأن الإسراء والمعراج كانا بالروح والجسد معاً .
- (٣) سبق أبى بكر وفصله وسبب تلقيبه بالصديق فرضى الله عنه وأرضاه .

ثلاث آيات

من آيات النبوة المحمدية

إن آيات النبوة المحمدية أكثر من أن تعد أو تحصى وقد تقدم العديد منها في مطلع هذا الكتاب وسيأتى في آخره ذكر عشرات المعجزات . وإنما أردنا ذكر ثلاث آيات هنا حيث أفردتها المؤرخون بالذكر لعظم دلالتها وقوة برهانها على صدق الحبيب ﷺ فيما جاء به من الهدى ودين الحق ، كما أن الناحية التاريخية تقتضى ذكرها هنا بعد حادثة الإسراء والمعراج .

وأولى هذه الآيات آية انشقاق القمر ، فقد روى أحمد في مسنده عن أنس بن مالك أنّ أهل مكة سألوا النبي ﷺ آية ، فانشق القمر فرقتين ، وروى البخارى عن قتادة عن أنس أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقّين حتى رأوا حراء بينهما ، ومصدق هذا في كتاب الله تعالى إذ قال عز من قائل في فاتحة سورة القمر : ﴿ أَقْرَبَتْ آسَافَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ .

وخطب حذيفة بن اليمان بالمدائن يوماً فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَالشَّيْءُ الْقَمَرُ ﴾ ألا وإن الساعة قد اقتربت ، ألا وإن القمر قد انشق ، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق . وروى أحمد عن ابن مسعود رضى الله عنه قوله : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ حتى نظروا إليه فقال رسول الله ﷺ « اشهدوا » وقال المشركون : هذا سحر ابن أبى كبشة . وقالوا نسأل السفار خارج مكة ، فسألوا السفار فأخبروا أنهم رأوا ليلة كذا قد انشق القمر فرقتين .

وثانى الآيات هى دعاء النبى ﷺ على أهل مكة بالقحط لما استعصوا وأبوا قبول دعوة الحق ، ولجؤا فى الخصومة والعناد والمكابرة ، فقد قال ﷺ « اللهم أعننى عليهم بسبع كسيع يوسف » فأصابته سنة حتى أكلوا الميتة والجلود والعظام . فجاء أبو سفيان ومعه رجال من مكة وقالوا : يا محمد إنك تزعم أنك بعثت رحمة ، وإن قومك قد هلكوا فادع الله لهم ، فدعا ﷺ فسقوا الغيث ، وقد كان بلغ الجوع حتى إن أحدهم كان يرى ما بينه وبين السماء كهيفة الدخان من الجوع .

وفى هذا نزل قرآن وهو قوله تعالى من سورة الدخان : ﴿ فَأَرْسَلْنَا يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ الآيتان .

إلا أنهم لما دعا لهم الرسول ﷺ وسقوا الغيث عادوا إلى الإصرار والعناد فعلم تعالى ذلك منهم وقال : ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ وقد انتقم الله منهم يوم بدر إذ قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ وفعلًا قد أخذ الله رؤساءهم يوم بدر فأهلكهم ولم ينبج إلا القليل منهم ممن كتب الله لهم النجاة ليؤمنوا وينجوا من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة كأبى سفيان وغيره .

وثالث الآيات هى أنه يوم اشتداد الصراع بين المشركين من جهة وبين المؤمنين من جهة أخرى ، وذلك بمكة كانت قد دارت حرب ضروس بين

فارس والروم الدولتين العظميين المتجاورتين ، ونظرًا إلى أن دولة الروم مسيحية من أهل الكتاب ودولة فارس مجوسية وثنية كان أهل مكة يتلقون الأخبار ويتبعونها ، ويسرهم أن تنتصر فارس على الروم ، وكان المسلمون على العكس يودون أن تنتصر دولة الروم على دولة الفرس الوثنية ونزل قرآن كريم في هذا الشأن وهو قوله تعالى من سورة الروم ﴿ اَلَمْ * غَلَبَتِ الرُّومُ * فِي اَدْنٰى الْاَرْضِ وَهُمْ مِّنۢۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُوْنَ * فِيۤ بَضْعِ سِنِيْنَ ۗ اِنَّ اَمْرًا مِّنۢۢ قَبْلِ وَمِنْۢۢ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍۭ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُوْنَ * بِنَصْرِ ٱللّٰهِ يَنْصُرُ مَنۢۢ يَشَآءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيْمُ ﴾ فأخبر تعالى بأن فارسًا قد غلبت الروم ، وأن الروم ستغلب فارسًا في خلال بضع سنين ، والبضع من الثلاث إلى التسع فقال المشركون لأبي بكر الصديق اجعل بيننا وبينك أجلاً ، إن ظهر الروم على فارس كان لك كذا وكذا ، وإن ظهرت فارس على الروم كان لنا كذا وكذا ، والذي قال هذا وراهن أبا بكر الصديق هو أبتى بن خلف ، وإن الرهن كان على خمس قلائص^(١) من الإبل ، ولم يمض البضع من السنين حتى غلبت الروم فارسًا ، وكان ذلك يوم بدر حيث فرح المؤمنون بنصر الله لهم على المشركين ، ونصر الروم على فارس الوثنية ، فكان هذا آية من أظهر الآيات دلالة على صدق ما جاء به الرسول محمد ﷺ من الهدى والدين الحق . فهذه ثلاث آيات ناطقة بالنبوة المحمدية شاهدة بصدق ما جاء به الحبيب ﷺ من الهدى والدين الحق .

نتائج وعبر :

لقد اشتملت هذه القطعة من السيرة العطرة على نتائج وعبر هي كالتالى :

(١) آية انشقاق القمر من أكبر الآيات ، وهى ثابتة بالكتاب والسنة وبالأخبار المستفيضة المتواترة ، وهى تقرّر النبوة المحمدية وتؤكددها .

(١) جمع قلوص وهى الفتيّة من الإبل

(٢) بيان أن دعوة النبي ﷺ لا ترد ، وأن استجابة الله تعالى له آية نبوته وتقرير رسالته وصحة دعوته .

(٣) بيان أن هذه الآيات لا تستلزم الإيمان ممن رآها إذ رآها المشركون وما آمنوا ولا أسلموا إلا من شاء الله تعالى منهم ذلك .

(٤) تقرير صحة الدين الإسلامي ، وأنه الدين الحق لصدق ما يخبر به كتابه من الغيوب المتعددة ، وتقع كما أخبر ولا تتخلف أبدًا .

(٥) بيان أن أهل الكتب من يهود ونصارى أقرب إلى المسلمين من المشركين والملاحدة الشيوعيين .

الخروج بالدعوة خارج مكة

إنه لما خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف عرض دعوته على رجال ثقيف وعاد آيسًا من خيرهم دخل مكة في جوار المطعم بن عدي إذ طلب إليه ذلك فوافق عليه فرآه أبو جهل فقال مستهزئًا : هذا نبيكم يابني عبد مناف !! فرد عليه عتبة بن ربيعة قائلاً : وما ينكر أن يكون منا نبي ومليك ؟ وسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال لعتبة : « أما أنت فما حيث لله ، وإنما حيث لنفسك ، وأما أنت يا أبا جهل فوالله لا يأتي عليك غير بعيد حتى تضحك قليلًا ، وتبكي كثيرًا ، وأما أنتم يا معشر قريش فوالله لا يأتي عليكم غير كثير حتى تدخلوا فيما تنكرون وأنتم كارهون » .

وكان الأمر كذلك فكانت آية نبوته ﷺ .

وبقى ﷺ بمكة وقد قل ناصره واشتدت عداوة القوم له ولم يكن بمكة من المؤمنين غير المستضعفين ففكر ﷺ في الخروج بدعوته خارج مكة فأخذ يعرض نفسه طالبًا نصرته حتى يبلغ دعوة ربه ، وذلك في المواسم والأسواق

والمناسبات السنوية وغيرها ، فأتى قبيلة كندة فدعاهم وطلب نصرته فأبوا عليه ، وأتى بطناً من كلب يُقال لهم : بنو عبد الله فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نصرته ، فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم ، ثم أتى بنى حنيفة وهم قوم مسيلمة الكذاب ، فلم يكن أحد أسوأ منهم ردًّا وأقبحه ، وأتى بنى عامر ، فعرض عليهم نصرته والإيمان بدعوته فرفضوا ، وقال له أحدهم : أرأيت إن نحن تابعنك فأظهرك الله على من خالفك أ يكون لنا الأمر من بعدك ؟ فرد عليه الرسول ﷺ بقوله : « الأمر إلى الله يضعه حيث شاء » . فقال العامري أفنهدفُ نُحورنًا للعرب دونك فإذا ظهرت كان الأمر لغيرنا لا حاجة لنا بأمرك .

ولما رجع بنو عامر إلى ديارهم أخبروا شيخًا كبيرًا من رجالاتهم بالخبر ، فوضع يده على رأسه وقال : يا بنى عامر هل من تلاف ؟ والذي نفسى بيده ما تقوُّها إسماعيلي قط ، وإنما لحق وأين كان رأيكم عنه ؟

ولم يزل ﷺ يعرض نفسه ودعوته على كل قادم له اسم وشرف علَّه يجد من ينصره على دعوته وكان كلما أتى قبيلة يدعوها تبعه عمه أبو لهب فإذا فرغ من كلامه يقول لهم : يا بنى فلان إنما يدعوكم هذا إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم إلى ما جاء به من الضلالة والبدعة فلا تطيعوه ولا تسمعوا له .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نوجزها في ما يلي :

(١) ما كان العرب يلتزمون من الجوار سنة حسنة وهى تعرف اليوم باللجوء السياسى .

(٢) آية صدق النبوة المحمدية تتجلى فى صدق ما أخبر به الرسول ﷺ أبا جهل وقريشًا إذ كان ما أخبر به كلا منهما كما أخبر .

(٣) قوة فراسة العامري إذ عرف صدق النبي ﷺ وصحة دعوته وأنها الحق .

(٤) بيان ما كان عليه أبو لهب من الصد عن الدعوة ومحاربتها حتى خارج مكة .

(٥) استعمال أبي لهب لفظ البدعة والضلالة فيما هو شرع وهدى كاستعمال أصحاب الأهواء اليوم لفظ البدعة والضلالة على هدي الكتاب والسنة تنفيراً للناس عنهما .

تدابير إلهية لظهور الإسلام

ما زال الحبيب ﷺ يعرض دعوته ونصرته على كل ذى اسم وشرف وقدم مكة سويد بن الصامت الملقب بالكامل لقوته وجلده وهو أوسى من أهل المدينة قدم حاجاً ومعتماً ، فتصدى له الرسول ﷺ ، فدعاه إلى الإسلام وقرأ عليه القرآن ، فقال : إن هذا لَحَسَنٌ ، ثم انصرف وقدم المدينة فلم يلبث أن قتله الخزرج في حرب بُعاث الدائرة بين قبيلتي الأوس والخزرج فكان قومه يقولون قُتل الكامل وهو مسلم .. هذا تدبيرٌ .

وآخر هو قدوم أبي الحَيَسِرِ أنس بن رافع مكة مع فتية من بنى عبد الأشهل من بينهم إياس بن معاذ قدموا يلتمسون حلفاً من قريش على قومهم من الخزرج فأتاهم النبي ﷺ وقال لهم : « هل لكم فيما هو خير لكم مما جئتم له ؟ » ودعاهم إلى الإسلام وقرأ عليهم القرآن ، فقال إياس وكان غلاماً حدثاً هذا والله خير مما جئنا له ، فضرب وجهه أبو الحَيَسِرِ بحفنة من البطحاء^(١) وقال : دعنا منك ، فلقد جئنا لغير هذا ، وقام رسول الله ﷺ ولم يلبث أن هلك

(١) البطحاء : رمل وحصى .

أياس فسمعه قومه يهلل ويكبر حتى مات ، فما يشكون أنه مات مسلماً ..
هذا تدبير .

وثالث بينا رسول الله ﷺ يعرض نفسه طالباً النصر على القبائل الوافدة إلى الحج والعمرة وإذا برهط من الخزرج عند العقبة فدعاهم إلى الله تعالى وعرض عليهم الإسلام ، وذكرهم هذا بما تقوله اليهود لهم بالمدينة من أن نبياً يبعث الآن تتبعه ونقتلكم معه قتل عادٍ وثمود . فقال بعضهم لبعض هذا والله النبي الذي توعدكم به اليهود ، فأجابوا دعوة النبي ﷺ وصدقوا به ، وقالوا له : إن بين قومنا شراً وعسى الله أن يجمعهم بك ، فإن اجتمعوا عليك فلا رجل أعز منك ، ثم انصرفوا عنه ، وكانوا سبعة نفر .

فلما قدموا المدينة ذكروا لأهلها النبي ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم وانتشر خبره . حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً فلحقوا النبي ﷺ بالعقبة فبايعوه بيعة النساء^(١) .

وكانت هذه بيعة العقبة الأولى ، وكان أهل هذه البيعة أسعد بن زرارة ، وعوف ومعاذ ابنا الحارث وهما ابنا عفراء ، ورافع بن مالك بن عجلان ، وعبادة بن الصامت وغيرهم من الخزرج ، ومن الأوس : أبو الهيثم بن التيهان ، وهويم بن ساعدة ، فانصرفوا بعد البيعة ، وبعث معهم النبي ﷺ مصعب ابن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويُعلمهم الإسلام ، فنزل مصعب بالمدينة على أسعد بن زرارة ، وأنزله أسعد في دار بني ظفر ، واجتمع عليه رجال ممن أسلموا فسمع به سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وهما سيदा بنى الأشهل ، وكانا مشركين فقال سعد لأسيد

(١) المراد من بيعة النساء أنهم بايعوا على أن لا يشركوا بالله شيئاً إلى آخر ما جاء في قوله تعالى ﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ﴾ إلى ﴿ ولا يعصينك في معروف ﴾ ولم يذكر فيها القتال لأن النساء ليس عليهن جهاد .

انطلق إلى هذين اللذين أتيا دارنا فانهما يعنى بالرجلين مصعب بن عمير وأسعد ابن زرارة — فإنه لولا أسعد بن زرارة وهو ابن خالتي لكفيتك ذلك ، فأخذ أسيد حربته ثم أقبل عليهما فقال ما جاء بكما تسفهان ضيعافنا اعترلا عنا ، فقال له مصعب أو تجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهته كف عنك ما تكره ؟ فقال : أنصفت . ثم جلس إليهما فكلمه مصعب بالإسلام ، فقال : ما أحسن هذا وأجله ؟ كيف تصنعون إذا دخلتم هذا الدين ؟ قالا : تغتسل وتطهر ثيابك ، ثم تشهد شهادة الحق — لا إله إلا الله ، محمد رسول الله — ثم تصلى ركعتين ، ففعل ذلك وأسلم ، ثم قال لهما إن ورأى رجلاً إن تبعكما لم يتخلف عنكما أحد من قومه ، وسأرسله إليكم وهو سعد بن معاذ .

وانصرف أسيد إلى سعد وقومه . فلما نظر إليه سعد قال : أحلف بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم ، ثم قال لأسيد : ما فعلت ؟ قال كلمت الرجلين ووالله ما رأيت بهما بأساً ، وذهب سعد بن معاذ إلى أسعد ومصعب فدعاه مصعب إلى الإسلام فأسلم على نحو ما أسلم أسيد ، ثم ذهب إلى دار بن عبد الأشهل فسألهم قائلاً : كيف تعلمون أمرى فيكم ؟ قالوا : سيدنا وأفضلنا ، قال فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله ، فوالله ما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة .

ورجع مصعب إلى منزل أسعد بن زرارة وما زال يدعو إلى الإسلام حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون إلا ما كان من بنى أمية بن زيد ووائل وواقف فإنهم أطاعوا أبا قيس بن الأسلت فوقف بهم عن الإسلام حتى هاجر رسول الله ﷺ ونزل بالمدينة ، وحتى مضت بدر وأحد والخندق ثم دخلوا فى الإسلام فأسلموا وحسن إسلامهم .

وثالث هو : أنه لما فشا الإسلام فى المدينة بين الأنصار اجتمع جماعة من

أهل المدينة وقرّروا أن يأتوا النبي ﷺ في الحج ويجتمعوا معه سرّاً ويدرسوا معه على كتب موضوع هجرته إليهم ، وانتهوا إلى مكة واتصلوا بالحبيب ﷺ سرّاً وواعدوه وسط ليالى التشريق فوافوه بالعقبة ليلاً وكانوا سبعين رجلاً ومعهم امرأتان هما نُسَيْبَةُ بنت كعب أم عمارة ، وأسماء أم عمرو بن عدى من بنى سلمة ، وكان مع الرسول ﷺ عمه العباس رضى الله عنه ، وهو يومئذ كافر لم يؤمن ، وإنما حضر ليستوثق لابن أخيه من كل ما يعده به الأنصار ويعطونه له من أنفسهم ، فكان أول من تكلم العباس فقال : يا معشر الخزرج إن محمداً منا حيث علمتم في عزٍّ ومنعة ، وقد أئى إلا الانقطاع إليكم فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه ومانعوه فأنتم وذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه فمن الآن فدعوه فإنه في عزٍّ ومنعة .

فقال الأنصار : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله وخذ لنفسك ولربك ما أحببت . فتكلم رسول الله ﷺ وتلا القرآن ورغب في الإسلام ، ثم قال : « تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » . فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم . والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما تمنع منه أُرُونا^(١) فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحدقة^(٢) ورثناها كابراً عن كابر وهنا اعترض الكلام أبو الهيثم بن التيهان فقال يا رسول الله : إن بيننا وبين الرجال حباً ، وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فنبسّم رسول الله ﷺ ثم قال : « بل الدم^(٣) الدم ، والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » . وهنا التفّت إليهم العباس بن عباد الأنصارى وقال

(١) أى نساءنا فالأزور كناية عن النساء ، لأن الأزور ستائر والنساء كذلك يسترن الرجال .

(٢) السلاح .

(٣) أى نطالب بدمكم ، وهو معنى الدم الدم ، وما تتركونه من الدماء أتركه أنا أيضاً وهو معنى الهدم الهدم .

يا معشر الخزرج هل تدرون علام تباعون هذا الرجل ؟ تباعونه على حرب الأحمر والأسود ، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه فمن الآن فهو والله خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة ، فأجابوه قائلين إنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف ، والتفتوا إلى الحبيب ﷺ وقالوا : فما لنا بذلك يا رسول الله ؟ فقال — فداه أى وأمى والناس أجمعون — : « الْجَنَّةُ » !! فقالوا : أبسط يدك نبايعك ، فبسط يده فبايعوه على خلاف بيعة النساء الأولى إذ بايعوه على حرب الأحمر والأسود . وعين منهم ﷺ اثني عشر نقيباً تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس . فالخزرجيون هم : أسعد بن زرارة — وسعد بن الربيع — وعبد الله بن رواحة — ورافع بن مالك — والبراء بن معرور — وعبد الله بن عمرو بن حرام — وعباد بن الصامت — وسعد بن عباد — والمنذر بن عمرو بن حنيس .

والأوسيون هم : أسيد بن حضير — وسعد بن خيثمة — ورفاعة بن عبد المنذر .

وبهذا كانت بيعة العقبة الثانية . وصرخ الشيطان من أعلى العقبة قائلاً : يا أهل الجَبَاِجِبِ (١) هل لكم في مُدَمِّمِ (٢) والصباة (٣) معه قد اجتمعوا على حربكم . فقال رسول الله ﷺ « هذا أَرَبُ (٤) العقبة ، أسمع أى عدو الله ، أما والله لَا تُفَرِّغَنَّ لَكَ » ثم قال ﷺ « ارجعوا إلى رحالكم » فقال العباس بن عباد : والذي بعثك بالحق نبياً لئن شئت لَنَمِيلَنَّ غداً على أهل مَنًى بِأَسِيفِنَا فقال ﷺ : « لَمْ نَوْمِرْ بِذَلِكَ » .

(١) المنازل .

(٢) يعنى — لعنه الله — عمداً ﷺ .

(٣) الصباة جمع صاب أى مائل عن دينه يعنى أهل البيعة .

(٤) أَرَبُ العقبة : شيطانها والأَرَبُ القصير الماكر والبخيل الخيث .

وسمعت قريش بهذه البيعة المباركة فلاحقت أهلها فلم تظفر إلا بسعد بن عبادة فعذبت ، ثم نجاه الله تعالى فلحق بالمدينة ، واشتد لذلك غضب قريش وعظم أذاها للمؤمنين فأمر النبي ﷺ المؤمنين بالهجرة إلى المدينة .

فكان أول من قدم المدينة أبو سلمة بن عبد الأسد ، ثم هاجر عامر بن ربيعة مع امرأته ليلى ، ثم عبد الله بن جحش ، وتتابع الأصحاب فهاجر عمر ابن الخطاب وعياش بن ربيعة ، وغيرهم .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نجملها فيما يأتي :

(١) بيان شرف سويد بن الصامت الملقب بالكامل إذ كان أول من لقيه رسول الله ﷺ وعرض عليه الإسلام فاستحسنه ونقل خبره إلى المدينة .

(٢) بيان شرف إياس الشاب الذى ما إن سمع قول الرسول ﷺ حتى قال : هذا والله خير مما جئتم له .

(٣) بيان فضل الرهط الذين لقيهم رسول الله ﷺ عند العقبة وعرض عليهم الإسلام فأجابوه وآمنوا وعادوا إلى المدينة فنشروا الإسلام .

(٤) بيان شرف أهل بيعة العقبة الأولى وعلى رأسهم أسعد بن زرارة .

(٥) بيان فضل مصعب بن عمير شهيد أحد رضى الله عنه إذ ضرب المثل فى حسن الدعوة والصبر على البلاء فرضى الله عمن ترضى عن مصعب من كل مؤمن موحد .

(٦) شرف أهل بيعة العقبة الثانية وفضل النقباء منهم وهم اثنا عشر رجلا .

(٧) بيان عداوة الشيطان إذ صرخ متألماً لما شاهد من نصرة الإسلام وأغرى المشركين بالمؤمنين وأذاع خبر بيعة العقبة فلعنة الله عليه .

لطائف أمور قبل هجرة الحبيب ﷺ

أول هذه الأمور نص حديث البيعة إذ جاء فيه ما يلي : قال عبادة بن الصامت وكان أحد النقباء : بايعنا رسول الله ﷺ بيعة الحرب على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأثرة علينا ، وأن لا ننازع الأمر أهله وأن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم .

وثاني هذه الأمور أن العباس بن عبادة العوفى هو الوحيد الذى ظفر بلقب مهاجر أنصارى فالأصحاب كلهم إما مهاجر أو أنصارى إلا العباس بن عبادة العوفى فإنه خرج إلى رسول الله ﷺ بمكة وأقام معه بها ، فكان يقال له : مهاجرى أنصارى استشهد بأحد رضى الله عنه وأرضاه وجعل الجنة مأواه .

وثالث هذه الأمور لما تمت بيعة العقبة الثانية وقد تضمنت نُصرة رسول الله ﷺ ، وقال لهم : « إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها » فخرجوا أرسالا أى جماعة إثر جماعة ، وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر إذن ربه تعالى له فى الهجرة إلى المدينة .

ورابع هذه الأمور أن أول مهاجر من قريش من بنى مخزوم إلى المدينة كان أبا سلمة بن عبد الأسد بن هلال ، واسمه عبد الله رضى الله عنه وأرضاه . وحديث هجرة أبى سلمة اللطيف الشريف كان كالتالى ، فلنستمع إليه :

لما عاد أبو سلمة من الحبشة إذ هاجر إليها أولا ، ولما وصل مكة آذته قريش ، وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار ، فقرر الهجرة إلى المدينة ، فحمل زوجته أم سلمة وطفله وقاد بهما راحلته ، وخرج فلحقه رجال من بنى مخزوم ، فقالوا له هذه نفسك قد غلبتنا عليها ، أرأيتك صاحبك هذه علام تُتركك تسير بها فى البلاد ، ونزعوا خطام البعير من يده ، وأخذوا الراحلة

وعليها امرأته وولده ، وغضب عند ذلك رجال من رهط أبي سلمة فقالوا :
والله لا نترك ولدنا عندها ؛ إذ نزعتموها من صاحبنا فتجاذبوا الطفل حتى
خلعت يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبس بنو المغيرة أم سلمة عندهم .

ولنستمع إليها وهي تحدث عن قصة هجرتها ، قالت رضى الله عنها : ففرقوا
بينى وبين زوجى إذ واصل هو سيره إلى المدينة ، وبينى وبين ولدى إذ أخذه
رهط زوجى فكنت أخرج كل غداة إلى الأبطح ، فأجلس أبكى فلا أزال
أبكى حتى أمسى ، وذلك سنة أو قريباً منها ، حتى مرّ بى رجل من بنى عمّى
أحد بنى المغيرة فرأى ما بى فرجّمتنى ، فقال لبنى المغيرة ألا تخرجون هذه
المسكينة فرقم بينها وبين زوجها ، وبينها وبين ولدها . قالت : فقالوا لى الحقى
بزوجك إن شئت ، قالت : وردّ بنو عبد الأسد إلّى عند ذلك ابنى ، فارتحلت
بعيرى ، ثم أخذت ابنى فوضعتة فى حجرى ثم خرجت أريد زوجى بالمدينة ،
وما معى أحد من خلق الله ، فقلت : أتبلّغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجى ،
حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبى طلحة أبا بنى عبد الدار ،
فقال لى : إلى أين يابنت أبى أميّة ؟ قلت : أريد زوجى بالمدينة . قال : أو
ما معك أحد ؟ قلت لا والله إلا الله وبُنّى هذا ، قال والله مالك من مترك ،
فأخذ بخطام البعير فانطلق معى يهوى بى ، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب
قط أرى أنه كان أكرم منه ، كان إذا بلغ المنزل أناخ بى ثم استأخر عنى ،
حتى إذا نزلت استأخر ببعيرى فحط ، ثم قيده فى الشجرة ثم تنحّى عنى إلى
شجرة أخرى فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرواح قام إلى ببعيرى فقّده فرحله
ثم استأخر عنى ، وقال اركبى فإذا ركبت واستويت على ببعيرى أتى وأخذ
بخطامه ، فقاده حتى ينزل بى ، فلم يزل يصنع ذلك بى حتى أقدمنى المدينة ،
فلما نظر إلى قرية بنى عمرو بن عوف بقاء قال : زوجك فى هذه القرية
— وكان أبو سلمة نازلاً بها — فادخلها على بركة الله ، ثم انصرف راجعاً
إلى مكة هو يومئذ على الشرك ، وما أسلم إلا فى هدنة الحديبية .

والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة ، وما رأيت صاحباً قط أكرم من عثمان بن طلحة .

مراجعة :

هيا بنا يا إخوة الإسلام نراجع قصة أم سلمة هذه لعلنا نبكي فتمسح بدموعنا بعض آثامنا ، ونذهب بها بعض قساوة قلوبنا .

هذه أم سلمة وذاك زوجها قبل رسول الله ﷺ أبو سلمة ذو الهجرتين يخرج بها من مكة مهاجراً بها إلى دار الهجرة ، فتفتك منه زوجته وولده ، ويفتك الولد من أمه ، ويترك أبو سلمة زوجته وولده ويهاجر إلى ربّه تاركاً نصفه وراءه ، وتنظر أم سلمة فلم تجد مواسياً ولا مؤانساً ، فتخرج كل يوم إلى الأبطح تبكي طول يومها ، وتعود إلى كسر بيتها إلى انسلاخ سنة بأشهرها الاثني عشرة ، ثم يؤذن لها بالهجرة فتهاجر وحدها على بعير وما معها سوى طفلها تسافر مسافة عشرة أيام .

حقاً ما قالته : ما أعلم أهل بيت أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة . هذه وأخرى في كمال عثمان بن طلحة الذي يضرب الرقم القياسي في الكرم النفسى ، إنه يجد امرأة على بعيرها تريد السفر مسافة عشرة أيام في صحراء لا خضراء بها ولا ماء ، فيقول وقد سألها عن حالها : والله مالك من مُتْرَك ، ويقود بعيرها ويحسن إليها في ركوبها ونزولها ، ويريه من العفة والكرم ما لم تره امرأة مثلها قط .

آه أين هؤلاء الرجال الأعفاء الكرماء ذوو النجدة . لقد أفقرت منهم الحياة وأجذبت منهم ساحة الوجود ، ولا خير في دنيا يُفقد فيها أمثال هؤلاء .

وخامس هذه الأمور أن المهاجرين جميعهم ما منهم أحد إلا نزل بيت أحد الأنصار ، فأئى كرم أعظم من هذا ؟ وأى إخاء أصدق من هذا الإخاء ؟ ، وأى إسلام أحسن من هذا ؟ وأى صبر أقوى من هذا ؟ وأى إيمان أثمر من هذا ؟ وأين نحن اليوم من ذا وذاك يا عباد الله ؟

وسادس هذه الأمور هو هجرة صهيب أنه حين أراد الهجرة إلى المدينة قال له كفار قريش : أتيتنا صعلوكًا فكثرت مالك عندنا ، وبلغت الذى بلغت ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ! والله لا يكون ذلك ، فقال لهم صهيب أرأيتم إن جعلت لكم مالى أتخلّون سبيلى ؟ قالوا : نعم . قال : فإنى جعلت لكم مالى ودلهم على مكانه وهاجر فلما رآه رسول الله ﷺ بادره قائلاً : « ربح البيع صهيب .. ربح البيع صهيب » ونزل فيه قرآن يُتلى إلى اليوم ، وهو قوله تعالى من سورة البقرة : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ .

وسابع هذه الأمور هو أن النبى ﷺ كان قد أرسل مع أهل بيعة العقبة الأولى مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف ، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويُفَقِّهَهُمْ فى الدين ، فكان أول من لُقّب بالمقرئ ، واستشهد بأحد فهو ضجيع سيد الشهداء حمزة فى ساحة أحد يزأران مع بعضهما بعضاً ، فرضى الله عنهما وأرضاها وجعل الجنة مأواهما .

وثامن هذه الأمور هو أن عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال : كنت قائد أبى لما ذهب بصره ، فكنت إذا خرجت به إلى الجمعة فسمع الأذان صلى عَلَى أبى أمانة أسعد بن زرارة ، فسألت عن ذلك قائلاً يا أبت مالك إذا سمعت الأذان للجمعة صليت على أبى أمانة ؟ قال يا بنى إنه كان أول من جمع بنا بالمدينة فى هَزْم^(١) النبيت من حرّة بنى بياضة يقال له نقيع^(٢) الخَضِمَات^(٣) . قلت له : وكم كنتم يومئذ ؟ قال أربعون رجلاً .

وتاسع هذه الأمور هو أنه لما عاد أهل بيعة العقبة إلى المدينة وأظهروا

(١) هزم النبيت : جبل على بريد من المدينة .

(٢) يروى النقيع بالنون والبقيع بالياء .

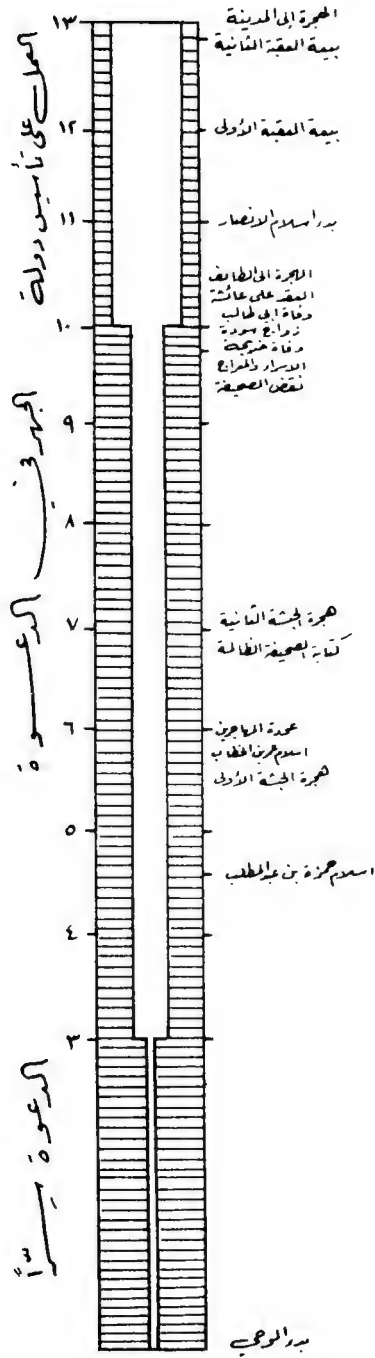
(٣) من الخضم الذى هو الأكل بالفم كله والقضم الأكل بأطراف الأسنان .

الإسلام فيها كان من بينهم معاذ بن عمرو بن الجموح ، ومعاذ بن جبل ، وكان لعمر بن الجموح والد معاذ صنم قد اتخذها في داره ، شأنه شأن سادات وأشراف المدينة ، وكان الصنم من خشب ، فكان يعبد به بدعائه وتعظيمه فيجىء معاذ ولده مع معاذ بن جبل في فتیان ممن أسلموا بالليل المظلم فيأخذون الصنم ويلقونه في حفرة لبنى سلمة يلقون فيها العذرة والأوساخ منكساً رأسه ، فيصبح عمرو يطلبه فلا يجده فيبحث عنه فيجده في تلك الحفرة منكساً ملطخاً فيأخذه فيطهره ويطيبه وينصبه في داره ، فيأتى الفتیان المسلمون ليلاً فيأخذونه ويفعلون به ما فعلوا به الليلة البارحة وهكذا فيأتى به عمرو ويقول : لو أعلم من فعل هذا بك لأضربته . ولما أكثروا به ذلك جاء به يوماً فغسله وطهره وطيبه ثم جاء بسيفه فعلقه عليه ، ثم قال : إني والله لا أعلم من يصنع بك ما ترى ، فإن كان فيك خير فامتنع ، فهذا السيف معك ! فلما أمسى عمرو جاء الفتیان فعدوا عليه ، وأخذوا السيف من عنقه ، ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به في جبل ثم ألقوه في بئر من آبار بنى سلمة فيها عذر^(١) من عذر الناس ، ثم غدا عمرو يطلبه فلم يجده في مكانه الذي تركه فيه فخرج يتبعه حتى وجده في تلك البئر منكساً مقروناً بكلب ميت فلما رآه وأبصر شأنه تبين له عدم صلاحيته للألوهية ، وكلمه بعض رجال قومه في الإسلام فأسلم ، وقال في صنمه شعراً هذا نصه :

والله لو كنت إلهاً لم تكن أنت وكلبٌ وسطٌ بئرٍ في قرنٍ
إلى أن قال :

الحمد لله العلى ذى المنن الواهب الرزاق ديان الدين
هو الذى أنقذنى من قبل أن أكون فى ظلمة قبر مؤثرهن

(١) جمع عذرة وهى العائط أى الخراء .



بيان مراحل هامة مرت بها الدعوة من البعثة الصادقة
إلى الهجرة المباركة إلى طيبة الطيبة الطاهرة

هجرة الحبيب الطيب محمد ﷺ إلى طيبة الطيبة

إنه بعد أن خرج المؤمنون من مكة أرسالا إلى المدينة مهاجرين ولم يبق منهم إلا محبوس أو مفتون كان الحبيب ﷺ في انتظار الإذن له من ربه عز وجل بالهجرة ، وأبقى معه عليًا لحاجته إليه . وأما أبو بكر الصديق فإنه كثيرًا ما كان يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة فيقول : لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبًا فيطمع أبو بكر أن يكون رسول الله ﷺ هو صاحب . وفي هذه الأيام بالذات كان رجال قريش يتخوفون منه ﷺ أن يلتحق بدور الأنصار وهم ذوو شوكة ومنعة وقد لحق بهم المؤمنون فقرروا عقد اجتماع لهم بدار الندوة يحضره أولو الرأي والمشورة منهم للتفكير في أمر محمد ﷺ ، وجاءوا دار الندوة وإذا بشيخ جليل عند بابها فسألوه من أنت ؟ قال شيخ من نجد سمعت بما اتعدتم عليه ، فحضرت لأسمع ما تقولون وعسى أن لا تعدموا مني رأيًا ونصحاء ، فدخل معهم وقد ضم الاجتماع أبا سفيان وأبا جهل والنضر ابن الحارث وكبار رجال قريش ، ودارت المناقشة للبحث عن المخرج ، فقال بعضهم : إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم — يعنون النبي ﷺ — — فإننا والله ما نأمنه من الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا فأجمعوا فيه رأيًا . فقال بعضهم : احبسوه في الحديد ، وأغلقوا عليه بابا ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله — يريدون حتى يموت في الحبس — وفي هذا يقول تعالى عنهم : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ ﴾ أى الموت وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ ﴾ أى في الحديد محبوسًا في دار حتى الموت .

وهنا قال الشيخ النجدي ، وهو إبليس عليه لعنة الله أتاها في صورة شيخ جليل ليثقوا فيما يقترحه عليهم ، وهو الذى صرخ بأعلى العقبة منذ أشهر

قائلا : يا أهل الجباب ، هل لكم في مذم والصباة ، ورد عليه الرسول ﷺ
قائلا : « هذا أذب العقبة ، والله لأفرغن لك أى عدو الله » . جاء اليوم
لينتقم فقال : لا والله ما هذا لكم برأى ، والله لئن حبستموه كما تقولون
ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتموه دونه إلى أصحابه فلا وشكوا أن
يثبوا عليكم فينزعوهم من أيديكم ، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم ما
هذا لكم برأى فانظروا غيره ، فتشاوروا ، ثم قال بعضهم : نخرجه من بين
أظهرنا فننفيه من بلادنا ، فإذا أخرج عنا فوالله لانبألى أين ذهب . قال الشيخ
النجدى : والله ما هذا لكم بالرأى ، ألم تروا حسن حديثه ، وحلاوة منطقته ،
وغلبته على عقول الرجال بما يأتى به ، دبروا فيه أمرا غير هذا . فقال أبو
جهل : والله إن لى فيه لرأيا ما أراكم وقعتم عليه أبدا . قالوا : وما هو يا أبا
الحكم ؟ قال : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا نسييا^(١) وسيطا^(٢) فينا ،
ثم نعطي كل فتى منهم سيفا صارما ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد
فيقتلوه فنستريح منه . ويتفرق دمه فى القبائل فلا يقدر بنو عبد مناف على
حرب قومهم جميعا ، فيرضون منا بالعقل^(٣) فننقله لهم أى ندفع ديتهم لهم ،
وهنا قال الشيخ النجدى « إبليس » هذا الرأى الذى لا رأى غيره ، فأجمعوا
عليه ونفذوا خطتهم ، وقد أوحى تعالى بذلك إلى رسوله محمد ﷺ ، فأمر
ﷺ ابن عمه عليا بأن ينام على فراشه ويتغطى ببرده ﷺ ، وأعلمه أنه لا يناله
ما يكره إن شاء الله تعالى ، ثم أخذ ﷺ حفنة من تراب وخرج وهو يقرأ : ﴿ يَسْ
وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَهُمْ لَا يُصِرُونَ ﴾ فأعمى الله أبصارهم ،
فخرج من بين أيديهم ووضع التراب على رؤوسهم وهم لا يشعرون ،
وانصرف ﷺ حيث أراد ، وبعد ساعة أتاهم آت فقال لهم :

(١) ذو نسب شريف .

(٢) شريفا .

(٣) أى بالدية .

ما تنتظرون ها هنا ؟ قالوا محمدًا فقال خيِّبكم الله قد والله خرج عليكم ، ثم ما ترك رجلا منكم إلا وضع التراب على رأسه ، وانطلق لحاجته ، فوضع كل واحد منهم يده على رأسه فإذا التراب عليه ، فجعلوا يتطلعون من خلال شقوق الباب فيرون عليًّا على الفراش متغطيا ببرد النبي ﷺ فيقولون والله إن هذا لمحمد نائمًا عليه برده ، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا ، فقام عليّ رضى الله عنه عن الفراش فلما رأوه قالوا . والله لقد صدقنا الذى كان حدثنا وانصرفوا .

أما الحبيب ﷺ فلنترك لعائشة أم المؤمنين تقص علينا تحركه نحو هجرته ، فقد قالت : كان النبي ﷺ لا يخطئ أن يأتي بيت أبى بكر أحد طرفى النهار إما بكرة وإما عشية حتى إذا كان اليوم الذى أذن فيه لرسول الله ﷺ بالهجرة فإنه أتانا بالهجرة ، وساعة كان لا يأتينا فيها .

فلما رآه أبو بكر قال ما جاء برسول الله ﷺ فى هذا الوقت إلا أمر حدث ، فلما دخل رسول الله ﷺ فأخبر له أبو بكر عن سريره فجلس ﷺ وليس عند أبى بكر إلا أنا وأختى أسماء ، فقال رسول الله ﷺ : « أخرج من عندك » فقال يا رسول الله إنما هما بنتائى ، وما ذاك فذاك أبى وأمى ؟ فقال : « إن الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة » فقال أبو بكر الصحبة يا رسول ، قال : « الصحبة » . قالت عائشة والله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدًا يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكى يومئذ ، ثم قال أبو بكر يا نبي الله إن هاتين راحلتان ، قد كنت أعددتكما لهذا ، فاستأجرا عبد الله بن أرقط من بنى الدبل ، وكان مشركًا لِيَدُلَّهُمَا على الطريق فدفعا إليهما الراحلتين يرعاهما لميعاد خروجهما من مكة إلى المدينة ، ولما أجمع رسول الله ﷺ على الخروج عهد إلى علي بن أبى طالب أن يتخلف بعده بمكة ليؤدى عن رسول الله ﷺ الودائع التى كانت عنده للناس ، إذ كان الناس يضعون عنده ودائعهم مما يخافون عليه ، وذلك لما رأوا من أمانته وصدقه . وأتى أبا بكر

فخرج معه من خوخة له في ظهر بيته فعمدا إلى غار ثور^(١) وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ثم يأتيهما مساء بما كان في ذلك اليوم من الخبر ، كما أمر أبو بكر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاراً ثم يُريحها عليهما مساءً ، ليسقيهما من لبنها ، وإذا جاءهما عبد الله أو أخته أسماء بطعام اتبع عامر أثرهما بالغنم فعفى أثرهما .

وأقام رسول الله ﷺ مع أبي بكر ثلاثة أيام . وطلبهما المشركون طيلة الثلاثة أيام ، ومن آيات النبوة أن العنكبوت نسجت على الغار ، والحمامة عششت وباضت تسمية على الطالبين من المشركين .

ولما مضت ثلاثة أيام ، وسكن الناس عنهما ، وأياسوا من العثور عليهما أتاها من استأجراه بالراحتين ، وكانت أسماء قد جاءت بطعام في سفرة ، ونسيت أن تجعل له عصاً وأرادت أن تعلق السفرة بالبعير فلم تستطع ذلك فشقت نطاقها نصفين فعلقت السفرة بنصفه وانتطقت بالنصف الآخر فمن ثمّ لقت بذات النطاقين .

ولما كان المشركون يطلبون رسول الله وأبا بكر وهما في الغار سمع أبو بكر قرع نعال الطالبين ، فخاف حزناً وقال يا رسول الله ، لو يرفع أحدهم قدمه لرآنا ، فقال له الرسول ﷺ : « ما بالك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما » . وفي هذا نزلت آية سورة التوبة : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نذكرها فيما يلي :

(١) جبل من جبال مكة .

(١) بيان مدى حب الصديق للرسول ﷺ ، إذ كان يرغب في صحبته حتى إنه لما أذن للرسول ﷺ بالهجرة وقبل صحبته بكى من شدة الفرح رضى الله عنه ، وهذا شأن الحب الصادق .

(٢) بيان قرار قریش الجائر الذى شارك فيه أبو مرة إبليس عليه لعائن الله ورضيه لما فيه من الإجماع على قتل النبی ﷺ وتوزيع دمه على القبائل حتى لا يطالب بدمه ، ويُرضى بالدية .

(٣) آية خروج الرسول ﷺ ومروره بين أيدي المشركين ووضع التراب على رؤوسهم وهم لا يشعرون .

(٤) بيان أن أول فداء كان في الإسلام فداء على النبی ﷺ إذ تركه نائماً على فراشه وخرج ، والمشركون يظنون أنه النبی ﷺ وهو على رضى الله عنه .

(٥) بيان أن النبی ﷺ كان يأخذ بالأسباب وبالحرزم فيها إذ أوهم المشركين بترك علي نائماً على فراشه هذا أولاً ، وثانياً أعدّ الرحلة للسفر والحريّت العالم بالطرق ومسالكتها وثالثاً دخوله غار ثور مع صاحبه استخفاء عن أعين المشركين الطالبين له .

(٤) آية نسج العنكبوت وتعشيش الحمامة وتبييضها سترًا على رسول الله ﷺ وتعمية على المشركين ، ولا عجب في هذا فإن الوزغة لما ألقى إبراهيم في النار كانت تنفخ فيها لتشتعل على إبراهيم . فكانت الوزغة أخبث حيوان ، وكان في قتلها أجر إلى اليوم لورود السنة بذلك .

(٧) بيان طيبة أسرة الصديق نساءً ورجالاً ، وبيان سبب لقب أسماء بذات النطاقين .

الطريق إلى المدينة

وخرج الحبيب ﷺ وصاحبه بعد هدوء الأحوال ، وتلقاهما من استأجراه

بالراحتين فقدم أبو بكر لرسول الله ﷺ أفضلهما وقال اركب فذاك أئى وأمئى ، فقال رسول الله ﷺ : « لا أركب بعيراً ليس لى » فقال الصديق هو لك فذاك أئى وأمئى ، فقال الحبيب : « لا إلا بالثمن الذى ابتعتها^(١) به » . فقال أبو بكر : هو كذا وكذا فقال النبئ ﷺ : « قد أخذتها به » وركبا وانطلقا وقد أردف أبو بكر مولاه عامر بن فهيرة لىخدمهما فى رحلتها إلى طيبة الطيبة وساروا على بركة الله ، وعين الله ترعاهم . هذا ونعود إلى مكة لتسجيل حادثين أو ثلاثة من مهمات الأحداث .

الأول : أن قريشاً لما كانوا يبحثون عن النبئ ﷺ وصاحبه أتوا دار أئى بكر فخرجت لهما أسماء فسألوها : أين أبوك يابنت أئى بكر ؟ قالت لا أدرى والله أين أئى ، فرفع أبو جهل يده وكان فاحشاً خبيثاً فلطم خد أسماء لطمه أسقط قرطها من أذنها .

والثانى : أن قريشاً ما إن فقدت النبئ ﷺ وطلبتة ولم تجده حتى أعلنت عن جائزة مقدارها مائة بعير لمن يأتيا برسول الله ﷺ حياً أو ميتاً .

والثالث : أنه لما غادر رسول الله ﷺ مكة مع صاحبه ، قالت أسماء مكثنا ثلاثاً لا ندرى أين اتجه رسول الله ﷺ ، وإذا برجل من الجن يقبل من أسفل مكة يتغنئ بأبيات من الشعر ، وإن الناس ليتبعونه يسمعون صوته ولا يرونه حتى خرج من أعلى مكة ، وبهذا عرفنا وجه رسول الله ﷺ وصاحبه وأنهما اتجها إلى المدينة النبوية .

وها هى ذى تلك الأبيات التى كان يتغنئ بها رجل الجن :

جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقين حلاً خيمتى أم معبد
هما نزلا بالبر ثم تروحا فأفلح من أمسى رفيق محمد
ليهن بنى كعب مكان فتاتهم ومقعدها للمؤمنين بمرصد

(١) أشتريها .

والرابع : أن أسماء قالت لما خرج أبو بكر مهاجرًا أخذ كل ماله معه ، وكان ستة آلاف درهم . قالت فدخل علينا جدّي أبو قحافة ، وكان قد ذهب بصره ، فقال إني أراه قد فجّعكم بماله مع نفسه ، قالت : قلت له كَلَّا يا أبت إنه قد ترك لنا خيرًا كثيرًا وأخذت أحجارًا فوضعتها في كوة في البيت الذي كان أُمّي يضع ماله فيها ثم وضعت عليها ثوبا ، ثم أخذت بيده فوضعتها عليها ، وقلت يا أبت هذا المال الذي ترك لنا أبو بكر . فقال إن كان ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفي هذا بلاغ^(١) لكم . قالت أسماء بعد ذلك والله ما ترك لنا شيئا ، وإنما أردت أن أسكن الشيخ بذلك لاغير .

عودة إلى مسيرة الركب الميمون :

وفي طريق الركب الميمون مروا بخيمة أم معبد ، فسألوها طعامًا أو شرابًا فلم يصيبوا عندها شيئا ، وكانت بكسر خيمتها شاة هزيلة خلفتها الغنم لهزائها . فقال الحبيب الطيب : « هل بها من لبن ؟ » فقالت : هي أجهد من ذلك فقال : « هل تأذنين لي أن أحلبها ؟ » فقالت : بأى أنت وأُمّي إن رأيت بها حليبًا فاحلبها ، فدعا بها رسول الله ﷺ فجاءت فمسح بيده ضرعها ، وسمّى الله تعالى ودعا لها في شأنها فتفاجت^(٢) ودرت واجترت ، ودعا بإناء يروى الرهط فحلب فيه ثَجًّا حتى علاه لبنها ، ثم سقاها « أم معبد » حتى رويت ، وسقى أصحابه حتى رووا ، وشرب آخرهم ، وكيف لا ، وهو القائل : « ساق القوم آخرهم شربًا »^(٣) ثم بايع أم معبد على الإسلام وارتحل ، وارتحل معه رفقته .

وها هو ذا أبو بكر الصديق يروى الحادثة التالية وهي آية النبوة كآية درّ

(١) البلاغ : ما يتبلغ به في الحياة من مال أو طعام ونحوه .

(٢) فرجت بين رجلها .

(٣) رواه أبو داود .

الشاة وهى أعظم . قال رضى الله عنه : قال سراقه بن مالك بن جعشم لما خرج رسول الله ﷺ مهاجرًا من مكة إلى المدينة جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم وبينما أنا جالس فى نادى قومى إذ أقبل رجل منا حتى وقف علينا فقال والله لقد رأيت ركبا ثلاثة مروا علىّ آنفاً إني لأراهم محمداً وأصحابه . فأومأت إليه أن اسكت ، ثم أمرت بفرسى وسلاحى فأحضرا لى وركبت وأنا أرجو أن أرده على قريش وأخذ المائة ناقة ، وركبت سائراً فى أثره حتى بدا لى القوم ورأيتهم عثر بى فرسى فذهبت يدها فى الأرض ، وسقطت عنه ، ثم انتزع يديه من الأرض وتبعهما دخان كأنه إعصار^(١) ، فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع منى وأنه ظاهر فناديت القوم قائلاً أنا سراقه بن جعشم أنظرونى أكلمكم فوالله لا أريكم^(٢) فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر : « قل له وما تبغى منا ؟ » قال خذ يا رسول الله سهماً من كنانتى وإن إبلى بمكان كذا فخذ منها ما أحببت فقال له ﷺ : « لا حاجة لى بإبلك » فلما أراد سراقه أن يرجع قال له الحبيب ﷺ « كيف بك يا سراقه إذا سورت بسوارى^(٣) كسرى ؟ » قال سراقه : كسرى بن هرمز ؟ قال « نعم » . وعاد سراقه إلى مكة لا يلقى أحداً يريد رسول الله ﷺ إلا رده بقوله : كفيتم ما هاهنا .

وواصل الركب الميمون سيره يتقدمه الخريت بن الدليل حتى وصلوا إلى قباء ديار بنى عمرو بن عوف يوم الإثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول فنزل رسول الله ﷺ على كلثوم بن الهمد أخى بنى عمرو بن عوف ، وكان عزباً فينزل عليه الأعزاب من أصحاب رسول الله ﷺ المهاجرين ، حتى

(١) ريح معها غبار .

(٢) أى لا ترون منى مكروها .

(٣) وقد تم ذلك يوم فتح فارس على يد عمر رضى الله عنه .

قيل لبيته : بيت العزاب ونزل أبو بكر على خبيب بن إساف بالسنح ، ولحق على الركب بعد أن أدى ودائع الناس ، ووصل قباء بعد ثلاثة أيام من وصول الحبيب ﷺ إليها وقد تفتطرت قدماه حتى إنه لما دعا به رسول الله ﷺ قيل إنه لا يقدر على المشي فأثاه رسول الله ﷺ واعتنقه وبكى رحمةً به ، وتفل في كفيه الطاهرتين ومسح بهما رجلى عليّ فشفى في الحال ، ولم يشك قدميه حتى قتل رضى الله عنه وقد نزل عليّ على امرأة لزوج لها فرأى رجلاً يأتيها بالليل فارتاب في أمرها فسألها فقالت الذى يأتينى هو سهل بن حنيف إنه رآنى امرأة لا زوج لى فهو يكسر أصنام قومه ويحملها إلّى ويقول احتطبي بها ، فكان عليّ يذكر هذا لسهل بن حنيف بعد موته رضى الله عنهم أجمعين .

نتائج وعبر :

- إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجملها فيما يلى :
- (١) بيان خبث أبى جهل وشدته على المؤمنين فلعهن الله حيًا وميتًا .
- (٢) بيان مدى ما بذلت قريش في سبيل قتل النبي ﷺ ، والقضاء على الإسلام .
- (٣) من الجن مؤمنون ، وإن كلامهم ليسمع ، وإن لم تر ذواتهم .
- (٤) فضل أم معبد وهى عاتكة بنت خالد .
- (٥) تجلّى آية النبوة المحمدية في دَرّ الشاة وسقى الرسول ﷺ أهل بيت أم معبد وسائر أفراد رفقته .
- (٦) تجلّى آية النبوة في سقوط فرس سراقه وعجزه عن الوصول إلى النبي ﷺ ، وفي إخبار الرسول ﷺ له بأنه سيسور سوارى كسرى ، وكان الأمر كما أخبر ﷺ .
- (٧) تجلّى آية النبوة في شفاء عليّ فور مسح الرسول ﷺ رجليه .

في طيبة دار الحبيب ﷺ

إن الثلاث عشرة سنة التي قضاها رسول الله ﷺ بمكة من مبعثه إلى يوم هجرته كانت كلها آلاماً ودموعاً وأحزاناً لم ينعم فيها رسول الله ﷺ بساعة سرور ، أو يوم راحة قط إلا أن العشر سنين التي قضاها بالمدينة كانت كلها جهاداً متواصلاً لم يفتر شهراً واحداً ولم ينعم فيها رسول الله ﷺ بالراحة يوماً واحداً وكان شظف العيش فيها بالغاً أشده ، فلم يشبع فيها رسول الله ﷺ من خبز شعير مرتين في يوم واحد قط .

نعم ... لقد كانت للحبيب ﷺ بدار الهجرة أيام مشرقة ، إلا أن أكثر أيامها كانت محرقة ، وهلم إخوة الإيمان نعيش بأرواحنا مع رسولنا وحبيبنا تلك السنين العشرة التي عاشها ﷺ بالمدينة دار هجرته وحاضرة دولته دولة الإسلام الخالدة . وسوف نشعر بأن السنين العشرة ما كانت السنة الواحدة منها إلا عشر سنوات فالعشر سنين كانت وكأنها مائة سنة أو تزيد ، وذلك لما تم فيها من جلائل الأعمال ، وما تخللها من عظام الأمور . والله نسأل أن يرزقنا البكاء عند ذكر ما يبكي منها ، وأن يرزقنا الفرح عند ذكر ما يُفرح ، فيكون ذلك شاهد حبنا للحبيب ﷺ وآية إيماننا به وعنوان إسلامنا لربنا وإحساننا في ديننا .

فها بنا نُعَاشِ الحبيب وصحبه بأرواحنا وإن لم نعايشهم بأبداننا ، لطول العهد ، وفضل ما بيننا وبينهم ، إذ هم كواكب مشرقة في السماء تنير الأرض لأهلها ، وأما نحن فإننا ضعيفو الصلة بالسماء ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

الحبيب ﷺ بقاء

إنه قبل وصوله ﷺ إلى قباء وهي ضاحية من ضواحي المدينة على ثلاثة

أميال منها كان رجال من الأنصار لما بلغهم خروج النبي ﷺ من مكة إذا صلوا الصبح خرجوا إلى ظاهر المدينة إلى الحرة الجنوبية ينتظرون طلوع رسول الله ﷺ عليهم فلا يرحون ينتظرون حتى لم يبق ظل يستظلون به من حر الشمس ، ثم يعودون إلى بيوتهم . ولما كان اليوم الذي وصل فيه رسول الله ﷺ كانوا قد خرجوا كعادتهم وما إن عادوا إلى بيوتهم لارتفاع النهار وانعدام الظلال إلا وصائح يصيح بأعلى صوته : يا بني قيلة هذا جدكم قد جاء . وكان الصائح رجلًا من اليهود كان قد علم بخروجهم كذا يومًا انتظارًا لقدم الرسول ﷺ ، ونسبهم إلى قيلة ، لأنهم يقال لهم بنو قيلة نسبة إلى جدة لهم تسمى قيلة^(١) . وما إن سمعوا الصراخ حتى خرجوا كلهم ، وإذا برسول الله ﷺ مع صاحبه مستظل بظل نخلة ، وأكثرهم لم يكن قد رأى النبي ﷺ ، وكان أبو بكر في سن رسول الله ﷺ ، وركبهما الناس يُسلمون عليهما ، وما يعرفون رسول الله ﷺ من أبي بكر حتى زال الظل عن رسول الله ﷺ فقام أبو بكر فأظله بردائه فعرفوه عند ذلك . ونزل الحبيب على كلثوم بن الهذم ، ونزل الصديق على خبيب بن إساف كما تقدم .

أول عمل بقاء

لرسول الله ﷺ

إن أول عمل لإصلاح خيرى بناء قام به النبي ﷺ بقاء هو بناؤه مسجد بقاء في الفترة التي أقامها بين سكانها وهم بنو عمرو بن عوف بن مالك ، والتي لم تتجاوز أسبوعًا واحدًا .

وكان مسجد بقاء أول مسجد بنى في الإسلام ، وقد ذكره تعالى في كتابه وأثنى على أهله خيرًا فقال تعالى من سورة التوبة ﴿لَمَسْجِدَ أُسِّسَ عَلَى الثَّقْوَى

(١) القيل الملك والجمع أقيال ، والقيلة الملكة وقد تجمع على قيلات .

مَنْ أَوَّلَ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١﴾ .

وهنا بقاء أتى سلمان الفارسي الذي طالما انتظر مجيئه جاءه من المدينة بكيس من التمر وقال هذا صدقة تصدقت بها عليكم — وهو يريد بذلك اختباره — فقال الحبيب ﷺ « إنا لا نأكل الصدقة » وأمره أن يتصدق بها على غيره ، وانصرف سلمان وعاد في اليوم الثاني ومعه تمر آخر وقدمه للرسول ﷺ ، وقال : هذه هدية قدمتها لك ، فقبلها ﷺ ودعا له بخير .

وهنا أعلن سلمان إسلامه ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله .

وسبب عمل سلمان هذا أنه علم من الكتب السابقة أن النبي محمدًا ﷺ من نعوته وصفاته أنه يقبل الهدية ولا يأكل الصدقة .

ولما قضى رسول الله ﷺ ما كتب الله له من أيام في قباء بديار بنى عمرو ابن عوف سار إلى المدينة وفي طريقه أدركته صلاة الظهر بديار بنى سالم بن عوف وكان اليوم يوم جمعة فصلى بهم الجمعة وخطبهم في مسجدهم ببطن الوادي « دانونا » فكانت أول جمعة صليت في الإسلام .

وركب الحبيب ﷺ راحلته فأتاه عُتبان بن مالك وعباس بن عباد في رجال من بنى سالم وقالوا له : يا رسول الله أقم عندنا حيث العدد والعدة والمنعة ، وهم ممسكون بخظام ناقته ليُنيخوها فقال لهم « دعوها فإنها مأمورة » ، وواصل سيره إلى طيبة طابت مغانيها ، وسلام على ساكنيها .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نوجزها في الآتي :

(١) بيان أن مسجد قباء كان أول مسجد بنى في الإسلام .

(٢) بيان كيفية معرفة سلمان للنبي ﷺ وذلك بما أجرى من اختبار عليه بالصدقة والهدية لعلمه السابق أن من صفات نبي آخر الزمان أنه يقبل الهدية ولا يأكل الصدقة .

(٣) بيان أن أول جمعة صليت في الإسلام هي تلك التي صلاها رسول الله ﷺ في مسجد بنى سالم بن عوف بطن وادي « دانونا » .

(٤) عرض بنى سالم على النبي ﷺ الإقامة بينهم وترغيبه في ذلك وذكرهم لكثرة رجالهم وسلاحهم ومنعتهم الحربية يُعتبر موقفا مشرفا خالدا لهم رضى الله عنهم وأرضاهم .

استقبال الأنصار للحبيب ﷺ وعظيم فرحهم وحفاوتهم به

إنه ما إن ركب ﷺ راحلته ، وسارت به من ديار بنى سالم متجهة نحو المدينة ، وأهل كل دار من دور الأنصار يمر بها إلا ويستقبله رجالها قائلين هلم إلينا يا رسول الله إلى العدد والعدة والمنعة وهم ممسكون بخطام ناقته وهو يقول : « دعوها فإنها مأمورة » .

وخرج أهل المدينة لاستقبال الحبيب ﷺ على بكرة أبيهم ، فامتألت بهم الطرق ، وظهروا على سطوح المنازل نساء وأطفالا ورجالا وهم يقولون ، الله أكبر جاء رسول الله ، الله أكبر جاء محمد ، الله أكبر جاء رسول الله ، والنساء والصبيان يضربون بالدفوف وينشدون :

طلع البدر علينا	من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا	ما دعا الله داع
أيها المبعوث فينا	جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة	مرحبًا يا خير داع

وواصل الحبيب سيره في تلك الحشود الحاشدة ، والجموع المتجمعة في هذا اليوم التاريخي العظيم الذي قال فيه أنس بن مالك : لقد رأيت اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ علينا ، واليوم الذي قبض فيه فلم أرَ يومين مثلَهما قط . حتى انتهى إلى قرب دار أبي أيوب الأنصاري ، فبركت والرسول ﷺ مُرَخ الزمام لها ، ثم وثبت فسارت غير بعيد ، ثم بركت وتلححت^(١) وضربت بجرائنها^(٢) في الأرض فنزل عنها الحبيب ﷺ فاحتمل أبو أيوب الرحل فوضعه في بيته ، ونزل النبي ﷺ بداره لأنه أحد أحوال أبيه من بني النجار .

ونزل رسول الله ﷺ بالسفل من الدار ، وأبو أيوب وأم أيوب بالعلوى فألم ذلك أبا أيوب ، فقال يا رسول الله إني أكره أن أكون فوقك وتكون تحتي ، فاطهر أنت فكن في العلوى ونزل نحن فنكون في السفلى ، فقال رسول الله ﷺ « يا أبا أيوب إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن أكون في أسفل البيت » وبذلك طابت نفس أبي أيوب رضى الله عنه .

وكان أبو أيوب يصنع للرسول الطعام فإذا أكل منه ﷺ وتركه أخذ وقدم لأبي أيوب ليأكل منه ، فكان رضى الله عنه يسأل عن موضع أصابع رسول الله ﷺ ليتتبع موضع أصابعه فيأكل منه رجاء البركة . فصنع له يوماً طعناً فيه ثوم ، فلما رُدَّ إليه سأل عن موضع أصابع رسول الله ﷺ فقيل له لم يأكل ففزع وأتى رسول الله ﷺ فقال : أحرام ؟ فقال : « لا ولكني أكره ذلك » .

وهذا لأنه ﷺ يناجى المَلَك ، وغيره لا يناجى .

ومبرك الناقة كان مربداً لليتيمين ، وكان فيه نخل وبعض قبور ، فسأل عنه

(١) ترحزحت .

(٢) الجران باطنى العنق من البعير أى ثبتت واستقرت .

فقال له معاذ بن عفراء يا رسول الله هو ليتيمين لى وسأرضيهما منه ، فاتخذهُ رسول الله ﷺ مسجداً .

نتائج وعبر :

- إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نجملها فى الآتى :
- (١) بيان عظم فرحة الأنصار بمقدم الرسول ﷺ ، وما أبدوه من حفاوة وترحيب لم يسبق لهما نظير فى التاريخ البشرى قط .
- (٢) بيان آية الناقة فى سيرها وبروكها لقوله ﷺ : « **دعوها فإنها مأمورة** » .
- (٣) بيان فوز أبى أيوب خالد بن زيد بنزول الرسول ﷺ بداره ، وإقامته بها حتى بنى مسجده وحجرات نسائه بإزائه .
- (٤) بيان أدب أبى أيوب وكإل حبه لرسول الله ﷺ إذ لم تطب نفسه أن يسكن فى أعلى المنزل والرسول ﷺ فى أسفله .
- (٥) مشروعية التماس البركة من آثار النبى ﷺ . إن وجدت كسوره وشعره وريقه وثيابه ، وما إلى ذلك .

بناء المسجد النبوى وفضله وشرف المدينة وأهلها

إنه ما إن بركت الناقة وضربت بجرانها من مساء يوم الجمعة من شهر ربيع الأول ، حتى سأل رسول الله ﷺ عن المبرد^(١) الذى بركت فيه الناقة لمن هو ؟ وقال : « **يا معشر الأنصار ثامنونى بحائطكم هذا لأتخذهُ مسجداً** » . وقال معاذ بن عفراء هو ليتيمين لى هما سهل وسهيل ابنى عمرو وسأرضيهما فاتخذهُ مسجداً .

(١) المبرد : ما يجفف فيه التمر ، ومحسى الحيوان .

وأمر ﷺ أصحابه بالشروع في العمل وتقديمهم لذلك تشجيعاً لهم واندفعوا مهاجرين وأنصاراً يعملون حتى قال قائلهم .

لئن قعدنا والنبيّ يعمل لذاك منا العمل المضلل

وكان بالمربد قبور مشركين ونخل وخرب فأمر بالنخل فقطع وبالخرب فسويت وبالقبور فنبشت ، وأخذوا ينقلون الحجارة وهم يرتجزون :

اللهم لا خير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة

والرسول ﷺ ينقل الحجارة ويقول : « لا عيش إلا عيش الآخرة اللهم ارحم المهاجرين والأنصار » .

وارتجز على قائلًا :

لا يستوى من يعمر المساجد يدأب فيه قائما وقاعدا

ومن يرى عن الغبار حائدا

فأخذ عمار بن ياسر يرتجزها فظن أحد الأصحاب أنه يعنيه بها تعريضاً به فقال لعمار يا ابن سمية والله إنى لأراني سأعرض هذه العصا لأنفك فسمع ذلك رسول الله ﷺ فغضب وقال : « ما لهم ولعمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار » وتم بناء المسجد بالحجارة وكان سقفه جريد النخل وبنى بإزائه حجرات نسائه ﷺ .

وكان هذا المسجد المبارك أحد المساجد الثلاثة التي لا تشد الرحال إلا إليها ، وذلك لفضلها واستواء سائر المساجد في الفضل دونها فقد قال الحبيب ﷺ : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا والمسجد الأقصى » وقال ﷺ في بيان فضله : « صلاة في مسجدي هذا بألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام » وقال : « من أتى مسجدي هذا لا يأتيه إلا خير يعلمه أو يتعلمه كان كالمجاهد في سبيل الله » . وقال

فداه أبى وأمى ، وعَلَيْهِ السَّلَامُ : « ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة » .
أما عن شرف المدينة وأهلها فحسبنا أن نورد بعض ما ورد وصحّ فى بيان
فضلها وفضل أهلها . ومن ذلك :

● قوله ﷺ : « إن الإيمان ليأرز^(١) إلى المدينة كما تأرز الحية إلى
جحرها » .

● وقوله ﷺ : « أمرت بقرية تأكل القرى يقولون يثرب وهى المدينة
تنفى الناس كما ينفى الكير خبث الحديد » .

● ولو صح حديث : « اللهم إنك أخرجتنى من أحب البلاد إلى
فأسكنى فى أحب البلاد إليك » ولم يعارض بحديث :

« والله إنك خير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى ، ولولا أنى
أخرجت^(٢) منك ما خرجت » ، لكانت المدينة أفضل من مكة كرمها الله .

ومما يزيد المدينة حباً فى قلوب المؤمنين ورغبة فى المقام بها حتى الموت قوله
ﷺ : « من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها فإنى أكون له شاهداً أو
شفيعاً يوم القيامة » ، عرف هذا عمر رضى الله عنه فكان يدعو ويقول :
اللهم إنى أسألك شهادةً فى سبيلك وموتاً فى بلد رسولك .

وحسب المدينة شرفاً وفضلاً أن أصبحت داراً للرسول ﷺ بها مسجده
وفيه قبره ، ومنها مبعثه .

وأما أهل المدينة وهم الأنصار فشرفهم كان بمسارعتهم للإيمان ، وإيواء
الرسول والمؤمنين ، ونصرتهم ، ومقاسمتهم العيش معهم . أثنى الله تعالى عليهم
بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ

(١) فى الصحيح .

(٢) صحيح الإسناد .

وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴿١﴾ وقرر الرسول ﷺ شرفهم وفضلهم في أحاديث كثيرة منها قوله ﷺ : « آية الإيمان حب الأنصار ، وآية النفاق بغض الأنصار » . وقوله : « الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق ، فمن أحبهم أحبه الله ، ومن أبغضهم أبغضه الله » . وقوله ﷺ : « لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك واديا وشعبا لسلكت وادي الأنصار وشعبهم ، الأنصار شعار^(١) ، والناس دثار » .

ولنستمع إلى شاعر^(٢) الأنصار يقول ويذكر بما أكرمهم الله تعالى به من الإسلام وما خصهم به من هجرة رسوله إليهم ونصرهم له ، وبذل الرخيص والغالي له ﷺ ليأمن ويعزّ ويتنصر :

ثَوَىٰ فِي قَرِيشٍ بَضْعَ عَشْرَةِ حِجَّةٍ	يُذَكِّرُ لَوْ يَلْقَىٰ صَدِيقًا مَوَاتِيًّا
وَيَعْرُضُ فِي أَهْلِ الْمَوَاسِمِ نَفْسَهُ	فَلَمْ يَرِ مَنْ يُؤْوِي وَلَمْ يَرِ دَاعِيَا
فَلَمَّا أَتَانَا أَظْهَرَ اللَّهُ دِينَهُ	وَأَصْبَحَ مَسْرُورًا بِطَبِيبَةٍ رَاضِيَا
وَأَلْفَىٰ صَدِيقًا وَاطْمَأْنَنَ بِهِ النَّوَىٰ	وَكَانَ لَهُ عَوْنًا مِنَ اللَّهِ بَادِيًّا
يَقْصُ لَنَا مَا قَالَ نُوحٌ لِقَوْمِهِ	وَمَا قَالَ مُوسَىٰ إِذْ أَجَابَ الْمُنَادِيَا
فَأَصْبَحَ لَا يَخْشَىٰ مِنَ النَّاسِ وَاحِدًا	قَرِيبًا وَلَا يَخْشَىٰ مِنَ النَّاسِ نَائِيَا
بَذَلْنَا لَهُ الْأَمْوَالَ مِنْ أَجْلِ مَالِنَا ^(٣)	وَأَنْفُسَنَا عِنْدَ الْوَعْدِ وَالْتَأْسِيَا
نَعَادِي الَّذِي عَادَىٰ مِنَ النَّاسِ كُلَّهُمْ	جَمِيعًا وَلَوْ كَانَ الْحَبِيبُ الْمَوَاسِيَا

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نذكرها فيما يأتي :

(١) الشعار : الثوب يلي الجسد ، والدثار فوقه .

(٢) هو أبو قيس صرمة ابن أبي أنس الأنصاري .

(٣) يشير إلى أحد بنود البيعة حيث قالوا إن نحن بايعناك على النصرة فما لنا نحن ؟ قال : « الجنة » هذا الذي لهم وما أعظمه إنه الجنة دار السلام .

(١) بيان تاريخ بناء المسجد النبوى الشريف وبنائه أول عمل قام به النبى ﷺ فى المدينة .

(٢) بيان فضل المسجد النبوى الشريف .

(٣) بيان فضل المدينة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام .

(٤) بيان فضل الأنصار وهم سكان المدينة الذين آووا ونصروا .

(٥) بيان فضل العيش فى المدينة والوفاء فيها .

جُهود الحبيب ﷺ فى الإصلاح والتأسيس والبناء بالمدينة النبوية

إنه من ساعة حلوله بالمدينة أخذ ﷺ على عاتقه مهمة الإصلاح والتأسيس والبناء للمجتمع المسلم والدولة الإسلامية الوارثة لأكبر دولتين عالميتين وهما دولة الفرس ودولة الروم ، وبتتبع الخطوات التالية تتجلى هذه الحقيقة وتؤكد بإذن الله تعالى :

الخطوة الأولى :

إن أول خطوة كانت فى الإصلاح والبناء والتأسيس بناء المسجد النبوى الشريف والحجرات الطاهرات .

الخطوة الثانية :

إنها استقدام الأسترتين الشريفتين أسرة الحبيب ﷺ وأسرة الصديق رضى الله عنه . إنه لما كان عبد الله بن أريقط الخبير بالطرق استأجره الرسول ﷺ مع صاحبه فى هجرتهما عائداً إلى مكة المكرمة بعث معه الرسول ﷺ زيد ابن حارثة ومولاه أبا رافع بمال ورواحل ، وأمره أن يأتى ببقية أسرته الشريفة ، فجاء فعلا بيناته الطاهرات فاطمة وغيرها ما عدا زينب فإنها تحت ألى العاص

ابن الربيع كما جاء بسودة بنت زمعة إحدى أمهات المؤمنين ، وكذلك فعل الصديق إذ بعث في طلب أسرته . فجاء بها ولده عبد الله بن أبي بكر ، ومن بينهم عائشة أم المؤمنين كما جاء بأمن زوج زيد مولى رسول الله ﷺ وبهذا استقر النبي ﷺ بالمدينة دار هجرته ، والتي أصبحت تُعرفُ به فيقال المدينة النبوية .

الخطوة الثالثة :

الاتصال باليهود بواسطة عبد الله بن سلام رضى الله عنه ، ودعوتهم إلى الإسلام . إنه ما إن نزل ﷺ بطيبة حتى جاءه عبد الله بن سلام أحد أحرار اليهود بالمدينة ليمتحنه في صدق نبوته وصحة رسالته فيسأله الأسئلة التالية :
فيقول له : إني سائلك عن ثلاثة لا يعلمهنّ إلا نبيٌّ وهى :

ما أول أشرط الساعة ؟

ما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟

ما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه ؟

فأجابه الحبيب ﷺ قائلا : « أخبرني بهن جبريل آنفاً » . فقال عبد الله : جبريل ؟ فقال النبي ﷺ « نعم » . قال عبد الله : هو عدو اليهود من الملائكة ، وأخذ الرسول ﷺ يشرح مضمون الأسئلة فقال : « أما أول أشرط الساعة فنار تخرج على الناس من المشرق تسوقهم إلى المغرب ، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزبادة كبد الحوت ، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد إلى أبيه ، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع الولد إلى أمه » .

وهنا قال عبد الله بن سلام : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنك رسول الله .

ولما أسلم عبد الله بن سلام وحسن إسلامه كانت الفرصة مواتية للاتصال

باليهود ودعوتهم إلى الإسلام ، فقال عبد الله يا رسول الله إن اليهود قوم بُهتٌ وهم يعلمون أتى سيدهم وابن سيدهم وأعلمهم وابن أعلمهم فادعهم فسلهم عنى قبل أن يعلموا أتى قد أسلمت ، فإنهم إن يعلموا أتى قد أسلمت قالوا فى ما ليس فى . فأرسل النبي ﷺ إلى اليهود فدخلوا عليه ، فقال لهم : « يا معشر يهود ويلكم اتقوا الله ، فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم تعلمون أتى رسول الله حقاً وأنى جئتكم بحق فأسلموا » فأجابوا قائلين : ما نعلمه ، فأعاد ﷺ دعوتهم إلى الإسلام ثلاث مرات ، ثم قال لهم : « فأتى رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ » قالوا : ذاك سيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا . قال : « أفرأيتم إن أسلم ؟ » قالوا : حاشا لله ما كان ليسلم . وهنا قال الحبيب ﷺ : « يا ابن سلام اخرج عليهم » فخرج فقال : يا معشر يهود اتقوا الله فوالله الذى لا إله إلا هو إنكم تعلمون أنه رسول الله ، وأنه جاء بالحق ، فلما سمعوا هذا القول قالوا : شرنا وابن شرنا وتنقصوه فأخرجهم الرسول ﷺ . وقال عبد الله لرسول الله ﷺ هذا الذى كنت أخاف ، وكان عبد الله بن سلام يقول : لما دخل الرسول ﷺ المدينة نظرت إلى وجهه فعرفت أنه ليس بوجه كذاب ، وكان أول شيء سمعته منه قوله ﷺ : « أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام » .

الخطوة الرابعة :

وضعه ﷺ ميثاقاً للمهاجرين والأنصار متضمناً موادعة اليهود بالمدينة . إن من أبرز الجهود التى بذها الحبيب ﷺ فى الإصلاح والتأسيس والبناء كتابه الذى كتبه فضمنه ميثاقاً فى غاية الدقة ، وحسن السياسة فآلف بين سكان المدينة من الأنصار والمهاجرين وجيرانهم من طوائف اليهود وربط بينهم فأصبحوا به كتلة واحدة يستطيعون أن يقفوا فى وجه كل من يريد أهل المدينة بسوء . وهذه دياجة الكتاب المذكور وبعض ما حواه من مواد الميثاق الذى اشتمل عليه .

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا كتاب من محمد النبىّ الأمىّ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس ... » إلى آخر كتابه ﷺ المتضمن لأعظم ميثاق عرفه الناس . وهذا بعض ما جاء فيه من مواد في غاية الأهمية .

● إن المؤمنين لا يتركون مُفَرَّحًا^(١) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء وعقل .

● لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

● إن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دَسِيعَةً ظَلَمَ أوِ إثم أو عدوان ، أو فساد بين المؤمنين ، وإن أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم .

● لا يَقْتُلُ مؤمن مؤمناً في كَافِر ، ولا ينصر كَافِراً على مؤمن ، وإن ذمة الله واحدة ، يُجِير عليهم أَدَانَهُمْ .

● إن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس ، وإنه مَن تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا مُتَنَاصِر عليهم .

● إن سَلِمَ المؤمنين واحد لا يُسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم .

● من اغتبط مؤمناً قَتَلًا عن بَيِّنَةٍ فإنه قَوْدٌ به إلا أن يرضى ولى المقتول . وإن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه .

● إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليتهم وأنفسهم إلا من

(١) المَفَرَح : المقتل بالدين الكثير .

ظلم أو أئثم فإنه لا يُوتَغُ^(١) إلا نفسه وأهل بيته .

● إن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وإنّ بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة ، والبرّ دون الإثم ، وإنه لم يَأْثُم امرؤٌ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم ، وإن الجار كالنفس غير مضارّ ولا آثم .

● إنه لا يحل للمؤمن أقرّ بما في هذه الصحيفة ، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ، ولا يُؤويه ، وإنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

● وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإنّ مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ .

الخطوة الخامسة : هي مؤاخاته ﷺ بين المهاجرين والأنصار .

إن من الرشد والكمال النبوى ، والنضج السياسى ، والحكمة المحمدية خطوة الحبيب ﷺ فى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار فى ظرف كان المهاجرون فيه أحوج ما يكونون إلى ما يخفف عنهم آلام الغربة والفاقة والفرقة إذ تركوا ديارهم وأموالهم وأهلهم ، وحلوا ببلد لم يكن ليتسع حتى لأهله فضلاً عن النازحين إليه .

وبهذه المؤاخاة التى آخى فيها الرسول الحكيم بين المهاجرين والأنصار ، والتى كان الأنصارى فيها يقول لأخيه المهاجر انظر إلى أعجب نساءٍ إليك أطلقها فإذا انتهت عدتها تزوّجتها ، بهذه المؤاخاة كان المجتمع المدنى قد التّحمّ بعضه ببعض ، وأصبح جسماً واحداً ينهض بكل عبءٍ يلقي عليه . وبذلك أعده

(١) لا يوتغ أى لا يوبق ولا يهلك إلا نفسه وأهل بيته .

الرسول الحكيم لتحمل عبء إعلان الحرب على الأبيض والأصفر ، وقاتل
القريب والبعيد من كافة أهل الشرك والكفر .

وهذا نموذج مصغر من تلك المؤاخاة :

أخوان :	المهاجر :	أبو بكر الصديق
	الأنصارى :	خارجة بن زهير
أخوان :	المهاجر :	أبو عبيدة عامر بن الجراح
	الأنصارى :	سعد بن معاذ
أخوان :	المهاجر :	عبد الرحمن بن عوف
	الأنصارى :	سعد بن الربيع
أخوان :	المهاجر :	عمر بن الخطاب
	الأنصارى :	عتبان بن مالك
أخوان :	المهاجر :	عثمان بن عفان
	الأنصارى :	أوس بن ثابت
أخوان :	المهاجر :	طلحة بن عبيد الله
	الأنصارى :	كعب بن مالك
أخوان :	المهاجر :	سلمان الفارسى
	الأنصارى :	أبو الدرداء
أخوان :	المهاجر :	بلال بن رباح
	الأنصارى :	أبو رويحة

وها هى ذى الكلمة الطيبة التى قالها الحبيب ﷺ فتمت بها المؤاخاة بين
المهاجرين والأنصار إنها هى قوله فذاه أى وأمى والناس أجمعون :

« إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم » .

وما إن قالها حتى قال الأنصار : أموالنا بيننا قطائع . فقال رسول الله ﷺ « أو غير ذلك ؟ » فقالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : « هم قوم لا يعرفون العمل فتكفونهم العمل ، وتقاسمونهم الثمر » . قالوا : نعم . وبعدها قال المهاجرون يا رسول الله ما رأينا مثل قوم قَدِمنا عليهم أحسن مُواساة في قليل ، ولا أحسن بذلاً من كثير ، لقد كفونا المؤونة وأشركونا في المهنة ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله . فقال الحبيب ﷺ : « لا ، ما أثبتتم عليهم ودعوتم الله لهم » .

هكذا كانت المؤاخاة في ظروف الحاجة ، ولما وسع الله على المسلمين نسخ التوارث بها ، وأقر المودة والحب بينهم . فقال تعالى : ﴿ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ .

نتائج وعبر :

إن لهذه الخطوات الخمس في السيرة العطرة نتائج وعبراً نجملها في الآتي :

(١) المسجد في الإسلام هو المنطلق لكل خير وكمال تطلبه الأمة المسلمة ، إذ فيه تعالج أمراض الجهل وسوء الخلق ، والملكات السيئة في بعض الأفراد .

(٢) ظهور الحكمة المحمدية في كل خطوة من هذه الخطوات الخمس .

(٣) المواد التي اشتمل عليها الميثاق الذي تضمنه كتاب رسول الله ﷺ للمهاجرين والأنصار دالة على ما كان يتمتع به الحبيب ﷺ من العلم والحكمة وحسن السياسة والرشد العام فيها .

(٥) المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، وكتاب الميثاق وما اشتمل عليه من مواد إصلاحية وسياسية الكل دال بوضوح على أن هناك توقُّعاً لحرب قد يطول مداها ، وكذلك فقد دامت زهاء عشر سنوات أى إلى أن التحق الحبيب ﷺ بالرفيق الأعلى . وخاضها بعده خلفاؤه وتابعوهم ، وستبقى الحرب وتستمر

بين الشرك والتوحيد ، والإيمان والكفر ما بقيت فتنة ، ووجد من يعبد غير الله تعالى . مصداق هذا قوله تعالى من سورة الأنفال : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ .

أَحْدَاثٌ

بعضها مفرح ، وبعضها محزن

ما زالت سنة هجرة الحبيب ﷺ الأولى لم تكتمل ، وما زالت الأحداث والوقائع فيها تتجدد . وهذه بعض تلك الأحداث نذكرها تحت عناوينها .

الصلاة والأذان :

من المعلوم أن النبي ﷺ كان قبل الإسراء والمعراج يصلى هو والمؤمنون معه ركعتين فى الصباح وركعتين فى المساء ، لقوله تعالى فى خطابه ﷺ : ﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ . ولما أسرى به ﷺ إلى بيت المقدس ، وعرج به إلى الملكوت الأعلى فرض الله تعالى عليه وعلى أمته الصلوات الخمس ، ونزل جبريل عليه السلام فصلى بالرسول ﷺ عند الكعبة فعلمه كيفية الصلوات الخمس ، وبين له أوقاتها الاختيارية ، والضرورية . ولما هاجر إلى المدينة بعد ثلاث سنوات من فرض الصلوات الخمس نزلت الرخصة بقصر الرباعية إلى ركعتين فى السفر كما كانت ركعتين قبل الإسراء والمعراج ، وهذا معنى قول أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها فى حديث البخارى : إن الصلاة نزلت ركعتين ركعتين فزيدت فى الحضر وأُقرت فى السفر ؛ إذ نزلت الرخصة بقصر الرباعية على ركعتين فى قول الله تعالى من سورة النساء ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ هذه هى الصلاة^(١) أما الأذان : فإنه بعد

(١) هذه المسألة مما كثر فيها الخلاف والكلام ، وما ذكرته فيها أقرب إلى الحقيقة فيما ظهر لى ، والله أعلم .

أن استقر الحبيب ﷺ بالمدينة وبنى مسجده فيها « وأصبح المسلمون »
يجمعون فيه للصلاة ، وكانوا يأتون وقت الصلاة بدون إعلام فيصلون
وينصرفون ، ويأتون في الوقت التالى للأول وهكذا ، ثم رأى الرسول ﷺ
أنه ينبغي أن يكون هناك ما يعلم به المسلمون دخول وقت الصلاة وقرب
إقامتها ، فاستشار أصحابه فأشاروا عليه بالبوق فكرهه لاستعمال اليهود له ،
وأشاروا بالناقوس فكرهه أيضا لاستعمال النصارى له ، وانصرفوا ولم يتفقوا
على شيء . فنام عبد الله بن زيد الأنصارى الخزرجى فرأى أن رجلا عليه
ثوبان أخضران يحمل ناقوسا في يده ، فقلت له يا عبد الله أتبيع هذا الناقوس ؟
فقال : وما تصنع به ؟ قلت ندعو به إلى الصلاة . قال : ألا أدلك على خير
من ذلك ؟ قلت : وما هو ؟ قال تقول : الله أكبر ، الله أكبر . أشهد أن لا
إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمدا رسول الله ، أشهد
أن محمدا رسول الله . حيّ على الصلاة ، حيّ على الصلاة . حيّ على الفلاح ،
حيّ على الفلاح . الله أكبر ، الله أكبر . لا إله إلا الله . فأخبر بها الرسول
ﷺ فقال : « إنها رؤيا حق إن شاء الله ، فقم مع بلال فألقها عليه فإنه
أندى صوتا منك » .

فلما أذن بها بلال سمعه عمر بن الخطاب وهو في بيته فخرج إلى رسول
الله ﷺ وهو يجرد رداءه ويقول يا نبي الله ، والذى بعثك بالحق لقد رأيت
مثل الذى رأى فقال الحبيب ﷺ « فله الحمد » ، وزاد بلال في أذان الفجر
الصلاة خير من النوم فأقرّ عليها . وعلم رسول الله ﷺ بلالاً الإقامة فقال له :
« وإذا أقمت للصلاة تقول : الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ،
أشهد أن محمدا رسول الله ، حيّ على الصلاة ، حيّ على الفلاح ، قد قامت
الصلاة قد قامت الصلاة ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله » .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نوردها إزاء الأرقام التالية :

(١) تقرير أن الصلاة كانت قبل الإسراء والمعراج عبارة عن ركعتين في أول النهار وركعتين في آخره ، ثم فرضت كما هي الآن : الظهر أربع ركعات والعصر أربع ، والمغرب ثلاث ، والعشاء أربع ، والصبح ركعتان ، ثم قصرت « رخصة » الرباعية إلى ركعتين في السفر سواء كان مع السفر خوف أو لم يكن .

(٢) رؤيا المؤمن صالحة وتحمل البشرى له ولمن رؤيت له .

(٣) بيان صيغة الأذان والإقامة ، وفضل عبد الله بن زيد وعمر بن الخطاب لرؤياهما الأذان في المنام .

(٤) مشروعية مخالفة اليهود والنصارى .

(٥) بيان أن المؤذن ذا الصوت الندى أولى بالأذان من غيره .

(٦) بيان فضل بلال ، وأنه أول مؤذن في الإسلام .

وفاة كلثوم بن الهدم . وأسعد بن زرارة رضى الله عنهما :

ومن أحداث هذه السنة المؤلمة المحزنة وفاة كلثوم بن الهدم الرجل الذى أسلم قبل مقدم الرسول ﷺ إلى المدينة . ولما نزل ﷺ مهاجراً من مكة إلى قباء نزل في منزله فشرفه الله تعالى بنزول صفيه وخيرته من خلقه في منزله ولم يلبث كلثوم بن الهدم إلا قليلا ، وكان رجلا مسنناً حتى مات فإلى رحمة الله ورضوانه ابن الهدم .

ومات بعد كلثوم أبو أمامة أسعد بن زرارة أحد النقباء وهو أول من بايع الرسول ﷺ ليلة العقبة الثانية ، وكانت وفاته بسبب ذبحة صدرية . ولما مات قال اليهود والمنافقون لو كان محمد نبياً لما مات صاحبه فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال : « إني لا أملك لنفسي ولا لصاحبي من الله شيئاً » .

وطلب بنو النجار من النبی ﷺ بعد أن مات أبو أمامة نقيهم أن يقيم لهم نقياً آخر فقال لهم : « أنتم أخوالى وأنا بما فيكم ، وأنا نقيكم » .

فكانت هذه منقبة لبنى النجار يعتدون بها على قومهم ، وترك النبي ﷺ تعيين أحد منهم كراهة أن يفضل بعضهم على بعض فخصهم بفضيلة عامة لهم جميعا وهى كونه ﷺ نقيباً لهم ، وهذا من الحكمة المحمدية والرشد والنضج السياسي . اللهم صل على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

نتائج وعبر :

من نتائج هذه المقطوعة من السيرة العطرة ما يلي :

(١) موت فضلاء الرجال يعد رزية تؤلم المؤمنين وتحزنهم .
(٢) بيان أن النبي ﷺ لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله تعالى .

(٣) تجلّى مظاهر الرشد والحكمة والسياسة المحمدية التى لا يجارى فيها أبداً .

أول مولود للمهاجرين بالمدينة :

ومن أحداث هذه السنة الأولى من هجرة الحبيب ﷺ المفرحة ولادة عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما .

فقد جاءت أسماء إلى المدينة مهاجرة ضمن أسرة الصديق وهى مُتِمَّة^(١) فما إن نزلت بقباء حتى وضعت عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما فجاءت به إلى رسول الله ﷺ بالمدينة فحنَّكه بأن أخذ تمره فمضغها ثم أدخلها فى فم الطفل فكان أول شيء دخل جوفه ريقه رسول الله ﷺ ، ودعا له بالبركة وكبر أصحاب رسول الله ﷺ فرحاً بهذا المولود الذى كان أول مولود يولد للمهاجرين فى الإسلام كما كان النعمان بن بشير أول مولود وُلد فى الإسلام للأنصار .

(١) أى مقارنة للولادة .

وبذا أخرس الله ألسنة اليهود ؛ إذ ادَّعُوا أن المسلمين قد سحروا فلذا لم يولد لهم فأكذبهم الله في دعواهم بولادة عبد الله بن الزبير ، وولادة النعمان ابن بشير الأنصارى رضى الله عنهم أجمعين .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نذكرها فيما يأتي :

- (١) بيان أن اليهود من دأبهم ترويح الشائعات الباطلة والمغرضة .
- (٢) تقرير أن اليهود يتعاطون السحر وهم أعلم به من غيرهم .
- (٣) فضيلة أسماء بنت الصديق ولدها عبد الله بتحنيك رسول الله ﷺ له .
- (٤) جواز الفرح بفضل والتكبير عند حصول النعمة ورؤية الخير .
- (٥) معرفة أول مولود ولد في الإسلام للمهاجرين والأنصار . وهما عبد الله والنعمان .

بناء النبي ﷺ بأحب نسائه إليه :

ومن أحداث هذه السنة الأولى المفرحة بناء النبي ﷺ بزوجه عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما ؛ إذ كان قد عقد عليها ﷺ بمكة قبل الهجرة ، وذلك بعد وفاة خديجة رضى الله عنها ، وكان عمرها إذ ذاك ست سنوات ، وفي شوال من هذه السنة المباركة بنى رسول الله ﷺ بعائشة بدار أبيها بالسُّنْح نهاراً وهى بنت تسع سنوات ، وكان بعض الناس يتشاءمون بالبناء بين العيدين فردت عليهم عائشة بقولها : تزوجنى رسول الله فى شوال ، وبنى بى فى شوال . فأئى نساء رسول الله ﷺ كان أحظى عنده منى ؟

وهو كما قالت فقد روى البخارى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قوله : سألت رسول الله ﷺ عن أحب نسائه إليه فقال : « عائشة » وعن أحب أصحابه إليه فقال : « أبوها » أى أبو بكر .

وفي دخول الحبيب ﷺ على عائشة بالنهار رد على ما اعتاده الناس من الدخول بالليل دون النهار .

نتائج وعبر :

إن هذه المقطوعة من السيرة نتائج وعبرها نجملها كالآتي :

- (١) جواز العقد على البنت قبل بلوغها دون الدخول بها .
- (٢) فضل عائشة على سائر النساء بحب الرسول ﷺ لها أكثر من غيرها .
- (٣) جواز الدخول على العروس نهارًا ، ولا معنى لتخصيص ذلك بالليل .
- (٤) إبطال وهم من توهم شؤم الزواج والبناء بين العيدين الفطر والأضحى .
- (٥) فضل أبي بكر الصديق لحب الرسول له أكثر من أصحابه .

آخر أحداث هذه السنة

ثلاث سرايا

يبعث بها النبي ﷺ

إنه بعد أن أصبحت المدينة وكأنها دار إسلام محضة على الرغم ممن فيها من المشركين ، والمنافقين واليهود حيث أصبح للمؤمنين فيها شوكة وقوة لا يستهان بها أذن الله تعالى للمسلمين بالقتال ، وذلك في قوله تعالى من سورة الحج : ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ .

وعملًا بهذا الإذن الإلهي أخذ الرسول ﷺ يبعث بالسرايا لتعقب قوافل المشركين التجارية لعله يظفر بأموالهم التي أصبح المسلمون أحق بها وأولى منهم بمثلها ، فبعث أول سرية ، وهي سرية حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ ، وعقد له لواء أبيض وهو أول لواء أو راية عقدت في الإسلام ، وبعث

معه ثلاثين رجلا من المسلمين المهاجرين ، وذلك ليعترض غير قريش التجارية المارة بسيف البحر التي كان عليها أبو جهل في ثلثائة رجل من قريش . ولم يقع بينهم قتال ؛ لحجز مجدي بن عمرو الجهني بينهم إذ كان مجدي مودعا للفريقين معا ، وكان الذي يحمل لواء حمزة أبو مرثد الغنوي ، وكانت هذه السرية في شهر رمضان بعد سبعة أشهر من مهاجر رسول الله ﷺ .

نتائج وعبر :

- إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نوجزها كالتالي :
- (١) بيان تقيد الرسول ﷺ بالإذن من ربه فلا يأتي ولا يذر غالبا إلا بإذن من ربه عز وجل .
- (٢) بيان أول سرية في الإسلام ، وأنها سرية حمزة عم رسول الله ﷺ .
- (٣) بيان الكمال المحمدي في إرساله عمه والمهاجرين دون الأنصار لتلقى غير قريش .
- (٤) بيان أن أول لواء عقد في الإسلام كان لواء سرية حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه .

سرية عبدة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم :

في شهر شوال وهو الشهر الثامن من مهاجر الحبيب ﷺ عقد ﷺ لعبدة ابن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم لواء أبيض وأمره بالسير إلى بطن رابغ من الحجاز ، وكان اللواء مع مسطح بن أثانة ، فسار في ستين رجلا ليس بينهم أنصاري قط ، ساروا طالين قافلة للمشركين أفرادها مائتا رجل فالتقوا معهم على ماء يقال له : « أحياء » وكان على المشركين عكرمة بن أبي جهل أو مكرز ابن حفص ، ولم يقع بينهم قتال ، وإنما تراموا بالسهم ، فأصيب سعد بن أبي وقاص بسهم ، فكان أول سهم رمى به في الإسلام . ثم انصرف القوم عن القوم ، وفر إلى المسلمين المقداد بن عمرو البهراي ، وعتبة بن غزوان

ابن جابر المازني وقد كانا مسلمين ، وإنما خرجا مع الكفار من أجل أن يهربا إلى المسلمين لمنع المشركين لهما من الهجرة ، وحبسهما دونها .

نتائج وعبر :

إن هذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا هي كالتالي :

(١) من مظاهر الكمال المحمدي أن يرسل عَمِيه حمزة وعبيدة للغزو دون غيرهما من أصحابه الأنصار والمهاجرين ، ليضرب المثل في الكمال الخلقى والروحي .

(٢) فضل مسطح بن أثاة حيث قلد اللواء وهو ابن خال أبي بكر الصديق .

(٣) بيان أن أول سهم رمى به في سبيل الله السهم الذي أصاب سعداً رضى الله عنه .

سرية سعد بن أبي وقاص :

وفي ذى القعدة من سنة الهجرة الأولى المباركة ، وبعد سريتي حمزة وعبيدة عقد عليه السلام لسعد بن أبي وقاص لواء أبيض وأرسله في عشرين رجلا يمشون على أقدامهم يسرون بالليل ويكمنون بالنهار ، وكان يحمل اللواء المقداد بن الأسود رضى الله عنه ، وكان أفراد السرية كلهم مهاجرين ليس بينهم أنصاري ، أرسلهم إلى « الخرار » وعهد إليهم أن لا يتجاوزوه فساروا ففاتتهم غير المشركين ، إذ وصلوا الخرار صبح خامسة ، وسبقتهم غير قريش بيوم فلم يظفروا بها ، ولم يقع قتال ، وعادوا سالمين غانمين الأجر والثوبة ، دون ما خرجوا له من الظفر بغير المشركين .

نتائج وعبر :

إن هذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نوجزها فيما يلي :

(١) بيان فضل سعد بن أبي وقاص حيث عقد له النبي ﷺ لواء وأرسله على سرية يقودها إلى جهاد الكفار .

(٢) شرف المقداد بن الأسود حيث حمل راية الجهاد في سبيل الله .

(٣) بيان كمال طاعة أصحاب رسول الله ﷺ ، في الالتزام بما يعهد به إليهم .

ظهور العداء الشديد وبدء الصراع الداخلي

إنه ما إن انقضت السنة الأولى من سنَى الهجرة المباركة للحبيب ﷺ ولاح في الأفق ظهور الإسلام ، وعزةُ أهله حتى نجم النفاق من اليهود والمشركون معاً ، وأخذ التحزُّب والتكتُّل ضدَّ الإسلام والمسلمين يلوح في الأفق ، وأصبحت المدينة ميداناً للصراع الداخلي .

وها هي ذى قائمة بأسماء منافقي اليهود مقرونة بسوء أفعالهم وأخرى بأسماء منافقي المشركون مشفوعة كذلك بقبح أعمالهم وسوء سلوكهم .

منافقو اليهود :

إن من بين من عرفوا بالتَّفَاق من اليهود بالمدينة حيث أظهروا الإسلام كيِّداً للرسول ﷺ والمسلمين ومكرّاً بهم ، وهم مصرّون على كفرهم ويهوديتهم عليهم لعائن الله :

(١) زيد بن اللّصيت وهو القائل لما ضلت ناقة النبي ﷺ : يزعم محمد أنه نبيٌّ يأتيه خبر السماء^(١) وهو لا يدري أين ناقتة ، ولما بلغ هذا القول النبي ﷺ قال : « والله لا أعلم إلا ما علمني الله ، وقد دلتني الله عليها فهي في هذا الشعب قد حبستها شجرة بزمامها » فذهب رجال من المسلمين

(١) حدث هذا في غزوة تبوك .

فوجدوها كذلك .

(٢) رافع بن حريملة وهو الذى قال فيه رسول الله ﷺ لما مات عليه لعائن الله « مات اليوم عظيم من عظماء المنافقين » .

(٣-٤) رفاعه بن زيد بن الثابت ، وسويد بن الحارث أظهرا الإسلام نفاقاً ومكرًا وخديعةً فَوَادَّهُمَا بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ اغْتَرَارًا بِهِمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى قَوْلَهُ يَنْهَى الْمُسْلِمِينَ عَنْ مَوَادَّتِهِمْ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُورًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أُولِيَاءَ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ وكان رفاعه هذا إذا كَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَوَّى لِسَانَهُ ، ويقول : أَرْعَنَا سَمْعَكَ يَا مُحَمَّدُ حَتَّى تُفْهَمَكَ ، ثُمَّ طَعَنَ فِي الْإِسْلَامِ وَعَابَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ قَوْلَهُ : ﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا * مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ، وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَآسَمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعَيْنَا لِيًّا بِالْأَسْنَتِهُمْ وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَآسَمَعُ وَأَنْظَرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ من سورة النساء .

(٥-٦-٧) سعد بن حنيف ونعمان بن أوفى بن عمرو وأخوه عثمان بن أوفى .

(٨-٩) سِلْسِلَةُ بْنُ يَرْهَامَ ، وَكَنَانَةُ بْنُ صُورِيَا كُلُّهُمَا هَوَّلَاءُ كَانُوا مِنْ أَحْبَارِ يَهُودٍ فَأَسْلَمُوا نِفَاقًا لِلدَّسِّ وَالْفِتْنَةِ وَالْوَقِيعَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ .
فهؤلاء تسعة من أحبار اليهود أسلموا ظاهراً وهم كفار باطنًا ، وكان

(١) الآية من سورة المائدة .

مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١﴾ .

وقد روى أن جلاساً قد تاب وحسنت توبته حتى عرف منه الخير والإسلام .

(٣) الحارث بن سويد أخو جلاس بن سويد ، كان منافقاً فخرج مع المسلمين يوم أحد فقتل المجذّر البلوى ، وقيس بن زيد أحد بنى ضبيعة أخذاً بثأر له منهما إذ قتل أباه في الجاهلية ، ثم التحق بقریش بمكة ، ثم بعث إلى أخيه جلاس يطلب التوبة ليرجع إلى قومه بالمدينة فأنزل الله تعالى فيه قوله : ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

(٤) نبتل بن الحارث من بنى لؤذان بن عمرو بن عوف هو الذى قال فيه رسول الله ﷺ : « من أحب أن ينظر إلى شيطان فليُنظر إلى نبتل بن الحارث » ، وكان رجلاً جسيماً أذلم (٢) نائر شعر الرأس أحمر العينين أسفع (٣) الخدين ، وكان يأقى النبى ﷺ يتحدث إليه فيسمع منه ، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين ، وهو القائل إنما محمد أذن من حدثه شيئاً صدقه فأنزل الله تعالى فيه من سورة التوبة : ﴿ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ الآية .

(٥) مزيع بن قيطى وهو الذى قال لرسول الله ﷺ حين أجاز في حائطه « بستانه » ورسول الله ﷺ عامد إلى أحد : لا أحل لك يا محمد أن كنت نبياً أن تمر في حائطى ، وأخذ حفنة من تراب ثم قال : والله لو أعلم أنى

(١) من سورة آل عمران .

(٢) أسود طويل مسترخى الشفتين .

(٣) السفعة حمرة تضرب إلى سواد .

لا أُصيب بهذا التراب غيرك لرميتك به ، ولمّا ابتدره الصحابة أن يقتلوه قال رسول الله ﷺ : « دعوهُ ، فهذا الأعمى أعمى القلب أعمى البصيرة » وضربه سعد بن زيد بالقوس فشجّه أى فى رأسه .

(٦) أوس بن قيطى أخو مربع وهو الذى قال يوم الخندق يا رسول الله إن بيوتنا عورة^(١) فأذن لنا فلنرجع إليها ، فأنزل الله تعالى فيه قوله : ﴿ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ الآية من سورة الأحزاب .

(٧) حاطب بن أمية بن رافع الخزرجى ، وكان شيخًا كبيرًا فى الجاهلية له ابن من خيرة المسلمين يقال له يزيد بن حاطب أصيب يوم أحد فنقل مشخنا بجراحاته إلى دار بنى ظفر فاجتمع إليه من رجال المسلمين ونسائهم وهو يموت فقالوا له : أبشر يا ابن حاطب بالجنة فنطق أبوه حاطب المنافق فقال أجل جنة والله من حرمل غررتم والله هذا المسكين من نفسه .

(٨) بشير بن أبيرق أبو طعمة سارق الدرعين الذى أنزل الله تعالى فيه : ﴿ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَالُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾ الآية من سورة النساء .

(٩) قزمان حليف لبنى أبيرق والذى قال فيه رسول الله ﷺ : « إنه من أهل النار » وذلك أنه قاتل يوم أحد قتالا شديدًا وقتل بضعة نفر من المشركين فأثبتته^(٢) الجراحات فحمل إلى دار بنى ظفر ، فقال له رجال من المسلمين أبشر يا قزمان فقد أبليت اليوم ، وقد أصابك ما ترى ، قال بما أبشر فوالله ما قاتلت إلا حمية عن قومي ، فلما اشتدت به جراحاته أخذ سهما من كنانته فقتل به نفسه . فصدق عليه قول الحبيب ﷺ : « إنه لمن أهل النار » .

(١) أى مكشوفة ضائعة ما لها من يحميها .

(٢) أى أقعدته عن الحركة لشدتها .

(١٠) عبد الله بن أبى بن سلول الخزرجى وهو رأس المنافقين ، وإليه يجتمعون . وهو القائل : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، وذلك فى غزوة بنى المصطلق ، وفيه وفى رهطه نزلت سورة المنافقون بأسرها ، وهم الذين كانوا يدسون إلى بنى النضير حين حاصرهم رسول الله ﷺ ويقولون لهم : اثبتوا فوالله ﷻ لئن أخرجتم لتخرجن معكم ولا تطيع فيكم أحدًا أبدًا وإن قوتلتم لتنصرنكم والله يشهد إنيهم لكاذبون ﷻ الآية من سورة الحشر .

هؤلاء عشرة من منافقى المشركين الذين كانوا يمالئون اليهود وغيرهم على الإسلام . وقد أسلم من أسلم منهم وحسن إسلامه ، ومات على النفاق من مات منهم ، بحيث لم يقبض رسول الله ﷺ حتى لم يبق منهم منافق ، لا من اليهود ولا من المشركين ، إذ اليهود قد أنهى وجودهم على يد رسول الله ﷺ إنهم كانوا ثلاث طوائف : بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة ، أما بنو قينقاع وبنو النضير فقد أخرجوا من المدينة ، وأما بنو قريظة فقد أعدموا فيها لخيانتهم وغدرهم ، ولم يسلم منهم إلا القليل ، ومن أشهر من أسلم من أحبار اليهود وعقلائهم عبد الله بن سلام رضى الله عنه ، ومخيريق وقد أسلم يوم أحد قال فيه رسول الله ﷺ : « مخيريق خير يهود » ، وذلك أنه خرج يوم أحد بسلاحه وقال لرهطه إن مت فمالي لمحمد ﷺ بعد أن وعظ أهله ودعاهم إلى الإسلام ثم قاتل مع رسول الله ﷺ حتى قتل فرضى الله عنه وأرضاه .

الأعداء المعلنون عداؤهم من اليهود :

إن من ذكرنا من منافقى اليهود كانوا قد ادّعوا الإسلام كذبًا لأجل الدس والوقعة بين المسلمين . وهناك عدد كبير من أحبار اليهود لم ينافقوا بل أعلنوا عن عداوتهم للرسول ﷺ والمسلمين ، حملهم على ذلك البغى والحسد للعرب على ما فضلهم الله تعالى من اصطفاء محمد رسولاً منهم إلى الناس كافة .

ولنذكر هنا رؤساءهم من أهل البغى والحسد والضعينة منهم وما كانوا يقولون للرسول ﷺ وأصحابه من سوء القول وقبيحه جدالا مرة وعنادا مرة أخرى ، وتطاولا واعتزازا مرة ثالثة ، وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر منهم :
 حُيَيُّ بن أخطب النضري وكان أحبّهم وأكثرهم عداء للرسول ﷺ والمؤمنين وهو أبو صفية زوج رسول الله ﷺ . وأخواه أبو ياسر بن أخطب وجُدَيُّ بن أخطب . وسَلَّام بن مشكم . وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق . وأخوه سلام بن أبي الحقيق . ورافع الأعور الذى قُتل بخير . والربيع بن الربيع ابن أبي الحقيق . وعمر بن جحّاش . وكعب بن الأشرف وهو طائى وأمه نضرية . والحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف . وكَرْدَم بن قيس حليف كعب ابن الأشرف وكل هؤلاء نضريّون .

وعبد الله بن سوريا الأعور ، وكان أعلم أحرار اليهود بالحجاز وهو من بنى ثعلبة .

ورفاعه بن قيس . وسويد بن الحارث . وفنحاص . وشاس بن عدى . ومالك بن صيف . ورافع بن أبى رافع . ورافع بن حريملة . ومالك بن عوف . وكعب بن راشد . وَعَازِرٌ وكل هؤلاء من بنى قينقاع . ومنهم عبد الله بن سلام وقد أسلم وحسن إسلامه وكان مبشّرا بالجنة . والزبير بن باطا وعزال بن شميل . وكعب بن راشد . ووهب بن يهوذا . وأسامة بن حبيب . ورافع بن رميلة . ونافع بن أبى نافع . وعدى بن زيد . وهؤلاء كلهم قرظيون .

وليد بن عاصم وهو الذى سحر النبى ﷺ بواسطة بناته وهو من بنى زريق . وكنانة بن سوريا وهو من بنى حارثة .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نجملها فيما يأتى :

- (١) صعوبة موقف الدعوة وتخرج القائمين عليها في هذه الفترة من الهجرة .
- (٢) خطر المنافقين أشد من خطر الكافرين الظاهرين .
- (٣) معرفة ما ذكر من منافقى كل من اليهود والمشركين .
- (٤) مظاهر النبوة المحمدية في عدة مواقف من هذا العرض .
- (٥) فضيلة كل من عبد الله بن سلام ومُخَيَّرِيق من يهود المدينة الذين أسلموا وحسن إسلامهم .
- (٦) كفر اليهود وحربهم للإسلام وأهله كان نتيجة بغيتهم وحسدهم للعرب على انتقال النبوة إليهم . كما كان خوفا من أن يحول الإسلام دون عودة مجدهم المتمثل في مملكتهم التي يحلمون بها وأنها من النيل إلى الفرات .

جَدَلِيَّاتِ الْيَهُودِ

ومظاهر عنادهم

وإلى جانب ذلك الدس والوقعة التي يقوم بها منافقو يهود ممن أسلم من أحبارهم في الظاهر وهو مبطن للكفر والعداء الشديد في الباطن .
 هناك جماعات أخرى تصرح بكفرها وحقدتها وعدائها للرسول ﷺ ودينه وأتباعه ، وتجادل وتعاقد ، ولتذكر للعبرة طرفاً من جدالها وعنادها .

فهذا رافع بن خُرَيْمَة عليه لعائن الله يقول في جدله الساقط : يا محمد إن كنت رسولا من الله كما تقول فقل لله فليكلما حتى نسمع كلامه فأنزل الله تعالى فيه قوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ .

وهذا سلام بن مشكم ، ونعمان بن أوفى ، ومحمود بن دحية وشاس بن قيس ومالك بن الصيف يقولون للرسول ﷺ كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا ،

وَأَنْتَ لَا تَزْعُمُ أَنَّ عَزِيرًا ابْنُ اللَّهِ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ رَدًّا عَلَيْهِمْ : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أُنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ الآية من سورة التوبة .

وهذا جَبَلُ بنِ أَبِي قَشِيرٍ ، وَشُمُويلُ يَجْدَانِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فيقولان له : يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنَا مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا كَمَا تَقُولُ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ قَوْلَهُ : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَفِّيهِ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الآية من سورة الأعراف .

وهذا نَعْمَانُ أَيْضًا وَبَحْرَى بنُ عَمْرٍو وَشَاسُ بنُ عَدِيٍّ أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ يَتَحَدَّثُونَ فَكَلَّمُوهُ وَكَلَّمَهُمْ ﷺ ، وَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَحَذَرَهُمْ نَقْمَتَهُ . فَقَالُوا مَا تَخَوَّفْنَا يَا مُحَمَّدُ ، نَحْنُ وَاللَّهُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ قَوْلَهُ : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ .

وهذا رَافِعُ بنُ حَارِثَةَ وَسَلَّامُ بنُ مِشْكَمٍ ، وَمَالِكُ بنُ الصَّيْفِ وَرَافِعُ بنُ حَرِيمَةَ أَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ يَجَادِلُونَهُ فَقَالُوا : يَا مُحَمَّدُ أَلَسْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَدِينِهِ ، وَتُؤْمِنُ بِمَا عِنْدَنَا مِنَ التَّوْرَةِ ، وَتَشْهَدُ أَنَّهَا مِنَ اللَّهِ حَقٌّ ؟ قَالَ : « بَلَى : وَلَكِنْ كُمْ أَحَدُكُمْ وَجَعَلْتُمْ مَا فِيهَا مِمَّا أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنَ الْمِيثَاقِ فِيهَا وَكُتِّمْتُمْ مِنْهَا مَا أَمَرْتُمْ أَنْ تَبَيِّنُوهُ لِلنَّاسِ فَبَرِئْتُ مِنْ إِحْدَاكُم » . فَقَالُوا مُعَانِدِينَ : إِنَّا نَأْخُذُ بِمَا فِي أَيْدِينَا ، فَإِنَّا عَلَى الْهُدَى وَالْحَقِّ ، وَلَا نُؤْمِنُ بِكَ وَلَا نَتَّبِعُكَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ قَوْلَهُ مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ

الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠﴾

وهذا النحام بن زيد وكردم بن كعب وبحرى بن عمرو أتوا النبي ﷺ يجادلونه ، فقال يا محمدا أما تعلم مع الله إلها غيره ، فقال رسول الله ﷺ : « الله لا إله إلا هو ، بذلك بعثت ، وإلى ذلك أدعو » فأنزل الله تعالى فيهم وفي قولهم : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لَتُشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

وأتى رهط منهم ، فقالوا معاندين مجادلين : هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله ؟ فغضب رسول الله ﷺ حتى انتقع^(١) لونه ، ثم ساورهم^(٢) غضبا لربه ، فنزل عليه جبريل فسكنه ، وقال خفف عليك يا محمد ، وأتاه من الله بجواب ماسألوا عنه : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ .

نتائج وعبر :

(١) تقرير أنه كان من اليهود منافقون ، ولا عجب فإنهم أهل لكل شر إلا من رحم الله .

(٢) بيان ما كان يلاقيه الرسول ﷺ من جدل اليهود وعنادهم في المدينة قبل خروجهم منها .

(١) تغير لونه .

(٢) واثبهم وأراد أن يبطش بهم .

(٣) نزول القرآن بالردّ على ما كان اليهود يلقونه من الشبه والحجج الباطلة والمزاعم الكاذبة .

وكاليهود نصارى نجران يجادلون ، ويعاندون

وبمناسبة ذكرنا جدال اليهود وعنادهم نذكر جدال النصارى وعنادهم المتمثل فى وفد نجران ، وإن كان هذا الوفد لم يفد فى هذه السنة الأولى من الهجرة إذ وفد فى سنة الوفود وهى سنة تسع من الهجرة .

وكان أفراد هذا الوفد ستين راكبا من بينهم أربعة عشر راكبا من أشرافهم ، والذين يؤول أمرهم إليهم من رجال الوفد ثلاثة وهم : العاقب واسمه عبد المسيح . والسيد واسمه الأيهم . وأبو حارثة اسقفهم وهو أحد بنى بكر بن وائل ، وكانت له منزلة رفيعة عند ملوك الروم ؛ لما أبداه من اجتهاد فى دينهم ، ولما كان عليه من العلم ؛ فلذا أمدوه بالمال ، فبنوا له الكنائس وبسطوا عليه الكرامات .

ولما وفدوا على رسول الله ﷺ بالمدينة جلس إمامهم أبو حارثة على بغلته التى يركبها متوجها إلى رسول الله ﷺ ، وإلى جنبه أخ له يقال له كرز بن علقمة ، فعثرت بغلته فقال أخوه كرز : تعس الأبعد يريد رسول الله ﷺ فقال له أخوه أبو حارثة بل أنت تعست . فقال : ولم يا أخى ؟ قال : والله لَلنَّبِيِّ الذى كنا ننتظر . فقال له كرز ما يمنعك منه أى من الإيمان به واتباعه ، وأنت تعلم هذا ؟ قال : ما صنع بنا هؤلاء القوم شَرَّفونا ومَوَّلونا وأكرمونا ، وقد أبوا إلا خِلافَه فلو فعلت نزعوا منا كل ما ترى . فأضمرها كرز وأسلم بعد .

وحضرت صلاة العصر وقد دخلوا مسجد رسول الله ﷺ ، فصلوا العصر

إلى المشرق ، وكان بعض الصحابة أنكر عليهم ذلك فقال لهم النبي ﷺ « دعوهم يصلوا إلى المشرق إذ تلك قبلتهم في كنائسهم » .

فكلم رسول الله ﷺ منهم ثلاثة وهم أبو حارثة ، والعاقب ، والسيد وهم مع اختلافهم في أمرهم يقولون في المسيح هو الله ، ويقولون هو ولد الله ، ويقولون هو ثالث ثلاثة ، وهذا قول أهل الملة النصرانية ويحتجون في قولهم : إنه ولد الله ؛ لأنه لم يكن له أب يُعَلَّم ، وقد تكلم في المهد وهذا لم يصنعه أحد من ولد آدم قبله . ويحتجون في قولهم : إنه ثالث ثلاثة بقول الله تعالى : فعلمنا وأمرنا وخلقنا وقضينا ، فيقولون لو كان واحدًا ما قال إلا : فعلت وقضيت وأمرت وخلقت ، ولكنه هو وعيسى ومريم . ويحتجون في قولهم هو الله بأنه كان يحيى الموتى ويرى الأسقام ، ويخبر بالغيوب ، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرًا .

ولما كلموا رسول الله ﷺ قال لهم : « أسلموا » فقالوا : قد أسلمنا ، فقال لهم النبي ﷺ : « إنكم لم تُسلموا فأسلموا » ، قالوا : بلى قد أسلمنا قبلك . قال : « كذبتم يمنعكم من الإسلام دعاؤكم لله ولدًا ، وعبادتكم الصليب ، وأكلكم الخنزير » . قالوا : فمن أبوه يا محمد فصمت عنهم رسول الله ﷺ فلم يجبههم ، وأنزل الله تعالى نيفا وثمانين آية من أول سورة آل عمران في شأن عيسى ، فحدثهم عنه بالتفصيل ، وبدأ الحديث بولادة جدته حنة لأمه مريم في حديث عجيب يدل دلالة قطعية على عبودية عيسى عليه السلام ونبوة محمد ﷺ . وجاء فيه : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ .

ثم دعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة ، وخرج ﷺ ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم أجمعين ، فلما رأوهم قالوا : هذه وجوه لو أقسمت على الله أن يزيل الجبال لأزالها ، فخافوا ولم يباهلوا . ونزل في ذلك

قول الله عز وجل : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَلْفُسَنَا وَأَلْفُسَكُمْ ثُمَّ تَبَتَّلْ^(١) فَتَجْعَلْ لِنَفْسٍ آلَةً عَلَى الْكَافِرِينَ ۝ ﴾ .

فقالوا للرسول ﷺ يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما تريد أن تفعل فيما دعوتنا إليه فانصرفوا ، ثم حَلَّوْا بالعاقب الذى هو صاحب رأى فيهم فقالوا له : يا عبد المسيح ماذا ترى ؟ فقال والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمداً لنبى مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم « يريد عيسى عليه السلام » . ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبياً قط بقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم قد أتيتم إلا إلف دينكم ، والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم ، فوادعوا^(٢) الرجل ثم انصرفوا إلى بلادكم .

فأتوا الرسول ﷺ فقالوا : يا أبا القاسم قد رأينا أن لا نلأعنك ، وأن نتركك على دينك ، ونرجع على ديننا ، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا فإنكم عندنا رضا .

وصالحوا النبى ﷺ على ألفى حلة ، وعلى أن يضيّفوا رُسُل رسول الله ﷺ ، وجعل لهم ذمة الله تعالى وعهده ألا يفتنوا عن دينهم ، ولا يُعشروا ، وشرط عليهم أن لا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به . وبعث معهم أبا عبيدة عامر ابن الجراح أمين هذه الأمة المحمدية رضى الله عنه وأرضاه .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نجملها فى الآتى :

(١) أى ندع ونتضرع لله تعالى ليهلك المبطل منا .
(٢) أى سالوا الرسول ﷺ ولا تحاربوا فإنكم لا تغلبوه .

(١) بيان أن موقف أهل الكتاب من يهود ونصارى من الإسلام واحد ، وهو موقف عدائى خالص وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ .

(٢) بيان أن المنافع المادية كثيراً ما تحمل صاحبها على الإصرار على الباطل ، وهو يعرف الحق حفاظاً على تلك المنافع المادية حتى لا تنزع منه كما قال أبو حارثة . . .

(٣) بيان مزية النصارى فى معرفة الله عز وجل إذ مرة يقولون هو المسيح ، ومرة يقولون هو ولد الله ومرة يقولون هو ثالث ثلاثة .

(٤) بيان أن من لم يوحد الله تعالى فى ذاته وصفاته وأفعاله وعبادته فليس بمسلم .

(٥) حب المرء للشئ وإلفه له يحمله على الإصرار على الباطل وإنكار الحق .

(٦) مشروعية المباهلة فى الإسلام كما كانت فى أديان الأنبياء قبله .

الحالة الصحية

بدار الهجرة

ولما قدم الحبيب ﷺ وأصحابه المدينة وجدوها أسوأ البلاد مناخاً وصحةً كما قالت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها وأرضاها . قالت لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قديمها وهى أوبأ أرض الله من الحمى ، فعانى الأصحاب المهاجرون من حمّائها ما عانوا ، إلا أن الله تعالى وقى رسوله ﷺ فلم يمرض بها .

ولنستمع إليها رضى الله عنها وهى تصف الحالة الصحية المتردية بالمدينة فتقول : قدم الرسول ﷺ المدينة وهى أوبأ أرض الله من الحمى ، فأصاب

أصحابه منها بلاء وسقم ، فصرف الله تعالى ذلك عن نبيه ﷺ ، فكان أبو بكر وعامر بن فهيرة وبلال موليا أبا بكر مع أبي بكر في بيت واحد ، فأصابتهما الحمى فدخلت عليهم أعودهم ، وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب ، وبهم مالا يعلمه إلا الله من شدة الوبك^(١) ، فدنوت من أبي بكر فقلت له كيف أجذك يا أبت ؟ فقال :

كُلْ امرئ مَصْبَحٌ في أهله والموت أدنى من شِرَاكِ نَعْلِهِ
فقلت والله ما يدرى أبى ما يقول ، ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة فقلت له : كيف تجذك يا عامر ؟ فقال :

لقد وجدت الموت قبل ذوقه إن الجبان حتفه من فوقه
كل امرئ مجاهد بطوقه^(٢) كالثور يحمى جلده بروقه^(٣)
فقلت والله ما يدرى عامر ما يقول : وكان بلال إذا تركته الحمى اضطجع بفناء البيت ثم رفع عقيرته^(٤) يقول :

ألا ليت شعري هل أبيتُ ليلةً بفخٍ وحولٍ إذخر وجليلُ
وهل أَرَدَنْ يوماً مِياهَ مَحْتَةٍ وهل يبذونُ لى شامةً^(٥) وطَفيْلُ
والمقصود من إيراد الحالة الصحية بالمدينة أيام الهجرة إليها أن نعلم أن الحبيب ﷺ وأصحابه لم يجدوها مفروشة بالرياحين ، ولا سليمة من المنغصات ، والكدورات ، بل فيها المخاوف والشدائد . إنها : كيد اليهود ومكرهم ، وخبث المنافقين وكفرهم ، وعداء المشركين وحربهم ، وحتى المناخ مفعم بحمى

(١) الوبك : شدة الألم والوجع .

(٢) أى بطاقته وقدرته .

(٣) أى بقرنه .

(٤) أى أعلى صوته .

(٥) شامة وطفيل جبلان من جبال مكة .

الملايا والبلديزم . في هذا الجو القاتم يضطلع الحبيب ﷺ بأعباء دعوته ومهام رسالته فلا يترك فرصة تضيق بدون إبلاغ دعوته ونشر رسالته . وها هو ذا الآن وقد قَضَى سنة في دار هجرته ، وقد مرت بنا أحداثها ، وجلها مؤلمة يستقبل السنة الثانية من سنى هجرته بالإعداد للجهاد والتحرك لقتال من يليه من المشركين عملا بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ وذلك بعد أمره تعالى له بالجهاد في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَنَسِ الْمَاصِرُ ﴾ .

وبعد الإذن العام بقتال المشركين الظالمين في قوله : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ بعد أن كان محظورا عليهم قتال الناس مطلقا وذلك قبل الهجرة ؛ ففي السنة الأولى بعث ﷺ ثلاث سرايا تقدم الحديث عنها في أحداث السنة الأولى . وقد ولت .

وفي هذه السنة الثانية بلغت غزواته فيها ثمان عشرة غزوة وسرية .

وأولها :

غزوة الأبواء^(١)

كانت هذه الغزاة المسماة بالأبواء ، أو وْدَان لقرب ما بين الأبواء وودَّان ؛ إذ ما بينهما من مسافة قد لا تزيد على ستة أميال .

وهي أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ ، وكانت في صفر ، وسببها أنه ﷺ بلغه مرور عير لقريش بالأبواء ، ووجود بنى ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة في المنطقة فخرج لذلك ، بعد أن استخلف على المدينة سعد ابن عبادة رضى الله عنه . ولما وصل إلى ديار بنى ضمرة ، وادعته هذه القبيلة بواسطة سيدهم وصاحب الأمر فيهم مَحْشِي بن عمرو الضمري . وفاتت عير

(١) وْدَان موضع شرق شمال رابغ ، يبعد عنه بنحو ثلاثين كيلو مترا ، والأبواء قرية منه وفيها قبر آمنة .

قريش . فعاد ﷺ ولم يلق كيِّداً . غير أنه أقام بالأبواء بقية صفر وعاد في ربيع الأول . وكان لواؤه ﷺ في هذه الغزوة أبيض يحمله عمه حمزة رضى الله عنه .

وثانيتها :

غزوة بُواط

وبعد عودته ﷺ من غزوة وَدَّان أو الأبواء في ربيع الأول من هذه السنة الثانية من هجرته المباركة استخلف على المدينة النبوية السائب بن عثمان بن مظعون أو سعد بن معاذ رضى الله عنهما ، وخرج في نفس شهر ربيع الأول في مائتى راكب يريد غيراً لقريش عليها مائة رجل من بينهم أمية بن خلف ، وتعداد أبعرتها يبلغ ألفين وخمسمائة بعير .

فسار ﷺ ولواؤه مع سعد بن أبى وقاص حتى بلغ بواط من ناحية جبل رَضَوَى جهة ينبع النخل فلبث ببواط بقية شهر ربيع الثانى ، وعاد في أوائل جمادى الأولى إلى المدينة دار هجرته المباركة ، ولم يلق كيِّداً ؛ وذلك لعدم اصطدامه بعير قريش حيث فاتت ونجت بتدبير الله عز وجل وإرادته ، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وحسب رسول الله ﷺ وأصحابه أنهم اجتهدوا باذلين الأسباب ، وليس عليهم إلا ذلك ، أما بلوغ الأرب والحصول على المطلوب فهو لله عز وجل ، وهو يعطى ويمنع لحكم عالية يجب التسليم له في ذلك والرضا بما قضى .

وثالثها :

غزوة العشرة^(١)

في آخر جمادى الأولى ، وبعد عودته في أول الشهر من غزوة بواط بلغ

(١) في لفظ العشرة خلاف فتصح بالشين والسين ، وبالتاء وبدونها وبالمد أيضا العشيراء .

النبي ﷺ أن أكثر من غير لقريش — أى قوافل تجارية — ذاهبة إلى الشام ، فعزم على السير إليها لعله يظهر ببعضها .

فخرج ﷺ بعد أن استخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد ، وأعطى اللواء عمه حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه . وسار حتى نزل العشيرة من بطن ينبع ، ولم يلق من غيرات قريش ولا غيراً لفواتها ، ولكنه ﷺ وادع فيها بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة ، فكان فى ذلك خير للإسلام والمسلمين ، فأقام بالمنطقة بقية جمادى الأولى ، وليالى من جمادى الآخرة ، وعاد إلى المدينة ، ولم يلق كيّداً من أحد ، والحمد لله رب العالمين .

وراعتها :

غزوة^(١) بدر الأولى

إن سبب هذه الغزوة هو أن كرز بن جابر الفهري أغار على سرح المدينة أى ماشيتها من إبل وغنم وبقر ، وذلك بعد عودة النبي ﷺ من غزوة العشيرة ببضعة أيام (عشرة فأقل) .

فلما أغار كرز على سرح المدينة خرج الحبيب ﷺ مع أصحابه فى طلبه لافتكاك الماشية منه ، فاستخلف ﷺ على المدينة زيد بن حارثة مولاه ، وأعطى اللواء على بن أبى طالب ، وسار فى طلب كرز حتى بلغ وادياً يقال له سَفَوَان فى ناحية بدر ، وفاته كرز فلم يدركه ، فسميت هذه الغزوة بغزوة بدر الأولى ، إذ انتهى فيها مسير رسول الله ﷺ إلى قرب بدر ، ووصفت بالأولى لأن بعدها بدرا الكبرى التى نصر الله فيها الرسول والمؤمنين على أبى سفيان والمشركين وهناك بدر الآخرة ، فلذا قيل فى هذه بدر الأولى .

(١) الفرق بين الغزوة والسرية أن الغزوة ماحضرها رسول الله ﷺ ، والسرية ما لم يحضرها على هذا اصطلاح جل المؤرخين ، وليس بلام .

وخامستها :

سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة بين مكة والطائف

هذه السرية شاء الله تعالى أن تكون سببا قويا في غزوة بدر الكبرى ، ومقدمة عجيبة لها ؛ إذ كانت هذه السرية في رجب من هذه السنة الثانية ، وكانت غزوة بدر الكبرى في رمضان من هذه السنة نفسها فما بين سريّة ابن جحش وبدر الكبرى إلا شهر شعبان لا غير . فقد أمر النبي ﷺ أبا عبيدة عامر بن الجراح أن يتجهز للغزو ، فأطاع وتجهز — أى أعد عدة سفر وغزوة — فلما أراد المسير بكى صباية إلى رسول الله ﷺ أى تألم لفراقه ولم يطقه فبكى حنيئا وشوقا ، فلما رأى منه ذلك رسول الله ﷺ وهو الحبيب المحب تركه وبعث غيره وهو عبد الله بن جحش ، وبعث معه ثمانية رجال من المهاجرين ، وكتب له كتابا عهد له فيه بأمره ، وأمره أن لا يقرأه حتى يسير يومين ، ثم ينظر فيه ، ويمضى لما أمره به ، ولا يكره أحدا من أصحابه ، ففعل ، ولما سار اليومين فتح الكتاب ونظر فيه ، فإذا فيه الأمر بالنزول بنخلة ، وهى مكان بين مكة والطائف ، يرصد فيه قريشا ويعلم أخبارها وتحركاتها وتدابيرها العسكرية الحربية . فأعلم عبد الله أصحابه فساروا معه ، وكان سعد ابن أبى وقاص ، وعتبة بن زغوان قد أضلا بعيرا لهما كانا يعتقباناه ، فتخلفا يطلبانه ، فسار عبد الله مع بقية أصحابه حتى نزلوا بنخلة ، فمرت عبر لقريش تحمل زيبا وغيره ، وفيها عمرو بن الحضرمي ، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة ، وأخوه نوفل ، والحكم بن كيسان ، فأشرف لهم عكاشة بن محصن وقد حلق رأسه^(١) ، فلما رأوه حالقا رأسه أمنوا بعد أن خافوهم ؛ إذ قالوا : لا بأس هؤلاء عُمَار .

وتشاور أفراد السرية الإسلامية ، وكان اليوم هو آخر يوم من رجب ،

(١) يدخل هذا تحت قاعدة حربية مشهورة وهى « الحرب خدعة » .

لكن تركناهم هذه الليلة دخلوا الحرم ، وامتنعوا منا ، ولكن قاتلناهم الليلة قاتلناهم في الشهر الحرام فتردد القوم ، ثم تشجعوا على قتل من يقدرون عليه منهم ؛ لأن جرائم المشركين أعظم من القتل في الشهر الحرام ، فرمى واقد ابن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله ، واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان وهرب نوفل فطلبوه فأعجزهم هربا .

وأقبلوا بالقافلة والأسيرين عائدين إلى المدينة حتى قدموا على رسول الله ﷺ ، وذكر بعض آل عبد الله بن جحش أن عبد الله قال لأصحابه : إن لرسول الله ﷺ الخمس . فعزل له خمس العير ، وذلك قبل أن ينزل فرض الخمس ، وإنما كان بإلهام من الله تعالى لعبد الله بن جحش صهر رسول الله ﷺ ، إلا أن النبي ﷺ أنكر عليهم قتالهم في الشهر الحرام ، فوقف العير والأسيرين ، وأبى أن يأخذ شيئا من ذلك . فلما فعل هذا رسول الله ﷺ سقط في أيدي السرية ، وظنوا أنهم قد هلكوا وعنفهم المسلمون على صنيعهم هذا ، وأذاعت قريش الخبر مشنعة أكبر تشنيع : أن محمدا وأصحابه استحلوا الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا الأموال وأسروا الرجال ، واعتذر من اعتذر لهم بمكة من المؤمنين ، وقالوا : إنما أصابوا من أصابوا في أول ليلة من شعبان وليس في رجب الحرام كما أشيع . إذ آخر يوم من رجب جائز أن يكون أول يوم من شعبان .

وكثر التساؤلات ، فأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ عذر أصحاب السرية ، منددا بصنع المشركين فقال تعالى من سورة البقرة : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ .

فقررت الآية الكريمة أن القتال في الشهر الحرام أمر عظيم ولكن أعظم منه صد الناس عن الإسلام حتى لا يؤمنوا ويوحدوا فيكملوا ويسعدوا .

وأعظم من القتال في الشهر الحرام أيضا الكفر بالله تعالى وبرسوله ولقائه .
 كما أن الصد عن المسجد الحرام يمنع المؤمنين من دخوله والتعبد فيه ،
 كإخراج أهله المقيمين فيه بتعذيبهم والتنكيل حتى يضطروا إلى الهجرة منه أكبر
 من القتال في الشهر الحرام . وأخيرًا فإن فتنة المؤمنين عن دينهم باضطهادهم
 وتعذيبهم أشد ظلما وأقبح جرما من القتال في الشهر الحرام .

وعندما نزل عذر أصحاب السرية في هذه الآية الكريمة سألوا رسول الله ﷺ
 قائلين : هل لنا من أجر في قتلنا هذا ؟ فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ إِنَّ
 الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ
 اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . فبشرهم تعالى بما رجوه من الأجر والثوبة .

وانتهت تلك الضجة وبعثت قريش تطلب فداء أسيرها ، وأرجأهم رسول
 الله ﷺ حتى يرجع سعد بن أبي وقاص وزميله عتبة بن زغوان ؛ إذ تأخرا
 عن السرية في طلب بغيرهما كما تقدم .

ولما وصل سعد وعتبة أفدى^(١) رسول الله ﷺ عثمان بن عبد الله فلحق
 بمكة أما الحكم بن كيسان فقد أسلم وحسن إسلامه ، فلم يردده رسول الله ﷺ
 على المشركين . واستشهد الحكم يوم بئر معونة فرضى الله عنه وأرضاه .
 وقد سجل هذه السرية الصديق رضي الله عنه في ستة أبيات من الشعر
 فقال :

تدعون قتلا في الحرام عظيمة	وأعظم منه لو يرى الرشد راشد
صُدُّوْكُمْ عما يقول محمد	وكفر به والله راء وشاهد
وإخراجكم من مسجد الله أهله	لئلا يرى لله في البيت ساجد
فإننا وإن عيّرتمونا بقتله	وأرجف بالإسلام باغ وحاسد

(١) أى قبل الفدية فيه .

سقيناً من ابن الحضرميِّ رَمَاحَنَا بنخلة لما أوقد الحرب واقد
دَمًا وابن عبد الله عثمان بيننا يُنَازِعُهُ غُلٌّ من القد^(١) عاند

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نوجزها فيما يلي :

(١) بيان ما اضطلع به الحبيب ﷺ من أعباء الجهاد والدعوة إذ ما فرغ من غزوة حتى تهيأ لأخرى وأعد لها ، فجزاه الله عن الإسلام وأمته خير ما جزى به نبياً عن أمته .

(٢) بيان الكمال المحمدي في حسن التدبير ، وكمال التصرف وعظيم الرشد في كل أعماله .

(٣) بيان أول غنيمة كانت في الإسلام ، وَخُمِّسَتْ بإلهام من الله تعالى حتى فرض الله تعالى بعد ذلك تخميس الغنائم .

(٤) بيان أول فداء في الإسلام .

(٥) بيان مدى ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ من حبهم لنبئهم حتى إن أبا عبيدة لم يستطع أن يفارق الحبيب ﷺ فرحمه لذلك وأبقاه معه .

(٦) بيان أن سرية عبد الله بن جحش كانت مقدمة لغزوة بدر الكبرى .

وسادستها :

غزوة^(٢) بدر الكبرى

لهذه الغزوة الفاصلة في تاريخ الدعوة الإسلامية ، والمعنُون لها في القرآن بيوم

(١) القد بكسر القاف : السير يقد من الجلد ، والعائد المتبلل بالدم فلا ينقطع .

(٢) بدر اسم مدينة تبعد عن المدينة النبوية بمائة وخمسين كيلو مترا . وقد كانت قبل وادياً به بحر يملكها رجل يقال له بدر ، ووقعت غزوة بدر به فسميت غزوة بدر .

الفرقان . لها خطوات قبل الالتقاء فيه ، وله أحداث جسام عنده وبعده وهذه هي الخطوات التي تمت من الجانبين الإيماني والكفري أو التوحيدي والشركي .
(١) قافلة تجارية كبرى لقريش خرجت من الشام يقودها أبو سفيان ورجاله في طريقها إلى مكة المكرمة .

(٢) يصل خبر القافلة إلى النبي ﷺ فينتدب بعض أصحابه لاعتراضها إذا مرت بالحجاز لعل الله تعالى يُنفلهم إياها أى يرزقهم ما تحمله من بضائع و سلع نافعة وعظيمة ، وهم أحوج ما يكونون إلى ذلك لأن أموالهم تركوها بمكة وفروا بأنفسهم مهاجرين فصادرتها قريش منهم ولستمع إلى الرسول ﷺ يقول لهم : « هذه غير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله يُنفلكموها » فخف بعض ، وثقل بعض ، لأن الأمر ما كان ملزماً وإنما هو مجرد عرض لا غير . كما أنهم ما كانوا يظنون أن النبي ﷺ سيواجه حرباً ويلقى قتالاً .

(٣) أبو سفيان يدنو من الحجاز بقافلته . وها هو ذا يتحسس الأخبار ويسأل كل من يلقي من الركبان خوفاً من محمد ﷺ وأصحابه أن يعترضوا طريقه ، وفعلأ أصاب خبراً من بعض الركبان مفاده أن محمداً ﷺ قد استنفر أصحابه له ولعيره ، فقوى بذلك خوف أبى سفيان فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى وبعثه إلى مكة ليستنفر قريشا فيخرجوا لحماية غيرهم التي بها أموالهم .

(٤) في مكة ترى عاتكة بنت عبد المطلب رؤيا أفزعها ، وذلك قبل قدوم ضمضم الغفارى مكة بثلاث ليال ، فتبعث إلى أخيها العباس رضى الله عنه فتقول له : يا أخى لقد رأيت الليلة رؤيا افظعتنى^(١) ، وتخوّفت أن يدخل على قومك شرٌ ومصيبة . فقال لها : وما رأيت ؟ قالت رأيت راکباً أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ، ثم صرخ بأعلى صوته : ألا انفروا يال غدر

(١) اشتدت على .

لمصارعكم في ثلاث . فرأى الناس قد اجتمعوا إليه ، ثم دخل المسجد والناس ينعونه فبينما هم حوله مثل به بعيره على ظَهْرِ الكعبة ثم صرخ بمثلها : ألا انفروا يال غدر لمصارعكم في ثلاث ، ثم مثل به بعيره على رأس جبل أُنَى قبيس فصرخ بمثلها ، ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوى حتى إذا كانت بأَسفل الجبل ارفضت^(١) ، فما بقى بيت من بيوت مكة ولا دار من دورها إلا دخلتها منها فلقة^(٢) .

فقال لها العباس : والله إن هذه لرؤيا فاكميها ولا تذكريها لأحد . واستكمتها^(٣) إياها إلا أنه قصها على الوليد بن عتبة صديقه واستكمتها إياها ، فذكرها الوليد لأبيه ففشت حتى بلغت أبا جهل فغضب لذلك ، فلما رأى العباس يطوف بالبيت ناداه : يا أبا الفضل إذا فرغت فأقبل إلينا ، فلما جاءه قال له : يا بنى عبد المطلب متى حدثت فيكم هذه النبىة ؟ قال العباس قلت : وما ذاك ؟ قال تلك الرؤيا التى رأت عاتكة قال العباس فقلت : وما رأت ؟ قال يا بنى عبد المطلب أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم ، لقد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال : انفروا في ثلاث فستربص هذه الثلاثة فإن يك حقاً ما تقول فسيكون ، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء نكتب عليكم كتاباً أنكم أكذب أهل بيت في العرب ، وبعد ثلاث وصل ضمضم ابن عمرو الغفارى ، ووقف على بعيره ببطن الوادى ، وقد حوّل رحله وشقّ قميصه وجدع بعيره وهو يصرخ بأعلى صوته قائلاً : اللطيمة^(٤) اللطيمة ، أموالكم مع أُنَى سفیان قد عرض لها محمد في أصحابه ، لا أرى أن تدركوها الغوث الغوث ، وتجهزت قريش وهم يقولون : أيظن محمد وأصحابه أن نكون

(١) تفتت .

(٢) قطعة .

(٣) أى طلبت منه أن يكتمها هو عليها فلا يخبر بها .

(٤) الإبل التى تحمل البزّ والطيب ونحو ذلك من النفائس .

كعبير ابن الحضرمي كلا والله ليعلمنّ غير ذلك ، ولما أجمعت قريش المسير ذكرت ما كان بينها وبين بني بكر من حرب فخافت أن تضرب من خلف إلا أن إبليس جاءهم في صورة سراقه بن مالك بن جعشم المدلجي ، وكان من أشراف بني كنانة فقال لهم : أنا جار لكم فلا تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه فطمأنهم بهذا فمشوا سراعا .

(٥) وخرج النبي ﷺ في ليال مضت من شهر رمضان في أصحابه ، وذلك يوم الاثنين لثمان ليال خلون من شهر رمضان ، واستعمل على المدينة عبد الله ابن أم مكتوم إلا أنه رد أبا لبابة من الروحاء ، واستعمله على المدينة ، وأعطى اللواء مصعب بن عمير ، وكان أمامه ﷺ رايتان سوداوان : العقاب وكانت مع علي بن أبي طالب ، والأخرى مع بعض الأنصار ، وكان معهم سبعون بعيرا يعتقبونها^(١) وهم ثلثمائة وأربعة عشر رجلا ، وليس معهم إلا فرسان فرس الزبير بن العوام ، وفرس المقداد^(٢) بن عمرو ، ثم سلكوا طريق العقيق على فجّ الروحاء ، ونزل ﷺ ببئر الروحاء ، ثم ارتحل منها فترك طريق مكة على يساره ، وسلك ذات اليمين ، وقطع الوادي إلى مضيق الصفراء ، ثم بعث بسبس الجهنى وعدى بن أبي الزغباء إلى بدر يتحسّسان له الأخبار عن أبي سفيان وغيره ، ثم سار سالكا ذات اليمين على وادي ظفران ، ولما قطعه نزل . وقد أتاه ﷺ الخبر عن مسير قريش ليمنعوا غيرهم ، فاستشار الناس وأخبرهم عن مسير قريش ، فقام أبو بكر فقال وأحسن ثم قام عمر فقال وأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال يا رسول الله امض لما أمرك الله به فنحن معك والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون » ولكن نقول اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ،

(١) يتناوبون الركوب عليها .

(٢) هو المقداد بن الأسود رضى الله عنه .

فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك^(١) الغمام لجالدنا معك من دونه حتى بلغه . فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له به .

ثم قال رسول الله ﷺ « أشيروا على أيها الناس » فوقف سعد بن معاذ وقال : والله لكأنك تعيننا يا رسول الله ، قال : « أجل » ! فقال سعد : فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا وموآثيقنا فامض يا رسول الله لما أردت ونحن معك فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا أحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله ، فسر الرسول ﷺ لقول سعد ونشطه ، فقال : « سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم » .

وطلبُ النبي ﷺ من أصحابه أن يشيروا عليه كان يعنى به الأنصار لأن شروط بيعة العقبة التى كانت بينه وبينهم لم تتضمن نصرتهم له خارج المدينة وإنما داخلها فقط . فخاف ألا يقاتلوا معه من خرج لقتاله فلذا طمأنه سعد بما قال وسر به ، وتابع ﷺ سيره تجاه بدر حتى نزل قريباً منها .

تدبير حربى :

وركب رسول الله ﷺ وأبو بكر ، والأصحاب نزول ، ركبا ليسحبا المنطقة التى نزلوا بها تعرفاً إلى ما فى المنطقة ، وتطلعا إلى أخبار العدو « العير وقريش » معاً فعثرا على شيخ يقال له : سُفْيَان الضمى ، فسأله رسول الله ﷺ عن قریش وعن محمد ﷺ وأصحابه ، وماذا يعرف عنهم فقال الرجل

(١) برك الغمام موضع فى أقصى اليمن .

لا أخبركما حتى تخبراني من أنتم؟ فقال له رسول الله ﷺ « إن أخبرتنا أخبرناك » — في هذا القول من الحيلة والاحتراص ما فيه — فقال الشيخ أذاك بذاك؟ فقال النبي ﷺ « نعم ». فقال الشيخ مخبراً قد بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا فإن صدق الذي أخبرني فهم اليوم في مكان كذا وكذا ، للمكان الذي نزل به رسول الله وأصحابه . وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا فإن صدقني الذي أخبرني فهم الآن بمكان كذا وكذا ، إشارة إلى المكان الذي هم الآن به وهو العدو القصوى ، ثم قال : وأنتم؟ فقال النبي ﷺ « نحن من ماء ... » أي من جنس الماء الذي خلقنا منه لقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ فكانت منه ﷺ تورية حسنة يتطلبها الموقف .

فأخذ الشيخ يردّد كلمة من ماء مختاراً في هذه النسبة . أمن ماء العراق هما أم من ماء كذا . وعاد النبي ﷺ إلى المعسكر الإسلامي .
تدبير آخر :

وفي المساء أرسل النبي ﷺ علياً والزبير وسعد بن أبي وقاص في رجال يتحسسون العدو ويتعرفون أخباره فعثروا على رجلين يسقيان الماء لقريش فأتوا بهما إلى المعسكر الإسلامي فسألوهما فقالا نحن سقاة لقريش ، فأنكروا عليهما ذلك ، واتهموهما بأنهما سقاة للعر لا لقريش رغبة من الأصحاب في العثور على العير لا على النفير ، لأن العير لا شوكة فيها بخلاف النفير وهم يودون غير ذات الشوكة كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّكَّةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ ^(١) وسألوهما فلما أصرا على ما قالوا ضربوهما فاوجعوهما فقالا إنهما لأبي سفيان وكان النبي ﷺ يصلي

(١) الآية من سورة الأنفال .

فلما سلّم من صلاته قال لهم : « إذا صدقاكم ضربتموهما ، وإذا كذباكم تركتموهما . صدقا والله إنهما لقريش . أخبرانا عن قريش » فقالا . هم وراء هذا الكتيب الذى ترى بالعدوة القصوى ، فقال رسول الله ﷺ : « كم القوم » ؟ فقالا كثير ، قال : « فما عدتهم ؟ » قالوا : لا ندرى . فقال ﷺ : « ينحرون كل يوم من الإبل ؟ » قالوا : ما بين التسعة إلى العشرة ، فقال ﷺ : « إذا القوم ما بين التسعمائة والألف » ثم قال لهما : « فمن فيهم من أشرف قريش » قالوا : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو البختري بن هشام ، وحكيم بن حزام و .. و .. فذكرا كَمَا من أشرف قريش . وهنا أقبل رسول الله ﷺ على الناس ، وقال : « هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ^(١) كبدها » .

ثم سار رسول الله ﷺ مع أصحابه فنزلوا مكانًا قريبًا من العدوة الدنيا لا ماء فيه ، فعطش المعسكر ، وأصاب بعضه جنابة بالاحتلام فلم يجدوا ماءً يغتسلون به ، ووسوس الشيطان لبعضهم : كيف تقاتلون غداً وأنتم جُنب ، وكيف تقاتلون ولا ماء عندكم ، قد تموتون عطشًا إلى آخر ما يلقي الشيطان في نفوس الناس ، فأكرمهم الله تعالى فأنزل عليهم مطرًا . فسقوا واغتسلوا ولبد الرمل ليسهل الكرّ والفرّ عليه .

وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمْنَةً مِّنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ۝ ﴾ .

تدبير سابق :

وكان المعسكر الإسلامى قد بعث بسبس بن عمرو وعدى بن الزغباء

(١) الأفلاذ جمع فلذة أى قطعة .

يتحسّسان أخبار العدو ويرقبان تحركاته فنزلا على تل قريب من ماء ، ثم نزلا يسقيان الماء في شئ^١ لهما ، وعلى الماء رجل يقال له مجدى بن عمرو الجهنى فسمع بسبس وعدى صوت جارتين تقول إحداها لصاحبتها إنما تأتى العير غداً أو بعده فأعمل لهم ثم أقضيك الذى لك ، فسمع عدى وصاحبه حديثهما وما دل عليه فجلسا على بعيرهما وأتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بما سمعا من خبر ورود العير غداً أو بعد غد . إلا أن أبا سفيان لحذره وشدة توقعه تقدم العير إلى ماء بدر فوصله ووجد مجدياً فسأله قائلاً هل أحسست أحداً ؟ قال ما رأيت أحداً أنكره إلا أنى رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل ، ثم استقيا في شئ^٢ لهما ثم انطلقا فأتى أبو سفيان مناخهما وأخذ من بعير ناقتهما ففتته فإذا فيه النوى ، فقال هذه والله علائف يثرب^(١) ، فرجع إلى العير سريعاً فحوّلها عن طريقها فأخذ الساحل وترك بدرًا يسارًا ، وانطلق مسرعًا وبذلك نجت العير بكل ما فيها .

وأرسل أبو سفيان إلى قريش يخبرهم أن العير قد نجاها الله فارجعوا فقال أبو جهل والله لا نرجع حتى نرد بدرًا ، وكانوا بالجحفة فنقيم عليها ثلاثا فننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ، وترى مسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابونا أبدًا . وكانت بدر سوقا سنويًا يجتمع فيه الناس ، ورفض الأخنس بن شريق الثقفى وهو حليف بنى زهرة ، فقال يا بنى زهرة ارجعوا فإنه لا حاجة لكم بالمسير إلى بدر ، إذ نجى الله أموالكم وخلّص صاحبكم وهو مخزومة بن نوفل فرجعوا إلى مكة فلم يشهدوا بدرًا . وسارت قريش حتى نزلت بالعدوة القصوى .

عودة إلى المعسكر الإسلامى :

ونظر الخباب بن المنذر إلى المكان الذى نزل فيه الرسول ﷺ بأصحابه

(١) يثرب هى المدينة النبوية سميت فى الجاهلية بـ يثرب باسم رجل يقال له يثرب .

فرآه غير لائق عسكرياً ، فتقدم إلى رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله : أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » فقال : يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نغور ما وراءه من القلب ، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون . فقال رسول الله ﷺ : « لقد أشرت بالرأى » فنهض رسول الله ﷺ بالمسلمين وسار إلى أدنى ماء من القوم فنزل عليه ، ثم أمر بالقلب فغورت ، وبنى حوضاً على القلب الذى نزل عليه فملأوه ماءً ، ثم قذفوا فيه الآنية .

تدبير صالح :

وتقدم سعد بن معاذ إلى رسول الله ﷺ فقال يا نبي الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ونعد عندك ركائبك ، ثم تلقى عدونا ، فإن أعزنا الله ، وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا فقد تخلف عنا أقوام يابى الله ما نحن بأشد لك حباً منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنحك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك ، فأثنى عليه رسول الله ﷺ وبني العريش ، وجلس فيه رسول الله ﷺ ، وكان هذا من سعد تدبيراً حسناً .

تقارب المعسكرين :

وتحركت قريش نحو الوادى (وادى المعركة) فلما رآها رسول الله ﷺ تنحدر من الكثيب إلى الوادى قال : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فصرك الذى وعدتنى . اللهم أحنهم القداة » ورأى عتبة بن ربيعة على جمل أحمر فقال : « إن يكن فى أحد من القوم خير فعند صاحب هذا الجمل الأحمر إن يطيعوه يرشدوا » .

في معسكر الكفر :

ولما استقرت قريش في معسكرها بعثت عمير بن وهب الجمحي يحرز لها أصحاب محمد ﷺ فأجال فرسه حول المعسكر الإسلامي ثم رجع ، فقال لثلاثة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون ، ولكن أمهلوني حتى أنظر ما إذا كان للقوم كمين أو مدد ، وضرب في الوادي حتى أبعد فلم ير شيئا فرجع إليهم فقال : ما وجدت شيئا ولكن قد رأيت يا معشر قريش البلاء^(١) تحمل المنايا نواضح يثرب تحمل الموت الناقع^(٢) قوم ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك فروا^(٣) رأيكم ، وكان هذا من عمير — وإن كان نصيحة — مثل الطابور الخامس^(٤) فلما سمع حكيم بن حزام ما قال عمير أتى عتبة بن ربيعة فقال : يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها هل لك إلى أن لاتزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر ؟ قال : وما ذاك يا حكيم ؟ قال : ترجع بالناس . وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي قال قد فعلت فعلتي عقله^(٥) وما أصيب من ماله فأت ابن الحنظلية — أبا جهل — فإني لا أخشى أن يشجر^(٦) أمر الناس غيره . إلا أن عتبة قام خطيباً فقال : يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون شيئا بلقائكم محمداً وأصحابه ، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه الرجل يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه أو ابن خاله ، أو رجلاً من عشيرته فارجعوا وخلوا بين

(١) جمع بلية وهي الدابة والناقة تربط على قبر الميت فلا تعلق ولا تسقى حتى تموت .

(٢) الناقع : الثابت البالغ في الإفناء .

(٣) أى انظروا ما يصلح بكم .

(٤) هو في اصطلاح المعاصرين : بث أفراد في الجيش المعادى يخوفونهم ويخذلونهم .

(٥) العقل الدية فمعنى على عقله : على ديته .

(٦) معنى يشجر : يفرق .

محمد وبين سائر العرب فإن أصابوه فذاك الذى أردتم وإن كان غير ذلك أَلْفَاكُمْ ولم تعرضوا^(١) منه ما تُريدون .

وأتى حكيم أبا جهل وأخبره أن عتبة أرسله إليه بكذا وكذا (أى بالعدل عن الحرب والعودة إلى مكة) فقال : انتفخ والله سحره^(٢) ، كَلَّا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وما بعتبة ما قال . ولكنه قد رأى أن محمدًا وأصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه فقد تخوفكم عليه . فلما بلغ عتبة قول أبى جهل (انتفخ والله سحره) قال : سيعلم مُصَفَّر^(٣) اسِته من انتفخ سحره أنا أم هو .

في معسكر الإسلام :

وشرع القائد الأعظم الحبيب محمد ﷺ في تعديل صفوف أصحابه ، وكان بيده قِدْح^(٤) يعدل به القوم فمرَّ بِسَوَادِ بْنِ غَزِيَّةٍ وهو مُسْتَبِيلٌ^(٥) من الصف فطعن في بطنه بالقدح وقال : « استو يا سواد » فقال سواد يا رسول الله أوجعتنى وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقذنى من نفسك ، فكشف له ﷺ عن بطنه وقال له « استقد » فاعتنقه يقبل بطنه ، فقال له : « ما حملك على هذا يا سواد ؟ » قال يا رسول الله حضر ما ترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسَّ جلدى جلدك ، فدعا له رسول الله ﷺ بخير .

وبعد أن عدل رسول الله ﷺ صفوف أصحابه رجع إلى العريش

(١) يريد مجدكم وما نلتموه بمكرهه فيصفع عنكم ولا ينقم منكم . هذا الذى ظهر لى في هذه الجملة ولم أعر على من شرحها .

(٢) أى رثته وهو كناية عن الجبن والخوف .

(٣) يريد به الجبان الذى لا يخضر الحرب ويبقى بين نسائه يتطيب ويتعطر .

(٤) سهم .

(٥) أى متقدم .

فدخله ومعه أبو بكر الصديق ليس معه فيه غيره ، وقام الحبيب ﷺ يناشد ربّه ما وعده من النصر ويقول فيما يقول « اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد بعدها في الأرض » ، وجعل يهتف بربّه عز وجل ويقول : « اللهم أنجز لى ما وَعَدْتَنى اللهم نصرك » ، ويرفع يديه إلى السماء حتى يسقط الرداء عن منكبيه . وجعل أبو بكر رضى الله عنه يلتزمه من ورائه ويسوى عليه رداءه ويقول مشفقا عليه من كثرة الابتهال : يا رسول الله بعض مُناشدتك ربك فإنه سَيُنْجِزُ لك ما وعدك . وخفق النبى ﷺ خفقة أى إغفاءة قليلة ثم انتبه منها فقال : أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده ، على ثناياه النقع أى الغبار .

التقاء الفريقين :

في صبيحة يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة تلاقى فريق التوحيد مع فريق الشرك ، وقد قلّل الله كلّاً من الفريقين في عين الآخر جاء هذا في قول الله تعالى من سورة الأنفال : ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ .

وبدأت المعركة فرمى المشركون مَهْجَعًا مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما بسهم فكان أول قتيل من المسلمين في المعركة ، ثم رمى حارثة بن سراقة أحد بنى عدى بن النجار وهو يشرب من ماء الحوض بسهم فأصاب نحره فقتل وهو الذى جاءت أمه رسول الله ﷺ لما عاد إلى المدينة وقالت يا رسول الله أخبرنى عن حارثة فإن كان في الجنة صبرت ، وإلا فليرين الله ما أصنع تريد من البكاء والنياحة عليه ، فقال لها رسول الله ﷺ : « ويحك أهبلت ، إنها جنان ثمان وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى » . وخرج من معسكر المشركين الأسود بن عبد الأسد المخزومى وكان رجلاً شرساً سيئ الخلق فقال

أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتنّ دونه . فخرج إليه حمزة رضى الله عنه فلما التقيا ضربه حمزة فاطن^(١) قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض فوقع على ظهره تشخب رجله دمًا ، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه يريد أن يبرّ يمينه واتبعه حمزة فضربه حتى قتله فى الحوض فكان أول قتيل من المشركين فى بدر .

المبارزة قبل الالتحام :

من سنة الحرب عند الأولين أنهم يبدأون المعركة بالمبارزة بأن يطلب أحد المعسكرين المبارزة من الآخر من باب إثارة الحميّة وتبييج المقاتلين . وهنا فى غزوة بدر خرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد بن عتبة بن ربيعة فدعا إلى المبارزة فخرج إليه فتية من الأنصار ، وهم عوف ومعوذ ابنا عفراء ، وعبد الله بن رواحة فسألوهم : من أنتم ؟ فقالوا رهط من الأنصار . قالوا مالنا بكم من حاجة ، ثم نادى مناديهـم : يا محمد أخرج لنا أكفاءنا من قومنا . فقال رسول الله ﷺ قم يا عبيدة بن الحارث ، وقم يا حمزة ، وقم يا عليّ . فلما قاموا ودنوا منهم قالوا : من أنتم ؟ قال عبيدة : عبيدة ، وقال حمزة : حمزة ، وقال عليّ : عليّ . قالوا : نعم أكفاء كرام فبارز عبيدة عتبة بن ربيعة ، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة ، وبارز عليّ الوليد بن عتبة فأما حمزة فلم يمهـل شيبة أن قتله ، وكذلك عليّ لم يمهـل الوليد أن قتله ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين فأثبت^(٢) كلاهما صاحبه ، وكـرّ حمزة وعليّ بأسيفهما على عتبة فذفقا^(٣) عليه واحتملا صاحبهـما وحازاه إلى معسكرهم .

ثم ظهر النبى ﷺ للناس ، فحرّضهم على القتال ، فقال : « والذى نفس

(١) أطنّ قدمه أى قطعها من نصف ساقها .

(٢) يقال ضربه فأثبتـه إذا جرحه جرحًا أقعده عن القيام والحركة .

(٣) أى أسـرعا قتله وأنها حياته ضـربا بالسيف .

محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » فقال عمير بن الحُمام أخو بني سَلَمَةَ وفي يده تمرات يأكلهنّ بخ بخ أفما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ؟ ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قُتل رضى الله عنه وأرضاه . ثم تقدم إلى رسول الله ﷺ ابن عفرأ وهو عوف بن الحارث فقال يا رسول الله : ما يُضحك الربّ من عباده ؟ قال غَمَسَهُ يَدُهُ فِي الْعَدُوِّ حَاسِرًا فَنَزَعَ دَرْعًا كانت عليه فقذفها ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل رضى الله عنه وأرضاه . وهنا تقدم الحبيب ﷺ فأخذ حفنة من الحصاء فاستقبل قريشًا بها وقال « شَاهَتِ الْوُجُوهَ » ثم نفحهم^(١) بها ، وأمر أصحابه وقال : « شَدُّوا » وعاد إلى العريش واقتتل الفريقان وكانت الهزيمة للمشرّكين فقتل الله من قتل من صناديد قريش وأسر من أسر من أشرفهم ، فلما وضع القوم أيديهم يأسرون كان الحبيب محمد ﷺ ساعِثًا في العريش وسعد بن معاذ قائم على باب العريش متوشّح السيف في نفر من الأنصار يحرسون رسول الله ﷺ خوفاً عليه من كره العدو عليه .

نهاية سعيدة :

ودارت المعركة وشاركت فيها الملائكة وعلى رأسهم جبريل عليه وعليهم السلام وكان عددهم ألف ملك في صورة رجال عليهم عمائم بيض أرسلوها على ظهورهم إذ شوهده بعضهم وأخبر بهم الرسول ﷺ ومن سورة الأنفال قال تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ أى تطلبون الغوث منه لأنهم رضى الله عنهم ضجوا بالدعاء عند ملاقة المشركين سائلين الله تعالى أن يمدّهم بنصر منه ﴿ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْأَلْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ وفيها أيضا

(١) أى رماهم بها وفي هذه الآية من سورة الأنفال : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ لأن هذه النفحة بالحصاد نفذت إلى وجه أكثر المقاتلين فأصابهم بالهزيمة ؛ إذ لولا الله تعالى ما كانت تصل حفنة بالحصاء إلى أكثر من واحد أو اثنين من المشركين .

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فبعض الملائكة قاتل بالفعل وبعض كان يثبت قلوب المؤمنين حتى تصبح على القتال .

ولقد انتهت المعركة بنصر حاسم للمسلمين إذ قتل من صناديد قريش سبعون وأسر منهم سبعون . وكان من بين القتلى الطاغية فرعون هذه الأمة أبو جهل ، وعتبة بن ربيعة وولده الوليد بن عتبة وأخوه شيبة بن ربيعة ، وحنظلة بن أبي سفيان ، وعقبة بن أبي معيط ، وأبو البختري ، وعبيدة بن سعيد بن العاص ، ونوفل بن خويلد ، والنضر بن الحارث بن كلفة ، والعاص ابن هشام وأمّية بن خلف وغيرهم إذ كانوا سبعين قتيلا .

ومن بين الأسرى : العباس عم النبي ﷺ ، وعقيل بن أبي طالب ، ونوفل ابن الحارث بن عبد المطلب وعمرو بن أبي سفيان وأبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ ، وأبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير ، وسهيل بن عمرو أحد ساسة قريش البارزين .

آية محمدية :

كانت المعركة دائرة والقتال مستمرا وسيف عكاشة بن محصن ينقطع من الضرب في يده فكيف يقاتل فأتى الرسول ﷺ وهو في العريش مركز القيادة وشكا إليه انقطاع سيفه فأعطاه النبي ﷺ جذلا^(١) من حطب ، وقال : « قاتل بهذا يا عكاشة » فلما أخذ من يد رسول الله ﷺ هذه في يده فعاد سيفاً في يده طويل القامة شديد المتن أبيض الحديد فقاتل به حتى فتح الله على المسلمين ، وكان ذلك السيف يسمى « العون » وما زال مع عكاشة يقاتل به حتى قتل رضي الله عنه في حرب الردة على عهد أبي بكر الصديق . فكان هذا السيف آية النبوة المحمدية القويّة .

(١) أى عوداً من حطب .

جيف المشركين :

لما خمدت نار المعركة ، ودفن المسلمون شهداءهم ، وكانوا أربعة^(١) عشر شهيداً سحبت جيف المشركين إلى قليب^(٢) كان في ساحة المعركة فألقوا فيه إلا ما كان من الطاغية أمية بن خلف فإنه قد انتفخ في درعه فملأها فذهبوا ليحركوه فتزائل^(٣) لحمه فتركوه مكانه وألقوا عليه ما غييه من التراب والحجارة .

توبيخ الحبيب محمد ﷺ لأعدائه :

وفي جوف الليل سُمع النبي ﷺ وهو واقف على القليب الذي أُلقيت فيه جيف المشركين يناديهم موبخاً لهم مقررّاً « يا أهل القليب بئس عشيرة النبي كنتم لبيكم . كذبتُموني وصدقني الناس وأخرجتموني وآواني الناس وقاتلتُموني ونصرني الناس ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً » . فقال له بعض أصحابه يا رسول الله أتنادي قومًا قد جُيِّفوا^(٤) ؟ فقال لهم : « ما أنتم بأسمع منهم لما أقول لهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوا » . وفي هذا يقول حسان في قصيدة سجل فيها غزوة بدر منها قوله :

فدغ عنك التذكر كل يوم	وردَّ حرارة الصدر الكثيب
وخبر بالذي لا عيب فيه	بصدق غير إخبار الكذوب
بما صنع المليك غداة بدر	لنا في المشركين من النصيب

(١) هم : عبدة بن الحارث بن عبد المطلب توفي وخذه على قدم النبي ﷺ ولما فاضت روحه قال أشهد أنك شهيد . وعمر بن أبي وقاص أخو سعد . ذو الشمانين بن عبد عمرو . وعافل بن البكير . مهجع مولى عمر بن الخطاب . وصفوان بن بيضاء . هؤلاء من المهاجرين ستة أنفار . ومن الأنصار : سعد بن خثمة . ومبشر بن عبد المنذر . ويزيد بن الحارث وعمر بن الحمام . ورافع بن المعلى . وحارثة ابن سراقة . وابنا عفراء عوف ومعوذ ابنا الحارث فرضى الله عنهم أجمعين .

(٢) البئر لا ماء فيها .

(٣) أى انفصل عنه وتساقط .

(٤) أى صاروا جيفا .

غداة كأن جَمَعَهُم حِرَاءُ
فلاقيناهم مِنَّا بَجَمْعٍ
أمام مُحَمَّدٍ قد وازروه
بأيديهم صوارمُ مرهفات
بنو الأوس الغطارف وازرتها
فغادرنا أبا جهل صريعًا
وشيبة قد تركنا في رجال
يناديهم رسولُ الله لَمَّا
ألم تجدوا كلامي كان حقًا
فما نطقوا ولو نطقوا لقالوا

بدت أركائه جُنَحَ الغروب
كأسد الغاب مُردانٍ وشيبٍ
على الأعداء في لَفَحِ الحروب
وكلُّ مجرَّبٍ^(١) خاطى الكُعب
بنو النجار في الدِّين الصليب^(٢)
وعتبه قد تركنا بالجيوب^(٣)
ذوى حسبٍ إذا نُسبوا حَسِيبٍ
قذفناهم كباكِبٍ في القلب
وأمر الله يأخذُ بالقلوب
صدقتُ وكنت ذا رأيٍ مُصيب

خلاف الأُحبة وحسمه :

وأمر القائد الأعظم الحبيب محمد ﷺ بعد انجلاء الموقف بقتل المشركين وأسرهم أمر بجمع الغنائم فجمعت ، واختلف الأصحاب المجاهدون رضوان الله عليهم فيمن هو الأحق بها ؟ فقال الجامعون لها : هي لنا ، وقال المقاتلون الذين شغلوا عن جمع الغنائم بقتال المشركين وطلبهم : والله لولا نحن ما أصبتموها ، إذ نحن الذين شغلنا العدو عنكم حتى أصبتم الذي أصبتم ، وقال الذين كانوا يحرسون النبي ﷺ في العريش خشية أن يخالف إليه العدو ، والله ما أنتم بأحق بها منا فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وبهذا انتزعها الله من أيديهم حسما للخلاف ، ثم أنزل

(١) المكتنز الملتئ .

(٢) الشديد من صلابته .

(٣) الجيوب وجه الأرض لأنها تجب أى تحفر وتقطع .

بيان قسمتها في قوله : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّفْصِيلِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ من سورة الأنفال . وبهذا حسم الخلاف وانتهى نهائيا والحمد لله رب العالمين .

بشائر النصر :

وعجل الحبيب محمد ﷺ بتبشير المسلمين في المدينة بالنصر الذي تَمَّ فبعث عبد الله بن رواحة بشيرا إلى أهل العالية ، وبعث زيد بن حارثة إلى أهل السافلة .

قال أسامة بن زيد رضى الله عنه : أتانا الخبر — حين سويانا التراب على رقية بنت رسول الله ﷺ التي كانت عند عثمان بن عفان رضى الله عنه — أَنَّ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ قَدْ قَدِمَ ، فَجِئْتُ وَهُوَ واقِفٌ بالمِصْلَى قَدْ غِيْشَهُ النَّاسُ وَهُوَ يَقُولُ : قَتَلَ عَتَبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ ، وَشَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ وَأَبُو جَهْلٌ ، وَزَمْعَةُ بْنُ الْأَسْوَدِ وَأَبُو الْبَخْتَرِيِّ ، وَأُمَيَّةُ بْنُ خُلْفٍ ، وَنَبِيهٌ وَمَنْبَهُ ابْنَا الْحِجَااجِ ، فَقُلْتُ : يَا أَبْتَ أَحَقُّ هَذَا ؟ قَالَ نَعَمْ ، وَاللَّهِ يَا بُنَيَّ .

طلوع البدر :

وطلع الحبيب محمد ﷺ من بدر عائداً إلى المدينة ، ومعه الأسارى من المشركين ، واحتمل معه ﷺ الغنائم ، وجعل عليها عبد الله بن كعب النجاري وسار ﷺ حتى إذا خرج من مضيق الصفراء نزل على كُثْبٍ بين المضيق وبين النازية إلى سرحة به ، فقسم هناك الغنائم بالسوية على المسلمين ، ثم ارتحل حتى إذا كان بالروحاء لقيه المسلمون يهتفون بما فتح الله عليه ، وعلى من معه بالنصر المبين ، وأثناء مسيره وبالصفراء بالضبط قتل علي بن أبي طالب النضر ابن الحارث أحد الأسرى ، كما قُتِلَ عَقْبَةُ بْنُ أَبِي مَعِيْطٍ قَتَلَهُ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ

الأنصارى بِعَرْقِ الطيبة ، وثُمَّ لَقِيَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَبُو هِنْدَ حِجَّامَ الرَّسُولِ ﷺ لَقِيَهُ بِحِمَيْتٍ^(١) ، فَقَالَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : إِنَّمَا هُوَ أَبُو هِنْدَ امْرَأُ مِنَ الْأَنْصَارِ فَأَنْكَحُوهُ وَأَنْكَحُوا إِلَيْهِ ، فَفَعَلُوا وَكَانَ أَبُو هِنْدَ مَوْلَى لَفْرَوَةَ ابْنِ عَمْرِو الْبَيَاضَى ، ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَسِيرِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَوَصَلَهَا قَبْلَ الْأَسَارَى يَوْمَ .

أَيُّهُمَا خَيْرُ الْقَتْلِ أَوْ الْفِدَاءِ :

إِنَّهُ بَعْدَ أَنْ أَتَمَّ اللَّهُ نَصْرَهُ لِرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ حَيْثُ انْهَزَمَ الْمُشْرِكُونَ وَفَرَوْا مِنَ الْمَعْرَكَةِ لَا تُذِينَ بِالْفِرَارِ تَارِكِينَ وَرَاءَهُمْ سَبْعِينَ جَنَّةً أَلْقَيْتَ فِي الْقَلِيبِ وَسَبْعِينَ أَسِيرًا وَضَعُوا فِي الْقَيْدِ ، وَقَفَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَاجِعًا ، وَنَزَلَ^(٢) مَنْزِلًا ، وَاسْتَشَارَ أَصْحَابَهُ فِي الْأَسْرِ : أَيَقْتُلُونَ أَمْ يَفَادُونَ بِمَا لَيْسَ بِهِ عَلَى مُوَاصِلَةِ الْجِهَادِ ؟ فَقَالَ ﷺ : « إِنْ اللَّهُ قَدْ أَمَكَّنَكُمْ مِنْهُمْ فَمَا تَقُولُونَ فِي هَؤُلَاءِ الْأَسْرِ ؟ » فَقَامَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ اضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ ، فَقَدْ كَذَّبُوكَ وَأَخْرَجُوكَ ، فَاضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ ، فَأَعْرَضَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ . ثُمَّ عَادَ ﷺ إِلَى قَوْلِهِ طَالِبًا الْمَشُورَةَ فِي الْأَسْرِ ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ نَرَى أَنْ تَعْفُو عَنْهُمْ ، وَأَنْ تَقْبَلَ مِنْهُمْ الْفِدَاءَ . فَذَهَبَ عَنْ وَجْهِ النَّبِيِّ ﷺ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ الْغَمِّ فَعَفَا عَنْهُمْ وَقَبِلَ الْفِدَاءَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ الْأَنْفَالِ : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ فَوَافَقَتِ الْآيَةُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيمَا رَأَاهُ مِنْ قَتْلِ الْأَسْرِ فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ . وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَذْرَ نَبِيِّهِ ﷺ وَعَذْرَ صَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ فَقَالَ : ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسْكُم فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ﴿ وَأَنْزَلَ فِي الْأَسْرِ

(١) الحميت : الزق من جلد ، والحيس السمن يخلط بالتمر والأقط .

(٢) هو الكتيب الذى بين المضيق وبين النازية المتقدم فى السياق السابق .

قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فشجعهم بهذا على دفع الفدية وواعدهم بالمغفرة والرحمة إن هم أسلموا وحسن إسلامهم .

ومن بين هؤلاء الأسرى العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ ، وعقيل ابن أبي طالب وغيرهما .

وبهذا كان القتل للأسرى في هذه المعركة البدرية خيرا من المفادة ، لأنها أول معركة انتصر فيها الإسلام ، وإن كان المفادة في غيرها خيرا ، وفي كل خير والحمد لله إذ أنزل تعالى بعد هذه الآيات من سورة الأنفال أنزل سورة القتال ، وفيها قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ فخير تعالى في هذه الآية الإمام بين المن مجانا وبين الفداء بمقابل ، وبين القتل ، فليدر الإمام مع المصلحة العامة للإسلام والمسلمين ، فإن كانت في الفداء فدى وإن كانت في القتل قتل ، وإن كانت في المن من .

كَرَّمُ مُحَمَّدِي :

إنه لعظيم كرمه ﷺ ووافر رحمته لما أعطى الأسارى لأصحابه يأتون بهم إلى المدينة النبوية مفرقين بينهم قال لهم : « استوصوا بالأسارى خيرا » . وها هو ذا أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير ، وقد أسر يحدث فيقول : مررت بأخي مصعب ورجل من الأنصار بأسيرين فقال له شديديك به أي حافظ عليه ، فإن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك؟ قال أبو عزيز : وكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر فكانوا إذا قدموا غداهم أو عشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ بنا ، فما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحنى بها فأستحيي فأردها على أحد ، فيردوها علي ما يمسها . فسبحان الله ما أطوع أصحاب رسول الله لرسول

الله !! فصلى الله عليه وسلم ما أرحمه !! لقد نالت رحمته أعداءه ، ورضى الله عن صحابته الطَّيِّعين البررة الخيِّرين .

صَدَى هزيمة المشركين في مكة :

ودخل مكة أول داخل من المعركة الْحَيْسَمَانُ بن عبد الله الخزاعى فسأله في لهف : ما وراءك ؟ قال : قتل عتبة وشيبة وأبو الحكم وأمّية بن خلف . وزمعة بن الأسود ، ونبيه ومُنَبِّه وأبو الْبُحْتَرى ، فلما أخذ يعدد أشراف قريش قال صفوان بن أمّية وهو قاعد في الحجر ، والله ما يعقل هذا ، فاسأله عَنى . فقالوا : ما فعل صفوان بن أمّية ؟ قال : ها هو ذاك جالساً في الحجر ، وقد رأيت أباه وأخاه حين قتلا .

ولنستمع إلى أبى رافع مولى رسول الله ﷺ يحدث نبأ هزيمة المشركين فيقول : كنت غلاماً للعباس ، وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر ، وبعث مكانه العاص بن هشام ، فلما جاءه الخبر أقبل يَجُرُّ رجله بشرّ ، حتى جلس على طُنب حجرة زمزم — أى طرفها — فبينما هو جالس إذ قال الناس هذا أبو سفيان بن الحارث قد قدم ، فما إن رآه حتى قال له : هَلُمَّ إِلَىّ ، لعمرى عندك الخبر ، فجلس إليه والناس قيام عليه ، فقال له : يا ابن أخى أخبرنى كيف كان أمر الناس ؟ قال : والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمحنناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا ، ويأسروننا كيف شاءوا وَيَمُّ الله مع ذلك ما لُمْتُ الناس ، لقد لقينا رجالاً بيضاً على خيل بُلُق بين السماء والأرض ، والله ما تُلَيِّقُ^(١) شيئاً ولا يقوم لها شيء ، قال أبو رافع قلت تلك والله الملائكة ، فرفع أبو لهب يده فضرب بها وجهى ضربةً شديدةً ، وثاورته فاحتملنى فضرب بى الأرض ، ثم برك علىّ يضربنى ، فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد

(١) أى ما تبقى شيئاً .

الحجرة ، فأخذته فضربته به ضربة شقت رأسه وقالت أستضعفته أن غاب عنه سيده ، فقام موليا ذليلا ، فوالله ما عاش بعدها إلا سبع ليال فرماه الله بالعدسة^(١) فقتلته .

هذه واحدة من صدى الهزيمة .. .

وأخرى : وهى أن قريشًا لما فوجئت بالكارثة الشديدة ناحت نساؤها نوحًا شديدًا ، ثم رأوا أن النبي ﷺ وأصحابه إذا علموا ذلك شتموا بهم ، فصدر أمر بمنع النياحة ، وعدم المطالبة بمفاداة الأسرى خشية أن يغالى محمد وأصحابه فى ثمن الفداء .

ومن غريب ما حصل أن الأسود بن المطلب قد أصيب له ثلاثة من ولده وهم زمعة ، وعقيل ، والحارث فأحب أن يبكى ، وحال دون ذلك قرار المنع الذى صدر عن قريش . فبينما هو كذلك إذ سمع نائحة من الليل تنوح فقال لغلام له : اذهب فانظر هل أحلَّ النَّحْبُ ؟ أى هل بكت قريش على قتلاها ؟ لعل أبكى على أبى حكيمة يعنى ولده زمعة ، فإن جوفى قد احترق ، فذهب الغلام وعاد فقال له : إن الباكية امرأة تبكى على بعير لها أضلته فأنشد هو يقول :

أبكى أن يضل لها بعير	ويمنعها من النوم السُّهود ^(٢)
فلا تبكى على بكرٍ ولكن	على بدر تقاصرت الجودود
على بدر سراة بنى هصيص	ومخزوم ورهط أبى الوليد

من أصداء المعركة وآثارها :

إن لمعركة بدر أصداء وآثارًا إنا وإن كنا قد عايشنا المعركة ورأينا أحداثها

(١) قرحة قاتلة كالطاعون ، والعياذ بالله تعالى .

(٢) الأرق وعدم النوم فهو بمعنى السُّهاد .

داخل الساحة وخارجها إلا أن لهذه المعركة التاريخية الفاصلة أصداء وآثاراً ذات مدى قريب أو بعيد ، فحسن رؤية ذلك ، ومشاهدته . وإزاء النقاط السود نذكر ما يمكن ذكره من ذلك :

● فداء أبى وداعة :

لقد أُسرَ أبو وداعة السهمي فيمن أسر في المعركة ، فلما رآه النبي ﷺ أو سمع به أنه ضمن الأسرى قال فداه أبى وأمى : إن له بمكة ابناً كيسيّاً تاجرّاً ذا مال وكأنكم به وقد جاءكم في طلب فداء أبيه . ولما قالت قريش لا تعجلوا بفداء أسرائكم لا يَأْرَبُ^(١) عليكم محمد وأصحابه ، قال المطلب بن أبى وداعة صدقتم لا تعجلوا وانسلّ هو ليلاً فقدم المدينة ففدى والده بأربعة آلاف درهم ، وهكذا يفعل الأكياس البررة بأبائهم ، وصدق رسول الله ﷺ فيما أخبر به وكانت آية نبوة .

● سهيل بن عمرو :

قدم مكرز بن حفص المدينة في فداء سهيل بن عمرو ، وكان قد أسره مالك بن الدُخْشَم أخو بنى سالم بن عوف الأنصاري ، فلما خاطبهم مكرز في فداء سهيل بن عمر قالوا له : هات الذى لنا يريدون من المال مقابل فداء سهيل . فقال لهم مكرز اجعلوا رجلى مكان رجله ، وخلّوا سبيله حتى يبعث إليكم بفدائه ، فخلّوا سبيل سهيل وحبسوا مكرزاً مكانه ، وكان سهيل رجلاً أعلم أى مشقوق الشفة العليا ، وكان خطيباً ، فقال عمر رضى الله عنه يا رسول الله دعنى أنزع ثِنْتَيْ سهيل بن عمرو فلا يقدم عليك خطيباً أبداً ، فقال رسول الله ﷺ : « لا أمثلُ به فيمثل الله بى وإن كنتُ نبياً ، وإنه عسى أن يقوم مقاماً لا تدمه عليه » .

(١) أى لا يقوى عليكم مستعيناً بأموال الفداء .

● أبو العاص بن الربيع :

أبو العاص بن الربيع هو ختن النبي ﷺ إذ هو زوج زينب بنت رسول الله ﷺ زوجه إياها قبل البعثة النبوية برغبة من والدتها خديجة رضي الله عنهم أجمعين وألحقني بهم آمين .

ولما بُعث النبي ﷺ آمنت خديجة وكذا بناتها ومنهنّ زينب ، وبقي أبو العاص على شركه ، وخرج مع المشركين إلى بدر ، فوقع في الأسر ، فبعثت زينب في فدائه بمال ، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى بها ، فلما رآها رسول الله ﷺ رَقَّ لها رِقَّة شديدة وقال : « إن رأيتم أن تُطلقوها لها أسيرها ، وتردوا عليها ما لها فافعلوا » ، فقالوا : نعم يا رسول الله وأطلقوه وردوا عليها الذي لها ، وتجلت في هذه آيات الحب الصادق والطاعة الإيمانية ، والبشرية المحمدية الطاهرة الرفيعة .

● هجرة زينب رضي الله عنها :

لما منّ النبي ﷺ على أبي العاص بالفداء بدون مقابل كأنه التزم للنبي ﷺ أن يَحْلِيَ سبيل زينب لتلتحق بأبيها ﷺ بالمدينة النبوية . ومن هنا لما وصل أبو العاص بن الربيع إلى مكة بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلا من الأنصار إلى مكة ليأتيا بزينب وقال لهما كونا ببطن يأجج^(١) حتى تمر بكما زينب فتصحبها حتى تأتيا بها فخرجا مكانهما وذلك بعد بدر بشهر تقريبا فلما قدم أبو العاص أمرها بالحق بأبيها . وبينما زينب تتجهز للسفر لقيتها هند بنت عتبة فقالت لها يا بنت محمد ألم يبلغني أنك تريدين اللّحوق بأبيك ؟ فخافتها زينب فقالت لها : ما أردت ذلك ، فقالت لها أى ابنة عمى لا تفعل ، إن كانت لك حاجة بمتاع مما يرفق بك في سفرك ، أو بمال تبغين

(١) موضع على ثمانية أميال من مكة .

به إلى أبيك ، فإن عندى حاجتك ، فلا تستحيى منى فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال . قالت زينب : والله ما أراها قالت ذلك إلا تفعل ، ولكن خفتها فأنكرت أن أكون أريد ذلك .

ولما فرغت زينب من جهازها قدم لها حموها^(١) كنانة بن الربيع بعيراً فركبته وأخذ هو قوسه وكنانته ، ثم خرج بها نهاراً يقود بها وهى فى هودج لها على البعير ، وسمع بذلك رجال من قريش فلحقوا بها فأدركوها بذى طوى ، فكان أول من سبق إليها فروّعها هبار بن الأسود بن المطلب بن أسد إذ أشار إليها بالرمح فخافت فطرحته ما فى بطنها ، وبرك على الأرض حموها ونثر كنانته ثم قال لهم والله لا يدنو منى رجل إلا وضعت فيه سهمى فتراجعوا عنه وانصرفوا ثم تقدم نحوه أبو سفيان مفاوضاً له فقال له : إنك لم تصب خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا ، وما دخل علينا من محمد فيظن الناس إذا خرجت بابنته إليه علانية على رؤوس الناس من بين أظهرنا أن ذلك عن ذل أصابنا عن مصيبتنا التى كانت ، وإن ذلك منا ضعف ووهن ، ولعمري ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة ، وما لنا فى ذلك من ثورة^(٢) . ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحديث الناس أن قد رددناها فسئلها سرّاً وألحقها بأبيها ، قال ففعل فأقامت ليالى حتى هدأت الأصوات خرج بها ليلاً حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه فقدمها بها على رسول الله ﷺ ، وكان فى قصة هجرة زينب عبرة لأولى الألباب .

● إسلام أبى العاص وكيف كان :

قبيل فتح مكة خرج أبو العاص بن الربيع بعل زينب بنت رسول الله ﷺ

(١) أخو زوجها .

(٢) أى طلب ثأر .

المهاجرة إلى أبيها بالمدينة خرج تاجرًا إلى الشام ، وكان رجلاً مأمونًا يأخذ أموال أرباب الأموال ويتجر فيها ، وعند رجوعه من الشام اعترضته سرية من سرايا رسول الله ﷺ فأخذوا ما معه من أموال وهرب فأعجزهم ، ووصل المدينة ليلاً مختفياً فدخل على زينب فاستجار بها فأجارته ، وقد جاء في طلب ماله فلما خرج رسول الله ﷺ لصلاة الصبح ، وكبر فيها وكبر الناس معه صرخت زينب من صفّة النساء : أيها الناس إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع فلما سلم رسول الله ﷺ من الصلاة أقبل على الناس فقال : « أيها الناس هل سمعتم ما سمعت ؟ » قالوا : نعم ، قال : « أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم ، إنه يحير على المسلمين أديانهم » . ثم انصرف رسول الله ﷺ فدخل على ابنته فقال : « أي بُنية أكرمي مثواه ، ولا يخلص إليك فإنك لا تحلين له »^(١) .

ثم بعث رسول الله ﷺ إلى أفراد السرية فقال لهم : « إن هذا الرجل منّا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له مالاً ، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذي له فإننا نحب ذلك ، وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم ، وأنتم أحق به » فما كان منهم إلا ردوا عليه كل ماله حتى أن الرجل يأتي بالشنّة والآخِر يأتي بالشظاظ^(٢) ، حتى ردوا عليه ماله بأسره فاحتمله إلى مكة وردّه إلى أهله ، ثم قال يا معشر قريش هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه ، قالوا : لا ، فجزاك الله خيراً فقد وجدناك وفياً كريماً ، قال : فأنا أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، والله ما منعني من الإسلام عنده إلا تخوف أني إنما أردت أكل أموالكم فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت ، ثم خرج حتى قدم على رسول الله ﷺ فرد عليه زينب بعد فترة

(١) أي بوطء وجماع .

(٢) خشبة صغيرة عققاء تدخل في عروق الجوالق .

فرّق الإسلام فيها بينهما وذلك لتقدم إسلامها وتأخر إسلامه .

● مثل رائع يضربه أبو العاص :

إنه لما قدم أبو العاص من الشام ومعه أموال التجارة واعترضته السرّية قال له رجالها : هل لك أن تسلم وتأخذ هذه الأموال فإنها أموال المشركين ؟ فقال : بئس ما أبدأ به إسلامي أن أخون أمانتي ، فرفض المقترح ، وكان الذي كان .. ووصل مكة وأدى أموال الناس وهي أمانات في ذمته ، ثم أعلن إسلامه ، فكان هذا مثلاً رائعاً في الوفاء يضربه ختن^(١) الحبيب محمد ﷺ أبو العاص بن الربيع فرضى الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنة مأواً ومأواه آمين .

● إسلام شيطان :

كان بمكة رجل يدعى عمير بن وهب يمثل الشيطان في كيدته وخبثه آذى المؤمنين في مكة أذى كبيراً وكثيراً . وُصف بأنه شيطان من شياطين قريش ، جلس يوماً يتحدث مع صفوان بن أمية بعد مصاب أهل بدر ، فذكر أصحاب القلب فقال صفوان ، والله ما في العيش بعدهم خير ، فقال عمير صدقت والله ، ثم قال : أما والله لولا دَيْنٌ عليّ ليس له عندى قضاء ، عيالٌ أخشى عليهم الضيعة بعدى لركبت إلى محمد حتى أقتله ؛ فإن لى قبلهم علةٌ : ابني وهيب أسير في أيديهم . فاغتنمها صفوان ، وقال : عليّ دينك أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالى أو أسيرهم ما بقوا لا يسعنى شيء ويعجز عنهم . فقال له عمير: فاكنم شأنى وشأنك ، قال صفوان : أفعل .

فأمر عمير بسيفه فشحذ له وسّم^(٢) ثم انطلق حتى أتى المدينة . فبينما عمر

(١) الختن الصهر .

(٢) يقال : سّم السلاح سقاه السّم بطريقة معروفة عندهم .

ابن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر ، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد متوشحاً بالسيف ، فقال هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ، والله ما جاء إلا لشر ، ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ ، فقال يا نبي الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه . فقال رسول الله ﷺ : « ادخله علي » فأخذ عمر بحمالة سيفه في عنقه ولبيبه بها ، وقال لرجال من الأنصار ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث فإنه غير مأمون ، ثم دخل به على رسول الله ﷺ ، فلما رآه رسول الله ﷺ وعمر أخذ بحمالة سيفه في عنقه قال : « أرسله يا عمر ، اذن يا عمير » فدنا وقال : انعموا صباحاً ، وكانت هذه تحية أهل الجاهلية . فقال رسول الله ﷺ : « قد أكرمنا بتحية خير من تحيتك يا عمير : بالسلام تحية أهل الجنة » فقال عمير : أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد . قال : « فما جاء بك يا عمير ؟ » قال جئت لهذا الأسير الذي بين أيديكم — يعني ولده وهيباً — فأحسنوا به قال الحبيب محمد ﷺ : « فما بال السيف في عنقك ؟ » قال : قبحها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئاً ؟ قال : « اصْدُقْنِي الذي جئت له ؟ » قال : ما جئت إلا لذلك قال النبي ﷺ : « بل قعدت مع صفوان بن أمية في الحجر فذكرتما أصحاب القليب من قُريش ثم قلت لولا دين علي ، وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً فتحمل لك صفوان دينك وعيالك علي أن تقتلني له ، والله حائل بينك وبين ذلك » . قال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنّا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء ، وما ينزل عليك من الوحي ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان ، فوالله إني لأعلم أنه ما أتاك به إلا الله . فالحمد لله الذي هداني للإسلام ، وساقني هذا المساق ، ثم شهد شهادة الحق . فقال رسول الله ﷺ : « فقهاوا أحكام في دينه وأقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيره » ففعلوا وعاد عمير إلى مكة وقام بالدعوة إلى الإسلام بنفس القوة

التي كان يدعو بها ضد الإسلام وأوذى كثيرًا في ذلك ، وقد دخل بدعوته في الإسلام خلق كثير .

وهكذا بعد ما كان عمير بن وهب شيطانًا أسلم فأصبح داعية إسلامية وهدى الله على يديه خلقًا كثيرًا .

وهنا تتجلى آية النبوة المحمدية والحقيقة الإيمانية وهي أن من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .

شرف أهل بدر :

أهل بدر هم المؤمنون الذين خرجوا من المدينة مع النبي ﷺ لاعتراض عير قريش القادمة من الشام . ثم لما نجت العير تصدّوا لقتال كفار قريش في وادي بدر ، وكانوا ثلثمائة وأربعة عشر رجلاً على عدة قوم طالت هؤلاء هم أهل بدر الفائزون بأكبر فضل ، وأعظم شرف تدل لذلك الأخبار النبوية الآتية :

(١) قوله ﷺ لأم حارثة الشهيد الأنصاري ، وقد سألته قائلة يا رسول الله قد عرفت منزلة حارثة مني فإن يك في الجنة أصبر وأحتسب وإن تكن الأخرى ، فَلْيَرِّينِ اللَّهَ مَا أَصْنَعُ — تعني من البكاء والنوح — فقال رسول الله ﷺ : « ويحك أوهبت أوجنة واحدة إنها جنان كثيرة وإنه في جنة الفردوس » .

فهذا الخبر وإن كان في شهداء بدر فإنه دال على فضل أهل بدر من استشهد منهم ومن لم يستشهد .

(٢) قوله ﷺ : « لن يدخل النار رجل شهد بدرًا أو الحديبية » رواه أحمد على شرط مسلم فهذا الحديث صريح في بيان فضل أهل بدر والحديبية .

(٣) روى البخاري أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال له ما تعدون أهل بدر

فيكم ؟ قال : « من أفضل المسلمين » أو كلمة نحوها قال أى جبريل وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة .

(٤) رواية الشيخين فى حاطب بن أبى بلتعة وقد كتب كتابا إلى أهل مكة قبيل تحرك الجيش الإسلامى لفتح مكة ، فقال عمر ائذن لى يا رسول الله أضرب عنقه فقال له النبى ﷺ : « قد شهد بدرًا ، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة ، أو قد غفرت لكم » فدمعت عينا عمر رضى الله عنه وقال : الله ورسوله أعلم .

هذا بيان شرف أهل بدر وفضلهم ، ولا يسعنا نحن إلا أن نترض عنهم ونسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم بفضل منه ورحمة إنه برّ رحيم وجواد كريم .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نجملها فى الآتى :

(١) العمل بمشروعية : جزاء السيئة سيئة مثلها ؛ إذ قرىش طردت المؤمنين وصادرت أموالهم . فاعتراض غيرها لأخذ ما معها من أموال كان عدلاً لا ظلم فيه .

(٢) الأخذ بمبدأ الدفاع عن النفس عملاً بقول الله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ .

(٣) لا إثم ولا عقاب على ترك المندوب من الأقوال والأعمال ؛ إذ لم يعتب على الذين لم يخرجوا إلى غزوة بدر لكون الطلب كان ندباً لا وجوباً .

(٤) مشروعية الشورى وإنها من الواجبات الضرورية فى كل ما يهم أمر المسلمين ؛ لاستشارة رسول الله ﷺ أصحابه فى أمر قتال المشركين فى بدر .

(٥) وجوب مراعاة العهود والمواثيق والالتزام بها تجلّى هذا فى طلب النبى ﷺ بيان موقف الأنصارى من القتال معه فيما لو حدث قتال بعد نجاة العير .

(٦) بيان فضل أنى بكر وعمر والمقداد بن عمرو وسعد بن معاذ ، تحلى ذلك فى كلماتهم التى قالوها للرسول ﷺ عند طلبه المشورة من أفراد أصحابه حيث قرت بذلك عينا النبى ﷺ .

(٧) بيان أن من ضروريات الحرب بث العيون للتعرف على تحركات العدو ، وعلى أماكن وتقدير قواته وحزر قوته ، ومعرفة مدى تقدر عليه .

(٨) مشروعية استعمال الرموز والمعارىض والتورية فى الكلام فى حالة الحرب والتعمية على العدو ، وقطع الطرق عليه ، والحيلولة بينه وبين المرافق التى قد ينتفع فى شأن غاراته ، والزحف بقواته .

(٩) مشروعية الضرب الخفيف الذى لا يكسر عضواً ولا يشين جارحة من أجل استنطاق أفراد العدو للحاجة إلى ذلك ، وحرمة التنكيل وشدة التعذيب .

(١٠) ضرورة استعمال الرأى والمكيدة فى الحرب .

(١١) آية انقلاب العصا سيفاً صارماً فى يد عكاشة بن محصن قاتل به طوال حياته من أعظم آيات النبوة المحمدية .

(١٢) آية حفنة الحصا التى رمى بها النبى ﷺ فأصابته جيشاً بكامله فخبّلته ، وأصابته بالتمزق والهزيمة من آيات النبوة المحمدية .

(١٣) تقرير مبدأ : لا موالاة بين الكافر والمؤمن ؛ إذ قاتل الرجل ولده وقاتل أباه وقاتل ابن عمه فى معركة بدر .

(١٤) قتال الملائكة فى معركة بدر ورؤية بعضهم وظهور آثارهم آية النبوة المحمدية .

(١٥) خذلان الشيطان إخوانه من المشركين إذ فر هارباً لما رأى الملائكة فى ساحة المعركة بعد أن أجارهم ودخل المعركة معهم .

(١٦) بيان هلاك المستهزئين مصداقا لقول الله تعالى لرسوله وهو في مكة : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ إذ هلك بالمعركة جلهم كأبي جهل وعتبة وأمية والوليد وعقبة بن أبي معيط .

(١٧) وجوب رد الخلاف إلى الله والرسول في كل ما يشجر بين المسلم والمسلم ، إذ الخلاف الذى تم في شأن الغنائم رد إلى الله والرسول وقضى الله تعالى فيه بما هو العدل و الخير .

(١٨) مشروعية فداء الأسرى أو قتلهم أو المن عليهم إذ رد هذا إلى الإمام يحكم بما فيه خير للإسلام والمسلمين .

(١٩) موافقة عمر رضى الله عنه ربه في أسرى بدر ، إذ كان قتلهم أولى من فدائهم .

(٢٠) تجلّى الرحمة المحمدية في وصيته ﷺ بالأسرى خيرا وبيان مدى طاعة أصحابه له ﷺ .

(٢١) تقرير مبدأ الجوار في الإسلام وأن المسلمين يجير عليهم أديانهم والمرأة في الجوار كالرجل سواء .

(٢٢) بيان ما كان عليه العرب في الجاهلية من بعض الكمالات كالأمانة والنجدة والعفة .

(٢٣) آية النبوة المحمدية في إخباره ﷺ عمير بما قاله في الحجر مع صفوان وليس معهما أحد إلا الله .

(٢٤) بيان تاريخ غزوة بدر وأنها في رمضان من السنة الثانية من الهجرة .

أهم ما وقع من أحداث فى السنة الثانية من هجرة الحبيب محمد ﷺ

لقد تمت أحداث فى السنة الثانية كالسنة الأولى من الهجرة تسجيلها مهم فى الناحية التاريخية لا سيما فى قضايا النسخ التى يتوقف الحكم بها على معرفة تاريخ وقوعها .

وهذه أهم الأحداث التى وقعت فى هذه السنة الهجرية المباركة :

● وفاة عثمان بن مظعون أخى النبى ﷺ من الرضاع ، وقد دفن بالبيع ووضع النبى ﷺ حجرًا على قبره وقال : « أعلم به قبر أخى » ، وكانت وفاته فى ذى الحجة .

● تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة الشريفة .

● فرض صيام رمضان ونسخ صيام عاشوراء ، فنسخ وجوب صيام عاشوراء وبقي استحبابه ثابتا بالسنة النبوية الصحيحة ، وإن صيامه يكفر ذنوب سنة ماضية .

● مشروعية صلاة العيد ، وزكاة الفطر وأنها من سنن الإسلام الواجبة .

● فريضة الزكاة وبيان أنصبتها وشروطها .

● بيان المعاقل وجعلها فى كتاب معلقا بقراب سيف النبى ﷺ .

● وفاة رقية بنت رسول الله ﷺ .

● زواج عثمان بن عفان الخليفة الراشد بأُم كلثوم بنت رسول الله ﷺ بعد وفاة أختها رقية رضى الله عنهما وأرضاهما .

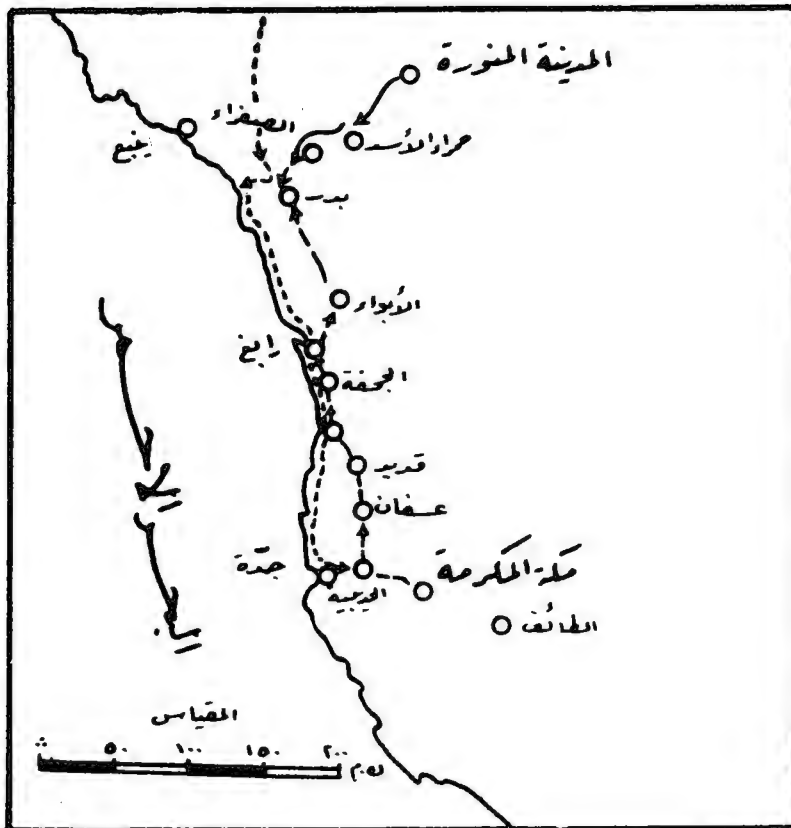
● وصول زينب بنت رسول الله ﷺ مهاجرة من مكة إلى المدينة النبوية .

● إسلام ابن أوى العاص بن الربيع رضى الله عنه ورد الرسول ﷺ عليه زوجته زينب رضى الله عنها .

● تزوج على رضى الله عنه بفاطمة بنت رسول الله ﷺ .

● أول صلاة عيد وأضحيتة كانت فى هذه السنة إذ صلى بهم الرسول ﷺ وضحى وضحى أصحابه عن أهل اليسار معه .

● آية نبوة الحبيب محمد ﷺ ؛ إذ قال : « ألا أخبركم بأشقى الناس رجلين ؟ » قالوا بلى يا رسول الله قال : « أحيمر ثمود عاقر الناقة ، والذي يضربك يا علىّ على هذه ووضع يده على رأسه حتى تبطل هذه » ووضع يده على لحيته . وكان الأمر كما أخبر إذ ضرب علىّأ أحد الخوارج على رأسه فقتله .



- سير المسلمين إلى بدر
 - - - - - → سير قريش إلى بدر
 - - - - - → قافلة أبي سفيان

بيان موقع بدر ، بين مكة والمدينة ، وبيان مسار قافلة أبي سفيان التي أسهل بها أخذًا في الساحل بين ينبع ورابع حتى نجا بها من استيلاء المسلمين عليها ، بتدبير من الله عز وجل .

وسابعتها/:

غزوة بنى قينقاع

بنو قينقاع هم إحدى طوائف اليهود الثلاث الذين كانوا نزلوا المدينة النبوية قبل الإسلام بزمان طويل فراراً من اضطهاد الروم لهم وانتظاراً للنبوة المحمدية المبشر بها في التوراة والإنجيل ، ولما حل النبي ﷺ بالمدينة مهاجرًا السنة الماضية أى الأولى من الهجرة عاهدتهم معاهدة سلم وحسن جوار وقد تقدمت وثيقتها تحمل نصوص موادها .

وقد نافق كثير من أبحارهم ووالوا المشركين في الخفاء ، وكانوا يتربصون بالنبي ﷺ وأصحابه الدوائر . ولما خرج ﷺ إلى بدر فرحوا ظناً منهم أن المسلمين سيهزمون ، وتحضد شوكتهم ، ويأفل نجم قوتهم . ولما كان النصر للمسلمين والهزيمة للمشركين شرقوا بريقهم ، وكشروا عن أنيابهم ، وقالوا قالة السوء .

فما كان من الحبيب محمد ﷺ إلا أن جمعهم في سوق بنى قينقاع ، وقال لهم في جملة ما قال : « احذروا ما نزل بقريش وأسلموا فإنكم قد عرفتم أنتى نبى مُرسلٌ » فقالوا — في وقاحة — يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربتنا لتعلمن أننا نحن الناس ، ونزل ردًا على مقاتلتهم وتهديدهم من سورة آل عمران قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ۚ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِّثْلِهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ فأمر تعالى رسوله أن يخبرهم بهزيمتهم الآتية لا محالة ، وقد كانت ، وأن مردهم إلى جهنم ، وذكرهم بهزيمة المشركين أوليائهم على كثرتهم وشدة قوتهم .

ومضت أيام قلائل وجاءت امرأة مسلمة بجلب لها فباعته بالسوق ، ومالت إلى صائغ يهودى لتشتري منه مصاعاً فجلست وحوله يهود فعاثوا عليها لستر وجهها ، وطالبوها بكشف وجهها ، فأبت ذلك حفاظاً على عفتها ، وصيانة لشرفها ، من أن تبذل وجهها ينظر إليها غير محارمها . فما كان من أحد أولئك اليهود عليهم لعائن الله إلا أن عاقلها وربط طرف درعها من أسفله بطرف خمارها ، فلما قامت انكشفت عورتها فصاحت واكشفتها . فسمعها رجل مسلم فهب إليها فرأى ما بها فضرب اليهودى ضربة قتله بها . وقام يهود فاشتدوا على المسلم فقتلوه فمات شهيداً رضى الله عنه وأرضاه وهب رجال من المسلمين للحادث فاقتتلوا مع اليهود ، وبهذا نقض يهود بنى قينقاع عهدهم ، وطرحوا معاهدتهم فنزلوا حصونهم فتحصنوا بها فغزاهم رسول الله ﷺ ، وحاصرهم نصف شهر حتى نزلوا من حصونهم على حكمه ﷺ ، فكتفوا أى ربطوا بحبال فى أيديهم وأرجلهم لقتلهم بموجب بنود المعاهدة المعقودة بينهم وبين رسول الله ﷺ . وقبل تنفيذ الحكم فيهم توسط فى خلاصهم والعفو عنهم حليفهم عبد الله بن أبى كبير المنافقين فأقن الرسول ﷺ وكلمه فيهم ، وقال إنهم موالى فغضب الرسول ﷺ وانتهر ابن أبى ، وقال له : « ويحك أرسلنى » إذ قد أخذ المنافق بردائه ﷺ والرسول معرض عنه غضبان ، فقال المنافق لا أرسلك حتى تحسن إلى موالى ، وهم أربعمائة حاسر أى بدون دروع ، وثلاثمائة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود تحصدهم فى غداة واحدة ، وإنى والله لأخشى الدوائر فقال النبى ﷺ : « هم لك خلوهم » لعنهم الله ولعنه معهم . وأنزل الله تعالى فيه لعنه الله قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِّمَّكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نحشى أن نصيبنا دائرة فعسى الله أن ياتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين .

وجاء عبادة بن الصامت وكان مرتبطاً بحلف مع يهود بنى قينقاع فقال
يا رسول الله أتولى الله ورسوله والمؤمنين ، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار
وولايتهم فكان معنياً بقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ
آمَنُوا ﴾ وبقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ
اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ .

ولما أطلقهم رسول الله ﷺ بشفاعة ابن أبي خرج بهم عبادة بن الصامت
إلى أن وصل بهم ذبَاباً^(١) ، ثم ساروا وحدهم إلى أذرعات من الشام ، ولم
يلبثوا إلا قليلا حتى هلكوا .

ولما خرج رسول الله ﷺ لغزوهم في حصونهم ولَّى على المدينة أبا لبابة
الأنصاري وأعطى لواءه حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه .

ولما أجلى بنو قينقاع قسَم رسول الله ﷺ أموالهم بين أصحابه وأخذ خمس
الغنيمة لينفقه فيما أمر الله تعالى أن ينفقه فيه حيث نزلت سورة الأنفال وفيها
قول الله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ
وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ الآية ..

وأخيراً هل كانت هذه الغزوة في صفر أو في شوال ؟ الراجح أنها كانت
في شوال عقيب غزوة بدر مباشرة فهي من أحداث السنة الثانية لا من الثالثة .

نتائج وعبر :

- إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نذكرها فيما يلي :
- (١) تسجيل خيانة اليهود وغدرهم وانعدام وفائهم بأى التزام يدعونه .
 - (٢) تقرير : أن الحجاب هو ستر وجه المرأة عن الرجال الأجانب .

(١) اسم موضع معروف به جبل يقال له ذباب وهو قرب المدينة النبوية ويضم الذال منه ويكسر .

(٣) بيان فضل المؤمن الذى غضب الله فقتل اليهودى الساخر من المؤمنة فقتل شهيداً رضى الله عنه .

(٤) تسجيل الكرم المحمدى فى أعظم صورة وأعلى مثال ، وذلك بين ظاهر فى قبوله شفاعته ابن أبى وعفوه عن الخائنين العُدر عليهم لعائن الله .

(٥) فضيلة عبادة بن الصامت الذى تبرأ من اليهود وأعلن ولاءه لله ولرسوله وللمؤمنين .

(٦) نزول آية آل عمران فى الرد على تبجح اليهود وتهديدهم للرسول ﷺ والمؤمنين .

(٧) نزول آية المائدة فى الرد والتنديد بابن أبى عليه لعائن الله لنفاقه وكفره .

وثامتها :

غزوة الكُدر

بعد عودة الحبيب محمد ﷺ من غزوة بدر وإجلاء بنى قينقاع من اليهود لغدرهم وخيانتهم بلغه أن بنى سُليم قد تجمعوا لحرب رسول الله ﷺ على ماءٍ لهم يقال « الكُدر » فسار إليهم ﷺ بعد أن استخلف على المدينة ابن أم مكتوم رضى الله عنه . وكان لواؤه عليه الصلاة والسلام مع على بن أبى طالب رضى الله عنه فواصل سيره طالباً جموع بنى سُليم التى تجمعت لحربه ﷺ حتى بلغ ماءهم « الكُدر » فلم يجد عنده أحداً ، وإنما وجد نَعَمًا ورعاء فساق ذلك وعاد به إلى المدينة النبوية ، ولم يَلَقْ بالكُدر كيِّداً . والحمد لله وبعد أيام أرسل ﷺ غالب بن عبد الله اللَّيثى فى سريةٍ إلى بنى سُليم وغطفان فقتلوا فيهم وغنموا النعم واستشهد من المسلمين ثلاثة نفر رحمهم الله تعالى ورضى عنهم .

نتائج وعبر :

إن هذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نجم لها فى الآتى :

- (١) تقرير مبدأ محاربة من يحارب ومسالمة من يسالم .
- (٢) مشروعية الاستخلاف عند غيبة الحاكم العام .
- (٣) حلية الغنائم وهى من خصائص هذه الأمة .

وتاسعتها :

غزوة السويق

إنه بعد هزيمة قريش في معركة بدر وما أصاب رجالها من قتل وأسْرٍ إلى^(١) أبو سفيان بن حرب أن لا يمَسَّ رأسه ماء من جنابة أى أن لا يَطَأَ نساءه حتى يغزو محمدًا ﷺ ويشفى صدره بقتل أصحابه أو أسرهم ، ولما لم يجد طريقا إلى ذلك وطالت به مدة حلفه أراد أن يتحلل من يمينه فانتدب مائتي راكب من قريش وخرج يقودهم إلى المدينة لغزوها فوصلها ليلاً فترك رجاله خارجها وأتى حُيَّ بن أخطب النضري اليهودى فقرع عليه الباب فلم يفتح له تَخَوُّفاً منه فأتى سَلَام بن مشكم وهو سيد بنى النضير وصاحب خزانة أموالهم فاستأذنه فأذن له ودخل وأطعمه وسقاه وبطن له من خبر الناس أى أطلععه على ما يجرى في المدينة من أمور هامة ، ثم خرج من عنده ليلاً فأتى رجاله فأمر عدداً أن يدخلوا المدينة وأن يحرقوا بعض نخيلها ، فأتوا ناحية العريض شرق المدينة وحرقوا أصواراً من النخل أى مجموعات من النخل ، ووجدوا فلاحاً وحليفاً له فقتلوهما ، وانصرفوا راجعين إلى مكة ، وما إن وصل الخبر إلى النبی ﷺ حتى خرج في أصحابه طالباً لأبى سفيان ورجالهم فقاتلهم هاربين ، وكان معهم سويق هو زادهم في غزوتهم فألقوه في الأرض ليتخففوا منه وهم هاربون فوجده النبی ﷺ وأصحابه فأخذوه ، وبذلك سميت هذه الغزوة بغزوة السويق ، ورجع رسول الله ﷺ والمؤمنون معه ولم يلقوا كيِّداً ،

(١) حلف .

فسأل بعضهم رسول الله ﷺ أتطمع أن تكون لنا هذه الغزوة ؟ قال ﷺ : « نعم » . ولأبى سفيان أبيات شعرية قالها وهو يتزود لغزو المدينة يحسن ذكرها لأنها سجلت مجمل أحداث هذه الغارة على المدينة النبوية إذ قال فيها :

كُروا على يثرب^(١) وجمعهم فإن ما جمّعوا لكم نفل
إن يك يوم القلب كان لهم فإن ما بعده كان لكم ذوّل
ليت^(٢) لا أقرب النساء ولا يمس رأسي وجلدى الغسل
حتى ثيروا^(٣) قبائل الأوس والـ خزرج إن الفؤاد يشتعل

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نجلها فيما يلي :

- (١) بيان أن المشركين من العرب كانوا يغتسلون من الجنابة وهى مكرمة فيهم من بقايا دين إسماعيل وإبراهيم ، ومن ذلك الختان فقد كانوا يختنون .
- (٢) بيان أن مشركى العرب كانوا يؤمنون بالله ويحلفون ويبرون أيمانهم .
- (٣) بيان أن الخروج للجهاد بنيتة يحصل به الأجر ولو لم يقاتل .

(١) المدينة النبوية .

(٢) حلفت .

(٣) تهلکوا وتبیدوا .

أحداث

السنة الثالثة من هجرة

الحبيب محمد ﷺ

أولى غزوات السنة الثالثة :

غزوة ذي أمر

ودخلت السنة الثالثة بعد انقضاء الثانية بما فيها من أحداث جسام وأمور عظام ، وها هي ذي السنة الثالثة تفتتح بغزوة ذي أمر .

وذلك أن النبي ﷺ بلغه أن جمعًا من غطفان من بنى ثعلبة بن محارب قد تجمعوا عند ماء يقال له « ذو أمر » من أرض نجد ليحاربوه ﷺ فसार إليهم في أربعمائة وخمسين رجلا ، وكان ذلك يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول من سنة ثلاث من الهجرة . واستخلف ﷺ على المدينة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وسار حتى بلغ ماء « أمر » فعسكر حوله ، وقد هرب الأعراب الذين تجمعوا لحربه ﷺ ، والتحقوا برؤوس الجبال وكان قد نزل عليهم مطر غزيرٌ بل الثياب ، حتى إن النبي ﷺ لما ابتلت ثيابه الطاهرة جلس تحت شجرة ، ونشر ثيابه لتيس من البلل ، فرآه المشركون المعتصمون برؤوس الجبال خاليًا وحده ، فنزل رجل منهم يقال له غورث ، أو دُعْثور بن الحارث نزل بإيعاز من إخوانه المشركين ، وكان أشجعهم وأقدرهم على القتال ، ومشى حتى وقف على رسول الله ﷺ ، وقد سلّ سيفه وقال : يا محمد من يمنعك اليوم مني ؟ وهم بضرب رسول الله ﷺ : فقال له النبي ﷺ : « الله » . فوقع السيف من يده فأخذه رسول الله ﷺ وقال لدعْثور : « من يمنعك مني ؟ » فقال : لا أحد ، وأنا أشهد أنه لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، ووالله لا أكثير عليك جمعًا أبدًا ، فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه فرجع إلى قومه ، فقالوا له : ويلك مالك ؟

فقال لهم : نظرت إلى رجل طويل فدفع في صدري فوقعت لظهري ، فعرفت أنه ملك ، وشهدت أن محمداً رسول الله ، ووالله لا أكثر عليه جمعاً وجعل يدعو قومه إلى الإسلام ، ونزل في هذه الحادثة وفي نظائرها قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ^(١) من سورة المائدة .

وعاد ﷺ مع أصحابه ولم يلقوا — والحمد لله — كيذاً .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها فيما يأتي :

- (١) مشروعية محاربة من يحارب ومسالمة من يسالم .
- (٢) مشروعية الخروج إلى العدو وتتبعه إرهاباً له .
- (٣) ظهور آية من آيات النبوة المحمدية ، وذلك بسقوط السيف من يد دعثور ، وإعلان إسلامه ، وتعهد به بأن لا يكثر جمعاً ضد رسول الله ﷺ لما شاهد من آية نبوته ﷺ .
- (٤) تجلّى الرحمة المحمدية في العفو على من أراد قتله بعد التمكن منه .
- (٥) بيان حسن عاقبة العفو بعد القدرة على المؤاخدة .

وثاني الغزوات :

غزوة الفرع

من بَحْران

يَبْحُران « معدن ^(٢) بالحجاز » ناحية الفرع تجمع بنو سُليم لقتال النبي

(١) إن هذه الآية وإن نزلت في حادثة مشابهة في الحديبية فإنه لا مانع من القول بنزولها في هذه الحادثة إذ يقال استشهداً للتوافق بين الحادثتين .

(٢) هو المهد الذي به معدن الذهب اليوم .

ﷺ وعلم ﷺ بتجمعهم لحربه ، فانتدب أصحابه ، وخرج إليهم في ثلثائة رجل بعد أن استخلف على المدينة ابن أم مكتوم رضى الله عنه ، وسار إليهم ، فلما علموا بمسيره إليهم تفرقوا ، وكان هذا مصداق قوله ﷺ : « نصرت بالربع مسيرة شهر » ، فرجع ﷺ مع أصحابه ولم يلقوا — والحمد لله — كيذا وكانت مدة الغياب عن المدينة عشرة أيام .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نذكرها فيما يلي :

- (١) مظاهر العزم والحزم لدى الحبيب محمد ﷺ .
- (٢) آية النبوة المحمدية في انهزام المشركين بمجرد تحركه ﷺ نحوهم .
- (٣) فضيلة ابن أم مكتوم لاستخلاف رسول الله له غير ما مرة إماماً وحاكماً .
- (٤) جواز تولية الأعمى إذا كان ذا أهلية للولاية من الإيمان والعلم والتقوى .

أولى السرايا :

سرية زيد بن حارثة إلى القرد

لما هُزمت قريش في بدر وعرفت أنها غير قادرة على حماية قوافلها التجارية عبر طريق قوافلها القديم ، والذي كان يمر قريباً من المدينة إلى مكة غيرت طريقها الأول ، وصارت تسلك طريق العراق إلى الشام ، وبلغ^(١) ذلك

(١) سبب علم الرسول ﷺ بهذه العير : أن نعيم بن مسعود أتى المدينة وجالس كنانة بن الحقيق وعدداً من اليهود وشربوا وسكروا فأخبر نعيم بالقافلة وهو سكران فوصل الخبر إلى النبي ﷺ .

رسول الله ﷺ كما بلغه أن عيرا لقريش تحمل كميات هائلة من الفضة ، وأنها سلكت طريق العراق انتدب لها سرية من أصحابه بقيادة زيد بن حارثة حبّ الحبيب ﷺ ومولاه ، فسار زيد مع أفراد سرّيته حتى انتهوا إلى ماء يقال له : « القردة »^(١) وعليه عير قريش ، فهرب أهل القافلة وهم أبو سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وآخرون ، وغنم زيد مع رجاله القافلة بما فيها ، وأسروا معها الدليل وهو فرات بن جبان من بنى بكر بن وائل استأجره أبو سفيان ليدلهم على مسالك الطريق الجديد لقوافلهم .

ولما وصل زيد المدينة سلم الغنائم إلى النبي ﷺ ، ومنها الأسير فرات بن حبان الوائلي . وأسلم فرات وحسن إسلامه ، وقسم الرسول ﷺ الغنائم بعد أن خمستها ، فكان الخمس عشرين ألف درهم ..

وقال في هذه الغزوة المظفرة حسان شعراً هذه أبيات منه :

دَعُوا فَلَجَات ^(٢) الشام قد حال دونها	جلاد ^(٣) كأفواه المخاض ^(٤) الأوارك
بأيدي رجال هاجروا نحو ربهم	وأنصاره حقاً وأيدي الملائك
إذا سلكت للغور من بطن عاجل	فقولوا لها ليس الطريق هنالك

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نوجزها فيما يأتي :

(١) بيان مدى أثر هزيمة قريش في بدر حتى أصبحت في رعب وخوف لا نظير لهما .

(١) القردة اختلف في ضبط هذه الكلمة هل هي بالفاء أو بالقاف وهل هي ساكنة الوسط أو متحركة والراجح التسكين .

(٢) جمع فلجة وهي العين الجارية .

(٣) الجلاد الإبل الغزيرة اللبن والغلاظ الأجسام .

(٤) المخاض الإبل الحوامل والأوارك الإبل ترعى شجر الأراك .

(٢) فضيلة زيد بن حارثة لاختياره لهذه السرية المظفرة قائدًا ناجحًا .

(٣) مشروعية تخميس الغنائم وتنفيذ ذلك .

(٤) بيان أن النبي ﷺ كثيرًا ما كان يكلف المهاجرين دون الأنصار في شأن الغزو والحرب خارج المدينة نظرًا إلى بنودبيعة العقبة .

وثاني السرايا :

سرية محمد بن مسلمة لقتل كعب اليهودي

لما انهزمت قريش في بدر ، وجاء البشيران من قبل رسول الله ﷺ زيد ابن حارثة وعبد الله بن رواحة فبشرا بنصر المسلمين وهزيمة المشركين في بدر ، وبلغ ذلك كعب بن الأشرف الطائي الأصل ، اليهودي العقيدة ابن النضرية اليهودية لما بلغه ذلك قال : والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم — يعنى أمية بن خلف ، وأبا جهل ، وعتبة بن ربيعة ، لبطن الأرض خير من ظهرها ، وكشر عن نابه كالكلب العقور وأخذ يسب النبي ﷺ ، ويتشبه^(١) بنساء المسلمين ، ثم ذهب إلى قريش يستعدى رجالها على حرب النبي ﷺ فاستضافوه واجتمعوا عليه ، وهو يسب النبي ﷺ والمسلمين ، وسألوه عن دينهم فقال : إن دينكم خير من دين محمد ﷺ وكذب اللعين وغش . فنزل فيه قرآن من سورة النساء وهو قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ أَوْثُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾ .

ولما عاد إلى المدينة وأوحى الله تعالى إلى رسوله بما قاله كعب وما فعله وما عزم عليه الأمر الذى استوجب قتله بنقضه العهد وتأليبهِ الأعداء على

(١) تشبب بالمرأة إذا ذكر محاسنها ، وما أراده من اللهو بها .

المسلمين ، قال الرسول ﷺ لبعض أصحابه : « من لى بابن الأشرف ؟ » فقال محمد بن مسلمة أخو بنى عبد الأشهل : أنا لك به يا رسول الله ، أنا أقتله ، قال : « فافعل إن قدرت على ذلك » . فقال يا رسول الله إنه لا بد لنا من أن نقول ، قال : « قولوا ما بدا لكم ، فأنتم فى حلٍّ من ذلك » ، فاجتمع على قتله محمد بن مسلمة وسيلكان بن سلامة وهو أخو كعب من الرضاة ، وعبد بن بشر ، والحارث بن أوس ، وأبو عيس بن جبر أحد بنى حارثة ، وساروا نحوه ، ولما كانوا بمقربة من قصره قدموا سيلكان بن سلامة أبا نائلة أمامهم ، فذهب فأتى كعباً فى قصره ، فجلس إليه ساعة ، وتحدث معه ، وتناشدا الشعر ، وكان كل منهما يقول الشعر . ثم قال سيلكان ويحك يا ابن الأشرف إني قد جئت لك حاجة أريد ذكرها لك فاكتم عني ، قال : أفعل ، قال : كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء ، عادتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة ، وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال ، وجهدت الأنفس ، قال كعب : أنا ابن الأشرف ، أما والله لقد كنت أخبرك يا ابن سلامة أن الأمر يصير إلى ما تقول ، قال سيلكان : إني أردت أن تبيعنا طعاماً ، ونرهنك ونوثق لك ، قال كعب أترهوننى أبناءكم ؟ قال سلكان : لقد أردت أن تفضحنا ، إن لى أصحابا على مثل رأيي ، وقد أردت أن آتيك بهم ، فتبيعهم وتحسن فى ذلك ، نرهنك من الحلقة ما فيه وفاء ، وأراد سلكان أن يعمى عليه فلا ينكر السلاح إذا جاءوا به فقال كعب : إن فى الحلقة — السلاح — لوفاء ، ورجع سلكان إلى أصحابه فأخبرهم خبره ، وأمرهم أن يأخذوا السلاح ثم ينطلقوا ، فيجتمعوا إليه ، فاجتمعوا عند رسول الله ﷺ فخرج معهم إلى بقيع الغرقد ، ثم وجههم قائلاً : « اللهم أعنيهم » ثم رجع ﷺ ، ومضوا هم حتى انتهوا إلى حصن كعب ، فهتف به أبو نائلة سلكان فنزل فى ملحقة ، وهو حديث عهد بعرس فأمسكت به امرأته وهو خارج ، فقالت له : إنك امرؤ محارب ، فكيف تنزل فى هذه الساعة ؟ فقال لها : إنه أبو نائلة لو وجدنى نائماً لأيقظنى .

فقلت له : والله إنى لأعرف فى صوته الشرّ ، فلم يلتفت كعب إلى قولها . ونزل وتحدث مع أبى نائلة ساعة ، ثم قال له أبو نائلة هل لك يا ابن الأشرف أن نتماشى إلى شعب^(١) العجوز فتتحدث بقية ليلتنا هذه ؟ قال : إن شئتم فخرجوا يتماشون ، فمشوا ساعة ثم إن أبأ نائلة أدخل يده فى فود^(٢) رأس كعب ثم شم يده ، فقال : ما رأيت كالليلة طيباً أعطر قط ، ثم مشى ساعة ، ثم عاد لمثلها حتى اطمأن كعب ، ثم عاد لمثلها حتى اطمأن كعب ، ثم مشى ساعة ، ثم عاد لمثلها وأخذ بفود رأسه . وقال : اضربوا عدو الله فضرّبوه فاختلفت عليه أسياهم فلم تغن شيئاً قال أبو نائلة وذكرى مغولاً^(٣) فى سيفى حين رأيت أسيافا لا تغنى شيئاً فأخذته فوضعتة فى ثنته^(٤) وقد صاح عدو الله صيحة ما بقى حصن إلا وقد أوقدت عليه ناراً فوقع عدو الله على الأرض هالكاً . فغادرناه صريعاً ، ومضينا ، وكان قد جرح الحارث أصابته سيوفنا فحملناه معه نزيى من جرحه حتى انتهينا إلى المدينة فوجدنا النبى ﷺ فسلمنا عليه فخرج إلينا فأخبرناه بقتل عدو الله ، وتقل على جرح صاحبنا فشفاه الله تعالى فعدنا إلى بيوتنا فأصبحنا ، وأصبح كل يهودى خائفاً على نفسه .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نجملها فى الآتى :

(١) مشروعية الاحتيال على قتل من وجب قتله لغدره وخيائته بتأليب الكفار على المؤمنين .

(١) خارج المدينة .

(٢) الفود : جانب الرأس مما يلى الأذن .

(٣) المغول : السكين يكون فى السوط .

(٤) الثنة : الموقع ما بين السرة والعانة من الإنسان .

(٢) جواز استعمال المعاريض والتوريات للتوصل إلى إحقاق حق ، وإبطال باطل .

(٣) آية نبوة الحبيب محمد ﷺ إذ شفا الله الجريح ذا النريف الخطير بريقتة الطيبة الطاهرة .

(٤) فضيلة محمد بن مسلمة رضى الله عنه بقتله كعب الطاغية عليه لعائن الله .

(٥) بيان آثار قتل كعب إذ أصبح كل يهودى خائفا على نفسه لا يطمئن على حياته .

وثالث الغزوات :

غزوة أحد

عوامل هذه الغزوة القاسية الشديدة :

إن لهذه الغزاة عوامل وأسباباً ظاهرة منها : أن قريشاً وقد أُصِيبَتْ في صناديدها الذين ألقوا في القلب قلب بدر العام الماضى سنة اثنين من الهجرة المباركة ، فقد قام رجال منها بالدعوة إلى الحرب للأخذ بالثأر من محمد ﷺ وأصحابه . ومن دعاة الحرب عبد الله بن أبى ربيعة ، وعكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية وغيرهم كثير . فأتوا أبا سفيان بن حرب وطلبوا إليه أن يقنع أصحاب أموال العير التى نجت أن يجعلوها في حرب تشن على محمد وأصحابه ، ولا يأخذوا منها شيئاً . واستجابوا للطلب ، وفيهم نزل قوله تعالى من سورة الأنفال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُتَّفَقُونَ أَمْوَالُهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُتَّفَقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ هذا سبب وآخر هو أن الذين تخلفوا عن بدر من المهاجرين والأنصار كانوا يسألون الله تعالى أن يتيح لهم فرصة قتال المشركين كالتى أتاحت لأهل بدر ليُروا الله تعالى ما يفعلون بالمشركين من القتل لهم والفتك بهم إيماناً واحتساباً ليعوضوا ما فاتهم من الأجر والغنيمة يوم بدر . هذان عاملان ظاهران لغزوة أحد ، وهناك عوامل خفية قوية ذكرت في قوله تعالى

من سورة آل عمران : ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ۝ ﴾ .

وفي شوال من السنة الثالثة من الهجرة المباركة خرجت قريش برجالها ونسائها وأحايشها وبكل من قدرت على تألييه والإتيان به من بنى كنانة وأهل تهامة ، وسارت بقيادة أبي سفيان بن حرب زعيمها بعد هلاك أبي جهل حتى نزلت على شفير وادي قناة المقابل للمدينة النبوية ، وبلغ النبي ﷺ الخبر فاستشار أصحابه يوم الجمعة في الخروج إلى المشركين لقتالهم خارج المدينة ، أو البقاء في المدينة ، وقتالهم داخلها ، ورجح لهم القتال داخلها وأراهم أنه أقرب إلى النصر على المشركين من قتالهم خارجها . وقص عليهم رؤيا رآها ، وهي أنه رأى بقرة تذبح ورأى في ذباب سيفه ثلما وأنه رأى أنه أدخل يده في درع حصينة وأولها المدينة ، ومع هذا أصر أكثر الأصحاب على القتال خارج المدينة فنزل الرسول ﷺ على ما رآه لما رأوه ما دام الله تعالى لم يوح في ذلك إليه بشيء .

ودخل ﷺ بيته فلبس درعه ووضع لामته على رأسه وخرج إليهم فما إن رأوه حتى ندموا ورأوا أنهم قد أكرهوه على الخروج ظاهر المدينة فندموا ندماً شديداً ، وحاولوا أن يثنوه عن عزمه ، وقالوا يا رسول الله أقم فالرأى ما رأيت ، وكان الذين أصرروا على الخروج هم الذين تحلفوا عن بدر . فقال لهم ﷺ : « ما ينبغي لِنَبِيِّ أَنْ يَضَعَ لَامَتَهُ بَعْدَ مَا لَبَسَهَا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَدُوهِ . وقد دعوتكم إلى هذا — عدم الخروج — فأيتيم إلا الخروج ، فعليكم بتقوى الله ، والصبر عند البأس إذا لقيتم العدو ، وانظروا ماذا أمركم الله به فافعلوا » .

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم ، وخرج في ألف مقاتل و سلك بمن معه من المؤمنين على البدائع في حرة بنى حارثة ، ودليله

في هذا أبو خيثمة أخو بني حارثة ، ومروا بحائط لمربع بن قيطي ، وكان منافقاً ؛ فلما سمع حساً رسول الله ﷺ والمسلمين رفع حفنة من تراب ، وقال والله لو أعلم أن لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك ، فبدره سعد بن زيد بضربة شج بها رأسه ، وابتدره رجال ليقتلوه فقال لهم رسول الله ﷺ : « دعوه لا تقتلوه فإنه أعمى القلب أعمى البصر » .

وساروا حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينة وأُحُدِ انخزل عنهم عبد الله بن أبي بثلث الناس ، وكان — لعنه الله — رأيه عدم الخروج مثل رأى رسول الله ﷺ فلذا قال هنا : أطاعهم وعصاني ، ما ندرى علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس وتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر يقول لهم : يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبئكم ، فقالوا لو نعلم أنكم تقتلون ما أسلمناكم ، ولكننا لا نرى أن يكون قتال . فلما استعصوا وأبوا إلا الانصراف قال رسول الله ﷺ « أبعدكم الله أعداء الله فسيغنى الله عنكم نبيه » . وفيهم نزل قول الله تعالى من سورة آل عمران : ﴿ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ .

ولما هموا بالانصراف قال بعض المسلمين : هيا نقاتلهم ، وقال آخرون ذروهم يعودوا إلى ديارهم . فنزل فيهم قول الله تعالى من سورة النساء : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ﴾ .

وهنا اضطرب المؤمنون وهم بنو سلمة وبنو حارثة بالفشل إلا أن الله ثبتهم فثبتوا مع رسول الله ﷺ وفيهم نزل قوله تعالى من سورة آل عمران : ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

وسار رسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين ، وكانوا سبعمائة رجل بينهم فارسان لا غير : رسول الله ﷺ وآخر^(١) ، ساروا حتى نزلوا بالشعب من أحد ، وجعل ظهره بجبل أحد ، وقال : « لا يقاتلن أحد حتى أمره بالقتال » .

واستعرض الحبيب محمد ﷺ جيشه ، فرد عبد الله بن عمر وأسامة بن زيد وزيد بن ثابت والبراء بن عازب في فتیان لم يبلغوا سنّ التكليف وأجاز سمرة بن جندب ورافع بن خديج ، وقد بلغا الخامسة عشرة وكانا قوين وتعبأت قريش وذلك صبيحة يوم السبت ، وكان جيش قريش ثلاثة آلاف مقاتل بينهم مائتا فارس ، فجعلوا خالد بن الوليد على ميمنة الخيل ، وعكرمة بن أبى جهل على مسرتها .

وهنا قال رسول الله ﷺ : « من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ » فقام إليه رجال فأمسكه عنهم حتى قام إليه أبو دجانة سماك بن خرشة أخو بنى ساعدة فقال : وما حقه يا رسول الله ؟ قال : « أن تضرب به العدو حتى ينحني » قال أنا آخذه يا رسول الله بحقه فأعطاه إياه ، وكان أبو دجانة شجاعاً يختال عند الحرب وله عصاية حمراء فلفها على رأسه ومشى يختال بين الصفوف ، فقال رسول الله ﷺ حين رآه يتبختر في مشيته بين الصفوف : « إنها لمشية يغيظها الله إلا في مثل هذا الموطن » .

هذا هو الموقف في معسكر التوحيد قبل الهجوم أما معسكر الشرك فإن أبا سفيان بعد ترتيب الصفوف قال يخاطب بنى عبد الدار فقال : يا بنى عبد الدار قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم ، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم ؛ إذا زالت زالوا ، فإمّا أن تكفونا لواءنا ، وإمّا أن تخلّوا بيننا وبينه فنكفيكموه ، فهتفوا به وتوعده ، وقالوا نحن نسلم إليك لواءنا ؟ ستعلم غداً إذا التقينا كيف نصنع ؟!

(١) قال في الفتح لأبى بردة .

وهذا الذى أَرادَه أبو سفيان بن حرب وهو تحميسهم للقتال واستعدادهم له وشدتهم فيه .

ولما التقى الجمعان ، وتقابل الرجال قامت هند امرأة أبى سفيان تحرض على القتال فى نسوة معها يضرين بالذِّفِّ ، خلف الرجال تحريضا لهم على القتال ، وهذه بعض الأبيات التى كن ينشدنها للتحريض :

وَيْهًا بنى عبد الدار وَيَهًا حماة الأدبار
ضَرْبًا بكلِّ بَتَّار
نحن بنات طارق
إن تقبلوا نُعانق ونفرش الثمارُ
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

ونعود إلى معسكر التوحيد والإيمان :

أخذ أبو دجانة السيف ولف العصابة على رأسه علامة الموت ورمى بنفسه فى المعركة وهو يقول :

أنا الذى عاهدنى خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل
ألا أقوم الدهر فى الكَيُْول^(١) أضرب بسيف الله والرسول

فجعل لا يلقى أحداً إلا قتله ، ورأى أبو دجانة مقاتلا من المشركين يَخمَش^(٢) الناس خمَشًا شديدًا فقصد له فلما حمل عليه السيف ولول فإذا به امرأة هى هند فأكرم سيف رسول الله ﷺ أن يضرب به امرأة .

ودارت رحى المعركة ، واستعرت نارها وتأجَّج لها ، وكان حمزة فيها

(١) الكَيُْول : آخر صفوف الحرب .

(٢) أى توقد نار الحماس فى نفوسهم ، وتزيد فى غضبهم .

أسدًا يهد الرجال هَذَا ، وكان وراءه وحشيٌّ غلامٌ جُبَيْرٌ بن مطعم يترصّده ؛ إذ أوعز إليه سيده بأنه إذا قتل حمزة يعتقه ، وكان وحشيٌّ بارعًا في الضرب بالرماح ، ضربته لا تكاد تخطيء ، وكانت هند موتورة بموت أبيها بيدر ، كلما مرت به تقول له يا أبا دَسَمَة استشف واشف تحرضه على قتل حمزة رضى الله عنه ، فقال وحشيٌّ ما زلت أتبع حمزة وهو كالجمل الأورق إذ تقدمني إليه سباع بن عبد العزى فقال له حمزة : هلمّ إلّى يا ابن مقطعة البطور^(١) فضربه ضربة ما أخطأت رأسه فقتله ، ثم هزرت حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه فوقعت في ثنته^(٢) حتى خرجت من بين رجله فأقبل نحوى فغلب فوقع فأمهلته حتى مات فجئت فأخذت حربتي ، ثم تنحيت إلى المعسكر ، ولم تكن لى فى شىء حاجة غيره .

وكان النبىُّ ﷺ قد أعطى اللواء مصعب بن عمير رضى الله عنه ، وقتل مصعب فأعطاه على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وتقدم على باللواء ، وهو يقول أنا أبو القصم فناده أبو سعد بن أبى طلحة وهو صاحب لواء المشركين قائلاً : هل لك يا أبا القصم فى البراز من حاجة ؟ قال علىّ نعم فبرزوا بين الصفيين فاختلفا ضربتين فضربه علىّ فصرعه ، ثم انصرف عنه ولم يجهز عليه ، فقبل له : أفلا أجهزت عليه ؟ قال : إنه استقبلنى بعورته فعطفتنى عليه الرحم ، وعرفت أن الله قد قتله .

والتقى — والمعركة دائرة — حنظلة بن أبى عامر بأبى سفيان بن حرب فلما علاه حنظلة بالسيف رآه شداد بن الأوس فضربه أى شداد الكافر فقتله . فقال رسول الله ﷺ : « إن صاحبكم لتُغسله الملائكة فاسألوا

(١) أى كانت تحت البنات فتقطع البطرة الناتة فى الحيا أى الفرج .

(٢) الثنة ما بين السرة والعانة .

أَهْلُهُ مَا شَأْنُهُ ؟ » فسئلت امرأته فقالت إنه كان في ليلة عرسه فسمع الهاتف بالجهاد فخرج ولم يغتسل فلذا غسلته الملائكة . وأنزل الله تعالى نصره على المسلمين وصدقهم وعده فحسوهم بالسيوف حساً حتى كشفوهم عن المعسكر ، وكانت الهزيمة لا شك فيها ، حتى قال الزبير بن العوام رضى الله عنه : والله لقد رأيته أنظر إلى خَدَمٍ ^(١) هند وصواحبا وهن مشمرات هوارب . وفي هذا يقول تعالى من سورة آل عمران : ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوًى لِلظَّالِمِينَ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ الآيات ...

ولما رأى الرماة انكشاف المشركين والمؤمنين يسلبون ويجمعون الغنائم مالوا على المعسكر وكشفوا ظهور المؤمنين لخييل المشركين فكانت الهزيمة ، وصرخ صارخ أن محمداً قد قتل ، وأصاب المؤمنين كربٌ عظيم ذهلت فيه العقول ، وخلص العدو إلى الرسول ﷺ فرماه ابن قميئة أقماه الله بحجر فكسر أنفه ورباعيته وشجحه في وجهه ، وتفرق عنه أصحابه إلا قليلا وأصعدوا في الأرض حتى إن منهم من وصل إلى المدينة ، وفي هذا يقول تعالى من سورة آل عمران : ﴿ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ * إِذْ تَضَعُونَ وَلَا تُلَوْنُ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُحْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ عَمَّا بَعِمُمْ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

(١) جمع خدمة وهي الخلخال في الرجل .

سبب الهزيمة :

وسبب هذه الهزيمة المريعة بعد ذلك النصر العظيم هو أن الرماة الذين كانوا خمسين رامياً ، قد وضعهم الرسول ﷺ على جبل الرماة وأمر عليهم عبد الله بن جبير وقال لهم موصياً إياهم في شخص أميرهم : انفتح عنا الخيل بالنبل لا يأتوننا من خلفنا ، واثبت مكانك إن كانت لنا أو علينا . هؤلاء الرماة لما نصر الله المسلمين في أول النهار وانهزم المشركون أمامهم وأكب المؤمنون على جمع الغنائم وحياسة الأموال ، ونساء المشركين مشغولات على سوقهن هاربات ولواؤهم على الأرض لم يحمله أحد حتى جاءت امرأة من قريش فرفعته . لما رأى الرماة هذا الواقع ثبت بعضهم في أماكنهم وهم القليل ونزل البعض الأكثر متعللين بهزيمة المشركين وأخذوا في نهب الأموال وجمع الغنائم كغيرهم .

ولما رأى خالد بن الوليد وهو على خيل المشركين لما رأى خلو الجبل من الرماة وضعف المقاومة منه كرّر عليهم بخيله فاحتل الجبل وقتل من فيه ، وأصلوا المسلمين نار سهامهم فمزقوهم بها تمزيقاً وعاد المشركون الفارون إلى المعركة ووقع المسلمون بين نارين هما كفككى المقارض فكانت الهزيمة وأصيب الرسول ﷺ بما أصيب به ، وصرخ الشيطان قائلاً أن محمداً قد مات ، وألقى رجال سلاحهم من أيديهم وبقوا واقفين حيارى مدهوشين . منهم عمر وطلحة فأتاهم أنس بن النضر عم أنس بن مالك فقال لهم : ما يجبسكم ؟ قالوا قتل محمد ﷺ . ، قال : فما تصنعون بالحياة بعده ؟ موتوا على ما مات عليه ، ثم استقبل المشركين فقاتل حتى قتل ، فوجد به أكثر من سبعين ضربة وطعنة ولم يعرفه إلا أخته عرفته بينانه . وبلغ الكرب المعسكر الإيماني حتى قال من قال : ليت لنا من يأتي عبد الله بن أبي بن سلول ليأخذ لنا أماناً من أبي سفيان قبل أن يقتلونا ؟ فقال لهم أنس بن النضر يا قوم إن كان محمد قد قتل فإن ربّ محمد لم يقتل فقاتلوا على ما مات عليه محمد ﷺ ، اللهم إني أعتذر

إليك مما يقول هؤلاء وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ثم قاتل حتى قتل رضى الله عنه وأرضاه .

وكان أول من عرف أن الرسول حى لم يقتل كعب بن مالك فنادى بأعلى صوته يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله لم يقتل ، والرسول ﷺ ينادى « إلى عباد الله !! إلى عباد الله !! » وثاب إليه رجال وقاتلوا دونه وأبلى في هذا أبو طلحة وأبو دجانة البلاء الحسن ، وتقدموا نحو الشعب وهم يدفعون ويقاتلون حتى وصلوا إليه ، وما إن أسند رسول الله ﷺ على الشعب حتى جاء أئى بن خلف يصرخ : لا نجوئ إن نجا أى محمد ﷺ ، وهو يتقدم نحو النبی ﷺ فتناول الرسول ﷺ حربة من يد أحد أصحابه وطعنه بها في ترقوته فخار كما يخور الثور فسحبوه كالثور المذبوح ومات بها في طريقه إلى مكة يسرف إلى جهنم وبئس المهاد .

وارتفع الحبيب محمد ﷺ إلى الصخرة حيث يوجد بعض أصحابه فسرّ لذلك . وجاء أبو سفيان يحاول الوصول إلى أصحاب الصخرة في سفح أحد فرده خاسئا خائباً وأخذ النعاس الأصحاب فذهب بذلك الخوف عنهم وسكنت نفوسهم ، وفي هذا يقول تعالى من سورة آل عمران : ﴿ فَأَتَابَكُمْ عَمَّا بَعُمٌ لَّكَيْلًا تُحْزِنُوا عَلَى مَا فَاكُم وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُعَاسًا يَعْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ ﴾ الآية .

وانتهت المعركة وكانت درساً قاسياً للمسلمين ، ومثلت هند بنت عتبة امرأة أبى سفيان بالقتلى فقطعت الآذان والأنوف والمذاكير وبقرت بطن حمزة رضى الله عنه ولاكت كبده لتأكل منها فلم تقدر عليها فرمتها وذهبت .

وأتى أبو سفيان فوقف تحت الصخرة وقال : أفى القوم محمد ثلاثا ؟ فقال رسول الله ﷺ « لا تحبوه » ثم قال أفى القوم ابن أبى قحافة ثلاثا ؟ ثم قال أفى القوم ابن الخطاب ثلاثا ؟ ثم التفت إلى من معه فقال أما هؤلاء فقد قتلوا ، فقال عمر كذبت يا عدو الله ، قد أبقي الله لك ما يحزنك . فقال : أعل

هبل ، فقال رسول الله ﷺ : « أجيبوه ، قولوا الله أعلى وأجل » . فقال أبو سفيان : إنما لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال رسول الله ﷺ « قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم » فقال أبو سفيان : أنشدك الله يا عمر أقتلنا محمدًا ؟ قال عمر : لا وإنه ليسمع كلامك فقال : أنت أصدق من ابن قميئة^(١) . ثم قال هذا بيوم بدر ، والحرب سجال . إما إنكم ستجدون فى قتلكم مثلًا ، والله ما رضيت ولا سخطت ، ولا نهيت ولا أمرت . ثم انصرف ومن معه وقال إن موعدكم العام المقبل .

ثم بعث رسول الله ﷺ عليًا فى أثرهم وقال له : « انظر فإن جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل فإنهم يريدون المدينة ، فوالذى نفسى بيده لئن أرادوها لأناجزنهم » فخرج على فى أثرهم فوجدهم قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فرجع يصيح ما استطاع أن يكتم الخبر ، وقد أمر أن يكتمه ، من شدة الفرح .

وأمر الرسول ﷺ من ينظر فى القتلى فرأى سعد بن الربيع الأنصارى وبه رمقٌ ، فقال سعد للذى رآه أبلغ رسول الله ﷺ منى السلام وقل له جزاك الله خير ما جزى نبيًا عن أمته ، وبلغ قومى السلام ، وقل لهم لا عذر لكم عند الله إنخلص إلى رسول الله ﷺ أذىً وفيكم عينٌ تطرف ثم مات إلى رضوان الله فرحمك الله يا سعد بن الربيع ورضى عنك .

ووجد حمزة رضى الله عنه ببطن الوادى قد بقر بطنه عن كبده ومثل به فقال النبى ﷺ حين رآه : « لولا أن تحزن صفية أو تكون سنة لتركته حتى يكون فى أجواف السباع وحواصل الطير ، ولئن أظهرنى الله تعالى على قريش

(١) إذ زعم أنه قتل عمدًا ﷺ وهو الذى أصاب وجه رسول الله ﷺ بحجر فكسر أنفه ورباعيته وشج وجهه فصلى الله وسلم على محمد ، ولعن الله ابن قميئة وأقماءه وأخزاه فى نار جهنم .

لأَمْثَلْنَ بِثَلَاثِينَ رَجُلًا مِنْهُمْ » ، وقال المسلمون لنمثّلن بهم . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ من سورة النحل ، فعفا رسول الله ﷺ وصحبه ، ونهى ﷺ عن المثلة ، وهم رجال يحمل قتلاهم ليدفنوهم بالمدينة فأمر رسول الله ﷺ بدفنهم حيث صرعوا ، وأمر أن يدفن الاثنان والثلاثة في القبر الواحد ، وأن يقدم إلى القبلة أكثرهم قرآناً ، وصلى عليهم ، فكان كلما أتى بشهيد جعل حمزة معه وصلى عليهما .

ونزل في قبر حمزة أبو بكر وعمر والزبير وجلس الرسول ﷺ على حافة القبر ، وأمر ﷺ أن يدفن عمرو بن الجموح وعبد الله بن عمرو بن حرام في قبر واحد .

وانصرف الحبيب محمد ﷺ مع أصحابه عائددين إلى المدينة فدخلوها مساء يوم السبت يوم المعركة الخالدة معركة أحد التي نزل فيها جزء كبير من سورة آل عمران .

مواقف (في أحد) ومواقف

مواقف مشرفة :

وباستعراض سريع لمعركة أحد تتجلى لنا مواقف مختلفة منها المشرف ومنها المخزى ومن المواقف المشرفة ما يلي :

● موقف أبى طلحة الأنصارى إذ وقف موقفا لا يزال يذكر له ما بقى الإسلام والمسلمون . قال أنس رضى الله عنه لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ وأبو طلحة بين يدى رسول الله ﷺ مُجَوَّبٌ^(١) عليه بجَحْفَةٍ له ، وكان أبو طلحة رامياً كسر يوم أحد قوسين أو ثلاثة فإذا مرّ الرجل

(١) أى مكب عليه محيط به يقيه من رماية العدو أن تصيبه .

بجعبة من النبل يقول له انثرها لأبى طلحة ، ويشرف النبي ﷺ على القوم فيقول له أبو طلحة بأبى أنت وأمى لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم نحري دون نحرك . فرضى الله عن أبى طلحة وأرضاه وجعل الجنة مأواه . اللهم بحبنا فيك لهم فاجمعنا بهم .

● موقف عائشة بنت أبى بكر وأم سليم الأنصاريّة قال أنس : لقد رأيت عائشة بنت أبى بكر وأم سليم وإنهما لمشمّرتان على خدم سوقهما تتقرّان^(١) بالقرب تفرغانها فى أفواه القوم مرات عديدة ، فما أشرف هذا الموقف وما أشرف صاحبتيه رضى الله عنهما وأرضاهما .

● موقف طلحة بن عبيد الله رضى الله تعالى عنه بينما رسول الله ﷺ فى الشعب ومعه نفر من أصحابه إذ علت عالية من قريش الجبل ، ونهض رسول الله ﷺ إلى الصخرة من الجبل ليعلوها ، وكان قد بدّن وظاهر بين درعين فلما ذهب لينهض لم يستطع فجلس تحته طلحة فنهض به حتى استوى عليها ، فقال ﷺ « أوجب طلحة حين صنع برسول الله ما صنع ! » .

● موقف الحبيب محمد ﷺ ومواقفه كلها مشرفة . لما أسند ﷺ فى الشعب أدركه أبى بن خلف على جواد له يزعم أنه يقتل عليه محمداً تقدم نحو رسول الله ﷺ وهو يقول : لا نجوئ إن نجا ، فلما اقترب منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من يد الحارث بن الصّمة فلما أخذها انتفض بها انتفاضةً تطايروا عنه تطاير الشعّر عن ظهر البعير ثم استقبله فطعنه بها طعنة أصابت نحره فوق عن فرسه فحمل إلى قريش وهو يخور كالثور ويقول : قتلنى والله محمد ، فمات فى الطريق عند سرف .

● موقف أنس بن النضر الأنصارى أنه لما صاح أربُ العقبة الشيطان

(١) أى تقفران بسرعة .

قائلاً : إن محمداً قد مات ، وانجفل الأبطال ووقفوا عن القتال حيارى مشدوهين مدهوشين . صاح فيهم أنس قائلاً : ما يَحْسُبُكُمْ عن القتال ؟ قالوا : قد قتل النبي ﷺ فقال لهم : ما تصنعون بالحياة بعده ؟ موتوا على ما مات عليه . يا قوم إن كان محمد قد قتل فإن ربَّ محمد لم يقتل ، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد ، اللهم إني أعترز إليك مما يقول هؤلاء وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء .

● موقف الحبيب محمد ﷺ وحياته كلها مواقف شرف وكمال ولكن نذكر ما نذكر للمناسبة ولإثارة كوامن الحب في النفس بالذكر . إنه ﷺ بعد تلك الجراحات المؤلمة أخذ ﷺ شيئاً فجعل ينشف الدم عنه ويقول : « كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم (بالدم) وهو يدعوهم إلى ربهم » ، فأوحى إليه : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَأِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ فقال : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » .

● موقف فاطمة بنت محمد ﷺ إنه لما جرح والدها ﷺ أخذ على يأتى بالماء وفاطمة تغسل جراحات الحبيب والدها محمد ﷺ . ولما رأت الدم لم يرقأ بالغسل جاءت بحصير فأحرقته وضمدت بالرماد الحار جراحات أبيها ﷺ فرقأ الدم ولم يسئل . إن هذا الموقف للزهراء بنت الحبيب محمد ﷺ يسمو كل موقف .

● موقف عبد الله بن عمرو بن حرام إنه لما انهزل وانخزل ابن أبي ثلث الجيش و انصرف عائداً هو ومن معه إلى المدينة استقبلهم عبد الله وقال : تعالوا : قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا . قالوا : لو نعلم قتالاً لاتبعناكم .. فأنزل الله تعالى فيه قرآناً يقرأ إلى يوم القيامة .

● موقف حنظلة غسيل الملائكة إنه تزوج ولم يسلم بعد وبات عريساً ليلته فأيقظه صوت الجهاد فقام فلبس درعه وحمل سلاحه ولحق بالمعركة وهي

دائرة فخاضها خوض الأبطال وقاتل حتى استشهد وهو جنب فغسلته الملائكة وأخبر بذلك رسول الله ﷺ وقال : « سلوا امرأته » فسألوها فأخبرته أنه خرج من عندها جنب ولحق بالجهاد لما سمع صوته فكان موقفا مشرفا لحنظلة دخل الجنة ولم يصل لله ركعتة وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

● موقف أم عمارة نسيية إنها خرجت أول النهار تنتظر ما يصنع الناس ومعها سقاء فيه ماء فانتهدت إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه والدولة والريح للمسلمين فلما انهزم المسلمون انحازت إلى رسول الله ، وباشرت القتال تذب بالسيف عن رسول الله وترمى عن القوس حتى خلصت الجراحات إليها . بهذا حدثت رضى الله عنها فكان موقفا مشرفا لها رضى الله عنها .

مواقف مخزية :

كانت تلك مواقف مشرفة لأهلها ولحبهم معهم . وهذه مواقف مخزية لأهلها ولحبهم معهم أيضا وأول هذه المواقف المخزية :

● موقف عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين بالمدينة إنه ما إن خرج الجيش الإسلامي من المدينة في طريقه إلى أحد وهو يشكك في صحة الجهاد وجدوى هذا الخروج حتى استجاب له ثلاثمائة رجل من المنافقين وضعاف الإيمان ورجعوا من الطريق فخذلوا رسول الله ﷺ والمؤمنين الصادقين . فكان هذا موقفا شرا موقف وأخزاه لابن أبي ومن والاه .

● موقف مربع بن قيطي الأعمى عليه لعائن الله . إنه لما مرّ ببستانه الجيش الإسلامي بقيادة رسول الله ﷺ وسمع بحس الجيش وعرف أن محمدا ﷺ هو قائده رفع حفنة من تراب وحصى ، وقال والله لو أعلم أن لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك ، وقال إن كنت رسولا فأني لا أحل لك أن تدخل حائطي « بستانى » . فكان موقف هذا المنافق الأعمى القلب

والبصر أخزى موقف وأقبحه على الإطلاق .

● موقف أبى عامر الذى لقبه الرسول ﷺ بالفاسق بدلًا عن الراهب الذى كان يعرف به فى الجاهلية قبل الإسلام . إنه وقف لعنه الله بين الصفين صبيحة يوم أحد ونادى قومه وتعرف إليهم وحرّضهم على قتال رسول الله ﷺ والمؤمنين ، فوقف موقفًا مخزياً ، ولذا أجابه رجال من الأنصار بقولهم لا أنعم الله بك علينا يا فاسق فقال لعنه الله لقد أصاب قومى بعدى شرّ ، وقاتل مع المشركين قتالا شديداً فكان بئس الموقف وموقف هذا الفاسق لا ينسى له الدهر كله .

● موقف هند بنت عتبة امرأة أبى سفيان إنها باغرائها على قتل حمزة رضى الله عنه وبإثارتها الحماس فى جيش المشركين وبتمثيلها بقتلى المسلمين ، وبقهرها بطن حمزة وأكلها كبده وإن لم تتلعها لعدم قدرتها عليها بهذا قد وقفت شرّ موقف وأخزاه ولولا أن منّ الله عليها بالإسلام لكانت مع أبى بن خلف وأبى جهل فى جهنم ، ولكن رحمها الله فأسلمت وحسن إسلامها ونسى لها موقفها هذا لأن الإسلام جب ما قبله .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نجملها إزاء الأرقام التالية :

(١) صدق رؤيا النبى ﷺ إذ رأى فى منامه ثلماً فى سيفه فأوله بموت بعض آل بيته فمات حمزة رضى الله عنه ، وعبد الله بن جحش ابن عمته .

(٢) رد عين قتادة بعد أن تدلت على وجنته فأصبحت أحسن منها قبل إصابتها وتدلّيا بعد خروجها فكانت آية نبوة محمد ﷺ .

(٣) قتل النبى ﷺ أبى بن خلف كان قد أخبره به فى مكة قبل الهجرة وتم كما أخبر فكان آية النبوة المحمدية ، ولم يقتل النبى ﷺ أحداً سواه ، وشر الخلق من قتله نبى . كما أخبر بذلك الرسول ﷺ .

(٤) تقرير مبدأ الشورى ، إذ استشار ﷺ أصحابه فى قتال المشركين خارج المدينة أو داخلها وأخذ برأى الأغلبية . وسجل حكمة انتفع بها كل من أخذ بها من مؤمن وكافر وهى قوله : « ما كان لنبى أن يضع لأمته على رأسه ثم يضعها قبل أن يحكم الله بينه وبين عدوه » . إنها آية العزم ومظهر الحزم والصدق .

(٥) بيان شجاعة الرسول ﷺ والقلبية والعقلية تجلت فى مواقف عديدة له ﷺ منها أنه لم يثن عزمه رجوع ابن أبى بثلث الجيش . ثباته ﷺ فى المعركة بعد أن قرَّ الكثير من أصحابه . انتفاضته وهو مثقل بجراحاته وطعنه أبى بن خلف طعنة خار لها كالثور وسقط منها كالجبل ومات فى طريقه .

(٦) بيان كمال قيادته العسكرية ويتجلى ذلك بوضوح فى اختياره مكان المعركة وزمانها ، وفى وضعه الرماة على جبل الرماة ووصيته لهم بعدم مغادرة أماكنهم مهما كانت الحال ولو رأوا الموت يتخطف إخوانهم فى المعركة ، ويدل على هذا أن الهزيمة النكراء التى أصابت الأصحاب كانت نتيجة تحلى الرماة عن مراكزهم كما مر فى عرض المعركة وتسجيل أحداثها .

وفى إرساله عليا رضى الله عنه يتتبع آثار الغزاة للتعرف على وجهتهم إلى المدينة أو إلى مكة ليتحرك بحسب ما يتطلبه الموقف .

(٧) مظاهر رحمة الحبيب ﷺ حيث تجلت فى عفوه عن الأعمى الذى سبه ونال منه حتى هم أصحابه بقتله فأبى عليهم وقال : « دعوه فإنه أعمى القلب أعمى البصر » وفى قوله وهو يجفف الدم السائل من وجهه الكريم الشريف : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » وفى بكائه على عمه عند ما وضع بين يديه ليصلى عليه حتى أغمى عليه من شدة الوجد والبكاء .

(٨) مظاهر صبره ﷺ وقد تجلى صبره بوضوح فى عدم جزعه لما أصابه وأصاب أصحابه من آلام وأحزان ، ومن فوات النصر الذى قاربه فى أول

النهار وخسره في آخره حيث انقلب إلى هزيمة مرة وانكسار خطير .

(٩) بيان الآثار السيئة لتقديم الرأي على قول الرسول ﷺ ، إذ كان من عوامل الهزيمة إصرار الصحابة على رأيهم في القتال خارج المدينة ، في الوقت الذي كان الرسول يرى عدم الخروج حتى أُلجأوه إلى أدراعه ولباس لامته ، ثم ندموا فلم ينفعهم ندم .

(١٠) بيان أن الرغبة في الدنيا وطلبها بمعصية الله والرسول هي سبب كل بلاء ومحنة تصيب المسلمين ، في كل زمان ومكان .

(١١) بيان صدق وعد الله للمؤمنين بالنصر إذ ظهر ذلك في أول النهار . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ﴾ الآية .

(١٢) بيان عقوبة الله تعالى للمؤمنين لما عصوه بترك الرماة لمراكزهم الدفاعية وطلبهم للغنيمة . ولما تساءلوا عن سبب هزيمتهم أجابهم تعالى بقوله : ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ وهو ظاهر قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَارَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ﴾ أى من النصر ﴿ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

ورابع الغزوات :

غزوة حمراء الأسد

إن من مظاهر الكمال الحمدي في كل جوانب الحياة العسكرية والمدنية على حد سواء خروجه صبيحة الأحد لإرهاب الأعداء في الداخل والخارج ؛ إنه بعد الهزيمة النكراء التي أصابت المسلمين يوم أمس السبت ما راع الناس إلا ومؤذن رسول الله ﷺ يؤذن بالخروج لملاحقة أبي سفيان بن حرب وجيشه ، وقال لا يخرج معنا إلا من حضر معنا معركة أحد أمس ، فخرج المؤمنون ومن بينهم أخوان جريحان ، فكان خفيف الجراح يحمل أخاه ، فإذا

تعب وضعه يمشى ساعة ثم يحمله حتى وصلا معسكر رسول الله ﷺ على ثمانية أميال من المدينة حيث عسكر ﷺ بجمراء الأسد . واستأذن جابر رسول الله ﷺ فى الخروج فأذن له بعد أن عرف عذره ، وهو أن والده الشهيد عبد الله بن عمرو بن حرام لم يأذن له فى الخروج إلى أحد وأوصاه بأخواته السبع إذ لم تطب نفس عبد الله أن يترك سبع بنات ليس معهن رجل .

وما زال النبى ﷺ بجمراء الأسد حتى مرّ به معبد الخزاعى ، وخزاعة مسلمها ومشرکها كانت عيبة نُصح رسول الله ﷺ أى موضع سرّه وثقته لا تُخفى عليه شيئاً من الناس فى تهامة ، فقال معبد وهو يومئذ مشرك : يا محمد أما والله لقد عزّ علينا ما أصابك ، وَلَوِ دُذْنَا أن الله عافاك فيهم ، ثم خرج حتى لقي أبا سفيان ومن معه بالروحاء ، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه ؛ إذ قالوا أصبنا منهم ما أصبنا فكيف نرجع قبل أن نستأصلهم ؟

فلما رأى أبو سفيان معبداً قال له : ما وراءك يا معبد ؟ قال : خرج محمد وأصحابه يطلبونكم فى جمع لم أر مثله أبداً ، فقال أبو سفيان ويحك ما تقول ؟ قال والله ما أرى أن ترحل حتى أرى نواصى الخيل . فقال أبو سفيان فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيّتهم . قال معبد : إني أنهاك عن ذلك ، والله لقد حملنى ما رأيت على أن قلت فيهم أبياتا من الشعر . قال أبو سفيان وما قلت ؟ قال قلت :

كَادَتْ تُهَدِّدُ مِنَ الْأَصْوَاتِ رَاحِلَتِي إِذْ سَالَتْ الْأَرْضَ بِالْجُرْدِ الْأَبَابِيلِ
تُرْدَى^(١) بِأَسَدٍ كَرَامٍ لَا تَنَابِلَةَ^(٢) عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مِيلَ^(٣) مَعَاذِيلِ

(١) تردى : تسرع .

(٢) تنابلة : غير قصار .

(٣) جمع أميل وهو الذى لا ربح له ولا ترس .

فظلت عَدُوًّا أَظَنُّ الأَرْضِ مائِلةً لما سَمَوْا برئيس غير مَخْذُولٍ
فَقُلْتُ ويل ابن حرب من لقائكم إذا تَعَطَّمَتِ^(١) البطحاء بالخيل
إني نذير لأهل البَسَلِ^(٢) ضاحية لكل ذى إِرْبَةٍ منهم ومعقول
من جيش أحمد لا وَخْشٍ^(٣) تنابلة وليس يوصف ما أُنْذِرْتُ بالقيـل

فأوقع هذا الشعر في نفس أبنى سفيان هزيمة ، وذكر كذلك رأى صفوان ابن أمية إذ سبق أن كَفَّه عن الرجوع إلى المدينة عندما عزم على الرجوع ، وقال له : لا تفعل فإن القوم قد حَرَنُوا^(٤) ، وإني أخشى أن يكون لهم قتال غير الذى كان فارجعوا فرجعوا ولذا أمر بالرحيل والعودة إلى مكة ، وأثناء ذلك مرَّ به ركب من بنى عبد القيس فقال لهم : أين تريدون ؟ قالوا نريد المدينة ، قال : ولم ؟ قالوا نريد الميرة ، قال : فهل أنتم مبلَّغون عنى محمداً رسالة أرسلكم بها ، وأحمِّل لكم هذه غداً زبيياً بعكاظ إذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم ، وكان هذا مجرد مناورة من أبى سفيان يريد بها تغطية هزيمته لما سمع من معبد ولما وصلت القافلة إلى رسول الله ﷺ وبلغوه رسالة أبى سفيان : قال : « حسبي الله ونعم الوكيل » وفى هذا نزل قول الله تعالى من سورة آل عمران : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ . وقال ﷺ : « حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين ألقى في النار » .

وأقام الرسول ﷺ بحمراء الأسد أربعة أيام الأحد والإثنين والثلاثاء والأربعاء ثم قفل راجعاً إلى المدينة فظفر في طريقه بمعاوية بن المغيرة بن أبى

(١) تعطمطت : اهتزت له .

(٢) البسل : قريش .

(٣) الوخش : أراذل الناس .

(٤) حرنوا : اشتد غضبهم .

العاص ، وبأى عزة الجمحى وقد تخلف عن المشركين نائماً ، وكان أبو عزة قد أسر يوم بدر واسترحم الرسول ﷺ فرحمه فمن عليه ، وعاهده ألا يقف موقفاً ضده وخان وجاء مع المشركين إلى أحد ، فلذا أمر الرسول ﷺ بقتله ، فقتل ، وقال ﷺ : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » وأما معاوية فهو الذى مثل بحمزة فى أحد فقطع أنفه فقد ضل الطريق فأتى دار عثمان وقد استشفع بعثمان فقبل النبي ﷺ شفاعته فيه ، على أنه لو وجده بعد ثلاثة أيام ليقتلته ، فجهره عثمان لقرابته وقال له ارتحل فارتحل فأخطأ الطريق ، وكان النبي ﷺ قد ارتحل من حمراء الأسد وقال لأصحابه : إن معاوية أصبح قريباً ولم يبعد فاطلبوه فطلبه زيد بن حارثة وعمار بن ياسر فوجداه فقتلاه .

وعاد الرسول ﷺ ولم يلق كيذا . وأرهب بذلك العدو المنافق فى الداخل والمشركين فى الخارج فصلى الله عليه وسلم ما أعظم حكمته وأجل سياسته وأكمل صبره !!

نتائج وعبر :

إن لهذه القطعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نوجزها فى الآتى :

(١) بيان مظاهر الكمال الحمدي من شجاعة وصبر وتحمل وحسن سياسة ، وكال تدبير .

(٢) بيان فضل أصحاب رسول الله ﷺ ، وما كانوا عليه من طاعة وصبر وتحمل واستجابة لله والرسول .

(٣) تأثير الدعاية فى نفوس غير الصابرين ، ولذا كان خطر الدعاية عظيماً ووجب اتقاؤه .

(٤) تقرير مبدأ : المؤمن لا يلدغ من جحر واحد مرتين .

(٥) مشروعية الشفاعة فى غير الحدود الشرعية .

أهم ما وقع من أحداث في السنة الثالثة من هجرة الحبيب محمد ﷺ

إن أهم ما وقع في هذه السنة الثالثة من سنوات الهجرة المباركة من أحداث ذات خطر وشأن يمكن ذكره إزاء النقاط التالية :

● قتل كعب بن الأشرف الذى بسط يده ولسانه لرسول الله ﷺ والمؤمنين يؤذيه ويكيد لهم ويؤلب المشركين واليهود عليهم قتله محمد بن مسلمة الأنصارى رضى الله عنه .

● وقوع غزوة أحد واستشهاد قرابة سبعين رجلاً مسلماً فيها ونحو من ثلاثين مشركاً ومن بين الشهداء أربعة مهاجرين وهم حمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير ، وعبد الله بن جحش ، وشماس بن عثمان ، ومن بين الأنصار أنس بن النضر ، وسعد بن الربيع وعمرو بن الجموح ، وعبد الله ابن عمرو بن حرام ، ومن مسلمي اليهود مخزيم رضى الله عنه .

● غزوة حمراء الأسد في اليوم الثاني بعد يوم أحد .

● غزوة ذي أمر وهو ماء بنجد لغطفان .

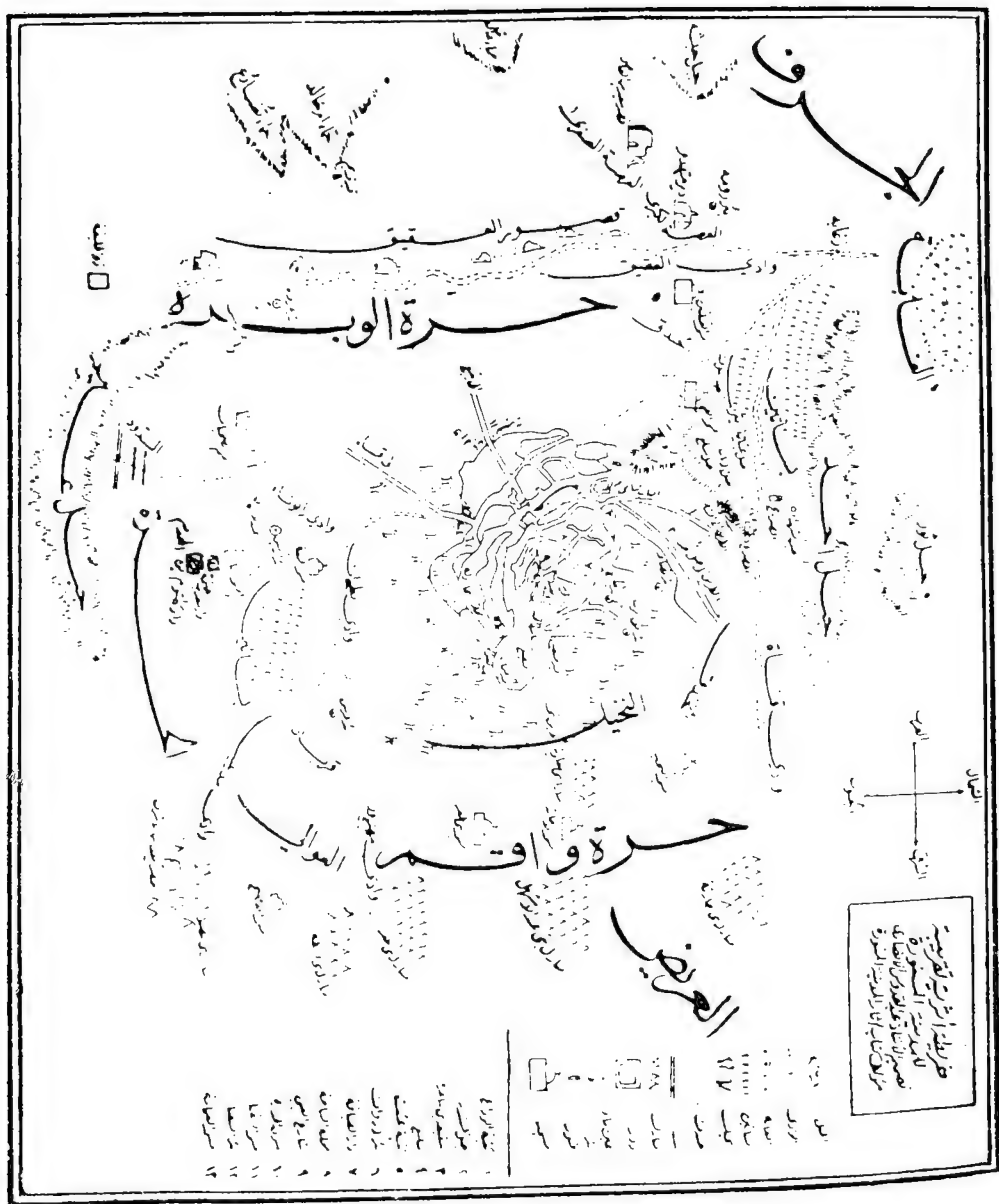
● غزوة الفرع من بجران « المهد » .

● سرية زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ .

● سرية محمد بن مسلمة لقتل كعب اليهودي الظالم .

● ولادة الحسن بن علي رضى الله عنه ، وحمل فاطمة بالحسين بعد خمسين يوماً من ولادتها .

● حمل جميلة بنت عبد الله بن أبي ربيعة بن عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة وذلك في شوال ليلة أحد .



بيان مواقع أحد من المدينة النبوية وهو بالشمال الشرق منها وخلفه جبل نور الذي ذكر في تحديد حرم المدينة إذ فيه المدينة حرام من عائر إلى نور ، وأما عائر أو غير فهو في الجنوب الغربي من المدينة كما هو مبين في الخريطة هذه .

أحداثُ السنة الرابعة من هجرة الحبيب محمد ﷺ

ودخلت السنة الرابعة من سنّاتِ الهجرة المباركة وأول أحداثها .

حَدَّثُ الرَّجِيع^(١)

في هذه السنة قدم نفر من عَضُل والقارة على رسول الله ﷺ بالمدينة وذكروا له أن فيهم إسلامًا ، وأن لهم رغبة في أن يبعث معهم نفرًا يفقهونهم في الدين ، فبعث ﷺ معهم ستة نفر هم مرثد بن أبى مرثد الغنوى ، وخالد ابن البُكير الليثى ، وعاصم بن ثابت الأوسى ، وخبيب بن عدى ، وزيد بن الدثنة البياضى ، وعبد الله بن طارق حليف بنى ظفر وأمر عليهم ﷺ مرثد ابن أبى مرثد الغنوى وساروا حتى إذا بلغوا الرجيع غدر بهم النفر الذين طلبوهم من رسول الله ﷺ ليفقهوهم في الدين حيث استصرخوا عليهم حيًّا من هذيل يقال لهم بنو لحيان فجاءوهم في مائة رجل فلجأ المسلمون إلى جبل حيث لا طاقة لهم بقتال مائة رجل وهم ستة رجال لا غير ، فاستنزلوهم بعهد قطعوه لهم بأنهم لا يمسونهم بسوء ، فقال عاصم : والله لا أنزل على عهد كافر ، اللهم خبر نبيك عَنَّا ، وقتلهم هو ومرثد وخالد بن البكير ، ونزل ابن الدثنة وخبيب ، وعبد الله بن طارق فأوثقوهم ، فقال عبد الله هذا أول الغدر فقتلوه فألحقوه برفيقه ، وانطلقوا بابن الدثنة وخبيب فباعوهما بمكة فاشتري خبيبا بنو الحارث ، وكان خبيب هو الذى قتل الحارث يوم بدر فاشتروه ليقتلوه بالحارث فسجنوه في بيت ماوية مولاة حُجَيْر بن أبى إهاب فبينما هو عندها وقد استعاد منها موسى ليستحد بها .

حتى إذا قتل يكون نظيفًا من شعر عاتته ؛ إذ جاء صبيٌّ يدب إليه فجلس

(١) الرجيع : ماء لهذيل بناحية الحجاز يقع قريبا مما بين مكة وعسفان .

على فخذه ، وهو يستحذ والموسى فى يده فلما رأته المرأة صاحت ، فقال لها :
أتخشين أن أقتله ؟ إن الغدر ليس من شأننا ، فكانت المرأة تقول بعد ذلك
ما رأيت أسيراً خيراً من حبيب لقد رأيته وما بمكة ثمرة وإن فى يده لقطفاً
من عنب يأكله ، ما كان إلا رزقاً رزقه الله حبيباً .

ولما خرجوا به من الحرم إلى الحل ليقتلوه ، قال ذرونى أصل ركعتين فتركوه
فصلاهما فكانت سنة القتل ؟ إذ علم بذلك رسول الله ﷺ وأقره عليها ،
وصلاها غير واحد من المؤمنين . ثم قال لهم لولا أن تقولوا جزع من الموت
لردت أو طولتهما ثم أنشأ يقول :

ولست أبالى حين أقتل مسلماً على أى جنب كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو^(١) ممزّع
ودعا ربّه قائلاً : اللهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تبق منهم أحداً .
ثم صلبوه ، وقام إليه عتبة بن الحارث ليقتله وقال : له : أترضى أن يكون
محمد مكانك وأطلقك ؟ فقال : والله لا أرضى أن أطلق ويشاك محمد بشوكة
وقتله فمات إلى رحمة الله ورضوانه .

وأما عاصم فإنهم بعثوا من يأتهم برأسه لبيعه من سلافة بنت سعد ؛
إذ كانت نذرت أن تشرب الخمر فى رأس عاصم يوم قتل ابنائها فى أحد ،
فجاء النحل فمنع من أرادوا أخذه فتركوه حتى الليل فجاء سيل فجرفه ولم
يعثر عليه استجابة الله تعالى لعاصم إذ كان قد عاهد الله تعالى أن لا يمس مشركاً
ولا يمسّه مشرك ، فمنعه الله فى مماته كما منعه فى حياته .

وأما ابن الدثنة فإن صفوان بن أمية بعث به مع غلامه نسطاس إلى التنعيم
ليقتله بأبيه ، إذ كان قتل يوم بدر وألقى فى القليب ، فلما وصل به هناك

(١) الشلو والجمع أشلاء : عضو الإنسان بعد التفرق والتزع ، والممزع المهرق

إلى الحل ساومه قائلا : أنشدك الله أتحب أن محمداً الآن مكانك تضرب عنقه وأنت في أهلك ؟ قال : ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلى !! فقال أبو سفيان وكان حضر الإعدام مع رجال من قريش : ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً ثم قتله نسطاس فانتقل إلى رحاب رحمت الله تعالى وسوم رضوانه فهنيئاً له .

ومن كرامات خبيب رضى الله عنه أن سعيد بن عامر وكان ممن حضر قتل خبيب كان كلما ذكر قتل خبيب بقلبه أو لسانه أخذته غشية ، وبلغ ذلك عمر رضى الله عنه فسأل سعيداً فقال : نعم ما ذكرت خبيباً إلا غشى على فزادته عند عمر خيراً .

نتائج وعبر :

- إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نوجزها كالتالى :
- (١) الغدر والخيانة وصف لازم فى الغالب لأهل الكفر والشرك .
 - (٢) بيان كرامة خبيب التى أكرمه الله تعالى بها ، وهى أكله قطف العنب فى غير إبانة وغير مكانه ، والغشية التى تصيب سعيداً عند ذكره .
 - (٣) مشروعية الصلاة عند القتل وأن خبيبا هو الذى سنه وأقره رسول الله ﷺ عليها .
 - (٤) بيان فضل ابن الدثنة فى رضاه بالموت ، ولا يصاب رسول الله ﷺ بشوكة تؤذيه .

- (٥) تقرير أن أصحاب رسول الله ﷺ يحبونه ﷺ أشد من حبهم لأنفسهم وذلك واجبه وواجب كل مؤمن ومؤمنة فى الحياة .

وثانى أحداثها :

حَدَّث بئر معونةَ الجَلَل

وفي هذه السنة الرابعة من هجرة الحبيب ﷺ حدث أفضع حادث ذلك هو حادث بئر معونة الذى ذهب ضحيّته سبعون صحابياً من خيرة الأصحاب نتيجة الغدر والخيانة .

وذلك أن أبا براء عامر بن مالك المعروف بملاعب الأسنة قدم على رسول الله ﷺ بالمدينة . فعرض عليه النبى ﷺ الإسلام ودعاه إليه فلم يُسلم ، ولم يبعد عن الإسلام ، وقال يا محمد لو بعثت رجلاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك . فقال رسول الله ﷺ إني أخشى عليهم أهل نجد ، قال أبو براء : أنا جار لهم ، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك فبعث رسول الله ﷺ سبعين رجلاً من خيرة الأصحاب ، منهم المنذر بن عمرو ، والحارث بن الصّمة ، وحرام بن ملحان ، وعامر بن فهيرة مولى الصديق ، وعروة بن أسماء بن الصّلت ، ونافع بن بديل ابن ورقاء ، فساروا حتى نزلوا بئر معونة وهى بين أرض بنى عامر وحرّة بنى سليم ، ولما نزلوها بعثوا حراماً بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل فلما أتاه لم ينظر فيه أى فى الكتاب حتى عدا على حرام فقتله ، ثم استصرخ عليهم بنى عامر قومه فأبوا أن يجيبوه إلى ماداعهم إليه ، وقالوا لن نخفر أبا براء وقد عقد لهم عقداً وجواراً فاستصرخ عليهم قبائل من بنى سالم من عصىة ورغل وذكوآن فأجابوه إلى ذلك حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم فى رحالهم فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ثم قاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم رحمهم الله أجمعين ، اللهم إلا ما كان من كعب بن زيد فإنهم تركوه بين القتلى وفيه رمق من حياة فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيداً فرضى الله عنهم أجمعين .

وكان عمرو بن أمية الضمري المضرى ، والمندر بن محمد بن عقبة الأنصارى فى سرح لقومهما ، فرأوا الطير تحوم على قتلى المؤمنين ، فقالا والله إن لهذه الطير لشأناً فأقبلا نحوها لينظرا فإذا القوم فى دمائهم ، والخيل التى قتلتهم واقفة ، فقال الأنصارى لعمرو ما ترى ؟ قال : نرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر فقال الأنصارى لكنى ما كنت لأرغب بنفسى عن موطن قتل فيه المندر بن عمرو وما كنت لتخبرنى عنه الرجال ، ثم قاتل القوم حتى قتل ، وأخذوا عمرو أسيراً فلما أخبرهم أنه من مضر تركوه ، وجز ناصيته عدو الله عامر بن الطفيل وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه .

وسار عمرو حتى إذا كان بالقرقرة أقبل رجلان من بنى عامر حتى نزلا بظل هو فيه فسألهما : ممن أنتم ؟ فقالا : من بنى عامر . فأهملهما حتى ناما ، ثم قتلهما أخذاً بثأر شهداء بئر معونة الذين قتلوا باستصراخ عامر بن الطفيل العامرى عليهم ولم يعلم بالعقد والجوار الذى لهما من رسول الله ﷺ ، فلما قدم على رسول الله ﷺ أخبره بما فعل ، قال له لقد قتلت قتيلتين لأدينيهما !! وآلم رسول الله ﷺ الخبر وحزن لذلك ، وقال : « هذا عمل إنى به براء فقد كنت لهذا كارهاً متخوفاً » ، وبلغ هذا أبا براء فشق عليه وآله ، كما بلغ بنيه تحريض حسان له على قتل عامر بن الطفيل فقام إليه ربيعة فطعنه فقتله إلى جهنم وبئس المهاد .

وهذه أبيات حسان فى تحريض بنى أبى البراء على قتل ابن الطفيل لعنه الله تعالى :

بنى أم البنين ألم يرعكم	وأنتم من ذوائب أهل نجد
تهكم عامر بأبى براء	ليخفره وما خطأ كعمد
ألا أبلغ ربيعة ذا المساعى	فما أحدثت فى الحدثان بعدى
أبوك أبو الحروب أبو براء	وخالك ماجد حكم بن سعد

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نذكرها إزاء الأرقام الآتية :

(١) بيان أن الغيب استأثر الله تعالى به ، إذ لو كان النبي ﷺ يعلم الغيب بدون إعلام الله تعالى له لما أرسل شهداء بئر معونة .

(٢) بيان ما بآء به عدو الله عامر بن الطفيل من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

(٣) فضيلة المنذر بن محمد بن عقبة الأنصاري ، إذ قاتل وحده طلباً للشهادة ففاز بها .

(٤) بيان ما بآءت به عصيَّة ورعل وذكوآن من غضب الله تعالى وعذابه .

(٥) مشروعية القنوت في الصلاة للدعاء على الظلمة ، ولرفع البلاء النازل على المؤمنين .

(٦) فضل شهداء كل من الرجيع وبئر معونة إذ ذهبوا ضحية الغدر والخيانة ، لنزول قرآن فيهم هذا نصه : « بلغوا قومنا عنا أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا ورضينا عنه » ثم نسخ .

وثالث أحداثها :

سريَّة عمرو بن أمية الضمري

إلى مكة لقتل أبي سفيان

ما زال أبو سفيان يتحسّر على فوته قتل النبي ﷺ ، حيث خاب أمله في ذلك بعد غزوة أحد التي كلفته أموالاً طائلة وأتعباً شديدة رجاء أن يثأر لقتلاه في بدر من محمد ﷺ ، الذي قتل رجاله وأسر أعداداً منهم في بدر .

ومن هنا فكر في خطة خسيصة وهي إرسال من يغتال محمداً ﷺ ، إذ قال بين رجاله ؛ ما أحد يغتال محمداً ؛ فإنه يمشي في الأسواق فندرك ثأرنا

منه ؟ فأتاه رجل من العرب فدخل عليه منزله وقال له : إن أنت وفيتني خرجت إليه حتى أغتاله ، فأني هادٍ بالطريق خريت معي خنجراً مثل خافية^(١) النسر ، فقال له أبو سفيان : أنت صاحبنا وأعطاه بغيراً ونفقة ، وقال له : اطو أمرك فأني لا آمن أن يسمع هذا أحد فيمنيه إلى محمد ، فقال الأعرابي : لا يعلمه أحد ، فخرج ليلاً فوصل المدينة في ستة أيام ، فعقل راحلته بحى بنى عبد الأشهل ، ثم أقبل قاصداً رسول الله ﷺ ، فوجده بين أصحابه يحدثهم في مسجده ، فلما دخل المسجد رآه الرسول ﷺ ، فقال : « إن هذا الرجل يريد غدراً ، والله حائل بينه وبين ما يريد » . فوقف وقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقال له الرسول ﷺ : « أنا ابن عبد المطلب » فذهب ينحني على رسول الله ﷺ كأنه يساره ، فجذبه أسيد بن حضير وقال : تنح عن رسول الله ﷺ ، وجذبه بداخل إزاره ، فإذا الخنجر ، فقال يا رسول الله : « هذا غادر » ، فأسقط في يد الأعرابي ، وقال : دمي دمي يا محمد ، وأخذه أسيد يلبيه ، فقال له النبي ﷺ : « أصدقني ما أنت وما أقدمك ؟ فإن صدقتي نفعلك الصدق ، فإن كذبتني فقد أطلعت على ما هممت به » . قال الأعرابي : فأنا آمن ؟ قال : « وأنت آمن » . فأخبره بخبر أبي سفيان بن حرب ، وما جعل له . فأمر به النبي ﷺ فحبس عند أسيد ابن حضير ، ثم دعا به من الغد ، فقال : « قد أمنتك فاذهب حيث شئت ، أو خير لك من ذلك » قال : وما هو ؟ فقال : « أن تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله » . فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله ، والله يا محمد ما كنت أفرق^(٢) من الرجال ، فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلي ، وضعفت ، ثم اطلعت على ما هممت به فما سبقت به الركبان ،

(١) الخافية والجمع خواف : ريشة من أربع ريشات ، إذ ضم الطائر جناحه خفيت .

(٢) أى ما كنت أخاف .

ولم يطلع عليه أحد فعرفت أنك ممنوع ، وأنت في حق ، وأن حزب أئى سفیان
حزب شیطان . فجعل النبى ﷺ يتسم ، وأقام أياما ثم استأذن النبى ﷺ
فخرج من عنده ولم یسمع له بذكر .

ولما حدث هذا الذى حدث من أئى سفیان من إرساله من یغتاى رسول
الله ﷺ بعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمیة الضمرى مع رجل من الأنصار
إلى مكة وأمرهما بقتل أئى سفیان بن حرب .

قال عمرو فخرجت أنا ومعى بعیر والرجل صاحبى علة^(١) ، فكنت أحمله
على بعیر حتى جئنا بطن یاجج فعقلنا بعیرنا بالشعب ، وقلت لصاحبى انطلق
بنا إلى أئى سفیان لنقتله ، فإن خشیت شیئا فالحق بالبعیر فارکبه والحق برسول
الله ﷺ وأخبره الخبر وَخَلَّ عَنى قال عمرو : فدخلنا مكة ومعى خنجر قد
أعددتہ إن عاقبنى إنسان ضربته به .

فقال لى صاحبى هل لك أن نبداً فطوف ونصلی ركعتین ؟ فقلت له :
إن أهل مكة یرشون أفیتهم بالماء مساءً؟ ويجلسون فیها ، وأنا أعرف بهم ،
قال فمشینا حتى أتینا البيت ، فطفنا به وصلینا ، ثم خرجنا ، فمررنا بمجلس
لهم فعرفنى بعضهم ، فصرخ بأعلى صوته هذا عمرو بن أمیة ، فثار أهل مكة
إلینا ، وقالوا ما جاء إلا لشر ، فقلت لصاحبى : أن جاء هذا الذى كنت
أحذر ، أما أبو سفیان فلیس إلیه سبیل ، فانج بنفسك . فخرجنا نشدد حتى
صعدنا الجبل ، فدخلنا غاراً بتنا فیہ لیلتنا ننتظر أن یسكن الطلب ، فوالله إنا
لفیه إذ أقبل عثمان بن مالک التیمی یتخیل بفرس له ، فقام على باب الغار ،
فخرجت إلیه ، فضربته بالخنجر ، فصاح صیحة أسمع أهل مكة ، فأقبلوا إلیه
ورجعت إلى مکانى فوجدوه و به رمق فقالوا : من ضربك ؟ قال عمرو بن

(١) أى جعله كالضرة له يقاسمه المركب وغيره .

أمية ، ثم مات ولم يقدر يُخبرهم بمكانى ، وشغلهم قتل صاحبهم عن طلبى فاحتملوه ، ومكثنا فى الغار يومين حتى سكن عنا الطلب ، ثم خرجنا إلى التنعيم ، فإذا بخشبة خبيب ، وحوله حرس ، فصعدت خشبته واحتملته على ظهرى ، فمشيت به نحو أربعين خطوة ، فعلموا به فطرحته ، واشتدوا فى أثرى ، فأخذت الطريق فأعيوا ورجعوا ، وانطلق صاحبى فركب البعير وأتى النبى ﷺ فأخبره ، وأما خبيب فلم يُر بعد ذلك ، وكأن الأرض قد ابتلعتة . وسرت حتى دخلت غاراً ومعى قوسى وأسهمى فبينما أنا فيه إذ دخل على رجل من بنى الدليل أعور طويل يسوق غنماً فقال : من الرجل ؟ قلت من بنى الدليل فاضطجع معى ورفع عقيرته يتغنى ويقول :

ولست بمسلم ما دمت حيا ولست أدين دين المسلمينا

ثم نام فقتلته ، ثم سرت فإذا رجلاان بعثتهما قريش يتحسسان أمر النبى ﷺ فرميت أحدهما بسهم فقتلته واستأسرت الآخر فقدمت به على النبى ﷺ وأخبرته الخبر فضحك ودعا لى بخير .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نجملها إزاء الأرقام التالية :

(١) مشروعية المعاملة بالمثل وهى فى كتاب الله تعالى إذ قال تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ إذ أبو سفيان هو الذى بدأ فبعث من يغتال له رسول الله ﷺ ، ولذا بعث رسول الله ﷺ من يقتل أبا سفيان .

(٢) تقرير القضاء والقدر ، إذ أبو سفيان قضى الله تعالى أن يسلم ويصبح فى عداد المسلمين بل فى عداد الأصحاب رضوان الله عليهم فلذا لم يتأت لعمر بن أمية قتله .

(٣) بيان شجاعة وبطولة عمرو بن أمية حتى لكانها نادرة فى الناس ، وفوزه بدعاء الرسول ﷺ له بالخير .

(٤) بيان تأثير الدعاية في عقول الناس ، وإلا فكيف يتغنى الراعى الدئلى بكونه غير مسلم وأنه لا يدين بدين المسلمين ؟

(٥) بيان مدى ما بذلته قريش في حرب الإسلام وإطفاء نوره ، ولم تقدر والحمد لله .

وأولى غزواتها :

غزوة بنى النضير

بنو النضير إحدى ثلاث طوائف كانت تسكن حوالى المدينة من اليهود ، وقد وادعهم الرسول ﷺ يوم قدم المدينة مهاجرين ، وكتب لهم بذلك كتاباً ، فنقضت بنو قينقاع عهدها أول ما نقض وذلك فى السنة الثانية وبعد غزوة بدر مباشرة كما تقدم استعراضه فى أحداث السنة الثانية فأجلاهم الرسول ﷺ ولم يقتلهم إذ قبل فيهم شفاعة حليفهم عبد الله بن أبى فخرجوا من المدينة ونزلوا أذرات بالشام وهلكوا بها . وهاهم أولاء بنو النضير ينقضون عهدهم اليوم بتآمرهم على قتل النبى ﷺ بصورة مكشوفة واضحة .

إنه بعد انتهاء وقعة أحد المؤلة جاء أبو براء العامرى زائراً المدينة فلاقى رسول الله ﷺ فعرض عليه الإسلام فلم يسلم ولم يرفض ، وقال للرسول ﷺ لو تبعث إلى ديارنا بعثاً من صالحى رجالك يدعون إلى أمرى فأبى أن يجابوا لذلك ، فأبدى النبى ﷺ تخوفاً على أصحابه فوعده أبو براء بأنه سيكون جاراً حتى لا يمسوا بسوء ، وبعث النبى ﷺ سبعين رجلاً من خيرة الأصحاب . وحدثت واقعة بئر معونة واستشهد فيها كافة الأصحاب . وإن عمرو بن أمية لما وقع فى أسر عامر بن الطفيل أعتقه وعاد عامر إلى المدينة وفى طريقه لقى رجلين من بنى عامر فقتلتهما ثأراً لشهداء بئر معونة ، وكان القتيلان معاهدين للنبى ﷺ ولم يعلم بذلك عمرو وأخبر النبى ﷺ بالحادث فقال النبى ﷺ : « لأدينهما » ، وفعلا جاء ذووهما يطالبون بديتهما .

وكانت معاهدة اليهود تقضى بأن يدى كل من الطرفين مالزمه من دية شرعية ، فخرج النبي ﷺ مع أبى بكر وعمر وعلى إليهم أى إلى بنى النضير يطالبهم بالإسهام فى دية العامريين بموجب المعاهدة ، فانتهى إلى ديارهم وذكر لهم ما جاءهم من أجله فأبدوا ارتياحا واستعدادا وأنزلوه مع أصحابه منزلا حسنا فى ظل جدار من بيت أحدهم . وأظهروا أنهم يسعون فى تحقيق طلبه ، وإذا بهم متآمرون على قتله ؛ إذ قالوا : إنها فرصة قد لا تتاح لكم فتخلصوا من الرجل بقتله ، وعينوا لذلك عمرو بن جحاش ، فقال : أنا لذلك ، فقالوا نطلع على السطح ونلقى عليه رحي من فوقه نقتله بها ، وأنكر عليهم سلام ابن مشكم عملهم ، وقال : لا تفعلوا ، لكنهم أجمعوا على أن ينفذوا خطتهم القدرة هذه . وقبل أن يفعلوا بدقائق أوحى الله تعالى إلى رسوله ﷺ بما هموا به من قتله فقام على الفور كأنه يقضى حاجة ودخل المدينة ، ولما استبطأه أصحابه قاموا ولحقوا به فأخبرهم بمؤامرة اليهود ، وأن خبر السماء قد سبقهم . وكان آية المائدة نزلت فى هذه الحادثة وهى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ﴾ . ولهذه الحادثة أشباه ، وتلى الآية عند كل واحدة منها تذكيرا بنعمة الله وفضله على المؤمنين ليشكروا بالصبر والطاعة .

وبعث إليهم محمد بن مسلمة يأمرهم بالخروج من جواره وبلده ، لنقضهم العهد الذى بينهم وبينه ، فبعث إليهم المنافقون وعلى رأسهم ابن أبى كبير المنافقين يشجعونهم على البقاء وعدم الجلاء ، وفى ذلك يقول تعالى من سورة الحشر : ﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ فى عدة آيات إلى قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وهم بنو قينقاع أهلكهم الله . ولما لم ينصاعوا للأمر بالجلاء لتشجيع المنافقين لهم أعلن القائد الأعظم الحبيب محمد ﷺ الحرب عليهم ، فولى على المدينة ابن أم مكتوم ، وخرج

إلهم برجاله ، فحاصرهم قرابة نصف شهر ، وأثناء ذلك هددهم بإحراق نخلمهم وقطعه وفعلا أحرق بعض المؤمنين طرفاً وقطعوا بعضاً ، وتآلم لذلك بعض المسلمين لا سيما لما قال اليهود للرسول ﷺ : عهدنا بك تنهى عن الفساد ، وتعيب صاحبه ، فكيف تأذن بإحراق النخيل ؟ . ونزل في ذلك قوله تعالى من سورة الحشر : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

ونزل اليهود أخيراً على حكم رسول الله ﷺ منصاعين لأمره ، وهوأن يخرجوا من المدينة حاملين أموالهم على إبلهم ، ما عدا الحلقة « السلاح » حتى لا يحاربوا بها مرة أخرى ، فأخذوا أموالهم الصامطة والناطقة حتى إن أحدهم يهدم سقف بيته ويحمل بعض أخشابه ، أو يهدّ نجف الباب ليأخذ الباب ، وفي هذا يقول تعالى : ﴿ يُخْرِبُونَ يَدْيَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ * وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُهم فِي الدُّنْيَا — بِالْقَتْلِ — وَلَهُم فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

وأجلى بنو النضير عن المدينة ، ولم يسلم منهم إلا رجлан ، هما يامين بن عمير ، وأبو سعيد بن وهب فأحرزا أموالها . ولما مر اليهود بخير بها سلام ابن أبي الحقيق ، وكنانة بن الربيع ، وحيى بن أخطب فاستقبلهم يهود خير بالطبول ، والمزامير ، والغناء بزهاء وفخر كأنهم أبطال فاتحون ، وما هم إلا خونة ناكثون مهزومون .

وقسم الحبيب محمد ﷺ أموال بنى النضير بين المهاجرين لا غير ؛ إذ هم أصحاب الحاجة حتى أنهم عالة على الأنصار . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن أموال بنى النضير لم تكن غنائم أحرزت بالقتال ، وإنما كانت فئاً أفاءها الله على رسوله بدون سفر ولا قتال . وفي هذا يقول تعالى من سورة الحشر : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِن خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ

وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * مَا أَفَاءَ
اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسَاكِينِ وَآبِنِ السَّبِيلِ كُنِيَ لَا يَكُونُ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ .

إلا أنه ﷺ قد شكّا إليه أبو دجانة ، وسهل بن حنيف حاجة فأعطاهما
خاصة دون بقية الأنصار رضوان الله عليهم أجمعين .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نوجزها فيما يلي :

- (١) تقرير مبدأ أن نقض المعاهدة إعلان للحرب .
- (٢) بيان الكمال الحمدي في الوفاء بالعهود والالتزام التام بالمعاهدات .
- (٣) بيان سجيّة من سجايا اليهود وهي نقض المعاهدات وكذا الحال بالنسبة
إلى الكفار إذا رأوا حاجتهم في النقض نقضوا لكفرهم بالله ولقائه .
- (٤) قد تقتضى الضرورة الحربية هدم الجسور وبعض الدور وقطع الأشجار
للضرورة .

- (٥) بيان أن الفىء خلاف الغنيمة صورة وحكما .
- (٦) ولوع اليهود بالمزامير والطبول والأغاني وحفلات الرقص والمجون في
كل زمان .

- (٧) بيان أن سورة الحشر جُلها نزل في يهود بنى النضير .

عبرة خاصة

عبرة لو كان هناك من يعتبر ؛ أنه لما أخرج بنو النضير من ديارهم ،
وتركوها خرابًا مرّ بها عمرو بن سَعْدَى اليهودى ، وكان متألّها في بنى قريظة
لا يفارق الكنيسة . فرأى خرابها ، وفقدان أهلها ، بعد ما كانوا يعمرونها ،
ولهم فيها طيب عيش وهدوء نفس وراحة بال ، فأتى بوق

الكنيسة ، فنفخ فيه فاجتمع رجال بنى قريظة فذكرهم بحال بنى النضير ، وحال بنى قينقاع من قبلهم وما حل بهم من ذل وهوان وخسران ، وقررهم بما يعرفون من التوراة ، وهو أن محمداً هو النبي الخاتم وأنه رسول الله ﷺ حقاً وصدقاً ، وأن النجاة في اتباعه والخسران في حربه والكفر به ومعاداته ، فأقرروا لما أكثر عليهم من الحجج والشواهد والبراهين . فقال له كعب بن أسد القرظي : ما يمنعك يا أبا عبد الرحمن من اتباعه ؟ ، قال : أنت يا كعب ، قال كعب : فلم والتوراة ما حلت بينك وبينه قط ؟ ، قال الزبير بن باطا بل أنت صاحب عهدنا . وعقدنا فإن اتبعته اتبعناه ، وإن أبيت أبيتنا . فاقبل عمر بن سعدى على كعب فذكر ما تفاولا في ذلك إلى أن قال عمرو ما عندى في أمره إلا ما قلت : ما تطيب نفسى أن أصير تابعا !!

وهكذا يحمل الكبر صاحبه على جحود الحق وإنكاره وإن خسر نفسه وأهله في الدنيا والآخرة ، وهو الخسران المبين .

وثانى غزواتها :

غزوة ذات الرقاع

ذكر في سبب هذه الغزوة أن بنى محارب وبنى ثعلبة من غطفان قد جمعوا الجموع وأجمعوا أمرهم على حرب رسول الله ﷺ ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج إليهم في أربعمائة مقاتل ، واستخلف على المدينة أباذر الغفارى ، أو عثمان بن عفان رضى الله عنهما وسار إليهم وهم بديار نجد فنزل (نخلا) وهو موضع من نجد في أرض غطفان .

ولما علم بمسيره ﷺ من أجمعوا أمرهم على قتاله تفرقوا ولحقوا برؤوس الجبال فلم يكن قتال ، وسميت هذه الغزوة بذات الرقاع ؛ لأنهم كانوا يعتقبون البعير كل ستة ببعير ، وكان الفصل صيفا ولم يطبقوا الحر فكانوا يُلقون الحرق على أرجلهم فسميت ذات الرقاع .

وحدث في هذه الغزوة ما يلي :

(١) أن النبي ﷺ لما بات برجاله بات في مضيق « شعب بين جبلين » وجعل على الحراسة مهاجرًا وهو عمار بن ياسر ، وأنصارياً وهو عباد بن بشر ، فخير أحدهما الآخر في حراسة أول الليل ، أو آخره . فاختر الأنصارى أول الليل ، فحرس ثم قام يصلى ويقرأ في سورة الكهف فجاء أحد القناصة من العدو ، فرماه بسهم فنزعه وواصل صلاته ، ثم رماه بآخر فنزعه ، وواصل صلاته ثم رماه بثالث فاستيقظ صاحبه ، فرأى الدم يسيل منه فسأله فأخبره فقال : لم لا توقظني ؟ فقال : إني كنت في سورة أقرأها فلم أحب أن أقطعها حتى أكملها ، فلما تابع على الرمي ركعت فأذنتك ، وإيم الله لولا أن أضيّع ثَقْرًا أمرني رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفسي قبل أن أقطعها أو أنفذها أى أتمها قراءة .

(٢) أن غورث الغطفاني قال لرجاله : ألا أقتل لكم محمداً ؟ قالوا : بلى ، وكيف تقتله ؟ قال : أفتك به ، وأخذ يتتبع جيش الإسلام ، فلما نزلوا في وادٍ كثير الأشجار ، وتفرقوا فيه للاستراحة تحت ظلال أشجاره ، وكان النبي ﷺ قد جلس تحت ظل شجرة وعلّق سيفه بها ، فجاء غورث الغطفاني في استخفاء وختل حتى أخذ السيف وأصلته ، وقال للرسول ﷺ : من يمنعك اليوم عني يا محمد ؟ فنظر إليه الرسول ﷺ وقال : « الله » . فانهار الرجل وسقط السيف من يده فأخذه رسول الله ﷺ ، وقال له : « من يمنعك مني اليوم ؟ » قال : لا أحد ، وجلس بين يدي رسول الله ﷺ وعاهده على أن لا يحارب ضده ، ورجع إلى قومه فأخبرهم فأسلم كثير على خبر هذه الحادثة .

(٣) أن جمل جابر بن عبد الله قد انقطع و أصبح لا يقدر على المشى إلا بصعوبة فمرّ به الحبيب محمد ﷺ وهو واقف والجمل حاسر بارك ، فقال له : « ناولني سوطه » فناوله إتياء فضرب به الجمل فقام وسار حتى كاد يسبق غيره .

ومن باب المطاوعة قال ﷺ لجابر : « أَتَيْعُيْهِ يَا جَابِر ؟ » قال : بَلْ أَهْبُهُ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : « لَا ، بَلْ يَغْنِيهِ » فساومه شيئاً فشيئاً حتى بلغ الثمن المطلوب فباعه إيَّاهُ ، واشترط جابر حملانه إلى المدينة ، فقبل النبي ﷺ الشرط . ولما وصلوا إلى المدينة جاء جابر بالجمل فأناخه على مقربة من بيوت النبي ﷺ ، وقال لبعضهم أخبر النبي ﷺ بأن جابراً جاء بالجمل فأخبره ، فقال ﷺ لعمّار : « أعط هذه الدراهم لجابر وقل له يأخذ جملة ، فإنه لا حاجة له به » . فأخذ جابر الجمل وثنه شاكراً لله ولرسوله فضلهما .

نتائج وعبر :

- إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نجملها في الآتي :
- (١) بيان مصداق قوله ﷺ : « نصرت بالرعب مسيرة شهر » .
 - (٢) مشروعية اتخاذ الحرس عند الخوف .
 - (٣) بيان كمال عباد بن بشر الأنصاري في خشوعه في صلاته وتدبره كلام الله تعالى .
 - (٤) آية النبوة المحمدية تتجلى في انهيار غورث وسقوط السيف من يده .
 - (٥) بيان الكرم المحمدي المتجلى في إعطاء جابر الجمل والثلثين معاً .
 - (٦) آية النبوة المحمدية في جمل جابر الذي أصابه الكلل والإعياء حتى انقطع ثم عاد خيراً مما كان ببركة ضربه له ورغبته في عودة صحته وسلامته .

وثالث الغزوات :

غزوة السَّوِّيق

أو

بدر الآخرة

سبب هذه الغزوة : أن أبا سفيان بن حرب لما كان عائداً من غزوة أحد

قال للنبي ﷺ وأصحابه موعدنا بدرًا عاما قابلا فقال النبي ﷺ لأصحابه « قولوا له نعم » . فقالوا : نعم إن موعدنا معك العام القابل ، فلما آن أوان الموعد استخلف النبي ﷺ على المدينة عبد الله بن رواحة ، أو عبد الله بن عبد الله بن أمي بن سلول ، وخرج في ألف وخمسمائة مقاتل ، وسار حتى وصل بدرًا ، وكان بها سوق كبيرة تقام سنويًا ولذا واعد أبو سفيان فيها النبي ﷺ وأصحابه . فباع النبي ﷺ وأصحابه واشتروا فربحوا ضعف رأس المال إذ ربح الدرهم درهمين ، وعادوا لم يمسسهم سوء ؛ إذ أبو سفيان لما خرج برجاله ووصل إلى قريب من عسفان رأى أنه لا فائدة من الحرب وخاف الهزيمة فخطب في رجاله فقال : إن هذا العام عام جذب ، ولا يصلح لكم إلا عام خصب فلذا أرى أن تعودوا ، فأكلوا أزوادهم وكانت سويقًا ورجعوا ، فقال أهل مكة يُنحون عليهم باللائمة كأنكم ما خرجتم للقتال ، وإنما خرجتم لأكل السويق فسميت هذه الغزوة أيضا بغزوة السويق .

وقال في هذه الغزوة كعب بن مالك شعرًا منه قوله :

وعدنا أبا سفيان بدرًا فلم نجد	لميعاده صدقًا وما كان وافيًا
فأقسم لو وافيتنا فلقيتنا	لأبت ذميًا وافقت المواليا
تركنا به أوصال عتبة وابنه	وعمرًا أبا جهل تركناه ثاويًا
عصيت رسول الله أف لدينكم	وأمركم السبي الذي كان غاويًا
فإنني وإن عنفتموني لقائل	فدئى لرسول الله أهلى وماليا
أطعناه فلم تعدله فينا بغيره	شهابًا لنا في ظلمة الليل هاديًا

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا هي الآتية :

(١) بيان الوفاء الحمدي الدال على الشجاعة النادرة إذ لم يهرب أبا سفيان كما رهب هو وولى من الطريق خائفًا .

(٢) مشروعية البيع والشراء في كل فرصة تسنح حتى في الجهاد والحج .

(٣) بيان مصداق حديث نصرت بالرعب مسيرة شهر ؛ لانزاع جيش أبي سفيان قبل الالتقاء بأرض الموعد وهي بدر .

(٤) تفسير قول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ فَظَلَّ لِمَنْ يَمَسُّهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ .

أهم ما وقع من أحداث في هذه السنة الرابعة من هجرة الحبيب محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم

تمت في هذه السنة وهي الرابعة من الهجرة أحداث يحسن ذكرها مجملة للتاريخ والعبرة إزاء النقاط السوداء الآتية :

● وفاة أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي ابن عمه رسول الله ﷺ برة بنت عبد المطلب .

● وفاة عبد الله بن عثمان بن عفان وهو ابن رقية بنت رسول الله ﷺ ، وله من العمر ست سنين .

● ولادة الحسين بن علي رضي الله عنهما وهو سبط النبي ﷺ لأنه ابن بنته فاطمة الزهراء رضوان الله عنها .

● زواج النبي ﷺ بزَيْنَب بنت خزيمة بن الحارث الهلالية والملقبة بأُم المساكين .

● تزوج الحبيب محمد ﷺ بأُم سلمة بعد وفاة زوجها أبي سلمة وانقضاء عدتها منه .

• أمر النبي ﷺ زيد بن ثابت الشاب الأنصارى أى يتعلم كتابة اليهود فتعلمها فى نصف شهر .

أحداث السنة الخامسة

ودخلت السنة الخامسة من هجرة الحبيب محمد ﷺ ، وكان أول أحداثها :

غزوة دومة الجندل

بلغ النبي ﷺ أن جمعًا من المشركين بدومة الجندل وهى قرية تبعد عن المدينة بمسافة خمس عشرة ليلة ، وعن دمشق بنحو من خمس ليال فهى إلى الشام أقرب ، وإن كانت من أعمال المدينة النبوية — يتلصصون ، ويؤذون المارة فأراد النبي ﷺ أن يؤدبهم من جهة — تخلصًا للبلاد من ظلمهم ، ومن جهة أخرى ليرعب الروم ، وكل من فى المنطقة حتى لا يفكروا فى حربه ﷺ ومن جهة ثالثة ينشر دعوة الله تعالى ويبلغها إلى سكان تلك الديار . فاستخلف على المدينة سباع بن عُرْفُطَة الغفارى ، وخرج فى ألف مقاتل ، وانتهى إلى تلك البلاد ، ولم يجد بها أحدًا ، إذ رعبوا وتفرقوا بمجرد أن علموا أن محمدًا قد خرج إليهم .

وأقام ﷺ بالمنطقة كذا يومًا ، أرسل فيها سرايا هنا وهناك ولم يعثروا إلا على المواشى من إبل وغنم ، فساقوا منها ما شاء الله ، وعاد الحبيب محمد ﷺ إلى المدينة ولم يلق كيدًا ، والحمد لله أولاً وآخراً .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نوجزها فيما يلى :

(١) بيان ما كان من الفوضى فى تلك الديار قبل الإسلام بدليل وجود

عصابات تتلصص فتؤذى المارة وتسلب أموالهم .

(٢) بيان ما أوتى النبى ﷺ من كمال السياسة وحسنها ، إذ خروجه إلى دومة الجندل حقق عدة أهداف شريفة منها إرعاب الروم ، ورفع الظلم والدعوة إلى الإسلام .

(٣) بيان مصداق قوله ﷺ : « ونصرت بالرعب مسيرة شهر » ، إذ بمجرد أن علم الظلمة بخروج النبى ﷺ إليهم حتى تفرقوا منهزمين والمسافة مسافة شهر .

(٤) مشروعية أخذ الغنائم فى الإسلام وحليتها لهذه الأمة المجاهدة المقيمة للعدل الناشرة للهدى والخير بين من تظلمهم تحت راية الإسلام .

وثانى أحداثها :

غزوة الخندق

أو

الأحزاب

هذه الغزوة نزلت فى بيان أحداثها الجسام سبع عشرة آية من سورة الأحزاب ، وهذه عناصر تكوينها متسلسلة ليسهل فهمها والانتفاع بعبرها .

١ - سبب وقوعها :

إن السبب الأقوى و المباشر لحدوث هذه الغزوة هو أن رؤساء بنى النضير الذين نزلوا بخير يوم جلائهم ، واحتفل بهم يهود خيبر وأقاموا لهم الأفراح يوم استقبالهم كما تقدم بيانه فى استعراض غزوة بنى النضير من السنة الرابعة من هجرة الحبيب محمد ﷺ .

هؤلاء الرؤساء وهم حى بن أخطب ، وعبد الله بن سلام بن أبى الحقيق ، وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق وغيرهم رأوا أن يثأروا لما أصابهم من الذل

والهوان ، وينقموا من الرسول ﷺ والمؤمنين ، فخرجوا إلى مكة لتأليب قريش ، تحزيب الأحزاب لقتال النبي ﷺ والقضاء عليه ، فوجدوا قريشاً مستعدة لذلك من أجل الهزائم التي لحقتها في غير ما ميدان وساحة قتال ، وضللها هؤلاء اليهود ؛ إذ أعلموها أنها على حق ، وأن دينها خير من دين محمد ، وأنها أهدى منه سبيلاً في حياتها الدينية والاجتماعية والسياسية . وفي هذا نزل قول الله تعالى من سورة النساء : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيًّا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴾ .

فخرجوا من عند قريش وتركوها تعد العدة وتجمع الرجال من قبائلها على اختلافهم مُجمعة الخروج إلى المدينة لحرب محمد ﷺ واستئصاله .

وذهب أولئك الرؤساء في الشر إلى قبائل غطفان يؤلبونهم على حرب محمد ﷺ فاستجابوا لهم لظلمة نفوسهم ، ولقوة تأثير كلام اليهود فيهم . وخرجت قبائل غطفان بزعامة عُيينة بن حصن ، وكل قبيلة معها سيدها . فمع بني فزارة عيينة ، ومع مرة الحارث بن عوف المزي ، ومع الأشجع مُسْعِر ابن ربيعة الأشجعي .

وخرجت قريش بقيادة أبي سفيان بن حرب ، وواصل كل سيرة فنزلت قريش بمجمع الأسياح قريباً من دومة بين الجرف والغابة ، وكان أفراد معسكرهم عشرة آلاف مقاتل من أحابيشهم ، ومن تبعهم من كنانة وبنو تميم . ونزلت قبائل غطفان شرق المدينة إلى جنب أحد الشرق . وفي هذا يقول تعالى من سورة الأحزاب : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ .

ب - حفر الخندق إجراء وقائي :

وكان النبي ﷺ قد سمع بتحركات اليهود وتحزيبهم الأحزاب لقتاله فذاه ألى وأمى فاستشار رجاله . فاقترح سلمان الفارسي حفر خندق حول جبل سلع تكون ظهور المسلمين إلى جبل سلع ووجوههم إلى الخندق فيمنعون كل مقتحم للخندق يريد الوصول إليهم . وأن يوضع النساء والأطفال في حصون المدينة وآطامها ، فاجتمعت الكلمة على حفر الخندق ، وأخذ المسلمون يحفرون معهم نبيهم ﷺ يخفر معهم . وقد وزع ﷺ الحفر عليهم فجعل لكل عشرة أنفار أربعين ذراعاً . واشتغلت الفؤوس والمساحي في الحفر ، والرجال في نقل التراب وإبعاده ، وكان بين الذين ينقلون التراب الحبيب ﷺ حتى علا جلده الطيب الطاهر ، وكان ذلك منه ﷺ تشجيعاً لهم على العمل ومواصلته حتى إنه كان إذا تقاولوا يقول معهم . فقد كانوا يرتجزون برجل من المسلمين يقال له جُعيل وسماه النبي ﷺ عَمْرًا فيقولون :

سمّاه من بعد جعيل عَمْرًا . فيقول ﷺ : « عَمْرًا »

وإذا قالوا : وكان للبائس يوما ظهرا . يقول هو ﷺ : « ظَهْرًا »

ولما رأى ﷺ ما بهم من التعب والجوع قال : « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة » « فاغفر للأنصار والمهاجرة » .

فقالوا هم مُجيبين له :

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً

وكان ﷺ ينقل التراب معهم ويردّد قول عبد الله بن رواحة :

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الألى قد بعوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا

جـ — آيات تظهر أثناء الحفر وبعده :

وتجلت أثناء حفر الخندق آية من آيات النبوة المحمدية وذلك أن كُذِيَّة قد اشتدت عليهم وهم يحفرون فشكوها إلى رسول الله ﷺ فقال : « أنا نازل » أى إليها داخل الخندق ، ثم قام وبطنه معصوب بحجر ؛ إذ لبثوا ثلاثة أيام لا يذوقون طعاماً فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب الكدية المستعصاة فعادت كثيباً أهيل . هذه آية ظاهرة .

وأخرى : قال جابر بن عبد الله قلت : يا رسول الله ائذن لى إلى البيت فأذن لى فأتيت امرأتى فقلت لها : إني رأيت برسول الله ﷺ شيئاً ، ما كان فى ذلك صبر ، فهل عندك شيء ؟ قالت : عندى شعير وعناق « جدى صغير » قال فذبحت العناق وطحنيت الشعير حتى جعلنا اللحم فى البرمة ، ثم جئت النبى ﷺ ، والعجين قد انكسر^(١) ، والبرمة بين الأثافي^(٢) كادت تنضج ، فقلت : طعيم لى فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان ، قال « كم هو ؟ » فذكرته له ، فقال : « كثير طيب قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتى » ، فقال : « قوموا » فقام المهاجرون والأنصار ، فلما دخل جابر على امرأته قال لها : ويحك جاء النبى ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم ، قالت : هل سألك ؟ قلت : نعم ، فقال : « ادخلوا ولا تضاعطوا » فجعل ﷺ يكسر الخبز ويغرف من البرمة حتى شبعوا وبقي بقيّة ، فقال لى : « كلى هذا وأهدى فإن الناس أصابتهم مجاعة » .

وثالثة : قال سلمان رضى الله عنه : ضربت فى ناحية من الخندق فغلظت على صخرة ورسول الله ﷺ قريب منى ، فلما رآنى أضرب ورأى شدة المكان على نزل فأخذ المعول من يدى فضرب به ضربة لمعت تحت المعول

(١) أى صار كسرة بمعنى نضج .

(٢) الأثافي جمع أثفية : حجر يوضع فوقه القدر .

برقة ، ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى ، ثم ضرب به الثالثة فلمعت برقة أخرى . قال سلمان فقلت له بأى أنت وأمى ما هذا الذى رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب ؟ قال : « أوقد رأيت ذلك يا سلمان ؟ » قلت : نعم . قال : « أما الأولى فإن الله فتح على باب اليمن وأما الثانية فإن الله فتح على باب الشام والمغرب وأما الثالثة فإن الله فتح على بها المشرق » .

د — موقف مخز للمنافقين :

لما شرع الرسول ﷺ والمؤمنون فى حفر الخندق كان المؤمنون يواصلون العمل ، وإن كانت لأحدهم حاجة ضرورية استأذن رسول الله ﷺ فأذن له فيذهب إلى أهله فيقضى حاجته ويعود ، أما المنافقون فإن أحدهم يُورى بقليل من العمل ثم يذهب إلى أهله بدون إذن ولا استئذان فى خفاء فأُنزل الله تعالى فيهم قوله : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ^(١) فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

ونزل فى المؤمنين الصادقين ثناء الله عليهم : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

هـ — مواجهة العدو :

وما إن تم حفر الخندق حتى وصلت قريش وعسكرت بجميع الأسيال قريباً من بئر دومة بين الجرف والغابة ، ووصلت غطفان بقبائلها فعسكرت شرق المدينة بجانب أحد ، وكان عامة أفراد قوات العدو تقدر باثنى عشر ألف مقاتل وخرج النبى ﷺ بأصحابه وكانوا قرابة ثلاثة آلاف مقاتل فجعلوا

(١) مستترين بشيء عند الهرب من العمل حتى لا يُروا .

ظهورهم إلى جبل سلع ووجوههم تجاه العدو ، بعد أن استعمل على المدينة ابن أم مكتوم الأعمى ، وجعل النساء والأطفال في الآطام^(١) والحصون .

و — عمل شرير يقوم به ابن أخطب :

وذهب حيي بن أخطب عليه لعائن الله إلى كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وعهدهم ، إذ كان قد عاقد الرسول ﷺ وعاهده على قومه ، فلما سمع كعب صوت حيي وعرفه أغلق باب حصنه دونه فاستأذن حيي فلم يأذن له فصاح حيي : ويحك يا كعب افتح لي ، فقال كعب : ويحك يا حيي فإنك امرؤ مشعوم ، وإني قد عاهدت محمدًا فلست بناقض ما بيني وبينه ، ولم أر منه إلا الوفاء والصدق . وما زال يُراوده على الفتح حتى فتح له الباب ودخل ، وكان أول ما قال قوله : ويحك يا كعب لقد جئتك بعز الدهر وببخر طام جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجمع الأسيال ، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بدّنب نَقَمَى إلى جنب أحد ، قد عاهدوني أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمدًا ومن معه . فقال له كعب جئتني والله بذل الدهر ، ويحك يا حيي ، فدعني وما أنا عليه ، وما زال حيي يراود كعبا حتى نقض عهده مع رسول الله ﷺ ، وبرىء مما كان بينه وبين محمد ﷺ . وبهذا نقضت قريظة عهدها مع رسول الله ﷺ ، وبلغ هذا النبي ﷺ فأرسل السعدين : سعد بن معاذ وسعد بن أنصار لتقصي الحقيقة ، ومعرفة ما إذا كانت قريظة قد نقضت عهدها حقًا . وذهب السعدان رضي الله عنهما ومن معهما وعادوا بالحقيقة المرة وهي أن قريظة قد نقضت عهدها وهي على أخص حال ، وقد أوصاهم رسول الله ﷺ إذا كانت قريظة قد نقضت عهدها أن لا يصرحوا بذلك ، ولكن يلحنوا به لحنًا حتى لا يفتتن الناس في المعسكر ، ولا يفت في أعضادهم ، ولذا قالوا : عضل والقارة أي كغدر عضل والقارة

(١) جمع أطم وهو الحصن أو البيت المرتفع .

بأصحاب الرجيع خبيب وأصحابه وهنا قام رسول الله ﷺ فكبر وقال :
« أبشروا يا معشر المسلمين » .

بنقض قريظة عهدها عظمت الفتنة واشتد البلاء وعظم الكرب ، وأصبحت
الحال كما وصف الله تعالى في كتابه إذ قال من سورة الأحزاب : ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ أى قريظة من فوق من الجنوب الغربى وقريش
وغطفان من أسفل إذ هم من الشمال الغربى والشرق ، ﴿ وَإِذْ رَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ — أى من شدة الخوف — ﴿ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا ﴾ — أى المختلفة وهذه حال المنافقين وضعفة الإيمان ، أما المؤمنون
الصادقون فهم كما قال تعالى فيهم : ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ إذ قال معتب بن قشير : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى
وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط !! وقال أوس
ابن قيطى يا رسول الله إن بيوتنا عورة من العدو أى مكشوفة له فأذن لنا أن
نخرج أى من المعسكر فراجع إلى ديارنا ، وهو ومن ماله من قومه المعينون
بقول الله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ فى آيات
كثيرة تكشف غوارهم وتُظهر نفاقهم .

ز — رحمة نبوية تتجلى فى عرض صالح :

ولما رأى الحبيب محمد ﷺ صعوبة الموقف وشدة البلاء ، وما أصاب
المسلمين من مخاوف بعث إلى عيينة بن حصن ، وإلى الحارث بن عوف وهما
قائدا غطفان يعرض عليهما صلحا وهو أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة على أن
يرجعوا بمن معهم من قومهم ، وتم الصلح حتى كتبت الوثيقة إلا أنها لم يشهد
عليها بعد ، وقبل التوقيع النهائى بعث رسول الله ﷺ إلى السعدين فذكر ذلك
لهما ، واستشارهما فيه فقالا له : يا رسول الله أمرا تحبه فتصنعه أم شيئا أمرك

الله به لا بد لنا من العمل به ، أم شيئاً تصنعه لنا ؟ قال : « بل شيء أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأئى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم^(١) من كل جانب فأردت أن أكثر عليكم من شوكتهم إلى أمرٍ ما » . فقال له سعد بن معاذ يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله ، وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرئى أو بيعاً أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا ؟ والله ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم . فقال رسول الله ﷺ « فأنت وذاك » ، فتناول سعد بن معاذ الصحيفة « الوثيقة » فمحا ما فيها من الكتابة ، ثم قال ليجهروا علينا .

ح — بداية المعركة :

ووقف الرسول ﷺ والمؤمنون وجها لوجه أمام العدو ، وتحركت خيل من قريش على رأسها عمرو بن عبد ود . فمروا بخيمات بنى كنانة فقالوا لهم تهيئوا يا بنى كنانة للحرب ، فستعلمون من الفرسان اليوم ؟ ثم أقبلوا تسرع بهم خيولهم حتى وقفوا على الخندق فلما رأوه قالوا : والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها ثم قصدوا مكاناً ضيقاً من الخندق فضربوا خيلهم فاقتحمت منه فجالت بهم بين السيخة وطلع ، وما إن رآهم المسلمون حتى خرج على بن أبى طالب فى نفر معه من المسلمين ووقفوا بينهم وبين الثغرة التى دخلوا منها بخيلهم ولما رأوا ذلك أقبلوا مسرعين نحو الثغرة التى أخذت منهم فوقفوا دونها وقال عمرو بن ود من يبارز ؟ فبرز له على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقال له : يا عمرو إنك قد كنت عاهدت الله تعالى ألا يدعوك رجل من قريش إلى خلتين إلا أخذتها منه ، قال له : أجل ! فقال له على

(١) أى اشتدوا عليكم .

إني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام فقال : لا حاجة لي بذلك ، قال عليّ فإني أدعوك إلى النزال ، فقال له : لم يا ابن أخى فوالله ما أحب أن أقتلك ، فقال عليّ لكنى والله أحب أن أقتلك فحمى عمرو عند ذلك ، فنزل عن فرسه وعقره وضرب وجهه ثم أقبل على عليّ ينازله فتنازلا وتجاولا فقتل عليّ عمراً ، ولما رأت خيل المشركين ذلك فرت هاربة مقتحمة الخندق . ولم يقدروا بعد هذه الجولة أن يقتحموا الخندق لا رجالاً ولا فرساناً ، وإنما همى الاقتناص والرماية حتى إن ابن العرقة رمى سعد بن معاذٍ بسهم وقال : خذها وأنا ابن العرقة^(١) ، فقال له سعد عرق وجهك في النار ، وكان سعد قد أصيب في أُكْحَلِهِ ، وقل من ينجو من الموت من أصيب إصابته ، ولذا دعا فقال : اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها فإنه لا قوم أحب إليّ أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه . اللهم إن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة ، ولا تمنني حتى تقرّ عيني من بنى قريظة ، وعظم البلاء وفرع الحبيب ﷺ إلى ربه يدعوه ويسأله النصر له والهزيمة لأعدائه فقال : « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزمهم » ، وقال له بعض أصحابه يا رسول الله هل من شيء نقوله ؟ فقد بلغت القلوب الحناجر ، فقال : « نعم ، قولوا اللهم اسْتُرْ عَوْرَاتِنَا وَآمِنْ رَوْعَاتِنَا » . وقد حالت المواجهة للعدو دون صلاة العصر حتى غربت الشمس فصلا بعد ذلك ودعا على المشركين فقال : « ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة الوسطى » ، صلاة العصر . وحصل هذا عدة مرات ، وذلك لأن صلاة الخوف لم ينزل القرآن بها بعد ، وإلا لصلوا على أى حال ولا يؤخرونها عن وقتها .

واستجاب الله دعوة رسوله وعباده المؤمنين الصادقين فساق إلى رسوله نعيم

(١) هى قلابة بنت سعيد تكنى أم فاطمة وهى جدة خديجة أى أم أمها هالة ، وقيل لها العرقة لطيب عرقها .

ابن مسعود الغطفاني بعد أن هداه إلى الإسلام فأسلم ، وأتى النبي ﷺ يقول له : يا رسول الله إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت ، فقال له رسول الله ﷺ « إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة » ، وخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة ، وكان لهم نديماً في الجاهلية ، فقال يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم ، قالوا صدقت لست عندنا بمتهم . فقال لهم إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم ، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونسأؤكم لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره ، وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهروهم عليه ، وبلدهم وأموالهم ونسأؤهم بغيره فليسوا كأنتم ، فإن رأوا نهزة^(١) أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل يبلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشrafهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تنجزوه ، فقالوا له لقد أشرت بالرأى .

ثم خرج من عندهم حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش قد عرفتم ودي لكم وفراق محمداً ، وإنه قد بلغني أمرٌ قد رأيته على حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم فاكتموه عني ، فقالوا نفعل . فقال : تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وقد أرسلوا إليه : إنا قد ندمنا على ما فعلنا ، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشrafهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقى منهم ؟ حتى نستأصلهم ؟ فأرسل إليهم أن نعم ، فإن بعثت إليكم يهود يلمسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً .

ثم خرج حتى أتى غطفان : فقال يا معشر غطفان إنكم أهلي وعشيرتي

(١) نهزة أى فرصة انتهزوها .

وأحب الناس إليّ ، ولا أراكم تهموني ، قالوا : صدقت ما أنت عندنا بمتهم ، قال فاكمثوا عني قالوا : نفعل فما أمرك ؟ فقال لهم ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم .

وكان من تدبير الله تعالى لرسوله والمؤمنين ليخرجهم من محنتهم أن أرسل أبو سفيان ورجال من غطفان إلى بنى قريظة وفي ليلة سبت يقولون لهم إنا لسنا بدار مقام قد هلك الخف والحافر فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً فإننا نخشى أن ضررستكم^(١) الحرب ، واشتد عليكم القتال أن تنشمروا^(٢) إلى بلادكم وتركونا والرجل في بلادنا ولا طاقة لنا به . فلما رجعت الرسل إلى قريش وغطفان بما قالت بنو قريظة قالوا والله إن الذي حدثكم به نعيم بن مسعود لحق فأرسلوا إلى بنى قريظة : إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم : إن الذي ذكر لكم نعيم لحق ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا فإن رأوا فرصة انتهزوها ، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم واخلوا بينكم وبين الرجل في بلادكم ، فأرسلوا إلى قريش وإلى غطفان : إنا والله لا نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً فأبوا عليهم ، وخذل الله تعالى بينهم . فلم يعزموا على القتال ، وأرسل الله عز وجل عليهم الريح في ليل شاتية باردة شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتقتلع خيامهم ، وما أطاقوا المقام فقرروا العودة فوراً إلى بلادهم ، وارتحلوا عائدين لم ينالوا خيراً ، وكفى الله رسوله والمؤمنين قتاهم ، وكان الله قوياً عزيزاً . وأنزل في ذلك قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ وقوله : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا

(١) نالتكم الحرب بأضرارها كناية عما تلحق بهم من موت وهزيمة .

(٢) تنقبضوا وتسرعوا إلى بلادكم .

بِعِظْهُمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ﴿١﴾ .

ولنستمع الآن إلى حذيفة بن اليمان رضى الله عنه يحدثنا عن مشاهدته لمعسكر أبى سفيان فى تلك الليلة الباردة وهو يعلن الرحيل بسرعة .

قال رضى الله عنه : وقد قال له رجل من أهل الكوفة يا أبأ عبد الله أرأيتم رسول الله وَصَحِبْتُمُوهُ ؟ قال : نعم يا ابن أخى ، قال فكيف كنتم تصنعون ! قال والله لقد كنا نجهد ، فقال السائل لحذيفة والله لو أدركناه ما تركناه يمشى على الأرض ، ولحملناه على أعناقنا . فقال حذيفة يا ابن أخى ، والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق وصلى رسول الله ﷺ هُوِيًّا^(١) من الليل ثم التفت إلينا فقال : « مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فَيَنْظُرُ لَنَا مَا فَعَلَ الْقَوْمُ ثُمَّ يَرْجِعُ » — فشرط له رسول الله ﷺ الرجعة — « أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ » . فما قام رجل من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد ، فلما لم يَقم أحد دعانى رسول الله ﷺ فلم يكن لى بدُّ من القيام حين دعانى . فقال : « يا حذيفة اذهب فادخل فى القوم فانظر ما يصنعون ولا تُحَدِّثَنَّ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنَا » قال فذهبت فدخلت فى القوم والريح وجنود الله « الملائكة » تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم نارًا ولا قدرًا ولا بناءً ، فقام أبو سفيان فقال : يا معشر قريش لينظر امرؤ من جلسه ؟ قال : حذيفة فأخذت بيد الرجل الذى إلى جنبى ، فقلت : من أنت ؟ قال فلان بن فلان ، ثم قام أبو سفيان فقال يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم ما نكره ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا إني مرتحل ، ثم قام إلى جملة وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم ولولا عهد رسول الله ﷺ

(١) هوى أى قطعة من الليل .

إلى: « لا تُحدث شيئاً حتى تأتيني » ثم شئت لقتلته بسهم قال فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي في مرط^(١) لبعض نسائه . فلما رآني أدخلني إلى رجليه وطرح عليّ طرف المرط ، ثم ركع وسجد وإني لفيه ، فلما سلم أخبرته الخبر . وسمعت غطفان بما فعلت قريش فأنسحروا راجعين إلى بلادهم . وهناك قال الحبيب ﷺ : « الآن نغزوهم ولا يغزونا » ، وحقاً لم تغز بعدها قريش النبي ﷺ حتى غزاهم في عقر دارهم ودخل مكة عليهم . ولما أصبح رسول الله ﷺ من تلك الليلة عاد إلى المدينة وعاد أصحابه ، والحمد لله .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نجملها إزاء الأرقام التالية :

(١) موقد نار حرب غزوة الخندق هم رؤساء يهود بنى النضير : حبي ابن أخطب وسلام بن مشكم وكنانة بن الربيع . وما زال اليهود يوقدون نيران الحرب إلى اليوم .

(٢) بيان خيانة وغدر عيينة بن حصن الغطفاني إذ وادعه الرسول واقتطع له أرضاً وغدر .

(٣) فضل سلمان الفارسي في إرشاده المؤمنين إلى حفر الخندق ، وقول الرسول فيه : « سلمان منا آل البيت » لما تنازعه كل من المهاجرين والأنصار .

(٤) تجلّى آيات النبوة المحمدية عند حفر الخندق في ثلاثة مواطن وهي تفتّت الصخرة حتى كانت كثيباً مهيلًا ، وما أعلنه عند كل بارقة برقت إذ كان ما أخبر به كما أخبر . وإطعام المئات بصاع شعير وجدى من الماعز .

(١) كساء .

(٥) بيان أن هذه الغزوة كانت تمحيصا للمؤمنين ، وكشفا لعوار المنافقين .
(٦) تجلى الرحمة المحمدية في سعيه ﷺ للصالح مع العدو الغازى ليخفف به على المؤمنين .

(٧) جلال موقف سعد بن معاذ في رفضه الاتفاقية إيمانا وتوكلا وصبرا وصدقاً .

(٨) ظهور بطولة على بن أبى طالب في منازلته عمرو بن ود وقتله إياه في جولات محدودة .

(٩) عظم مصاب المسلمين في سعد بن معاذ وهو القائل عند قدومه على المعركة :

لَبَّثَ قَلِيلًا يُدْرِكُ الْهَيْجَا جَمَلٌ لَا بَأْسَ بِالْمَوْتِ إِذَا حَانَ الْأَجَلُ
(١٠) استجابة الله تعالى دعاء رسوله والمؤمنين .

(١١) عظم دور نعيم بن مسعود في تخذيل كل من اليهود والمشركين .
(١٢) تقرير حقيقة سياسية رشيدة وهى عدم الأخذ بنصائح العدو مهما كان صادقا ووجوب الحذر منها تجلت هذه الحقيقة في دور نعيم الذى قام به في تخذيل العدو في قالب نصائح لا نظير لها .

(١٣) فضل حذيفة بن اليمان لاختيار الرسول ﷺ له وبعثه لاستطلاع حال العدو ، وفوزه بمرافقة الحبيب ﷺ في الجنة .

(١٤) تفسير آيات الأحزاب الواردة في غزوة الأحزاب وهى نحو من سبع عشرة آية .

وثالث أحداثها :

غزوة بنى قريظة

بنو قريظة إحدى طوائف اليهود الثلاث الذين كانوا يسكنون حول المدينة النبوية ووادعهم رسول الله ﷺ ونقضوا عهدهم واحدة بعد واحدة ،

وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ فاليهود إلى اليوم لا يفون بعهد ، ولا يلتزمون بميثاق ، فكان النكث والغدر وصفا لازما لهم إلا من شاء الله منهم .

فبنو قريظة نقضوا عهدهم وانضموا إلى معسكر المشركين المحاصرين للمدينة الذين جاءوا لاستئصال الرسول والمؤمنين — خيَّب الله مسعاهم — فهذا وجب قتالهم وتعين قتلهم أو إجلأؤهم عن البلاد وإخراجهم منها .
كان هذا سبب غزوة بنى قريظة وهو نقضهم للمعاهدة وانضمامهم إلى المشركين الغزاة الظالمين المعتدين .

بداية غزوهم :

لما عاد الرسول ﷺ والمؤمنون من الخندق وذلك يوم الأربعاء من أواخر شهر ذى القعدة من سنة خمس من الهجرة ، ودخلوا المدينة فلما كان وقت الظهر أتى جبريل عليه السلام النبي ﷺ معتجراً^(١) بعمامة من إستبرق على بغلة عليها رحالة^(٢) ، عليها قطيفة من ديباج فقال : « أوقد وضعت السلاح يا رسول الله ؟ » قال : « نعم » ، فقال جبريل : « فما وضعت الملائكة السلاح بعد ، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم . إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بنى قريظة فأني عامد إليهم فمززل بهم » .

واستجاب الرسول الحبيب ﷺ لأمر ربه تعالى فعين على المدينة ابن أم مكتوم ، وأمر ابن عمه علي بن أبي طالب أن يتقدم برايته إلى بنى قريظة بحسب نبضهم ، ومعرفة أحوالهم ، وما هم عليه . وأذن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس أن احضروا فوراً إلى النبي ﷺ فحضروا فأمرهم بالمسير إلى بنى

(١) الاعتجار بالعمامة : أن لا يُجعل شيء منها تحت اللحية .

(٢) الرحالة : السرج .

قريظة ، وقال لهم : « لا يُصَلِّينَ أَحَدُكُمْ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قَرِيظَةَ » . وخف الناس وخرجوا ، وحانت صلاة العصر ، فمنهم من صلاها في طريقه متأولاً قول الرسول ﷺ ، ومنهم من لم يصلها حتى دخل الليل عملاً بظاهر النص : « لا يصليَنَّ أَحَدُكُمْ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قَرِيظَةَ » ولم يعب النبي ﷺ على من صلى ولا من أخر ، إذ الكل عامل بطاعته ﷺ .

وخرج الحبيب ﷺ مع بعض أصحابه فإذا بعلي رضي الله عنه عائد من بني قريظة وقال للرسول ﷺ لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخبار فقال الرسول ﷺ : « لَمْ ؟ أَظُنْكَ سَمِعْتَ مِنْهُمْ لِي أَذَى ؟ » قال : نعم . قال : « لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً » ، وكانوا قد نالوا من الرسول شيئاً لما دنا منهم علي وخاطبهم . وسار الحبيب ﷺ حتى وصل إلى ديارهم ودنا من حصونهم ناداهم قائلاً : « يا إخوان القردة هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمه ! » قالوا يا أبا القاسم ما كنت جهولاً .

وأثناء مسيره ﷺ إلى بني قريظة مرّ بنفر من أصحابه فسألهم : « هل مر بكم أحد ؟ » قالوا : يا رسول الله مرّ بنا دحية بن خليفة الكلبي على بغلة بيضاء عليها رحالة عليها قطيفة ديباج ، فقال رسول الله ﷺ : « ذلك جبريل بُعث إلى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب في قلوبهم » . ونزل الحبيب ﷺ وأصحابه على بئر من آبار بني قريظة يقال لها : أنا أو أني ، ولما تلاحق المسلمون حاصرهم ﷺ ، وطلب منهم النزول فأبوا أن ينزلوا وفي هذه الأثناء ، وعندما جردهم الحصار وأيقنوا أن النبي ﷺ لا يفلتهم قام فيهم كعب بن أسد أحد أشرافهم ، وهو صاحب الحل والعقد بينهم فقال لهم يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً فخذوا أيها شعثم ، قالوا : وما هي ؟ قال نتابع هذا الرجل ونصدقه ، فوالله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل ، وأنه الذي تجدونه في كتابكم ، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم ، قالوا : لا نفارق حكم التوراة

أبدًا ، ولا نستبدل به غيره . قال فإذا أيتّم هذه فهلّم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصليّين السيوف لم نترك وراءنا ثقلًا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه ، وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء . قالوا : نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم ؟ قال فإن أيتّم على هذه فإن الليلة ليلة سبت ، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمّنونا فيها ، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة ، قالوا نفسد سبتنا علينا^(١) ، ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا إلا من قد علمت فأصابهم ما لم يخف عليك من المسخ .

وهنا قال كعب : ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازمًا .

عرض مرفوض :

ولما اشتدت حيرتهم ، وعظمت مخاوفهم أنزلوا رجلا منهم هو شاس بن قيس ليفاوض رسول الله ﷺ في شأنهم فنزل وكلم رسول الله ﷺ وعرض عليه أن يعاملهم معاملة بنى النضير بحيث يخرجون بأموالهم ونسائهم وأولادهم ، ويتركوا السلاح فأبى ذلك رسول الله ﷺ ، فقال شاس تحقن دماءنا وتعطينا النساء والذرية ولا تأخذ من أموالنا شيئا فأبى ﷺ إلا أن ينزلوا على حكمه ، فعاد شاس فأخبرهم بنتيجة المفاوضات وأنها في غير صالحهم .

وآخر مقبول :

ولما رفض رسول الله ﷺ مقترحهم بعثوا إليه يطلبون أن يبعث إليهم أبا لبابة ليستشيره في موضوع النزول على حكم رسول الله ﷺ ، وكان أبو لبابة أوسياً وقريظة كانت حلفاء الأوس . فبعث إليهم النبي ﷺ أبا لبابة

(١) إشارة إلى الذين اعتدوا في السبت بالصيد فمسخوا قردة .

فدخل عليهم حصنهم فما إن رأوه حتى قام إليه الرجال وجهش النساء والصبيان بالبكاء فرق لهم أبو لبابة . فقالوا له يا أبا لبابة أنزل على حكم محمد ؟ قال : نعم ، وأشار بيده إلى حلقة أى إنه الذبح !!

عثرة كريم أقالها الله جل جلاله :

وخرج أبو لبابة من عندهم وهو يقول : والله ما زالت قدماي في مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله ﷺ ، ولذا انطلق على وجهه ، ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ربط نفسه في سارية المسجد ، وقال : لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليّ مما صنعت ، وعاهد الله أن لا يطأ بنى قريظة أبداً ، ولا يرى في بلد خان فيه الله ورسوله أبداً . وكانت آية الأنفال تعنيه وهي قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

ولما بلغ النبي ﷺ خبره وكان قد استبطأه فلم يأت قال : « أما إنه لو جاءني لاستغفرت له ، فأما إذ قد فعل ما فعل ، فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه » ، وقضى أبو لبابة كذا يوماً مربوطاً تأتى امرأته وقت الصلاة فتطلقه فإذا صلى ارتبط .

وفي سحر الليلة السادسة من ارتباطه سمعت أم سلمة النبي ﷺ يضحك فقالت له : مم تضحك يا رسول الله ؟ أضحك الله سنك قال : « تيب على أبا لبابة » قالت : أفلا أبشره يا رسول الله ؟ وكان الحجاب لم يضرب بعد على نساء النبي والمؤمنين قال : « بلى » فقامت على باب حجرتها وقالت : يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك فثار الناس إليه ليطلقوه فقال : لا ، والله حتى يكون الرسول ﷺ هو الذي يطلقني بيده فلما مرّ عليه الرسول ﷺ خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه .

في ليلة نزول قريظة :

وفي ليلة نزول قريظة على حكم رسول الله ﷺ أكرم الله أربعة أنفار من اليهود فأسلموا ثلاثة منهم ليسوا من بنى قريظة والرابع قرطى ، فغير القرطيين هم ثعلبة بن سعية ، وأسيد بن سعية وأسد بن عبيد وهم من بنى هديل فليسوا قرطيين ولا نصرين . والقرطى هو عمرو بن سعدى القرطى فإنه أبى أن يدخل مع قريظة في غدرها لرسول الله ﷺ ، وقال لا أغدر محمداً أبداً ، ومّر في الليل بحرس رسول الله ﷺ الذى عليه محمد بن مسلمة فعرفه محمد بن مسلمة ، وقال اللهم لا تحرمنى إقالة عثرات الكرام وخلصى سبيله فذهب على وجهه حتى أتى مسجد الرسول ﷺ فبات به تلك الليلة . ثم ذهب فلم يدر أين توجه من الأرض إلى يومنا هذا . ولما ذكر لرسول الله ﷺ قال : « ذاك رجل نجاه الله بوفائه » .

نزول بنى قريظة على حكم رسول الله ﷺ :

ولما أصبح الصباح وأعلن عن نزول بنى قريظة على حكم رسول الله ﷺ توافد رجال الأوس على رسول الله ﷺ ، وقالوا يا رسول الله إنهم موالينا دون الخزرج ، وقد فعلت في موالى إخواننا بالأمس ما قد علمت ، وهو أنه قد وهب بنى قينقاع لابن أبى الخزرجى لما ألح عليه في ذلك شافعاً فيهم بوصفهم مواليه أى أحلاف الخزرج فقال لهم ﷺ : « ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ » قالوا : بلى ، قال ﷺ « فذلك إلى سعد بن معاذ » .

من المستشفى إلى المحكمة :

لقد أصيب سعد في الخندق بسهم في أكحله ودعا ربّه أن لا يتوفاه حتى يُريّه نقمه في بنى قريظة الخونة الغادرين ، ولما هزم الله المشركين وارتحلوا وعاد النبى ﷺ والمؤمنون إلى المدينة وضع رسول الله ﷺ سعد بن معاذ في خيمة

رفيدة الأسلمية مسجده ﷺ التي اتخذتها مثل المستشفى تعالج فيها الجرحى من فقراء المسلمين وضعفائهم ، محتسبة ذلك عند الله ترجو ثوابه يوم القيامة وأمر النبي ﷺ بوضع سعد في خيمة رفيدة من أجل أن يقرب منه ليعوده من قريب .

ولما حكمه ﷺ في بنى قريظة أتاه قومه من الأوس فحملوه على حمار قد وطأوا له بوسادة من آدم ، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون يا أبا عمرو أحسين في مواليك ، فإنما ولاك رسول الله ذلك لتحسن فيهم ، فلما أكثروا عليه قال : لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم . وهنا فهم القوم أن سعدا سوف لا يرحمهم فنعى بعضهم إلى بعض رجال بنى قريظة قبل أن يصل إليهم سعد ولما وصل سعد قال رسول الله ﷺ : « قوموا إلى سيدكم » فقاموا إليه وأنزلوه من على الدابة وقالوا له يا أبا عمرو إن رسول الله ﷺ قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم ، فقال لهم سعد : عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيه ما حكمت ؟ قالوا : نعم : وغلى من ها هنا ؟ يشير إلى الناحية التي فيها رسول الله ﷺ جالس ، وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالا له وتوقيرا ، فقال رسول الله ﷺ : « نعم » . قال سعد فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال وتُسبى الذراري والنساء . فقال رسول الله ﷺ : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة^(١) » .

كيف نزل القرطيون من حصونهم :

إنه لما صدر حكم الله تعالى على لسان سعد بن معاذ في بنى قريظة ، ورضى الحكم رسول الله ﷺ والمؤمنون ووافقوا عليه مجتمعين كان القرطيون

(١) جمع رقيق والمراد السموات السبع لأنه رقعة فوق أخرى .

ساعتئذ في حصونهم ، وقد أبوا أن ينزلوا على حكم سعد ، فصاح على بن أئى طالب قائلاً يا كتيبة الإيمان ، وتقدم هو والوزير بن العوام ، وقال : والله لأذوقنّ ما ذاق حمزة أو لأقتحننّ حصنهم فصاح اليهود وقالوا يا محمد ننزل على حكم سعد بن معاذ ، ونزلوا فاقتيدوا إلى المدينة وجبسوا في دار بنت الحارث : امرأة من بنى النجار يقال لها : نُسَيَّةُ بنتُ الحارث .

تنفيذ الحكم :

ثم خرج الحبيب محمد ﷺ إلى سوق المدينة وأمر بحفر أخاديد فيها ، ثم أمر أن يؤتى بهم أرسالا فتضرب أعناقهم ويلقون في تلك الأخاديد ، وكانوا قرابة السبعمائة رجل من بينهم كعب بن أسد رئيسهم ، وعدو الله حبي بن أخطب النضرى محزّب الأحزاب لحرب رسول الله ﷺ والمؤمنين وقد قالوا لكعب وهم يساقون أرسالا إلى رسول الله ﷺ إلى أين يذهب بنا يا كعب ؟ فقال لهم أفى كل موطن لا تعقلون ؟ ألا ترون الداعى لا ينزع ، وأنه من ذهب به منكم لا يرجع ؟ هو والله القتل !! وأخيراً جىء بعدو الله حبي بن أخطب عليه حلّة فقاحية^(١) قد شقها من كل جهاتها حتى لا ينتفع بها المسلمون جىء به مجموعة يدها إلى عنقه فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال : أما والله ما لمت نفسى في عداوتك ، ولكنه من يخذل الله يخذل ثم أقبل على الناس ، وقال أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر ، وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل ، ثم جلس فضربت عنقه .

القرظية العجب :

لقد أعدم كل من أنبت الشعر واحتلم من ذكران بنى قريظة إلا رفاعة فقد استوهبته سلمى بنت قيس أم المنذر النجارية النبى ﷺ فقالت يا رسول

(١) موشاة بالحمرة كالورد .

الله بأبى أنت وأمتى هب لى رفاعة فإنه قد زعم أنه سيُصلّى ويأكل لحم الجمل فوهبه لها فاستحيته أما نساؤهم فلم يقتل منهم إلا امرأة واحدة قُتلت بجنابة ارتكبتها^(١) . وكانت المرأة عجبا فى حياتها . ولترك لأُم المؤمنين عائشة تحدثنا عنها :

حدث عروة بن الزبير عن خالته عائشة رضى الله عنها قال : إنها قالت لم يُقتل من نساء بنى قريظة إلا امرأة واحدة إنها والله لعُبدى تتحدث معى وتضحك وتتقلبُ ظهرًا لبطن من الضحك ، ورسول الله ﷺ يقتل رجالها فى السوق ؛ إذ هتف هاتف باسمها : أين فلانة ؟ قالت : أنا والله ، فقلت لها : ويلك مالك ؟ قالت : أقتل . قلت : ولم ؟ قالت يحدث أحدثته ، فانطلق بها فضرب عنقها . فكانت عائشة تقول : والله ما أنسى عجبا منها طيب نفسها وكثرة ضحكها ، وقد عرفت أنها تقتل .

وقرظىُّ أعجب :

هذا القرظىُّ الأعجب حالًا من القرظية العجب هو الزبير^(٢) بن باطا أحد أعيان بنى قريظة . وكان هذا الزبير قد منَّ على ثابت بن قيس بن شماس فى الجاهلية ، وذلك فى حرب بُعات ؛ إذ قد جرَّ ناصيته وخلى سبيله ، فجاء ثابت وهو شيخ كبير فقال يا أبا عبد الرحمن هل تعرفنى ؟ قال وهل يجهل مثلى مثلك ؟ قال إنى أردت أن أجزيك بيدك عندى ، قال الزبير إن الكريم يجزى الكريم .

ثم أتى ثابت النبىَّ ﷺ فقال يا رسول الله إنه قد كان للزبير بن باطا على منة ، وقد أحببت أن أجزيه بها فهب لى دمه . فقال رسول الله ﷺ « هو

(١) كانت قد طرحت الرِّحَا على خلال بن سويد فقتلته .

(٢) الزبير بفتح الزاى بخلاف الزبير بن العوام فبضم الزاى .

لك « فأتاه فقال له : إن رسول الله ﷺ قد وهب لي دمك فهو لك ، فقال الزبير : شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة ؟ فأقْبى ثابت رسول الله ﷺ فقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله هب لي امرأته وولده ، قال : « هم لك » فأتاه فقال له قد وهب لي رسول الله ﷺ أهلك وولدك فهم لك ، فقال : أهل بيت في الحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك ؟ فأقْبى ثابت رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله ماله ، قال « هو لك » فأتاه ثابت فقال قد أعطاني رسول الله ﷺ مالك فهو لك ، قال أى ثابت : ما فعل الذى كَانَ وجهه مرآة صينية يترأى فيها عَنَارَى الحَيِّ كعب بن أسد ؟ قال : قتل . قال فما فعل سيّد الحاضر والبادى حبي بن أخطب قال قتل ، قال فما فعل مُقَدِّمَتَنَا إذا شددنا وحاميتنا إذا فررنا عزّال بن سمّوع ؟ قال : قتل ، قال فما فعل المجلسان ؟ يعنى بنى كعب بن قريظة . وبنى عمرو بن قريظة ؟ قال : ذهبوا قتلوا ، قال فأقْبى أسألك يا ثابت بيدي عندك ألا ألحقتنى بالقوم فوالله ما فى العيش بعد هؤلاء من خير . فما أنا بصابر لله قِتْلَةً^(١) دَلُو ناضِحٍ حتى ألقى الأُحْبَةَ ، فقدّمه ثابت فضرب عنقه .

ولما بلغ أبا بكر الصديق قوله : « ألقى الأُحْبَةَ » قال يلقاهم والله فى نار جهنّم خالداً فيها مخلداً .

أموال بنى قريظة :

بناءً على حكم سعد بن معاذ الذى وافق فيه حكم الله تعالى ورضيه رسوله محمد ﷺ فإن أموال بنى قريظة كنسائهم وذرياتهم تقسم على المسلمين فلذا قسمها رسول الله ﷺ فأعطى للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهماً بعد أخذ الخمس الذى هو لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ،

(١) إفراغة دلو أى زمن ما يفرغ دلو ماء . كناية عن أقصر زمن .

وعلى هذه السنة مضت في الإسلام قسمة الغنائم إلا أن بعض أئمة الفقه يرى أن الفارس يُعطى سهمين والراجل يعطى سهمًا واحدًا .

ثم بعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأنصارى أخا بنى عبد الأشهل بسبايا من سبايا بنى قريظة إلى نجد فباعهم واشترى بثمانهم خيلا وسلاحًا للمسلمين .

ريحانة الحبيب ﷺ :

ريحانة امرأة من بنى عمرو بن قريظة اصطفاها رسول الله ﷺ قبل قسمة السبايا وعرض عليها الزواج بها ويضرب عليها الحجاب فأبت ، وقالت يا رسول الله اتركنى فى ملكك فهو أخفّ علىّ وعلىّ فتركها ، وعرض عليها الإسلام فأبت إلا اليهودية فغزها ﷺ ووجد فى نفسه لذلك من أمرها فبينما هو مع أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه فقال : « إن هذا لشعلبة بن سعية يشترى بإسلام ريحانة » . فجاء فقال يا رسول الله قد أسلمت ريحانة فسرّه ذلك من أمرها فكانت عنده ﷺ حتى توفى وهى فى ملكه رضى الله عنها .

وفاة سعد بن معاذ رضى الله عنه :

بعد أن حكم سعد بن معاذ فى بنى قريظة بحكمه الذى وافق حكم الله ورسوله عادوا به إلى خيمة رفيدة بالمسجد النبوى ، تعالجه وتشرف عليه رفيدة .

ولما فرغ رسول الله ﷺ من بنى قريظة حيث تم قتل رجالهم وقسمة أموالهم ، ونسائهم وذرائعهم . وفى ذات ليلة انفجر عرق سعد الذى كان قد رقأ حتى أقر الله تعالى عينه بهلاك بنى قريظة ، كما سأل ربّه ذلك ، فأتى النبى ﷺ جبريل وقال له : يا محمد من هذا الميت الذى فتحت له أبواب السماء واهتز له العرش ، فقام ﷺ سريعًا يجر رداءه إلى سعد ولحق به أبو بكر وعمر فوجده قد مات شهيدًا متأثرًا بجرحه الذى أصيب به فى الخندق يوم ألقى الخندق وهو ينشد :

لَبَثَ قَلِيلًا يَدْرِكُ الْهَيْجَا جَمَلٌ لَا بَأْسَ بِالْمَوْتِ إِذَا حَانَ الْأَجَلُ
قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا سَمِعْتُ بَكَاءَ أَبِي بَكْرٍ وَعَمَرَ عَلَى سَعْدٍ إِلَّا أَنَّ
النَّبِيَّ ﷺ كَانَ لَا يَبْكِي عَلَى أَحَدٍ ، وَلَكِنْ إِذَا اشْتَدَّ وَجْدُهُ ^(١) أَخَذَ بِلَحْيَتِهِ
ﷺ .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نجملها فيما يأتي :

(١) بيان وبال عاقبة الغدر والخيانة وأنه عائد على صاحبهما وفي القرآن
الكريم : ﴿ فَمَنْ لَّكَتَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ
إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ .

(٢) بيان فضل الله تعالى على أي لبابة في قبول توبته ، وفضل أي لبابة
في صدق لجنه إلى ربه تعالى .

(٣) بيان أن في الوفاء النجاة ، وأن الصدق منجاة .

(٤) بيان فضل رُفيدة الأسلمية في بنائها خيمة في المسجد تعالج فيها الجرحى
كأنها بنت مصحة اليوم وتعالج فيها بنفسها فضربت المثل في ذلك .

(٥) بعض الأفراد من البشر أمرهم عجب كالقرظية القتيلة والزبير بن باطا .

(٦) تجليات الكرم والحلم والحزم المحمدى في غزوة بنى قريظة يرى ذلك
كل من استعرض أحداث هذه الغزوة .

(١) الوجد بفتح الواو : الحزن والألم النفسى ، وبالضم : اليسار والسعة في الرزق .

أهم ما وقع من أحداث في السنة الخامسة من هجرة الحبيب ﷺ

إن ما اشتملت عليه السنة الخامسة من هجرة النبي ﷺ من أحداث ذات شأن يمكن الوقوف عليه إزاء النقاط السوداء الآتية :

- غزوة دومة الجندل .
- غزوة الخندق ، وما تجلت فيها من آيات النبوة المحمدية ، وما لاقى فيها المسلمون من بلاء .
- غزوة بنى قريظة وهلاكهم بموت رجالهم وسبى نسائهم وأولادهم نتيجة غدرهم وخيانتهم .
- وفاة سعد بن معاذ رضى الله عنه .
- زواج الرسول ﷺ بزينب بنت جحش بنت عمته بعد طلاق زيد مولاه لها .
- فرضية الحجاب صبيحة عرس زينب الذى تولى الله تعالى عقد نكاحها رضى الله عنها وأرضاها ثمرة طاعتها لله ورسوله .
- إبطال عادة التبني نهائيا بتزوج الرسول ﷺ بزينب امرأة زيد بن حارثة الذى كان قد تبناه النبي ﷺ في مكة أيام العمل بهذه البدعة .

أحداث السنة

السادسة

من هجرة الحبيب ﷺ

ودخلت السنة السادسة من هجرة النبي المباركة وكان أول أحداثها :

غزوة بنى لحیان

فی جمادی الأولى من هذه السنة السادسة من هجرته فذاه أبى وأمى ونفسى رأى ﷺ أن يطالب بدم أصحاب الرجیع الذین غدر بهم رجال لحیان وقتلوهم وهم خیب وأصحابه رضوان الله علیهم فانتدب مائتین من أصحابه ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ، وأظهر أنه يريد الشام وهى توریه فقط والحرب خدعة فخرج برجاله عن الطريق المؤدى إلى ديار بنى لحیان ، فغمى على الأعداء ، ثم عاد إلى الطريق القاصد ، وذلك من أجل أن یصیب من القوم غرّة ، وواصل سیره وأغذه وبسرعة هائلة حتى نزل على غُرّان وهى منازل بنى لحیان ، وغُرّان هذا وادّ بین أبح وعسفان ممتد إلى بلد یقال له سَایة ، فلما علموا بطلبه لهم حذروا فتمتمّوا فی رؤوس الجبال ، فلما نزل بديارهم ولم یلقهم لتحصنهم برؤوس الجبال . رأى أن یرهب قریشًا فیشرعهم بقدمه إلى قرب ديارهم طلبًا للغادرین من بنى لحیان ، لیكون ذلك ذًا وقع فی نفوسهم وقد سبق له ﷺ أن صرّح فقال : « اليوم نغزوهم ولا یغزوننا » قالها بعد خیبة قریش فی الخندق . فسار ﷺ برجاله وهم مائتا راكب كما تقدم حتى هبط عسفان ، ثم بعث فوارس من رجاله على رأسهم أبو بكر الصدیق حتى بلغوا كراع^(١) الغمیم ، ثم كرّ وراح ﷺ راجعًا وهو یقول : « آئیون تائبون إن شاء الله لربنا حامدون . أعوذ بالله من وعشاء السفر ، وكآبة المنقلب وسوء المنظر فی الأهل والمال » . وقال فی هذه الغزوة كعب ابن مالك شعرًا هو :

لو أن بنى لحیان كانوا تناظروا^(٢) لقوا عُصَبًا^(٣) فی دارهم ذات مصدق

(١) موضع بالحجاز بین مكة والمدينة وهو إلى مكة أقرب .

(٢) بمعنى انتظروا .

(٣) جمع عصبه أى الجماعة .

لَقُوا سَرْعَاءًا^(١) يَمْلَأُ السَّرْبَ^(٢) رَوْعُهُ أَمَامَ طُحُونٍ^(٣) كَالْمَجَرَّةِ فَيَلْقَى
وَلَكِنَّمْ كَانُوا وِبَارًا^(٤) تَتَّبَعَتْ شُعَابَ حِجَازٍ غَيْرِ ذِي مَتَنَفَقٍ^(٥)

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوردتها كالآتي :

- (١) مشروعية المعاقبة بالمثل بقتال وقتل من خان وغدر .
- (٢) مشروعية التورية والتعمية على العدو ليصاب منه غرة .
- (٣) مشروعية إرهاب العدو بالنزول بساحته وإظهار القوة له .
- (٤) مشروعية قول آيئون تائبون لرَبنا حامدون عند العودة من السفر الصالح .
- (٥) مشروعية التعوذ بالله من وُعَاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال .

وثاني أحداثها :

غزوة ذي قَرْدٍ

سبب هذه الغزوة :

إن لهذه الغزوة كما لغيرها سبباً اقتضاها وهو أن عيينة بن حصن الفزاري وهو ذاك الذي قاد قبائل غطفان لحرب الرسول ﷺ بالمدينة مع الأحزاب ، هذا العدو الحاقداً أغار في خيل له من رجاله على سرح المدينة وهي لقاح للنبي

(١) السرعان أو القوم .

(٢) النفس .

(٣) الكنية تطحن كل ما تمر به .

(٤) جمع وبرة دويبة .

(٥) أى لا نفق فيه يخرج منه .

ﷺ تبلغ عشرين لقحة^(١) وهى الإبل ذوات الألبان ، فاستاقوا الإبل وقتلوا الراعى وأخذوا امرأته .

أول من علم بالغارة :

وكان أول من علم بهذه الغارة سلمة بن الأكوع السلمي رضي الله عنه إذ خرج يريد الغابة فلما علا ثنية الوداع شاهد خيل عينة من بعد فعلا على جبل سلع وصاح : واصباحاه ! واصباحاه !! وهى صيحة الإنذار فى ذلك الزمن ، ثم جرى وراء الخيل الغازية يطاردها يرميهم بالنبل وهم يخلون عن اللقاح ويلقون برماحهم وبعض أمتعتهم تخففاً حتى افتك منهم أكثر اللقاح وتركها وراءه وما زال يطاردهم حتى وصلت خيل النبى ﷺ ، إذ كان أول من أتى إلى رسول الله ﷺ بعد صيحة سلمة من الفرسان المقداد بن عمرو الكندى ، ثم تابعوا ، وقال الرسول ﷺ لأول مرة : « يا خيل الله اركبى » .

واستخلف النبى ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم وسار بالناس ، وقد قدم الخيل وأمر عليهم سعد بن زيد ، وقال له : اخرج فى طلب القوم حتى أحلقك فى الناس وسارت الخيل فكان أول فارس وصل إلى المغيرين هو محرز بن فضلة المقلب بالأخرم . فلما انتهى إلى العدو قال لهم : قفوا معشر بنى اللكيعة حتى يلحق بكم من وراءكم من المهاجرين والأنصار فحمل عليه رجل من العدو فقتله ، وجال الفرس فى الميدان ، ولم يقدر عليه ، وعاد إلى المدينة حتى وقف على آريه . وتلاحقت الخيل فقتل أبو قتادة رجلاً من المغيرين يقال له حبيب ابن عينة وغطاه ببرده ، وتقدم يطارد القوم . فلما وصل الناس إليه وظنوا أن القتيل أبو قتادة لوجود برده على القتيل استرجعوا أى قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون . فقال لهم رسول الله ﷺ : « ليس بأبى قتادة ولكنه قيل لأبى

(١) اللقحة : الناقة الحلوب الغزيرة اللبن وهى بسكون القاف بعد اللام المفتوحة .

قتادة وضع عليه برده ليعرف أنه قتيله » ، وأدرك عكاشة بن محصن أوباراً وابنه عمرو بن أوبار وهما على بعير واحد فقتلتهما معاً .

وسار رسول الله ﷺ والناس معه حتى نزلوا بجبل بذي قردة ، وتلاحق به الناس فأقام بهم يوماً وليلة ، وقال له سلمة بن الأكوع الذي كان يرمى القوم ويقول :

خذها وأنا ابن الأكوع اليوم يوم الرضّع

قال يا رسول الله لو سرحتنى فى مائة رجل لاستنقذت بقية السرح ، وأخذت بأعناق القوم . فقال له رسول الله ﷺ : « إنهم الآن ليغبقون^(١) فى غطفان » بمعنى إنك لا تدرکہم لأنهم وصلوا إلى ديارهم وهم يتناولون طعام العشاء ونحر لهم رسول الله ﷺ بعيرين طعموهما ، ثم ارتحلوا إلى المدينة النبوية ، وجاءت امرأة الغفارى الذى قتل يوم ساق رجال عيينة اللقاح ، وقتلوا زوجها فأخبرت النبى ﷺ أنها نذرت أن تنحر الناقة التى تركبها إن نجاها الله تعالى عليها ، فقال رسول الله ﷺ — وقد تبسم — « بئس ما جزيتها أن حملك الله عليها ونجاك بها ، ثم تنحرينها . إنه لا نذر فى معصية الله ولا فيما لا تملكين إنما هى ناقة من إبلى ، فارجعى إلى أهلک على بركة الله » .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة نتائج وعبرا نجلها مع الأرقام الآتية :

(١) بيان تسمية هذه الغزوة بغزوة ذى قرد ، وذلك لأن الماء الذى نزل به رسول الله ﷺ يقال له ماء ذو قرد .

(٢) بيان فضل سلمة بن الأكوع وأبى قتادة لقول الرسول ﷺ « خير فرساننا أبو قتادة ، وخير رجالنا سلمة بن الأكوع » .

(١) أى يسقون اللبن بالعشى ، ويقال لهذا المشروب فى هذا الوقت الغبوق .

- (٣) تأكد عداوة عيينة بن حصن وبيان خبيثه .
 (٤) تقرير بطولة سلمة بن الأكوع وشجاعته .
 (٥) بطلان نذر المعصية ، ونذر ما لا يملك .
 (٦) حلم الرسول ﷺ وكرمه وحسن سياسته ، وكال أدبه ﷺ .
 وثالث أحداثها :

غزوة بنى المصطلق من خزاعة أو المُرَيْسِع

سبب وقوع هذه الغزوة :

لهذه الغزوة سبب كغيرها من الغزوات وهو أن النبي ﷺ بلغه أن بنى المصطلق من خزاعة قد تجمعوا بقيادة الحارث بن أوى ضرار والد جويرية زوج النبي ﷺ ، وذلك بماء يقال له المريسيع بناحية قديد وكذا سُميت الغزوة بغزوة بنى المصطلق أو المريسيع ، فاستعمل النبي ﷺ على المدينة أبا ذر الغفارى ، وخرج إليهم رسول الله ﷺ فى جمع من المهاجرين والأنصار ، ونازلهم بالمريسيع فهزم الله المشركين ، وقتل من قتل منهم وأصاب رسول الله ﷺ سبايا كثيرة فقسمها بين المسلمين ، ومن بين السبايا جُويرية أم المؤمنين رضى الله عنها ، وقد وقعت فى سهم ثابت بن قيس بن شماس أو فى سهم ابن عم له .

جويرية تكاتب مالكها :

ولما وقعت جويرية وهى بنت سيد الحى الحارث بن أوى ضرار طلبت من مالكها ثابت بن قيس أن يكاتبها لتتحرر ، وأتت النبي ﷺ تستعينه فى كتابتها فقال لها : « هل لك فى خير من ذلك ؟ » قالت : وما هو يا رسول الله ؟ قال : « أفضى^(١) عنك كتابك وأتزوجك » قالت : نعم يا رسول الله ،

(١) أفضى عنك أى أسدد ثمن المكاتبه الذى عليك للمالك وهو ثابت بن قيس .

ففعل أى تزوجها بعد سداد كتابتها وسمع المسلمون بتزوج رسول الله ﷺ بها فقالوا : أصهار رسول الله !! أى فكيف تملكهم ؟ فعتقوا ما لديهم من سبايا بنى المصطلق فاعتق أكثر من مائة بيت من أهل بنى المصطلق ، فكانت عائشة رضى الله عنها أم المؤمنين تقول : ما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها !!

فتنة أرادها ابن أبى ، ولكن الله سلم :

وما زال المسلمون معسكرين على المريسيع وإذا بصارخين أحدهما يقول : يا للأنصار !! والآخر يقول : يا للمهاجرين !! ففرع الناس وإذا بجَهْجَاهِ الغفارى وهو أجير لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وسانان الجهنى حليف الخزرج يقتتلان على الماء ، فصرخ كل واحد بأحلافه فغضب لذلك رئيس المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول ، وعنده رهط من قومه من بينهم زيد بن أرقم وهو غلام حدث السن ، فقال ابن أبى أو قد فعلوها !! قد كآثرونا فى بلادنا . أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذل ، ثم أقبل على رهطه وقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم وقاسمتوهم أموالكم ، ووالله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غيركم . ولما سمع زيد مقالة ابن أبى هذه مشى إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما قال ابن أبى وكان عنده عمر بن الخطاب فقال يا رسول الله مر به عباد بن بشر فيقتله ، فقال رسول الله ﷺ : « كيف إذا تحدّث الناس أن محمداً يقتل أصحابه !! ولكن أذن بالرحيل » فارتحل فى ساعة لم يكن يرتحل فيها ليقطع ما الناس فيه أى من التفكير فى الفتنة . وهذا من الهدى النبوى الذى لا يُجارى فيه ، ولا يلحق به صلى الله عليه وآله .

وجاء أسيد بن حُضير فسلم على النبى ﷺ وقال يا نبى الله لقد رحت فى ساعة لم تكن تروح فيها !! فقال له ﷺ : « أما بلغك ما قال عبد الله ابن أبى ؟ » قال : وماذا ؟ قال : « زَعَمَ إن رجعا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ

منها الأذل» قال أسيد فأنت والله تخرجه إن شئت فإنك العزيز وهو الذليل ، ثم قال يا رسول الله ارفق به فوالله لقد منَّ الله بك وإن قومه لَيَنْظُمُونَ له الخرز ليتوجوه ، فإنه يرى أنك قد استلبته مُلْكًا .

وسمع ابن أبيّ بالخبر فجاء يركض إلى رسول الله ﷺ ويحلف بالله ما قلت ما قال زيد ولا تكلمت به ، ولما كان ابن أبيّ شريفًا في قومه ، قالوا يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أخطأ ، وأنزل الله سورة المنافقون : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ﴾ الخ

موقف متحفظ :

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبيّ وهو شاب صالح أحد الذين كانوا يكتبون الوحي لرسول الله ﷺ بلغه ما كان من أمر أبيه فأتى النبي ﷺ ، وقال يا رسول الله بلغني أنك تريد قتل^(١) أبي فإن كنت فاعلا فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه ، إني أخشى أن تأمر غيري بقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشی بين الناس فأقتله فأقتل مؤمنًا بكافر فأدخل النار . فأجابه الرسول ﷺ قائلاً : « بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا » فكان بعد ذلك إذا أحدث حدثًا عاتبه قومه وعنفوه وتوعّدوه .

أى الأمرين خير ؟

لما علم النبي ﷺ بما أصبح عليه قوم ابن أبيّ بعد الذى حدث ، وهو أنهم أصبحوا إذا أحدث حدثًا سبوا عاتبوه وعنفوه وتوعّدوه ، وكفّوا بذلك رسول الله ﷺ وأصحابه قال لعمر بن الخطاب : « كيف ترى ذلك يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم أمرتنى بقتله لأرعدت^(٢) له أناف لو أمرتها

(١) أى ارتحلت عائداً إلى المدينة .

(٢) أى أخذتها الحمية وغضبت لذلك .

اليوم بقتله لقتلته » فقال عمر : أمر رسول الله أعظم بركة من أمرى .

لا عجب في غدر الكافر :

إنه لا ينبغي أن يتعجب من غدر الكافر ؛ لأن ظلمة الكفر عندما تغطي القلب تحجب عنه كل معنى للخير والفضيلة والمعروف ، فيصبح لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكراً .

وهذا مِقَيْس بن صبابة الليثي كان قد قُتِل أخوه هشام بن صبابة في هذه الغزوة ضربه رجل من الأنصار رهط عبادة بن الصامت بسهم في المعركة خطأ فمات فجاء مِقَيْس اليوم يدعى الإسلام ويطالب بدم أخيه هشام بن صبابة الليثي فأعطاه الرسول ﷺ دية أخيه ، وأقام قليلا عند رسول الله ﷺ ثم عَدَا على قاتل أخيه فقتله ثم خرج إلى مكة مرتدًا وهو يقول :

حللت بها نذرى وأدركت ثورتي^(١)

وكنْتُ إلى الأصنام أوّل راجع

في ثلاثة أبيات المذكور ثالثها .

حادثة الإفك :

عند عودة النبي ﷺ وأصحابه من غزوة بنى المصطلق وقرية من المدينة نزل الرسول ﷺ منزلاً ليلاً ثم ارتحل ، وحدث في ذلك ما حدث ، ولنترك لأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها صاحبة القصة تحدثنا عنها بالتفصيل كما روى ذلك أصحاب السنن وأهل التفسير .

قالت رضى الله عنها : كان النبي ﷺ إذا أراد سفراً أفرع بين نسائه فأيتهنّ

(١) بمعنى النار ، ومِقَيْس هذا أحد أربعة رجال أباح رسول الله ﷺ دماءهم وقال اقتلوهم ولو وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة لأنهم مرتدون ومن بدل دينه يقتل كفراً .

خرج سهمها خرج بها معه . فلما كان غزوة بنى المصطلق أقرع بين نسائه فخرج سهمى فخرج بى معه ، وكان النساء إذ ذاك يأكلن العُلُق^(١) لم يَهْجُوهن^(٢) اللحم فيثقلن . وكنت إذا وصل بعيرى جلست فى هودجى ، ثم يأتى القوم الذين يُرَحِّلُون بعيرى فيحملون الهودج وأنا فيه فيضعونه على ظهر بعيرى ، ثم يأخذون برأس البعير ويسIRON . قالت : فلما قفل رسول الله ﷺ من سفره ذلك وكان قريبا من المدينة بات بمنزل بعض الليل ، ثم ارتحل هو والناس وكنت قد خرجت لبعض حاجتى وفى عنقى عقد لى من جُزْع^(٣) ظفار ، انسل من عنقى ولا أدرى فلما رجعت التمت العقد فلم أجده ، فرجعت إلى المكان الذى كنت فيه ألتمسهُ فوجدته ، وجاء القوم الذين يرَحِّلُون بعيرى فأخذوا الهودج وهم يظنون أنى فيه فاحتملوه على عادتهم وانطلقوا ورجعت إلى المعسكر ، وما فيه داع ولا يجيب أى ما فيه أحد فتلففت بجلبابى واضطجعت مكانى وعرفت أنهم يرجعون إلّى إذا افتقدونى ، فوالله إنى لمضطجعة إذ مرّ بى صفوان بن المعطل السُّلَمِىّ وكان تخلف عن المعسكر لحاجته فلم ييت مع الناس ، فلما رأى سوادى أقبل حتى وقف علىّ فعرفنى ، وكان رآنى قبل أن يُضرب الحجاب ، فلما رآنى استرجع ، وقال : ما خلّفتك ؟ فما كلمته ثم قَرَّب البعير وقال : اركبى فركبت وأخذ برأس البعير مسرعًا . فَلَمَّا نَزَلَ النَّاسُ واطمأنوا طلع الرجل يقودنى ، فقال أهل الإفك فِى ما قالوا ، فارتجَّ المعسكر ولم أعلم بشىء من ذلك ثم قدمنا المدينة فاشتكت شكوى شديدة ، وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ وإلى أبوى ولا يذكران لى منه شيئا إلا أننى أنكرت من رسول الله ﷺ بعض لطفه فكان إذا دخل علىّ وأمى تمرضنى قال : « كيف تيكم ؟ » لا يزيد على ذلك ، فوجدت فى نفسى مما

(١) العُلُق : جمع علقه : ما يكتفى به من العيش .

(٢) أى لم يسمن لقله اللحم فى أجسامهن لقله الأكل ...

(٣) الجزع : الخرز ، وظفار مدينة فى جنوب اليمن نسب إليها الخرز .

رأيت من جفائه فاستأذنته في الانتقال إلى أمي لتقرضني فأذن لي ، وانتقلت ولا أعلم بشيء مما كان حتى نقهت^(١) من وجعي بعد بضعة وعشرين ليلة .

قالت رضي الله عنها ، وكنا عربًا لا نتخذ في بيوتنا هذه الكنف نَعافها ونكرهها ، إنما كان النساء يخرجن كل ليلة فخرجت ليلة لبعض حاجتي ومعى أم مسطح بنت أبي رُهم بن المطّلب ، وكانت أمها خالة أبي بكر الصديق ، فوالله إنها لتمشى إذ عثرت في مِرْطِها فقالت تَعَسِ مِسْطَحُ فقلت لها لعمر الله بئس ما قلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدراً قالت : أو ما بلغك الخبر ؟ قلت وما الخبر ؟ فأخبرتني بالذي كان ، فوالله ما قدرت على أن أقضى حاجتي فرجعت فما زلت أبكي حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدي وقلت لأمي : تحدث الناس بما تحدثوا ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً !! فقالت لي : يا بُنَيَّةُ خَفِّى عليك فوالله قلّ ما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثُرْنَ وكثُرَ الناس عليها . قالت وقد قام رسول الله ﷺ فخطبهم ولا أعلم بذلك فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق ، والله ما علمت عليهم إلا خيراً ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيراً ، ولا يدخل بيتاً من بيوتي إلا وهو معي » . قالت وكان كبيرُ ذلك عند عبد الله بن أبيّ بن سلول في رجال من الخزرج مع الذي قال مسطح وحمّة بنت جحش وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله ﷺ ، ولم تكن امرأة من نسائه تناصيني^(٢) في المنزلة عنده غيرها ، فأما زينب فعصمها الله بدنيها فلم تقل إلا خيراً ، وأما حمّة فأشاعت تضارّني لأختها فشقيت بذلك .

وتكلم أناس في المسجد حتى كادت تكون فتنة ، ونزل رسول الله ﷺ

(١) تماثلت للشفاء .

(٢) أى تساميني وتريد أن تكون في منزلي عند رسول الله ﷺ .

فدخل على فدعا علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد فاستشارهما في الأمر فقال علي رضي الله عنه سل الجارية وهي بريرة ، فسألها وضربها على فحلفت وما زالت تحلف أنها ما تعلم عن عائشة إلا خيراً ، وأنها ما كانت تعيب عليها شيئاً إلا أنها كانت — أي بريرة — تعجن العجينة وتأمر عائشة بحفظها فتنام عنها فتأتي الشاة فتأكلها .

ثم دخل على رسول الله ﷺ وعندى أبواي وامرأة من الأنصار وأنا أبكي وهي تبكي فجلس فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال « يا عائشة » : وذكرت كلاماً وكيف كانت حالها إذ ذاك حتى قالت فقلت كما قال أبو يوسف ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ ، ثم قالت فوالله ما برح رسول الله ﷺ مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه فسجى بثوبه ووضعت وسادة من آدم^(١) تحت رأسه .

فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت فوالله ما فرغت وما باليت قد عرفت أني بريئة ، وأن الله غير ظالمي ، وأما أبواي فوالذي نفس عائشة بيده ما سرى عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتخرجن أنفسها فرقاً^(٢) من أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس .

قالت ثم سرى عن رسول الله ﷺ فجلس وإنه ليتحدر من وجهه مثل الجمان في يوم شاتٍ فجعل يمسح العرق عن وجهه ويقول : « أبشري يا عائشة قد أنزل الله براءتك » قالت : قلت الحمد لله ، ثم خرج إلى الناس فخطبهم وتلا عليهم ما أنزل الله عز وجل من القرآن في ذلك ، ثم أمر بمسطح ابن أثالة وحسان ابن ثابت وحمنة بنت جحش وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضربوا حذهم .

(١) أي من جلد .

(٢) أي خوفاً .

وروى أنها لما نزلت براءتها ، قال لها أبواها^(١) ، احمدي رسول الله ﷺ ، قالت لا أحمد إلا الله الذي برأني فقال رسول الله ﷺ : لقد عرفت الحق لأهله .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نجملها كالآتي :

(١) في تزوج رسول الله ﷺ بجويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق مبدأ : (انزلوا القوم منازلهم) إذ تزوجه ﷺ بها كان إكراماً لها ولأبيها لشرفهما عند قومهما .

(٢) بيان بركة جويرية إذ بزواجها انعتق أكثر من مائة بيت من قومها .

(٣) بيان نفاق وخبث ومكر ابن أبيّ عليه لعائن الله تعالى ، وما أراده من الفتنة .

(٤) تجلّى الحكمة المحمدية والسياسة الرشيدة في إخماد نار الفتنة وقطع دابر الشر بالرحيل بالقوم وعدم الإذن في قتل ابن أبيّ بعد أن استوجب القتل بقوله : ما زال ابن أبي كبشة يعيث في البلاد فساداً ، وهى كلمة صاحبها مرتد قطعاً ، إلا أن ابن سلول كافر ما آمن حتى يقال ارتد .

(٥) مشروعية القرع والأخذ بها بدل مجرد التخيير لما فيها من تطيب النفوس .

(٦) مشروعية أخذ المجاهد امرأته معه للجهاد إذا كانت الظروف مواتية لذلك .

(٧) بيان أن الحبيب ﷺ ما كان يعلم الغيب حتى يعلمه الله تعالى ، فكيف إذا بغيره ممن يدعون علم الغيب والمكاشفة تغريراً بالمسلمين وتضليلاً لهم لاستغلالهم .

(١) أبو بكر وأم رومان ، وأم رومان كنيتهما وإلا فاسمها زينب رضى الله عنهم .

(٨) بيان ما تعرضت له أم المؤمنين من البلاء وصبرها عليه حتى كشف الله غمها وفرج كربها وهكذا يتحقق مصداق قول الرسول ﷺ : « أشدكم بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل » .

(٩) بيان براءة أم المؤمنين ، ولذا من شك في براءتها بعد نزول القرآن بذلك فقد كفر إما أن يراجع الإسلام وإلا فهو كافر من أهل النار .

(١٠) بيان إقامة حد القذف على من قذف مؤمناً أو مؤمنة بفاحشة ، إذ أقيم الحد على مسطح وحسان وحنمة فطهرهم الله تعالى بذلك ، ولم يقم الحد على ابن أبي لأنه كافر لا تطهره الحدود .

(١١) استجابة أبي بكر لربه في قوله : ﴿ وَلْيَغْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ﴾ إذ كان قد منع ابن خالته مسطحاً ما كان يقدمه له من طعام وكساء لما تورط في قذف أم المؤمنين ثم كفر أبو بكر عن يمينه ورد إلى مسطح ما كان يجريه عليه من النفقة بوصفه ابن خالته ، وهو مهاجر فقير .

(١٢) حرمة قذف المحصنات المؤمنات وكذا المحصنين المؤمنين ، وأنه من كبائر الذنوب وموجب للحد وهو ثمانون جلدة .

(١٣) تجلي^(١) الكمال الحمدي ، في عدة مواقف من هذه الغزوة بما فيه حادثة الإفك من ذلك ؛ حلمه وأناته ، صبره وكرمه ، حسن تدبيره لأمواره وأمور أصحابه ، استشارته لأفراد آل بيته فيما يتعلق بهم دون غيرهم .

ورابع أحداثها :

عمرة الحديبية وبيعة الرضوان والصلح فيها

في ذى القعدة من سنة ست من الهجرة المباركة ، عزم الحبيب ﷺ

(١) تجلى ظهر والتجلى : الظهور .

على زيارة البيت الحرام فانتدب المؤمنين من حوله للخروج معه لأداء نسك العمرة في الشهر الحرام فخفف ناس ، وثقل آخرون ، وجل من ثقل كان من الأعراب النازلين حول المدينة .

وأحرم ﷺ وأحرم من معه ملبّين بالعمرة ، وساروا في طريقهم إلى مكة وبلغ قريشًا خروج النبي ﷺ وأصحابه ، وكانوا ألفًا وأربعمائة رجل ، وساقوا معهم الهدى وكان قرابة سبعين بعيرًا ، وبذلك كان واضحًا أنه ﷺ لا يريد حربًا ، وإنما يريد قطعًا الاعتمار لا غير .

ولما وصل ﷺ عُسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي فقال له : إن قريشًا قد سمعت بمسيرك فخرجوا معهم العوذ^(١) المطافيل قد لبسوا جلود النّمار وقد نزلوا بذي طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدًا ، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم .

ولما سمع رسول الله ﷺ قول بشر ، قال : « يا ويح قريش قد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر الناس فإن أصابوني كان الذي أرادوا وإن أظهرني الله دخلوا في الإسلام وافرين ، والله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة^(٢) » .

ثم عدل عن الطريق التي هم بها فتيا من وسلك الطريق التي شُبط على الحديبية وفجأة بركت ناقته به ، فقال الناس خلأت^(٣) ، فقال : « ما خلأت وما هو لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل » أى عن مكة . ثم قال : « لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها » ولما اجتازوا المضائق بين الجبال الوعرة و انتهوا إلى واد من أودية المنطقة ،

(١) العوذ : جمع عائد وهي الناقة الحديث النّاج ، والمطافيل : الإبل مع أولادها .

(٢) صفحة العنق كناية عن الموت .

(٣) بركت .

قال لهم ﷺ : « قولوا نستغفر الله ونتوب إليه » فقالوا ذلك ، فقال : « والله إنها للحطة^(١) التي عرضت على بنى إسرائيل فلم يقولوها » ، وقالوا « انزلوا » فقبل يا رسول الله ما بالوادي ماء نزل عليه ، فأخرج ﷺ سهما من كنانته وأعطاه رجلا من أصحابه فنزل به في قليب من تلك القُلب الموجودة بالوادي فغرز فيه فجاش بالماء حتى ضرب الناس عنه بعطن^(٢) أى نزلوا حوله يسقون ويشربون ويتوضئون كأنهم نزلوا حول نهر ماء .

ولما رأت خيل قريش عدول النبي ﷺ عن الطريق إلبهم عادوا إلى مكة .

وفد خزاعة :

ولما استقرّ النبي ﷺ في المنزل الذي نزله جاءه وفد من خزاعة برئاسة بُذَيْل بن وَرْقَاء الخزاعي فكلّموه وسألوه عن السبب الذي جاء به فأخبرهم بأنه لم يأت يريد حرباً ، وإنما جاء زائراً للبيت ومعظما لحرمته ، ثم قال لهم نحوّا مما قال لبشر بن سفيان ، وعاد الوفد إلى قريش كوسيط فقال لقريش : يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد إن محمداً لم يأت لقتال ، وإنما جاء زائراً هذا البيت فاتهموهم وَجَبَهُوهم^(٣) ، وقالوا : وإن كان جاء لا يريد قتالاً فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ، ولا تتحدث بذلك عنا العرب .

سفارة قريش :

وبعثت قريش سفيرها مكرز بن حفص بن الأخيف ، ولما وصل ورآه النبي ﷺ وهو يتقدم نحوه حتى قال ﷺ : « هذا رجل غادر » ولما انتهى إلى رسول الله ﷺ وكلّمه قال له نحوّا مما قال لبديل بن ورقاء وأصحابه فرجع

(١) احطط عنا خطايانا .

(٢) العطن : مبرك الإبل والجمع معاطن .

(٣) أى بالمكروه .

السفير الغادر فبلغ قريشًا ما سمعه من رسول الله ﷺ ، فبعثت سفيرا آخر هو الحُلَيْس بن علقمة سيّد الأحابيش ، ولما وصل ورآه النبي ﷺ قال : « إن هذا من قوم يتألهون^(١) فابعثوا الهدى في وجهه حتى يراه » فلما رأى الهدى سيل عليه من عُرض الوادى في قلائده ، وقد أكل أوباره من طول الحبس في محلّه رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظامًا لما رأى فقال لهم مارأى ، فقالوا : اجلس إنما أنت أعرابى لا علم لك !!

غضبة صادقة :

ولما قالت له قريش ما قالت من اتهامه بالجهل قال لهم في غضب : يا معشر قريش والله ما على هذا حالفتكم ولا على هذا عاقدتكم ، أَيْصَدَّ عن بيت الله من جاء معظما له ؟! والذى نفس الحُلَيْس بيده لتخلن بين محمد وبين ما جاء له أو لَأَنْفَرَنَّ بالأحابيش نفرة رجل واحد . فلما رأت قريش الجِدَّ من الحُلَيْس والغضب لله قالت : مه^(٢) ، كَفَّ عَنَّا يا حُلَيْس حتى نأخذ لأنفسنا ما ترضى به ، يريدون تحقيق بعض الأهداف أو اشتراط بعض الشروط دفعًا للمعرة عنهم في نظرهم .

سفير ثالث :

وبعثت قريش بعروة بن مسعود الثقفى ، إني جاءهم فقال لهم يا معشر قريش إني قد رأيت ما يلقي منكم مَنْ تبعثونه إلى محمد إذ جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ وقد عرفتم أنكم والد ، وأنى ولد ، وقد سمعت بالذى نابكم فجمعت من أطاعنى من قومى ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسى ، قالوا : صدقت ما أنت عندنا بمتهم ، فخرج حتى أتى النبي ﷺ فجلس بين يديه ، ثم قال : يا محمد

(١) أى يتعبدون .

(٢) اسم فعل بمعنى اسكت .

أجمعت أوشاب^(١) الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضّها^(٢) بهم ، إنها قریش قد خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود الثور يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً ، وإيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً ، وأبو بكر الصديق خلف رسول الله ﷺ قاعد فقال : امصص بظُر^(٣) اللات أنحن ننكشف عنه ؟ قال : من هذا يا محمد ؟ قال : « هذا ابن ألى قحافة » قال : أما والله لولا يد كانت لك عندي لكافأتك بها ، ولكن هذه بها ، ثم جعل يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه ، والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ في الحديد فجعل يقرع يده إذا تناول لحية رسول الله ﷺ ويقول اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل إليك ، فيقول عروة ويحك ، ما أفظعك وأغلظك فتبسم رسول الله ﷺ فقال له عروة : من هذا يا محمد ؟ قال : « هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة » قال : أئى غدر وهل غسلت سوءتك إلا بالأمس . وكلمه رسول الله ﷺ بما كلم به من قبله ، وأنه لم يأت لحرب وإنما للعمرة فقط .

عودة السفير :

وعاد سفير المشركين عروة بن مسعود الثقفي بعد أن رأى بأمر عينيه ما يصنع أصحاب النبي ﷺ بينهم من التقدير والتعظيم رأى أنه لا يتوضأ ﷺ إلا ابتدروا وضوءه ، ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه ، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه . فعاد إلى قریش ليقول لهم : يا معشر قریش إني قد جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه إني والله ما رأيت ملكاً في قوم

(١) أخلاطهم وكذا الأوباش بمعنى واحد .

(٢) أى لتكسرهما بهم كناية عن دخول مكة بالقوة إهانة لأصحابها .

(٣) البظر شيء كحلمة الثدي وهذا كناية عن تيمسه من عدم نصرة النبي ﷺ إذ مصه للثدي اللات لا لبن فيه فهو آيس من الانتفاع به .

قط مثل محمد في أصحابه وقد رأيت قومًا لا يسلمونه لشيء أبدًا فَرُوا رأيكم !!

سفير النبي ﷺ :

ولما لم تنتج سفارات قريش شيئًا يذكر أرسل النبي ﷺ خراش بن أمية الخزاعي إلى قريش بمكة وحمله على بعير له يقال له الثعلب ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له ففعلوا به جمل رسول الله ﷺ وأرادوا قتله فمنعته الأحابيش فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ .

إساءة وإحسان :

لما فعلت قريش ما فعلت بسفير رسول الله ﷺ إليها حيث عقرت بعيره ، وأرادت قتله ، ولم تقبل منه قولًا ولا رأيًا ، وعاد إلى النبي ﷺ هاربًا بنفسه . في هذه الأثناء تبعث قريش بأربعين مجرمًا من مجرميها يرمون معسكر رسول الله ﷺ بالحجارة والتبل لعلهم يصيبون بعضًا من أصحاب رسول الله ﷺ فَنَاهَضَهُمْ بعض أفراد المعسكر المحمدي فآلَقُوا القبض عليهم وأتوا بهم أحياء أذلاء للنبي ﷺ فعفا عنهم وخلق سبيلهم فتحقق وصفه في التوراة وأنه لا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح فصلى الله عليه وسلم ، وهكذا يتجلى الإحسان المحمدي ، وتنكشف إساءة المشركين .

سفارة أعظم :

ولم يكَلِّ الحبيب ﷺ ولم يَمَلِّ في سبيل تحقيق السلم ، وإخماد نار الحرب التي يشعلها الكافرون ، فيدعو عمر بن الخطاب ليرسله سفيرًا إلى قريش مرة ثانية إذ سبق له أن أرسل خراش بن أمية الخزاعي ، فيعتذر عمر لعدم قدرته على هذه المهمة فيقول : يا رسول الله إني أخاف قريشًا على نفسي ؛ إذ ليس بمكة من بنى عدتي بن كعب أحد يمنعني ، وقد عرفت قريش عداوتي إياها ، وغلظي عليها . واقترح عمر على رسول الله ﷺ أن يرسل بدله عثمان بن عفان فقال ، ولكني أدلك على رجل أعزّ مني ، عثمان بن عفان ، فدعا رسول

الله ﷺ عثمان بن عفان فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وإنما جاء زائرًا لهذا البيت ومعظمًا لحرمته .

ويمشي عثمان سفيرًا لرسول الله ﷺ إلى مكة ، وما إن دخل مكة حتى تلقاه أبان بن سعيد بن العاص فحمله بين يديه إعظامًا له لقربته ، وأجاره حتى يبلغ رسالة رسول الله ﷺ ، فانطلق به إلى أبي سفيان وأشراف قريش فبلغهم ما أرسل به وأذنوا له بالطواف بالبيت إكرامًا له فأبى وقال ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ ، واحتبسته^(١) قريش عندها . إلا أنه قد أشيع أن قريشًا قتل عثمان سفير رسول الله ﷺ إليها .

بيعة الرضوان :

إنه بمجرد أن أشيع أن عثمان قد قتل قام رسول الله ﷺ في أصحابه معلنًا عزمه على قتال المشركين فقال : لا نبرح حتى نناجز القوم ، ودعا ﷺ الناس إلى البيعة ، وبايعهم تحت شجرة على أن لا يفروا عند لقاء العدو ، فكانت هذه بيعة الرضوان ، ونزل فيها قول الله تعالى من سورة الفتح : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيمًا ﴾ .

ولم يتخلف أحد عن هذه البيعة إلا الجند بن قيس أخو بني سلمة قال فيه جابر بن عبد الله لكأنني أنظر إليه لاصقًا بإبط ناقتة قدضباً^(٢) إليها يستتر بها من الناس . وكان أول من بايع في هذه البيعة أبو سنان الأسدي أخو عكاشة ابن محصن ، وبايع رسول الله ﷺ لعثمان فضرب بإحدى يديه على الأخرى وقال هذه لعثمان .

(١) لم أعثر على سبب هذا الحبس في قول أحد ، والظاهر أنه مجرد حبس ليقضى أياما بينهم لا أنهم حبسوه منعًا له من الرجوع إلى المعسكر الإسلامي .

(٢) أضباً إليها : لصق بها واستتر .

وبعد قليل من الوقت تبين أن عثمان لم يقتل ، وأن ما ذكر عنه باطل ؛ إذ جاء بعد الفراغ من البيعة بقليل ، والحمد لله .

سفارة وهدة :

ولما علمت قريش بالبيعة على قتالها خفت فأرسلت سفيرها سهيل بن عمرو تطالب بالصلح إذ قالت له أئت محمدا فصالحه ، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا حفاظا لماء وجهها ؛ إذ قالوا : فوالله لا نتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدا ، وأتى السفير النبي ﷺ فما إن رآه مقبلا نحوه حتى قال : « قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل » وانتهى سهيل إلى رسول الله ﷺ ، وتكلم فأطال الكلام ، وتراجعا ثم جرى بينهما الصلح ولم يبق إلا كتابة الوثيقة بالصلح الذى انتج الهدنة المباركة .

عمر ينكر :

لما تمت المفاوضات وانتهت بالصلح ، وعمر يسمع ، أتى أبا بكر فقال : يا أبا بكر أليس برسول الله ؟ أى محمد ﷺ قال : بلى أو لسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ، أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ، قال : فعلام نعطي الدنية^(١) في ديننا ؟ فقال أبو بكر الزم غرزه^(٢) فأبى أشهد أنه رسول الله ، فقال عمر وأنا أشهد أنه رسول الله ، ثم أتى رسول الله ﷺ وقال له نفس القول الذى قاله لأبى بكر ، فقال رسول الله ﷺ : « أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ، ولن يضيعنى » .

توبة عمر :

روى أن عمر رضى الله عنه قال : ما زلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق

(١) الذل والأمر الخسيس .

(٢) أى الزم أمره ولا تخالفه ، والغرز من الرجل كالركاب من السرج .

من الذى صنعت يومئذ مخافة كلامى الذى تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيراً .

كتابة وثيقة الصلح ونصها :

ودعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب رضى الله عنه ليكتب وثيقة الصلح ، وقال : « اكتب بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل ممثل قريش وسفيرها ، لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم فقال رسول الله ﷺ : « اكتب باسمك اللهم » فكتبها ، ثم قال : « اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ سهيل بن عمرو » فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . فقال رسول الله ﷺ : « اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه^(١) رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه . وأن بيننا غيبة^(٢) مكفوفة ، وأنه لا إسلال ولا إغلal ، وأن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدها دخل فيه » وفعلا توثبت خزاعة فقالوا نحن في عقد محمد وعهده وتوثب بنو بكر فقالوا نحن في عقد قريش وعهدهم . « وأنت ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك تدخلها بأصحابك فأقمتم بها ثلاثاً معك

(١) هذه الفقرة من المعاهدة هى التى أثارت حفيظة عمر ، كما أن رفض سهيل بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله مما أثار نفوس المسلمين وآلمهم أشد الألم وهو مؤلم حقاً ولكن طاعة الله والرسول أولى والعاقبة الحسنى فى ذلك .

(٢) يريد أن صلورنا منطقى على ما فيها فلا نبدى عداوة ولا نظهرها مدة الهدنة لا إسلال ولا إغلal أى لا سرقة خفية ولا خيانة .

سلاح الراكب : السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها » ، وشهد على الوثيقة عدد من المسلمين وآخر من المشركين ، وأصبحت سارية المفعول .

أبو جندل يستصرخ :

ما زالت الوثيقة لم يجف حبرها حتى جاء أبو جندل ابن السفير المشرك سهيل بن عمرو يرسف في الحديد هارباً من المشركين فقام إليه أبوه فضربه في وجهه ، وقال يا محمد قد تمت القضية بيني وبينك قبل أن يجيء هذا ؟ قال : « صدقت » ، فجعل ينتهره ويجره ليرده إلى قريش ، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين كي يفتنوني في ديني فاغتم لذلك المسلمون وكربوا ، وزادهم أسى وحزناً ، فقال الرسول ﷺ « يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنا عقدنا بيننا وبينهم صلحاً ، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم » .

التحلل من الإحرام :

ولما فرغ الحبيب ﷺ من أمر المصالحة ، وكان من بنود وثيقة الصلح أن يعود محمد رسول الله وأصحابه إلى المدينة على أن يعتمروا من العام القابل . ومن هنا أمر الناس بالتحلل من الإحرام ليعودوا إلى المدينة فكبر عليهم ذلك ولم يفعلوا ، فدخل على أم سلمة رضی الله عنها فقالت له : انحر هديك وتحلل فسوف يفعلون ما تفعل ، وكانت رضى الله عنها سديدة الرأي ، فنحر النبي ﷺ هديه وحلق رأسه وتحلل من إحرامه ، فما إن رآه أصحابه حتى فعلوا فحلق بعض وقصر بعض فقال ﷺ « يرحم الله الخلقين » قالوا والمقصرين يا رسول الله ، قال « يرحم الله الخلقين » وفي الرابعة قال : « والمقصرين » ويسألونه قائلين لم ظهرت الترجيم للمحلقين أى قوّيته دون المقصرين ؟ قال : « لم يشكوا » .

وقفل رسول الله ﷺ عائداً إلى المدينة مع أصحابه ، وأثناء مسيره نزلت عليه سورة الفتح ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ إلى آخر السورة ، وقد اشتملت على جل أحداث غزوة الحديبية مما تم فيها وما لحق بها من فتح خيبر وفوز المؤمنين بغنائم خيبر ، والبشارة بعمره القضاء وتمامها على الوجه الأكمل بعد عام واحد من تلك الأيام ، وبذلك صدق الله رسوله رؤياه المبشرة له وللمؤمنين بدخولهم مكة آمنين غير خائفين .

آثار المصالحة :

ومن آثار المصالحة أن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط قد هاجرت إلى المدينة بعد عقد الهدنة بأيام هاربة من دار الكفر إلى دار الإسلام فلحق أخوها عُمارة والوليد يطالبان بها بموجب عقد الهدنة ، ولما كانت نصوص الهدنة تتعلق بالرجال دون النساء ؛ لأن النساء لا يحاربن ، أوى رسول الله ﷺ أن يردّها إليهما ، وأنزل الله تعالى في ذلك قرآناً هو قوله تعالى من سورة الممتحنة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ الآية

ومن آثار المصالحة أيضاً : أن أبا بصير هرب من مكة فبعثت قريش في طلبه رجلين فطالبا رسول الله ﷺ به فأعطاها إياه بموجب بنود الاتفاقية وقال له : « يا أبا بصير : إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ولا يصلح لنا في ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، فانطلق إلى قومك » فقال يا رسول الله أتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني ؟

فقال : « يا أبا بصير انطلق إلى قومك » إلى قوله « مخرجاً » فانطلق أبو بصير مع الرجلين حتى نزلوا ذا الحليفة للاستراحة فنظر أبو بصير إلى

سيف المشرك وقال له : أتأذن لى أن أنظر إليه ؟ قال : نعم . فأخذه واستلّه من قرابه ثم ضرب به المشرك فقتله وهرب الثانى فلحق برسول الله ﷺ وأخبره بالحادث ، وجاء أبو بصير متوشحاً بالسيف وقال يا رسول الله وقت ذمتك وأدى الله عنك أسلمتني بيد القوم وأدى الله عنك وقد امتنعت بديني أن أفتن فيه ، أو يبعث بى ، فقال رسول الله ﷺ : « ويل أمة مُسعر حرب لو كان معه رجال » ثم خرج أبو بصير فاراً حتى أتى العيص من ساحل البحر طريق قوافل قريش إلى الشام ، وسمع به آخرون فى مكة فهاجروا إليه فكونوا بذلك جيشاً مسلماً وأذاق قريشاً الأمرين بأخذ قوافلهم وقتل رجالهم فما كان منهم إلا أن كتبوا إلى رسول الله ﷺ يطلبون إليه ويسألونه بالرحم إلا آواهم وردهم إليه ، فأواهم رسول الله ﷺ ، وردهم إلى المدينة ، وهذا من الفرج والخرج الذى بشر به رسول الله ﷺ أبا بصير وأبا جندل قبله فكان والحمد لله .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نبينها كالاتى :

- (١) وجوب الاعتار وحرمة البيت الحرام وتعظيمه .
- (٢) بيان العزم المحمدى الذى لا يهن ، المتجلى فى قوله : « والله لا أزال أجاهدهم على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله ، أو تنفرد هذه السالفة » .
- (٣) كلمة التوبة هى : نستغفر الله ونتوب إليه .
- (٤) آية النبوة المحمدية المتجلية فى جيشان الماء فى البئر التى أدخل فيها سهم النبى ﷺ .
- (٥) بيان كمال الحليس سيد الأحابيش فى سفارته فقد كان لغضبه المشرف أثر طيب .
- (٦) بيان مدى إجلال الصحابة للنبي ﷺ ، الأمر الذى أدهش سفير المشركين عروة بن مسعود فحذر لذلك قريشاً وقال : رؤوا رأيكم !!!!

(٧) تجلّى الكمال المحمدى فى عفوه عن الأربعين مجرمًا الذين ألقى القبض عليهم حول المعسكر وهم يرمونه بالحجارة والنبل أيضا ، وهو موقف مشرف كان له أثر طيب فى اتفاقية الهدنة المباركة .

(٨) بيان فضيلة عثمان فى كونه لم يرض أن يطوف بالبيت دون رسول الله ﷺ ، وفى بيعة الرسول له وهو غائب .

(٩) بيان فضل أهل بيعة الرضوان إذ هم فى الدرجة الثانية بعد أهل بدر قال تعالى فيهم ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ .

(١٠) بيان فضل عمر بن الخطاب المتجلى فى توبته الطويلة الأمد من أجل كلماته التى قالها وهى حق إلا أنها اصطبغت بصيغة شبه المعارضة فى قضية عامة .

(١١) من الحكمة أن يتنازل المرء عن أشياء لا تضر بأصل قضيته لتحقيق أشياء أعظم منها .

(١٢) فضل على رضى الله عنه فى كتابته الوثيقة وعدم اعتراضه على ما اعترض عليه فيها غيره من الأصحاب .

(١٣) وجوب الوفاء بالعهود وحرمة الغدر والخيانة .

(١٤) وجوب الهدى على من أحصر عن إتمام الحج أو العمرة ، وبعد نحر الهدى يتحلل بحلق أو تقصير .

(١٥) بيان حكم المهاجرات من النساء المؤمنات وأنهن لا يرجعن إلى دار الكفر بعد خروجهن منها .

وخامس أحداثها :

مجموعة السرايا الآتية

أ — سرية عكاشة بن محصن وكانت في ربيع أول من هذه السنة فقد خرج في أربعين رجلا فعلم بهم من خرجوا لهم فهربوا ، فطلبوهم هنا وهناك فلم يعثروا عليهم إلا أنهم عثروا على مائتي بعير فساقوها إلى المدينة وعادوا سالمين والحمد لله .

ب — سرية محمد بن مسلمة إلى بنى ثعلبة بن سعد وكانوا عشرة فوارس ، فكمن العدو لهم وبيتوهم فلما ناموا قتلوهم عن آخرهم إلا أمير السرية محمد ابن مسلمة فقد نجا وهو جريح رضى الله عنهم أجمعين .

ج — سرية أبى عبيدة عامر بن الجراح إلى ذى القصة وكان أفراد السرية أربعين رجلا ، ولما علم المشركون بخروج السرية إليهم هربوا ووصلت السرية إلى مائتهم فلم تجد أحداً إلا رجلا واحداً ونعماً فساقوا النعم وأسلم الرجل فتركه النبي ﷺ .

د — سرية زيد بن حارثة بالحموم فأصاب امرأة من مزينة اسمها حليلة فدلتهم على محلة من محال بنى سليم فأصابوا نعماً وشاء وأسرُوا . وكان بين الأسرى زوج حليلة التى دلتهم على محلة العدو فوهبه رسول الله ﷺ لزوجته حليلة وأطلقها .

هـ — سرية زيد بن حارثة أيضا إلى العيص وفيها أخذت الأموال التى كانت مع أبى العاص بن الربيع ، واستجار أبو العاص بزینب فأجارته كما تقدم ، وردت إليه أمواله كلها حتى الشظاظ .

و — سرية زيد وأیضا إلى بنى ثعلبة بالطرف على رأس خمسة عشر رجلاً فهربوا منه ، وأصاب من نعمهم عشرين بعيرا وعادوا سالمين .

ز — سرايا زيد من غير ماذكر وهي ثلاث . سرية إلى حسمى ، وثانية إلى وادى القرى ، وثالثة إلى أم قرفة .

ح — سرية كرز بن جابر الفهري إلى العُربين الذين قتلوا راعي رسول الله ﷺ واستاقوا الإبل ، بعثه رسول الله ﷺ في عشرين فارساً وقد استردوا الإبل وجاءوا بالعربيين وهم الذين قتلوا بالحرّة وتركوا بها أياماً لأنهم أسلموا ثم ارتدوا وساقوا إبل الصدقة وفيهم نزلت آية : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا ﴾ الآية . وفعل بهم رسول الله ﷺ ذلك حكماً بقضاء الله تعالى فيهم .

مكاتبة الرسول ﷺ

الملوك والرؤساء

وفي هذه السنة السادسة من الهجرة وبعد عقد الصلح مع قريش كاتب الرسول ﷺ الملوك والرؤساء يدعوهم إلى الإسلام الدين الحق الذى أرسل به لهداية الناس كل الناس أبيضهم وأصفرهم إلى ما يكملهم عقولا وأخلاقا ويسعدهم أجساماً وأرواحاً في الحياتين : الدنيا والآخرة .

فبعث ﷺ الرسل تحمل كتبه القيّمة الكريمة إلى كل من كسرى ملك الفرس وقيصصر ملك الروم ، والنجاشي ملك الحبشة ، والمقوقس ملك مصر . وأرسل شجاع بن وهب إلى الحارث بن أبى شيمر الغسانى ، وأرسل سليط ابن عمرو العامرى إلى هوزة بن على الحنفى ، وأرسل العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن سكاوى أخى عبد القيس .

أسماء حاملى كتبه إلى الملوك :

- دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر ملك الروم .
- حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس ملك مصر .

- عبد الله بن حذافة إلى كسرى ملك الفرس .
- عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة .

نماذج من كتبه صلى الله عليه وسلم

١ - كتابه إلى كسرى :

إلى كسرى ملك فارس : « بسم الله الرحمن الرحيم » من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله . وأدعوك بدعاية الله ، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين . فأسلم تسلم فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك » .



صورة الخاتم النبوي

ولما بلغ الكتاب كسرى غضب وقال هجرًا ومزق الكتاب ، ولما بلغ ذلك رسول الله ﷺ دعا عليه بأن يمزق الله ملكه واستجاب الله له ومزق ملكه .

ب - كتابه ﷺ إلى قيصر :

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الأرسين » ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالُوا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » .



الخاتم النبوي

ج - كتابه ﷺ إلى المقوقس :

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم أهل القبط ﴿ يا أهل الكتاب تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ .



خاتمه ﷺ

د - كتابه إلى ملك الحبشة

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى من روحه ونفخه . كما خلق آدم بيده ، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالة على طاعته وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإني رسول الله ﷺ وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت فاقبل نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى » .



الخاتم النبوي

هـ — كتابه إلى الحارث الغساني بالشام :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر سلام على من اتبع الهدى ، وآمن به وصدق ، وإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك » .



الخاتم :

و — كتابه إلى ملك عمان :

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله إلى جعفر وعباد^(١) ابني الجلندي سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوكم بدعاية الإسلام أسلما تسلما فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين فإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما وإن أبيتا أن تقررا بالإسلام فإن ملككما زائل . وخيل تحل ساحتكما وتظهر نبوءتي على ملككما » .



ز — كتابه ﷺ إلى هوذة صاحب اليمامة :

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هوذة بن علي سلام على من اتبع الهدى واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الحلف والحافر فأسلم تسلم وأجعل لك ما تحت يديك » .



(١) في سيرة بن هشام عياد بالياء ولعله عباد بالياء كما كتبناها وعباد وأخوه جعفر هما من الأزد وهما ملكان على عرب عمان .

ح - كتابه ﷺ إلى المنذر حاكم البحرين :

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى سلام عليك فأني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . أما بعد فأني أذكرك الله عز وجل فإن من ينصح إنما ينصح لنفسه ، وإنه من يطع رسله ويتبع أمرهم فقد أطاعني ومن نصح لهم فقد نصح لي ، وإن رسله قد أثنوا عليك خيراً ، وإني قد شفعتك في قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم ، وإنك مهما تصلح فلم نزلك عن عملك ، ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية » .



الخاتم النبوي

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نوجزها في التالي :

(١) لما كان كسرى مجوسياً غير كتابي قدم رسول الله ﷺ اسم كسرى على اسم الله تعالى وقاية كما فعل سليمان عليه السلام إذ كتب : ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ فكتاب الرسول ﷺ إلى كسرى قال فيه : « إلى كسرى ملك فارس بسم الله الرحمن الرحيم » فقدم اسم كسرى وقاية لاسم الله تعالى . ولما كان الملوك الآخرون أهل كتاب قدم اسم الله تعالى لأنهم يؤمنون بالله ويعظمونه .

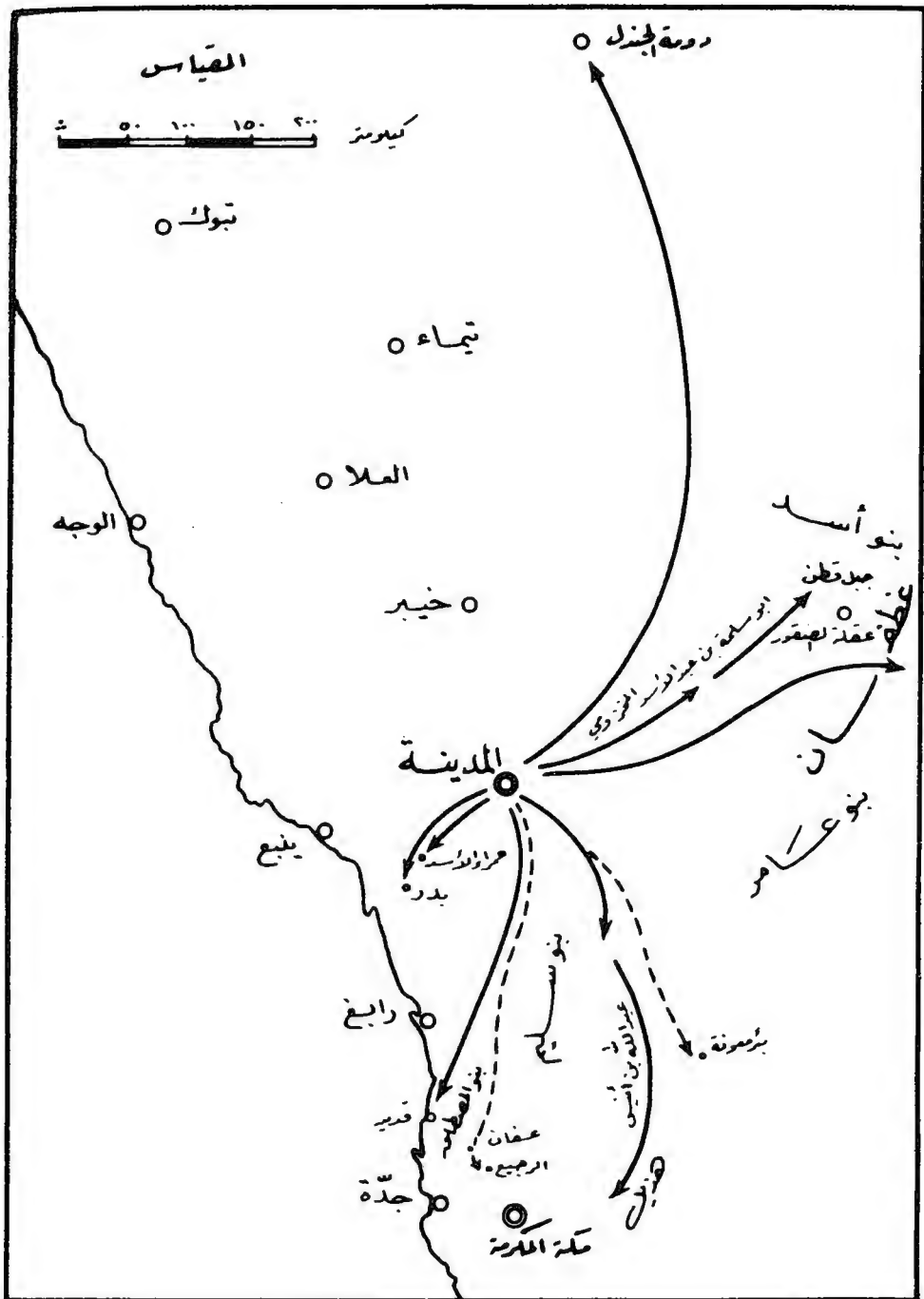
(٢) تنوّعت عبارات كتبه ﷺ بحسب مقام وحال من كتب إليهم وهذا من الحكمة التي هو أستاذها بلا منازع . قال تعالى : ﴿ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ .

(٣) سلك ﷺ في كتبه مسلك : أنزلوا القوم منازلهم ، ولكل مقام مقال .

(٤) إقراره ﷺ لمن كتب لهم إن أسلموا على ملكهم تابع من سياسة رشيدة لا يجارى فيها ﷺ .

(٥) استعمل كلمة « يوتك الله أجرك مرتين » في كتبه إلى أهل الكتاب أخذًا من قول الله تعالى في خطاب أهل الكتاب : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ أى يعطكم نصيبين من الأجر ؛ الأول لإيمانهم برسولهم الأول ، والثانى لإيمانهم بمحمد ﷺ .

(٦) جعله ﷺ اسم الله أعلى في الخاتم واسمه الأدنى فيه من تعظيم الله وإعظام اسمه ما لا يقادر قدره ، فصلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تسليما .



بيان مواقع غزوات الشمال خيبر ودومة الجندل وتبوك

أحداث السنة السابعة من هجرة الحبيب ﷺ

ودخلت السنة السابعة من هجرة النبي ﷺ وكان أول أحداثها :

غزوة خيبر

خيبر مركز تجمع كبير لأعداء الإسلام والمسلمين ؛ إذ عصابات الشر اليهودية كانت قد تجمعت فيها ، إن حرب الأحزاب كانت خيبر هي الرأس المفكر فيها ، والطاعة الدافعة لها ، ولذا تعين غزوها وتطهيرها من عصابات الشر بها .

ففى أول السنة السابعة فى أواخر المحرم منها غزا رسول الله ﷺ خيبر ، فاستخلف على المدينة سباع بن عُرفطة الغطفانى ، وقيل ثُمَيْلَةُ بن عبد الله الليثى ، وخرج فى ألف وأربعمائة مقاتل من بينهم مائتا فارس ، وسار بجيشه المظفر ماراً على عَصْرِ « جبل » حيث بنى له فيه مسجدًا ، ثم على الصهباء حتى نزل بالرجيع وهو واد كبير يقال له : الرجيع ، فنزل بينهم وبين غطفان ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر ، إذ كانوا على وفاق معهم فى حرب الرسول ﷺ .

ومن آيات النبوة المحمدية أنه ﷺ فى مسيره قال لعامر بن الأكوع عم سلمة بن عمرو بن الأكوع « خذ لنا من هَنَاتِكَ ^(١) اخذ ^(٢) لنا » فنزل وحدهم يقول :

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

(١) جمع هنة وهو لفظ يكتنى به عن شئ لا يعرف اسمه ، والمراد بها هنا أخبارك وأمورك فى أسفارك .

(٢) أى أنشد الشعر على الإبل تحذوها به لتسير مسرعة .

فأنزلن سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا

فقال رسول الله ﷺ « رحمك » فقال له عمر رضى الله عنه : هلا أمتعتنا به يا رسول الله ، وكان إذا قالها لرجل مات . فكانت نعيًا منه ﷺ لعامر رضى الله عنه ، وكانت آية نبوته ﷺ .

وفعلا فقد خاض عامر المعارك ورجع عليه سيفه فكلمه^(١) كلما شديدًا ، فمات متأثرًا بذلك ، فقال بعض : إنما قتله سلاحه فعلم الرسول ﷺ بذلك فقال : « إنه لشهيد » . وصلى عليه فصلى عليه المسلمون .

وسار رسول الله ﷺ بالجيش حتى أشرف على خير ، وقال لأصحابه : « قفوا » فوقفوا ودعا قائلاً : « اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقلن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما أذرين نسألك خير هذه القرية وخير أهلها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها ، وشر ما فيها » ثم قال : « أقدموا بسم الله »^(٢) .

ونزل ﷺ بأصحابه خير ليلاً ، ولم يعلم أهلها بنزوله ، فلما أصبحوا وخرجوا بمساحيمهم إلى أعمالهم الفلاحية ورأوا الرسول ﷺ وجيشه قالوا : محمد والخميس ، محمد والخميس^(٣) وعادوا إلى حصونهم فدخلوها ، فقال النبي ﷺ « الله أكبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » . وأخذ يحاصرهم في حصونهم ويأخذ أموالهم خارجها ، ثم أخذ يفتح الحصون حصناً بعد حصن ، وكان أول حصن افتتحه حصن ناعم ، وعنده قتل محمود بن مسلمة أخو محمد بن مسلمة رضى الله عنهما ، إذ ألقي عليه رحي فقتلته ،

(١) جرحه ، والكلم الجرح .

(٢) يشرع هذا الدعاء عند دخول أى بلد من البلاد .

(٣) الخميس الجيش الكبير .

ثم افتتح القموص حصن بنى ألى الحقيق ، وأصاب منهم سبايا من بينهم صفية بنت حبي بن أخطب النضرى ، وكانت عند كنانة بن الربيع بن ألى الحقيق ، فاصطفاه رسول الله ﷺ لنفسه ، ولم يعلم بذلك دحية^(١) فسأله إياها فأعلمه أنه اصطفاه لنفسه ، وأعطاه ابنتي عمّها ، وكثر السبي فى أيدى المسلمين .

خطبة تشريع حكيم :

ولما كثر السبي بأيدى المسلمين مع جواز التسرى بالسبايا وكانوا قد أكلوا لحوم الحمر الأهلية لتوفرها فى خير وعدم الحاجة إليها . خطب فيهم رسول الله ﷺ فضمّن خطبته قواعد تشريعية هامة تتعلق بالسبي وغيره . قال ابن إسحق بن حنش الصنعاني قال : غزونا مع رويفع بن ثابت الأنصارى المغرب ، فافتتح قرية من قرى المغرب يقال لها جربة^(٢) ، فقام فينا خطيباً فقال : يا أيها الناس لا أقول فيكم إلا ما سمعت من رسول الله ﷺ يقوله فينا يوم خير فقال : « لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى ماءه زرع غيره — يعنى إتيان الحبالى من السبايا — ولا يحل لمؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصيب امرأة من السبي حتى يستبرئها ، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنماً حتى يُقسم ، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فء المسلمين حتى إذا أعجفها^(٣) ردها فيه ، ولا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس ثوبا من فء المسلمين حتى إذا أحلقه^(٤) رده فيه » .

(١) لأنها كانت قد وقعت فى سهمه عند القسمة فلذا أعطاه الرسول عوضا عنها .

(٢) مدينة فى الجنوب التونسى اليوم .

(٣) أهزها وضعفها .

(٤) أبلاه ومزقه .

ونادى منادى رسول الله ﷺ : إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الأهلية فإنها رجسٌ .

دعوة نبوية مستجابة :

أثناء قتال الرسول ﷺ لليهود خيبر وفتح حصونهم أتاها بنو سهم من أسلم وقالوا : يا رسول الله لقد جهدنا وما بأيدينا من شيء فلم يجدوا عند رسول الله ﷺ ما يعطيهم إياه فقال داعيا : « اللهم إنك قد عرفت حالهم ، وأن ليست بهم قوة ، وأن ليس بيدي شيء أعطيهم إياه فافتح عليهم أعظم حصونهم غنائاً وأكثر طعاماً وودكاً » ففدا الناس للقتال ففتح الله حصن الصَّعْب بن معاذ ، وما بخيبر حصن أكثر منه طعاماً وودكاً منه .

آخر حصن يفتح :

واصل الحبيب ﷺ فتح حصون خيبر حصنا بعد حصن وانتهى إلى آخر حصن وهو الوطيح والشلالِم فحاصروهم بضعة عشرة ليلة ، وأثناء ذلك كانت مبارزات منها مبارزة مرحب اليهودي ، إذ خرج من الحصن وقد جمع سلاحه وهو يرتجز ويقول :

قد علمت خيبر أنى مرحبٌ	شاكي ^(١) السلاح بطل مُجَرَّبٌ
أطعن أحيانا وحيناً أضربُ	إذا الليوث أقبلت تحرَّبُ ^(٢)
أن جِملَى للحمى لا يُقربُ	يحجم عن صولتى المجرَّب
فرد عليه على بن أبى طالب رضى الله عنه قائلا :	
أنا الذى سمتنى أمى حَيْدرة	كليث غابات شديد القسورة
أكيلكم بالصاع كيل السندرة ^(٣)	

(١) حاد السلام .

(٢) أى مغضبة .

(٣) السندرة : شجرة يصنع مكايل عظام .

وقال : من يبارز ؟

فقال رسول الله ﷺ : « من لهذا ؟ » فقال محمد بن مسلمة أنا له يا رسول الله ، أنا والله الموتور الثائر قتل أخى بالأمس ، فقال : « فقم إليه . اللهم أعنه عليه » فتصاولا فترة ثم أمكن الله منه فقتله محمد بن مسلمة استجابة الله دعوة نبيه ﷺ ، ثم خرج بعد مرحب أخوه ياسر وهو يقول من يبارز ؟ فقال الزبير بن العوام أنا لك فقالت أمه صفية لا يا رسول الله يقتل ابني ، فقال لها : « بل ابنك يقتله إن شاء الله » فالتقيا فقتل الزبير ياسرا اليهودي ، وبعد المبارزة اقتتل الناس ، وكانت الراية عند أبي بكر رضى الله عنه وشعارهم يومئذ : يا منصور أمت أمت فقاتل قتالا شديدا ، ثم وجع فأخذها عمر رضى الله عنه فقاتل قتالا شديدا هو أشد من الأول ثم وجع فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال : « أما والله لأعطينها غدا رجلا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه ليس بفرار » فدعا رسول الله ﷺ عليا رضى الله عنه وهو أرمد ففعل في عينيه ، ثم قال : « خذ هذه الراية فامض بها ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك » فخرج يهرول بها حتى ركز الراية في رضم من حجارة تحت الحصن فاطلع عليه يهودى من رأس الحصن فقال : من أنت ؟ قال أنا على بن أبى طالب قال : علوئتم وما أنزل على موسى ، فما رجع حتى فتح الله على يديه ، ودخل المسلمون المدينة وبذلك انتهى فتح خيبر ، وأصبحت دار إسلام إلى اليوم والحمد لله رب العالمين .

مواقف يحسن أن تذكر وهى :

(١) لقد كان خروج النبى ﷺ إلى خيبر بإذن الله تعالى إذ وعد الله عز وجل المؤمنين غنائم خيبر عند رجوعهم من الحديبية في قوله من سورة الفتح : ﴿ وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ وهى صلح الحديبية ، والغنائم الكثيرة هى أموال خيبر .

(٢) كان عدد من استشهد في غزوة خيبر من المسلمين خمسة عشر رجلاً .

(٣) لما لم يبق لليهود من حصن إلا الوطيح والسلالم وقد فتحا عنوة سألوا رسول الله ﷺ أن يسيرهم في الأرض ويحقن دماءهم ويتركوا له الأموال ففعل ، ثم صالحهم على أن يبقوا على مزارعهم ونخلهم على أن لهم الشطر وللرسول والمؤمنين الشطر ، وأنه متى أراد إخراجهم أخرجهم ، فوافقوا على ذلك وأبقاهم .

(٤) بعد سقوط خيبر في يد المسلمين لم يقتل النبي ﷺ إلا ابني الحقيق لنكثهم وخيانتهم وكان أحدهما زوج صفية بنت حيى ، فأمر بلال أن يذهب بصفية إلى رَحْلِهِ مع بعض نساء السبي فمرّ بهن على القتلى ، فبكين فعتب رسول الله ﷺ على بلال وقال : « أنزعت الرحمة من قلبك يا بلال ؟ » وعرض رسول الله ﷺ على صفية الإسلام فأسلمت وتزوجها وجعل مهرها عتقها ، وبنى بها في طريق عودته إلى المدينة ، وأولم عليها وليمة فاخرة ، ونظر الرسول ﷺ إليها فرأى في وجهها خضرة إثر ضربة فساءلها فقالت كنت قد رأيت في منامى القمر زال من مكانه وسقط في حجرى فقصصتها على زوجى ابن أبى الحقيق فلطم وجهى ، وقال تتمنين هذا الملك بالمدينة ، وأنا والله ما كنت أذكر من ذلك شيئاً .

(٥) قسم النبي ﷺ خيبر بعد فتحها على ستة وثلاثين سهمًا فكان لرسول الله ﷺ والمسلمين نصفها ، والنصف الباقي لمن نزل به من الوفود ونواب المسلمين .

(٦) سمّت النبي ﷺ زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم اليهودى إذ أهدت للرسول ﷺ شاة مصلية فيها سمٌ فأكل منها بشر بن البراء فمات ، وسأل النبي ﷺ المرأة : « لم فعلت هذا ؟ » قالت أردت إن كنت ملكاً

استرحنا منك وإن كنت نبياً لم يضرّك فعفا عنها فأسلمت ، وقيل لما مات بشر قتلت به .

(٧) وصول جعفر بن أبي طالب وأصحابه معهم الأشعريون خيبر بعد فتحها فأسهم لهم رسول الله ﷺ ، وما أسهم لأحد غاب عن خيبر إلا هم لأنهم أدركوه فيها . وروى أن النبي ﷺ قبل جبهة جعفر ، وقال : « والله ما أدرى بأيهما أفرح بفتح خيبر أم بقدم جعفر ؟ » .

(٨) لما كان النبي ﷺ محاصراً لبعض حصون خيبر أتاه راع أسود فقال يا رسول الله اعرض عليّ الإسلام فعرض عليه الإسلام فأسلم ، ثم قال يا رسول الله إني كنت أجيئاً لصاحب هذه الغنم وهي أمانة عندي فكيف أصنع بها ؟ قال : « اضرب في وجهها فإنها سترجع إلى ربها » فأخذ الأسود حفنة من الحصى ورمى بها في وجهها ، وقال ارجعي لصاحبك فرجعت كأن سائقاً يسوقها حتى دخلت الحصن وتقدم الراعي إلى الحصن ليقاتل فأصابه حجر فمات فسجى بثوب وأعرض عنه النبي ﷺ فقيل له : لم أعرضت عنه يا رسول الله ؟ قال : « إن معه الآن زوجتيه من الحور العين » .

(٩) لما سمع أهل فدك بفتح خيبر نزل بهم الرعب فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصلحونه على النصف من فدك فصالحهم على ذلك ، وكان ذلك لرسول الله ﷺ وحده لأنه فيء أفاءه الله عليه ، إذ لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب ، وإنما بعث إليهم من خير محيصة يدعوهم إلى الإسلام فصالحوا وكان رئيسهم يوشع بن نون اليهودي .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نوجزها فيما يلي :

(١) جواز الحداء والأناشيد الحسنة الخالية من السوء والبذاء .

(٢) بيان آية النبوة المحمدية في نعي عامر بن الأكوع قبل استشهاده

ودخوله المعركة .

(٣) استحباب قول : اللهم رب السموات السبع وما أظللن ورب الأرضين وما أقلن ، ورب الرياح وما ذرين ورب الشياطين وما أضللن : نسألك من خير هذا البلد إلخ .. .

(٤) حرمة الغلول أى الأخذ من الغنائم قبل قسمتها .

(٥) حرمة وطء المسيية قبل استبرائها .

(٦) بيان فضل على بن أبى طالب ، وما فاز به من حب الله ورسوله .

(٧) بيان صدق وعد الله تعالى فى غنائم خيبر إذ وعد المؤمنين بها فأنجزها

لهم وله الحمد والمنة .

(٨) فضل صفية أم المؤمنين رضى الله عنها وأرضاها .

(٩) مشروعية تقبيل جبهة الإنسان إن كان أهلاً لذلك لصلاحه أو قربه .

(١٠) فى مصالحة أهل فذك قبل غزوهم تقرير معنى حديث : « نصرت

بالرعب مسيرة شهر » .

وثانى أحداثها :

غزوة وادى القرى

وبعد الفراغ من غزوة خيبر ومصالحة أهل فذك برئاسة يوشع بن نون على النصف من أموالهم ، وإقرارهم على العمل فيها كإقرار أهل خيبر ، قصد ﷺ وادى القرى ليفتحها ، فحاصرها عدة ليال وافتتحها عنوة ، وأثناء الحصار قتل مولاه مدغم الذى أهده إياه رفاعة بن زيد الجذامى ، أصابه سهم غرب^(١) فقتله ، وقال بعض المسلمين هنيئاً له الجنة ، فقال رسول الله ﷺ : « كلا ، والذى نفس محمد بيده إن شملته الآن لتشتعل ناراً » وكان قد غلها

(١) سهم غرب : هو الذى لا يعلم من رماه أو من أين أتاه .

من فيء المسلمين يوم خيبر ، وهنا سمعه رجل فجاء فقال يا رسول الله أصبت
شراكين لنعلين لي كنت أخذتهما فقال له رسول الله ﷺ « يُعَدُّ لك مثلهما
من نار » .

وترك النبي ﷺ النخل والأرض في أيدي أهلها وعاملهم معاملة أهل خيبر
وفدك سواء بسواء وبقي الأمر في خيبر وفدك ووادي القرى كما تركه رسول
الله ﷺ إلى عهد عمر رضي الله عنه ثم نفذ عمر رضي الله عنه وصية رسول
الله ﷺ وهي قوله : « لا يجتمع دينان في الجزيرة » فأجلى اليهود من الجزيرة
إلى خارجها . وطهرت قبة الإسلام من رجس المشركين وكفر الكافرين من
سائر الناس .

نتائج وعبر :

- إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبر هي كالتالي :
- (١) مشروعية مواصلة الغزو والفتح حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله
لله .
 - (٢) حرمة الغلول من الغنيمة ولو كان المأخوذ شراك نعل .
 - (٣) لا يصح الجزم لأحد بأنه في الجنة أو في النار ، ولكن يرجى
للمحسن ، ويخاف على المسيء من المسلمين .
 - (٤) جواز الحلف بدون طلب واستحلاف وذلك لتأكيد الكلام وتقويته
لفائدة المتكلم أو السامع .

ما تم من أمور هامة عند العودة من غزوة خيبر

لقد تمت أمور ذات بال والحبيب ﷺ في طريقه إلى المدينة من غزوة خيبر
ووادي القرى ، ومن تلك الأمور الهامة ذات البال والشأن ما يلي :

١ — بناء النبي ﷺ على صفية بنت حبي رضي الله عنها ، وكانت أم سليم بنت ملحان أم أنس بن مالك هي التي أصلحتها وجمعتها له ﷺ ، وبات في قبة له ، وبات أبو أيوب الأنصاري خالد بن زيد متوشحاً سيفه يحرس رسول الله ﷺ ، وهو معرس بصفية النضرية أم المؤمنين رضي الله عنها وأرضاها .

ب — نام ﷺ مع أصحابه بالطريق وقال : « من رجل يحفظ عنا الفجر لعلنا ننام ؟ » فقال بلال : أنا يا رسول الله أحفظ عليك ، ونام رسول الله ﷺ ونام الناس وقام بلال يصلي فصلي ما شاء الله أن يصلي ثم استند إلى بعيه واستقبل الفجر يرمقه فغلبته عينه فنام فلم يوقظهم إلا مسُّ الشمس ، وكان الرسول ﷺ أول أصحابه هب من نومه ، فقال : « ماذا صنعت بنا يا بلال ؟ » قال يا رسول الله أخذ بنفسى الذى أخذ بنفسك قال : « صدقت » ثم اقتاد رسول الله ﷺ بعيه غير كثير ثم أناخ فتوضأ وتوضأ الناس ، ثم أمر بلالا فأذن وصلوا سنة الفجر ، ثم أقام بلال الصلاة فصلوا صلاة الصبح ، ثم أقبل ﷺ على الناس فقال : « إذا نسيم الصلاة فصلوها إذا ذكرتموها فإن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ » .

ج — رضخ النبي ﷺ للنساء من الغنيمة ولم يضرب لهن بسهم ، إذ كان قد حضر خير عدة نسوة من بنى غفار جئن النبي ﷺ عند خروجه إلى خير فقلن له : يا رسول الله قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا أى إلى خير فنداوى الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا ، فقال ﷺ « على بركة الله » وحدثت إحدى هؤلاء النسوة فقالت : فخرجنا معه وكنت جارية حادثة فأردفنى رسول الله ﷺ على حقيبة رحله قالت فوالله لنزل رسول الله ﷺ ونزلت عن حقيبة الرحل ، وإذا بها دمٌ منى ، وكانت أول حيضة حضتها فتقبضت إلى النافة واستحييت فلما رأى رسول الله ما بى ورأى الدم قال : « مالك ؟ لعلك نفستِ » قالت قلت : نعم ، قال : « فأصلحي من نفسك ثم خذى إناء من ماء فاطرحي فيه ملحاً ثم اغسلى به ما أصاب الحقيبة

من الدم ، ثم عودى لركبك » قالت فلما فتح رسول الله خيرًا رضى لنا من الفىء ، ولم يسهم ، وأعطانى هذه القلادة التى فى عنقى فوالله لا تفارقنى أبدًا .

د — احتال ونجح ، ذلك هو الحجاج بن علاط السُّلَمى فقد كان من ذوى المال واليسار فى مكة ، وأسلم فى خير ولم يعلم المشركون بإسلامه ، فاستأذن الرسول ﷺ أن يذهب إلى مكة قبل وصول الخبر إليها بفتح النبى ﷺ وأصحابه لخير فأذن له ، واستأذنه أن يقول ما يقول فأذن له ، وكان أهل مكة يتطلعون إلى أخبار النبى ﷺ وأكثرهم يرغب فى هزيمة النبى ﷺ ويقتل هو وأصحابه ، فخرج الحجاج يريد مكة واستحث الخطى وأغذ السير فوصل مكة فأشاع أن محمدًا قد انهزم وأن اليهود قد عزموا على أن يأتوا به إلى مكة ليقتل بها فطار المشركون بالفرح وحزن العباس وآله الخبر فاتصل بالحجاج سرًا فأطلعه إنما أراد بهذا أن يجمع أمواله ويخرج بها ، لأن قريشًا لو تعلم بإسلامه لما سمحت له بإخراج درهم واحد وجمع أمواله وقال إنه يريد أن يأتى خيرًا ليشتري من فىء محمد وأصحابه قبل أن يسبقه التجار إلى ذلك ، وعند انصرافه من مكة قال للعباس إذا مضى على ثلاث فأعلن الحقيقة وهى انتصار محمد ﷺ وأصحابه على اليهود وفتح خيرًا بكل ما فيها . وفعلًا فى اليوم الثالث لبس العباس حُلَّةً وَتَخَلَّقَ أى تطيب وأخذ عصًا ثم خرج حتى أتى الكعبة فطاف بها فلما رأوه قالوا يا أبا الفضل هذا والله التجلد لحر المصيبة قال : كلا والله الذى حلفتم به لقد فتح محمد خيرًا وترك عروسًا على بنت ملكهم ، وأحرز أموالهم وما فيها وأصبحت له ولأصحابه ، قالوا : من جاءك بهذا الخبر ؟ قال : الذى جاءكم بما جاءكم به ، ولقد دخل عليكم مسلمًا فأخذ ماله وانطلق ليلحق بمحمد ﷺ وأصحابه فيكون معه . قالوا : يا لعباد الله انفلت عدو الله !! ولم ينشوا أن جاءهم الخبر بذلك .

وثالث أحداثها :

سَبْعُ سَرَايا تُبْعَثُ إِلَى أَنْحَاءِ مُخْتَلِفَةٍ

إنه بعد أن عاد ﷺ إلى المدينة ظافراً منتصراً في أواخر ربيع الثاني أخذ يبعث بالسرايا سرية بعد أخرى ، لإبلاغ دعوة الله ، وتفتيت قوى الشر ، والضرب على أيدي الظالمين فكانت أول سرية بعثها :

سرية أبي بكر الصديق

فقد بعث ﷺ أبا بكر الصديق ومعه سلمة بن الأكوع إلى نجد حيث بنو فزارة فغزوا وأسروا من العدو ما شاء الله تعالى ووقع في الأسر جارية حسناء كانت في سهم سلمة فاستوهبها منه رسول الله ﷺ وفادى بها أسرى من المسلمين كانوا بمكة موثقين .

وثاني سرية :

سرية عمر بن الخطاب

إذ بعث به ﷺ في ثلاثين رجلاً إلى ثُرْبَةِ مِنْ أَرْضِ هَوَازِنَ ، وكان دليله من بنى هلال فكانوا يسيرون الليل ، ويكمنون النهار فبلغ الخبر هوازن فهربوا ووصلت السرية إلى ديارهم فلم يلقوا منهم أحداً فانصرفوا راجعين المدينة ولم يلقوا كيّداً .

وثالث سرية :

سرية بشير بن سعد الأنصاري

إذ بعث به ﷺ في ثلاثين رجلاً إلى بنى مَرَّةَ بمنطقة فدك فاستاقوا نعمهم فقاتلوهم فقتلوا عامة أفراد السرية ، وصبر بشر يقاتل وحده قتال الأبطال حتى جاء جن الظلام فلجأ إلى فدك وحده فبات عند يهودى من أهلها ، ثم كر

عائدًا إلى المدينة وما شاء الله كان ولا قوة إلا بالله .

ورابع سرية :

سرية غالب الكلبي

وبعث رسول الله ﷺ سرية غالب بن عبد الله الكلبي إلى الحركات من جهينة فصباحوهم فهزموهم وكان في السرية أسامة بن زيد بن حارثة ففر رجل من القوم فلحقه هو ورجل من الأنصار فأدركه أسامة فقال الرجل (١) لا إله إلا الله فكف الأنصارى عنه وطعنه أسامة بجريته فقتله فلما قدموا إلى المدينة أخبر بذلك رسول الله ﷺ فقال له : « يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله ؟ » فقال أسامة إنما كان متعوذًا (٢) فما زال الرسول ﷺ يكررها حتى قال أسامة تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم وهذه الحادثة ينظر إليها من خلال قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَقَاتِلُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتُ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ الآية فإنها تدل على نوع الحادث ...

وخامس السرايا :

سرية بشير (٣) بن سعد الأنصارى

وبعث رسول الله ﷺ بشير بن سعد الأنصارى في ثلاثمائة رجل إلى اليمن من أرض غطفان وذلك من أجل جمع من المشركين تجمعوا للإغارة على المدينة النبوية بإغراء وإمداد عينية بن حصن الطاغية الظالم ، فساروا إليهم يمضون الليل ويكمنون النهار ، وبلغ ذلك الجمع مسير بشير بن سعد الأنصارى فهربوا فأصاب بشير وأصحابه نعمًا كثيرة وأسروا منهم رجلين قدموا بهما إلى النبي ﷺ فأسلما وحسن إسلامهما .

(١) مرداس بن نهيك .

(٢) أى بقوله لا إله إلا الله ليحفظ نفسه من القتل .

(٣) هو والد النعمان بن بشير الصحابى الجليل .

وسادس السرايا :

سرّية عبد الله بن رواحة

وبلغ رسول الله ﷺ أن يسير بن رزام اليهودى يجمع غطفان ليغزوه بهم فبعث عبد الله بن رواحة فى ثلاثين راكبًا من بينهم عبد الله بن أنيس فأتوه بخير فقالوا له إن رسول الله ﷺ أرسلنا إليك ليستعملك على خير حتى تبعهم فى ثلاثين رجلا مع كل رجل رديف من المسلمين فلما بلغوا قرقرة نيار وهى من خير على ستة أميال ندم اليهودى فأهوى بيده إلى السيف ليضرب عبد الله بن أنيس ففطن له عبد الله فزجر بعيره ثم اقتحم عن بعيره يسوق القوم حتى إذا استمكن من يسير اليهودى ضرب رجله فقطعها فاقتم يسير وفى يده مخراش من شوحط فضرب به وجه عبد الله بن رواحة فشجه ، فانكفأ كل رجل من المسلمين على رديفه فقتله غير رجل واحد من اليهود أعجزهم هربًا ولم يُصب من المسلمين أحد .

فقدموا على رسول الله ﷺ فبصق فى شجة عبد الله فلم تقح ولم تؤذه حتى مات رضى الله عنه .

وسابع السرايا :

سرّية عبد الله بن حذافة

وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة على رأس سرّية ، وأمر أفراد السرّية أن يسمعوا لعبد الله وأن يطيعوا ، وسار حتى إذا كان فى بعض الطريق نزل منزلا وطلب من أفراد السرّية شيئًا فأغضبوه فيه ، وهنا قال لهم اجمعوا لى حطبًا فجمعوا ، فقال لهم أوقدوا نارًا فأوقدوا ، ثم قال لهم ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا لى وتطيعوا ؟ قالوا : بلى ، قال فادخلوها ، فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا إنما فررنا إلى رسول الله من النار ، وعندها سكن غضبه وطفئت النار ، فلما قدموا على النّبى ﷺ ذكروا ذلك له ، فقال : « لو

دخلوها ما خرجوا منها ، إنما الطاعة في المعروف » .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نوجزها كالآتي :

(١) بيان قوة وصحة العزم المحمدي وعظم صبره على الجهاد إبلاغا لدعوة ربه عز وجل .

(٢) مظاهر الحكمة المحمدية حيث تجلّت في مواطن كثيرة .

(٣) لا ينقص من قيمة السريّة ولا من أجرها إذا قرّ العدو ولم يتمكنوا منه أو يحصلوا منه على طائل .

(٤) مشروعية مفاداة الأسرى .

(٥) لا يحل قتل من شهد أن لا إله إلا الله محمدا رسول الله ولو اتهم بالتقيّة تخلصا من القتل .

(٦) بيان بركة ريقة النبي ﷺ إذ شفى الله بها شجة عبد الله بن أنيس .

(٧) وجوب طاعة أولى الأمر في المعروف دون المنكر .

(٨) بيان أن المعصية لله والرسول إن كانت من كبائر الذنوب موجبة لدخول النار إلا أن يغفرها الله تعالى .

ورابع أحداثها :

عمرة القضاء

إنه بموجب صلح الحديبية الذي تم في السنة الفارطة خرج رسول الله ﷺ ومعه أصحابه رضوان الله عليهم بعد أن استعمل على المدينة عُوَيْف بن الأُضْبِط الدثلي ، وكان عدد المسلمين ألفين ما عدا النساء والصبيان ، ومن بين أفراد هذا العدد من صد عن العمرة في السنة الماضية ، وذلك في شهر ذي القعدة من سنة سبع بناءً على بنود الاتفاقية القاضية بأن يرجع ﷺ وأصحابه من

الحديبية فلا يدخلون مكة ولا يعتمرون على أن يعودوا في السنة القابلة فتَحَلَّى لهم مكة ثلاثة أيام يعتمرون ثم يعودون لا يمسهم سوء ، وتُسَمَّى هذه العمرة عمرة القضاء أو القضية أو عمرة الصلح أيضا .

ولما قارب الرسول ﷺ دخول مكة أخلت قريش له مكة فلزموا بيوتهم وأندبتهم ودخل رسول الله ﷺ راكبًا على ناقته وخطامها بيد عبد الله بن رواحة وهو ينشد ويقول :

خَلُّوا بَنِي الْكُفَّارِ عَنْ سَبِيلِهِ خَلُّوا فَكُلَّ الْخَيْرِ فِي رَسُولِهِ
يَارَبِّ إِنِّي مُؤْمِنٌ بِقِيلِهِ أَعْرِفُ حَقَّ اللَّهِ فِي قَبُولِهِ

وتحدث المشركون فيما بينهم وقالوا إن محمدًا وأصحابه في عسرة وجهد وشدة ، وزين لهم الشيطان ذلك في نفوسهم حتَّى هَوا بالانقضاء عليهم ، وعلم ذلك رسول الله ﷺ فلما دخل المسجد واضطجع أصحابه وقال لهم : « رحم الله امرئًا أراهم اليوم من نفسه قوة » . ثم استلموا الركن وهروا في الطواف ثلاثة أشواط فرأت قريش بأَم عينيها مظاهر القوة فذهب وسواسها من نفسها . وبقي الاضطباع والهرولة سنة ترمز إلى ما ينبغي أن يكون عليه المسلمون دائما وهو القوة ؛ لإحقاق الحق وإبطال الباطل .

زواج الحبيب ﷺ :

وأثناء إقامته بمكة تزوج ميمونة بنت الحارث أخت أم الفضل التي تحت العباس رضى الله عنه ، وقد وكلت زوج أختها العباس فتولى عقد نكاحها وأصبحت ميمونة أم المؤمنين والحمد لله رب العالمين .

وفي اليوم الثالث بعث قريش رجلها حويطب بن عبد العزى ومعه نفر يطلبون من الرسول ﷺ أن يخرج بنهاية اليوم الثالث تنفيذاً للاتفاقية ، فقالوا له : إذا انقضى أجلك فاجرك عنا .

الكرم المحمدى :

ولما أبلغ حويطب رسول الله ﷺ أمر قريش بالخروج قال لهم : « وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم وصنعنا لكم طعاما فحضرتموه ؟ » فقالوا : لا حاجة لنا في طعامك ، فأخرج عنا ، فخرج ﷺ وترك أبا رافع مولاه لأجل ميمونة فإذا فرغ من جهازها أتاه بها وهو في سرف فبنى بها هناك ، ثم انصرف ﷺ عائداً إلى المدينة في أول الحجة ، وتولى الحج هذا العام المشركون ونزل في عمرة القضاء قرآن هو قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ ومصدق ذلك فيما يلي :

(١) فتح خيبر وهو فتح قريب ، والفتح البعيد هو فتح مكة العام القابل سنة ثمان من الهجرة ، لأن كلمة فتحا قريباً تشير إلى فتح بعيد يأتي بعد القريب .

(٢) دخولهم مكة في عمرة القضاء آمنين غير خائفين .

(٣) إذ بعد الفراغ من طوافهم وسعيهم منهم من حلق ومنهم من قصر ، فكان هذا تأويل رؤيا الرسول ﷺ التي رآها قبيل الحديبية .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا هي كالاتى :

- (١) مشروعية قضاء العبادة إذا فاتت لأسباب قاهرة حالت دون أدائها .
- (٢) جواز الاعتمار في الأشهر الحرم ، وقد كان أهل الجاهلية يكرهونه .
- (٣) مشروعية سنة الاضطباع والهرولة في طواف القدوم للعمرة أو الحج .
- (٤) بيان العلة في سنة الاضطباع والهرولة في الأشواط الثلاثة الأولى وهي إظهار القوة ، وأن المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف .

(٥) مشروعية الزواج في دار الحرب للقادر عليه .

(٦) نظرًا إلى الخلاف في هل تزوج الرسول ﷺ ميمونة وهو محرم وبني بها وهو حلال فأني أرى الخروج من الخلاف يكون بارتقاء أن النبي ﷺ خطب ميمونة وعقد عليها بمكة بعد تحلله من إحرامه في أول يوم دخل مكة ، ثم أمر مولاه أن يلحقه بها بعد تجهيزها في سرف فبنى بها هنالك فلم يخطبها ولم يعقد عليها ولم يبن بها وهو محرم أبدًا .

(٧) لطيفة في أن آخر من تزوج الرسول ﷺ من نسائه من ميمونة ، وآخر من مات من نسائه بعده ميمونة . وأنها رضى الله عنها بنى بها بسرف ، وماتت ودفنت بسرف فمكان عرسها هو مكان دفنها فرضى الله عنها وأرضاها وجعل الجنة مأواها .

وخامس أحداثها :

سرية ابن أبي العوجاء

ولما رضى ﷺ من عمرة القضاء وذلك في شهر ذى الحجة بعث بسرية عليها ابن أبي العوجاء السلمي في خمسين فارسًا بعثهم إلى بنى سليم ، وكان لهم عين^(١) فذهب إليهم فأخبرهم بقدوم السرية عليهم لدعوتهم إلى الإسلام فتهيأوا للقتال ، ودفع دعوة الإسلام فلما انتهى إليهم رجال السرية ودعواهم إلى الإسلام رشقوهم بالنبل ولم يسمعوا قولهم ، وقالوا : لا حاجة لنا إلى ما دعوتهم إليه فرموهم ساعة ، وجعلت الأمداد تتلاحق ، وتحقق بهم من كل جانب ، وقاتل أفراد السرية قتالًا شديدًا حتى قتل عامتهم وأصيب أميرهم بجروح كثيرة إلا أنه تحامل حتى وصل المدينة مع من بقى معه من المسلمين .

(١) عين : جاسوس .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا هي :

- (١) وجوب الدعوة إلى الله تعالى والتحمل والصبر في سبيلها .
- (٢) خطر العيون والجواسيس أيام الحروب ، ووجوب الحذر منهم .
- (٣) بيان شجاعة أصحاب الرسول ﷺ وسائر أهل الإيمان وعظيم صبرهم وتحملهم .

أهم أحداث هذه السنة غير الغزوات والسرايا

من أهم الأحداث والوقائع عدا الغزوات والسرايا التي كانت في سنة سبع من الهجرة ما يلي :

- (١) رد النبي ﷺ ابنته زينب على زوجها أبي العاص بن الربيع .
- (٢) زواجه ﷺ بميمونة بنت الحارث الهلالية .
- (٣) قدوم حاطب بن أبي بلتعة من عند المقوقس ملك الأقباط بمصر ومعه مارية القبطية أم إبراهيم ابن النبي ﷺ ، وسيرين ، و قد أسلمتا في طريقهما إلى المدينة .
- (٤) قضاء الرسول ﷺ وأصحابه عمرتهم التي منعوا من إتمامها سنة ست من الهجرة .

أحداث السنة الثامنة من هجرة الحبيب ﷺ

ودخلت السنة الثامنة من هجرة النبي ﷺ وكان أول أحداثها :

سرية غالب

وبعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الليثي الكلبي إلى بني الملوّح فلقيه في مسيره الحارث بن البرصاء الليثي فأخذه أسيرًا ، فقال : إنما جئت لأسلم . فقال له غالب إن كنت صادقًا فلن يضرك رباط ليلة وإن كنت كاذبًا استوثقنا منك وוכל به بعض أصحابه ، وقال له إن نازعك فخذ رأسه ، وأمره بالمقام إلى أن يعود ، ثم ساروا حتى أتوا بطن الكديد فنزلوا بعد العصر ، وأرسلوا جُنْدُب بن مكيث الجهني ربيعة^(١) لهم قال فقصدت تلاً هناك يطلعني على الحاضر فانبطحت عليه فرآني رجل منبطحاً فأخذ قوسه وسهمين فرماني بأحدهما فوضعه في جنبى ، فنزعته ولم أتحرك ، ثم رماني بالسهم الثانى فوضعه في رأس منكبى فنزعته ولم أتحرك ، فقال الرامى أما والله لقد خالطه سهمى ولو كان ربيعة لتحرك فأمهلناهم حتى راحت مواشيهم واحتلبوا فشئنا عليهم الغارة فقتلنا منهم واستقنا منهم النعم ، ورجعنا سرعاً ، وأتى صريخ القوم فجاءنا ما لا قبل لنا به حتى إذا لم يكن بيننا إلا بطن الوادى من قديد ، بعث الله من حيث شاء سحاباً ما رأينا قبل ذلك مطراً مثله ، فجاء الوادى بما لا يقدر أحد أن يجوزه ، فلقد رأيتهم ينظرون إلينا ما يقدر أحد أن يتقدم . وكان شعارنا في هذه السرية : أمت أمت ، وكنا بضعة عشر رجلاً .

(١) الربيعة : الطليعة من الجيش .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نجلها في الآتي :

(١) بيان إنفاذ الرسول ﷺ أمر ربّه عز وجل في إبلاغ دعوته بلا كلل ولا ملل ولا فتور .

(٢) بيان الصبر والتحمل في ذات الله عز وجل وأنه شعار المؤمنين الصادقين .

(٣) مشروعية الغزو في سبيل الله ليعبد الله وحده فيكمل الناس ويسعدوا على عبادته تعالى .

(٤) بيان إكرام الله تعالى لأوليائه بإنجائهم بالمطر والسيول وبما شاء من أسباب .

وثاني أحداثها :

سرية شجاع

وبعث ﷺ شجاع بن وهب إلى بنى عامر في أربعة عشر رجلاً فأصابوا نعلماً ، فكان سهم كل واحد منهم خمسة عشر بعيراً .

وثالث أحداثها :

سرية عمرو بن كعب

وبعث ﷺ عمرو بن كعب الغفاري إلى ذات الأطلاق في خمسة عشر رجلاً فوجد بها جمعاً كثيراً فدعاهم إلى الإسلام فأبوا أن يجيبوا ، وقتلوا أصحاب عمرو ولم ينج إلا هو ، وكانت ذات الأطلاق هذه من ناحية الشام وهم من قضاة ورئيسهم يُقال له : سدوس .

ورابع أحداثها :

إسلام

كل من خالد ، وعمرو وعثمان

إن في إسلام كل من خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن أبي طلحة العبدري نصرًا كبيرًا ، وفتحًا عظيمًا للدعوة الإسلامية ؛ ولذا كان إسلامهم حدثًا هامًا في تاريخ الدعوة ، وقد تأخر إسلامهم إلى صفر من هذه السنة الثامنة .

وهذا بيان كيفية إسلامهم رضي الله عنهم يقول عمرو : لما انصرفنا عن الخندق قلت لأصحابي إنني أرى أمر محمد يعلو علوًا منكرًا ، وإني قد رأيت أن ألحق بالنجاشي ، فإن ظهر على قومنا كنا عند النجاشي ، وإن ظهر قومنا على محمد فنحن من قد عرفوا . فقالوا له : إن هذا الرأي ، قال فجمعنا له أي للنجاشي أذمًا كثيرًا هدية ، وخرجنا إلى النجاشي ، فإنا لعنده إذ وصل عمرو ابن أمية الضمري رسولًا من النبي ﷺ في أمر جعفر وأصحابه ، فدخلت على النجاشي ، وطلبت منه أن يسلم إلى عمرو بن أمية لأقتله تقريبًا إلى قريش بمكة فلما سمع النجاشي كلامي غضب وضرب أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره أي النجاشي فخفته ، ثم قلت : والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه ، قال أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي لموسى لتقتله ؟ قلت أيها الملك أكذلك هو ؟ قال : ويحك يا عمرو أطعه واتبعه فإنه والله لعلى الحق ، وليظهرنّ على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنده ، فقلت فبايعني له على الإسلام ، فبسط يده فبايعته ثم خرجت إلى أصحابي وكتبتهم إسلامي ، وخرجت عائداً إلى رسول الله ﷺ .

ولقيني خالد بن الوليد وذلك قبل الفتح ، وهو مقبل من مكة ، فقلت

أين يا أبا سليمان؟ قال والله لقد استقام المنسم^(١) إن الرجل لنبي أذهب والله أسلم، فحتي متى؟؟ فقلت ما جئت إلا للإسلام، فقدمنا على النبي ﷺ فتقدم خالد بن الوليد فأسلم، ثم دنوت فأسلمت، وتقدم عثمان فأسلم.

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نجملها في الآتي :

(١) بيان فضل العلم الشرعي فإن النجاشي آمن بالنبي ﷺ لما له من علم بذلك .

(٢) بيان تدبير الله في خلقه، وذلك واضح في تأخر إسلام خالد وعمرو وعثمان بن طلحة مع كمال عقولهم وذكائهم، وعظم دهائهم .

(٣) سماحة الإسلام إذ احتضن الثلاثة مع ما قاموا به ضده وما تصرفوا ضد أهله ومن مبادئه « التوبة تجب ما كان قبلها » .

وخامس أحداثها :

سرية ذات السلاسل

وبعث الحبيب ﷺ عمرو بن العاص إلى أرض بلى وعذرة يدعون الناس إلى الإسلام وكانت أم عمرو من بلى فتألفهم بذلك رسول الله ﷺ فسار عمرو حتى وصل ماء جدام المسمى بالسلاسل، وبه سميت هذه الغزوة « غزوة ذات السلاسل » فلما كان به خاف، فبعث إلى النبي ﷺ يستمده فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح في جماعة من المهاجرين والأنصار فيهم أبو بكر وعمر، وقال الحبيب ﷺ لأبي عبيدة : « لا تختلفا أي أنت وأمير السرية عمرو بن العاص » . فخرج أبو عبيدة ومن معه فلما قدموا على عمرو، قال عمرو

(١) أي تبين الطريق ووضح .

يا أبا عبيدة إنما جئت مددًا إلى فقال أبو عبيدة يا عمرو إن رسول الله ﷺ قال : « لا تختلفا » فإن عصيتني أطعتك ، قال فأنا أمير عليك قال : فدونك ، فصلى عمرو بالناس وبالمدد الذى بعث به رسول الله ﷺ . بلغ عدد أفراد السرية نحوًا من خمسمائة رجل فضربوا فى المنطقة شرقًا وغربًا ودوخوا من فيها . وفى هذه السرية احتلم عمرو فلم يغتسل خوفا من الموت لشدة البرد ، وإنما استنجى وتوضأ وتيمم وصلى ، ولما سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك سكت فأقر عمرًا على فعله .

وسادسة أحداثها :

سرية عمرو بن العاص

وبعث ﷺ عمرو بن العاص إلى جيفر وعباد ابنى الجُلندى بعمان فآمنا وصدقا ، وأخذ الجزية من المجوس القاطنين بعمان .

وسابعة أحداثها :

سرية الخبط^(١)

وفى هذه السنة الثامنة من الهجرة بعث رسول الله ﷺ سرية جعل عليها أبا عبيدة بن الجراح ، وعدد أفرادها ثلثمائة مقاتل وزودهم رسول الله ﷺ بجراب من التمر ووجههم نحو ساحل البحر ، ونفذ جراب التمر حتى كانوا يعطون منه تمرة تمر ، وقال أحدهم : قلت فى نفسى : ماذا تعنى هذه التمرة ؟ ولما فقدتها عرفت قيمتها يومئذٍ ، وجاعوا حتى كانوا يضربون ورق الشجر فيسقط فيجمعونه ويلونه بالماء ويأكلونه ؛ ولذا سميت هذه السرية سرية الخبط ، ولما قربوا من البحر لاح لهم شيء كأنه كثيب رمل فدنوا منه وإذا

(١) ورق الشجر يخبط يخبط بالخبط .

هو دابة من دواب البحر ميتة يقال لها : العنبر فأكلنا منه نحوًا من نصف شهر حتى سمنّا ، وكنا نغترف من عينها الدهن بالمغراف ، ونصبنا ضلعين من أضلاعها . فكانت الراحلة تدخل تحتها ولا تمسها ، وتزودنا من لحمها . ولما وصلنا إلى المدينة وذكرنا ذلك لرسول الله ﷺ قال : « هو رزق أخرجه الله لكم فهل معكم شيء من لحمه تطعمونا ؟ » فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه شيئًا فأكله .

نتائج وعبر :

- إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نوجزها كالآتي :
- (١) مواصلة الدعوة إلى الله تعالى وإبلاغ رسالته ﷺ إلى كافة الناس لإصلاحهم وإسعادهم في الدنيا والآخرة .
 - (٢) بيان صبر الصحابة وتحملهم الشدائد في ذات الله تعالى ما كانوا به مضرب المثل .
 - (٣) بيان إكرام الله تعالى لأصحاب رسوله بأن ساق لهم العنبر فأكلوا نصف شهر منه .
 - (٤) جواز أكل ميتة البحر .
 - (٥) بيان تطييب رسول الله ﷺ لخواطر أصحابه وتركية نفوسهم وذلك بأكله من لحم الحوت الميت . وهو القائل في البحر : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » .

وثامنة أحداثها :

سرية أبي قتادة

وفي شعبان من هذه السنة وجه رسول الله ﷺ أبا قتادة ومعه عبد الله ابن أبي حدرد في رجال إلى الغابة حيث بلغ رسول الله ﷺ أن رفاعة بن

قيس قد جمع جموعاً ونزل الغابة يريد حرب رسول الله ﷺ . ولما بلغوا من الحاضر^(١) مع غروب الشمس كمن كل واحد منهم في ناحية ، وكان لقوم رفاعه راع فابطأ عنهم فخرج رفاعه بن قيس في طلبه ومعه سلاحه ، قال عبد الله بن أبي حدرد فرميته بسهم فأصبت فؤاده فلم يتكلم فأخذت رأسه ثم شددت في ناحية العسكر وكبرت وكبر أصحابي فوالله ما كان إلا النجاء أى هرب أهل الحاضر طالبين النجاة لأنفسهم فأخذوا نساءهم وأولادهم وما خف عليهم من أموالهم ، واستقنا الإبل الكثيرة والغنم فجئنا بها رسول الله ﷺ ورأس رفاعه ، قال عبد الله فأعطاني رسول الله ﷺ من تلك الإبل ثلاثة عشر بعيراً وعدل بعير ، وعدل البعير بعشر من الغنم .

وتاسعة أحداثها :

سرية أبي قتادة إلى إضم

وفي هذه السنة أيضا أغزى رسول الله ﷺ أبا قتادة إلى إضم ومعه محلم ابن جثامة فمر عليهم عامر بن الأضبط الأشجعي على بعير له ومعه متاعه فسلم عليهم بتحية الإسلام ، فأمسكوا عنه ، وحمل عليه محلم بن جثامة فقتله وأخذ بعيره ومتاعه ولما قدموا على رسول الله ﷺ وأخبروه الخبر ، ونزل قوله تعالى : من سورة النساء : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ .

(١) الحاضر : سكان الحاضرة أى المدينة أو القرية ، والمراد هنا منازل القوم الذى حضروا فيها .

وعاشرة أحداثها :

غزوة مؤتة

هذه إحدى الغزوات العظيمة في الغزو الإسلامي : وكانت في جمادى الأولى من سنة ثمان فقد حدد الرسول ﷺ زمانها ومكانها وعين أمراءها فعين زيد بن حارثة مولاه أميراً عليها فإن أصيب فجعفر بن أبى طالب ، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة .

وكان عدد أفراد هذه السرية ثلاثة آلاف مقاتل ، ولما عين الحبيب ﷺ زيداً أميراً ، وجد جعفر في نفسه وقال يا رسول الله : ما كنت أذهب أن تستعمل على زيداً فقال له رسول الله ﷺ « امض فإنك لا تدري أى ذلك خير » وعندها بكى الناس وقالوا : هلا متعتنا بهم يا رسول الله ، وكان إذا قال فإن أصيب فلان فالأمير فلان أصيب كل من ذكره .

وتجهز الناس وودعهم رسول الله ﷺ والناس ، ولما ودع عبد الله بن رواحة بكى فقال له الناس ما يبكيك ؟ فقال : ما بى حب الدنيا ولا صباية بكم ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية وهى : ﴿ وَإِنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ فلست أدري كيف لى بالصدر بعد الورود . فقال المسلمون صحبكم الله وردكم إلينا صالحين . ولما تهيأ القوم للخروج ، أتى عبد الله رسول الله ﷺ فودعه ثم قال :

أنت الرسولُ فمن يحرم نوافله^(١) والوجه منه فقد أزرى^(٢) به القدر
فنبئت الله ما آتاك من حسن فى المرسلين ونصراً كالذى نُصروا
إنى تفرست فىك الخير نافلة فراسةً خالفت فيها الذى نظروا

(١) نوافله : عطاياه وهباته .

(٢) أى قصر به .

ثم خرجوا وساروا حتى نزلوا معان من أرض الشام فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم ، ومائة ألف من العرب المتنصرة من لحم وجذام والقين وبلى . فأقام المسلمون بمعان ليلتين ينظرون أمرهم وقالوا : نكتب إلى رسول الله ﷺ نخبره الخير ، وننتظر أمره ، فشجعهم عبد الله بن رواحة ، وقال : يا قوم والله إن الذي تكرهون للذي خرجتم تطلبون إنه الشهادة ، وما نقاتل بعدد ولا قوة ، ولا نقاتلهم إلا بهذا الدين ، فانطلقوا فما هي إلا إحدى الحسينيين فقال الناس صدق والله ، وساروا فتلقتهم جموع الروم والعرب بقرية من البلقاء يقال لها : مشارف ، وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة فالتقى الناس عندها وكان على يمينه المسلمين قطبة ابن قتادة العذري ، وعلى يسرهم عبادة بن مالك الأنصاري فاقتتلوا قتالا شديداً ، فقاتل زيد براية رسول الله ﷺ حتى شاط في رماح القوم أى مات ثم أخذها جعفر بن أبي طالب فقاتل بها وهو يقول .

يا حبذا الجنة واقتراها طيبة وبارداً شرابها
والروم روم قد دنا عذابها على إذ لاقيتها ضرابها

ثم عقر فرسه وهو أول فرس عقر في الإسلام ، وقاتل حتى قطعت يده اليمنى فأخذ الراية باليسرى ، وقاتل حتى قطعت يده اليسرى فاحتضن الراية بعضديه حتى قتل فوجد به بضع وثمانون رمية وضربة وطعنة في جوار الله تعالى ورضوانه وأخذ الراية عبد الله بن رواحة ثم تقدم فتردد بعض التردد ثم قال يخاطب نفسه .

أقسمت يا نفس لتنزلته طائعة أو لتكرهته
إن أجلب الناس وشدوا الرنه مالى أراك تكرهين الجنة
قد طال ما كنت مطمئنه هل أتت إلّا نطفة في شنه

ثم نزل على فرسه فجاء ابن عم له بعرق لحم فقال شد بهذا صلبك فقد لقيت ما لقيت ! فأخذه فانتهس منه نهسة ، ثم سمع الحطمة في ناحية العكسر

فقال لنفسه وأنت في الدنيا !! ثم ألقاه وأخذ سيفه وتقدم فقاتل حتى قتل ،
فإلى رحمة الله ورضوانه واشتد عليهم الأمر وكان قطبة قد قتل قبل ذلك قتله
مالك بن زافلة قائد العرب المنتصرة . ثم أخذ الراية ثابت بن أرقم أخو بني
العجلان وقال يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم ، قالوا أنت قال :
ما أنا بفاعل ، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد فلما أخذ الراية دافع القوم
وحاشى بهم ثم انحاز ، وانحيز عنه حتى انصرف الناس ، ثم أقبل بهم قافلا في
طريقه إلى المدينة النبوية .

إخبار النبي ﷺ بالواقعة :

وبالمدينة يخبر الحبيب ﷺ بجريان المعركة بالتفصيل كأنه يشاهدها عن
كثب فيقول بعد أن رقى المنبر ونادى بالصلاة جامعة : « باب خير ، باب
خير ، باب خير . أخبركم عن جيشكم هذا الغازي إنهم لقوا العدو فقتل
زيد شهيداً فاستغفر له ، ثم أخذ اللواء جعفر فسد على القوم حتى قتل شهيداً
فاستغفر له ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة » وصمت حتى تغيرت وجوه
الأنصار ، وظنوا أنه قد كان من عبد الله ما يكرهون ثم قال ﷺ : « فقاتل
القوم حتى قتل شهيداً » ثم قال : « لقد رفعوا إلى الجنة على سرر من ذهب
فرأيت في سرير ابن رواحة ازوراراً عن سريري صاحبيه فقلت عم هذا ؟
فقليل مضياً وتردد بعض التردد ثم مضى » . ولما قتل ابن رواحة أخذ الراية
ثابت بن أرقم الأنصاري ، وقال يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم
فاصطلحوا على خالد بن الوليد فقال رسول الله ﷺ : « ثم أخذ الراية سيف
من سيوف الله خالد بن الوليد فعاذ بالناس » فمن يومئذ سُمي خالد سيف
الله . وقال رسول الله ﷺ : « مرّ بي جعفر البارحة في نفر من الملائكة
له جناحان مخضب القوائم بالدم » .

امرأة جعفر تحدث :

وقالت أسماء بنت عميس زوج جعفر الطيار بن أبي طالب رضى الله عنهما أتانى النبي ﷺ وقد فرغت من اشتغالى وغسلت أولاد جعفر ودهنتهم فأخذهم وشمهم ودمعت عيناه فقلت يا رسول الله أبلغك عن جعفر شيء ؟ قال : « نعم أصيب هذا اليوم » ثم عاد إلى أهله فأمرهم أن يصنعوا لآل جعفر طعاما ، فهو أول ما عُمل في دين الإسلام ولما رجع الجيش ودنا من المدينة لقيهم رسول الله ﷺ فأخذ عبد الله بن جعفر فحمله بين يديه ، فجعل الناس يحثون التراب على الجيش ويقولون : يافرار يافرار ، ويقول الرسول ﷺ « ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله » .

نتائج وعبر :

إن لهذه القطعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نذكرها فيما يلي :

- (١) فضيلة الأمراء الثلاثة زيد وجعفر وابن رواحة .
- (٢) مشروعية توديع المسافر إلى سفر صالح كالجهاد والحج ونحوهما .
- (٣) عظم خشية عبد الله بن رواحة وخوفه من النار .
- (٤) بيان حقيقة كشف عنها ابن رواحة وهى أن المسلمين لا يقاتلون بعدد ولا قوة ، وإنما يقاتلون بالدين فإن كانوا صالحين مستقيمين انتصروا ، وإلا انكسروا .

(٥) مشروعية مخاطبة النفس وترويضها على الطاعات .

(٦) آيات النبوة المحمدية تتجلى في إخبار النبي ﷺ أهل المدينة بسير المعركة ووصفه لها كأنه يديرها ويشاهد سير القتال فيها ، ولم يخطئ في شيء منها ولو قل ، ولم يكن يومئذ أخبار سلكية ولاسلكية ولا عرض تلفاز ولا فيديو فكان إخباره أعظم آية على أنه رسول الله ﷺ يتلقى الوحي من الله عز وجل .

(٧) بيان فضل خالد ، وسبب تلقيه بسيف الله .

(٨) بيان تألم رسول الله ﷺ لموت الأمراء وخاصة جعفر بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين .

(٩) مشروعية صنع الطعام لأهل الميت لانشغالهم بالمصيبة وحزنهم على فقيدهم وأن أول طعام صنع لهذا الغرض هو ما صنعه الرسول ﷺ لآل جعفر فكان سنة قولية عملية .

(١٠) مشروعية حمل الطفل الصغير وشمه وتقبيله رحمة به وشفقة عليه .

وحادى عشر أحداثها :

غزوة الفتح

فتح مكة

أسباب هذه الغزوة :

لقد ورد فى اتفاقية الحديبية أن خزاعة دخلت فى عقد الرسول ﷺ وبكر دخلت فى عقد قريش ، وشاء الله عز وجل أن رجلا من خزاعة سمع رجلا من بكر ينشد شعرا فى هجاء النبى ﷺ فضربه فشجّه فهاج الشر بينهم ، وثارت بكر على خزاعة حتى بيتوهم بالوتير ، وأعانت قريش بنى بكر بالسلاح والدواب ، وقاتل معهم جماعة من قريش مختفين ، منهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمرو فانحازت خزاعة إلى الحرم لائذة به إلا أن بكرًا لم تحترم الحرم وقاتلت خزاعة به وقتلت منهم .

وبهذا كانت قريش قد نقضت العهد الذى بينهم وبين رسول الله ﷺ إذ أعانت بنى بكر على خزاعة أحلاف النبى ﷺ . وعندئذ خرج عمرو بن

سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة فوقف عليه ثم قال : منشداً قصيدة مطلعها :

اللهم إني ناشد محمداً حلف^(١) أبيه وأبيننا الأتلدا
فوالداً كنا وكنت ولداً ثم أسلمنا فلم ننزع يدا
إلى أن قال :

هم بيتونا بالوتير هجدا فقتلونا ركعاً وسجدا

فقال رسول الله ﷺ : « قد نصرت يا عمرو بن سالم » وجاء بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة إلى النبي ﷺ فوافقه يغتسل فنادوه فقال : « يا ليكم » وخرج إليهم فأخبروه الخبر ثم انصرفوا راجعين إلى مكة أى أعلموه بالذى جرى من نقض قريش عهدها . وكان النبي ﷺ قد قال لأصحابه : « كأتى بأبى سفيان قد جاء ليجدد الهدنة خوفاً ويزيد في المدة » ومضى بديل في طريقه ، وإذا بأبى سفيان في عسفان في طريقه إلى المدينة وصدقت فراسة الحبيب ﷺ فقال أبو سفيان لبديل من أين أقبلت ؟ قال من خزاعة في الساحل وبطن هذا الوادى ، قال أو ما أتيت محمداً ؟ قال : لا ، فقال أبو سفيان لأصحابه لما راح بديل انظروا بعراً ناقته فإن جاء المدينة لقد علف النواء ، فنظروا بعراً الناقة فرأوا فيه النوى . وواصل أبو سفيان سيره حتى أتى المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة زوج النبي ﷺ فلما أراد أن يجلس على فراش النبي ﷺ طوته عنه ، فقال أرغبت به عني أم رغبت بى عنه ؟ فقالت : هو فراش رسول الله ﷺ وأنت مشرك نجس فلم أحب أن تجلس عليه ، فقال : لقد أصابك بعدى شرٌّ ! ثم خرج حتى أتى النبي ﷺ فكلمه فلم يرد عليه شيئاً ، ثم أتى أبا بكر فكلمه ليكلم له رسول الله ﷺ فقال : ما أنا بفاعل ،

(١) يذكر بحلف قديم كان بين عبد المطلب وخزاعة .

ثم أتى عمر فكلّمه فقال : ما أنا بشافع لكم إلى رسول الله ﷺ ، والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به . ثم خرج حتى أتى علياً فكلّمه في ذلك ، فقال له والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر لا نستطيع أن نكلّمه فيه . فنادى فاطمة قائلاً : يا بنت محمد هل لك أن تأمرى ابنك هذا يشير إلى الحسن وهو يومها غلام أن يجير بين الناس فيكون سيد العرب ؟ فقالت ما بلغ ابني أن يجير بين الناس ، وما يجير على رسول الله أحد . ثم التفت إلى علي ، وقال : أرى الأمور قد اشتدت على فانصحنى قال إنك سيد كنانة فقم فأجر بين الناس والتحق بأرضك .

فقام أبو سفيان في المسجد وقال أيها الناس قد أجزت بين الناس ثم ركب بعيره وقدم مكة وأخبر قريشاً بما جرى له وما أشار به على عليه ، فقالوا : والله ما زاد على أن سخر منك !!

التجهيز والإعداد لفتح مكة :

وعزم النبي ﷺ على غزو قريش لفتح مكة لنقض قريش المعاهدة نقضاً واضحاً صريحاً فتجهز وأمر أصحابه بذلك ، وقال : « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها » . ولما علم حاطب بن أبى بلتعة بعزم الرسول ﷺ على المسير إلى قريش وذكر أهله وولده بمكة ، وأن لا ولى له بها يدفعون عن أهله وولده ، وعلم أن الله ناصر رسوله فكتب كتاباً إلى قريش يعلمهم بما عزم عليه الرسول ﷺ ، وبعث بالكتاب مع امرأة من مزينة اسمها : كنود ، وتحمله وتركب راحلتها وتسير ، وسبقها الوحي الإلهي إلى رسول الله ﷺ ، فأرسل النبي ﷺ على بن أبى طالب والزبير بن العوام لافتكاك الكتاب منها قبل وصولها إلى مكة فخرجوا في طلبها فأدركاها وأخذوا الكتاب منها ، وهذه من استجابة الله تعالى دعوة رسوله ﷺ ، إذ قال : « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش » وأحضر حاطباً وقال له : « ما حملك على هذا ؟ » فقال : والله إني لمؤمن بالله ورسوله ، وما بدلت ولا غيرت

ولكن لى بين أظهرهم أهل وولد ، وليس لى عشيرة فصانعتهم عليهم . فقال عمر : دعنى يا رسول الله أضرب عنقه فإنه قد نافق . فقال رسول الله ﷺ : « وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » وأنزل الله تعالى فى حاطب فاتحة سورة الممتحنة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ .

المسير إلى مكة :

واستخلف النبى ﷺ على المدينة أبا رُهم كُثُوم بن حصن الغفارى ، وخرج فى عشرة آلاف مقاتل ، وذلك لعشر مضين من رمضان . وأثناء مسيره أدركه عينة بن حصن والأقرع بن حابس كما لقيه العباس بن عبد المطلب بذى الحليفة مهاجراً فأمره أن يرسل رحله إلى المدينة ويعود معه ، ففعل وقال له أنت آخر المهاجرين وأنا آخر الأنبياء ، وصام ﷺ وصام أصحابه حتى بلغ ما بين عسفان وأج فافطروا ، ولقيه فى الطريق وهو نازل ببنيق العقاب أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعبد الله بن أبى أمية فاتمسا الدخول عليه ﷺ فكلمته أم سلمة فى شأنهما ، فقال : « لا حاجة لى بهما ، أما ابن عمى فقد هتك عرضى ، وأما ابن عمتى ، فهو الذى قال بمكة ما قال ^(١) » فلما سمعا ذلك وكان مع أبى سفيان ولد له يقال له جعفر ، فقال أبو سفيان والله ليأذنن لى أو لآخذن بيد ابنى هذا ثم لنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً فرق لهما رسول الله ﷺ فأدخلهما إليه فأسلما ، وأنشد أبو سفيان فى إسلامه واعتذاره قوله :

لعمرك إنى يوم أحملُ رايةً لتغلب خيَلُ اللات خيل محمد

(١) قال : لن تؤمن لك حتى ترق فى السماء ، ولن تؤمن لرقيق حتى تنزل علينا كتابا نقرأه .

لكالمدلج الحيران أظلم ليله فهذا أوانى حين أهدى واهتدى
وهاج هداى غير نفسى ونالنى مع الله مَنْ طرّدت كلّ مطرّد

بحر الظهران :

ونزل الحبيب الأحب والقائد الأعظم ﷺ بحر الظهران غير بعيد من مكة
ونزل معه جيشه المظفر المقدر بعشرة آلاف مقاتل جلهم من المهاجرين
والأنصار وباقيهم من جهينة ، وغفار ، ومزينة ، وسليم ، وتميم ، وأسد .
وقيس .

ونظر العباس إلى قوة الجيش وقال : يا هلاك قريش ، والله إن باغتها رسول
الله ﷺ فى بلادها فدخلها عنوة إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر ، ثم جلس
على بغلة النبی ﷺ ، وقال أخرج لعلّى أرى حطاباً أو رجلاً يدخل مكة لحاجة
فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ فيأتوه ويستأمنوه ، وخرج يطوف فى الأراك
وإذا به يسمع صوت أبى سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء الخزاعي
خرجوا يتحسسون الأخبار ويرقبون الأمور . ورأوا نيران المعسكر تشتعل ليلاً
تضيء الساحة كلها وهى آلاف النيران فقال أبو سفيان ما رأيت نيراناً أكثر
من هذه ، فقال بديل هذه نيران خزاعة ، فقال أبو سفيان خزاعة أذلّ من
ذلك أو أقل ، فقال العباس يا أبا حنظلة « كنية أبى سفيان » فقال : أبو
الفضل ؟ قلت : نعم قال لبيك فذاك أبى وأمى ما وراءك ؟ قال هذا رسول
الله ﷺ فى المسلمين أتوكم فى عشرة آلاف . قال : ما تأمرنى ؟ قلت تركب
معى فأستأمن لك رسول الله ﷺ ، فوالله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ،
قال العباس فركب معى فخرجت أركض به نحو رسول الله ﷺ فكلما مررت
بنار من نيران المسلمين يقولون عم رسول الله على بغلة رسول الله حتى مررنا
بنار عمر بن الخطاب فقال : أبو سفيان : أى هذا أبو سفيان ، الحمد لله الذى
أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، ثم اشتد نحو رسول الله ﷺ ، وركضت
البغلة فسبقت عمر ، ودخل عمر على رسول الله ﷺ فأخبره وقال : دعنى

أضرب عنقه ، فقلت يا رسول الله إني قد أجزته ، ثم أخذت برأس رسول الله ﷺ وقلت : لا ينجيه اليوم أحد دوني ، فلما أكثر عمر فيه قلت : مهلا يا عمر فوالله ما تصنع هذا إلا لأنه من بني عبد مناف ، ولو كان من بني عدى ما قلت هذه المقالة فقال مهلا يا عباس فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم ، فقال رسول الله ﷺ : « اذهب فقد آمنه حتى تعدو على به الغداة » فرجعت به إلى منزلي وغدوت به على رسول الله ﷺ . فلما رآه قال : « ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ » قال : بلى بأبي أنت وأمي يا رسول الله لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئا ، فقال : « ويحك ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ » فقال بأبي أنت وأمي أما هذه ففى النفس منها شيء ، قال العباس فقلت له ويحك تشهد بشهادة الحق قبل أن تضرب عنقك قال فتشهد وأسلم معه حكيم ابن حزام وبديل بن ورقاء .

استعراض القوة للإرهاب :

وأمر الحبيب ﷺ العباس أن يذهب بأبي سفيان فيحبسه في طريق مرور الجيش الإسلامي ليرى بأمر عينيه قوة الإسلام والمسلمين ، قال ﷺ : « اذهب بأبي سفيان فاحبسه عند خطم^(١) الجبل بمضيق الوادي حتى تمر عليه جنود الله ، » قال العباس فقلت يا رسول الله إنه يحب الفخر فاجعل له شيئا يكون في قومه فقال : « فليدخل مكة وليقل : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن » . قال العباس فخرجت فحبسته أى أوقفته عند خطم الجبل فمرت عليه القبائل فيقول : من هؤلاء ؟ فأقول : أسلم ، فيقول

(١) خطم الجبل هو أنفه الخارج منه .

من هؤلاء ؟ فأقول : جهينة ، فيقول : ما لي و لجهينة حتى مر رسول الله ﷺ في كتيبتة الخضراء^(١) مع المهاجرين والأنصار في الحديد لا يرى منهم إلا الحدق ، فقال : من هؤلاء ؟ فقلت : هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار ، فقال : لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيمًا !! فقلت : ويحك إنها النبوة فقال : نعم إذن فقلت الحق بقومك سريعًا فحذرهم . فخرج حتى أتى مكة ومعه حكيم بن حزام فصرخ في المسجد يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به . فقالوا فمه^(٢) قال من دخل دارى فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن ثم قال يا معشر قريش أسلموا تسلموا فأقبلت امرأته هند فأخذت بلحيته وقالت : يا آل غالب اقتلوا هذا الشيخ الأحق . فقال : أرسلى لحيتى ، وأقسم لئن لم تسلمى لتضربن عنقك ، ادخلى بيتك فتركته وذهبت .

دخول القوات إلى مكة :

ومشى رسول الله ﷺ حتى وصل ذا طوى وقف على راحلته معتجراً بشقة بُردِجبرة حمراء ، وفرق جيشه فأمر الزبير بن العوام أن يدخل في بعض الناس من كدى^(٣) ، وأمر سعد بن عبادة أن يدخل في بعض الناس من كداء « المعلاة » وسمع سعد بن عبادة يقول : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، فقال عمر بن الخطاب يا رسول الله اسمع ما قال سعد بن عبادة ما نأمن أن يكون له في قريش صولة ، فقال رسول الله ﷺ لعل بن أبى طالب « أدركه فخذ الراية منه ، فكن أنت الذى تدخل بها » وأمر خالدًا أن يدخل من الليط أسفل مكة في بعض الناس وكان خالد على المجنبه اليمنى

(١) لكثرة الحديد وظهوره فيها قيل فيها الخضراء .

(٢) فمه : « ما » الاستفهامية حذف منها الألف وزيدت فيها هاء السكت أى فما الذى تريد أن تصنعه ؟

(٣) اسم جبل بمكة .

كما أن الزبير على المجنبه اليسرى ، وأقبل أبو عبيدة بن الجراح بالصف من المسلمين ينصب لمكة بين يدي رسول الله ﷺ ، وأنه ﷺ لتواضعه لربه لما رأى من إكرام الله تعالى له تكاد لحيته تمس واسطة الرحل تواضعاً لله تعالى فلم يدخل دخول الظلمة الفاتحين يكاد يطير بهم الزهو والخيلاء والكبر والصلف .

وقد أوصى أمراءه أن لا يقتلوا إلا من قاتلهم ، وكان صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمرو قد جمعوا ناساً بالخدمة ليقاتلوا فلما وصلهم المسلمون بقيادة خالد بن الوليد ناوشوهم شيئاً من القتال فقتل من المشركين نحو من ثلاثة عشر رجلاً ، ثم انهزموا وقتل من المسلمين كرز بن جابر وحبيش بن خالد بن ربيعة بسبب سلوكهما طريقاً غير طريق خالد الذى سلكه .

من القبة إلى المسجد الحرام :

وكان قد ضربت للحبيب ﷺ قبة بالحجون ، وها هو ذا ﷺ يخرج منها فى طريقه إلى المسجد الحرام وإلى جنبه الصديق يحادثه وهو يقرأ سورة الفتح حتى بلغ البيت فطاف سبعمائة على راحلته واستلم الحجر الأسود بمحجن كان بيده وكان حول البيت ثلثمائة وستون صنماً فجعل يطعن بعود فى يده وهى تتساقط وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل ، وما يبدىء الباطل وما يعيد » .

وأمر بالصور والتماثيل التى داخل البيت فأخرجت ورميت هى وسائر الأصنام خارج المسجد الحرام ، ودخل ﷺ الكعبة وصلى فيها وكبر فى سائر نواحيها ثم خرج فجلس فى المسجد الحرام كالبدر فى هالته والعيون إليه شاخصة والقلوب واجفة .

مظاهر الكرم المحمدى :

ثم قام ﷺ على باب الكعبة ، وقال : « لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده .

ألا كل دم أو مائرة أو مال يُدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج .

ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا فيه الدية مغلظة مائة من الإبل أو أربعون منها في بطونها أولادها .

يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء .
الناس من آدم وآدم من تراب ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ ثم قال : « يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم ؟ » قالوا : خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » فعفا عنهم بعد أن أمكنه الله تعالى منهم ، فضرب بذلك المثل في العفو والصفح على الجناة بعد القدرة عليهم والتمكن منهم .

المجرمون الثمانية :

لم يشمل ذلك العفو العام ثمانية مجرمين وأربع نسوة مجرمات .

فالرجال الثمانية هم : عكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية بن خلف ، وعبد الله بن سعد بن أبى السرح ، وعبد الله بن خطل ، والحويرث بن نقيذ ابن وهب ، ومقيس بن صبابه ، وعبد الله بن الزبعرى . إذ كان هؤلاء أشد عداوة وأذى لرسول الله ﷺ من غيرهم ، ولذا أمر بقتلهم قبل توبتهم ، وقد تاب وأسلم وحسن إسلامه كل من عكرمة ، وصفوان ، وعبد الله بن سعد ابن أبى السرح ، وعبد الله بن الزبعرى وقتل الأربعة الباقون كفرًا فإلى جهنم

وبئس القرار . وقال عبد الله بن الزبَعْرَى لما أسلم شعراً يعتذر فيه :
يا رسول الملك إن لسانى راتق ما فتقت إذ أنا بُورُ
إذ أبارى الشيطان فى سنن الغى ومن مال ميله مثبورُ
آمن اللحم والعظام لرَبِّى ثم قلبى الشهيد أنت النذير

وأما النسوة : فهن هند بنت عتبة ، وسارة مولاة عمرو بن عبد المطلب ،
وقينتا عبد الله بن خطل . فأسلمت هند وحسن إسلامها وكذا إحدى
القينتين ، والاثنان الأخريان قتلتا كافرتين فأل غصب الله وأليم عذابه .

البيعة على الإسلام :

ثم جلس رسول الله ﷺ على الصفا للبيعة ، وعمر بن الخطاب تحته ،
وتقدم الرجال يبايعون رسول الله ﷺ على الإسلام ، فكان يبايعهم على السمع
والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا . ولما فرغ من بيعة الرجال جاءت النساء
للببيعة وكانت بينهن هند بنت عتبة متكررة لما صنعت بحمزة رضى الله عنه ،
فقال لهن : « تبايعننى على أن لا تشركن بالله شيئاً » قالت هند إنك والله
لتأخذ علينا ما لا تأخذه على الرجال فسنؤتيكه قال : « ولا تسرقن » قالت :
والله إن كنت لأصيب من مال أبى سفيان الهنة^(١) والهنة فقال أبو سفيان
وكان حاضراً أما مامضى فأنت منه فى حل ، فقال رسول الله ﷺ « أهند ؟ »
قالت أنا هند فاعف عما سلف عفا الله عنك ، قال : « ولا تزنين » قالت :
وهل تزنى الحرة ؟ قال : « ولا تقتلن أولادكن » قالت ربيناهم صغاراً وقتلتهن
يوم بدر كباراً فأنت وهم أعلم فضحك عمر قال : « لا تأتين بهتان فتفترينه
بين أيديكن وأرجلكن » قالت والله إن إتيان البهتان لقبيح ، ولبعض التجاوز
أمثل . قال : « ولا تعصين فى معروف » قالت ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد

(١) الشيء الصغير الذى لا يعرف له اسم .

أن نعصيك فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب : « بايعهن » واستغفر
لهن رسول الله ﷺ إذ كان رسول الله ﷺ لا يمس النساء ولا يصفح امرأة
ولا تمسه امرأة إلا امرأة أحلها الله له ، أو ذات محرم منه .

الإنسان قبل الإيمان :

ولما فرغ رسول الله ﷺ من بيعة الرجال وبيعة النساء كان قد آن أوان
الظهر فأمر بلالا أن يطلع على سطح البيت الحرام ويؤذن ، وقريش فوق الجبال
وسطوح البيوت ، فممنهم من يطلب الأمان ، ومنهم من أمن ، فلما أخذ بلال
في الأذان وقال أشهد أن محمدًا رسول الله قالت جويرية بنت أبي جهل : لقد
أكرم الله أبي حين لم يشهد نهيق بلال فوق الكعبة ، وقالت لقد رفع الله ذكر
محمد ، وأما نحن فسنصلى ، ولكن لا نجب من قتل الأجنة . وقال خالد بن
أسد لقد أكرم الله أبي فلم ير هذا اليوم ، وقال الحارث بن هشام ليتني مت
قبل هذا اليوم ، وقال غيرهم مثل قولهم ، ولكنهم أسلموا وحسن إسلامهم ،
فأشرقت نفوسهم بنور الإيمان وذهبت ظلمة الكفر والجهل التي من جرائها
قالوا ما قالوا من كلمات الكفر التي يرضى المؤمن أن يصلب ويقطع ولا يرضى
أن يقولها أبدًا .

ذكريات فيها عبر وعظات :

(١) قالت أم هاني بنت أبي طالب رضى الله عنها لما نزل رسول الله ﷺ
بأعلى مكة فرأى رجلان من أحمائى من بنى مخزوم ، وكانت أم هاني عند
هيرة بن أبي وهب المخزومى قالت فدخل على أخى على بن أبي طالب ، وقال :
والله لأقتلنهما فأغلقت عليهما باب بيتى ، ثم جئت رسول الله ﷺ وهو بأعلى
مكة فوجدته يغتسل من جفنة وإن فيها لأثر العجين وفاطمة بنته تستره بشوبه
فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشح به ثم صلى ثماني ركعات من الضحى ، ثم
انصرف إلى فقال : « مرحبًا وأهلا يا أم هاني ما جاء بك ؟ » فأخبرته خبر

الرجلين وخبر عليّ فقال : « أجرتنا من أجرت وأمنّا من أمنت ، فلا يقتلها » .

(ب) لما طاف ﷺ بالبيت دعا عثمان بن أبي طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة فدخل فيها وصلى وأخرج منها بعض الصور والتماثيل فقام إليه عليّ بن أبي طالب ومفتاح الكعبة بيده فقال يا رسول الله ﷺ اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك . فقال رسول الله ﷺ : « أين عثمان بن طلحة ؟ » فدعّى له ، فقال : « هاك مفتاحك يا عثمان اليوم يوم برّ ووفاء » .

(ج) لما كان الحبيب ﷺ يطوف بالبيت يوم الفتح كان فضالة بن عمير ابن الملوّح فكّر في قتل النبي ﷺ وهو يطوف ، فلما دنا من الرسول ﷺ قال الرسول ﷺ : « أفضالة ؟ » قال : نعم فضالة يا رسول الله قال : « ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ » قال لاشيء كنت أذكر الله ، قال : فضحك النبي ﷺ ثم قال : « استغفر الله » ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه ، فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شيء أحب إلّى منه . قال فضالة فرجعت إلى أهلى فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها ، فقالت : هلمّ إلى الحديث فقلت : لا ، وانبعث أقول :

قالت هلمّ إلى الحديث فقلت لا	يأبى عليك الله والإسلام
لو مارأيت محمداً وقبيله	بالفتح يوم تكسر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بينا	والشرك يغشى وجهه الإظلام

(د) لما دخل رسول الله ﷺ المسجد يوم الفتح وذلك يوم عشرين من رمضان أتى أبو بكر بوالده أوى قحافة يقوده فلما رآه رسول الله ﷺ قال : « هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه !! » ، قال أبو بكر يا رسول الله هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى إليه أنت فأجلسه النبي ﷺ بين يديه ، ثم مسح صدره ثم قال : « أسلم » فأسلم ، وقال لأبى بكر : « غيروا

هذا من شعره وجنبوه السواد » ، وكان شعر أى قحافة أبيض كأن رأسه
ثغامة^(١) .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نذكرها فيما يلي :

(١) بيان عاقبة نكث العهود وأنها وخيمة للغاية ، إذ قرّش نكثت عهدها
فحلت بها الهزيمة وخسرت كيائها الذى كانت تدافع عنه وتحميه .

(٢) تجلّى النبوة المحمدية فى العلم بالمرأة حاملة خطاب ابن أى بلتعة إذ أخبر
عنها وعن المكان الذى انتهت إليه فى سيرها وهو روضة خاخ .

(٣) فضيلة إقالة عثرة الكرام ، وفضل أهل بدر تجلّى ذلك فى العفو عن
حاطب بعد عتابه .

(٤) مشروعية السفر فى رمضان وجواز الفطر والصيام فيه على حدّ سواء .

(٥) مشروعية التعمية على العدو حتى يباغت قبل أن يكون قد جمع قواه
فتسرع إليه الهزيمة وتقل الضحايا والأموات من الجانبين حقنا للدماء البشرية .

(٦) بيان الكمال المحمدى فى قيادة الجيوش وتحقيق الانتصارات الباهرة .

(٧) مشروعية إرهاب العدو بإظهار القوة له وفى القرآن : ﴿ وَمِنْ رِبَاطِ
الْحَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ .

(٨) مشروعية إنزال الناس منازلهم تجلّى هذا فى إعطاء الرسول ﷺ أبا
سفيان كلمات يقولهن فيكون ذلك فخراً له واعتزازاً . وهو من دخل دار
أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل داره وأغلق
بابه فهو آمن ينادى بها بأعلى صوته .

(١) واحدة الثغام نبات جبلّى أشدّ ما يكون بياضاً إذا أعمل .

(٩) بيان تواضع الرسول ﷺ لربه شكرًا له على آلائه وإنعامه عليه إذ دخل مكة وهو متطامن حتى إن لحيته لتمس رحل ناقته تواضعا لله وخشوعًا . فلم يدخل وهو الظافر المنتصر دخول الظلمة الجبارين السفاكي الدماء البطاشين بالأبرياء والضعفاء .

(١٠) بيان العفو المحمدي الكبير إذ عفا عن قريش العدو الألد ولم يقتل منهم سوى أربعة رجال وامرأتين إذ رفضوا الإسلام .

(١١) بيان الكمال المحمدي في عدله ووفائه تجلى ذلك في رد مفتاح الكعبة لعثمان بن أبي طلحة ولم يعطه من طلبه منه وهو على بن أبي طالب صهره الكريم .

(١٢) مشروعية كسر الأصنام والصور والتماثيل وإبعادها من المساجد بيوت الله تعالى .

(١٣) تقرير مبدأ الجوار في الإسلام لقوله ﷺ : « أجرتنا من أجرت وأمننا من أمنت يا أم هاني » .

(١٤) وجوب البيعة على الإسلام وهي الطاعة لله ورسوله وأولى الأمر في المعروف وما يستطيع .

(١٥) آية النبوة تتجلى في علمه ﷺ بما أضمره الرجل من اغتيال الرسول ﷺ وهو يطوف .

(١٦) احترام الرسول ﷺ لأسرة الصديق وتكريمه لها ، والإكبار من شأنها إذ هي الأسرة الوحيدة التي أسلم كافة أفرادها آباء وأمهات وبنين وبنات .

(١٧) مشروعية صبغ الشعر بغير السواد سواء كان شعر لحية أو رأس .

وثاني عشر أحداثها :

غزوة خالد بنى جذيمة

ولما فتح الله تعالى على رسوله مكة بعث رسول الله ﷺ بعض السرايا حول مكة يدعون الناس إلى الإسلام ، ولم يأمرهم بالقتال ، وبعث خالد بن الوليد على رأس سرية داعيا ولم يأمره بالقتال فنزل على الغميصاء « ماء من مياه جذيمة » وكانت جذيمة أصابت في الجاهلية عوف بن عبد عوف أبا عبد الرحمن بن عوف والفاكه بن المغيرة عم خالد بن الوليد ، كانا أقبلا تاجرين من اليمن فأخذت ما معهما وقتلتها . فلما نزل خالد بسرّيته ذلك الماء أخذ بنو جذيمة السلاح فقال لهم خالد ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا فوضعوا السلاح فأمرهم خالد فكتفوا ثم عرضوا على السيف فقتل منهم من قتل .

ولما انتهى الخبر إلى النبي ﷺ رفع يديه إلى السماء وقال : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد » ثم أرسل على بن أبي طالب ومعه مال وأمره أن ينظر في أمرهم فودی^(١) لهم الدماء والأموال حتى إنه ليدي ميلعة^(٢) الكلاب وبقي معه من المال فضلة ، فقال لهم : هل بقي لكم مال أو دم لم يُود ؟ فقالوا : لا ، فقال إني أعطيك هذه البقية احتياطاً لرسول الله ﷺ ففعل ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال : « أصبت وأحسنْتَ » .

واعتذر خالد بعد أن دار بينه وبين عبد الرحمن بن عوف كلام .. وكان أمر الله قدرًا مقدورًا . فقد رأى هذا الحدث رسول الله ﷺ في رؤيا رآها قال : « رأيت كأني لقمته لقمة من حيس فتلدّذت طعمها ، فاعترض في حلقي منها شيء حين ابتلعها فأدخل عليّ يده فنزعه » ، فقال أبو بكر الصديق رضي الله

(١) دفع لهم ديات أنفسهم ، وغرم لهم أموالهم .

(٢) إناء من خشب تشرب فيه الكلاب .

عنه يا رسول الله هذه سرية من سراياك تبعثها فيأتيك منها بعض ما تحب ،
ويكون في بعضها اعتراض فتبعث علياً فيسهله .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها في الأرقام التالية :

- (١) وجوب مواصلة الدعوة إلى الإسلام بعد الفتح كما هي قبله .
- (٢) بيان خطأ خالد في اجتياحه فيما أقدم عليه ، ولما كان متأولاً عفا عنه ولم يؤاخذ .

- (٣) بيان أن رؤيا الأنبياء حق ، ومعرفة الصديق بتأويل الرؤيا .
- (٥) بيان فوز علي بقول الرسول ﷺ : « أصبت وأحسنتم » .

حدثان هامان

عقيب الفتح

الأول : إسلام عباس بن مرداس :

كان لوالد عباس بن مرداس وثنٌ يعبدُه يسمى ضَمَارٌ^(١) . فلما حضره
مرداس قال لولده عباس : أى بُنى اعبد ضمار فإنه ينفعلك ويضرك . فبينما
عباس يوماً عند ضمار إذ سمع من جوف ضمار منادياً يقول :

قل للقبائل من سليم كلها أودى^(٢) ضمار وعاش أهل المسجد
إن الذى ورث النبوة والهدى بعد ابن مريم من قریش مهتدى
أودى ضمار وكان يعبد مرة قبل الكتاب إلى النبی محمد
فمزق عباس ضمار ولحق بالنبي محمد ﷺ فأسلم وحسن إسلامه .

(١) ضمار على وزن حذام وقطام مبنئ على الكسر .

(٢) هلك .

والثاني هدم خالد للعزى :

وفي الخامس الأواخر من شهر رمضان والنبي ﷺ بمكة بعث ﷺ خالد ابن الوليد إلى العزى لهدمها وهى عبارة عن بيت له سدنة ، تعظمه قريش وكنانة ومضر وهو بنخلة : مكان بين مكة والطائف ، ولما سمع سادن العزى بمقدم خالد إليها لهدمها علق بها سيفه وقال يخاطبها :

أيا عَزَّ شدى شدة لا شوى لها

على خالد ألقى القناع وشمري

فلما انتهى إليها خالد جعل السادن يقول : أعزى بعض غضباتك فخرجت امرأة سوداء حبشية عريانة مولولة فقتلها خالد وكسر الصنم وهدم البيت الذى كان فيه ، ثم رجع إلى النبي ﷺ فأخبره بالذى صنع فقال ﷺ : « تلك العزى لا تعبد أبداً » .

وهدم عمرو بن العاص سواعاً وكان برهاط لهذيل ، فلما كسر عمرو الصنم أسلم سادنه ، وهدم سعد بن زيد الأشهلي مناة بالمشلل .

وثالث عشر أحداثها :

غزوة هوازن

وانسلخ شهر رمضان بانتهاء فتح مكة المكرمة ، ومازال الرسول ﷺ بها حتى بلغه أن هوازن لما سمعت بفتح مكة جمعها مالك بن عوف النصري من بنى نصر بن معاوية بن بكر ، وكانوا خائفين من أن يغزوهم رسول الله ﷺ بعد فتح مكة . وقالوا : لا مانع له من غزونا ، فمن رأى أن نغزوه قبل أن يغزونا واجتمع إليه ثقيف يقودها قارب بن الأسود بن مسعود سيد الأحلاف وذو الخمار سبيع بن الحارث ، وأخوه الأحمر بن الحارث سيد بنى مالك ولم يحضرها من قيس عيلان إلا نصر وجشم وسعد بن بكر ، وناس من بنى هلال ، ولم يحضرها كعب ولا كلاب وفى جشم دريد بن الصمة شيخ كيس ذو رأى .

رأى صائب لم يقبل :

فلما أجمع مالك بن عوف المسير إلى حرب رسول الله ﷺ جمع مع الرجال المقاتلين النساء والأطفال والأموال ، ولما نزلوا أوطاس قال دريد بن الصَّمّة بأى وادٍ أنتم ؟ قالوا بأوطاس قال نعم مجال الخيل لا حزن ضرر ، ولا سهل دهس مالى أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ويعار الشاء ، وبكاء الصغير ؟ قالوا : ساق مالك مع الناس ذلك ، فقال يا مالك إن هذا اليوم له ما بعده ما حملك على ما صنعت ؟ قال سقتهم مع الناس ليقاتل كل إنسان عن حريمه وماله . فقال دريد : راعى ضأين والله ، هل يرد المنهزم شيء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعلك إلا رجل سيفه ورحمه ، وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك ، ثم قال ، ما فعلت كعب وکلاب ؟ قالوا لم يشهدا أحداً منهم ، قال غاب الجدّ والحدّ ، لو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب ولا كلاب ، ووددت لو أنكم فعلتم ما فعلا ثم قال يا مالك : ارفع من معك إلى عليا بلادهم ، ثم الق الصّبَاء^(١) على متون الخيل فإن كانت لك لحق بك من وراءك ، وإن كانت عليك كنت قد أحرزت أهلك ومالك .

فقال مالك ، والله لا أفعل ذلك ، إنك قد كبرت وكبر علمك ، والله لتطيعننى يا معشر هوازن أو لأتكنن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري ، ولم يقبل رأى دريد . ثم قال مالك أيها الناس إذا رأيتم القوم فاكسروا جفون سيوفكم ، وشدوا عليهم شدة رجل واحد .

عيون ترى الملائكة :

وبعث مالك عيوئاً له يأتونه بالخبر فرجعوا إليه ، وقد تفرقت أوصالهم وذهبت عقولهم فقال : ما شأنكم ؟ قالوا رأينا رجالاً بيضاً على خيل بلق فوالله

(١) جمع صائب : المائل إلى دين غير دين آباءه يريد بذلك المسلمين .

ما تماسكنا أن حل بنا ما ترى ، ولم ينه ذلك عن وجهه ، ولم يثنه عن عزمه على قتال رسول الله ﷺ والمسلمين ، والرجال الذين رأتهم العيون هم الملائكة ، إذ قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴾ أى لم يرها أصحاب رسول الله ﷺ وهم يحضرون المعركة .

خروج رسول الله ﷺ إلى هوازن

ولما بلغ رسول الله ﷺ ما أجمعت عليه هوازن من حربته والتصدى له ، إذ كان قد أرسل عبد الله بن أبى حذرر الأسلمى إلى هوازن لينظر ما هم عليه ، فذهب عبد الله ودخل بينهم وهم لا يعلمون به ، وتعرف إلى كل ما قاموا به وأجمعوا عليه وأتى النبى ﷺ فأخبره خبرهم . فأجمع الرسول ﷺ المسير إليهم وبلغه أن صفوان بن أمية عنده أدرع وسلاح ، وكان لم يسلم بعد فاستعار منه مائة درع بما يصلحها من السلاح ، واستخلف على مكة عتاب ابن أسيد وخرج فى اثنى عشر ألفاً ، ألفان من مسلمة الفتح وعشرة آلاف من الجيش الفاتح ، ولما ساروا قال قائل : لن تغلب اليوم من قلة . وفى هذا يقول تعالى : ﴿ وَيَوْمَ حُنينٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا ﴾ .

طلب جاهلى مرفوض :

وأثناء مسير الجيش إلى حنين مروا بشجرة من السدر خضراء كبيرة ، فنادى رجال من مسلمة الفتح يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما للمشركين ذات أنواط وهى شجرة كبيرة يزورونها كل سنة ويقيمون عندها يوماً وليلة ويعلقون بها أسلحتهم تبرّكاً ويذبحون عندها . فلما سمع رسول الله ﷺ طلبهم قال : « الله أكبر ، قلتم والذى نفس محمد بيده كما قال قوم موسى لموسى ﴿ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ » ثم قال : « إنها السنن ، لتركن سنن من كان قبلكم » ورفض طلبهم الجاهلى ، ولم يعنفهم لأنهم حديثو عهد بالجاهلية وساروا حتى استقبلوا وادى حنين فأنحدروا فيه وهو واد

أجوف^(١) حطوط^(٢) انحدارًا وهم في عماية^(٣) الصبح ، وكان المشركون قد سبقوهم إلى الوادى فكمنوا لهم في شعابه وأحنائه^(٤) ومضايقه ، وقد أجمعوا وتهاؤا وأعدوا فما راع المسلمين إلا الكتائب قد شدّوا عليهم شدة رجل واحد وانشمر^(٥) الناس راجعين لا يلوى أحد على أحد ، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين ، ثم قال : « أيها الناس هلمّوا إلىّ أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله » قالها ثلاثا ، ثم احتملت الإبل بعضها على بعض في معترك عجيب إلا أنه قد بقى مع رسول الله ﷺ نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته منهم أبو بكر وعمر وعلى والعباس وابنه الفضل ، وأبو سفيان بن الحارث ، وربيعة ابن الحارث ، وأمين بن أم أيمن ، وأسامة بن زيد .

وكان في مقدمة هوازن رجل على جمل أحمر بيده راية سوداء ، إذا أدرك طعن برمحه ، وإذا فاته الناس رفع رايته على رمحه لمن ورائه فاتبعوه فتصدى له على بن أبى طالب رضى الله عنه فقتله وأراح الناس منه .

شهادة ذوى الضغائن :

ولما رأى مرضى النفوس ممن مازالت عداوة الإسلام كامنة في نفوسهم ممن أسلم من أيام قلائل لما رأوا هزيمة المسلمين لم يتألكوا حتى قالوا الهجر ، فقال أبو سفيان بن حرب لن تنتهى هزيمتهم دون البحر ، وإن الأزلام معه في كنانته وصرخ جبلة بن الحنبل قائلاً : ألا بطل السحر ، فقال له صفوان بن أمية وهو مشرك بعد ، إذ مازال فى المدة التى أعطاه الرسول إياها ينظر فى أمر

(١) متسع .

(٢) منحدر .

(٣) ظلامه قبل أن يتبين .

(٤) جوانبه .

(٥) انفضوا وانهزموا .

نفسه إما أن يسلم أو يهاجر أو يعدم ، قال لأخيه جيلة اسكت فض الله فاك فوالله لأن يربنى رجل من قریش أحب إلى من أن يربنى رجل من هوازن ، وقال شيبة بن عثمان اليوم أدرك ثأرى من محمد ، وكان أبوه قد قتل بأحد مشركاً ، وفعلاً أراد أن يقتل رسول الله ﷺ فلما أقبل عليه تغشى فؤاده شيء فلم يقدر على ما عزم عليه .

ودارت المعركة : وكان العباس مع النبي ﷺ آخذاً بحكمة بغلته الدلدل وهو عليها ، وكان العباس جسيماً شديد الصوت فقال له النبي ﷺ : « يا عباس اصرخ يا معشر الأنصار ، يا أصحاب الشجرة » ففعل فأجابوه : لبيك لبيك حتى إن الرجل يريد أن يثنى بغيره فلا يقدر فيأخذ سلاحه ثم ينزل عنه ، ويوم^(١) الصوت فاجتمع على رسول الله ﷺ مائة رجل فاستقبل بهم القوم وقتلهم وهو يقول :

« أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب »

« الآن حمى^(٢) الوطيس واقتل الناس قتالا شديداً » وقال ﷺ لبغلته الدلدل « ألبدي دلدل » فوضعت بطنها على الأرض وأخذ حفنة من تراب فرمى بها في وجوه المشركين فكانت الهزيمة ، فما رجع الناس ممن فروا بعيداً إلا والأسارى في الجبال عند رسول الله ﷺ ، وأنشدت امرأة مسلمة قائلةً :

غلبت خيل الله خيل اللات وخيله أحق بالثبات

ولما انهزمت هوازن قتل من ثقيف وبنى مالك سبعون رجلاً . فأما الأحلاف من ثقيف فلم يقتل منهم غير رجلين : لأنهم أسرعوا الهرب فنجوا وقصد بعض المشركين الطائف ومعهم مالك رئيس حريمهم واتبعتهم خيل رسول الله ﷺ فقتلت بعضهم ، وكان بعض المشركين بأوطاس فأرسل إليهم رسول

(١) أى يستقبله .

(٢) هذه الجملة أول من قالها رسول الله ﷺ .

الله ﷺ أبا عامر الأشعري في رجال ، أرسلهم إلى المنهزمين المتوجهين إلى أوطاس فناوشوه بالقتال ، فرمى أبو عامر بسهم فقتل ، فأخذ الراية أبو موسى الأشعري وهو ابن عمه فقاتلهم حتى فتح الله على يديه فهزمهم ، وظفر المسلمون بالغنائم والسبايا فساقوا في السبى الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى فقالت لهم والله إنى لأخت صاحبكم من الرضاعة فلم يصدقوها حتى أتوا بها النبي ﷺ فقالت له إنى أختك قال : « وما علامة ذلك ؟ » قالت عضه عضتها في ظهرى وأنا متوركتك فعرفها وبسط لها رداءه وأجلسها عليه وخيرها فقال : « إن أحببت فعندى مكرمة محبة وإن أحببت أن أمتعك وترجمى إلى قومك » قالت بل تمتعنى وترددنى إلى قومى ففعل ﷺ ، وأمر ﷺ بالسبايا والأموال فجمعت إلى الجعرانة^(١) ، وجعل عليها بُديل بن ورقاء الخزاعي ، واستشهد بجنين أيمن بن عبيدة وزيد بن زمعة بن الأسود بن عبد المطلب وغيرها .

ألباء ذات خطر متفرقة :

وحدث خلال غزوة هوازن أمور ذات بال إلا أنها متفرقة نذكرها هنا إتماماً للفائدة وهى :

(١) أمر أم سليم وهو أن النبي ﷺ التفت فرأى أم سليم بنت ملحان ، وكانت مع زوجها أبى طلحة وهى حازمة وسطها بيردها ، وإنها لحامل بعبد الله بن أبى طلحة ، ومعها جمل أبى طلحة وقد خشيت أن يعزها أى يغلبها الجمل فأدنت رأسه منها فأدخلت يدها في خزامتها مع الخطام فقال لها رسول الله ﷺ « أم سليم ؟ » قالت : نعم بأبى أنت وأمى يا رسول الله اقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك فإنهم لذلك أهل . فقال رسول الله ﷺ « أويكفى الله يا أم سليم » . وكان معها خنجر ، فقال لها أبو طلحة

(١) حلقة من شعر تجعل في أنف البعير .

ما هذا الخنجر معك يا أم سليم ؟ قالت خنجر أخذته إن دنا منى أحد من المشركين بعجته^(١) به ، قال أبو طلحة ألا تسمع يا رسول الله ما تقول أم سليم الرميضاء ؟!

(ب) أمر أبي قتادة عجب :

إنه قال رأيت يوم حنين رجلين يقتتلان مسلماً وكافراً ، وإذا رجل مشرك يريد أن يعين صاحبه المشرك على المسلم . فأتيته فضربت يده فقطعتها واعتقني بيده الأخرى فوالله ما أرسلني حتى وجدت الدم فكاد يقتلني لولا أن الدم نزفه فسقط فضربته وأجهضني عنه القتال أى شغلني عنه فلم أسلبه ومر به رجل من أهل مكة فسلبه فلما وضعت الحرب أوزارها وفرغنا من القوم قال رسول الله ﷺ : « من قتل قتيلاً فله سلبه » فقلت يا رسول الله والله لقد قتلت قتيلاً ذا سلب فأجهضني عنه القتال فما أدرى من استلبه ؟ فقال رجل من أهل مكة صدق يا رسول الله ، وسلب ذلك القتل عندي فأرضه^(٢) عنى من سلبه ، فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : لا ، والله لا يرضيه منه تعمد إلى أسد من أسد الله يقاتل عن دين الله تقاسمه سلبه ، اردد عليه سلب قتيله . فقال رسول الله ﷺ : « صدق اردد عليه » . فقال أبو قتادة فأخذته منه فبعته فاشترت بثمنه مخرفاً^(٣) فإنه لأول مال اعتقدته^(٤) .

(ج) وأمر دريد بن الصمة أعجب :

وذلك أن ربيع بن ربيع أدرك دُرَيْدَ بن الصمة وهو على راحلته فأخذ بخطام الراحلة يقودها يظن أن عليها امرأة فأناخ الراحلة فإذا بالراكب رجل كبير

(١) شقت بطنه .

(٢) بأن يعطيه بعضاً ويبقى بعضاً .

(٣) المخرف عدد من النخيل لا يتجاوز العشرة .

(٤) أى ملكته بعقد شرعى .

السن أعمى ، والربيع بن ربيع لا يعرفه فسأله ؟ من أنت ؟ فقال دريد وماذا تريد مني ؟ قال : أقتلك ، قال : ومن أنت ؟ قال : أنا ربيع بن ربيع الشلمي ، ثم ضربه بسيفه فلم يغن شيئاً ، فقال له بئس ما سلحتك به أملك ، خذ سيفي هذا من مؤخر الرجل ثم اضرب به ، وارفع عن العظام ، واخفض عن الدماغ فإني كنت كذلك أضرب الرجال ثم إذا أتيت أملك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصّمة فربّ والله يومٍ قد منعت فيه نساءك ، فلما رجع وأخبر أمّه بقتله إياه قالت أما والله لقد أعتق أمهات لك ثلاثاً .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا هي كالاتي :

- (١) تقرير مبدأ حكيم وهو أن الرأي الصائب السديد من ذى الخبرة والتجربة يقدم على الشجاعة مهما كانت ، وحتى عن القوة مهما عظمت .
- (٢) آية النبوة المحمدية تتجلى فيما شاهده عيون المشركين من الملائكة عليهم السلام .
- (٣) مشروعية استعمال العيون « الجواسيس » في الحروب لمعرفة قوة العدو ، وما عزم عليه .
- (٤) حرمة الإعجاب بالنفس أو العمل أو القوة إذ ترتب على ذلك هزيمة المؤمنين في أول لقاءهم لعدوهم .
- (٥) وجوب الحذر من التبرك غير الشرعى فإنه يؤدي إلى الشرك بالله تعالى .
- (٦) بيان الفرق بين من رسخ الإيمان في قلبه ، وبين من لم يرسخ ، فإن الأخير سرعان ما يظهر جهله وظلمه .
- (٧) مشروعية إكرام الإخوة من الرضاعة .
- (٨) بيان فضل أم سليم امرأة أبى طلحة لمواقفها المشرفة .

(٩) بيان حصافة رأى دريد بن الصمة وشجاعته الفذة وهو على جاهليته ،
فكيف لو آمن وأسلم !!

ورابع عشر أحداثها :

حصار الطائف

إنه بعد الفتح ، والنصر على هوازن وثقيف بحنين^(١) وأوطاس ، وقد
لاذت ثقيف ومن معها بالطائف حيث تحصنوا به وجمعوا فيه ما يحتاجون إليه
إن طال الحصار بهم تبعهم رسول الله ﷺ وأصحابه فحاصروهم بمدينة
الطائف الحصينة واستعمل في فك الحصار دبابه ومنجنيقاً بإشارة سلمان
الفارسي ، ومع هذا فلم يتيسر فتح الطائف ، لأن المشركين استعملوا سيلك
الحديد المحماة وضربوا بها الدبابه فخرج منها رجالها وتعرضوا لنبل المشركين
الذى صبوه عليهم من الحصون كالطر فقتل من المسلمين رجالاً ، وأمر النبي
ﷺ بقطع أعتابهم لعلهم يفكون الحصار فلم يجد ذلك فيهم .

وأثناء الحصار نزل بعض الرقيق من الحصون فأعتقهم النبي ﷺ منهم أبو
بكرة نفيح بن الحارث بن كلد ، وكنتى بأبى بكرة لنزوله من الحصن بكرة
وطالت مدة الحصار فاستشار النبي ﷺ بعض رجاله من ذوى رأى فقال
نوفل بن معاوية الدؤلى يا رسول الله هم كثعلب فى جحر إن أقمت عليه
أخذته وإن تركته لم يضرّك ، فأذن بالرحيل بعدما أقام بضعا وعشرين يوما .

ولما كان ﷺ سائرا إلى الطائف وانتهى إلى نجرة الرغاء أمر بقتل رجل
من بنى ليث قصاصا لأنه قتل رجلا من هذيل فكان أول دم أقيد به فى الإسلام
ولما رجع الناس قال رجل من المسلمين يا رسول الله ادع على ثقيف فقال :
« اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم » .

(١) واد وكذا أوطاس واد أيضا .

واستشهد من المسلمين بالطائف اثنا عشر رجلاً سبعة من قريش وخمسة من الأنصار من بينهم عبد الله بن أبي بكر الصديق ، مات بالمدينة متأثراً بجراحاته وذلك بعد وفاة النبي ﷺ .

أحداث يحسن ذكرها :

وتخلل حصار الطائف أحداث نجمل ذكرها فيما يلي :

(١) أن النبي ﷺ قال لأبي بكر وهو محاصر الطائف : « إني رأيت أني أهديت لي قبة مملوءة زبداً فنقرها ديك فهراق ما فيها » فقال أبو بكر ما أظن أنك تدرك منهم يومك هذا ما تريد ، فقال رسول الله ﷺ : « وأنا لا أرى ذلك » .

(٢) لما أسلمت الطائف طالب أهل العبيد الذين نزلوا من الحصن على رسول الله ﷺ أيام الحصار فأعتقهم طالبوا بردهم إلى سيادتهم أرى ذلك رسول الله ﷺ وقال « أولئك عتقاء الله » .

(٣) لما حاصر النبي ﷺ ثقيفاً ضربت له قبتان إحداها لزوج أم سلمة رضى الله عنها والثانية للأخرى ، وكان ﷺ يصلى بين القبتين ، فلما أسلمت ثقيف بنى على مصلى رسول الله ﷺ عمرو بن أمية بن وهب مسجداً ولعله هو مسجد ابن عباس اليوم .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نجملها فى الآتى :

(١) بيان مدى ما كان عليه رسول الله ﷺ من الحزم والعزم فى إنفاذ أمر الله تعالى .

(٢) مشروعية استشارة ذوى الرأى ، وعدم الاستبداد بالرأى مع وجود ذوى الرأى السديد .

(٣) مشروعية استعمال أحدث الأسلحة وأجداها في الحرب لإحقاق الحق وإبطال الباطل . بأن لا تكون فتنة ويعبد الله وحده لا شريك له .

(٤) مشروعية إقامة الحدود في غير دار الإسلام إذا كان هناك أمن وعدم خوف .

(٥) استجابة دعوة الرسول ﷺ وهى آية من آيات نبوته ، إذ هدى الله ثقيفاً وأتى بهم .

(٦) مشروعية قص الرؤيا على العبد الصالح ، ومشروعية تأويلها .

(٧) بيان فضيلة أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وبيان مدى ما كان يلقى من الرسول ﷺ من التقدير والاحترام .

وخامس عشر أحداثها :

قسمة غنائم حنين

ولما رحل ﷺ من الطائف أتى الجعرانة حيث إن المال والسبي محبوسان بها ، وقبل الشروع فى قسمة الغنائم جاء وفد هوازن يعلن إسلامه ، ويطلب سبيه وأمواله فقالوا يا رسول الله إنا أصل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لا يخفى عليك فامنن علينا من الله عليك ، وقام زهير المكنى بأبى صرد^(١) فقال يا رسول الله إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كنّ يكفلنك ، ولو أنّا ملحنّا أى أرضعنا للحارث بن أبى شمر ، أو للنعمان بن المنذر ، ثم نزل منا مثل الذى نزلت به رجونا عطفه وعائنته علينا وأنت خير المكفولين وأنشد يقول :

امنن رسول الله فى كرم فإنك المرء نرجوه وندخر
امنن على نسوة قد عاقها قدر ممزق شملها فى دهرها غير

(١) من بنى سعد بن بكر الذين أرضعوا رسول الله ﷺ .

وعندئذ خيّرهم رسول الله ﷺ بين نسائهم وأبنائهم وأموالهم فاختاروا نساءهم وأبنائهم فقال ﷺ : « أما ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم » ثم قال : « فإذا صليت بالناس فقولوا : إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا فسأعطيكُم وأسأل فيكم » .

فلما صلى الظهر بالناس فعلوا ما أمرهم فقال رسول الله ﷺ : « ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم » ، وقال المهاجرون والأنصار وما كان لنا فهو لرسول الله .

وقال الأقرع بن حابس ما كان لي ولبنى تميم فلا ، وقال عيينة بن حصن ما كان لي ولفزارة فلا ، وقال عباس بن مرداس ما كان لي ولسليم فلا ، فقال بنو سليم ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ . فقال عباس وهتيموني !!

فقال رسول الله ﷺ : « من تمسك بحقه من السبي فله بكل إنسان ست فرائض من أول فيء نصيبه . فردوا على الناس أبنائهم ونساءهم » .

وغاب مالك :

وسأل رسول الله ﷺ عن مالك بن عوف قائد الحرب الخاسرة فقيل إنه بالطائف فقال « أخبروه أنه إذا أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله » فأخبروه فجاء سيراً فأسلم وحسن إسلامه فأعطاه رسول الله ﷺ أهله وماله ، ومائة بعير واستعمله على قومه ، وعلى من أسلم من تلك القبائل ، وكان له عمل مشكور حيث ضيق على المشركين بالإغارة عليهم حتى أسلموا ، وقال شعراً يمدح فيه رسول الله ﷺ هذا نصه :

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله في الناس كلهم بمثل محمد
أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدَى ومتى تشأَ يخبرك عمّا في غدٍ

وإذا الكتيبة عرّدت أنيابها بالسّمهريّ^(١) وضرب كلّ مهتد
فكانه ليث على أشباله وسط الهباءة^(٢) خادر^(٣) في مُرصد

مطالبة النبي الكريم :

ولما رد النبي ﷺ السبايا ركب على بعيره فاتبعه الناس يقولون يا رسول
الله أقسم علينا الفء حتى اضطروه إلى شجرة من شدة الزحام عليه فلصق
ردأه بأغصان شجرة ، فقال : « ردّوا على ردائي أيها الناس فوالله لو كان
لي عدد شجر تهامة نعم لقسمته عليكم ، ثم لا تجدوني بخيلا ولا جبانا ولا
كذابا » ثم رفع وبرة من سنام بعير وقال : « ليس لي من فيئكم ولا هذه
الوبرة إلا الخمس وهو مردود عليكم » .

ثم أعطى المؤلفه قلوبهم وهم أشراف الناس يتألفهم على الإسلام ، فأعطى
أبا سفيان بن حرب ومعاوية ابنه ، وأعطى حكيم بن حزام ، والعلاء بن حارثة
الثقفى ، والحارث بن هشام وصفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو وحويطب
ابن عبد العزى ، وعيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، ومالك بن عوف
النّصرى أعطى كل واحد منهم مائة بعير ، وأعطى دون المائة رجالا آخرين ،
وأعطى عباس بن مرداس أباعر فسخطها فزاده حتى رضى .

من لا يُعطى خيرٌ ممن يُعطى :

ولما شاهد العطاء رجل فقال يا رسول الله أعطيت عيينة والأقرع وتركت
جعيل بن سُراقة فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسى بيده لجعيل خير من
طّلاع^(٤) الأرض رجالا كلهم مثل عيينة والأقرع ولكنى أتألفهم ، ووكلت

(١) الرّمح .

(٢) الغبار .

(٣) الخادر الأسد فى عرينه .

(٤) طّلاع الأرض ما يملؤها حتى يطلع فوقها ويزيد .

جعيلا إلى إسلامه » .

موجدة الأنصار :

ولما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من أموال لقبائل قريش وهوازن وتميم ، ولم يُعط الأنصار شيئاً وجدوا في أنفسهم حتى قال قائل منهم ، لَقِيَ رسول الله قومه !! وأخبر سعد بن عبادة رسول الله ﷺ بذلك فقال له : « فأين أنت ياسعد » قال : أنا من قومي ، قال « فاجمع قومك لي » فجمعهم فأتاهم رسول الله ﷺ فقال : « ما حديثٌ بلغني عنكم ؟ ألم آتيكم ضلّالا فهداكم الله بي ؟ وفقرء فأغناكم الله بي ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم بي ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ، والله ولرسوله المن والفضل فقال : « ألا تُحييوني ؟ » قالوا : بماذا نجيبك ؟ فقال : « والله لو شئتم لقلتم فصدقتم : أتيتنا مُكذِّباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فأويناك وعائلاً فواسيناك . أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة^(١) من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ، والذي نفسى بيده لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار » فَبَكَى القوم حتى أخضلوا^(٢) لحاهم بالدموع ، وقالوا رضيينا برسول الله قِسْمًا وحظًا وتفرقوا فعادوا إلى رحالهم .

واعتمر الحبيب ﷺ :

وكان شهر القعدة قد دخل فأحرم رسول الله ﷺ والمسلمون معه من الجعرانة وأمر ببقايا الفئء فسبقت إلى مجنة فحبست بها وهى بناحية مَرَّ الظهران

(١) بقلّة خضراء ناعمة شَبَّ بها زهرة الدنيا ونعيمها بجامع المنظر وسرعة الزوال .

(٢) أخضلوا لحاهم أى بَلَّوها من الدموع .

ودخل مكة مليًّا بعمره فطاف وسعى وحلق وتحلل واستخلف على مكة عتاب ابن أسيد وجعل له راتبًا هو درهم كل يوم ، وخلف معه معاذ بن جبل يعلم الناس الدين ويفقههم فيه ، وخطب عتابُ الناس في مكة فقال أيها الناس أجاج الله كبد من جاع على درهم فقد رزقني رسول الله ﷺ درهمًا كل يوم فليست بي حاجة إلى أحد . وعاد الحبيب بأصحابه من المهاجرين والأنصار إلى المدينة فوصلها لست ليال بقين من القعدة .

وبقى أهل الطائف على شركهم إلى شهر رمضان من سنة تسع من هجرة الحبيب ﷺ .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبر هي الآتية :

(١) لحسن القول وطيب الكلام أثر في نفس من قيل فيه كسنة عامة قلما تتخلف .

(٢) تقرير مبدأ من طالب بمكرمة فليكن البادى بها فإنه يُعطّاها .

(٣) بيان جفاء وغلظة بعض الأعراب لبعدهم عن الحضارة فلم يتروّضوا .

(٤) بيان الكمال المحمدى في خلقه ومروءته فهي بذلك مضرب المثل وفي القرآن الكريم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ من سورة (القلم) .

(٥) مظاهر الكمال المحمدى في حسن السياسة والتدبير الأمر الذي لا يجارى فيه قط .

(٦) فضل جعيل رضى الله عنه وأرضاه وهنيئًا له بما أولاه الله وشرفه به رسول الله .

(٧) فضيلة الأنصار ، وبيان محابهم الله به من حب الحبيب ﷺ ، ودعائه لهم ولأبنائهم وأبناء أبنائهم وهم أهل القرون الثلاثة المفضلة أى الصحابة والتابعون وتابعو التابعين ، وتابعوهم إلى ثلاثة قرون .

(٨) مشروعية الاعتار في الشهر الحرام ، وبيان أن الجعرانة ليست من الحرم .

(٩) مشروعية كفالة رزق العامل للدولة .

(١٠) مشروعية تولية الولاية وتعيين المعلمين والمفقهين للناس في دينهم .

أهم أحداث سنة ثمان

من هجرة الحبيب ﷺ

من أبرز الأحداث التاريخية في سنة ثمان غير السرايا والغزوات ما يلي إزاء النقاط السوداء :

● تزوج الرسول ﷺ بفاطمة بنت الضحاك الكلاية واستعادت من الرسول ﷺ ففارقها فوراً .

● ولد إبراهيم ابن النبي ﷺ من جاريته مارية القبطية ، ودفع إلى أم بردة بنت الأنصاريّة فكانت مرضعته عليه السلام .

● بعث الرسول ذات أطلاق من الشام إلى نفر من قضاة يدعوهم إلى الإسلام ، ومعه خمسة عشر رجلاً فدعاهم إلى الإسلام فلم يجيبوه ، وقتلوا المسلمين إلا أميرهم كعباً فإنه نجا وعاد إلى المدينة .

● بعث النبي ﷺ عيينة بن حصن إلى بنى العنبر من تميم فأغار عليهم وسبوا منهم نساءً وكان على عائشة رضي الله عنها عتق رقبة من ولد إسماعيل نذرتها نذرًا فقال لها رسول الله ﷺ : « هذا سبئي بنى العنبر يقدم علينا فنعطيك إنسانًا نعتيقه » فجاءت وأعطاه فأعتقته ، ودل هذا على أن بنى تميم من ولد إسماعيل .

● بعث الرسول ﷺ جرير بن عبد الله البجلي في مائة وخمسين رجلاً إلى ذى الخلصة وهي بيت لختهم ، وبجيلة فيها نُصِبَ يعبد يُقال له : الكعبة الجمانية ، فأثاها فحرقها بالنار وكسرها ، ولما بلغ الخبرُ النبي ﷺ بارك على خيل أحبس ورجالها خمس مرات .

ودخلت السنة التاسعة من هجرة الحبيب ﷺ

وكان أول أحداثها :

إسلام كعب بن زهير بن أبي سلمى

إن كعب بن زهير كان شاعراً كأبيه زهير بن أبي سلمى صاحب المعلقة وكان كعب قد هجا النبي ﷺ فكتب إليه أخوه بجير وقد أسلم وحسن إسلامه كتب إليه يخبره بأن النبي ﷺ قد أمر بقتل كل من هجوه وآذوه من الشعراء ، إلا أنه من جاء مسلماً تائباً يعفو عنه ويسامحه ، وعليه فأنصح لك أن تأتى النبي ﷺ بالمدينة وتسلم فتنجو ، وإلا فانج بنفسك حيث تجد مكاناً للنجاة ، وأن من بقى من الشعراء فى قریش ابن الزبعرى ، وهبيرة ابن أبى وهب ، وقد هربوا فى كل وجه ، لكن كعباً لم يأخذ بنصيحة أخيه وقال :

ألا أبلغا عنى بُجَيْرًا رسالةً	فهل لك فيما قلت ويحك هل لك
فبين لنا إن كنت لست بفاعل	على أى شىء غير ذلك دلكا
على خُلُقٍ لم تُلف أمًّا ولا أبا	عليه ولم تدرك عليه أنحا لك
فإن أنت لم تفعل فلست بآسف	ولا قاتل إما عثرت : لعاً لك
سفاك بها المأمون كأساً رويةً	فأنهلك المأمون منها وعلكا

ولما بلغ بُجَيْرًا ما قاله كعب أخبر به رسول الله ﷺ فغضب ﷺ وأهدر دمه فكتب بذلك بجير إلى كعب ، وقال إذا أتاك كتابى هذا فأسلم وأقبل على رسول الله ﷺ فإنه لا يأخذ مع الإسلام بما كان قبله ، فأسلم كعب وجاء حتى أناخ راحلته بباب المسجد ورسول الله ﷺ مع أصحابه قال كعب فعرفته بالصفة فتخطيت الناس إليه فأسلمت وقلت : الأمان يا رسول الله هذا مقام العائذ بك قال : « من أنت ؟ » فقلت : كعب بن زهير قال : « الذى يقول »

ثم التفت إلى أبي بكر فقال : « كيف قال » : فأنشده أبو بكر الآيات التي أولها :

ألا أبلغا عنّي بجيراً رسالة

فقال كعب ما هكذا قلت يا رسول الله ، إنما قلت :

سقاك أبو بكر بكأس روية

فأنهلك المأمون منها وعلكا

فقال رسول الله ﷺ : « مأمون والله » ، فتجهته الأنصار وأغلظت له القول ولانت له قريش وأحبت إسلامه ، فأنشد رسول الله ﷺ قصيدته التي أولها :

بانت سعادٌ فقلبي اليوم متبول^(١) متيمٌ إثرها لم يُفدَ مكبول^(٢)
فلما انتهى إلى قوله :

وقال كل خليل كنت آمله لا ألهيتك إني عنه مشغول
نبئت أنّ رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول
في فتية من قريش قال قائلهم بيطن مكة لما أسلموا زولوا
زالوا مما زال أنكاس^(٣) ولا كشف^(٤) عند اللقاء ولا ميل^(٥) معاذيل
لا يقع الطعن إلا في نحورهم وما لهم عن حياض الموت تهليل^(٦)

(١) متبول : أسقمه الحب .

(٢) مكبول : مقيد .

(٣) جمع نكس : الرجل الضعيف .

(٤) جمع أكشف : الذي لا ترس له .

(٥) جمع أميل الذي لا سيف له .

(٦) تهليل بمعنى تأخر .

ونظر رسول الله ﷺ إلى قريش فأوما إليهم أن اسمعوا حتى قال :

يمشون مشى الجمال الزهر^(١) يعصمه ضرب إذا عرد السؤد التنايل^(٢)

يعرض بالأنصار لغلظتهم التي كانت عليه ، فأنكرت قريش قوله ، وقالوا لم تمدحنا إذا هجوتهم ، ولم يقبلوا ذلك منهم ، وعظم على الأنصار هجوه فشكوه فقال يمدحهم :

من سره كرم الحياة فلا يزل في منقب^(٣) من صالحى الأنصار
الباذلين نفوسهم ودماءهم يوم الهياج وسطوة الجبار
يتطهرون كأنه نسك لهم بدماء من قتلوا من الكفار
في أبيات كثيرة وعندها كساه النبی ﷺ بردة كانت عليه .

ولما كان زمن معاوية بعث إليه يطلب شراءها منه فأبى ، وقال ما كنت لأوثر بثوب رسول الله ﷺ أحداً ، فلما مات كعب اشتراها معاوية من أولاده بعشرين ألف درهم ، وبقيت تلك البردة زمناً طويلاً يتوارثها الخلفاء ولعلها الآن في متحف الآثار بتركيا .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نجملها كالآتي :

- (١) حب المدح وكرهية الدم فطري في الإنسان ، فهو كما قيل :
يهوى الثناء مبرز ومقصر حب الثناء طبيعة الإنسان
- (٢) ذكاء كعب يتجلى في إسلامه وإتيانه النبي ﷺ ومعرفته بالصفة بدون

(١) الزهر : البيض .

(٢) جمع تنبال وهو القصير . وعرد بمعنى قر وهرب .

(٣) جماعة الخيل .

سؤال عنه ، وفي سرعة بدايته حيث يمدح ويعرض ويغضب ويرضى في الجلسة الواحدة .

(٣) مشروعية مدح الرسول ﷺ وفضيلته إذا خلا من الغلو المحرم الذي نهى عنه ﷺ .

(٤) بيان تنافس الصحابة ومن بعدهم في الآثار المحمدية ، وحق لهم ذلك حتى إن البردة اشترت بعشرين ألف درهم .

(٥) تجلى الكرم المحمدى في عفوه عن كعب وكسوته بردته بعد إهداره دمه .

وثاني أحداثها :

غزوة تبوك

غزوة تبوك^(١) تعتبر من أعظم مغازي الحبيب ﷺ وذلك لصعوبة الظرف الذى وقعت فيه ، إذ هو ظرف جذب ومجاعة وشدة حر ، وبعد مكان وشقة ، وكثرة عدو وقوة ، ولم يكن هناك نفير عام في غزوة غير هذه ، ولم يكن الرسول القائد الأعظم ﷺ ليحدد اتجاهه في غزوة من الغزوات إلا في هذه .

كل هذا أو غيره جعل غزوة تبوك من أعظم الغزوات ، ويدل على ذلك ويشهد له الآيات العديدة من سورة التوبة كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْقِلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ في آيات عديدة ، وآخر تلك الآيات قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ الآيات . وسمى جيشها بجيش العسرة إذ بلغت العسرة يومها أشدها .

(١) تبوك اسم عين يقال لها تبوك .

أسباب هذه الغزوة :

إن السبب الرئيسى فى هذه الغزوة الصعبة أن النبى ﷺ بلغه أن هرقل ملك الروم ، ومن معه من العرب المنتصرة من قبائل لخم وجذام قد أجمعوا المسير إلى الحجاز لحرب محمد ﷺ والمسلمين مبادرة منهم له حتى لا يكون هو الذى يغزوهم بعد أن ذاقوا مرارة غزوة مؤتة التى جلبوا لها مائتي ألف مقاتل ، ولم يتمكنوا من إبادة ثلاثة آلاف مقاتل لا غير ، بل ولا حتى هزيمتهم والحمد لله .

التعبئة العامة :

وأعلن الحبيب ﷺ لأول مرة عن قصده فلم يور ولم يُعم كما كان قبل يورى ويعمى على العدو ، بل أمر الناس بالجهاز ، وأعلمهم أنه يريد غزو الروم وأعلن التعبئة العامة . وتجهز أقوام وتباطأ آخرون ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَالَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ .

جمع المال لخوض المعركة :

ولما كان المال ضروريًا للتجهيز الكامل من رجال وسلاح وكراع أمر الحبيب القائد الأعظم ﷺ بجمع الأموال ، وتسابق الصالحون فى هذا الميدان فأنفق أبو بكر الصديق كل ما يملك ، وأنفق عمر بن الخطاب نصف ما يملك ، وأنفق عثمان نفقة قال فيها رسول الله ﷺ : « اللهم ارض عن عثمان فإنى عنه راض » إنه جهز جيش العسرة وحده أو كاد إذ أنفق ألف دينار وألف بعير . وحمل رجال من أهل اليسار والغنى واحتسبوا أجرهم على الله تعالى .

اعتذار كاذب :

ووجه النبي ﷺ الدعوة رسمياً إلى الجدد بن قيس لصلووعه في النفاق فقال : « يا جدد هل لك في جلاد بني الأصفر ؟ » . فقال : يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني فوالله لقد عرف قومي أنه مامن رجل أشد عجباً بالنساء مني ، وإنني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر . فأعرض عنه النبي ﷺ وقال : « قد أذنت لك » وفيه نزل قوله تعالى من سورة التوبة : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَئِذْنَ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ فقلوه تعالى : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ تلويح بكفرهم ، وذلك لرغبتهم بأنفسهم عن نفس رسول الله ﷺ .

اعتذار مردود :

وجاء نفر من غفار وهم أعراب في البادية حول المدينة يعتذرون عن التخلف فلم يعذرهم رسول الله ﷺ ولم يأذن لهم في التخلف . وقعد كبار المنافقين عن الاعتذار ، وعن الخروج مع رسول الله ﷺ والمؤمنين ، وفي هؤلاء وأولئك نزل قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

تخلف من غير شك :

وقد تخلف أناس عن الخروج إلى تبوك لا رغبة بأنفسهم عن نفس رسول الله ﷺ ولكن غلبتهم نفوسهم لصعوبة الظرف لا سيما وقد آن أوان الرطب وظلال الأشجار في آخر الصيف . فاعتذروا بعد عودة الرسول ﷺ ، وقبل عذرهم وتاب الله عليهم . وأرجأ توبة ثلاثة منهم امتحاناً لهم ، لأنهم من كبار الصحابة وخيرتهم وهم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، حتى ذاقوا مرارة المقاطعة التي أعلنها رسول الله ﷺ ، فمحسوا حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من

الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم .

البكاءون :

إنهم سبعة رجال من أهل الإيمان الصادق والإسلام الحسن كانوا أهل حاجة وفقر فلم يجدوا زادًا ولا راحلة ، وعز عليهم التخلف فأتوا رسول الله ﷺ ليكون وقالوا : احملنا يا رسول الله ، فكيف نتخلف ، فلم يجد رسول الله ﷺ ما يحملهم عليه فرجعوا إلى بيوتهم يكون ، فكادت أعينهم تفيض من الدمع حزناً ، وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أُحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَاعْيَنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿١٠٦﴾ .

مسير الحبيب ﷺ :

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة سباع بن عُرفطة ، وعلى أهله على ابن أبي طالب وأرجف المنافقون ، وقالوا ما خلف علياً إلا استثقلاً له ، فسمع ذلك عليٌّ فلحق برسول الله ﷺ حاملاً سلاحه ، وأخبره بما قال المنافقون ، فقال : « كذبوا وإنما خلفتك لما ورائي فارجع فاحلفني في أهلي وأهلك ، أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ؟ إلا إنه لا نبي بعدي » فرجع علي ، وسار رسول الله ﷺ في طريقه إلى جلال بني الأصفر .

المثبطون :

وقبل مسير الحبيب ﷺ بلغه أن جماعة من المنافقين يجلسون في بيت أحدهم وهو سويلم اليهودي يثبطون الناس عن الخروج مع رسول الله ﷺ ، ويقولون لا تنفروا في الحر ، تزهيدا في الجهاد ، وتشكيكا في الحق ، وإرجافاً برسول الله ﷺ فأنزل فيهم قوله : ﴿ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ

حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿١﴾ وأمر الرسول ﷺ طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه أن يحرق عليهم بيت سُويلم ففعل طلحة فاقتحم الضحاك بن خليفة من ظهر البيت فانكسرت رجله ، واقتحم أصحابه فأفلتوا ، وفي هذا يقول الضحاك :

كادت — وبيت الله — نار محمد يشيط بها الضحاك وابن أبيرق وظلت وقد طبقت كبس^(١) سُويلم أنوء على رجلي كسيرًا ومرفقى سلام عليكم لا أعود لمثلها أخاف ومن تشمل به النار يُحرق أبو خيثة يفوز :

وتأخر عن المسيرة أبو خيثة ، وكان له زوجتان وجاءهما يومًا فوجد كل واحدة منهما قد رشت بالماء عريشها وبردت الماء له ، وصنعت الطعام فلما رأى ذلك أبو خيثة قال على الفور أياكون رسول الله ﷺ في الحر والريح ، وأبو خيثة في الظلّ و الماء البارد مقيم ما هذا بالنصف أى بالإنصاف ، والله ما أحل عريشًا منهما حتى ألحق برسول الله ﷺ فهيأ زاده وخرج إلى ناضحه « جملة » فركبه ، وجرى وراء رسول الله ﷺ فأدركه في تبوك ، ورآه الناس من بعيد فقالوا يا رسول الله راكب مقبل فقال رسول الله ﷺ : « كن أبا خيثة » فقالوا هو والله أبو خيثة ، وأتى رسول الله ﷺ وأخبره بخبره فدعا له ففاز بدعوة الحبيب ﷺ وقال : أبو خيثة في قصته هذه شعرًا هذا نصه :

لما رأيت الناس في الدين نافقوا أتيت التي كانت أعف وأكرما وبايعت باليمنى يدى لمحمد فلم اكتسب إثمًا ولم أغش محرمًا

(١) الكبس : البيت الصغير ، وطبقت بمعنى علوت .

تركت خضيباً عل العريش وحرمة^(١) صفايا^(٢) كراما يُسرّها قد تحمّما^(٣)
وكنّت إذا شك المنافق أسمع^(٤) إلى الدين نفسى شطره حيث يمّما

من أعلام النبوة :

ولما مرّ النبي ﷺ بالحجر وهى ديار ثمود وهو فى طريقه إلى تبوك نزل
بها واستقى الناس من بئرها فلما زاحوا قال رسول الله ﷺ : « لا تشربوا
من مائها شيئاً ولا تتوضؤوا منه للصلاة ، وما كان من عجين عجنتموه
فاعلفوه الإبل ، ولا تأكلوا منه شيئاً ، ولا يخرجنّ أحدٌ منكم الليل إلا ومعه
صاحب له » ففعل الناس ما أمرهم به رسول الله ﷺ إلا أنّ رجلين من بنى
ساعدة خرج أحدهما لحاجته مخالفاً أمر رسول الله ﷺ بعدم الخروج وحده
فخفق فى طريقه ، وخرج الآخر فى طلب بغير له مخالفاً أمر رسول الله ﷺ
فاحتلمته الريح حتى طرحته فى جبال طيء ، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ
فقال : « ألم أنهكم أن يخرج منكم أحد إلا ومعه صاحبه » ثم دعا للذى أصيب
بخنق الجنّ فشفي ، وأما الآخر الذى وقع فى جبال طيء فإن طيئاً أهده
لرسول الله ﷺ بعد عودته للمدينة . فكانت هذه آية من آيات النبوة
المحمدية .

وأخرى فقد كان رجل من المنافقين معروفاً بالنفاق يسير مع رسول الله
ﷺ حيث سار ولما مرّ رسول الله ﷺ بديار ثمود غطّى وجهه بثوبه
واستحثّ السير ، وقال لأصحابه « لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم
باكون خوفاً أن يصيبكم مثل ما أصابهم » .

(١) جماعة النخل .

(٢) جمع صفى ، كثير الحمل .

(٣) اسودّ .

(٤) انقادت .

وأصبح الناس ولا ماء معهم فشكوا ذلك لرسول الله ﷺ فدعا ربه فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس وأخذوا حاجتهم من الماء فكانت آية من آيات النبوة وقيل لذلك المنافق ويحك هل بعد هذا شيء أى من الشك فى نبوة محمد ﷺ فقال : سحابة مارة !

وثالثة : ونزل الرسول ﷺ والمؤمنون منزلاً فضلت راحلة النبی ﷺ فخرج أصحابه يطلبونها . وعند رسول الله ﷺ رجل من أصحابه يقال عمارة ابن حزم وكان عقيماً^(١) بدرياً ، وكان فى رحله زيد بن اللصيت القينقاعى ، وكان منافقاً فقال وهو فى رحل عمارة ، وعمارة عند رسول الله ﷺ : أليس محمد يزعم أنه نبي ويخبركم عن خبر السماء وهو لا يدرى : أين ناقته ؟ فقال النبی ﷺ وعمارة عنده : « إن رجلاً — يعنى ابن اللصيت المنافق — قال هذا محمد يخبركم أنه نبي ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدرى أين ناقته ؟ وإني والله ما أعلم إلا ما علمنى الله ، وقد دلى الله عليها وهى فى هذا الوادى فى شعب كذا وكذا قد حبستها شجرة بزمامها فانطلقوا حتى تأتونى بها » فذهبوا فجاءوا بها فكانت آية من آيات النبوة المحمدية . ورجع عمارة من عند رسول الله ﷺ إلى رحله فقال والله لعجب من شيء حدثناه رسول الله ﷺ أنفاً عن مقالة قائل أخبره الله عنه بكذا وكذا للذى قال زيد بن اللصيت ، فقال رجل ممن كان فى رحل عمارة ولم يحضر رسول الله ﷺ ، قال زيد والله هذه المقالة قبل أن تأتى فأقبل عمارة على زيد يجأر عنقه أى يطعن بيده فى عنقه ويقول إلىّ عباد الله إن فى رحلى لداهية وما أشعر اخرج أى عدو الله من رحلى فلا تصحبنى .

ورابعة : ويمضى رسول الله ﷺ فى مسيره إلى تبوك ويتخلف عنه الرجل

(١) أى من أهل بيعة العقبه .

فيخبر بذلك فيقول : « دعوهُ فَإِنْ يَكُ فِيهِ خَيْرٌ فسيلحقه الله تعالى بكم ، وإن يَكُ غير ذلك فقد أراحكم الله منه » وتلوم أبو ذر على بغيره أى تمهل وتمكث فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحمله على ظهره ، ثم خرج يتبع آثار رسول الله ﷺ ماشياً على رجلية ومتاعه على ظهره ، ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازل ، فنظر ناظر من المسلمين فقال يا رسول الله إن رجلاً يمشى على الطريق وحده ، فقال رسول الله ﷺ « كن ^(١) أباذر » فلما تأمله القوم قالوا يا رسول الله إنه هو والله أبو ذر ، فقال رسول الله ﷺ : « رحم الله أبا ذر يمشى وحده ويموت وحده ويبعث وحده » .

وتمضى الأيام والأعوام ، وينفى أبو ذر إلى الربذة ويحضره الموت هناك وليس معه إلا امرأته وغلّامه ، وقبل موته أوصاها إذا مات أن يغسله ويكفّناه ويضعاه على الطريق ، وأول ركب يمر عليكم فقولوا : هذا أبو ذر صاحب رسول الله فاعينونا على دفنه ، وفعلوا فعلاً به ذلك وجاء عبد الله بن مسعود في رهط من أهل العراق عُمار فلم يرعهم إلا والجنّازة على قارعة الطريق كادت الإبل تطوّها ، وقام إليهم الغلام فقال هذا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه فاستهل عبد الله بن مسعود ييكى ويقول : صدق رسول الله ﷺ : تمشى وحدك وتموت وحدك وتبعث وحدك . ثم نزل هو وأصحابه فواروه التراب فكانت آية من آيات النبوة المحمدية .

وخامسة : بواد المُشَقَّق في طريق تبوك ماء يخرج من وَشَل ^(٢) قدر ما يروى الراكب والراكبين والثلاثة فقال رسول الله ﷺ : « من سبقنا إلى ذلك الوادى فلا يستقين منه شيئاً حتى نأتيه » إلا أن منافقين سبقوا إليه فاستقوا ما فيه فلما أتاه رسول الله ﷺ ، وقف عليه فلم ير فيه شيئاً من الماء ، قال :

(١) كن كذا لفظ الأمر ومعناه الدعاء أى اسألوا أن يكون أبا ذر .

(٢) الوشل صخرة في جبل أو واد يقطر منها الماء قليلاً قليلاً

« من سبقنا إليه ؟ » قيل له يا رسول الله فلان وفلان فقال : « أولم أنهم أن يستقوا منه شيئاً حتى آتاه » فلعنهم ﷺ ودعا عليهم ، ثم نزل فوضع يده تحت الوشل فجعل يصب في يده ما شاء أن يصب ثم نضحه به ومسحه بيده ، ودعا ﷺ بما شاء الله أن يدعو به فانخرق من الماء كما يقول من سمعه ما إذا له حساً كحس الصواعق فشرب الناس واستقوا حاجتهم منه فكانت هذه آية من آيات النبوة المحمدية .

المقام المبارك :

وانتهى مسير الحبيب ﷺ بنزوله بتبوك وأقام بها بضع عشرة ليلة إلى عشرين ، وكان يقصر الصلاة ، ويجمع الظهر مع العصر ، والمغرب مع العشاء تخفيفاً على أصحابه ، وحتى لا يقعهم في حرج أو مشقة ، ولم يتم الصلاة خلال هذه المدة لأنه لم تحدد مدة إقامته وإنما ينتظر الأمر من ربه تعالى ، إذا أمره بالإقامة أقام وإذا أمره بالمسير سار . وقد استشار أصحابه في التقدم إلى الشام والمسير إلى بلاد الروم فقال له عمر إذا كنت أمرت بالمسير فسر ، فقال ﷺ : « لو أمرت ما استشرتكم فيه » فقال عمر يا رسول الله إن للروم جمعاً كثيرة وليس بها أحد من أهل الإسلام ، وقد دنوت منهم وأفزعتهم دونك ، لو رجعت هذه السنة حتى ترى أو يحدث الله لك في ذلك أمراً ، فانصرف رسول الله ﷺ عائداً إلى المدينة ، ولم يلق كيئداً فقد نصره الله بالرعب مسيرة شهر فلم يخرج إليه الروم ، ولم يقربوا من ساحته خوفاً وفزعاً منه ﷺ بعد أن عزموا على حربه وغزوه في عقر داره .

خطبة نبوية جامعة :

ولما أصبح رسول الله ﷺ بتبوك خطب خطبة عظيمة جامعة هذا نصها : حمد الله تعالى ، وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : « أما بعد فإن أصدق

الحديث كتاب الله ، وأوثق العُرَى كلمة^(١) التقوى ، وخير الملل ملة^(٢) إبراهيم ، وخير السنن سنة محمد ﷺ ، وأشرف الحديث ذكر الله ، وأحسن القصص القرآن ، وخير الأمور عَوَازِمُهَا^(٣) ، وشر الأمور محدثاتها ، وأحسن الهدى هدى الأنبياء ، وأشرف الموت قتل الشهداء ، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى ، وخير الأعمال مانفع ، وخير الهدى ، ما اتبع ، وشرّ العمى عمى القلب ، واليد العليا^(٤) خير من اليد السفلى وما قُلَّ وكفى خير مما كثر وألهى ، وشرّ المعذرة حين يحضر الموت ، وشرّ الندامة يوم القيامة ، ومن الناس من لا يأتى الجمعة إلا دبرًا ، ومنهم من لا يذكر الله إلا هجرًا ، ومن أعظم الخطايا اللسان الكذوب ، وخير الغنى غنى النفس ، وخير الزاد التقوى ، ورأس الحكمة مخافة الله ، وخير ما وقر في القلب اليقين ، والارتياب من الكفر ، والنياحة من عمل الجاهلية ، والغلول من حر جهنم ، والسكر كُتًى من النار ، والشعر من إبليس ، والجمر جماع الإثم وشر المال مال اليتيم ، والسعيد من وعظ بغيره ، والشقى من شقى في بطن أمه ، وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربعة أذرع ، والأمر إلى آخره ، وملاك العمل خواتمه ، وشر الروايا روايا الكذب ، وكل ماهو آت قريب ، وسبابة المسلم فسوق ، وقتاله كفر ، وأكل لحمه^(٥) من معصية الله ، وحرمة ماله كحرمة دمه ، ومن يتآل على الله يكذبه ، ومن يغفر يُغفر له ، ومن يعفُ يعفُ الله عنه ، ومن يكظم الغيظ يأجره الله ، ومن يصبر على الرزية يعوضه الله ، ومن يتبغ السمعة يسمع الله به ، ومن يتصبر يغفر الله له ، ومن يعص الله يعذب « ثم استغفر ثلاثا .

(١) هي لا إله إلا الله محمد رسول الله .

(٢) هي أن يعبد الله وحده بما شرع ، ولا يشرك في عبادته أحدًا .

(٣) أى الفرائض لحديث « ما تقرب إلى عبدى شيء أحب إلى مما افترضت عليه » .

(٤) أى صاحب اليد العليا وهى المتصدق خير من صاحب اليد السفلى وهو المتصدق عليه .

(٥) أى بالغيبة .

إيجابيات نبوية :

وأثناء إقامته ﷺ بتبوك اتخذ خطوات إيجابية عظيمة وموفقة والله الحمد
وهى :

(أ) إتيانه يُحَنِّتَ بن رؤية صاحب أيلة ومصالحته على جزية مقدارها ثلثائة
دينار ، وكتب له بذلك كتابا هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحَنِّتَ بن رؤية وأهل أيلة
سفنهم وسياراتهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ، ومن كان
معهم من أهل الشام وأهل اليمن ، وأهل البحر فمن أحدث منهم حدثاً فإنه
لا يجول ماله دون نفسه ، وإنه طيب لمن أخذه من الناس ، وإنه لا يحل
أن يمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقا يريدونه من برّ أو بحر » .

(ب) أتاه أهل جَرْبَاء وأذْرَحَ وهما بلدان بالشام مسيرة ثلاثة أيام
فأعطوه الجزية وكتب لهم بذلك كتاباً هذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا كتاب من محمد النبي لأهل أذرح وجرباء إنهم آمنون بأمان
الله وأمان محمد النبي وإن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة ، والله
كفيل بالنصح والإحسان للمسلمين » .

(ج) بعث ﷺ خالد بن الوليد في أربعمائة وعشرين رجلا إلى أكيدر بن
عبد الملك الكندي ، وكان ملكا في دومة الجندل التي هى حصن وقرى من
قريات وادى القرى ، وحصنها يقال له مارد وهو حصن أكيدر الخاص به ،
وقال خالد لرسول الله ﷺ كيف لى به فى وسط بلاد كلب وأمار وأنا فى
أناس قليل ؟ فقال رسول الله ﷺ : « ستلقاه يصيد الوحش — أو قال

البقر — فتأخذه » فخرج خالد ومن معه فلما بلغوا قريباً من حصنه ، وكانت ليلة مقمرة صائفة ، وأكيدر على سطح له في الحصن ومعه امرأته فبات البقريحك بقرونه باب الحصن ، وأشرقت امرأته على باب الحصن فقالت : ما رأيت كالليلة فمن يترك هذه الليلة ؟ قال لا أحد ، فنزل فأمر بفرسه فأسرج له وركب معه نفر من أهل بيته ومعه أخوه حسان فخرجوا من حصنهم بمطاردهم ، فلما خرجوا تلقتهم خيل رسول الله ﷺ فاستأسر أكيدر ، وامتنع حسان فقاتل فقتل وهرب من كان معه ودخلوا الحصن وكان على أكيدر قباء مخوص بالذهب ، فاستلبه خالد منه ، وبعث به إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه به عليه ، قال أنس رأيت قباء أكيدر حين قدم به على رسول الله ﷺ فجعل المسلمون يلمسونه ويعجبون منه فقال رسول الله ﷺ : « أتعجبون من هذا ؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير من هذا » .

ثم إن خالدًا قدم بأكيدر إلى رسول الله ﷺ بالمدينة فحقن دمه ، وصالحه على الجزية فرجع إلى قريته وبقي بها ، وكان نصرانيًا فلم يسلم ، وقتل كافرًا حيث حاصره خالد على عهد أبي بكر الصديق لنقضه العهد فهلك كافرًا مشرکًا .

حدث هام :

لا شك أن أحداثًا كثيرة وقعت في ذهاب الحبيب ﷺ إلى تبوك وفي مجيئه منها وقد ذكرنا طرفًا منها للعظة والاعتبار ، وهذا حدث هام وقع في طريق العودة : إنها مؤامرة دنية قام بها أدنياء سفلة منافقون إنهم اثنا عشر منافقًا من شر المنافقين تواطأوا على قتل رسول الله ﷺ ، وذلك يضايقوه في عقبة في الطريق حتى يسقط من راحلته فيهلك ، وفعلا لما وصل إلى العقبة وكان حذيفة ابن اليمان آخذًا بخطام ناقته ﷺ ، وعمار بن ياسر يسوقها ، وإذا باثنى عشر راكبًا قد اعترضوا ناقه رسول الله ﷺ قال حذيفة رضي الله عنه فأنبّهت

رسول الله ﷺ فصرخ فيهم فولوا مدبرين وفيهم نزل قول الله تعالى : من سورة التوبة ﴿ وَهُمْ أُولَٰئِكَ يَنَالُوا ﴾ ودعا عليهم رسول الله ﷺ فأصابهم الدُّبيلة^(١) وهى خراج يخرج في الظهر فيظهر على القلب فيهلك صاحبه ولا ينجو أبداً .

ياليتنى كنت صاحب الحفرة :

إن صاحب هذه الأمنية هو عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، وصاحب الحفرة هو عبد الله ذو البجادين ، ذلك المؤمن الذى كان ينازع في إيمانه ويأبى عليه قومه الإسلام حتى اضطروه إلى أن يهاجر ويترك أهله وقومه في بجاد وهو ثوب غليظ كالكساء ولما وصل المدينة وقارب أن يرى رسول الله ﷺ قسم بجاده قسمين فاتزر بنصفه وارتنى بنصفه الآخر فقبل له ذو البجادين قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قمت من جوف الليل ، وأنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فرأيت شعلة من نار ناحية المعسكر فاتبعتها فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر ، وإذا عبد الله ذو البجادين المزنى قد مات ، وإذا هم قد حفروا له ورسول الله ﷺ في حفرتة وأبو بكر وعمر يدلّيانه إليه وهو يقول : « أدنيا إلى أخاكما » فدلياه إليه فلما هياه لشقه قال : « اللهم إني أمسيت راضيا عنه فارض عنه » . قال عبد الله بن مسعود فقلت : ياليتنى كنت صاحب الحفرة !!

مسجد الضرار :

مسجد الضرار . عبارة عن وكر مؤامرات أقيم لمناوأة رسول الله ﷺ والمسلمين بالمدينة بناه اثنا عشر رجلا من كبار المنافقين ، ولما فرغوا منه أتوا النبی ﷺ وهو يتجهز لغزوة تبوك ، وطلبوا منه أن يأتيهم ويصلى لهم فيه

(١) ويروى الدبلة ، والدبلة اليوم خاتم العرس ، ولذا يكره استعماله للاسم ولأنه من عادات النصارى .

ليأخذ الصبغة الشرعية وإنهم لكاذبون ، إلا أن الرسول ﷺ اعتذر لهم بقوله : « إني على جناح سفر ، وحال شغل » أو كما قال « ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم فصلينا لكم فيه » .

ولما غزا رسول الله ﷺ تبوك وعاد ووصل إلى ذى أوان ونزل بها وهى على ساعة من المدينة أتاه خبر المسجد إذ نزل فيه قرآن وهو قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ الآية .

فدعا ﷺ اثنين من أصحابه هما مالك بن الدُخشم أخو بنى سالم بن عوف ومعن بن عدى أخو بنى العجلان . فقال : « انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرقاه » . وفعلآ أتياه فهدهماه وحرقاه ، وتفرق أهله عنه وتركوه للنار تلتهمه .

عُودٌ مبارك واستقبال حافل :

ولما دنا رسول الله ﷺ من المدينة عائداً من تبوك خرج أهل المدينة لاستقباله والجوارى ينشدن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

وهنا قال ﷺ : « إن بالمدينة رجالاً ما سرتهم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم حبسهم العذر » قالوا يا رسول الله وهم بالمدينة قال : « نعم وهم بالمدينة » .

الرهط المتخلف :

ولما دخل رسول الله ﷺ المدينة وذلك فى رمضان وأعلام النصر عالية خفاقة وسرَّ المؤمنون والمؤمنات بعودة الحبيب سالماً منتصراً ظافراً أتى المسجد

فصلى ركعتين . وجاء المخلفون من المنافقين يحلفون ويعتذرون طالبين الصفح والعتو فعفا عنهم وصفح لكن الله عز وجل لم يعذرهم ، وكذا رسوله ﷺ إذ لا عذر لهم ولم يقعد بهم إلا نفاقهم وسوء ظنهم ، وفيهم نزل قول الله تعالى من سورة التوبة : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ — أَى لَنْ نصدقكم — قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَجْبَارِكُمْ ﴾ وقوله : ﴿ يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

هذا وهناك ثلاثة من صالحى المؤمنين تخلفوا عن المسير مع رسول الله ﷺ لا شكا ولا نفاقا ولكن كسلا وتسويفا وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية رضى الله عنهم ، أعلن الرسول الحبيب ﷺ مقاطعتهم وهجرانهم حتى ينزل الله حكمه فيهم بتعذيبه ، أو بالتوبة عليهم ، وفيهم نزل قوله تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ مَرْجُونٌ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

ودامت مقاطعتهم وهجرُ الناس لهم مدة خمسين يوماً ثم تاب الله عليهم وأنزل في توبتهم قوله : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نجم لها فى الآتى :

(١) مشروعية إعلان التعبئة العامة والنفير التام ولا يحل يومئذ لأحد التخلف إلا أن يكون من أهل الأعذار ، أو يتخلف بإذن الإمام الخاص .

- (٢) مشروعية افتتاح اكتتابات عامة لجمع المال للجهاد في سبيل الله تعالى .
- (٣) قد يقصر المجتهد ، ويتأخر المتقدم كما قيل : لكل جواد كبوة ، ولكل سيف نبوة .
- (٤) بيان رفع الحرج على ذوى الأعذار كالعمى والعرج والمرضى والعجز المالى .
- (٥) من آيات الإيمان ومظاهره لدى المؤمنين البكاء الصادق عن العجز عن السير .
- (٦) بيان أن المشبطين عن الجهاد والمرجفين بين صفوف المؤمنين لم يكونوا مؤمنين .
- (٧) بيان فضيلة أبى خيثمة وأبى ذر ، وذى البجادين وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهم أجمعين .
- (٨) بيان خمس آيات للنبوة المحمدية وأعلام لها .
- (٩) حرمة الضحك وعدم البكاء أو التباكى عند المرور بديار المعزين .
- (١٠) مشروعية قصر الصلاة في السفر ، وجواز الجمع فيه .
- (١١) مشروعية عقد الإمام الصلح مع المشركين إذا دعت الضرورة إلى ذلك .
- (١٢) بيان بطولة خالد بن الوليد وشدة بأسه في الحرب .
- (١٣) بيان فضيلة علىّ وأبى بكر وعمر رضى الله عنهم أجمعين .

وثالث أحداثها :

غزوة طيء ، وإسلام عدى

وبعث رسول الله ﷺ علياً في مائة وخمسين رجلاً من بينهم خمسون فارساً بعث بهم إلى ديار طيء حيث يوجد بها صنم يقال له (الفلس) وكان معهم راية سوداء ولواء أبيض ولما انتهوا إلى ديار طيء شنوا الغارة على محلة آل حاتم الطائي فتمكنوا من هدم الصنم ، ومن أخذ سبي وشاء ونعم ، وكان من بين السبي فاطمة أخت عدى بن حاتم الطائي . أما عدى أخوها فقد قرّ إلى الشام بمجرد أن سمع ببعث السرية إلى دياره وكان على الصنم سيفان يقال لأحدهما مخدّم ، وللآخر رسوب فأخذهما على رضى الله عنه كما وجد في خزانة عدى ثلاثة أسياف وثلاثة أدرع ، واستعمل على السبي أبا قتادة وعلى الأموال عبد الله بن عتيك ، وقسم الغنائم في الطريق ، وعزل الصفي لرسول الله ﷺ ، ووصل بنت حاتم إلى رسول الله ﷺ بالمدينة النبوية ، وكان من أمرها ما حدث به أخوها عدى فلنستمع إليه :

قال عدى وهو يقص قصة إسلامه جاءت خيل رسول الله ﷺ — يعنى سرية على — فأخذوا أختي وناساً فأتوا بهم رسول الله ﷺ فقالت أختي يا رسول الله هلك الوالد وغاب الوافد فامنن على من الله عليك !! فقال : « ومن وافدك ؟ » قالت عدى بن حاتم ، قال : « الذى قرّ من الله ورسوله » فمن عليها ، وإلى جانبه رجل قائم وهو على بن أبى طالب قال : سليه حملاًناً فسألته فأمر لها به وكساها وأعطاه نفقة ، قال عدى وكنت ملك طيء آخذ منهم المربع^(١) ، وأنا نصرانى ، فلما قدمت خيل رسول الله ﷺ هربت إلى الشام من الإسلام ، وقلت أكون عند أهل ديني ، فبينما أنا بالشام إذ جاءت

(١) المربع : ربع الغنيمة الذى كان يأخذه الرئيس في الجاهلية .

أختى وأخذت تلومنى على تركها وهربى بأهلى دونها ، ثم قالت لى : أرى أن نلتحق بمحمد سريعاً فإن كان نبياً كان للسابق فضله ، وإن كان ملكاً كنت فى عزٍّ وأنت أنت ، قال : أى حاتم فقدمت على رسول الله ﷺ فسلمت عليه وعرفته نفسى فانطلق بى إلى بيته ، فلقيته امرأة ضعيفة فاستوقفته فوقف لها طويلاً فكلمته فى حاجتها ، فقلت : ما هذا بملك ، فقال لى : « ياعدى إنك تأخذ المربع وهو لا يحل فى دينك ، ولعلك إنما يمنعك من الإسلام ما ترى من حاجتنا وكثرة عدونا ، والله ليفيظن المال فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ووالله لتسمعن بالمرأة تسير من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف إلا الله ، ووالله لتسمعن بالقصور البيض من بابل وقد فتحت » قال فأسلمت فقد رأيت القصور البيض وقد فتحت ورأيت المرأة تخرج إلى البيت لا تخاف إلا الله ، ووالله لتكونن الثالثة أى ليفيظ المال حتى لا يقبله أحد .

قال حاتم ودخلت عليه عليه ﷺ وهو يقرأ هذه الآية من سورة التوبة : ﴿ اتَّخَذُوا أَصْنَامَهُمْ وَرُءُسَاءَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ فقلت : إنهم لم يعبدوهم قال : « بلى ، إنهم حرّموا عليهم الحلال وأحلّوا لهم الحرام فاتبعوهم فى ذلك فتلك عبادتهم إياهم » .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا تذكر إزاء الأرقام الآتية :

(١) مشروعية هدم الأصنام وغزو أهلها ليدخلوا فى الإسلام ليكملوا ويسعدوا .

(٢) بيان جهل المشركين وضلالهم فى تعليقهم السلاح على أصنامهم لتدفع به عن نفسها .

(٣) بيان الكرم المحمدى ، وتقرير مبدأ أكرموا عزيز قوم ذل .

- (٤) آية النبوة المحمدية المتجلية في تحقيق ما أخبر به من الغيب .
- (٥) بيان أن طاعة العلماء والحكام في تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم هي عبادة لهم إن كان ذلك بغير إكراه .
- ورابع أحداثها :

قدوم عروة بن مسعود الثقفي على رسول الله ﷺ

عروة بن مسعود من عظماء رجالات ثقيف وهو الذي عناه المشركون في مكة بقولهم : ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ الذي حكاه القرآن عنهم في سورة الزخرف .

والرجل الثاني هلك بيدرو هو أبو جهل الذي يكنونه بأبى الحكم ويسمونه عمرو بن هشام .

وفد عروة بن مسعود على رسول الله ﷺ في هذه السنة سنة تسع وفد مسلماً وذلك بعد أن رأى قريشاً قد دخلت في الإسلام بعد فتح وهزيمة هوازن وثقيف وكان رجلاً عاقلاً فهداه الله إلى الإسلام ، فلما أتى النبي ﷺ وأسلم قال للنبي ﷺ أرجع إلى قومي وأدعهم إلى الإسلام ، فقال له النبي ﷺ : «إنهم قاتلونك» فقال عروة إني أحب إليهم من أبكارهم ، ورجا أن يوافقوه لمنزلته فيهم فلما رجع إلى الطائف ديار قومه صعد إلى عليّة له وأشرف منها عليهم وأظهر الإسلام ودعاهم إليه رموه بالنبل فأصابه سهم فقتله ، وقبل وفاته قيل له ما ترى في دمك ، قال كرامة أكرمني الله بها ، وشهادة ساقها إلى ، ليس في إلا ما في الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله مع رسول الله ﷺ فادفونى معهم ، فلما مات متأثراً بجراحاته دفنوه معهم رضى الله عنه .

ولما بلغ الخبر النبي ﷺ قال فيه : «إن مثله في قومه كمثل صاحب يسّ في قومه ، إذ دعاهم إلى خير فقتلوه» .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نذكرها كالاتي :

(١) بيان علم من أعلام النبوة المحمدية في إخباره عروة بأن قومه قاتلوه فكان كما أخبر .

(٢) بيان فضل الدعوة إلى الله تعالى وما تتطلبه من أذى وما يلزم صاحبها من الصبر والتحمل .

(٣) بيان فضل عروة بن مسعود رضى الله عنه إذ ألحقه الرسول ﷺ بصاحب يسّ وهو حبيب بن النجار عليه السلام .

وخامس أحداثها :

قدوم وفد ثقيف

وبعد قدوم الحبيب ﷺ وفي رمضان قدم وفد ثقيف على رسول الله ﷺ وقد سبق أن النبی ﷺ لما كان محاصرًا لهم قيل له : ادع الله عليهم يا رسول الله فقال : « اللهم اهد ثقيفًا وأت بهم » هذا سبب لقدمهم ، وآخر هو أنهم رأوا أن من يحيط بهم من العرب قد نصبوا لهم القتال وشنوا عليهم الغارات ، وكان أشدهم في ذلك مالك بن عوف النضري ، فلا يخرج منهم مال إلا نهب ولا إنسان إلا أخذ ، فلما رأوا عجزهم اجتمعوا وأرسلوا عبد ياليل بن عمرو بن عمير والحكم بن عمرو بن وهب وشرحبيل بن غيلان وهؤلاء من الأحلاف ، وأرسلوا من بنى مالك عثمان بن أبى العاص وأوس ابن عوف وثمير بن خَرْشَة فخرجوا حتى قدموا على رسول الله ﷺ فأنزلهم في قبة في المسجد فكان خالد بن سعيد بن العاص يمشي بينهم وبين رسول الله ﷺ ، وكان رسول الله ﷺ يرسل إليهم ما يأكلون مع خالد ، وكانوا لا يأكلون طعاما حتى يأكل خالد منه حتى أسلموا .

شروط مرفوضة :

واشترط رجال وفد ثقيف لإسلامهم شروطا هي كالتالى :

(١) أن لا يهدم النبى ﷺ طاغيتهم وهى اللات إلا بعد ثلاث سنوات فأبى عليهم ذلك ﷺ ، وكان قصدهم من هذا الشرط حتى يَسْلَمُوا إذا هى تُركت من سخط سفهائهم ونسائهم ، وتنازلوا إلى شهر واحد فلم يقبل منهم ولو ساعة من نهار .

(٢) أن يعفيهم من الصلاة ككل فأبى وقال : « لا خير فى دين لا صلاة فيه » ، فقالوا نصلى ولكن لا نُجَبِّى أى لا نركع بل نخز من القيام إلى السجود فقال ﷺ : « لا خير فى صلاة لا ركوع فيها » أو كما قال ﷺ . ولما أسلموا أمر عليهم عثمان بن عمرو بن أبى العاص وكان أصغرهم سنًا لما رأى من حرصه على الإسلام والتفقه فى الدين ، ثم رجعوا إلى بلادهم ، وأرسل ﷺ معهم المغيرة بن شعبه وأبا سفيان بن حرب لهدم الطاغية فتقدم المغيرة فهدمها ، وقام قومه من بنى متعب دونه خوفاً أن يرمى بسهم كما رمى عروة بن مسعود من قبل ، ولما أخذ فى هدمها خرج نساء ثقيف حُسْرًا^(١) يكيّن ، وأخذ حليها .

قضاء ديون من مال الطاغية :

كان للطاغية مال كثير مودع فيها فلما هدمها المغيرة وأبو سفيان بأمر رسول الله ﷺ وأخذوا مالها اتصل برسول الله ﷺ أبو مُلَيْح بن عروة بن مسعود وطلب منه أن يقضى ديناً كان على والده عروة من مال الطاغية فأجابه الرسول ﷺ لذلك وعندها قال قارب بن الأسود ، وعن الأسود يا رسول الله فاقضه ، وعروة والأسود أخوان شقيقان فقال رسول الله ﷺ : « إن الأسود

(١) أى حاسرات الرؤوس ليس عليهن غطاء .

مات مشركًا » فقال قارب يا رسول الله لكن تصل مسلمًا ذا قرابة يعنى نفسه ، إنما الدين علىّ ، وأنا مطالب به ، فأمر رسول الله ﷺ أبا سفيان أن يقضى دين عروة والأسود معًا من مال الطاغية ففعل .

عهد لابن أبي العاص :

لما أسلم وفد الطائف وأمر عليهم عثمان بن أبي العاص لصفات كمال فيه كتب لهم بذلك كتابًا . ومن جملة ما ورد فيه قوله ﷺ : « يا عثمان تجاوز في الصلاة واقدر الناس بأضعفهم فإن فيهم الكبير والصغير وذا الحاجة » .

نتائج وعبر :

إن هذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نوجزها كالآتي :

(١) بيان آية نبوية وهي استجابة دعوته ﷺ في ثقيف إذ هداهم الله وأتى

٣٠ .

(٢) بيان احترام النبي ﷺ للوفود وإكرامهم قبل أن يتبين إصرارهم على شركهم وكفرهم .

(٣) مشروعية إبطال كل شرط يتنافى مع مراد الله تعالى وشرعه بين خلقه ، وهكذا كل شرط يحل حراما أو يحرم حلالا فهو شرط باطل في أى عقد أو اتفاقية .

(٤) بيان أعظم أركان الدين بعد التوحيد وهو الصلاة وأعظم أركانها الركوع والسجود .

(٥) بيان ضعف النساء العقلى ، وبيان مدى تعلقهن بالشرك وأسبابه لجهلن وضعفن .

(٦) مشروعية قضاء الديون من بيت مال المسلمين إذا رأى الإمام ذلك .

وسادس أحداثها :

قدوم الوفود على الحبيب ﷺ

إن الوفود التى بدأت فى هذه السنة التاسعة تتوافد على رسول الله ﷺ فى دار نبوته المدينة الطيبة الطاهرة تعلن عن ولائها لله ورسوله وعن رضاها بالإسلام ودخولها فيه وفود كثيرة ذكر منها كل مؤرخ للإسلام طرفاً مما تنبأ له ولم يأت عليها أحد كلها وذلك لكثرتها .

والسبب الظاهر لهذا الحدث الكبير الذى هو كثرة الوفود فى هذه السنة بالذات هو دخول قريش زعيمة العرب فى الإسلام ، ففتح مكة ثم الطائف وغزو الروم فى تبوك لم يبق لأحد التفكير فى غلبة صاحب الرسالة والانتصار عليه بحال من الأحوال .

فلهذا أخذت وفود القبائل العربية تتوافد من اليمن والشمال والشرق والغرب وقد أخبر تعالى بهذا فى قوله : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ .

فقوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ هو الانتصارات التى تحققت لرسول الله ﷺ فى بدر وحمراء الأسد والأحزاب والحديبية وخيبر وغيرها ، والفتح هو فتح مكة والطائف وإن لم تفتح عنوة فقد جاء وفدها وسلم زمام قيادتها للقائد الأعظم الحبيب محمد ﷺ فهو فتح وأى فتح ؟

وقوله تعالى : ﴿ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ يعنى الوفود فى هذه السنة .

وها هى ذى أهم الوفود مع ذكر بعض مميزاتها وأحداثها :

(١) وفد بنى أسد : وكانوا أقوياء أشداء يسكنون شمال شرق الحجاز وعدد رجال هذا الوفد عشرة ، وقالوا لما وفدوا على رسول الله ﷺ : أتيناك قبل أن ترسل إلينا رسولاً يمينون بهذا على رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمْنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ من سورة الحجرات .

وسألو رسول الله ﷺ عن العيافة^(١) والكهانة وضرب الحصى ، فنهاهم عن ذلك .

(٢) وفد بللى : وقد نزلوا على أحد البلويين بالمدينة وهو رُوَيْفَع بن ثابت البلوى فلما رآهم قال الحمد لله الذى هداكم إلى الإسلام فكل من مات على غير الإسلام فهو فى النار .

وقبل أن يودعوا رسول الله ﷺ قال له أبو الضُّبَيْب شيخ الوفد يا رسول الله إني رجل فى رغبة من الضيافة فهل لى فى ذلك أجر ؟ قال : « نعم ، وكل معروف صنعته إلى عنيّ أو فقير فهو صدقة » وقال الرجل يا رسول الله كم وقت الضيافة ؟ قال : « ثلاثة أيام ما كان بعد ذلك فصدقة ولا يحل للضيف أن يقيم عندك حتى يُخرجك » .

ثم ودّعوا رسول الله ﷺ بعد أن أجازهم^(٢) .

(٣) وفد قميم : وقد كان عدد أفرادهم يزيد عن العشرة أنفار وكلهم من أشراف بنى تميم وعلى رأسهم عطارد بن حاجب بن زرارة بن عُدَس التميمي ، ومن بينهم الأقرع بن حابس والحجاب والزُّبْرْقَان بن بدر بن يزيد أحد بنى دارم بن مالك ، وعيينة بن حصن وقد كان عيينة والأقرع شهدا مع النبی

(١) العيافة : زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرّها .

(٢) أى أعطاهم جوائز من مال أو متاع لإكرامهم .

ﷺ فتح مكة وحنينا والطائف .

جفاء هذا الوفد وسوء أدبه :

ودخلوا المسجد النبوى ونادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته : بلفظ الجفاء وسوء الأدب قائلين : يا محمد يا محمد اخرج إلينا فأذوا بذلك رسول الله ﷺ بصياحهم ورفع أصواتهم فخرج إليهم فقالوا : يا محمد جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا قال رسول الله ﷺ : « قد أذنت لخطيبكم قليقل » فقام رئيس الوفد عطارد بن حاجب فقال : الحمد لله الذى له علينا الفضل والمنّ وهو أهله ، الذى جعلنا ملوكًا ووهب لنا أموالًا عظامًا نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثره عددًا وأيسره عدّة فمن مثلنا فى الناس ؟ ألسنا رؤوس الناس وأولى فضلهم ؟ فمن فآخرنا فليعدّ ما عدّنا ، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام ولكننا نحيا من الإكثار فيما أعطانا ، وإنا نعرف بذلك ، أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا ، وأمر أفضل من أمرنا ثم جلس ثم قال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس : « أجب الرجل » فقام ثابت فقال :

الحمد لله الذى له ما فى السموات والأرض خلقه قضى فيهن أمره ووسع كرسنيه علمه ولم يك شىء قط إلا من فضله ، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكًا واصطفى من خير خلقه رسولًا ، أكرمهم نسبًا وأصدقهم حديثًا ، وأفضلهم حسبًا فأنزل عليه كتابه وأؤمنه على خلقه فكان خيرة الله تعالى من العالمين ، ثم دعا الناس إلى الإيمان فأمن به المهاجرون من قومه وذوى رحمة أكرم الناس نسبًا وأحسن الناس وجوها ، وخير الناس فعلاً ، ثم كان أول الخلق استجابة له حين دعاه نحن ، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله نقاتل الناس حتى يؤمنوا فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه ومن كفر جاهدناه فى الله أبدًا وكان قتله علينا يسيرًا . والسلام عليكم .

ثم قالوا يا رسول الله ائذن لشاعرنا فأذن له فقام وهو الزبرقان بن بدر فقال :

نحن الكرام فلا حتى يُعادِلنا منا الملوك وفيما تنصب البيع^(١)
في ثمان أبيات .

وكان حسان بن ثابت غائباً فدعاه الرسول ﷺ ليجيب شاعرهم فحضر
وأجاب قائلاً :

إن الذوائب من فُهر وإخوتهم قد بينوا سنةً للناس تتبّع
قوم إذا حاربوا ضُروا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
في ثلاثة عشر بيتاً .

ومما لا شك فيه أن فرقاً كبيراً بين خطيب المشركين وشاعرهم ، وبين
خطيب المسلمين وشاعرهم ؛ إذ شتان ما بين من في قلبه ظلمة الشرك والكفر ،
وبين من في قلبه نور الإيمان وحكمة الإسلام والإحسان ، لذا لما فرغ حسان
قال الأقرع بن حابس إن هذا الرجل لمؤت^(٢) له ؛ خطيبهم أخطب من
خطيبنا وشاعرهم أشعر من شاعرنا ، ثم أسلموا وفيهم نزل قول الله تعالى من
سورة الحجرات : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا
يَعْقِلُونَ ﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ ﴿

(٤) وقدم وفد عبد القيس : وهى قبيلة كبيرة ينسبون إلى عبد القيس
ابن أفضى بن دعى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار . وفدوا على رسول
الله ﷺ فقال لهم : « من القوم ؟ » قالوا : من ربيعة ، قال : « مرحباً بالوفد
غير خزايا ولا ندامى » ؛ فقالوا يا رسول الله إن بيننا وبينك هذا الحى من كفار

(١) البيع جمع بيعة مواضع الصلاة .

(٢) أى لمؤتق .

مضر ، وإننا لا نصل إليك إلا في الشهر الحرام فمرنا بأمر فصل نأخذ به ومن وراعتنا ، وندخل به الجنة ، فقال : « آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع ، آمركم بالإيمان بالله وحده ، أتدرون ما الإيمان بالله ؟ : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تعطوا من المغنم الخمس ، وأنهاكم عن أربع : الدباء والحنم^(١) والنقير والمنزقة فاحفظوهن وادعوا إليهن من وراءكم » ثم قال رسول الله ﷺ : « لأشج عبد القيس : إن فيك خصلتين يجبهما الله : الحلم والأناة » .

(٥) وقدم وفد بنى حنيقة : ومن بينهم مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ إلا أن مسيلمة خلفوه في رحالهم فلم يشرف بمقابلة رسول الله ﷺ إلا أنهم أسلموا وأمر لهم بجوائز ، وذكروه له فأمر له بمثل ما أمر لهم ، ثم انصرفوا وأعطوا مسيلمة الذي أعطاه رسول الله ﷺ .

فلما قدم اليمامة ارتد عدو الله ، وادعى النبوة وتنبأ كذباً ، وأخذ يسجع ويقول . مضاهياً بقوله القرآن . لقد أنعم الله على الحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى من بين شعاف وحشا . ووضع عنهم الصلاة وأباح لهم الخمر والزنا إلى آخر هرائه العفن . وبعث إليه رسول الله ﷺ بكتاب جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله ﷺ إلى مسيلمة الكذاب . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » ردّاً على كتابه الذي بعث به إلى رسول الله ﷺ ونصه : من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله أما بعد فإنني قد أشركتكم في الأمر وليس قريش قومًا يعدلون .

(٦) وقدم وفد رسل ملوك حمير : وهم الحارث بن عبد كلال ، ونعيم

(١) الحنتم : كل أسود أو أخضر .

ابن عبد كُلال ، والنعمان قيل ذى رُعين ، ومعاfer وهمدان يبلغونه إسلام أقوامهم ، وكان رسولهم إليه ﷺ هو مالك بن مرّة الرهاوى بعث به زرعة ذو وزن إليه ﷺ فكتب إليهم ﷺ كتابًا هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله النبى إلى الحارث بن كُلال وإلى نعيم بن عبد كُلال وإلى النُعمان قيل ذى رُعين ، ومعاfer وهمدان . أما بعد ذلكم فإني أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد فإنه قد وقع بنا رسولكم منقلبًا من أرض الروم فلقينا بالمدينة فبلغ ما أرسلتم به ، وخبر ما قلتم ، وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين ، وأن الله قد هداكم بهداه إن أصلحتم أطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأعطيتم من الغنائم خمس الله وسهم نبيّه وصفيّه ، وما كتب على المؤمنين من الصدقة » . وبين لهم صدقة الزرع والإبل والبقر والغنم . ثم قال : « فمن زاد فهو خير له ، ومن أدى ذلك وأشهد على إسلامه وظاهر المؤمنين على المشركين ، فإنه من المؤمنين له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، ومن كان على يهوديته أو نصرانيتها فإنه لا يرد عنها ، وعليه الجزية على كل حالٍ ذكرًا كان أو أنثى ، حرًا أو عبدًا دينار وإف من قيمة المعافر^(١) أو عوضه ثيابًا فمن أدّى ذلك إلى رسول الله فإن له ذمّة الله وذمّة رسوله ، ومن منعه فإنه عدو لله ورسوله » .

(٧) وقدم وفد بهراء : من اليمن الجنوى ، وكان مكونا من ثلاثة عشر رجلا ، ونزلوا على المقداد بن عمرو ، وأقاموا بالمدينة أيامًا تعلموا فيها الفرائض ، وواجبات الإسلام ثم دعوا رسول الله ﷺ ، وأمر لهم كغيرهم بجوائز فأخذوها وانصرفوا إلى ديارهم .

(٨) وقدم وفد عُذرة : وكانوا اثنى عشر رجلا منهم حمزة بن النعمان ،

(١) المعافر : ثياب من ثياب اليمن .

ولما شرفوا بالمثل بين يدي رسول الله ﷺ سألهم قائلاً : « من القوم ؟ » فقال مُتَكَلِّمُهُمْ : ممن لا تنكر نحن بنو عذرة إخوة قصي لأمه ، نحن الذين عَضُدُوا قُصَيًّا وَأَزَاحُوا مِنْ بَطْنِ مَكَّةَ خِزَاعَةَ وَبَنَى بَكْرَ ، ولنا قرابات وأرحام ، فقال رسول الله ﷺ : « مرحبا بكم وأهلا ، ما أعرفني بكم » فأسلموا وبشرهم رسول الله ﷺ بفتح الشام وهرب هرقل إلى ممتنع من بلاده . ونهاهم عن سؤال الكهنة ، وعن الذبائح التي كانوا يذبحونها وأخبرهم أن ليس عليهم إلا الأضحية ، ثم أجازهم رسول الله ﷺ وانصرفوا إلى بلادهم .

(٩) وقدم وفد ذى مَرَّة : وكان مكونا من ثلاثة عشر رجلا ورئيس الوفد الحارث بن عوف ، فسألهم رسول الله ﷺ قائلاً : « كيف البلاد ؟ » قالوا والله إننا لمستنون^(١) فادع الله تعالى لنا ، فقال الحبيب ﷺ : « اللهم اسقهم الغيث » ، ثم أقاموا أيامًا ، وأجيزوا بجوائز رسول الله ﷺ ، ثم عادوا إلى بلادهم فوجدوها قد أمطرت في ذلك اليوم الذي دعاهم فيه رسول الله ﷺ .

(١٠) وقدم وفد سعد بن بكر : وكان رئيسهم ضمام بن ثعلبة فتقدم فسأل رسول الله ﷺ أسئلة انتظمت قواعد الدين وكثيرًا من الواجبات والمحرمات فأسلم ولما قفل راجعًا إلى قومه ليلغهم دعوة الله تعالى قال رسول الله ﷺ : « لئن صدق ذو العقيصتين^(٢) دخل الجنة » ، فلما قدم على قومه اجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم به قوله : بثست اللات والعزى ، فقالوا محذرين له : اتق البرص والجذام والجنون أى أن تصيبك من أجل ذمك للات والعزى ، وهما إلهان عندهم ، فقال ضمام ويحكم إنهما لا يضران ولا ينفعان ، وإن الله قد بعث محمدًا رسولًا ، وأنزل عليه كتابًا ، وقد استنقذكم به مما كنتم فيه ، وظهر لهم إسلامه ، فما أمسى في ذلك اليوم رجل مشرك ، ولا امرأة

(١) أصابتهم سنة الجذب والقحط .

(٢) غديرتين من الشعر لأنه كان أشعر أى كثير الشعر .

مشركة ، فما سُمع بوافد قوم كان أبرك ولا أفضل من ضمام بن ثعلبة .

(١١) وقدم وفد الأزد : قال سُوَيْد بن الحارث الأزدي وفدت سبع سبعة من قومي على رسول الله ﷺ فلما دخلنا عليه وكلمناه فأعجبه مارأى من سمئنا وزينا قال : « ما أنتم ؟ » قلنا مؤمنون فتبسم رسول الله ﷺ وقال : « إن لكل قول حقيقة فما حقيقة قولكم وإيمانكم ؟ » قلنا خمس عشرة خصلة ؛ خمس منها أمرتنا بها رسلك ؛ أن نؤمن بها وخمس أمرتنا أن نعمل بها ، وخمس تخلقنا بها في الجاهلية فنحن عليها إلا أن تكره منها شيئا ، فقال رسول الله ﷺ : « ما الخمسة التي أمرتكم بها رسل أن تؤمنوا بها ؟ » قلنا أمرتنا أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت . قال : « وما الخمسة التي أمرتكم أن تعملوا بها ؟ » قلنا أمرتنا أن نقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ونقيم الصلاة ونؤتي الزكاة ونصوم رمضان ونحج البيت من استطاع إليه سبيلا ، فقال : « وما الخمسة التي تخلقكم بها في الجاهلية ؟ » قالوا : الشكر عند الرخاء ، والصبر عند البلاء ، والرضا بمرّ القضاء ، والصدق في مواطن اللقاء ، وترك الشماتة بالأعداء ، فقال رسول الله ﷺ : « حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء » ثم قال : « وأنا أزيدكم خمسا فيم لكم عشرون خصلة إن كنتم كما تقولون ، فلا تجمعوها ما لا تأكلون ، ولا تنبوا ما لا تسكنون ، ولا تنافسوا في شيء أنتم عنه غدا تزولون ، واتقوا الذي إليه ترجعون ، وعليه تعرضون ، وارغبوا فيما عليه تقدمون وفيه تخلدون » ، وانصرف القوم من عند رسول الله ﷺ وحفظوا وصيته وعملوا بها .

(١٢) وقدم وفد طيء : وقدم على رسول الله ﷺ وفد طيء وعلى رأسهم زيد الخيل فلما انتهوا إلى رسول الله ﷺ كلموه وعرض عليهم ﷺ الإسلام فأسلموا وحسن إسلامهم ، وقال رسول الله ﷺ : « ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيته دون ما يقال فيه إلا زيد الخيل

فإنه لم يبلغ كل ما كان فيه » ، ثم سمّاه زيد الخير ، وقطع له قيداً^(١) وأرضين معه ، وكتب له بذلك كتابا ، فخرج من عند رسول الله ﷺ راجعا إلى قومه فقال رسول الله ﷺ : « إن ينح زيد من حمى المدينة » ، فإنه قال^(٢) ... قال وقد سماها رسول الله ﷺ غير الحمى وغير أم حلدّم ، فلم يثبت . فلما انتهى من بلد نجد إلى ماء من مياهه يقال له : فردة أصابته الحمى بها فمات ، ولما مات عمدت امرأته إلى ما كان معه من كتبه التي قطع له رسول الله ﷺ فحرقتها بالنار .

عبر ونتائج :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نجملها في الآتي :

- وفد بنى أسد : حرمة العيافة ، والكهانة وضرب الحصى .
- وفد بلى : من مات على غير دين الإسلام فهو في النار .
- وفد تميم : فضل الضيافة وأنها ثلاثة أيام ، وكل معروف صدقة .
- وفد عبد القيس : الإسلام يعلو ولا يُعلَى عليه .
- وفد بنى حنيفة : الإيمان اعتقاد وقول وعمل ، وفضل الحلم والأناة .
- وفد بنى حنيفة : بيان ردة مسيلمة الكذاب وادعائه الكاذب في النبوة .
- وفد رسل ملوك حمير : بيان أصول الدين ، وحكم الجزية ، ومن تؤخذ ، وبيان مقدارها .
- وفد عذرة : مشروعية قول مرحباً وأهلاً .

وفد عذرة : بيان آية النبوة المحمدية إذ أخبرهم بغيب فكان كما أخبر ﷺ

ليس على المسلم ذبائح تذبح إلا الأضحية .

(١) اسم مكان شرقى سلمى أحد جبال طيء .

(٢) أى لم يكتب الراوى لعدم معرفة اللفظ ولعله أم كُلبة .

وفد ذى مرّة : فيه بيان آية النبوة إذ دعا لهم رسول الله ﷺ بالغيث فسقوا في نفس اليوم .

وفد سعد بن بكر : فيه بيان كرامة ضمّام وفضله إذ أسلمت قبيلته كلها بدعوته .

وفد الأزد : فيه بيان أن لكل قول حقيقة ، وبيان عشرين خصلة هي جماع الخير كله .

وفد طيء : فضل زيد الخير وفوزه برضا رسول الله ﷺ عنه وتعديل اسمه بزيد الخير .

وسابع أحداثها :

حج أبى بكر الصديق بالناس

وفى أواخر شهر القعدة من هذه السنة سنة تسع خرج أبو بكر الصديق بإذن رسول الله ﷺ أميراً على الحج ومعه عشرون بدنة لرسول الله ﷺ وله هو خمسون بدنة ، وكان في ثلثائة رجل من أهل المدينة ، فلما كان بدى الخليفة « آبار على » على سبعة أميال من المدينة أرسل رسول الله ﷺ في أثره على بن أبى طالب ، وأمره بقراءة سورة براءة على المشركين ، فعاد أبو بكر إلى رسول الله ﷺ بالمدينة وقال يا رسول الله أنزل في شيء ؟ قال : « لا ، ولكن لا يبلغ عنى إلا أنا أو رجل منى ، ألا ترضى يا أبا بكر أنك كنت معى في الفار ، وصاحبى على الخوض ؟ » قال بلى يا رسول الله ، فسار أبو بكر أميراً على الموسم ، فأقام الناس الحج وحثت العرب والكفار على عادتهم في الجاهلية . وعلى رضى الله عنه يؤذن براءة ، فينادى يوم الأضحى قائلاً : لا يحجّن بعد العام مشرك ، ولا يطوفن بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فأجله إلى مدته . ورجع المشركون ، فلام بعضهم بعضاً ، وقالوا : ما تصنعون ، وقد أسلمت قريش فأسلموا .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نوجزها فيما يلي :

(١) فرض الحج يسقط بالعجز ، وهو على التراخي لا على الفور ؛ إذ لم يحج مع أى بكر سوى ثلثائة رجل ، مع وفرة الرجال والنساء بالمدينة يومئذ .

(٢) مشروعية تعيين أمير للحج .

(٣) فضيلة كل من أى بكر وعلى رضى الله عنهما .

(٤) مشروعية سوق الهدى ، وإرساله مع تخلف المُدّى عن الحج .

(٥) حرمة دخول الحرم على المشركين والكافرين ، ووجوب ستر العورة في الطواف .

(٦) شرف مركز قريش بين العرب ، إذ العرب تبع لها .

أهم أحداث السنة التاسعة

من هجرة الحبيب ﷺ

لقد وقعت في هذه السنة أحداث تاريخية هامة يحسن ذكر طرف منها إزاء النقاط السوداء الآتية :

- بعث الرسول ﷺ جرير بن عبد الله البجلي إلى ذى الخلصة فهدمها .
- فيها توفي إبراهيم ابن الرسول ﷺ وهو ابن ثمانية عشر شهراً ودفن بالبقيع .

- فيها طلع جبريل على النبي ﷺ والناس حوله في المسجد في صورة رجل وسأل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان ، وعن أمارات الساعة .

- فيها بعث النبي ﷺ المصدقين^(١) إلى كافة أنحاء البلاد التي أسلم أهلها .

(١) جباة الزكوات .

• فيها توفيت أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ وغسلتها أسماء بنت عميس وصفيّة بنت عبد المطلب رضى الله عنهن .

• فيها توفى رأس النفاق عبد الله بن أبى بن سلول ، وصلى عليه الرسول ﷺ ، ثم نهاه الله عن الصلاة على المنافقين مطلقا بقوله : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾ من سورة التوبة .

• فيها توفى النجاشى وصلى عليه الرسول والمؤمنون بالمدينة صلاة الغائب رحمه الله رحمة واسعة .

ودخلت السنة العاشرة

من هجرة الحبيب ﷺ

وكان من أول أحداثها :

بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد

إلى بنى الحارث بن كعب بنجران

في هذه السنة العاشرة بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد على رأس سرية ، بعثه إلى بنى الحارث بن كعب بنجران ، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثا فإن أجابوا أقام فيهم وعلمهم شرائع الإسلام ، وإن لم يفعلوا قاتلهم .

فخرج رضى الله عنه إليهم منفذا لأمر رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام فأجابوا وأسلموا فأقام فيهم يعلمهم ، وكتب إلى رسول الله ﷺ كتابا يعلمه فيه بإسلامهم .

ولما قضى فترة تعليمهم عاد إلى المدينة ومعه وفد منهم من بين أفراد قيس ابن الحصين بن يزيد بن قينان ، ويزيد بن عبد المذان وغيرهما ، فقدموا على رسول الله ﷺ ، ثم عادوا إلى ديارهم ، وأرسل إليهم رسول الله ﷺ عمرو ابن حزم يعلمهم شرائع الإسلام ، ويأخذ صدقاتهم « زكواتهم » وكتب معه كتابا ، وتوفى رسول الله ﷺ وعمرو بن حزم على نجران .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا هي كالآتي :

- (١) وجوب الدعوة إلى الإسلام .
 - (٢) وجوب تعليم من دخل في الإسلام شرائع الإسلام .
 - (٣) وجوب نصب الولاة في البلد الذى يدخل في الإسلام أو ذمة المسلمين .
- وثانى أحداثها :

وصول وفد نصارى نجران إلى الحبيب ﷺ

وفى هذه السنة العاشرة وصل وفد نجران على رأس الوفد العاقب والسيد يريدون مباهلة رسول الله ﷺ ليهلك من لم يكن على الحق فى دعواه ، إذ هم يدعون أن عيسى عليه السلام ابن الله — تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً — وأن المسيحية دين الله والرسول محمد ﷺ يقول : عيسى عبد الله ورسوله ، والدين عند الله الإسلام .

وفعلا خرج رسول الله ﷺ ومعه على وفاطمة والحسن والحسين فلما رأوهم خافوا ، وقالوا هذه الوجوه لو أقسمت على الله أن يزيل الجبال لأزالها ، ولم يباهلوه وصالحوه على ألفى حلة ثمن كل حلة أربعون درهما ، وعلى أن يضيفوا رسل رسول الله ﷺ ، وجعل لهم ذمة الله تعالى وعهده أن لا يفتنوا فى دينهم ولا يعشروا ، وشرط عليهم ألا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به . وفيهم نزل نيف وثمانون آية من سورة آل عمران ، وفيها آية المباهلة ، وبيان حقيقة عيسى وأنه عبد الله ورسوله ، ولم يكن ابن الله ، ولا بإله مع الله ؛ إذ قص عليهم نشأة عيسى ابتداءً من جدته حنة إلى ولادة مريم له صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم تسليما كثيرا .

نتائج وعبر :

- إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرا نوجزها فيما يلي :
- (١) هروب نصارى نجران من المباهلة دليل على نبوة محمد ﷺ . وصحة دينه الإسلام ، وبطلان المسيحية وألوهية عيسى عليه السلام .
- (٢) مشروعية إقرار أهل الكتاب على دينهم وإن كان باطلا لنسخه بالإسلام .
- (٣) حرمة أكل الربا والتعامل به حتى على أهل الذمة من يهود ونصارى .
- وثالث أحداثها :

قدوم وفود عديدة على الرسول ﷺ

والسنة العاشرة كالتاسعة كانت سنة وفود أيضا وها هي ذى قائمة بأسماء تلك الوفود ، وبعض أحوالها :

(١) وفد سَلَامَانَ : فى شوال وكانوا ستة عشر نفرا ، وعلى رأسهم حبيب السلاماني فأسلموا وشكوا إلى رسول الله ﷺ جذب بلادهم وقحطها ، فدعا لهم رسول الله ﷺ ، ثم أمرهم بجوائز فأخذوها وودعوا الحبيب ﷺ ورجعوا إلى بلادهم فوجدوها قد أمطرت فى نفس الوقت الذى دعا لهم فيه ، وفى نفس الساعة بالضبط فكانت آية نبوته ﷺ .

(٢) وفد غَسَّان فى رمضان من هذه السنة .

(٣) وفد عامر فى شهر رمضان منها أيضا .

(٤) وفد الأزد : وكان يتألف من بضعة عشر رجلا على رأسهم صرد ابن عبد الله فأسلموا وأمر النبي ﷺ صردًا على من أسلم من قومه ، وأمره أن يجاهد المشركين بمن معه من المسلمين . فسار صرد الأمير إلى مدينة جرش

وفيهما قبائل من اليمن فيهم خثعم فحاصروهم قريباً من شهر فامتنعوا منه فرجع حتى كان بجبل يقال له كشر فظن أهل جرش أنه منهزم فخرجوا في طلبه فأدركوه فعطف عليهم فقاتلهم قتالاً شديداً ، وقد كان أهل جرش قد بعثوا رجلين منهم إلى رسول الله ﷺ ينظران حاله فبينما هما عنده إذ قال : « بأى بلاد الله كشر ؟ وإن بدن الله لتنحر عنده الآن » فقال لهما أبو بكر أو عثمان ويحكمما إنه يعنى لكما قومكما فسألاه أن يدعو الله يرفع عنهم ، ففعل فقال : « اللهم ارفع عنهم » فخرجوا من عنده إلى قومهما فوجداهم قد أصيبوا ذلك اليوم في تلك الساعة التي ذكر فيها رسول الله ﷺ حالهم وخرج وفد جرش إلى رسول الله ﷺ فأسلموا .

(٥) وفد مراد : مع فروة بن مسيكة المرادى على رسول الله ﷺ مفارقاً لملوك كندة ، وقد كان قبيل الإسلام بين مراد وهمدان وقعة^(١) ظفرت فيها همدان وأكثروا القتل في مراد ، وكان يقال لذلك اليوم يوم الرزم^(٢) ، وكان رئيس همدان الأجدع بن مالك وفي ذلك يقول فروة :

فإن تغلب فغلابون قدما	وإن نهزم فغير مهزميننا
وما إن طبنا جبن ولكن	منايانا ودولة آخرينا
كذاك الدهر دولته سجال	تكر صروفه حيناً فحيناً
فبينما ما يُسرُّ به ويُرضى	ولو لبست غضارته ^(٣) سنيها
إذا انقلبت به كرات دهر	فألقى للألى غبطوا ^(٤) طحيننا
ومن يغبط بريب الدهر منهم	يجد ريب الزمان له خوونا

(١) معركة حرب .

(٢) موضع .

(٣) طراوته ونعمته .

(٤) استحسنت حالهم .

فلو خلد الملوك إذا خلدنا ولو بقى الكرام إذا بقينا
فأفنى ذاكم سروات^(١) قوم كما أفنى القرون الأولينا

ولما توجه فروة إلى رسول الله ﷺ قال :

لما رأيت ملوك كندة أعرضت كالرجل خان الرجل عرق نساها^(٢)
قربت راحلتى أؤم محمداً أرجو فواضلها وحسن ثرائها

فلما وصل إلى رسول الله ﷺ سأله قائلاً : « هل ساءك ما أصاب قومك
يوم الرزم ؟ » قال يا رسول الله من ذا يُصيب قومه مثل ما أصاب قومي
يوم الرزم ولا يسوؤه ذلك ؟ فقال رسول الله ﷺ له : « أما إن ذلك لا
يزيد قومك في الإسلام إلا خيراً » واستعمله رسول الله ﷺ على مراد وزُيِّد
وَمَذْحَجَ كلها ، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة فكان معه
في بلاده حتى توفي رسول الله ﷺ .

(٦) إرسال فروة بن عمرو الجذامي : رسولاً إلى رسول الله ﷺ يعلمه
بإسلامه وبعث معه بغلة بيضاء أهداها إلى رسول الله ﷺ ، وكان فروة عاملاً
للروم على من يليهم من العرب ، وكان منزله بمُعان في أرض الشام ، ولما بلغ
الروم إسلامه طلبوه فأسروه وحبسوه ليقتلوه فلما اجتمعت الروم لصلبه على
ماء لهم يقال له « عِفْرَى » بفلسطين قال :

ألا هل أتى سلمى بأن خليلها على ماء عِفْرَى فوق إحدى الرواجل
على ناقة لم يلحق الفحل أمها مشدبة أطرافها بالمناجل

فلما قدموه ليصلبوه قال :

(١) أشرافهم .

(٢) عرق مستوطن في الفخذ وهو مقصور نسا ، ومذ للوزن لا غير .

بلغ سرّاة المسلمين بأنّسى سلّم لربّي أعظمى ، ومقامى
ثم ضربوا عنقه وصلبوه فمات شهيداً من أجل إسلامه لله وجهه وقلبه .
(٧) قدوم وفد زبيد : على رسول الله ﷺ برئاسة عمرو بن معديكرب
وكان النّبى ﷺ قد استعمل على زبيد ومراد فروة بن مسيك فى هذه السنة ،
وذلك قبل قدوم عمرو عليه ، فلما عاد عمرو من عند رسول الله ﷺ إلى
بلاده أقام فى بنى زبيد ، فلما توفّى رسول الله ﷺ ارتد عمرو وقال حين
ارتد :

وجدنا ملك فروة شرّ ملك حماراً ساف^(١) منخره بئفر^(٢)
و كنت إذا رأيت أبا عمير ترى الجولاء^(٣) من حبث وغدر

(٨) قدوم وفد عبد القيس : على رسول الله ﷺ ، وفيهم الجارود بن
عمرو ، وكان نصرانياً فأسلم هو ومن معه ، وكان الجارود حسن الكلام ،
نهى قومه عن الردة بعد موت الرسول ﷺ لما ارتدوا مع الغرور المنذر بن
النعمان ، وقد كان النّبى ﷺ بعث العلاء بن الحضرمى قبل فتح مكة بعثه
إلى المنذر بن ساوى العبدى فأسلم وحسن إسلامه ، ثم هلك بعد وفاة النّبى
ﷺ وقبل ردة أهل البحرين ، والعلاء يومها أمير على البحرين من قبل رسول
الله ﷺ .

(٩) قدوم وفد كندة : برئاسة الأشعث بن قيس وكانوا ستين راكبا فقال
الأشعث نحن بنو آكل المرار وأنت ابن آكل المرار فقال النّبى ﷺ : « نحن بنو

(١) ساف أى شم .

(٢) الثفر من البهائم كالرحم من النساء .

(٣) الجولاء : جلدة ماؤها أحضر تخرج مع الولد شبه المهجو بها دناءة قذارة . لعنة الله عليه .

النضر بن كنانة لا نقفوا أَمَّنًا ، ولا ننتفى من أَيْبِنَا » ، فقال الأشعث ، والله لا أسمع رجلاً يقولها إلا ضربته ثمانين ، ولما دخلوا على رسول الله ﷺ كانوا قد رجلوا جُمَمَهُمْ^(١) وتكحلوا عليهم جُبُّ^(٢) الحِبرة وقد كففوها بالحرير فقال لهم رسول الله ﷺ : « ألم تسلموا ؟ » قالوا بلى ، قال : « فما بال هذا الحرير في أعناقكم ؟ فشقوه منها وألقوه » .

(١٠) قدوم وفد محارب .

(١١) قدوم وفد عبد عبس .

(١٢) قدوم وفد صدف : وَافَوْا رسول الله ﷺ في حجة الوداع .

(١٣) قدوم وفد الرهاويين : وهم بطن من مِذْحَج .

(١٤) قدوم وفد خولان : وكانوا عشرة أنفار .

(١٥) قدوم وفد بنى عامر : بن صَعَصَعَة فيهم عامر بن الطفيل وأربد ابن قَيْس وجبار بن سُلْمَى بن مالك بن جعفر ، وكان عامر يريد الغدر برسول الله ﷺ فقال له قومه إن الناس قد أسلموا فأسلم فقال : لا أَتَّبِعْ عَقْبَ هذا الفتى ، ثم قال لأربد إذا قدمنا عليه فأني شاغله عنك فأعله بالسيف من خلفه .

فلما قدموا جعل عامر يكلم النبي ﷺ يشغله ليفتك به أربد ، فلم يفعل أربد شيئا ، فقال عامر للنبي ﷺ لأملأها عليك خيلا ورجالا ، فلما ولى قال رسول الله ﷺ : « اللهم اكفني عامرا » ، فلما خرجوا قال عامر لأربد لم لم تقتله ؟ قال : كلما هممت بقتله دخلت بيني وبينه حتى ما أرى غيرك أفأضربك بالسيف ؟ ورجعوا فلما كانوا ببعض الطريق أرسل الله تعالى على عامر بن الطفيل الطاعون فقتله وإنه لفي بيت امرأة سلولية . فمات وجعل

(١) جمع جمعة : الشعر في مقدمة الرأس .

(٢) جمع جبة : من الثياب معروفة تصنع في اليمن .

يقول : يا بنى عامر أغدّة كغدّة البعير وموت في بيت سُلُوِيَّة ، وأرسل الله على أربد صاعقة فأحرقتة ، وكان أربد بن قيس أختا للبيد بن ربيعة لأمه .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نجملها كالآتي :

- (١) من آيات النبوة المحمدية استجابة دعائه ﷺ في موطين مرتين .
- (٢) حرمة لبس الحرير على الرجال ووجوب سرعة الامتثال لأمر الله ورسوله .

(٣) آية النبوة المحمدية في نزول الصاعقة بأربد ، والطاعون بابن الطفيل لعنة الله عليه .

ورابع أحداثها :

إرسال النبي ﷺ عليًا إلى اليمن وإسلام همدان

وفي هذه السنة العاشرة من هجرة الحبيب ﷺ بعث النبي ﷺ على بن أبي طالب إلى اليمن ، وقد كان أرسل فيه خالد بن الوليد إليهم يدعوهم إلى الإسلام فلم يُجيبوه فأرسل عليًا وأمره أن يُقِفِلَ^(١) خالدًا أو من شاء من أصحابه ففعل ، وقرأ على كتاب رسول الله ﷺ على أهل اليمن فأسلمت همدان كلها في يوم واحد ، فكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : « السلام على همدان » ، ثم تتابع أهل اليمن على الإسلام وكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ فسجد شكرًا لله تعالى .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا هي الآتية :

(١) أى يأمره بالرجوع إلى المدينة .

(١) فضيلة همدان إذ أسلموا في يوم واحد وسلم عليهم رسول الله ﷺ ثلاثا .

(٢) مشروعية سجود الشكر عند حصول النعمة .

(٣) فضيلة على بن أبى طالب إذ هدى الله على يديه ما لم يهد على يد خالد رضى الله عنهما معا .

وخامس أحداثها :

بعث النبي ﷺ أمرأء على الصدقات

إن شأن الزكاة فى الدولة الإسلامية عظيم فهى من جهة حدٌ فاصلٌ بين الكفر والإيمان ، ومن جهة أخرى فإن مصالح الدولة والأمة قائمة على المال ، والزكاة هى المورد الثابت لذلك ، فمن هنا كان النبي ﷺ يختار الأكفأ لهذه المهمة .
وها هى ذى قائمة بأسماء المصدقين أى جباة الزكاة وجامعيها ، وسميت الزكاة صدقة ؛ لأنها تدل على صدق إيمان مؤديها .

(١) المهاجر بن أمية بن المغيرة بعثه إلى صنعاء فخرج عليه العنسي وهو بها .

(٢) زياد بن لبيد الأنصارى بعثه إلى حضرموت .

(٣) عدى بن حاتم الطائى بعثه إلى طيء ، وأسد .

(٤) مالك بن ثؤيرة بعثه إلى بنى حنظلة .

(٥) الزبرقان بن بدر

بعثهما إلى بنى سعد بن زيد مناة بن تميم .

(٦) وقيس بن عاصم

(٧) العلاء بن الحضرمى بعثه إلى البحرين .

(٨) على بن أبى طالب بعثه إلى نجران ليجمع الزكاة والجزية من نصارى

نجران ، واستخلف رضى الله عنه على الجيش الذى كان معه رجلا من أصحابه

وسبقهم إلى النبي ﷺ بمكة حاجاً حجة الوداع ، فعمد الرجل المستخلف إلى الجيش فكساهم كل رجل حلة من البر^(١) الذى مع على ، فلما دنا الجيش خرج على ليلتهم فرأى عليهم الحلل فنزعها عنهم ، فشكا الجيش إلى رسول الله ﷺ فقام النبي ﷺ خطيباً فقال : « أيها الناس لا تشكوا إلى علياً فوالله إنه لأخشن في ذات الله أوفى سبيل الله من أن يُشكى » .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبراً نوجزها كالآتى :

- (١) أهمية الزكاة وجبايتها والتأثير عليها في الإسلام ودولته الرشيدة .
- (٢) مشروعية أخذ الجزية على أهل الكتاب .
- (٣) مشروعية المبادرة إلى تغيير المنكر ، إذ نزع على ما كان قد كساه خليفته أفراد الجيش بدون إذن الأمير .
- (٤) فضل على إذ أخبر النبي ﷺ أنه أخشن في ذات الله أو سبيله من أن يُشكى ، وتقبل الشكوى فيه .

وسادس أحداثها :

حجة الوداع والبلاغ

هذا الحدث ذو أهمية كبرى لما بين الحبيب ﷺ في حجته هذه من شرائع وأحكام وآداب ، وسميت حجة الوداع لأن قوله ﷺ فيها : « لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا » كان مشعراً بالوداع ، وكذلك كان ، إذ لم يعيش بعدها ﷺ إلا بضعة شهور وتوفاه الله عز وجل ، وتسمى أيضاً حجة البلاغ ، لأن الرسول

(١) الثياب من الكتان .

ﷺ بلغ فيها الكثير من الأحكام ، إنه لما دخل شهر القعدة أخذ الرسول ﷺ يتجهز وأمر الناس بالجهاز كذلك معلناً لهم أنه يريد الحج ، ولما بقى خمس ليال من شهر القعدة استعمل ﷺ على المدينة أبا دجانة أو سباع بن عُرْفُطَة الغفارى ، وخرج وخرج المسلمون معه وهو لا يريد إلا الحج ، فلما كان بوادى العقيق على سبعة أميال من المدينة نزل عليه جبريل عليه السلام بالسلام من رب العالمين ، فقال له : « إن ربك يقرئك السلام ويقول لك : إنك بالوادي المبارك فَصَلِّ فيه وقل عمرة في حجة » وخير أصحابه بين الأفراد والتمتع والقران فمنهم من أهل بحج ، ومنهم من أهل بعمرة ، ومنهم من أهل بحج وعمرة ، وساروا حتى إذا بلغوا سَرَفَ حيث جاءت عائشة رضى الله عنها العادة الشهرية فبكت وطمأنها الحبيب ﷺ بقوله : « هذا شيء كتبه الله على بنات آدم فافعلى يا عائشة كل ما يفعله الحاج إلا أنك لا تطوفين بالبيت حتى تطهرى » ، ثم أمر من لم يسق الهدى أن يجعل حجه عمرة تخفيفاً عليهم ورحمة بهم وبمن يأتى بعدهم .

ولما دخل مكة طاف بالبيت وسعى ولم يتحلل لسوقه الهدى ، وبقي بعض أصحابه مفردين وليس معهم هدى فلم يتحللوا فأمرهم بالتحلل ، وقال مُرَّغَبًا لهم : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لما سقت الهدى ، ولجعلتها عمرة » فحللوا من إحرامهم ، وسألوه : هل هذا لعامنا هذا خاصة أى التحلل بالعمرة ؟ فقال : « لا بل لأبد الأبد » ، أى يجوز لأى مسلم يأتى مفردًا بالحج وليس معه هدى أن يفسخ الحج إلى عمرة .

ومكثوا بمكة محلين حتى يوم التروية فأحرموا بالحج وخرجوا إلى منى وباتوا بها وبعد صلاة الصبح من يوم عرفة (تاسع الحجة) خرجوا إلى عرفة وعلم أثناء ذلك الناس مَنَاسِكُهُمْ وَسُنَنَ حَجَّهِمْ ، وخطب خطبة بعرفة لم يُسمع مثلها في طولها ولما اشتملت عليه من الشرائع والهدى . وهذه جل فقراتها فلتقرأ وليؤقف عند كل جملة منها فإنها كواكب هدى تضيء للمسلم الدجى . فقد

حمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله وقال :

« أيها الناس اسمعوا قولي : فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدًا .

أيها الناس إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت . فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون قضى الله أنه لا ربا ، وإن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله . وإن كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان مستوضعا فى بنى ليث ، فقتلته هذيل فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية .

أما بعد أيها الناس فإن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبدًا ولكن أن يطغ فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم . أيها الناس إن التسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا ، يحلون عامًا ويحرمونه عامًا ، ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ، ويحرموا ما أحل الله . وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية ، ورجب مضر^(١) الذى بين جمادى وشعبان .

أما بعد أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقًا ولهن عليكم حقًا ، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه ، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن

(١) قيل إنما قال ذلك لأن ربيعة كانت تحرم رمضان وتسميه رجبًا فيبين ﷺ أنه رجب مضر لا رجب ربيعة .

ضربًا غير مبرح^(١) فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف واستوصوا بالنساء خيرًا فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئًا ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله ، فاعقلوا أيها الناس قولي ، فإنني قد بَلَغت . وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا ، أمرًا بينًا كتاب الله وسنة نبيّه .

أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه تعلَّمْن أن كل مسلم أخٌ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرئٍ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت ؟ !!! » .

فقال الناس : اللهم نعم فقال رسول الله ﷺ : « اللهم فاشهد » .
« أيها الناس إن الله قد أدّى إلى كل ذي حق حقه ، وإنه لا تجوز وصية لوارث والولد للفراش وللعاهر الحجر ، ومن ادّعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل » .

وإنه ﷺ بعد أن زالت الشمس وصلى بالناس وخطبهم أتى جبل عرفة فوقف في سَفحه وقال : « وقفت ها هنا وعرفة كلها موقف » ، ولما غربت الشمس ، ركب إلى مزدلفة ، فوصلها بعد العشاء جمعًا ، وبات بها ، ولما طلع الفجر ، صلى الصبح ، ووقف على جبل قزح وقال : « وقفت ها هنا ، ومزدلفة كلها موقف » ، ولما أسفر جدًّا أتى الجمرة فرماها ثم المنحر فنحر ثم قال : « نحرنا ها هنا ومنى كلها منحر » ، ثم أفاض من يومه وعاد إلى منى ، فبات بها ثلاث ليال يرمى الجمرات الثلاث بعد زوال كل يوم ، يبدأ بالصغرى ، ويختم بالكبرى وخطب أيام منى وعلم كل ما الأمة في حاجة إليه إلى يوم الدين ، ولذا كانت هذه الحجة تسمى حجة البلاغ كما تسمى حجة الوداع ؛ لأنه ﷺ ودّع أمته فيها إذ لم يحج بعدها ، فصلى الله عليه وسلم يوم وُلد ، ويوم دعا وجاهد ، ويوم حج واعتمر . ويوم ودّع مات فالتحق بالرفيق الأعلى في جنة عرضها السموات والأرض .

(١) أى غير شديد فلا يكسر عضوًا ولا يشين جارية .

نتائج وعبر :

إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نسجلها إزاء الأرقام الآتية :

(١) وقوع حجة الوداع بعد تطهير الحرم من الشرك والمشركون دال على حصاد جهاد دام نيفًا وعشرين سنة ، وفي هذا عبرة لمن يعتبر .

(٢) بيان أن وادى العقيق مبارك ، وأنه ميقات أهل المدينة إذ ذو الحليفة على شاطئه الأيمن .

(٣) مشروعية الإهلال بأى نسك من الأنسك الثلاثة . الأفراد ، والتمتع ، والقران .

(٤) بيان أن الحائض لا يمنعها الحيض من الإحرام ، إذ تفعل كما يفعل الحاج إلا أنها لا تطوف حتى تطهر وتغتسل .

(٥) من مظاهر الرحمة المحمدية الإذن بفسخ الحج إلى عمرة ، تيسيرًا وتسهيلاً على الأمة .

(٦) مشروعية الحرص على مخالفة اليهود والنصارى والمشركون ؛ إذ كان المشركون يعدون الاعتار في أشهر الحج من أفجر الفجور ، وكانوا يقولون : إذا برأ الدبر ، وعفا الأثر ، وانسلخ صفر ، حلت العمرة لمن اعتمر ، فلذا أمر النبي ﷺ أصحابه بالتحلل والاعتار ولما تردد أصحابه في ذلك غضب حتى أذعنوا لأمره وتحللوا رضى الله عنهم .

(٧) بيان باقى المناسك عملياً ؛ إذ كان يقول : « حجوا كما رأيتموني أحج » .

(٨) الإعلان عن حقوق المسلم ، وأنه محرم الدم والمال والعرض .

(٩) الإعلام عن تحريم الظلم والربا ، وكل عادات الجاهلية .

(١٠) الإعلان عن حقوق النساء ، والأمر بالاعتراف بها وأدائها ، وكذا حقوق الزوج على زوجته .

(١١) تحريم الوصية للوارث ، وتقرير قانون التوارث كما في القرآن الكريم .

(١٢) حرمة التبنى والانتساب إلى غير الموالى .

(١٣) تقرير أن الولد ينسب إلى من ولد على فراشه ، وأن العاهر لا حق له فيه ، وإنما له الرجم بالحجارة إذا اعترف بالزنى .

ودخلت السنة الحادية عشرة

من هجرة الحبيب ﷺ

وكان أول أحداثها :

بعث جيش أسامة

إلى الشام

إن آخر بعث في الجهاد الحمدي هو بعث أسامة بن زيد الحب بن الحب رضي الله عنهما .

ففى المحرم وبعد العودة من حجة الوداع رأى النبي ﷺ أن يبعث بعثاً إلى الشام وأن يكون أسامة بن زيد الشاب الذى لم يتجاوز من العمر ثمانى عشرة سنة هو قائد هذا الجيش الذى عقد لواءه رسول الله ﷺ ، وأمره أن يوطىء الخيل تخوم اللقاء ، والداروم من أرض فلسطين . وتكلم بعض طاعناً فى أسامة لصغر سنه فأجابهم رسول الله ﷺ بقوله : « إن تطعنوا فى إمارة أسامة فقد طعنتم فى إمارة أبيه من قبل » ، وذلك لكون كل من زيد وأسامه ولده مولئى وليس بسيد .

وتجهز الناس للخروج ، وفى هذا الجيش كبار المهاجرين والأنصار كأبى بكر وعمر وغيرهما ، وبينما الناس فى التجهيز والإعداد للخروج إذا برسول الله ﷺ يبتدئه مرضه الذى قبض . فوقف الجيش فى انتظار شفاء الحبيب ﷺ ، ولم يمض إلا أسبوع واحد ويقبض رسول الله ﷺ ، ويلتحق بالرفيق

الأعلى ، ويبقى جيش أسامة في انتظار ما يحدث بخصوصه ، وولى أمر المسلمين أبو بكر وأنفذ جيش أسامة كما أراد رسول الله ﷺ وأحب ، وذلك نزول من الصديق على رغبة الحبيب في تنفيذ ما يحب فرضى الله عن أبي بكر ما أَرْضاه وأَوْفاه فاللهم اجعل الجنة مأوانا ومأواه .

نتائج وعبر :

- إن لهذه المقطوعة من السيرة العطرة نتائج وعبرًا نوجزها في الآتي :
- (١) بيان مواصلة الرسول ﷺ الجهاد حتى آخر يوم من حياته .
 - (٢) جواز إسناد قيادة الجيوش إلى الشاب الكفء المقتدر إذا كان في قيادته ذوو الرأي والمشورة من كبار السن من كهول وشيوخ .
 - (٣) بيان أن الطبع البشرى لم يتبدل فقد طعن في إمارة زيد وإمارة أبيه وفي حضرة الرسول ﷺ .
 - (٤) بيان كمال أبي بكر الصديق ، وصادق وده وعظيم طاعته لرسول الله ﷺ حيًا وميتًا وذلك بإنفاذه جيش أسامة وفي أصعب الظروف وأشدّها حلوكَة .

خاتمة الجهاد

المحمدى

بيان عدد غزواته ﷺ

وسراياه

لقد غزا ﷺ ستًا أو سبعا وعشرين غزوة في خلال سنوات هجرته العشر .
بأشر القتال بنفسه في تسع غزوات منها ، وهى : بدر الكبرى ، وأحد ،
والخندق ، وقریظة ، والمصطلق ، وخيبر ، والفتح ، وحنين ، والطائف ،
وباقى الغزوات أعدها وحضرها إلا أنه لم يباشر القتال فيها بنفسه وإنما بواسطة

أصحابه رضوان الله عليهم وهى : ودّان وهى الأبواء ، ثم بُواط ، ثم العُشيرة ،
ثم بدر الأولى ، ثم غزوة بنى سُليم ، ثم غزوة السويق ، ثم غزوة غطفان ،
ثم غزوة نجران بالحجاز ، ثم حمراء الأسد ، ثم بنى النضير ، ثم ذات الرِّقاع ،
ثم بدر الآخرة ، ثم غزوة دومة الجندل ، ثم غزوة بنى لحيان ثم غزوة ذى قَرَد .
وأما سراياه ﷺ فقد بلغت نحوًا من خمس وثلاثين سريةً وبعثًا وقد مرت
هذه السرايا والبعوث ، وتلك الغزوات مفصلة واحدة بعد أخرى فى سنوات
الهجرة العشر المباركة ، والحمد لله أولاً وآخراً .

وآخر أحداثها وأجلها :

مرض الحبيب ﷺ ووفاته

بداية مرضه ﷺ :

في أوائل شهر ربيع الأول ، وفي يوم الأربعاء بالذات بدأ وجع الحبيب ﷺ فأصابه صداع وحُمى . وقبل هذه البداية المؤلمة ببعض الأيام خطب ﷺ الناس فنعى إليهم نفسه وهم لا يشعرون . إذ صعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله وقال : « إن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ذلك العبد ما عند الله » . فبكى أبو بكر فعجب الناس من بكائه . بكى لأنه فهم أن الخير هو رسول الله ﷺ ، وقال ﷺ : « إن من أمن الناس على في صحبته وماله أبا بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن أخوة الإسلام ومودته ، لا يقينن في المسجد باب إلا سدّ إلا باب أبى بكر » .

وفي جوف الليل يوقظ رسول الله ﷺ مولاه أبا مويهبة ويقول : « يا أبا مويهبة إني قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع فانطلق معي » ، فلما وقف بين أظهرهم قال : « السلام عليكم يا أهل المقابر ليهنكم ما أصبحتم فيه بما أصبح الناس فيه . أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع أولها آخرها . الآخرة شر من الأولى » . ثم أقبل على أبى مويهبة وقال : « يا أبا مويهبة إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ، ثم الجنة فحيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة » ، فقال له أبو مويهبة بأبى أنت وأمى فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها والجنة ، فقال : « لا والله يا أبا مويهبة لقد اخترت لقاء ربي والجنة » . ثم استغفر ﷺ لأهل البقيع ثم انصرف . فبدأ برسول الله ﷺ وجعه الذى قبض فيه ، إذ دخل على عائشة بعد رجوعه من البقيع

فوجدتها تشكو صداً وتقول : وارأساه ! فقال : « بل أنا والله يا عائشة وارأساه !! » ثم قال لها : « وما ضرك لومتّ قبلي ففقت إليك وكفنتك ، وصليت عليك ودفنتك » فقالت عائشة والله لكأنني بك لو قد فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك . قالت عائشة رضى الله عنها فتبسم رسول الله ﷺ وتنام به وجهه ، وهو يدور على نسائه حتى استعز به وهو في بيت ميمونة فدعا نساءه فاستأذنهن أن يمرض في بيتي فأذن له .

في بيت عائشة :

وبعد أن أذن له أمهات المؤمنين في أن يمرض في بيت عائشة رضى الله عنها خرج ﷺ يمشى بين رجلين من أهله هما العباس وعليّ وهو عاصب رأسه تخط قدماه حتى دخل بيت عائشة رضى الله عنها ، ثم حُمي ﷺ واشتد به الوجع ، فقال : « هريقوا على سبع قرب من ماء حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم » ، قالت عائشة فأقعدناه في مخضب لحفصة بنت عمر ثم صبّ عليه الماء حتى طفق يقول : « حسبكم حسبكم !! » ثم خرج إلى الناس فصلي بهم وخطبهم ، ثم ازداد مرضه فقال : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » فقالت عائشة إن أبا بكر إذا قام مقامك لا يسمع الناس من البكاء ، فمرّ عمر فليصل بالناس ، وكررت عليه عائشة القول فكرر الإجابة حتى قالت عائشة لحفصة ، قولى له : إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء فمر عمر فليصل بالناس ، فقالت له فقال ﷺ : « مَهْ إنكن لأتننّ صواحب يوسف ، مروا أبا بكر فليصل بالناس » ، فقام أبو بكر يصلى بالناس ، ووجد النبي ﷺ من نفسه خفةً فخرج بين رجلين العباس وعليّ لصلاة الظهر فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر فأوماً إليه أن لا يتأخر ، وقال للرجلين : « أجلساني إلى جنبه » ، فأجلساه إلى جنب أبى بكر ، فكان أبو بكر يصلى وهو قائم بصلاة رسول الله ﷺ وهو قاعد والناس يصلون بصلاة أبى بكر .

وفي مرضه هذا قال لعائشة : « ما زلت أجد أَلَمَ الطعام ^(١) الذى أكلت بخير فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم » .

ولما كان يوم الخميس وقبل وفاته ﷺ بأربع ليال اجتمع عنده ناس من أصحابه فقال : « ائتوني بكتف ^(٢) ودواة أكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده أبدا » ، فتنازعوا عنده وأخذوا يردون عليه ، فقال : « دعوني فى الذى أنا فيه خير مما تدعونى إليه » ، وأوصاهم بثلاث : فقال : « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب ، وأجيزوا الوفود بنحو ما كنت أجيزهم » ، وسكت عن الثالثة .

ولما كان يوم الاثنين الذى قبض فيه ﷺ ، والناس فى صلاة الصبح وأبو بكر يصلى بالناس لم يفجأهم إلا رسول الله ﷺ يكشف ستر حجرة عائشة فينظر إليهم وهم صفوف فى الصلاة ، ثم تبسم يضحك ، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف وظن أن رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة ، وهم الناس أن يفتنوا فى صلاتهم فرحاً برسول الله ﷺ ، فأشار إليهم بيده أن أتموا صلاتكم ثم دخل الحجرة وأرخى الستار ، وانصرف الناس وهم يرون أن النبى ﷺ قد أفاق من وجعه فرجع أبو بكر إلى أهله بالسبح . ودخل عبد الرحمن بن أبى بكر وفى يده سواك وأنا مسندة رسول الله إلى صدرى فرأيت أنه ينظر إليه ، وعرفت أنه يحب السواك فقلت آخذه لك ؟ فأشار أن نعم ، فتناولته فاشتد عليه ، فقلت أليته لك ؟ فأشار برأسه أن نعم فليتته بأمره فاستن به ، وهو مستند إلى صدرى ، وبين يديه ركوة ماء فجعل يدخل يده فى الماء فيمسح بها وجهه ويقول : « لا إله إلا الله ، إن للموت لسكرات » وآخر

(١) يعنى ﷺ الشاة المسمومة التى قدمت له بخير وأكل منها فلم تضره فى ذلك الوقت . واستمر الداء كامنا حتى ظهر فى هذه الأيام ، وقد مات أحد أصحابه لما أكل منها كما تقدم فى فتح خير ، والأبهر عرق فى الإنسان إذا انقطع هلك صاحبه .

(٢) عظم الكتف يكتب عليه .

كلمة قالها^(١) : « اللهم الرفيق الأعلى » .

ومن سفهى وحداثة سنّى أن رسول الله ﷺ قد قبض فى حجرى ، ثم وضعت رأسه على وسادة ، وقمت ألتدم^(٢) مع النساء وأضرب وجهى . وكانت تقول رضى الله عنها . إن من نعم الله على أن رسول الله ﷺ توفى فى بيتى وفى يومى وبين سحرى^(٣) ونحرى ، وأن الله جمع بين ريقى وريقه ؛ أن كَيْتَ له السواك فاستاك به .

وتوفى رسول الله ﷺ يوم الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة من الهجرة المباركة ، وفى مثل الوقت الذى دخل فيه المدينة .

فيوم الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع ولد فيه وأوحى إليه فيه ، ووصل دار الهجرة فيه وتوفى فيه ، ولذا كان يصومه ﷺ ويقول : « يوم الاثنين ولدت فيه وأوحى إلىّ فيه » .

اشتداد الكرب وكمال الصديق :

وما أن علم الناس بوفاة الرسول ﷺ حتى طاشت عقولهم ، وعمتهم الحيرة وأقعدتهم الدهشة وأظلمت الحياة فى وجوههم حتى أن عمر على جلالته قام يحلف للناس بأن الرسول ما مات حتى جاء أبو بكر من السنح فدخل على رسول الله ﷺ فوجده مسجّى فى ثوب جبرة فكشف عن وجهه وقبله وبكى ، ثم قال : بأبى أنت وأمى طبت حيًا وميتًا ، والذى نفسى بيده لا يذيقك الله الموتين أبدًا ، ثم خرج وعمر يكلم الناس ، فقال : اجلس يا عمر

(١) أخرجاه فى الصحيحين .

(٢) تلطم خدّها من شدة الواقعة .

(٣) أى ورأسه ﷺ بين ثغرة نحرها وهو سَحَرُها ونهاية حلقها وهى منتهى الذقن .

فَأَبَى أَنْ يَجْلِسَ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ النَّاسَ وَتَرَكَوْا عَمْرًا . فَحَمِدَ اللَّهُ تَعَالَى وَأَثْنَى عَلَيْهِ ،
 وَقَالَ : أَمَّا بَعْدُ فَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا فَإِنْ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ
 اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ ، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾
 وَقَالَ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَئِنْ مَاتَ أَوْ
 قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ ، فَنَشَجَ النَّاسُ يَبْكُونَ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : وَاللَّهِ
 لَكُنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذِهِ الْآيَةَ حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ فَتَلَقَّاهَا النَّاسُ
 مِنْهُ كُلُّهُمْ ، فَمَا أَسْمَعَ بَشَرًا مِنَ النَّاسِ إِلَّا يَتْلُوهَا .

غسل الحبيب وكفنه ودفنه :

ولما فرغ الصديق وفرغ الأصحاب من البيعة ، وبويع لأبي بكر الصديق
 بالخلافة لرسول الله ﷺ على أمته أقبلوا على تجهيز الحبيب ﷺ فتولى غسله
 آل البيت وهم على بن أبي طالب ، والعباس بن عبد المطلب ، والفضل وقثم
 ابنا العباس ، وأسامة بن زيد وشقران مولى رسول الله ﷺ ، وكان العباس
 وولده يقبلانه ، وأسامة وشقران يصبان الماء وعلى يغسله بيده فوق ثيابه ،
 فلم يفيض بيده إلى جسده الطاهر قط فلم ير من رسول الله ﷺ ما يرى
 من الميت ، وكان على يغسله ويقول بأبي أنت وأمي ما أطيبك حيًّا وميتًا ،
 وكفن رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب ، ثوبين صُحَارِيِّينَ وَبُرْدِجَبَرَةَ أَدْرَجَ
 فِيهَا إِدْرَاجًا .

ومن آيات نبوته ﷺ أنهم اختلفوا هل يغسلونه كما يغسل الرجال بَأَنْ يُجَرَّدَ
 مِنْ ثَوْبِهِ ، فَأَخَذَهُمُ النَّوْمُ وَهُمْ كَذَلِكَ ، وَإِذَا بَهَاتَفَ يَقُولُ : غَسَّلُوا رَسُولَ
 اللَّهِ ﷺ وَعَلَيْهِ ثِيَابُهُ فَفَعَلُوا ، وَلَمَّا أَرَادُوا دَفْنَهُ اخْتَلَفُوا فِي مَوْضِعِ دَفْنِهِ ، فَجَاءَ
 أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَا قَبِضَ نَبِيٌّ
 إِلَّا دُفِنَ حَيْثُ قَبِضَ » . فَرَفَعَ فَرَاشَهُ ﷺ وَحَفَرَ فِي مَوْضِعِهِ ، وَكَذَلِكَ بَأَنْ
 حَفَرَ لَهُ أَبُو طَلْحَةَ الْأَنْصَارِيُّ لَحْدًا ، ثُمَّ دَخَلَ النَّاسُ أَرْسَالًا يَصِلُونَ عَلَيْهِ فِرَادَى

الرجال ، ثم النساء ، ثم الصبيان ، ثم العبيد ، ولما فرغوا من الصلاة عليه دفن ﷺ وذلك ليلة الأربعاء ، وكان الذى نزل فى قبره على بن أبى طالب ، والفضل وقثم ابنا العباس وشقران ، وأثناء ذلك قال أوس بن حولى الأنصارى لعلّى : أنشدك الله وحظنا من رسول الله ﷺ أى أن تأذن لى فى النزول إلى قبر رسول الله ﷺ فأذن له بالنزول فى القبر معهم فنزل ، وسووا عليه التراب ورفعوه مقدار شبر عن الأرض .

وقبض رسول الله ﷺ ، وعمره ثلاث وستون سنة ، ولم يخلف من متاع الدنيا ديناراً ولا درهماً ، بل مات ودرعه مرهونة فى كذا صاعاً من شعير ، فصلى الله عليه وسلم يوم ولد ويوم مات ويوم يبعث حياً .

بكاء ودموع على فراق الحبيب ﷺ

لا أحبُّ أن أثير شجون المؤمنين والمؤمنات ، ولا أن أهيج نفسى بالبكاء الذى لا يجدى ؛ بلى يُجدى إذ يطفىء نار أحشاء تلتهب ، ولكن كيف أواصل الحديث والقلب جريح ، والعين تذرف والدمع منهمر فلذا نكتفى بتسجيل دالية حسان بن ثابت شاعر رسول الله ﷺ فإنها تعبر عن حزن وألم ودموع كل مؤمن ومؤمنة فى هذه الحياة .

قال رضى الله عنه وأرضاه :

<p>بطيبة رسم للرسول ومعهده ولا تمحى الآيات من دار حرمة وواضح آثار وباقي معالم بها حجرات كان ينزل وسطها معارف لم تطمس على العهد آياها</p>	<p>منيرٌ وقد تعفو الرسوم وتهمد بها منبر الهادى الذى كان يصعد وربع له فيه مصلى ومسجد من الله نور يستضاء ويوقد أتاها البلى فالآى منها تجدد</p>
--	--

عرفت بها رسم الرسول وعهده
 ظللت بها أبكى الرسول فأسعدت
 تذكرن آلاء الرسول وما أرى
 مفجعةً قد شفها فقد أحمد
 وما بلغت من كل أمرٍ عشيره
 أطالت وقوفاً تذرف العين جهدها
 فبوركت يا قبر الرسول وبوركت
 وبورك لحدّ منك ضمن طيباً
 تهيل عليه التراب أيدٍ وأعينٌ
 لقد غيوا حلماً وعلماً ورحمةً
 وراحوا بحزنٍ ليس فيهم نبهم
 يكون من تبكى السماوات يومه
 وهل عدلت يوماً رزيةً هالكٍ
 تقطع فيه منزل الوحي عنهم
 يدل على الرحمن من يقتدى به
 إمامٌ لهم يهديهم الحق جاهداً
 عفوٌ عن الزلات يقبل عُذرهم
 وإن ناب أمرٌ لم يقوموا بحمله
 فيبناهم في نعمة الله بينهم
 عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى
 عطوفٌ عليهم لا يُثنى جناحه
 فيبناهم في ذلك الثور إذ غدا
 فأصبح محموداً إلى الله راجعاً
 وأمست بلاد الحرم وحشاً بقاعها

وقبرا بها واره في التراب ملحد
 عيونٌ ومثلاها من الجفن تسعد
 لها محصياً نفسى فنفسى تبلد
 فظلت لآلاء الرسول تعدد
 ولكن لنفسى بعد ماقد توجد
 على طلل القبر الذى فيه أحمد
 بلادٌ ثوى فيها الرشيد المسدد
 عليه بناءً من صفيح منضد
 عليه وقد غارت بذلك أسعد
 عشية علوه الثرى لا يوسد
 وقد وهنت منهم ظهورٌ وأعصد
 ومن قد بكته الأرض فالتاس أكمد
 رزية يوم مات فيه محمد
 وقد كان ذا نورٍ يغور وينجد
 وينقذ من هول الخزايا ويرشد
 معلّم صدق إن يطيعوه يسعدوا
 وإن يحسنوا فالله بالخير أجود
 فمن عنده تيسير ما يتشدد
 دليلٌ به نهج الطريقة يقصد
 حريص على أن يستقيموا ويهدوا
 إلى كنفٍ يحنو عليهم ويمهد
 إلى نورهم سهمٌ من الموت مقصد
 يبيكه حقّ المرسلات ويحمد
 لغيبة ما كانت من الوحي تعهد

إلى أن قال :

فبَكَى رسول الله يا عين عبرة
ومالك لا تبكين ذا النعمة التي
فجودى عليه بالدموع وأعولى
وما فقد الماضون مثل محمد

ولا أعرفنك الدهر دمعك يجمدُ
على الناس منها سابع يتغمَّدُ
لفقد الذى لا مثله الدهر يوجد
ولا مثله حتى القيامة يفقد

إلى أن قال :

أقول ولا يُلقى لقولى عائبُ
وليس هوائى نازعًا عن ثنائه
مع المصطفى أرجو بذاك جواره

من الناس إلا عازب العقل مبعدُ
لعلّى به فى جنة الخلد أنخلدُ
وفى نيل ذاك اليوم أسعى وأجهد

الذات المحمدية

إن الحبيب صلوات الله وسلامه عليه بشر إلا أنه أكمل البشر وأفضلهم ،
وواهب كماله وفضله هو الله جل جلاله ، وتعالى جده . وعظم سلطانه .
ومن هنا كان الكمال المحمدى ، ذاتًا وصفات عطاء إلهيًا لا يسامى رسول
الله فيه ، ولا يقوى القلم على رسم حقيقته ، ولم يخطئ من قال فى هذا
الشأن .

وما مثلوا صفاتك للناس إلا كما مثل النجوم المساء
وقد وصف الحبيب محمدًا ﷺ بعض من أصحابه ومواليه وآل بيته ، وكل
واصف لم يعد الحقيقة بل لم ينته إليها ، وذلك لعجزه وعدم قدرته على رسم
الصورة الحقّة للذات المحمدية .

وبناء على هذا الذى قلنا فإننا نكتفى بوضع رسم أمام القارئ كان قد
رسمه أعلم أصحابه به ، وألصقهم بجنابه ؛ لأنه فرع دوحته ، وبعل ابنته ،
وأبو حسّنيه ؛ هو على بن أبى طالب رضى الله عنه وأرضاه إذ يقول :

الرسم الكريم لمحمد الحبيب ﷺ

كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل ولا القصير ، فخم الرأس واللحية ، شثن^(١) الكفين والقدمين ، ضخم الكراديس^(٢) ، مشربا وجهه حمرةً ، طويل المسربة^(٣) ، إذا مشى تكفأ تكفأ كأغما ينحط من صبب^(٤) ، لم أر قبله ولا بعده مثله ، وكان أدعج^(٥) العينين ، سبط الشعر ، سهل الخدين ، ذا وفرة ، كأن عنقه إبريق فضة .

وإذا التفت التفت جميعاً ، كأن العرق في وجهه اللؤلؤ الرطب لطيب عرقه وريحه .
وخاتم النبوة بين كتفيه ، وهو بضعة لحم ناشزة^(٦) حولها شعر طيب جميل .

كانت تلك صورة رسول الله ﷺ رسمها أبلغ أصحابه بياناً وأفصحهم لساناً ، ومن أصدقهم لهجة ، وأكثرهم تحرياً للحقيقة والصواب ، فلو أراد المصورون اليوم وقد لعنهم الله على لسان رسوله ، لو أرادوا أن يرسموا صورة لمثل رسول الله ﷺ والله ما قدروا ولو اجتمعوا لذلك ، ولكانوا كاذبين ،

(١) أى ممتلئ لحم الكفين والقدمين .

(٢) ألواح الأكتاف .

(٣) شعر الصدر .

(٤) أى الانحدار .

(٥) أسود العينين .

(٦) أى مرتفعة .

وملعون من كذب على رسول الله ﷺ فيما تخيلوه ورسموه . وبلغنى وأنا أكتب هذه الرسالة فى السيرة الحمديّة العطرة أن منظمة ما فى بلد ما رسمت صورة فى شكل تمثال وقالوا : هذا محمد ﷺ فكّر عليها رجال سفارة خادم الحرمين الشريفين فهدموها وحطموها فجزاهم الله خير الجزاء ، وحفظ الله خادم الحرمين وحكومته التى تذب عن الإسلام ، وتدفع عن حرّمات شرائعه أصولاً وفروعاً آمين .

أسماء الذات الحمديّة

إن لكل ذات اسمًا أو أسماء تعرف بها من بين سائر الذوات ، وهذا أمر مقرر فى جميع الشرائع ، ومستقر فى النفوس ، وملازم للفطرة ، ومقبول لدى العقول وبقدر شرف الذات وسموها وكأها تكثر أسماؤها وصفاتها ، حتى تجل عن الحصر فإن لله تعالى مائة اسم إلا اسمًا ، وقد ذكرت فى القرآن متفرقة وذكرت فى السنة مجملة .

وأما الحبيب ﷺ فإن له خمسة أسماء ، وليس هذا لغيره من سائر إخوانه الأنبياء فضلاً عمن دونهم ، وقد جاء ذكر أسمائه الخمسة فى حديث مالك فى موطئه وهى : محمد ، وأحمد ، والمقفى ، والعاقب ، والحاشر .

وأما صفاته ﷺ مثل نبيّ الرحمة ، ونبيّ الملحمة ، ونبيّ التوبة فهى كثيرة جدًّا ويطول ذكرها ، وقد كتب قدر منها فى الجدار القبلى لمسجده ﷺ . وما كان ينبغى أن تكتب أسماؤه وصفاته على الجدران والحيطان ، وإنما على ألواح الذهب ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

مَالُهُ عَلاَقَةٌ
بالذات المحمدية
كالزوجات والأولاد والموالى
والممتلكات له كالمراكب وأنواع السلاح

(١) أزواجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

أجمل ابن الكلبي كما ذكر ذلك ابن الأثير القول في زوجات الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال : تزوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خمس عشرة امرأة ودخل بثلاث عشرة منهن ، وجمع بين إحدى عشرة منهن ، وتوفي عن تسع منهن رضى الله عنهن .

وتفصيل ذلك كالآتي :

تزوج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أول من تزوج خديجة بنت خويلد ، وكانت قبل تحت عتيق بن عائذ بن عبد الله بن مخزوم فمات عنها وتزوجها بعده أبو هالة ابن زرارة بن النبَّاش التميمي ، فولدت له هند بن أبي هالة ، ثم مات عنها فتزوجها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهى أم أولاده كافة إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية جاريتها التى أهداها إياه الملك المقوقس ملك القبط وهو بالمدينة النبوية .

ثم تزوج عائشة بنت أبى بكر الصديق وكانت صغيرة السن فلم يبين^(١) بها حتى هاجر إلى المدينة وهاجرت أسرتها الكريمة . ثم تزوج صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكة سودة بنت زمعة وهى ثيب ؛ إذ كانت تحت السكران بن عمرو أخى سهل بن عمرو ، وكان قد هاجر إلى الحبشة فتنصر ومات بها كافراً ، فزوجه بها والدها زمعة بن قيس ، وخطبتها له خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون فدخل بها بمكة وأصدقها أربعمئة درهم .

(١) بنى بها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعمرها تسع سنين ومات عنها وعمرها ثمان عشرة سنة .

ثم تزوج حفصة بنت عمر بن الخطاب ، وكانت قبله تحت حُثَيْسِ بن حذافة السهمي وأمهرها ﷺ أربعمائة درهم ، ثم تزوج أم سلمة بنت أبي أمية المخزومية وكانت عند أبي سلمة بن عبد الأسد شهيد أحد رضى الله عنه .

ثم تزوج زينب بنت خزيمة أم المساكين ، وكانت عند الطفيل بن الحارث بن عبد المطلب ، وماتت عند رسول الله ﷺ ولم يمِث في حياته من نساءه ﷺ إلا هي وخديجة قبلها . ثم تزوج جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعية من بنى المصطلق ، وكانت عند مالك بن صفوان المصطلقى ولم تلد له شيئا ،

ثم تزوج أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب وكانت عند عُبَيْد الله بن جحش وهو من مهاجرة الحبشة وتنصر ومات بها فأرسل النبي ﷺ إلى النجاشي فخطبها عليه وتزوجها وهى بالحبشة وتولى عقد نكاحها خالد بن سعيد بن العاص ، ودفع مهرها النجاشي ، وكان أربعمائة دينار واسم أم حبيبة رَمْلَة .

ثم تزوج زينب بنت جحش وكانت عند زيد بن حارثة مولاه ، فزوجه الله تعالى بها ، وبعث في ذلك جبريل ، فكانت رضى الله عنها تفخر على نساء رسول الله ﷺ وتقول : أنا أكرمهن ولياً وسفيراً ، وهى أول من توفى من زوجات الرسول ﷺ بعد وفاته ، فقد توفيت في خلافة عمر رضى الله عنهما وأرضاها ، ثم تزوج صفية بنت حيى بن أخطب النضرية وكانت قبله عند سلام بن مشكم فمات عنها وخلفه عليها كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق فقتل في خيبر ، ثم أعتقها رسول الله ﷺ وتزوجها لأنها كانت من سبى خيبر ،

ثم تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية وكانت قبله تحت عمير بن عمرو الثقفى ثم تزوجها بعد عمير أبو زهير بن عبد العزى ، ثم تزوجها رسول الله ﷺ بعده ، وهى خالة عبد الله بن عباس رضى الله عنهما تزوجها رسول الله ﷺ في عمرة القضاء عقد عليها بمكة بعد التحلل من العمرة ، وبنى بها بسرِف .

كما تقدم بناؤه في عمرة القضاء . ثم تزوج شراف بنت خليفة الكلبي وتوفيت قبل أن يبنى بها وهى أخت دحية بن خليفة الكلبي رضى الله عنه . ثم تزوج امرأة

من بنى كلاب وتوفيت قبل البناء بها ، ثم تزوج الشَّبَاء بنت عمرو الغفاريَّة فلما مات ابنه إبراهيم قالت : لو كان نبياً ما مات ولده فطلقها ، ثم تزوج عربية بنت جابر الكلابية فلما قدمت عليه ﷺ استعادت بالله منه ففارقها وقال : « منيع عائذ الله » . ثم تزوج العالية بنت ظبيان فبنى بها ثم فارقها ووردها إلى أهلها لعله كانت بها .

المذكورات هن النسوة اللاتي تزوجهن رسول الله ﷺ ذكرناهن تفصيلاً لا إجمالاً . وأما السَّراى^(١) فلم يكن له ﷺ سوى مارية بنت شمعون القبطية وريحانة بنت زيد القرظية أو النضريَّة .

ومما ينبغي أن يقال هنا ويعلم أن النبي ﷺ لم يتزوج بكراً قط إلا عائشة رضى الله عنها ، وكان زواجه بها إكراماً لوالدها الصديق الوفيّ والأخ الصادق الأخوة الذى آزره منذ اللحظات الأولى فى دعوته وحمل رسالته . وبهذا يتبين بوضوح لذى العقول والبصائر أن النبي ﷺ لم يتزوج امرأة من نسائه الثلاث عشرة اللاتي بنى بهنّ لمجرد الرغبة فى الاتصال الجنسيّ ، وإنما كان لأهداف سامية وغايات شريفة لم يسم إليها غير الحبيب محمد ﷺ . فقد تزوج خديجة بعد رغبتها فى الزواج منه لتكون قاعدة دعوته ، وأمينة سيره ، ومأوى نفسه عند اشتداد الخوف به وحلوة الأيام والليالي عليه . وتزوج أم حبيبة وأم سلمة وسودة وميمونة وأم المساكين وهن أرامل مرملات إيوائاً لهن لما فقدن أزواجهن ، ولما أصابهن من عذاب واضطهاد فى ذات الله تعالى .

وزوجه ربّه تبارك وتعالى زينب بنت جحش وهو كاره لذلك خاشع من أن يقول الناس : محمد تزوج امرأة زيد الذى تبّناه . وتزوج حفصة بنت عمر الثيب إكراماً لعمر وتحقيقاً لرغبته فى أن تكون بنته فى بيت النبوة الطاهر

(١) جمع سرية : الجارية يتسرى بها مالئها ، وإن ولدت تكون أم ولد فلا يحل بيعها كإمارة أم إبراهيم .

وتصبح حفصة بنت عمر من أمهات المؤمنين . وإذا لم يكرم رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب من أصحابه فمن يكرم إذا ؟

وتزوج صفية وجويرية مسحاً لدموعهما وإذهاباً لحزنهما لموت زوجيهما في معركة قتال دارت بين رسول الله ﷺ وبين رجالهما .

وهكذا ما تزوج رسول الله ﷺ لغير الله ، ولا بدون إذن من الله ورضاه .
إلا قاتل الله الطاعنين في الكمال الحمدي ، وقطع ألسنة الجاهلين ببيغافات أعداء الإسلام من يهود ونصارى ومجوس ومشركين الذين يهرفون بما لا يعرفون .

(ب) أولاده ﷺ :

إن النبي ﷺ مثله مثل غيره من أنبياء الله ورسله إذ كانت لهم أزواج ، وكان لهم أولاد من بنين وبنات وهذا من الكمال لا من النقصان قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ^(١) رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ وقال تعالى في خطابه إياه ﷺ ﴿ فَبِهَذَا هُمْ ^(٢) أَقْنَدُهُ ﴾ . ومن هنا تزوج رسول الله ﷺ ما سبق بيانه من النساء اللائي شرفهن الله تعالى بصحبة نبيه وخليله محمد ﷺ إلا أنه لم يُنجب من نسائه إلا اثنتان هما خديجة بنت خويلد الأسدية القرشية ، ومارية بنت شمعون القبطية المصرية ، فخديجة أنجبت من الذكور : القاسم ، وعبد الله والطيب أو الطاهر وماتوا صغاراً لم يبلغ الحدث منهم أحد ، وماتوا ودفنوا بمكة قبل الهجرة ، وأنجب من الإناث زينب ، ورقية وأم كلثوم ، وفاطمة وكلهن كبرن وتزوجن . فزينب تزوجت من أبي العاص بن الربيع ، ورقية وأم كلثوم تزوجهن عثمان بن عفان واحدة بعد واحدة ، وتوفاهن الله تعالى عنده ، وفاطمة تزوجها علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأنجبت الحسن

(١) من سورة الرعد .

(٢) من سورة الأنعام واقتده زيدت فيه هاء السكت .

والحسين وهما أصل الأشراف في العالم الإسلامي إلى اليوم وبعد اليوم إذ بارك الله تعالى في نسلهما كرامة الله لآل البيت .

ومارية القبطية أنجبت إبراهيم ومات هو ورضيع لم يفظم بعد ودفن بالبقيع كما دفنت كل من أم كلثوم ورقية بالبقيع وكذا فاطمة رضي الله عنها . هؤلاء هم أبناء النبي ﷺ وبناته فعلى جميعهم السلام .

(ج) موالى الحبيب ﷺ :

إن المراد من الموالى أولئك الأرقاء الذين عتقهم رسول الله ﷺ وشرفوا بخدمته يوماً من الدهر ، وهذه قائمة بأسمائهم :

● زيد بن حارثة الكلبي وولده أسامة بن زيد وهما الحبّ وابن الحبّ رضي الله عنهما .

● ثوبان ويكنى بأبي عبد الله أصابه من السّراة ، سكن حمص بعد وفاة رسول الله ﷺ ومات بها .

● شقران واسمه صالح قيل إنه من الحبشة وقيل من الفرس ، وغالب الظن أنه من الفرس الذين كانوا يسكنون اليمن من بقايا الجيوش التي دخلت اليمن من الفرس في الجاهلية قبل الإسلام كما تقدم بيانه في هذه الرسالة .

● أبو رافع واسمه إبراهيم القبطي كان لآل العباس فأسلم ووهبه العباس لرسول الله ﷺ فأعتقه وزوجه فأنجب أولاداً وكان ينحت القداح ، وكان كاتباً ، واستكتبه على رضي الله عنهما .

● سلمان الفارسي الأصبهاني كان مملوكاً في آخر أيامه قبل الإسلام ليهودي فكاتب اليهودي وأعانه رسول الله ﷺ حتى عتق .

● سفينة^(١) وكان لأم سلمة فأعتقته واشترطت عليه خدمة رسول الله

(١) يسمى سفينة لأنه كان في سفر فكان الرجل إذا أعيأ يرمى عليه درعه أو سيفه فيحمل ذلك =

ﷺ مدة حياته ، فقبل بالشرط ونفّذه ، فخدم رسول الله ﷺ وشرف بذلك وباليتنى كنت أنا وأمي وأولادى خدمًا لرسول الله ﷺ مدة حياته .

• أنسَة ويكنى أبا مَسْرُوح وهو من مولدى السراة ، وكان يأذن^(١) على رسول الله ﷺ إذا جلس ، توفى فى حياة أبى بكر رضى الله عنه .

• أبو كبشة واسمه سُلَيْم اشتراه الرسول ﷺ وأعتقه وشهد بدرًا والمشاهد كلها وتوفى يوم استخلف عمر رضى الله عنه .

• رُوَيْفَع ويكنى أبو مويهبة كان من مولدى مزينة اشتراه النبى ﷺ وأعتقه .

• رباح الأسود ، وكان يأذن على رسول الله ﷺ فى المجلس وهو الذى أخذ الإذن لعمر حتى دخل على رسول الله أيام آلى من نسائه .

• فضالة اليماني نزل الشام .

• مِدْعَم ، قتل بواذى القرى بسهم عاثر أى بسهم لا يُعرف من رماه به .

• أبو ضُمَيْرَة قيل كان من الفرس أصابه رسول الله ﷺ فى بعض الوقائع وأعتقه .

• يسار وكان نوبياً أصابه رسول الله ﷺ فى بعض غزواته فأعتقه وهو الذى قتله العرنيون الذين أغاروا على لقاح النبى ﷺ .

• مهران مولاة حدث عن النبى ﷺ .

• حُتَيْن مولى رسول الله ﷺ وهو جد إبراهيم بن عبد الله بن حنين كان يخدم رسول الله ﷺ ويوضّئ ثم وهبه رسول الله ﷺ لعمه العباس فأعتقه .

• زيد أبو يسار راوى حديث^(٢) : « من قال : أستغفر الله الذى

= فقال له رسول الله ﷺ : « أنت سفينة » فلقب بسفينة .

(١) بمعنى يستأذن فى الدخول لمن أراد أن يدخل على رسول الله ﷺ ، وفى الكلام لمن أراد أن يكلمه ﷺ .

(٢) رواه أبو داود والترمذى ووصفه بالقرابة .

لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفر له ، وإن كان فرّ من الزحف .
 • كركرة كان على ثقل النبي ﷺ في بعض غزواته ومات وهو غالّ
 عباءة فقال النبي ﷺ هو في النار .
 • كيسان راوى حديث : « إنا أهل بيت نهيّا أن نأكل الصدقة » وراه
 البغوى .

• أبو بكرة نويفع الثقفى تولى بكرة من حصن الطائف فأعتقه رسول
 الله ﷺ مع أعبد كانوا معه ، وطلب أهل الطائف بهم بعد إسلامهم فلم يردهم
 رسول الله ﷺ إليهم وقال : هم عتقاء الله .
 (د) إماء رسول الله ﷺ :

وكان للحبيب ﷺ إماء كثيرات منهن :
 • بركة أم أيمن وأم أسامة بن زيد فازت بحضانة النبي ﷺ مع والدته
 آمنة كان قد زارها أبو بكر وعمر بعد وفاة رسول الله ﷺ فبكت أمامهما
 فقالا لها : أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ ؟ فقالت : بلى
 ولكنى أبكى لأن الوحي قد انقطع من السماء فجعلنا يبكيان رضى الله عنهم
 أجمعين .

• خولة خادمة^(١) رسول الله ﷺ .

• رَضْوَى بنت كعب .

• ريحانة بنت شمعون القرظية أو النضرية .

• سانية مولاة رسول الله ﷺ .

• سلمى أم رافع امرأة أبى رافع .

(١) ويقال خدام وهو أفصح ، وخادمة أقرب إلى فهم الناس اليوم .

- ميمونة بنت سعد روى عنها أصحابه الستة .
- عنقودة أم مليح الحبشية جارية عائشة كان اسمها عَنبَة فسمّاها رسول الله عنقودة .
- أم عياش بعثها رسول الله ﷺ مع ابنته تخدمها حين زوّجها عثمان رضى الله عنه .

• ميمونة بنت أبى عسيب راوية حديث : « ضعى يدك اليمنى على فؤادك فامسح به وقل : بسم الله ، اللهم داوئى بدوائك ، واشفنى بشفائك وأغننى بفضلك عمن سواك » حيث طلبت دعوة من رسول الله ﷺ يسكن بها قلبها وتطمئن بها نفسها ، فقال لها رسول الله ﷺ : « قولى » الحديث ... هؤلاء مواليه وهم خدمه أما مواليه وخدمه من الأحرار^(١) فأفضل الصحابة كأبى بكر الصديق فقد خدمه واعتزّ بخدمته ، فلذا من خدمه من أصحابه لا يقلون عن عدد الموالى من خدمه بل هم أكثر^(٢) . فصل اللهم على نبيك وصفيك وخيرتك من خلقك محمد وعلى آله وصحبه ومواليه ومن آمن به واهتدى بهداه إلى يوم الدين .

(هـ) كتابه ﷺ :

إن من صفات الكمال الحمدي الأمية إذ بها نعت في الكتب الأولى . ومعناها :

أنه لا يقرأ في كتاب ولا يكتبه ، إذ لو كان كذلك لارتاب المبطلون فكانت الأمية صفة كمال له دون غيره من سائر الناس .

(١) من أشهر من خدم رسول الله ﷺ من الأحرار أنس بن مالك الأنصارى قال خدمت رسول الله ﷺ عشر سنوات ما قال لى فى شىء فعلته لم فعلته ؟ ولا فى شىء تركته لم تركته ؟ وذلك لكمال خلقه ﷺ .

(٢) اختلف فى عدد الصحابة وهم ما بين الستين ألفا إلى ١٢٠ ألفا .

ومن هنا كان لابد من كتاب يكتبون له ﷺ الوحي النازل إليه من ربه تعالى وغير الوحي مما لا بد من كتابته كالوثائق والعهود السياسية وكمراسلة الملوك والرؤساء ، لإبلاغ دعوة الله عز وجل . وللحبيب ﷺ كتاب كثيرون هذا طرف منهم :

- أبو بكر الصديق .
- عمر بن الخطاب .
- عثمان بن عفان .
- علي بن أبي طالب .
- خالد بن سعيد .
- أبان بن سعيد .
- العلاء بن الحضرمي .
- أبيّ بن كعب وهو أول من كتب له بالمدينة .
- زيد بن ثابت ، وقد أمره أن يتعلم العبرانية^(١) فتعلمها كتابة وقراءة في نصف شهر لا غير .
- عبد الله بن سعد بن أبي السرح ، ثم ارتد وعاد إلى الإسلام يوم الفتح وحسن إسلامه .
- حنظلة الأسديّ .
- الزبير بن العوام حوارى رسول الله ﷺ وابن عمته .
- خالد بن الوليد المخزومي صاحب المواقف البطولية في الجهاد .
- ثابت بن قيس بن شماس .
- عامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق رضى الله عنهما .

(١) لغة اليهود الدينية والسياسية .

- عبد الله بن أرقم بن أبي الأرقم المخزومي .
 - عبد الله بن زيد بن عبد ربّه صاحب رؤيا الأذان .
 - محمد بن سلمة الأنصاري .
 - معاوية بن أبي سفيان ، وكان يكتب بين يدي رسول الله ﷺ .
 - المغيرة بن شعبة الثقفي راوى حديث المسح على الخفين .
- (و) أسماء خيله ﷺ :

إن تسمية الدواب من إنسان وحيوان وغيرهما أمر مقرر في الشرع والعقل إذ لا نعرف الذات إلا بسمه أى علامة تدل عليها ، ومن ذلك كان تسمية الأشياء .

وللحبيب ﷺ خيل يركبها للجهاد عليها لا للفخر والمباهاة ؛ إذ ذلك شأن أبناء الدنيا . وأما الحبيب ﷺ فقد كان أرقى البشر فكراً وأرجحهم عقلاً وأصفاهم ذهنًا وأطهرهم روحًا وأزكاهم^(١) نفساً ، فكيف يكون للدنيا ابناً وهي بئست الأم . ومن خيول النبي ﷺ التي عرفت بأسمائها ما يلي :

• السَّكْبُ وهو أول فرس ملكه ، وغزا غزوة أحد عليه ، وسُمي بالسكب لأنه كثير الجري .

- مُلاح .
- المُرتَجَز .
- اللَّحيف أهداه إليه ربيع بن أبي البراء .
- الظُّرْب أهداه إليه فروة بن عمرو الجذامي .
- الورد أهداه إليه تميم الداري فوهبه ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(١) لا فرق بين الروح والنفس إلا تلوين العبارة للبيان .

• اللزاز أهداه إليه المقوقس كما أهدى إليه مارية وبغلة « الدلدل » .

(ز) أسماء بغال الحبيب ﷺ :

لقد كان للنبي ﷺ بغلتان الأولى الدلدل وهي بغلة بيضاء أهداها إليه المقوقس ملك القبط ، وهي أول بغلة رُويت في الإسلام والثانية « فضة » أهداها إليه قهروة بن عمرو فوهبها ﷺ إلى أبي بكر الصديق وكان له حمار واحد يقال له يعفور أو عففر أهداه إليه المقوقس ملك القبط .

(ح) أسماء إبلة ولقاحه ومناخه ﷺ :

أما الركائب من الإبل فلم يكن له سوى القصوى ويقال لها العضباء والجذعى أيضا أخذها من أبي بكر بأربعمائة درهم . وهاجر عليها من مكة إلى المدينة ، وبقيت معه مدة طويلة . وأما اللقاح فكان له عشرون لقحة ترعى بالغابة وهي التي أغار عليها العرنيون ومنهن الحسناء والسمراء والعريس والسعدية والبغوم^(١) ، واليسيرة والرياء ، ومهرة ، والشقراء كان يأتي لبنها أهلها كل ليلة .

وأما المناخ^(٢) فقد كان له ﷺ سبع مناخ من الغنم وهي . عجوة ، وزمزم ، وسقيا ، وبركة ، وورسة ، وأطلال ، وأطراف . كما له سبع أعنز كان يرعاهن أيمن بن أم أيمن مولاة رسول الله ﷺ .

(ط) أسماء سلاح الحبيب ﷺ :

من أشهر سلاحه ﷺ سيفه « ذو الفقار » الذي غنمه يوم بدر ، وكان لمنبه بن الحجاج ، وغنم من بني قينقاع ثلاثة أسياف ، هي القلى ، والبتار ،

(١) البغام : صوت الإبل .

(٢) جمع منيحة : الشاة تعطى لأجل لبنها .

والخيف ، وكان له سيف يُدعى المخزم وآخر يسمّى رسوب ، وكان له بمكة سيفان قدم بهما المدينة وحمل أحدهما معه إلى بدر وهو القضب .

وأما الرماح والقسيّ فقد كان له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاثة رماح ، وثلاث قسيّ إحداها تسمّى الروحاء والثانية البيضاء والثالثة الصفراء .

وأما الدروع فقد كان له ثلاثة دروع الأولى تسمى الفضة غنمها من بنى قينقاع والثانية تسمى ذات الفضول ، كانت عليه يوم أحد مع الفضة والثالثة الصعدية . وكان له ثُرسٌ واحد فيه تمثال رأس كبش فكرهه لذلك فأصبح وقد أذهبه الله تعالى عنه ، وكان له قضيب يُسمّى المشوق .

هذا ويقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى نظرًا إلى ما صح من قول عليّ وخبر الصحابة أن النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مات ولم يترك دينارًا ولا درهماً ، وأن درعه مرهونة في ثلاثين صاعًا من شعير أن جميع ما ذكر من العبيد والإماء والحيوان والسلاح قد انجز التصديق به قبل موته ، وهو كذلك ، وكيف وقد قال :

« إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة »

الخصائص المحمدية

إن للحبيب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خصائص اختصه الله تعالى بها لكمالها الذاتي والروحي لم تكن لغيره من أفراد أمته . وهذا طرف منها :

(١) النبوة : فليس لأحد بعده أن يدعيها ، أو تكون له بحال لأن الله تعالى ختم بنبوته سائر النبوات وبرسالته سائر الرسالات قال تعالى : ﴿ وَلَكِنْ رَسُولٌ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ ﴾ من سورة الأحزاب فمن ادعى النبوة معه كمسيلمة الكذاب أو بعده فهو كاذب كافر يستتاب فإن تاب وإلا قتل كفرًا .

(٢) الوحي : فليس لأحد بعده أو معه أن يدعى أنه أوحى إليه بكذا أو يوحى إليه في كذا لا يقظة ولا منامًا ، لا بالإلقاء في الروح ، ولا بهتاف ملك

فضلا عن رؤية الملك والتلقى عنه ، وذلك لانقطاع الوحي بموت النبي ﷺ ، ولكمال الشريعة وتمامها ، وعدم حاجتها إلى إكمال أو إتمام ، فمن ادّعى الوحي ، وإن قل فهو كافر يعامل معاملة مدعى النبوة .

(٣) نوم العيين دون القلب : فهذا من خصائصه ﷺ ؛ إذ هو الذى تنام عينه ولا ينام قلبه ، خصوصية أخبر بها له ﷺ فلم تكن لغيره فمن ادعاها فهو كاذب مفتر لا تقبل منه دعواه .

(٤) إباحة الله تعالى له نكاح أكثر من أربع زوجات : وعدم إباحة ذلك لغيره من سائر رجال أمته ؛ إذ قال : ﴿ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتُ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ وكان تحته تسع نسوة يوم نزلت هذه الآية . هذا له ولأتمته قال تعالى : ﴿ فَاتَّكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ فلم يحل لهم أكثر من أربع ، فكانت الزيادة على الأربع من خصائص النبي ﷺ .

(٥) وصال الصيام : إذ من خصائصه ﷺ مواصلة الصوم فيصوم يومين متتاليين لا يفطر إلا في نهاية اليوم الثانى ، ولم يؤذن لأحد من أمته فى ذلك وقد قيل له فى ذلك فقال : « إني لست كأحدكم ؛ أتى أبيت عند ربى يطعمنى ويسقبنى » رواه الشيخان ، والإطعام والسقي هنا معنويان على حد قوله فى المريض : « لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب فإن الله يطعمهم ويسقيهم » .

(٦) حرمة أكل الصدقة : ويشاركه فى هذه الخصوصية آل بيته دون سائر أفراد أمته فإنه يحل لأى فقير ومحتاج أن يأكل الصدقة ويطلبها إن احتاج إليها إلا رسول الله ﷺ وآل بيته .

(٧) قيام الليل : فإنه ﷺ كان يقوم الليل على سبيل الوجوب لقوله تعالى : ﴿ فَمِ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ وقوله : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ﴾

بخلاف أفراد أمته فقيام الليل ليس واجبا على أحد منهم ، وإنما يقومونه تطوعا ونافلة لا غير .

(٨) عدم إرثه ﷺ : فما تركه كان صدقة ، فلم ترث فاطمة نصفها ، ولا أزواجه أمهات المؤمنين ثمنهن ، ولا العباس العاصب ما أبقت الفرائض ، بل قال ﷺ : « إنا معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة » وقوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ فليس المراد منه إرث المال بل النبوة والملك ؛ إذ لا يخير تعالى في مقام الإنعام والتكريم بأن ولدًا ورث والدًا فيما ترك من مال إن هذا أمر معلوم بين سائر الناس ، ولا فضل فيه لأحد على آخر .

(٩) هبة النكاح : وهي من خصائصه ﷺ فأَيما امرأة وهبت نفسها للنبي ﷺ له أن يتزوجها بدون مهر يقدمه لها ، ولم يكن هذا لأحد من أفراد أمته قط إذ لا بد للنكاح من مهر معجلا أو مؤجلا ، إلا ما كان لرسول الله ﷺ لقوله تعالى : ﴿ وَامْرَأَةٌ مُؤْمِنَةٌ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . ومن لم تهب له نفسها فعليه أن يدفع لها مهرًا ، وقد أمهر الكثير من نسائه أربعمئة درهم .

(١٠) حرمة نكاح نسائه بعده : وليس هذا لأحد سواه قال تعالى : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ فلا يحل لمؤمن أن يتزوج امرأة من نساء النبي ﷺ اللاتي توفى عنهن بخلاف أفراد أمته من علماء وصلحاء وكلهم أولياء فلا يحل لأحدهم أن يمنع امرأته من الزواج بعده إلا أن تشاء هي ذلك فلها ما شاءت ما شاء الله تعالى لها ذلك .

المعجزات المحمدية

إن المراد من المعجزات : ما يعجز البشر عن الإتيان بمثله فيكون ما يأتي به النبيّ معجزاً لغيره من سائر الناس ، بحيث لم يقدرُوا عليه أفراداً أو جماعات لأنه خارج عن طوق البشر واستطاعتهم ، فإن قُرِنَ بالتحدى كان المعجزة الخاصة بالأنبياء ، وإن لم يقرن بتحدٍّ فهو كرامة يكرم الله تعالى بها من يشاء من أوليائه وصالحى عباده . إذ الفرق بين المعجزة والكرامة أن المعجزة تكون مقرونة بالتحدى غالباً والكرامة خالية من ذلك ؛ لأن المعجزة قائمة مقام قول الله تعالى : « صدقوا النبيّ فيما يخبر به عنى » ، فالمعجزة مثبتة للنبوّة مقررة لها ؛ إذ بها يعرف النبيّ الحق من المدّعى الكاذب .

ولفظ المعجزة غير وارد فى القرآن الكريم ، وإنما الوارد لفظ الآية ؛ لأنّ الأصل فى الآية العلامة الدالة على الشئ ، إذ يقول الإنسان لأخيه : فلان يقول لك أعطنى كذا أو كذا ، فيقول له : ما آية ذلك أى ما علامته أنه قال أعطه كذا أو كذا ؟ فيريه خاتمه أو كتابه أو سيفه أو أى شئ خاص به فيكون ذلك آية وعلامة على صدق ما ادعاه وطالب به .

ومن القول الشائع عند الناس قولهم : لا نبىّ إلا بالمعجزات ، ولا ولى إلا بالكرامات وهو قول فى الجملة صحيح ..

هذا وللحبيب محمد ﷺ معجزات أكرمها الله تعالى بها ، وصدق رسالته بمثلها بلغت الألف معجزة ، هكذا قرر أهل العلم إن لم تكن أكثر من ذلك وها نحن نورد ما يحضرنا منها :

وأولى تلك المعجزات أو الآيات :

القرآن الكريم

لأنه كلام الله تعالى أوحاه إليه فدل ذلك على نبوته ، وصدقه في رسالته ؛ لأن القرآن الكريم معجز بحروفه وكلماته وتراكيبه ، ومعانيه ، وأخبار الغيوب التي وردت فيه ، فكانت كما أخبر ، كما هو معجز بالأحكام الشرعية والقضايا العقلية التي لا قبل للبشر بمثلها ، مع التحدى القائم إلى اليوم بأن يأتي الإنس أو الجن متعاونين بمثله قال تعالى موحيه ومنزله : ﴿ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ من سورة الإسراء ، وتحدى العرب أرباب الفصاحة والبلاغة والبيان على أن يأتوا بعشر سور مثله فما استطاعوا قال تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ ﴾ وتحداهم بسورة واحدة من مثله فقال : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ نفى لقدرتهم على الإتيان بسورة مثل القرآن في مستقبل الأيام ، وقد مضى حتى الآن ألف وأربعمائة سنة وسبع سنين ، ولم يستطع الكافرون أن يأتوا بسورة من مثله . وبهذا كان القرآن معجزة خالدة باقية ببقاء هذه الحياة ، ولذا سيخلد الإسلام ويبقى إلى نهاية الحياة ، لأن معجزته باقية كذلك .

وثانية المعجزات :

انشقاق القمر

فقد روى أحمد والبخارى ومسلم في صحيحهما أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقّين . قال مطعم انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين ، فرقة على هذا الجبل ، وفرقة على هذا الجبل ، فقالوا سحرنا محمد وأنزل الله تعالى مصداق ذلك وهو قوله تعالى : « أَفْتَرَبْتِ

السَّاعَةَ وَالنَّشْقَ الْقَمَرُ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ ﴿١﴾ من سورة القمر .

وثالثة المعجزات :

نزول المطر بدعائه

لقد أمحلت البلاد ، وأصابها قحط شديد فدخل^(١) رجل المسجد ورسول الله ﷺ قائم على المنبر يخطب فاستقبل الرجل النبي ﷺ وقال يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله لنا يغيثنا ، فرفع رسول الله ﷺ يديه فقال : « اللهم اسقنا ، اللهم اسقنا ، اللهم اسقنا » ، قال أنس : والله ما في السماء من سحب ولا قرعة ولا شيء ، وما بيننا وبين سلع^(٢) من بيت ولا دار فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس ، فلما توسطت السماء انتشرت ، ثم أمطرت ، والله ما رأينا الشمس سبتاً . ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة ورسول الله ﷺ قائم يخطب فاستقبله الرجل ، وقال يا رسول الله هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ادع الله يُمسكها فرفع رسول الله ﷺ يديه ، ثم قال : « اللهم حولينا ولا علينا ، اللهم على الآكام^(٣) والجبال ومنابت الشجر » . قال أنس فانقطعت وخرجنا نمشي في الشمس .

فهذه المعجزة وهي نزول المطر بدعائه ﷺ قد كررت مرات عديدة وهي معجزة سماوية كانشقاق القمر لا دخل لغير القدرة الإلهية فيها ، وهي آية نبوته ﷺ ولكثرة تكرار هذه الآية كانوا يرددون قول أبي طالب فيه :

وأبيض^(٤) يُستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

(١) رواه البخارى وغيره .

(٢) جبل داخل المدينة النبوية اليوم .

(٣) جمع أكمة تل صغير أو كدية من تراب .

(٤) أى رسول الله ﷺ .

ورابعة المعجزات :

نبوع الماء من بين أصابعه

ﷺ

ومن معجزات الحبيب ﷺ الدالة على نبوته وصدق رسالته نبوع الماء من بين أصابعه الشريفة ، فقد قال أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ : رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر ، والتمس الناس الوضوء^(١) ، فلم يجدوه فاتى رسول الله ﷺ بوضوء فوضع رسول الله ﷺ يده في ذلك الإناء ، وأمر الناس أن يتوضأوا منه فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه ، فتوضأ الناس حتى توضأوا من عند آخرهم . قال قتادة : قلت لأنس كم كنتم ؟ قال زهاء ثلثمائة رجل .

فهذه معجزة ظاهرة ؛ إذ ليس في طوق البشر أن يأتوا بمثلها ؛ إذ لم تجر سنة الله في الكون أن الماء ينبع من بين أصابع الإنسان مهما كان إلا أن تكون آية تدل على صدق نبوة من ادعاها . فقد كانت هذه آية نبوته ﷺ ؛ إذ وقعت في سوق المدينة العاصمة وحضرها وشهدها قرابة الثلثمائة رجل من أصدق الرجال وأذكاهم ، وأتقاهم .

وخامسة المعجزات :

فيضان ماء بئر الحديبية^(٢)

ومن معجزاته ﷺ أنه لما كان بالحديبية هو وأصحابه سنة ست من الهجرة وكان الحديبية بئر ماء فنزحها أصحابه بالسقى منها حتى لم يبق فيها ما يملأ كأس ماء وكانوا ألفاً وأربعمائة رجل ، وخافوا العطش فشكوا ذلك إليه ﷺ

(١) الوضوء بفتح الواو الماء يتوضؤ به .

(٢) مكان يبعد عن مكة بنحو عشرين ميلاً .

فجاء فجلس على حافة البئر فدعا بماء فجىء به إليه فتمضمض منه ، ومج ما تمضمض به في البئر فما هي إلا لحظات ، وإذا البئر فيها الماء فأخذوا يسقون فسقوا وملأوا أوانهم وأدوات حمل الماء عندهم وهم كما تقدم ألف وأربعمائة رجل وهم أهل بيعة الرضوان الذين رضى الله عنهم وأنزل فيهم قوله تعالى من سورة الفتح : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ ففيضان الماء من بئر جافة لا ماء بها حتى سقى منها أهل معسكر بكامله لم يكن إلا آية نبوية صادقة تنطق قائلة أن صدقوا محمداً فيما جاءكم به ودعاكم إليه فإنه رسول الله إليكم حقاً وصدقاً .

وسادسة المعجزات :

قدح لبن روى فتاماً من الناس

ببركته ﷺ

روى البخارى رحمه الله تعالى في صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه القصة التالية :

قال : والله إن كنت لأعتمد بكبدى على الأرض من الجوع ، وإن كنت لأشدُّ الحجر على بطنى من الجوع ، ولقد قعدت يوماً على طريقهم الذى يخرجون منه فمرَّ أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله عز وجل ما سألته إلا ليستتبعنى^(١) فلم يفعل ، فمرَّ عمر رضى الله عنه فسألته عن آية من كتاب الله تعالى ما سألته إلا ليستتبعنى فلم يفعل ، فمرَّ أبو القاسم ﷺ فعرف ما فى وجهى ، وما فى نفسى فقال : « أبا هريرة » قلت له : لبيك يا رسول الله فقال : « الحق » واستأذنت فأذن لى فوجدت لبناً فى قدح ، قال : « من أين لكم هذا اللبن ؟ » فقالوا أهدها لنا فلان أو آل فلان قال : « أبا هريرة » ، قلت

(١) يستتبعنى : طلب منى أن أتبعه .

ليبيك يا رسول الله ، قال : « انطلق إلى أهل الصفة فادعهم لي » قال — أى أبو هريرة — وأهل الصفة أضياف الإسلام لم يأووا إلى أهل ، ولا مال ؛ إذا جاءت رسول الله هدية أصاب منها وبعث إليهم منها ، وإذا جاءت الصدقة أرسل بها إليهم ، ولم يصب منها . قال أبو هريرة وأحزنتني ذلك وكنت أرجو أن أصيب من اللبن شربة أتقوى بها بقية يومى وَلَيْلَتِي ، وقلت أنا الرسول فإذا جاء القول كنت أنا الذى أعطيهم ، وقلت ما يبقى لي من هذا اللبن ؟ ولم يكن من طاعة الله ورسوله بدٌّ فانطلقت فدعوتهم فأقبلوا واستأذنوا فأذن لهم فأخذوا مجالسهم من البيت ثم قال : « يا أبا هريرة خذ فأعطهم » فأخذت القدح فجعلت أعطيهم فيأخذ الرجل القدح فيشرب حتى يروى ، ثم يرد القدح حتى أتيت على آخرهم ودفعت إلى رسول الله ﷺ فأخذ القدح فوضعه في يده وبقي فيه فضلة ، ثم رفع رأسه ونظر إلّى وابتسم ، وقال « أبا هريرة » ، فقلت لبيك رسول الله ، قال : « بقيت أنا وأنت » فقلت : صدقت يا رسول الله قال : « فاقعد فاشرب » قال فقعدتُ فشربتُ ، ثم قال لي : « اشرب » فشربتُ فما زال يقول لي اشرب فأشرب حتى قلت : لا ، والذى بعثك بالحق ما أجد له فيّ مسلکًا ، قال : « ناولني القدح » فرددته إليه فشرب من الفضلة .

وهكذا تتجلى هذه المعجزة وهى آية النبوة المحمدية ؛ إذ قدحُ لبنٍ لا يُروى ولا يشبع جماعة من الناس كلهم جياع بحال من الأحوال ، فكيف أرواهم وأشبعهم ؟ إنها المعجزة النبوية ! وآية أخرى للكمال المحمدى أن يكون ﷺ هو آخر من يشرب من ذلك القدح الذى شرب جماعة من الناس .

وهنا يقال : ما بال الذين يتقززون من شرب السُّور ويرفضونه في كبرياء وخوف أيضا أن يصابوا بمرض من ذلك ؟ أين هم من هذا الكمال المحمدى ؟ إنهم بعيدون كل البعد ذاهبون في أودية الأوهام حيث لا يسمعون ولا يبصرون .

وسابعة المعجزات :

امتلاء عكة سمن

بعد فراغها

روى الحافظ أبو يعلى عن أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ أنه قال : كانت لأُمِّي أم سليم شاة فَجَمَعْتُ من سمنها في عكة فملأت العكة ثم بعثت بها ربيبة فقالت : يا ربيبة أبلغى هذه العكة رسول الله ﷺ يأتدم بها ، فانطلقت بها ربيبة حتى أتت رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله هذه عكة سمن بعثت بها إليك أُمُّ سُلَيْمٍ قال : « أفرغوا لها عكتها » . فأفرغت العكة ودفعت إليها قالت : فانطلقت بها ، وجئتُ وأُمُّ سليم ليست في البيت فعلمت العكة على وتد ، فجاءت أم سليم فرأت العكة ممتلئة تقطر ، فقالت : يا ربيبة أليس أمرتك أن تنطلقى بها إلى رسول الله ﷺ ؟ فقالت : بلى قد فعلت فإن لم تصدقيني فانطلقى فسلى رسول الله ﷺ فانطلقت ومعها ربيبة فقالت يا رسول الله إني بعثت معها إليك بعكة فيها سمن قال : « قد فعلت قد جاءت » قالت : والذي بعثك بالحق ، ودين الحق إنها لممتلئة تقطر سمنًا . قال أنس فقال رسول الله ﷺ : « يا أم سليم أتعجبين إن كان الله أطعمك كما أطعمت نبيّه ، كلى وأطعمى » قالت فجئتُ إلى البيت فقسمت في قعب لنا ، وكذا أو كذا وتركت فيها ما ائتمنا به شهرًا أو شهرين .

فهذه إحدى المعجزات الحمديّة ؛ إذ ليس مما جرت به سنة الله في الخلق أن يمتلئ الإناء سمنًا بعد إفراغه منه ، ويرى ذلك رأى العين وينتفع به .

وثامنة المعجزات :

الطعام القليل يشبع العدد الكثير

روى البخارى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قوله : قال أبو طلحة
لأم سليم : لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفا أعرف فيه الجوع ، فهل عندك
من شيء ؟ قالت : نعم ، فأخرجت أقراصا من شعير ، ثم أخرجت خمارا لها
فلقت الخبز ببعضه ، ثم دسته تحت يدي ولائتنى ببعضه ، ثم أرسلتنى إلى
رسول الله ﷺ ، قال : فذهبت به فوجدت رسول الله ﷺ فى المسجد ومعه
الناس ، فقامت عليهم فقال رسول الله ﷺ : « أرسلك أبو طلحة ؟ »
فقلت : نعم ، قال : « بطعام ؟ » قلت : نعم ، فقال رسول الله ﷺ لمن
معه : « قوموا » فانطلق ، وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة
فأخبرته فقال أبو طلحة : يأم سليم قد جاء رسول الله ﷺ والناس وليس
عندنا ما نطعمهم فقالت : الله ورسوله أعلم . فانطلق أبو طلحة حتى لقي
رسول الله ﷺ فأقبل رسول الله ﷺ وأبو طلحة معه ، فقال رسول الله
ﷺ : « هلم يا أم سليم ما عندك ؟ » فأنت بذلك الخبز فأمر به رسول الله
ﷺ ففُتَّ ، وعصرت أم سليم عكة فآدمته ، ثم قال رسول الله ﷺ ما شاء
أن يقول ، ثم قال : « ائذن لعشرة » فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ، ثم
خرجوا ، ثم قال : « ائذن لعشرة » فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا ،
ثم قال : « ائذن لعشرة » فأكل القوم كلهم ، والقوم سبعون أو ثمانون رجلا .
أليست هذه من أعظم المعجزات ؟ بل وربى إنما لمن أعظم المعجزات ؛ إن
أقراصا عدّة حملها غلام تحت إبطه يطعم منها ثمانون رجلا ويشبع كل واحد
منهم شبعاً لا مزيد عليه ، إن لم تكن هذه معجزة فما هى المعجزات إذا
يأتري ؟

وتاسعة المعجزات :

تكثر الطعام

إن معجزة تكثر الطعام والشراب قد تكررت فبلغت عشرات المرات ، وفي ظروف مختلفة ، ومناسبات عديدة ، منها ما تقدم ، ومنها هذه . فقد قال أبو هريرة رضى الله عنه : كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة غزاها — « وهى غزوة تبوك » — فأرمل^(١) فيها المسلمون واحتاجوا إلى الطعام فاستأذنوا رسول الله ﷺ في نحر الإبل فأذن لهم ، فبلغ ذلك عمر رضى الله عنه فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إبلهم تحملهم وتبلغهم علوهم ينحرونها ؟ ادع يا رسول الله بغيرات^(٢) الزاد فادع الله عز وجل فيها بالبركة ، قال : « أجل » فدعا بغيرات الزاد فجاء الناس بما بقى معهم فجمعت ثم دعا الله عز وجل فيها بالبركة ودعاهم بأوعيتهم فملأوها وفضل كثير ، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك : « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنى عبد الله ورسوله ومن لقي الله عز وجل بها غير شاك دخل الجنة » .

فهذه معجزة ظاهرة فى تكثر الطعام القليل حتى أصبح كثيرا وهى كما قدمنا واحدة من عشرات المعجزات فى تكثر الطعام والشراب .

وعاشرة المعجزات :

توفية دين جابر الذى استغرق كل ماله

فقد روى البخارى رحمه الله تعالى فى دلائل النبوة المحمدية قصة جابر الآتية : فقال : حدثنا أبو نعيم وساق السند إلى جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام رضى الله عنهما فقال : إن أئى توفى وعليه دين فأتيت

(١) نفد زادهم واحتاجوا إلى الطعام .

(٢) غيرات الزاد : بقاياها .

النبي ﷺ فقلت إن أبى ترك ديننا ، وليس عندى إلا ما يخرج نخله ، ولا يبلغ ما يخرج سنين ما عليه ، فانطلق معى لكيلا يفحش على الغرماء فمشى حول بيدراً^(١) من بيدار التمر فدعا ، ثم آخر ، ثم جلس عليه فقال : « انزعوه » فأوفاهم الذى لهم ، وبقي مثل ما أعطاهم . وهكذا بعد أن كان الدين قد استغرق كل التمر ولسنين عدة أيضاً ، وفى التمر الموجود كل الديون ، وبقي التمر فى البيادر مثل ما سددت به الديون الكثيرة ، وذلك ببركة وجود الرسول ﷺ بين البيادر ودعائه بالبركة فيها ، فباركها الله عز وجل فوفت الديون وزادت . فكانت آية النبوة والمعجزة الظاهرة التى يبعث بها الأنبياء ، ويكرم الله تعالى بها الأولياء متى شاء وهو على كل شىء قدير .

وحادية عشرة المعجزات :

انقياد الشجر له

ﷺ

روى مسلم بسنده عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : سرنا مع النبي ﷺ حتى نزلنا وادياً أفيحاً^(٢) فذهب رسول الله ﷺ يقضى حاجته فأتبعته بإداوة فيها ماء ، فنظر فلم ير شيئاً يستتر به وإذا شجرتان بشاطئ الوادى فانطلق إلى إحدهما فأخذ ببعض من أغصانها وقال : « انقادى على بإذن الله » فانقادت معه كالبعير الخشوش^(٣) الذى يصانع قائده حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بعضاً من أغصانها وقال : « انقادى على بإذن الله » فانقادت معه كالبعير الخشوش الذى يصانع قائده حتى إذا كان بالمنتصف فيما بينهما لاءم بينهما أى جمعهما ، وقال : « التما على بإذن الله » فالتأمتا ،

(١) الموضع الذى يجمع فيه التمر .

(٢) أى واسعاً رحباً .

(٣) الذى يجعل فى أنفه الخشاش وهو العود يجعل فى عظم أنف الجمل لينقاد .

قال جابر : فخرجت أحضر^(١) مخافة أن يحس بقرى منه فيبعد ، فجلست أحدث نفسي فحانت منى التفاتة ، فإذا أنا برسول الله ﷺ مقبل وإذا الشجرتان قد افترقتا ، وقامت كل واحدة منهما على ساق إلى آخر الحديث ...
فهذه إحدى المعجزات الخارقة للعادة التى لا تكون إلا لنبي من الأنبياء عليهم السلام ؛ إذ كون الشجرة نستجيب وتنقاد مطيعة لأمر رسول الله ﷺ هو أمر خارق للعادة لم تجربه سنن الله تعالى فى الكون ، وبذا كانت معجزة للحبيب ﷺ .

وثانية عشرة المعجزات :

حنين الجذع شوقا إليه ﷺ

فقد روى أحمد رحمه الله عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يخطب إلى جذع نخلة فقالت امرأة من الأنصار وكان لها غلام نجار : يا رسول الله إن لى غلامًا نجارًا أفأمره أن يتخذ لك منبرًا تخطب عليه ؟ قال : « بلى » ، فاتخذ له منبرًا فلما كان يوم الجمعة خطب ﷺ على المنبر فأنَّ الجذع الذى كان يقوم عليه كما يئن الصبى ، فقال النبى ﷺ : « إن هذا بكى لما فقد من الذكر » . وفى رواية البخارى فصاحت النخلة « جذع النخلة » صياح الصبى ، ثم نزل ﷺ فضمه إليه يئن أنين الصبى الذى يسكن ، قال : « كانت تبكى » النخلة « على ما كانت تسمع من الذكر عندها » فحنين الجذع شوقا إلى سماع الذكر وتألما لفراق الحبيب الذى كان يخطب إليه واقفا عليه وهو جماد لاروح له ولا عقل فى ظاهر الأمر ، وحسب علم الناس بالجمادات آية من أعظم الآيات الدالة على نبوة الحبيب ﷺ وصدق

(١) أى أعذو بشدة .

رسالته وهى معجزة كبرى على مثلها آمن البشر لعجزهم على الإتيان بمثلها .

وثالثة عشرة المعجزات :

تسبيح الحصى فى يديه وسلام الشجر عليه

روى الحافظ أبو بكر البيهقى رحمه الله تعالى عن سويد بن يزيد السلمى قال سمعت أباذر الغفارى رضى الله عنه يقول : لا أذكر عثمان إلا بخير بعد شىء رأيته ، وبين ذلك الخبر الذى رآه فقال : كنت رجلاً أتبع خلوات رسول الله ﷺ ، فرأيت يوماً جالساً وحده فاغتنمت خلوته فجئت حتى جلست إليه ، فجاء أبو بكر فسلم عليه ثم جلس عن يمين رسول الله ﷺ ، فجاء عمر فسلم وجلس عن يمين أبى بكر ، ثم جاء عثمان فسلم ثم جلس عن يمين عمر ، وبين يدى رسول الله ﷺ سبع حصيات فأخذهن فى كفه فسبحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النخل^(١) ثم وضعهن فخرسن أى سكتن ، ثم أخذهن فوضعهن فى كف أبى بكر فسبحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النخل ، ثم وضعهن فخرسن ، ثم تناولهن فوضعهن فى يد عمر فسبحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النخل ، ثم وضعهن فخرسن ثم تناولهن فوضعهن فى يد عثمان فسبحن حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النخل ، ثم وضعهن فخرسن . فقال النبى ﷺ : « هذه خلافة النبوة » .

فهذه المعجزة ذات شطرين الأول تسبيح الحصى فى أيدي الراشدين والثانى الخلافة فعلاً قد انحصرت فى الصديق والفاروق وذى النورين ، ثم اضطربت .

(١) أى جذع النخل الذى حزن حزناً على فراق الرسول ﷺ والذكر الذى يسمعه من الرسول وهو يخطب فوقه .

ورابعة عشرة المعجزات :

سلام الحجر عليه

ﷺ

فقد روى مسلم وأحمد بسنده عن جابر بن سمرّة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علىّ قبل أن أبعث ، إني لأعرفه الآن » ، فسلام الحجر وهو جماد أمر خارق للعادة ، معجز للبشر أن يأتوا بمثله ، فلذا هو آية النبوة المحمدية ومعجزة من معجزات الحبيب ﷺ .

وخامسة عشرة المعجزات :

سجود البعير له ﷺ

وشكواه إليه

روى النسائي وأحمد بسندهما عن أنس بن مالك رضى الله عنه : كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يسنون^(١) عليه ، وأنه استصعب عليهم فمنعهم ظهره^(٢) ، وأن الأنصار جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا إنه كان لنا جمل نسنى عليه ، وإنه استصعب علينا ومنعنا ظهره وقد عطش الزرع والنخل ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : « قوموا » فقاموا فدخل الحائط^(٣) . والجمل في ناحية ، فمشى النبي ﷺ نحوه ، فقال الأنصار : إنه صار مثل الكلب^(٤) ، وإنا نخاف عليك صولته ، فقال : « ليس علىّ منه بأس » ، فلما نظر الجمل إلى رسول الله ﷺ أقبل نحوه حتى خرّ ساجدا بين يديه ، فأخذ

(١) يستخرجون الماء من البئر بالسنى عليه .

(٢) أى منعهم من استخدامه فى السنى عليه .

(٣) البستان وقيل فيه حائط لأنه محاط بالجدران .

(٤) أى الذى به داء الكلب .

رسول الله ﷺ بناصيته أذل ما كانت قط حتى أدخله في العمل . فقال له أصحابه يا رسول الله هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك ونحن أحق أن نسجد لك ، فقال : « لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر ، ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها » .

كما روى مسلم أن النبي ﷺ دخل يوما مع بعض أصحابه حائطا من حيطان الأنصار ، فإذا جمل قد أتاه فجر جر وذرفت عيناه ، فمسح رسول الله ﷺ سراته وذفره فسكن . فقال ﷺ : « من صاحب الجمل ؟ » فجاء فتى من الأنصار قال هو لى يا رسول الله . فقال له ﷺ : « أما تتقى الله في هذه البهيمة التي ملكها الله لك إنه شكاً إلى أنك تحيغه وتدئبه » أى تواصل العمل عليه بدون انقطاع .

أليست هذه آية من آيات النبوة ومعجزة من عظيم معجزاتها ؟ بلى . ولذا كان الكفر بنبوة محمد ﷺ من أقبح الكفر وأسوأه ، ولا يكون إلا من جهل كامل ، أو حسد قاتل ، أو خوف فوات منافع مادية طائلة ، كما كان شأن الجاهل من الأمم والشعوب وحسد اليهود ، وخوف رجال الكنيسة من زوال سلطانهم الروحي ، وما يترتب عليه من فقدانهم المال والرياسة الروحية على الشعوب المسيحية .

وسادسة عشرة المعجزات :

شهادة الذئب برسالته

ﷺ

فقد روى أحمد رحمه الله تعالى في مسنده عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال : عَدَا الذئب على شاة فأخذها ، فطلبها الراعى فانترعها منه ، فأقعى الذئب على ذئبه فقال : ألا تتقى الله ، تنزع منى رزقاً ساقه الله إلى . فقال يا عجبى ذئب يكلمنى كلام الإنس ! فقال : الذئب : ألا أخبرك

بأعجب من ذلك ؟ محمد بشر يخبر الناس بأنباء ما قد سبق ، قال فأقبل الراعى يسوق غنمه حتى دخل المدينة فزواها إلى زاوية من زواياها ، ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره فأمر النبي ﷺ فنودى الصلاة جامعة ، ثم خرج فقال للراعى : أخبرهم فأخبرهم ، فقال رسول الله ﷺ « صَدَقَ والذي نفسُ محمد بيده لا تقوم الساعة حتى يكلم السباع الإنس ، ويكلم الرجل عذبة سوطه ، وشراك نعله ، ويخبره فخذها بما أحدث أهله بعده » .

فهذه آية من آيات النبوة الحمديدية ، ومعجزة من معجزاته بكل شطريها : الأول الذى فيه كلام الذئب للراعى ، والثانى الذى فيه إخبار بغيب لم يكن فكان اليوم ، فعذبة السوط ظاهرة فى تلفون الشرط ، وتكليم الفخذ وشراك النعل ظاهرة كذلك فى آلات التسجيل الصغيرة التى يستعملها رجال المخبرات بمهارة خاصة .

وسابعة عشرة المعجزات :

توقير الوحش له ﷺ واحترامه

فقد روى أحمد بسنده عن مجاهد قال قالت عائشة رضى الله عنها : كان لآل رسول الله ﷺ وَحْشٌ^(١) فإذا خرج رسول الله ﷺ لعب واشتد وأقبل وأدبر ، فإذا أحس برسول الله ﷺ قد دخل ربض فلم يترمرم أى لم يتحرك ما دام رسول الله ﷺ فى البيت كراهية أن يؤذيه (بحركاته) .

فكون الحيوان الوحشى يسكن فلا يتحرك مدة ما هو ﷺ فى البيت ، وإذا خرج لعب فأقبل وأدبر كعادة الحيوان فى ذلك آية من آيات النبوة الحمديدية ومعجزة ؛ إذ مثل هذا لا يقع لغير النبي ﷺ . وإن قال قائل : إن الإنسان فى إمكانه تربية الحيوان على سلوك معين قلنا هناك فرق بين التربية وبين

(١) حيوان برى غير مستأنس .

عدمها ، فالرسول ﷺ ما كان ربّي هذا الحيوان ولا كان له به أدنى صلة ، وإنما الحيوان ألهم احترام النبي ﷺ وتوقيره ، فكان إذا أحس بدخول الرسول البيت سكن وربض وترك الترميم ، وإذا خرج ﷺ من البيت لعب فأقبل وأدبر حسب فطرته التي فطره الله تعالى عليها ، فكان سلوكه الخاص آية من آيات النوة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية والتسليم .

وثامنة عشرة المعجزات :

احترام الأسد لمولاه ﷺ

فقد روى عبد الرزاق صاحب المصنف أن سفينة مولى رسول الله ﷺ أخطأ الجيش بأرض الروم ، أو أُسر في أرض الروم ، فانطلق هارباً يلتمس الجيش ، فإذا هو بأسد فقال له : يا أبا الحارث « كنية الأسد » إني مولى رسول الله ﷺ كان من أمرى كيت وكيت فأقبل الأسد يصبصه حتى قام إلى جنبه كلما سمع صوته أهوى إليه ، ثم قام يمشى إلى جنبه فلم يزل كذلك حتى أبلغه الجيش ، ثم همهم ساعة ، قال فرأيت أنه يودع ثم رجع إلى عنى وتركنى .

فهذه وإن كانت كرامة لسفينة مولى رسول الله ﷺ ، فإنها معجزة نبوية ؛ إذ الأسد ألان جانبه ورق لسفينة وماشاه حتى وصل به إلى الجيش بعد أن قال له يا أبا الحارث إني فلان مولى رسول الله ﷺ ، فكان ما فعله الأسد من احترام سفينة من أجل رسول الله ﷺ ، فلذا عدت هذه من المعجزات المحمدية .

وتاسعة عشرة المعجزات :

نطق الغزالة ووفائها

له ﷺ

فقد روى أبو نعيم الأصبهاني في كتابه دلائل النبوة قصة الغزالة هذه ، فقال : عن ثابت البناني عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال مرَّ النبي ﷺ على قوم قد اصطادوا ظبية فشذوها على عمود فسقاط ، فقالت : يا رسول الله إني أخذت ولى خشفان^(١) فاستأذن لى أرضعهما وأعود إليهم ، فقال النبي ﷺ « أين صاحب هذه ؟ » فقال القوم نحن يا رسول الله قال : « خلوا عنها حتى تأتى خشفها ترضعهما وترجع إليكم » فقالوا من لنا بذلك ؟ قال : « أنا » ، فأطلقوها فذهبت فأرضعت خشفها ثم رجعت إليهم ، فأوثقوها فمر بهم رسول الله ﷺ فقال : « أين صاحب هذه ؟ » فقالوا : هذا يا رسول الله ، فقال : « تبعونيها ؟ » فقالوا : هى لك يا رسول الله فقال : فخلوا عنها فأطلقوها فذهبت .

فنطق الغزالة ووفائها له ﷺ آية من آيات النبوة المحمدية ومعجزة من معجزاته الموجبة للإيمان به وطاعته ومحبته ﷺ .

(١) الخشف ولد الغزال الصغير .

المعجزة الموفية عشرين :

خروج الجن من الصبي

بدعائه ﷺ

فقد قال أحمد رحمه الله تعالى وساق سنده إلى ابن عباس رضى الله عنهما قال : إن امرأة جاءت بولدها إلى رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله إن به لَمَمًا ، وإنه يأخذه عند طعامنا فيفسد علينا طعامنا ، قال فمسح رسول الله ﷺ صدره ودعا له فَتَعَّ^(١) ثَعَّةً فخرج منه مثل الجرو الأسود يسعى .
فهذه إحدى الآيات النبوية ، إذ بمسحه ﷺ بيده على صدر الصبي المصاب والدعاء له خرج الجن منه ، وشفى فلم ير بأسًا بعد ذلك .

المعجزة الحادية والعشرون :

شفاء الضرير بدعائه

ﷺ

فقد روى أحمد بسنده عن عثمان بن حنيف : أن رجلاً ضريراً أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ادع الله أن يعافيني فقال : « إن شئت أخرجت ذلك فهو أفضل لآخرتك ، وإن شئت دعوت لك » قال : لا ، بل ادع الله لي قال : فأمره أن يتوضأ ويصلي ركعتين ، وأن يدعو بهذا الدعاء : « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك في حاجتي هذه فتقضى ، اللهم شفعه في » ففعل الرجل فبرأ .

فشفاء هذا الضرير بعودة بصره إليه ، بسؤال الله تعالى له ، وبما علمه

(١) تَعَّ : قاء أو سعل مرة واحدة .

من صلاة ودعاء آية من آيات النبوة الحمديدية ، ومعجزة من معجزاته ﷺ وآله وصحبه وسلم .

المعجزة الثانية والعشرون :

شفاء على رضي الله عنه

بتفاله ﷺ

ففى الصحيح قال ﷺ فى غزو خير : « لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يده » ، فلما أصبحوا نادى على فقالوا : مريض يا رسول الله يشكو عينيه فقال « ائتوني به » فأتى به فنفت فى عينه بقليل من ريقه ﷺ فبرأ لتوة ولم يمرض بعينه بعد قط .

فكانت آية من آيات النبوة الحمديدية ، ومعجزة من معجزاته الدالة على نبوته وصدق رسالته ﷺ وآله وصحبه وسلم تسليما .

المعجزة الثالثة والعشرون :

ردّ عين قتادة بعد تدليها

إذ فى أحد أصيب قتادة بن النعمان فى عينه حتى سقطت وتدلّت على وجنته^(١) فردّها ﷺ بيده الشريفة فبرئت على الفور ، وكانت أحسن منها قبل .

فهذه معجزة ، إذ ليس فى استطاعة أى طبيب أو غيره أن يردّ عينا سقطت بضربة حتى تدلت على الوجنة فتبرأ لتوها ، وتكون أحسن منها قبل إصابتها وسقوطها .

(١) الوجنة : أعلى الخد وهما وجنتان يمينى ويسرى .

المعجزة الرابعة والعشرون :

شفاء الصبي بفضل سوره

ﷺ

روى ابن أبى شيبة أن امرأة من خثعم أتت النبي ﷺ بصبي به بلاء لا يتكلم . فأتى النبي ﷺ فمضمض فاه ، وغسل يديه ، ثم أعطاها إياه وأمرها بسقيه ومسحه به ففعلت فبرئ الولد وعقل عقلاً يفضل به عقول الناس فهذه آية من آيات النبوة الحمديدية ومعجزة ظاهرة التي لا يقدر عليها البشر .

المعجزة الخامسة والعشرون :

تحول جذل^(١) الحطب سيفاً

لقد انكسر سيف عكاشة بن محصن يوم بدر فأعطاه النبي ﷺ جذل حطب فقال له : « اضرب به » فانقلب في يده سيفاً صارماً طويلاً أبيض شديد المتن ، فقاتل به ، ثم لم يزل عنده يشهد به المواقف إلى أن استشهد عكاشة في قتال أهل الردة . فكانت هذه آية من آيات النبوة الحمديدية ، ومعجزة خارقة للعادة مقررة لنبوته ورسالته صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم .

المعجزة السادسة والعشرون :

صدق إخباره بالغيب

ﷺ

فقد روى أبو داود بسنده في أم ورقة بنت نوفل ، أن رسول الله ﷺ لما غزا بدرًا قالت له : يا رسول الله ائذن لي في الغزو معك أمرض مرضاكم لعل الله يرزقني بالشهادة ، فقال لها : « قَرِّى في بيتك فإن الله يرزقك

(١) الجذل : عود غليظ من أصل الشجرة والحطب : ما ييس من أغصان الشجر .

الشهادة » ، فكانت تسمى الشهيدة ، وكانت قد قرأت القرآن ، فاستأذنت النبي ﷺ أن تتخذ في بيتها مؤذنًا يؤذن لها ، وكانت قد دبرت غلاما لها وجارية فقاما إليها بالليل فغمّاهما في قطيفة لها حتى ماتت ، وذهبا ، فأصبح عمر فطلبهما فجاء بهما فطلبهما عمر رضى الله عنه فكان أول من صلب بالمدينة .

فهذا إخبار بغيب ، فكان كما أخبر ﷺ ، فكان آية نبوته ﷺ ومعجزة من معجزاته فصلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تسليما .

ومن آيات النبوة والمعجزات الحمديّة صدق أخباره الغيبية الآتية :

أول خبر : قوله ﷺ في الحسن رضى الله عنه : « إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين » . فكان الأمر كما أخبر ﷺ فقد أصلح به بين من كان مع الحسن وبين من كان مع معاوية رضى الله عنهم أجمعين .

وثاني خبر : قوله ﷺ « اثبت^(١) أحد فأغما عليك نبيّ وصديق وشهيدان » ، فكان كما أخبر ﷺ ، فمات أبو بكر بمرض أصابه ، وقتل عمر في الحراب شهيدًا ، وقتل عثمان في داره شهيدًا ، فرضى الله عنهم أجمعين .

وثالث خبر : قوله ﷺ لسراقة بن مالك وقد خرج في ملاحفته ﷺ يوم هجرته حيث أعطت قريش جوائز لمن يأتيها بمحمد ﷺ . قال له : وقد ساخت قوائم فرسه في الأرض مبرتين قال له : « كيف بك إذا ألبست سواري كسرى ؟ » فلما أتى بهما عمر رضى الله عنه ألبسهما إياه وقال « الحمد لله الذى سلّهما كسرى وألبسهما سراقة » ، فهذا غيب محض وقد تم كما أخبر به ﷺ ، فكان آية نبوته ومعجزتها التى لا يقدر عليها أحد من عباد الله إلا نبيّ أوتى المعجزات .

(١) لأنه لما صعدوا عليه رجف بهم .

ورابع خبر : قوله ﷺ « لا تقوم الساعة حتى تقتل فستان دعواهما واحدة » وقد وقع هذا كما أخبر ، فقد اقتتل على ومعاوية رضى الله عنهما بجيشيهما فى صفين ، ودعواهما واحدة . فكان ما أخبر به ﷺ كما أخبر فى آية نبوته ﷺ ومعجزته التى على مثلها آمن البشر .

وخامس خبر : قوله ﷺ « إن هذا قبر أبى رغال ، وإن معه غصنا من ذهب » . فحفروه فوجدوه كما أخبر ﷺ . وذلك حين كان ذاهبا إلى الطائف ، فكان هذا الخبر آية نبوته ﷺ ، ومعجزة من معجزاته الدالة على نبوته .

وسادس خبر : قوله ﷺ لخباب بن الأرت وقد جاء يشكو إليه ما يلقى المؤمنون من كفار قريش ، يطلب منه أن يستنصر الله تعالى لهم . قال له وقد أحمر وجهه ﷺ أو تغير لونه : « لقد كان من قبلكم تحفر له الحفرة ، ويُجاء بالمنشار فيوضع على رأسه ، فيشق نصفين ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليتمن الله هذا الأمر ، حتى يسير الراكب ما بين صنعاء إلى حضرموت ما يخشى إلا الله والذئب على غنمه » ، وقد تم هذا كما أخبر ﷺ . فكان آية نبوته ومعجزتها التى لا يقدر عليها أحد إلا الله جل جلاله ، وعظم سلطانه .

وسابع خبر : قوله ﷺ « منعت العراق دزهمها وقفيظها ، ومنعت الشام مدها ودينارها ، ومنعت مصر أردبها ودينارها ، وعدتم من حيث بدأتم » . فهذا الخبر قد وقع كما أخبر ﷺ ؛ فقد منعت العراق ، ومنعت الشام ، ومنعت مصر ، ما كانوا يؤدونه إلى أهل الحجاز من خراج وغيره ، وعاد أهل الحجاز كما بدأوا فمستهم الجوع ، ونالهم التعب بعد ما أصابهم من رغد العيش وسعة الرزق . فكان هذا آية النبوة المحمدية ومعجزة على مثلها آمن البشر .

وثامن خبر : قوله ﷺ « الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم يوقى الله ملكه من يشاء » . فهذا الخبر من أنباء الغيب ؛ إذ كانت خلافة أبى بكر سنتين

وأربعة أشهر إلا عشر ليال ، وكانت خلافة عمر عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام ، وخلافة عثمان اثنتى عشرة سنة إلا اثنى عشر يومًا ، وكانت خلافة على خمس سنوات إلا شهرين ، وتكميل الثلاثين كان بخلافة الحسن بن على رضى الله عنهما ، إذ كانت نحوًا من ستة أشهر ، ثم نزل عليها لمعاوية عام أربعين من الهجرة . ومصدق هذا في قوله ﷺ : « إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين » . فهذان الخبران من دلائل نبوته ﷺ .

وتاسع خبر : قوله ﷺ في عثمان رضى الله عنه : « افتح له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه » . وذلك في حديث الصحيح ونصه : إن النبى ﷺ دخل حائطًا « بستانًا » فدلى رجله في القف^(١) فقال أبو موسى وكان معه : لأكوننّ اليوم يواب رسول الله ﷺ ، فجلست خلف الباب فجاء رجل فقال : افتح فقلت من أنت ؟ قال أبو بكر ، فأخبرت رسول الله ﷺ ، فقال : « افتح له وبشره بالجنة » ، ثم جاء عمر فقال كذلك ، ثم جاء عثمان فقال : « ائذن له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه » . فهذا الخبر من أنباء الغيب الدالة على نبوته ﷺ .

وعاشر خبر : قوله ﷺ لفاطمة رضى الله عنها : « إن جبريل كان يعارضنى القرآن فى كل عام مرة ، وإنه عارضنى العام مرتين ، وما أرى ذلك إلا لاقتراب أجلى » . فبكت ثم سارها فأخبرها بأنها سيدة نساء أهل الجنة ، وأنها أول أهله لحوقًا به . فكان كما أخبر إذ ماتت بعده بستة أشهر ، ولم يمّت قبلها من آل البيت أحد ، فكان هذا الخبر آية نبوته ﷺ .

وحادى عشر خبر : قوله ﷺ لنسائه : « كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوآب » . وكان ذلك كما أخبر ، فقد خرجت عائشة رضى الله عنها

(١) القف : الدكة تجعل حول البئر يجلس عليها وتدلّ الأرجل فى الماء المستخرج من البئر .

تريد الصلح بين علىّ ومعاوية رضى الله عنهما فى وقعة الجمل ، فلما بلغت مياه بنى عامر ليلا نبحت الكلاب ، فقالت رضى الله عنها : أى ماء هذا ؟ فقالوا : ماء الحوآب ، فقالت : ما أظننى إلا راجعة . فقال بعض من كان معها : بل تقدمين فيراك المسلمون فيصلح الله ذات بينهم . قالت : إن رسول الله ﷺ قال لنا ذات يوم : « كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوآب » . فهذا الخبر الصادق قد وقع كما أخبر به قبل وقوعه بكذا سنة ، فكان كما أخبر فهو إذا آية النبوة ، ومعجزة الحبيب صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تسليما .

وثانى عشر خبر : قوله ﷺ فى حديث أحمد عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ لعلىّ حين ولى غزوة العشيرة : « يا أبا تراب ألا أحدثك بأشقى الناس رجلين ؟ » قلنا بلى يا رسول الله : قال : « أحيمر ثمود الذى عقر الناقة ، والذى يضربك يا علىّ على هذه — يعنى قرنه — حتى ييل أى بالدم هذه أى لحيته » . فكان كما أخبر ﷺ ؛ فقد ضرب عبد الرحمن بن ملجم أحد الخوارج علياً بالكوفة فقتله على نحو ما أخبر به ﷺ فكان هذا من دلائل نبوته ﷺ ، ومن معجزاته التى رافقت حياته ﷺ .

وثالث عشر خبر : قوله ﷺ . « سيكون فى هذه الأمة بعث إلى السند والهند » ، فكان كما أخبر ﷺ ، فقد حدث أبو هريرة رضى الله عنه فقال : حدثنى خليل الصادق المصدق رسول الله ﷺ قال : « يكون فى هذه الأمة بعث إلى السند والهند » ، فإن أدركته فاستشهدت فذاك ، وإن أنا رجعت فأنا أبو هريرة المحدث قد أعتقنى من النار .

فهذا الخبر الصادق قد وقع كما أخبر ﷺ فقد غزا المسلمون الهند أيام معاوية سنة أربع وأربعين ، ثم توالى الغزو والفتح كما أخبر ﷺ . فكان آية النبوة الحمديدية والمعجزة النبوية الدالة على صدق الحبيب ﷺ فى نبوته ورسالته .

ورابع عشر خبر : قوله ﷺ فى سهيل بن عمرو : « عسى أن يقوم مقاماً

يسرك يا عمر . وذلك يوم صلح الحديبية حيث غضب عمر رضى الله عنه من تعنت سهيل ، وكان ممثلاً لقريش يومئذ فقال له ﷺ : « عسى أن يقوم مقاماً يسرك يا عمر » ، وكان الأمر كما أخبر ﷺ ؛ إذ مات الرسول ﷺ واضطربت البلاد ونجم الكفر ، ووقف سهيل بن عمرو رضى الله عنه بباب الكعبة بمكة فخطب فثبّت أهل مكة وقوى بصائرهم فحفظهم الله من الردة بسببه وهو موقف سرّ عمرَ والمؤمنين . وكان آية نبوته ﷺ ، ومعجزة من معجزاته .

وخامس عشر خبر : قوله ﷺ : « ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة في الجنة » وسئل عنها فقال : « هم الذين يكونون على ما أنا عليه اليوم وأصحابي » . وقال : « إنها ستكون أنماط^(١) ويغدو أحدهم في حلة ، ويروح في أخرى ، وتوضع بين يديه صحيفة^(٢) وترفع أخرى ، ويسترون بيوتهم كما تستر الكعبة » . وقال : « أنتم اليوم خير منكم يومئذ ، وإنهم إذا مشوا المُطِيطاء^(٣) ، وخدمتهم بنات فارس والروم رد الله بأسهم بينهم ، وسلط شرارهم على خيارهم » .

فهذا القول النبوى الشريف الجزء الأول منه كان كما أخبر ، حيث بلغت فرق هذه الأمة ثلاثاً وسبعين فرقة كما أخبر . فكان آية النبوة المحمدية . والجزء الثانى وهو قوله : إنها ستكون ، وإن ضعف سنده فقد صح واقعاً ، فقد بسط الله الرزق على أمة الإسلام بعد وفاة نبيها ﷺ فكانوا كما وصف في كثير من البلاد والأوقات ، وقد حدث ما في الخبر من وعيد إذ جعل تعالى بأسهم بينهم وسلط عليهم شرارهم في أكثر من زمان ومكان ، والله المستعان .

(١) الأنماط جمع نمط البسط والفرش النفيسة .

(٢) أى صحيفة الطعام .

(٣) أى التبختر في المشى .

كانت تلك أربعين معجزة للحبيب ﷺ ، وقد تقدم في ثنايا سيرته العطرة عشرات الآيات والمعجزات ، ولقد صدق من قال إن المعجزات المحمدية قد بلغت الألف معجزة . والمراد من إيرادها تقوية إيمان المؤمنين ، ودعوة غيرهم إلى الإيمان به ﷺ نبياً ورسولاً تجب متابعتها وتتحم طاعته وتلزم محبته من أجل النجاة من الخسران ، والفوز بالمغفرة والرضوان ، في دار السلام مع مواكب النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ؛ إذ قال تعالى ، وقوله الحق من سورة النساء من كتابه الكريم ، ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾ .

الأخلاق المحمدية

التي فيها

أسوة للمؤمنين

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ من سورة القلم .
وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ من سورة الأحزاب .

فقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ شهادة من الله تعالى له ﷺ بأنه على أكمل الأخلاق وأتمها وأرفعها وأفضلها ، بحيث لا يداني فيها بحال من الأحوال .

وشاهد آخر في قوله ﷺ : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » .

وفي قوله : « بعثت لأتمم صالح الأخلاق » .

وفي قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ

يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴿١﴾ إِعْلَام من الله تعالى لعباده المؤمنين بما أوجب عليهم من الاقتداء برسوله الذي كمله خَلْقًا وَخُلُقًا ، وشرفه أصلاً ومحتدًا ، ورفع منزلة وقدرًا ، حتى لا تأنف النفوس في اتباعه والاقتداء به في كل ما هو في استطاعتها التَّحَلَّى به ، والتقرب إلى ربها عز وجل باتباعه والاقتداء به فيه .

ومن هنا كان الكمال المحمدي ضربين : ضربًا لم تشرع الأسوة فيه لعجز المرء عن كسب مثله وذلك كشرف الأصل ، وجمال الذات ، وعلو القدر ، والاصطفاء للرسالة ، وتلقى الوحي الإلهي . وضربًا مأمورًا بالاقتداء به فيه ، والمنافسة في تحصيل أكبر قدر منه ، والمسابقة إليه ، والجد في الطلب للظفر به ، والحصول عليه . وهو ما سنذكر جملاً صالحة منه ، سائلين الله تعالى أن يرزقنا التحلي به ، والحياة والموت عليه ، اللهم آمين .

الآداب المحمدية

لقد كان ﷺ يتجمل بالآداب التالية ويتحلى بها وهي :

أولاً : غض الطرف فلا يتبع نظره الأشياء ، وكان جل نظره الملاحظة ، فلا يحملق إذا نظر ، ونظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء .
ثانياً : إذا مشى مع أصحابه يسوقهم أمامه فلا يتقدمهم ، ويبدأ من لقيه بالسلام .

ثالثاً : إذا تكلم يتكلم بجوامع الكلم ، كلامه فصل ، لا فضول ولا تقصير ؛ أى على قدر الحاجة ، فلا زيادة عليها ولا نقصان عنها . وهذا من الحكمة وكان يقول : « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » ويقول : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » . ويبدأ كلامه ويختمه بأشداقه من أجل أن يسمع محدثه ويفهمه لا يتكلم في غير حاجة ، طويل السكوت .

رابعًا : متواصل الأحزان ، دائم الفكر ، ليست له راحة ، دمث الخلق ،
ليس بالجاف ولا المهين ، يعظم النعمة وإن دقت ، لا يذم منها شيئاً ولا يمدحه .
خامسًا : لا تغضبه الدنيا وما كان لها ، فإذا تُعْرَضَ للحق لم يعرفه أحد ،
ولم يقدّر لغضبه شيء حتى ينتصر له ، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها .
سادسًا : إذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غص طرفه ، جُلَّ ضحكُه
التبسُّم ، ويفتر عن مثل حب الغمام .

سابعًا : إذا تكلم تكلم ثلاثاً ، وإذا سلّم سلّم ثلاثاً ، وإذا استأذن استأذن
ثلاثاً ؛ وذلك ليعقل عنه ويفهم مراده من كلامه نظرًا إلى ما وجب عليه من
البلاغ .

ثامنًا : كان يشارك أصحابه في مباح أحاديثهم ؛ إذا ذكروا الدنيا ذكرها
معهم ، وإذا ذكروا الآخرة ذكرها معهم ، وإذا ذكروا طعاماً أو شراباً ذكره
معهم .

تاسعًا : كان إذا جلس نصب ركبتيه واحتبى يديه ، وإذا جلس للأكل
نصب رجله اليمنى وجلس على اليسرى .

عاشراً : كان لا يعيب طعاماً يقدم إليه أبداً ، وإنما إذا أعجبه أكل منه ،
وإن لم يعجبه تركه . هذه الآداب مجملة ، وكلها يمكن الاقتداء به فيها ، وهو
غاية الطلب ، وبغية أولى الأرب .

الأخلاق المحمدية

إن لذوى الأخلاق الفاضلة منزلة عالية . ففي الحديث الصحيح « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً » . « إن من أحبكم إلى وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً » .

وسئل ﷺ عن البر ، فقال : « حسن الخلق » وسئل عن أى الأعمال أفضل فقال : « حسن الخلق » .

ومن هنا كان اكتساب الأخلاق الفاضلة خيراً من اكتساب الذهب والفضة ، والأموال الطائلة . والطريق إلى ذلك هو الائتساء بالنبي الحبيب ﷺ ، إذ هو المثل الأعلى فى باب الأخلاق ؛ ولذا كان إيرادنا للأخلاق المحمدية فى آخر هذا الكتاب من باب حمل المسلم على اكتساب تلك الأخلاق المحمدية الفاضلة ، ودفعاً له على التجميل والتحلى بها ؛ ليكمل بها ويفضل ويشرف عليها ، بعد أن عرف صاحبها ، وعرف كمالاته الذاتية والروحية ، وقوى إيمانه به نبياً ورسولاً تحب طاعته ومتابعته وتعظيمه ومحبته وتوقيره . وهذه نماذج من تلك الأخلاق فلننظر إليها ، ولتوطن النفس على اكتسابها والتخلق الصادق بها .

الكرم المحمدى

إن الكرم المحمدى كان مضرب الأمثال ، وقد كان ﷺ لا يرد سائلاً وهو واجد ما يعطيه . فقد سأله رجل حلة كان يلبسها ، فدخل بيته فخلعها ، ثم خرج بها فى يده وأعطاه إياها . ففي صحيح البخارى ومسلم عن جابر ابن عبد الله رضى الله عنهما قال : ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال لا . وقال أنس بن مالك رضى الله عنه : ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً على الإسلام إلا أعطاه ، سأله رجل فأعطاه غنماً بين جبلين ، فأتى الرجل قومه

فقال لهم يا قوم أسلموا فإن محمدًا يعطى عطاء من لا يخاف الفاقة . إن كان الرجل ليحجىء إلى رسول الله ﷺ ما يريد إلا الدنيا ، فما يمسي حتى يكون دينه أحب إليه وأعز من الدنيا وما فيها . وحسبنا في الاستدلال على كرم رسول الله ﷺ حديث البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما وقد سئل عن جود الرسول وكرمه فقال : كان رسول الله أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في شهر رمضان حين يلقاه جبريل بالوحي فيدارسه القرآن ، فرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة ، بمعنى أن عطاءه دائم لا ينقطع ببسر وسهولة وهاهى ذى أمثلة لجوده وكرمه ﷺ :

- حُملت إليه تسعون ألف درهم فوضعت على حصير ، ثم قام إليها يقسمها فما رد سائلا حتى فرغ منها .
- أعطى العباس رضى الله عنه من الذهب ما لم يطق حمله .
- أعطى معوذ بن عفراء ملء كفه حليا وذهبا لما جاءه بهدية من رطب وقتاء .

● جاءه رجل فسأله فقال : « ما عندى شيء ولكن ابتع^(١) على فإذا جاءنا شيء قضيناه » . وكيف لا يكون الحبيب ﷺ أكرم الناس وأجودهم على الإطلاق ، وهو القائل : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان يقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا » . والقائل أيضا : « يقول الله تعالى : ابن آدم أنفق أنفق عليك » . وقد نزل عليه قول ربه : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ .

(١) ابتع بمعنى اشتر ما تحتاجه على حسابى وأنا أسدده عنك إن شاء الله تعالى .

الحِلْمُ المَحْمَدِيُّ

إن الحلم وهو ضبط النفس حتى لا يظهر منها ما يكره قولاً كان أو فعلاً عند الغضب ، وما يثيره هَيْجَانُهُ من قول سيئ أو فعل غير محمود . هذا الحلم كان فيه الحبيب ﷺ مضرب المثل . والأحداث التالية شواهد لحلمه فداه أبى وأمى وصلى الله عليه وسلم ؛ وذلك لتربية الله تعالى له ، وإفاضته الكمالات على روحه ﷺ :

● لما شَجَّت وجنتاه وكسرت ربايعته ودخل المغفر في رأسه ﷺ يوم أُخِذَ قال : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » . فهذا منتهى الحلم والصفح والعفو والصبر منه ﷺ .

● لما قال له ذو الخويصرة اعدل فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ، حَلَمَ عليه وقال له : « ويحك فمن يعدل إن لم أعدل » ، ولم ينتقم منه ولم يأذن لأحد من أصحابه بذلك .

● لما جذبته الأعرابى بردائه جذبة شديدة حتى أثرت في صفحة عنقه ﷺ وقال احمل لى على بعيرى هذين من مال الله الذى عندك ، فإنك لا تحمل لى من مالك ومال أبىك ، حلم عليه ﷺ ولم يزد أن قال : « المال مال الله وأنا عبده ، ويقاد منك يا أعرابى ما فعلت بى » فقال الأعرابى : لا ، فقال النبى ﷺ : « لم ؟ » قال : لأنك لا تكافىء السيئة بالسيئة ، فضحك ﷺ ، ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير ، وعلى آخر تمر ، فأى حلم وأى كمال هذا يا عباد الله ؟؟ .

● لم يثبت أنه ﷺ انتصر لنفسه من مظلمة ظلمها قط ، ولا ضرب خادماً ولا امرأة قط . بهذا أخبرت عائشة رضى الله عنها ، فقالت : ما رأيت رسول الله ﷺ منتصراً من مظلمة ظلمها قط ، ما لم تكن حرمة من محارم الله ، وما ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله ، وما ضرب خادماً قط ولا امرأة .

• وجاءه زيد بن سَعْنَة أحد أحبار اليهود بالمدينة ، جاءه يتقاضاه دينًا له على النبي ﷺ فجذب ثوبه عن منكبه وأخذ بمجامع ثيابه وقال مغلظًا القول : إنكم يا بنى عبد المطلب مُطَلّ فانتهره عمر وشدد له في القول ، والنبي ﷺ يتسم ، وقال ﷺ : « أنا وهو كنا إلى غير هذا أحوج منك يا عمر ؛ تأمرني بحسن القضاء ، وتأمره بحسن التقاضى » ، ثم قال : « لقد بقى من أجله ثلاث » ، وأمر عمر أن يقضيه ماله ويزيده عشرين صاعًا لما رَوَّعه ، فكان هذا سبب إسلامه فأسلم ، وكان قبل ذلك يقول : ما بقى من علامات النبوة شئ إلا عرفته في محمد ﷺ إلا اثنتين لم أخبرهما : يسبق حلمه جهله ، ولا تزيده شدة الجهل إلا حلما فاخبره بهذه الحادثة فوجده كما وصف . هذه قطرة من بحر الحلم المحمدى تُذهب ظمأ من أراد أن يتحلّى بالحلم ويتجمل به .

العفو المحمّدى

إن العفو هو ترك المؤاخذة عند القدرة على الأخذ من المسيء المبطل ، وهو من خلال الكمال ، وصفات الجمال الخلقى ، أمر الله تعالى به رسوله في قوله من سورة الأعراف : ﴿ تَحِذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ وسأل ﷺ جبريل عن معنى هذه الآية فقال له : « حتى أسأل العليم الحكيم » ، ثم أتاه فقال : « يا محمد إنَّ الله يأمرك أن تصل من قطعك^(١) وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك » . وامثل رسول الله ﷺ أمر ربّه فكان مضرب المثل في الخصال الثلاث في صلة من قطعه وإعطاء من حرمه ، والعفو عمن ظلمه ، وفي الأمثلة الآتية شاهد ذلك ودليله .

• قالت عائشة رضی الله عنها : ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار

(١) هو تفسير الآية التى سأل جبريل عن معناها .

أيسرها ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه^(١) إلا أن تنتهك حرمة الله تعالى فينتقم الله بها .

● تصدى له غورث بن الحارث ليفتك به ﷺ ، ورسول الله مطروح تحت شجرة وحده قائلاً ، وأصحابه قائلون كذلك ، وذلك في غزاة ، فلم ينتبه رسول الله ﷺ إلا وغورث قائم على رأسه ، والسيف مصلتاً في يده ، وقال : من يمنعك مني ؟ فقال ﷺ : « الله » . فسقط السياف من يد غورث ، فأخذه النبي ﷺ وقال : « من يمنعك ؟ » قال غورث : كن خير آخذ فتركه وعفا عنه . فعاد إلى قومه فقال جئكم من عند خير الناس ، فهكذا كان العفو الحمدي .

● لما دخل المسجد الحرام صبيحة الفتح ووجد رجالاً قريش جالسين مطأطين الرؤوس ينتظرون حكم رسول الله ﷺ الفاتح فيهم ، فقال : « يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم ؟ » قالوا أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ، فعفا عنهم بعد ما ارتكبوا من الجرائم ضده وضد أصحابه ما لا يقادر قدره ، ولا يحصى عدّه ، ومع هذا فقد عفا عنهم ولم يعنف ، ولم يضرب ولم يقتل ، فصلى الله عليه وآله وصحبه سلم .

● سحره ليبد بن الأعصم اليهودي وقد نزل بذلك ، فعفا عنه ، ولم يؤاخذه ، بل لم يثبت أنه لأمه أو عاتبه مجرد لوم أو عتاب ، فضلاً عن المؤاخذه والعقاب . فكان موقفه هذا مظهرًا من مظاهر العفو الحمدي في أجلى صوره ، وأبهى مظاهره فصلى الله عليه وسلم ما عفا عافٍ وآخذ مؤاخذه إلى يوم الدين .

● تأمر عليه المنافقون وهو في طريق عودته من تبوك إلى المدينة ؛

(١) هو معنى أنه يعفو عن ظلمه .

تأمروا عليه ليقتلوه ، وعلم بهم ، وقيل له فيهم فعفا عنهم ، وقال : « لا يُتحدّث أن محمّداً يقتل أصحابه » .

● جاءه رجل يريد قتله ، فاكتشف أمره ، وظهرت حاله ، فقال له أصحابه إن هذا جاء يريد قتلك ، فاضطرب الرجل من شدة الخوف وفرع ، فقال له : « لن تراع ، لن تُراع ، ولو أردت ذلك — أى قتلى — لم تسلّط علىّ » ؛ لأن الله أعلمه بعصمته له من الناس ، فعفا عنه ﷺ وقد أراد قتله ، فلم يؤاخذه بل لم يعاقبه فصلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

الشجاعة المحمدية

إن الشجاعة خلق فاضل ، ووصف كريم ، وخلة شريفة ، لا سيما إذا كانت في العقل كما هي في القلب ، وكان صاحبها من أهل الإيمان والعلم ، والشجاعة في القلب عدم الخوف مما يخاف عادةً ، والإقدام على دفع ما يخاف منه بقوة وحزم . وفي العقل المضاء فيما هو الرأى وعدم النظر إلى عاقبة الأمر متى ظهر أنه الحق والمعروف . وقد كان الحبيب محمد ﷺ أشجع إنسان على الإطلاق . فلم تكتحل عين الوجود بمثله ﷺ ، ومن أدلة ذلك تكليف الله تعالى له بأن يقاتل وحده في قوله من سورة النساء : ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

ومن أدلة شجاعته ﷺ ومظاهرها ما يلي :

● شهادة الشجعان الأبطال له بذلك فقد قال عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه وكان من أبطال الرجال وشجعانهم بلا مرأى قال : كنا إذا حمى البأس واحمرت الحدة^(١) تنقى برسول الله ﷺ أى تنقى الضرب والطعان .

(١) جمع حدقة : ما تحت الأجفان وذلك من شدة الغضب .

● موقفه البطول الخارق للعادة في أحد حيث فرّ الكمأة ، ووجم الأبطال ، وذهل عن أنفسهم الشجعان ، ووقف محمد رسول الله ﷺ كالجبل الأشم حتى لا ذ به أصحابه ، والتفوا حوله ، وقاتلوا حتى انجلت المعركة بعد قتال مرير وهزيمة نكراء حلت بالقوم لمخالفة أمره ﷺ .

● في حنين حيث انهزم أصحابه وفرّ رجاله لصعوبة مواجهة العدو ، من جراء الكمائن التي نصبها وأوقعهم فيها وهم لا يدرون ، بقي وحده ﷺ في الميدان يطاول ويصاول وهو على بغلته يقول :

« أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب »

وما زال في المعركة وهو يقول : « إِيَّ عِبَادَ اللَّهِ !! إِيَّ عِبَادَ اللَّهِ » حتى فاء أصحابه إليه ، وعاودوا الكرة على العدو فهزموه في ساعة . وما كانت هزيمتهم أول مرة إلا من ذنب ارتكبه بعضهم وهو قوله : لن نغلب اليوم من قلة ؛ إذ هذا القول كان عجباً والعجب حرام وقد ذكرهم تعالى به في كتابه إذ قال تعالى من سورة التوبة : ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا ﴾ الآية .

● في أحد والمعركة دائرة رأى أبي بن خلف — لعنه الله — رأى النبي ﷺ . فصاح أين محمد ؟ لا نجوت إن نجا ، وتقدم على فرسه نحو رسول الله ﷺ فاعترضه رجال من المسلمين فقال ﷺ « خللوا طريقه » ، وتناول الحربة من يد الحارث بن الصمة ، وانتفض انتفاضة تطاير عنه أصحابه تطاير الوبر من ظهر البعير إذا انتفض ، واستقبله بطعنة نجلاء في عنقه تدأداً^(١) منها عن فرسه مراراً وهو يقول : قتلني محمد ، فمات منها بسرف وهو عائد إلى مكة مع جيش المشركين .

(١) تزعزع بشدة .

● فزع أهل المدينة ليلة فانطلق ناس قبل الصوت ، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعاً قد سبقهم إلى الصوت ، واستبرأ^(١) الخبر على فرس لأبي طلحة عُرِّي والسيف في عنقه وهو يقول : « لن تُراعوا » . في هذه يقول أنس بن مالك كان النبي ﷺ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس ، وقص هذه القصة .

● شهادة عمران بن حصين رضى الله عنهما إذ قال وهو صادق : ما لقي رسول الله ﷺ كتيبة إلا كان أول من يضرب .

كانت تلك شواهد شجاعته القلبية . أما شجاعته العقلية فنكتفى فيها بشاهد واحد ، فإنه يكفى عن ألف شاهد ويزيد . وهو موقفه من تعنت سهيل ابن عمرو وهو يملئ وثيقة صلح الحديبية ، إذ تنازل ﷺ على كلمة بسم الله إلى باسمك اللهم . وعن كلمة محمد رسول الله إلى كلمة محمد بن عبد الله ، وقد استشاط أصحابه غيظاً . وبلغ الغضب حدًا لا مزيد عليه وهو صابر ثابت حتى انتهت ، وكانت بعد أيام فتحا مبيئًا فضرب ﷺ بذلك المثل الأعلى في الشجاعتين القلبية ، والعقلية ، مع بعد النظر وأصالة الرأي وإصابته فضلى الله عليه وسلم ما بقى شجاعة أو جبن في العالمين .

الصبر المحمديّ

إن الصبر وهو حبس النفس على طاعة الله تعالى حتى لا تفارقها ، وعن معصية الله تعالى حتى لا تقربها ، وعلى قضاء الله تعالى حتى لا تجزع له ولا تسخط عليه . هذا هو الصبر في مواطنه الثلاثة وهو خلق من أشرف الأخلاق وأسامها ، وهو خلق مكتسب يحمل العاقل عليه نفسه ويروضها شيئاً فشيئاً حتى يصبح ملكة لها ثابتة عفواً بدون طلب .

(١) يقال استبرأ الخبر إذا طلبه حتى وقف على حقيقته .

يدل على ذلك أمره تعالى رسوله به في غير موطن من كتابه العزيز وذلك كقوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ وقوله : ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ وقوله في أمر كافة المؤمنين به : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

وقد صبر رسول الله ﷺ وصابر طيلة عهد إبلاغ رسالته الذى دام ثلاثا وعشرين سنة ، فلم يجزع يوماً ، ولم يتخلَّ عن دعوته وإبلاغ رسالته حتى بلغ بها الآفاق التى شاء الله تعالى أن تبلغها ، وباستعراضنا المواقف التالية تتجلى لنا حقيقة الصبر المحمدى الذى هو فيه أسوة كل مؤمن ومؤمنة في معترك هذه الحياة .

● صبره ﷺ على أذى قريش طيلة ما هو بين ظهرانها بمكة ؛ فقد ضربوه ، وألقوا سلى الجزور على ظهره ، وحاصروه ثلاث سنوات مع بنى هاشم في شعب أبى طالب ، وحكموا عليه بالاعدام ، وبعثوا رجالهم لتنفيذه فيه إلا أن الله سلّمه وعصم دمه . كل هذا لم يرده عن دعوته ، ولم يثن عزمه عن بيانها وعرضها على القريب والبعيد .

● صبره ﷺ عام الحزن ، حيث ماتت خديجة الزوجة الحنون ، ومات العم الحانى الحامى المدافع أبو طالب . فلم تفت هذه الرزايا من عزمه ، ولم توهن من قدرته ؛ إذ قابل ذلك بصبر لم يعرف له في تاريخ الأبطال مثل ولا نظير .

● صبره في كافة حروبه في بدر وفي أحد وفي الخندق وفي الفتح وفي حنين وفي الطائف وفي تبوك ، فلم يجبن ولم ينهزم ، ولم يفشل ، ولم يكل ولم يمل حتى خاض حروباً عدة ، وقاد سرايا عديدة ؛ فقد عاش من غزوة إلى أخرى طيلة عشر سنوات ، فأى صبر أعظم من هذا الصبر؟؟

● صبره على تأمر اليهود عليه بالمدينة وتحزيهم الأحزاب لحربه والقضاء .

عليه ، وعلى دعوته .

● صبره على الجوع الشديد فقد مات ولم يشبع من خبز شعير مرتين في يوم واحد قط .

● لقد صبر ﷺ على كل ذلك فلم يهن ولم تضعف همته ، ولم تمس كرامته ولم يدنس عرضه ، ولو أودى غيره بمعشار ما أودى أو أصابه من البلايا والرزايا دون ما أصابه لتخلي عن دعوته ، وهرب من مسؤوليته ، ووجد في نفسه مبررًا لذلك ، ولكن الله عصمه فصبره وجبره ، وحماه وقواه ليلبغ عنه رسالته ، ويجعله آية للناس في صبره وحكمته وعفوه وكرمه وشجاعته وفي سائر أخلاقه فصلى الله عليه وسلم تسليمًا كثيرًا .

الْعَدْلُ الْحَمْدِيُّ

إن العدل خلاف الجور أمر الله تعالى به في القول والحكم فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ وقال : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ وعلى العدل قام أمر السماء والأرض . ومن هنا كيف لا يكون رسول الله ﷺ عادلا وهو القائل : « ثلاثة إجلالهم من إجلال الله تعالى » ، وذكر من بينهم الإمام العادل ، وذكر أن سبعة يظلمهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، وعد منهم الإمام العادل ، وقال : « إن المقسطين على منابر من نور يوم القيامة » ، وبين أنهم الذين يعدلون في حكمهم وماولوا . ولذا كان ﷺ عادلا في قوله وفعله وحكمه . لا يجور ولا يحيف ، وكان العدل من أخلاقه وأوصافه اللازمة له ، فقد عرف به في الجاهلية قبل الإسلام . وهذه مواقف له ﷺ يتجلى فيها هذا الخلق النبوي الكريم وهي :

● تحكيم قريش له في وضع الحجر الأسود بعد خلاف شديد بينهم كاد يفضي بهم إلى الاقتتال . فقالوا بتوفيق من الله تعالى نحكم أول قادم علينا غداً ،

فكان ﷺ أول قادم ، فقالوا هذا الأمين هذا الحكم رضينا به فحكم بأن يوضع الحجر في ثوب وتأخذ كل قبيلة بطرف ، ثم أخذ الحجر بيديه ووضعه في مكان من جدار البيت . فحكم فعدل ، وكان مظهرًا من مظاهر عدله ﷺ .

● لما سرقت المخزومية ، وشق على المسلمين إقامة الحد عليها فقطع يدها فتوسطوا له بحبه وابن حبه أسامة بن زيد فرفع إليه القضية ، فقال : « أفي حد من حدود الله تشفع يا أسامة ، والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعتم يدها » ، فكان هذا مظهرًا عظيمًا للعدل المحمدي .

● وكانت تحته تسع نسوة ، وكان يعدل ويتحرى العدل ثم يعذر إلى ربه وهو مشفق خائف فيقول : « اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك » .

● وقوله للأعرابي الذي قال له اعدل فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله : « ويحك فمن يعدل إن لم أعدل ، خبت وخسرت إن لم أعدل » .

● في الطعام والشراب كان يقول : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يُقمن صلبه ، فإن كان ولا بد فاعلا ، فثلاث للطعام ، وثلاث للشراب ، وثلاث للنفس » . وكان ﷺ يقسم وقته ثلاثة أجزاء : جزءاً لربه تعالى ، وجزءاً لأهله ، وجزءاً لنفسه ، ويقسم الجزء الذي لنفسه بينه وبين الناس ، فكان يستعين بالخاصة على العامة ، ويقول : « أبلغوا حاجة من لا يستطيع إبلاغى ، فإنه من أبلغ حاجة من لا يستطيع إبلاغها آمنه الله يوم الفزع الأكبر » .

وكان الحسن يقول كان رسول الله ﷺ لا يأخذ أحدًا بقرف^(١) أحد ، ولا يصدق أحدًا على أحد .

(١) القرف : التهمة والذنب .

وهكذا يتجلى خلق العدل في الحبيب ﷺ بصورة واضحة ، يدعو كل مؤمن إلى التخلُّق به اتِّسَاءً به ﷺ ، وهو إسه كل مؤمن ومؤمنة في هذه الحياة .

الزهد المحمدي

إنَّ المراد بالزهد الزهد في الدنيا ، وذلك بالرغبة عنها ، وعدم الرغبة فيها ، وذلك بطلبها طلبا لا يشق ، ولا يحول دون أداء واجب ، وسد باب الطمع في الإكثار منها والتزديد من متاعها ، وهو ما زاد على قدر الحاجة ، وقد كان ﷺ يقول : « ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس » ، وقد كان ﷺ أزهد الناس في الدنيا ، وأقلهم رغبة فيها ، حتى كان الزهد خلقا من أخلاقه الفاضلة وسجية من سجايه الطيبة الطاهرة .

والمواقف الآتية تدل على ذلك وتشهد له وتقرره :

- قوله ﷺ في الصحيح : « لو كان لي مثل أحد ذهباً لما سرّني أن يبيت عندي ثلاثا إلا قلت فيه هكذا وهكذا إلا شيئا أرصده لدين » . فهذا أكبر مظهر للزهد الصادق الذي كان الحبيب ﷺ يعيش عليه ويتحلى به .
- قوله ﷺ لعمر وقد دخل عليه فوجده على فراش من آدم حشوه ليف فقال إن كسرى وقيصر ينمان على كذا وكذا ، وأنت رسول الله تنام على كذا وكذا ، فقال له ﷺ : « ما لي وللدنيا يا عمر ، وإنما أنا فيها كراكب استظل بظل شجرة ثم راح وتركها » .

فكان هذا أقوى مظهر من مظاهر الزهد المحمدي الصادق .

- عرض عليه ربه تعالى أن يحول له الأخشبين^(١) ذهباً وفضة ، وذلك

(١) جبلان من جبال مكة معروفان .

بعد عودته من الطائف جريحاً كئيلاً حزينا ، فقال : « لا يارب ، أشبع^(١) يوماً فأحمدك وأثنى عليك ، وأجوع آخر فأدعوك وأتضرّع إليك » .

● وأكبر مظهر لزهد صلى الله عليه وسلم في الدنيا سؤاله المتكرر : « اللهم اجعل قوت آل محمد كفافاً » . وفي لفظ قوتاً أى بلا زيادة ولا نقصان . وكان يقول : « قليل يكفى خير من كثير يُلهى . وما قل وكفى خير مما كثر وألهى أو أطفى » .

● قول عائشة رضى الله عنها مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وما فى بيتى شئ يأكله ذو كبد إلا شطر شعير فى رفّ لى . وقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودى فى ثلاثين صاعاً من شعير .

وبالتأمل فى هذه المواقف تتجلى الحقيقة واضحة وهى أن الزهد الحق كان خلق النبى الحبيب صلى الله عليه وسلم . وهو القائل : « الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له » .

فصل اللهم وبارك وسلم على عبدك ورسولك أزهد الزهاد ، وأفضل العباد إلى يوم التلاق والميعاد .

الحياء الحمدي

إن الحياء خلق فاضل فاقده لا خير فيه ؛ إذ هو من الإيمان ، وهو خير كله . وحقيقته أنه تغير يسببه الخوف مما يكره قوله أو فعله ، أو يُذم عليه . ويظهر أثره فى احمرار الوجه ، وترك ما يخشى معه الدم والملامة ، وهو فى المرأة بمنزلة الشجاعة فى الرجل ، أى كما أن الشجاعة محمودة فى الرجل أكثر مما هى محمودة فى المرأة ، فكذلك الحياء هو فى المرأة محمود أكثر مما هو فى

(١) الحديث مروي بالمعنى لا باللفظ .

الرجل . ومع هذا فهو خلق فاضل كريم قال فيه رسول الله ﷺ : « الحياء من الإيمان » ، وقال : « الحياء كله خير ، والحياء لا يأتي إلا بخير ، والحياء شعبة من الإيمان » في أحاديث صحاح .

ومن مظاهر الحياء المحمدي التي يتجلى فيها بوضوح ما يلي :

• قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ فهذه شهادة الله تعالى لرسوله ﷺ بالحياء وكفى بها شهادة .

• رواية الشيخين عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه وفيها ، قال : كان رسول الله ﷺ أشد حياءً من البكر في خدرها^(١) ، وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه .

• قول عائشة رضى الله عنها : كان النبي ﷺ إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل ما بال فلان يقول كذا ؟ ولكن يقول : « ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا » ، ينهى ولا يسمى فاعله .

• قول أنس بن مالك رضى الله عنه في رواية أبي داود قال : دخل رجل على النبي ﷺ به أثر صفرة فلم يقل له شيئاً ، وكان لا يواجه أحداً بمكروه ، فلما خرج قال : « لو قلتم له يغسل هذا » . أى أثر الصفرة في الثوب .

• رواية البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً^(٢) ولا متفحشاً ولا سخاباً^(٣) في الأسواق ولا يجزى بالسيئة

(١) الخدر : الستر في البيت .

(٢) الفاحش من يصدر عنه الفحش وهو القول أو الفعل القبيح ، والمتفحش من يتعمد الفحش ويبالغ فيه .

(٣) السخب والصخب رفع الصوت ، والسخاب فاعل ذلك .

السيئة ولكن يعفو ويصفح . وهذا وصفه في التوراة أيضاً كما رواه عبد الله ابن سلام رضى الله عنه .

● وكان ﷺ من شدة حيائه لا يثبت بصره في وجه أحد ، ويكنى عما اضطره الكلام إليه مما يكره ولا يصرح به .

● قول عائشة رضى الله عنها : ما رأيت من رسول الله ﷺ ولا رأى منى أى من العورة .

كانت هذه مظاهر حيائه ﷺ وشواهد ، وفيها كفاية لمن أراد أن يأتسى به ﷺ في حيائه ، وفي سائر أخلاقه ؛ فقد جعله الله تعالى أسوة المؤمنين فقال تعالى في آيتين من كتابه : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ ^(١) حَسَنَةٌ ^(٢) ﴾ .

أدب مخالطته ﷺ

وَحُسْنُ عَشْرَتِهِ

إن من كمال خلق المرء حسن صحبته ومعاشرته لأهله ، وكمال أدبه في مخالطته لغيره ، وقد كان الحبيب ﷺ مضرب المثل في حسن الصحبة وجميل المعاشرة وأدب المخالطة وفيما نعرضه من مواقف له ﷺ في هذا الشأن كفاية لمن أراد الائتساء به ﷺ في كمالاته الروحية والخلقية والأدبية :

● وصف على رضى الله عنه له ﷺ في قوله : كان رسول الله ﷺ أوسع الناس صدراً ، وأصدق الناس لهجة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، وهو كما قال رضى الله عنه ، والقصة التالية تؤكد ذلك وتقرره : مرّ ﷺ على

(١) القدوة .

(٢) الصالحة .

ابن أبيّ وهو جالس مع بعض المسلمين وغيرهم ، فقال ابن أبيّ لرسول الله ﷺ وهو راكب على دابته : لا تغبروا علينا ، ارجع إلى رحلك^(١) فمن جاءك منا فاقصص عليه فغضب المسلمون ، واستبوا مع المشركين حتى كادوا أن يقتلوا ، فهذّأهم رسول الله ﷺ ومنعهم من التواثب على بعضهم البعض ، ومضى رسول الله ﷺ على دابته فنزل على سعد بن معاذ وذكر له ما جرى ، فقال له سعد يا رسول الله اعف عنه واصفح ، فقد اتفق أهل هذه البُحيرة « المدينة » على أن يعصبوه أى يتوجوه ملكاً عليهم ، فلمّا ردّ الله ذلك بالحق الذى بعثت به شرق بذلك ، فعفا عنه ﷺ ، فلما أراد ﷺ الانصراف قرب إليه سعد حماراً ووطأ عليه بقطيفة فركب رسول الله ﷺ ، ثم قال سعد لابنه قيس : اصحب رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ لقيس : « اركب » فأبى قيس أن يركب ، فقال له رسول الله ﷺ : « إمّا أن تركب — أى معى على الحمار — وإمّا أن تنصرف » . قال : فانصرفت .

وفى رواية أخرى قال : « اركب أمامى فصاحب الدابة أولى بمقدّمها »^(٢) .

فأى كمال أعظم من هذا الكمال الحمدي فى أدبه ومخالطته لأصحابه ؟ ولنستمع إلى ابن أبي هالة^(٣) فى وصفه له ﷺ إذ يقول : كان دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا سخاب ولا فحاش ، ولا عيآب ولا مدّاح يتغافل عما لا يشتهى ولا يؤيسُ منه . وكان ﷺ يحب من دعاه ، ويقبل الهدية ممن أهداه ، ولو كانت كراع شاة ويكافئ عليها .

● قال أنس بن مالك : خدمت رسول الله ﷺ عشر سنوات فما قال

(١) الرحل : المنزل من دار وغيرها .

(٢) القصة واردة فى الصحاح .

(٣) ووصف أبى هالة صحيح كذلك .

لى أف قط ، وما قال لشيء صنعته لم صنعته ؟ ولا لشيء تركته لم تركته ؟

● قالت عائشة رضى الله عنها : ما كان أحد أحسن خلقا من رسول الله ﷺ ما دعاه أحد من أصحابه ولا أهل بيته إلا قال : « ليك » أى أجاب دعوته .

● وصفه عارف به ﷺ فقال : كان ﷺ يمازح أصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويداعب صبيانهم ، ويُجلِسُهُمْ فى حجره ، ويحبب دعوة الحرّ والعبد ، والأمة والمسكين ، ويعود المرضى فى أقصى المدينة ويقبل عذر المعتذر .

● قال أنس رضى الله عنه ما التقم^(١) أحد أذن رسول الله ﷺ فينحى رأسه حتى يكون الرجل هو الذى ينحى رأسه ، وما أخذ أحد بيده ﷺ فيرسل يده حتى يرسلها الآخر ، ولم ير مُقَدِّمًا ركبته بين يدي جليس له .

● ووصفه عليم به فقال : كان ﷺ يبدأ من لقيه بالسلام ، ويبدأ أصحابه بالمصافحة . ولم ير قط مادًا رجله بين أصحابه حتى لا يضيق بهما على أحد . يكرم من يدخل عليه ، وربما بسط له ثوبه ، ويؤثره بالوسادة التى تحته ، ويعزم عليه فى الجلوس عليها إن أبى ، ويُكَنِّي^(٢) أصحابه ، ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمةً لهم ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يتجاوز — أى يكثر فيتجاوز الحد — فيقطعه بنهى أى له أو قيام . وكان إذا جلس إليه أحد وهو يصلى خفف صلاته ، وسأله عن حاجته ، فإذا فرغ عاد إلى صلاته .

وحسبنا فى بيان أدبه ﷺ وحسن عشرته وجميل مخالطته قول ربّه عز وجل فيه : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ ﴾ وقد فعل ﷺ فجزاه الله عن أمته خير الجزاء .

(١) أى لأجل يساره فى أذنه حتى لا يسمع أحد ما يقوله .

(٢) أى يدعوهم لأبائهم بل بكنائهم كأن يقول : يا أبا الحسن ، وأبا حفص ، وأبا أميمة مثلاً .

خشية الحبيب ﷺ

وطول عبادته

إن خشية الله تعالى في السر والعلن ثمرة العلم بالله تعالى ربًّا وإلهاً ذا جلال وكمال لا حد لهما تقصر الفهوم دون إدراكهما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ . وقال رسوله ﷺ : « إِنِّي أَعْلَمُكُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشِيَّةً » ، فدل هذا على أن الخشية يثمرها العلم الصحيح ، العلم بالله ذي الجلال والإكرام ، وبأسمائه الحسنی ، وصفاته العلا ، وبمحابه من العقائد والأقوال والأعمال والصفات والذوات ، وبمكارهه من ذلك كله .

ومن أعلم بالله من رسول الله ؟ اللهم لا أحد ، ولذا فلا أتقى الله من رسول الله في سائر عباد الله ، ولا أكثر طاعة من رسول الله ، ولا أرغب فيما عند الله من رسول الله ، ولا أرهب مما لدى الله من رسول الله ، ولا أشد انقطاعاً وتبتلاً لله من رسول الله ، وهذه الأحاديث والآثار تقرر ذلك وتؤكدده .

(١) مظاهر خشيته ﷺ :

● روى الترمذی عن أنى ذر الغفاری رضی الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ ، أَطُتِ ^(١) السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَنْطَ مَا فِيهَا مَوْضِعَ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ ، وَاللَّهُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمَ لَضَحَكْتُمْ قَلِيلًا ، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا ، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرَشِ وَخَرَجْتُمْ إِلَى الصَّعْدَاتِ ^(٢) تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى » لوددت أنى شجرة تعضد ^(٣) . فهذا الحديث شاهد حق على خشية رسول الله ﷺ

(١) الأطيط : صوت القتب إذا ضغطه ثقل ما عليه من الحمل .

(٢) الطرقات .

(٣) تقطع : كناية عن تمنيه أن لو لم يكن في هذه الحياة إنساناً حياً وهذا تمنى أنى ذر ، وليس قول الرسول ﷺ .

وخوفه من ربه تعالى ، ويؤكد قوله : « إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية » .

● ما حدث به عبد الله بن الشَّخِير حيث قال : أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل .

● ما تقدم عن أبي هالة في وصفه ﷺ إذ قال : كان رسول الله ﷺ متواصل الأحران ، دائم الفكر ، ليست له راحة .

● ما صح عنه ﷺ من قوله : « إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة » وفي رواية « سبعين مرة » ، فهو دائم الاستغفار ، يوماً يستغفر سبعين ويوماً يستغفر مائة ، وهذا من كمال خشيته وعظيم تقواه لربه عز وجل .

● ما حدث به عبد الله بن عمر رضى الله عنهما إذ قال : كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد قوله : « رب اغفر لي وثب على إنك أنت التواب الرحيم » مائة مرة .

(ب) مظاهر طول عبادته ﷺ :

● حديث الصحيح عن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه إذ قال فيه قام ﷺ حتى انتفخت قدماه فقبل له أتكلف هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : « أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ » .

● ما حدث به عائشة رضى الله عنها في قولها كان عمل النبي ﷺ ديممةً ، وأيكم يطيق ما كان يطيق ؟ كان يصوم حتى نقول : لا يفطر ، ويفطر حتى نقول : لا يصوم ، وكنت لا تشاء أن تراه من الليل مصلياً إلا رأيته مصلياً ، ولا نائماً إلا رأيته نائماً .

● روى أبو داود في سننه عن عوف بن مالك قال : كنت مع رسول الله ﷺ ليلة فاستاك ثم توضأ ، ثم قام يصلي فقامت معه فبدأ فاستفتح البقرة

فلا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل ، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ ، ثم ركع فمكث بقدر قيامه يقول : « سبحان ذى الجبروت والملك والملكوت والعظمة » ، ثم سجد وقال مثل ذلك ، ثم قرأ آل عمران ، ثم سورة سورة يفعل مثل ذلك .

● ما حدثت به أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها إذ قالت قام رسول الله ﷺ بآية من القرآن ليلة هي آخر سورة المائدة : ﴿ إِنَّ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ ﴾ .

● ما صح عنه ﷺ من قوله : « جعلت قرعة عيني في الصلاة » .

فهذه مظاهر إطالة العبادة ، وطول التبتل ، وبه اتسنى الصالحون من هذه الأمة ففازوا بالقرب والرضا . جعلنا الله تعالى منهم وحشرنا في زميرهم ، وصلى الله وسلم وبارك على أسوة المؤمنين وقرعة عين الحبيب محمد الحبيب وعلى آله وصحبه أجمعين .

التواضع المحمديّ

إذا كان التواضع معناه إظهار الضعة وذلك من رفيع القدر على المقام ، شريف الأصل والمحتد وهو كذلك ، فإن خلق التواضع من أفضل الأخلاق وأسمائها ، وقد بلغ فيه رسول الله ﷺ شأوا لا يلحقه فيه أحد من الأولين ولا من الآخرين .

وباستعراضنا لأقواله ﷺ وأفعاله وأحواله الظاهرة تتجلى هذه الحقيقة ويطمع كل مؤمن يستعرض ما نوره في هذا الباب في أن ينال قدراً من التواضع ائتماءً بنبيّه محمد ﷺ . وهذا ما رجونا من كتابة هذه السيرة العطرة وتقديمها للمسلمين .

مظاهر التواضع المحمدى :

● أخبر ﷺ أنه قد خيّر بين أن يكون نبياً ملكاً ، أو نبياً عبداً فاختار أن يكون نبياً عبداً ، وأخبر أن الله تعالى كافأه على اختياره العبودية بأن يكون سيد ولد آدم وأول من تنشق عنه الأرض ، وأول شافع . فاختاره العبودية على الملوكة أكبر مظهر من مظاهر التواضع المحمدى .

● حدث أبو أمامة رضى الله عنه قال خرج علينا رسول الله متوكفاً على عصا فقمنا له ، فقال : « لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يُعظم بعضها بعضاً ، وقال إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » .

● ما عرف به ﷺ وشهد به غير واحد من أصحابه ، وأنه كان يركب الحمار ويردف خلفه ، ويعود المساكين ، ويجالس الفقراء ، ويجيب دعوة العبد ، ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم ، حيثما انتهى به المجلس جلس ، وكان يدعى إلى خبز الشعير والإهالة السنخة فيجيب .

● قوله ﷺ : « لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم ، وإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » .

● فى حجه الذى أهدى فيه مائة بدنة حج على بعير فوقه رحل عليه قطيفة ما تساوى أربعة دراهم .

● ولما فتح الله تعالى على رسوله مكة ودخلها ظافراً منتصراً والجيوش الإسلامية قد دخلتها من كل أبوابها دخل راكباً على ناقته ، وإن لحيته الشريفة تكاد تمس قائم رحله تطامنا وتواضعا لله عز وجل ، وهو موقف لم يقفه غيره فى دنيا البشر قط .

● قوله ﷺ : « لا تفضّلونى على يونس بن متى ، ولا تفضلوا بين الأنبياء ، ولا تحيرونى على موسى ، ونحن أحقّ بالشك من إبراهيم ، ولو لبث ما لبث يوسف فى السجن لأجبت الداعى » .

● وقوله ﷺ للذى قال له : يا خير البرية : « ذاك إبراهيم » .

● ما أخبر به بعض نسائه ، وتحدثن وهو أنه ﷺ يكون في بيته في مهنة أهله يفلّي^(١) ثوبه ، ويحلب شاته ، ويرقع ثوبه ويخصف^(٢) نعله ، ويخدم نفسه ، ويقم البيت ، ويعقل البعير ، ويعلف ناضحه ، ويأكل مع الخادم ، ويعجن معها ، ويحمل بضاعته من السوق .

● دخل عليه رجل فأصابته من هيئته رعدة فقال له : « هَوْنٌ على نفسك فإنى لست ملكاً وإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد » .

● حدث أبو هريرة رضى الله عنه فقال : دخلت السوق مع النبى ﷺ فاشتري سراويل وقال للوازن زن وارجح فوثب الوزان إلى يد النبى ﷺ يقبلها فجذب يده وقال : « هذا تفعله الأعاجم بملوكها ، ولست بملك ، إنما أنا رجل منكم » ثم أخذ السراويل فذهبت لأحملها فقال : « صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله » .

إن كل مظهر من هذه المظاهر التى بلغت أحد عشر مظهرًا دالًّا بمفرده على كماله ﷺ ثم تواضعه ، وأنه مضرب المثل فى ذلك . ولما كان كماله لايدانى فيه فتواضعه يكون آية نبوته ومعجزة رسالته . وغير مانع محاولة الائتساء به ، لأن التواضع من الأخلاق المكتسبة ، وبقدر صدق النية والرغبة الصادقة يحصل للعبد ما يرغب فيه من الكمالات المحمدية التى هى موضع الائتساء به ﷺ .

(١) أى ينقيه من القمل إن كان به .

(٢) يلصق بعضه ببعض إذا تقطع ويجززه ليلصق ولا ينحل .

المزاح المحمدي

إن المزاح كالمداعبة والملاعبة والهزل الذي هو خلاف الجدّ يقال هزل في قوله أو فعله ، أو مزح ، أو داعب الكل بمعنى واحد . والسؤال : هل كان رسول الله ﷺ على جلال قدره وسمو مكانته ، وانشغال باله بمهام الرسالة وأعباء القيادة وهداية الناس يمزح ؟ والجواب ، نعم كان يمزح ويداعب ويهزل بقلّة لاستيعاب الجدّ وقته كله إلا أنه كان في مزاحه ومداعبته وهزله لا يخرج أبداً عن دائرة الحق وبحال من الأحوال وهو في مزاحه ومداعبته يقدم معروفاً لأصحابه بما يدخل عليهم من الغبطة والسرور وعلى أطفالهم إذا داعبهم من الفرح والمرح والسرور والحبور .

وباستعراضنا للمواقف النبوية الآتية تتجلى لنا الحقيقة وهي أن النبي ﷺ كان يمزح ولا يقول إلا حقاً . وفي الإمكان الائتساء به في ذلك ، لأنه من المقدور المستطاع وليس من خصائصه ﷺ بل هو أدب عام يأخذ به كل مؤمن قدر عليه .

● حدّث أنس بن مالك رضى الله عنه فقال : إن رجلاً أتى النبي ﷺ فاستحمّله أى طلب منه أن يحمله على بعير ونحوه ، فقال له ﷺ « إنا حاملوك على ولد الناقة » فقال الرجل : يا رسول الله ما أصنع بولد الناقة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « هل تلد الإبل إلا النوق ؟ » فكان قوله هذا مداعبة للرجل ومزحاً معه وهو حق لا باطل فيه .

● وحدث النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : استأذن أبو بكر على النبي ﷺ فسمع صوت عائشة عالياً على رسول الله ﷺ فلما دخل تناوّلها ليلطمها وقال : ألا أراك ترفعين صوتك على رسول الله ففعل النبي ﷺ يحجزه . وخرج أبو بكر مغضباً ، فقال رسول الله ﷺ حين خرج أبو بكر : « كيف رأيتني أنقذتك من الرجل ؟ » .

فمكث أبو بكر أياما ثم استأذن على رسول الله ﷺ فوجدهما قد اصطلحا فقال لهما : أدخلاني في سلمكما كما أدخلتما في حربكما ، فقال رسول الله ﷺ : « قد فعلنا ، قد فعلنا » .

ففي هذا الحديث من حسن العشرة وطيب المداعبة ما لا يخفى على متأمل .

● وحدث أنس بن مالك رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال له : « يا ذا الأذنين » وهى مداعبة ظاهرة وهى حق واضح ، إذ كل إنسان ذو أذنين اثنتين .

● وحدث أنس بن مالك فقال كان رجل من أهل البادية يقال له زاهر ، وكان يهذى للنبي ﷺ أهذية من البادية فيجهزه النبي ﷺ إذا أراد أن يخرج . فقال رسول الله ﷺ فيه يوما : « إن زاهرا باديتنا ونحن حاضره » ، وكان رسول الله ﷺ يحبه ، وكان هو رجلا دميما فأتاه النبي ﷺ وهو يبيع متاعه فاحتضنه من خلفه ولا يبصره الرجل ، فقال : أرسلنى من هذا ؟ فالتفت فعرف النبي ﷺ فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي ﷺ ، وجعل رسول الله ﷺ يقول : « من يشتري هذا العبد » فقال لرسول الله ﷺ إذن والله تجدنى كاسداً ، فقال رسول الله ﷺ : « لكن عند الله لست بكاسد أنت عند الله غال » فالمزاح في هذا الحديث ظاهر بصورة واضحة ، ومعه من كمال الخلق وحسن الصحبة ، وطيب المخالطة ما لا مزيد عليه .

● وروى البخارى رحمه الله أن رجلا كان يقال له عبد الله ويلقب بحمارة وكان مضحك النبي ﷺ ، وكان يؤتى به في الشراب أى السكر ليقام عليه الحد ، فجيء به يوما فقال رجل : لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به !! فقال رسول الله ﷺ : « لا تلعه فإنه يحب الله ورسوله » . فقوله وكان يضحك النبي ﷺ دليل على أنه كان يمازحه حتى يضحك ، والمزاح يكون بين اثنين فكل واحد يمازح الثانى .

● وحدث أنس بن مالك رضى الله عنه فقال : كان للنبي ﷺ حادٍ يحذو وبنسائه يقال له أُنَجْشَة فحدا فأعنقت الإبل ، فقال رسول الله ﷺ : « ويحك يا أنجشة ارفق بالقوارير » أى بالنساء ، فأطلق القوارير على النساء مداعبة ظاهرة ووصفهن بالقوارير لضعفهن ، فلو سقطت إحداهن من هودجها لتكسرت ، ولو كنَّ غير أمهات المؤمنين لصح أن يقال إن الحداء وهو صوت الحادى الرقيق قد يوجد فى نفس المرأة أثرًا غير صالح .

● وحدث مسروق عن عائشة رضى الله عنها قالت : حدث رسول الله ﷺ نساءه ذات ليلة حديثًا فقالت امرأة منهن : يا رسول الله كان الحديث حديث خرافة ، فقال لها رسول الله ﷺ : « أتدريين ما خرافة ؟ إن خرافة كان رجلا من بنى غذره أسرته الجنّ فى الجاهلية فمكث فيهم دهرًا طويلا ، ثم رده إلى الإنس ، فكان يحدث الناس بما رأى فيهم من الأعاجيب فقال الناس حديث خرافة »^(١) ، والمداعبة فى هذا الحديث ظاهرة فى الرد على القائلة حديث خرافة فبدل أن يؤنبها لاطفها وداعها ، وقص عليها قصة خرافة العذرى .

● حدث الحسن البصرى رحمه الله تعالى فقال أتت امرأة النبي ﷺ فقالت يا رسول الله ادع الله لى أن يدخلنى الله الجنة قال : « يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز » فقلت العجوز تبكى ، فقال : « أخبروها أنها لا تدخلها وهى عجوز فإن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * غُرُبًا أَثْرَابًا ﴾ » .

● وحدث أن امرأة جاءت تسأل عن زوجها فقال لها النبي ﷺ : « زوجك الذى فى عينيه يياض » فبكت وظنت أن زوجها عمى ، فأعلمت

(١) الحديث رواه الترمذى إلا أن ابن كثير أعله وضعفه ، وذكرناه لأنه حل لنا إشكال قول الناس : هذا حديث خرافة .

أن العين لا تخلو من بياض ، فكانت مداعبة كمداعبته ﷺ للعجوز ، ومصدقا لما قدمناه من أنه ﷺ لا يقول في مزاحه إلا حقا . فقد قال أبو هريرة رضى الله عنه قالوا يا رسول الله إنك تداعبنا ، قال : « إني لا أقول إلا حقا » .

الفصاحة الحمدية

نترك صاحب الشفا يصف لنا فصاحة الحبيب ﷺ فيقول : تحت « فصل » وأما فصاحة اللسان ، وبلاغة القول ، فقد كان ﷺ من ذلك بالمثل الأفضل ، والموضع الذى لا يجهد سلامة طبع ، وبراعة^(١) منزع ، وإيجاز^(٢) مقطع ، ونصاعة لفظ ، وجزالة قول ، وصحة معان ، وقلة تكلف . أوتى جوامع الكلم ، وخص ببدائع الحكم ، وعلم ألسنة العرب ، يخاطب كل أمة منها بلسانها ويحاورها بلغتها ، ويُباريها في منزع بلاغتها ، حتى كان من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله .

ومما اختص به وتفوق فيه فلا يدانيه فيه غيره ، ولا يساميه فيه سواه أنه ﷺ يتكلم مع كل قوم بلهجتهم وفصاحة لسانهم ، وبلاغة كلامهم ، فكلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد ليس هو ككلامه مع ذى المشعار الهمداني ، وطفهة^(٣) النهدي ، وقطن بن حارثة العُليمي والأشعث^(٤) بن قيس ، ووائل بن حجر الكندي وغيرهم من أقبال^(٥) حضرموت وملوك اليمن .

(١) براعة منزع : أى هو ذو تفوق في قوم هم أفصح الناس .

(٢) إيجاز مقطع : أى هو ذو إيجاز في قوله وفصل في كلامه مع قلة الألفاظ وتحديد المعنى وتوضيحه .

(٣) هو خطيب نهد ووافذها عام الوفود وهو سنة تسع .

(٤) وقدموا اليمن في ستين راكبًا فأسلموا كلهم ورجعوا إلى اليمن .

(٥) جمع قيل بمعنى الملك .

وهذه نماذج من كلامه ﷺ مع الأقسام المتباينين اللهجات ، وإن شملتهم الجزيرة العربية داراً ، واللسان العربي منطقاً ، فنراه يخاطب كل قوم بلهجتهم ، وفصاحتهم في كلامهم ويتفوق عليهم .

● لما وفد عليه ﷺ ذو المشعار الحمداني كتب إلى همدان وبعثه مع ذى المشعار :

وهذه جمل منه :

« إن لكم فراغها^(١) ووهاظها^(٢) ، وعزازها^(٣) تأكلون بملافها^(٤) ، وترعون عفاءها^(٥) ، لنا من دفتهم^(٦) وصرامهم^(٧) ما سلموا بالميثاق والأمانة ، ولهم من الصدقة الثلب^(٨) ، والتاب والفصيل ، والفارض والداجن^(٩) والكبش الحورى ، وعليهم فيها الصالغ^(١٠) والقارح^(١١) » .

فهذا الكلام بلهجة همدان إذا سمعه الحجازى أو النجدى وحتى القرشى يحتاج فى أكثره إلى شرح وتفسير .

● وفد عليه طُفْهة النهدي وشكا إليه ما أصاب قومه من القحط ، وطلب منه أن يدعوا لنهد القبيلة فقال : « اللهم بارك لهم فى محضها ومخضها

(١) ما ارتفع من الأرض .

(٢) ما سفل وانخفض .

(٣) ما صلب واشتد .

(٤) ما يعلف للدواب .

(٥) ما ليس لأحد فيه ملك .

(٦) الإبل والغنم .

(٧) جمع صرمة القطعة من النخل والتمر .

(٨) الحمل المسن .

(٩) ما يربض حول البيوت لهرمه وهزاله .

(١٠) ما انتهى سنه إلى السادسة من البقر والغنم .

(١١) الذى شق نابه من ذوى الحافر مطلقاً .

وَمَذَقَهَا ، وَابْعَثْ رَاعِيَهَا فِي الدَّسْرِ^(١) ، وَافْجُرْ لَهَا الشَّمْدَ وَبَارِكْ لَهُ فِي الْمَالِ وَالْوَلَدِ . مَنْ أَقَامَ الصَّلَاةَ كَانَ مُسْلِمًا وَمَنْ آتَى الزَّكَاةَ كَانَ مُحْسِنًا ، وَمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَانَ مُخْلِصًا ، لَكُمْ يَا بَنِي نَهْدٍ وَدَائِعِ الشَّرْكِ وَوَضَائِعِ الْمُلْكِ ، لَا تُلْطِطُ^(٢) فِي الزَّكَاةِ ، وَلَا تَلْحُدُ^(٣) فِي الْحَيَاةِ ، وَلَا تَتَاقِلَ فِي الصَّلَاةِ .

• وَكَتَبَ لِبَنِي نَهْدٍ فِي الْوُظَيْفَةِ وَالْفَرِيضَةِ فَقَالَ : « وَلَكُمْ الْفَارِضُ وَالْفَرِيشُ وَذُو الْعِئَانِ وَالرَّكُوبُ وَالْفَلْقُ الضَّبِينُ ، لَا يَمْنَعُ سِرْحَكُمْ وَلَا يَعْصِدُ طَلْحَكُمْ ، وَلَا يَحْبِسُ دَرَكَمَ مَا لَمْ تَضْمُرُوا الرِّمَاقَ^(٤) وَتَأْكُلُوا الرِّبَاقَ^(٥) ، مَنْ أَقَرَّ فَلَهُ الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ وَالذِّمَّةُ وَمَنْ أْبَى فَعَلَيْهِ الرَّبَوَّةُ^(٦) » .

• وَكَتَبَ إِلَى وَائِلِ بْنِ حَجَرٍ فَقَالَ : « إِلَى الْأَقْيَالِ الْعَابِلَةِ وَالْأَرْوَاعِ^(٧) الْمَشَايِبِ » .

وَجَاءَ فِيهِ : « فِي التَّبَعَةِ^(٨) شَاةٌ لَا مُقَوَّدَةَ الْأَلْبَاطِ^(٩) وَلَا ضَنَّاكٌ ، وَأَنْطَرُوا^(١٠) الشَّيْحَةَ ، وَفِي السُّيُوبِ^(١١) الْخُمْسُ . وَمَنْ زَنَى مِمَّ^(١٢) بَكَرَ ، فَاصْعَقُوهُ مَائَةً ، وَاسْتَوْفُضُوهُ عَامًا ، وَمَنْ زَنَى مِمَّ ثَيِّبٍ فَضَرِّجُوهُ

(١) الإبل الكثيرة .

(٢) أى لا تمنعها .

(٣) لا تجر عن الحق ولا تعدل عنه .

(٤) التَّفَاقُ .

(٥) أى تظهروا نقض العهد .

(٦) أى الزيادة على الفريضة عقوبة له .

(٧) السادة الزُّهْرُ الْأَلْوَانُ وَالْمَشَايِبُ الزُّهْرُ الْحَسَانُ الْوَجْوهُ .

(٨) الْأَرْبَعُونَ مِنَ الْغَنَمِ .

(٩) الْمَهَازِيلُ الْمُسْتَرَحِيَةُ الْجُلُودُ .

(١٠) أَعْطَوْا الْوَسْطَ .

(١١) الرِّكَازُ وَالْمَالُ الْمُدْفُونُ .

(١٢) مِمَّ أى من كذا .

بالأضاميم^(١) ، ولا توصيم في الدين ، ولا غمة في فرائض الله ، وكل مسكر حرام ووائل بن حجر يترقل^(٢) على الأقيال .

• وقوله ﷺ : « فإن اليد العليا هي المنطية واليد السفلى هي المنطاة » في حديثه مع عطية السعدي فقال كلنا رسول الله ﷺ بلغتنا .

• وقوله في حديث العامري حين سأله فقال له ﷺ : « سل عنك » أى سل عما شئت وهي لغة بنى عامر .

من كل ما تقدم من نماذج كلامه ﷺ يتبين أنه كان يخاطب كل قوم بلهجتهم ويتفوق إليهم في الفصاحة والبيان ، وهو ﷺ مأمور بذلك ؛ ليبين للناس ما نزل إليهم وإذا خاطب الأنصار والمهاجرين من قريش وأهل نجد والحجاز بكلامه المعتاد حلق في سماء البلاغة والبيان ، ونثر الدر من كلامه الجامع للحكم المشتمل على فنون الهداية وضروب البيان ، وهذه نماذج منه :

• قوله ﷺ : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد واحدة على من سواهم » .

• أقواله ﷺ : « الناس كأسنان المشط ، والمرء مع من أحب ، ولا خير في صحبة من لا يرى لك ما ترى له » ، « الناس معادن » ، « وما هلك امرؤ عرف قدره » ، « المستشار مؤتمن » ، « ورحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم » ، « أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين » ، « إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً الموطأون^(٣) أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون » . « ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً » ، « اتق

(١) أى لا عيب في إقامة الحد .

(٢) كناية عن جعله رئيساً لأن الترقل إطالة الثوب والرداء وهما من مظاهر الغنى والسيادة عند الناس .

(٣) الموطأ الكنف أى الجانب من فيه لين ورفق .

الله حينما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » ، ونهى عن قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال .

● ما قاله من الكلم الذى لم يُسبق إليه ، ولا قاله أحد قبله كقوله : « حَمَى الوطيس » . « ومات حَتَفَ أنفه » . « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » ، « السعيد من وعظ بغيره » .

● وقيل له ﷺ يوما ما رأينا الذى هو أفصح منك ، فقال : « وما يمنعنى ؟ وإنما أنزل القرآن بلسانى بلسان عربى مبين » . وكيف لا يكون كذلك وهو من قريش ، ونشأ فى بادية بنى سعد وأنزل عليه القرآن وأوتى جوامع الكلم فصلى الله عليه وسلم .

وخلاصة القول أن فصاحة الرسول ﷺ لا عجب فيها ولا غرابة ما دام مضرباً قرشياً هاشمياً ، خصه ربه بالعناية فى التأديب والتربية ، وهىأه للوحى ، وحمله البلاغ والبيان فصلى الله عليه وسلم ما نطق ناطق وأبان من كل مخلوق من إنس وجان .

الرحمة المحمدية

إن الرحمة المحمدية التى أودعها الله تعالى قلب نبيه وصفيه وخليله من عباده محمد ﷺ رحمة عامة لسائر الخلق قال تعالى فيها : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ورحمة خاصة قال تعالى فيها : ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وللرحمة فى القلب مظاهر فى الحياة تتجلى فيها وهذه بعض مظاهر تلك الرحمة المحمدية .

(١) الرحمة العامة :

● لما كذبه قومه أتاه جبريل وقال له : « إن الله تعالى قد سمع قول قومك إليك وما ردوا عليك وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم » ،

فناداه ملك الجبال وسلم عليه ، وقال : « مرني بما شئت ، وإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين^(١) » . فقال ﷺ : « لا ، بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا » . فكان هذا مظهرًا من مظاهر الرحمة المحمدية العامة .

● ركبت عائشة رضى الله عنها جملاً ، وكان فيه صعوبةً فجعلت تردده أى تذهب به وتحجى تروضه فأتعبته فقال لها رسول الله ﷺ : « عليك بالرفق يا عائشة » ، فهذا مظهر من مظاهر الرحمة العامة إذ شملت الحيوان .

● وقوله ﷺ : « فى كل ذات كبد رطبة أجر » مظهر من مظاهر الرحمة العامة أيضًا .

● وقوله ﷺ : « دخلت امرأة النار فى هرة حبستها حتى ماتت فلا هى أطعمتها حين حبستها ولا تركتها تأكل من خشاش^(٢) الأرض » .

(ب) مظاهر الرحمة الخاصة :

● قوله ﷺ : « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة » . فهذا مظهر من مظاهر الرحمة والشفقة المحمدية على أمته ﷺ ، وهو من مظاهر الرحمة الخاصة .

● قوله ﷺ : « لا يبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابى شيئاً فأنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » .

فهذه من رحمته وشفقته على أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين وهى من مظاهر الرحمة الخاصة .

(١) جبالان بمكة ويضافان إلى منى لقربهما من مكة ومنى .

(٢) ما يخش فيها ويدخل من حشرات من غيرها كالفران ونحوها .

● جاءه ﷺ أعرابى يطلبه شيئاً فأعطاه ، ثم قال له : « هل أحسنت إليك ؟ » قال الأعرابى : لا ، ولا أجملت ، فغضب المسلمون لمقاتلته وقاموا إليه ليضربوه على سوء أدبه مع رسول الله ﷺ ، فأشار إليهم أن كفوا ، ثم قام فدخل منزله وأرسل إلى الأعرابى وزاده شيئاً ، ثم قال له : « أحسنت إليك ؟ » قال نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً فقال له الرسول ﷺ : « إنك قلت ما قلت وفى نفس أصحابى من ذلك شئ فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يديّ حتى يذهب ما فى صدورهم عليك » قال : نعم فلما كان الغد أو العشى جاء فقال النبى ﷺ : « إن هذا الأعرابى قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضى أكذلك ؟ » قال : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً . فقال رسول الله ﷺ : « مثلى ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليها فاتبعها الناس فلم يزل يزددها إلا نفوراً فناداهم صاحبها . خلوا بينى وبين ناقتى فإنى أرفق بها منكم وأعلم ، فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردّها حتى جاءت واستأخدت وشدّ عليها رحله واستوى عليها . وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار » .

فهذا أكبر مظهر من مظاهر الرحمة المحمدية الخاصة والعامة ، فصلّى الله عليه من نبى رؤوف رحيم ، وحقاً إنه الرحمة المهداة والنّعمة المعطاة وسفينة الرأفة والشفقة والرحمة المرساة ، فويل لمن عاداه وما والاه ، وويل لمن عصاه وآذاه وويل لمن كفر به أو كذبه فى الممات والحياة .

الوفاء المحمدى

إن الوفاء بالعهد ، وعدم نسيانه أو الإغضاء عن واجبه خلق كريم ، ولذا كان رسول الله ﷺ فيه بالحل الأفضل والمقام الأسنى ، والمكان الأشرف ، فوفاءه ، وصلته لأرحامه كان مضرب المثل ، وحق له ذلك وهو سيد الأوفياء والأولياء والأوصياء والأنبياء من بنى آدم .

والمظاهر التالية تقرر هذه الحقيقة وتؤكددها :

(أ) وفاؤه :

● حديث عبد الله بن أُمّ الحَمَسَاء إِذ قال بايعت النّبى ﷺ بيع قبل أن يبعث ، وبقيت له بقية فوعده أن آتية بها في مكانه فنسبت ثم تذكرت بعد ثلاث ، فجئت فإذا هو في مكانه ، فقال : « يا فتى لقد شققت على أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك » .

ومثل هذا كان لجدّه إسماعيل عليه السلام فأثنى الله تعالى به عليه في قوله : ﴿ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ۝ ﴾ .

● روى البخارى في الأدب المفرد عن أنس بن مالك قال كان النّبى ﷺ إذا أتى بهدية قال : « اذهبوا بها إلى بيت فلانة فإنها كانت صديقة لخديجة ؛ إنها كانت تحب خديجة » . أى وفاء هذا يا عباد الله ؟ إنه يكرم أحباء خديجة وصديقاتها بعد موتها رضى الله عنها .

● وَحَدَّثَتْ عائشة رضى الله عنها فقالت : ما غرت من امرأة ما غرت من خديجة لما كنت أسمع يذكروها ، وإن كان ليزبح الشاة فيهدىها إلى خلائلها ، واستأذنت عليه أختها فارتاح إليها ودخلت عليه امرأة فهش لها وأحسن السؤال عنها فلما خرجت ، قال : « إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وإن حسن العهد من الإيمان ! » .

وهكذا يتجلى خلق الوفاء في الحبيب ﷺ ، فلم ينس بوفائه من مات فضلا عن من هو حيٌّ ويهاب لومه أو عتابه .

(ب) صلته لرحمه :

صلة الرحم واجبة ، ومن أقدر الناس على القيام بالواجب من رسول الله ؟

اللهم إنه لا أحد ومع هذا نذكر نمودجين أو ثلاثة لما كان عليه ﷺ من صلة أرحامه ، ليقتدى به في ذلك .

● قوله ﷺ في أبي العاص بن أمية وكان مشركا ظالمًا في أول أمره ثم أسلم وحسن إسلامه قال فيه وهو مشرك : « إن آل أبي فلان ليسوا بأوليائي غير أن لهم رحمًا سألها ^(١) بيلها » .

● حدث أبو الطفيل قال رأيت النبي ﷺ وأنا غلام إذ أقبلت امرأة حتى دنت منه فبسط لها رداءه فجلست عليه ، فقلت : من هذه ؟ قالوا : أمه التي أرضعته .

● صلاته ﷺ بأمامة بنت زينب ابنته رضى الله عنها إذ كان يحملها على عاتقه وهو يصلي فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها على عاتقه ، فهذا مظهر من مظاهر صلة الرحم ، كالذى قبله في بسطه رداءه لمن أرضعته .

● كان ﷺ يبعث إلى ثوية مولاة أبي لهب مرضعته بصلة وكسوة ، فلما ماتت سأل من بقى من قرابتها ؟ فقيل لا أحد ، ولو قيل : بقى فلان أو فلانة لوصلهما قياما بواجب صلة الأرحام ، ولو بعدوا ، ولو كانوا لمجرد رضاع بلا أرحام فصلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً .

(١) أى أصلها بصلتها الواجبة لها .

خاتمة في بيان حقوق الحبيب ﷺ الواجبة له على كل مسلم ومسلمة

إن الحقوق الواجبة للنبي ﷺ على كل فرد من أفراد هذه الأمة المسلمة عشرة وهى كالآتى :

« الإيمان به . محبته . طاعته . متابعتة . الاقتداء به . توقيره . تعظيم شأنه . وجوب النصح له . محبة آل بيته . محبة أصحابه . الصلاة عليه ﷺ » .

وهذا بيان أدلة وجوبها ، وشرح معانيها ، وعرض مظاهرها فى الحياة .
(١) الإيمان به ﷺ :

إن الإيمان به ﷺ مستلزم للإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر ، قال تعالى فى الأمر به الواجب القيام به ﴿ آمِنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِى أَنْزَلْنَا ﴾ ، وقال عز من قائل : ﴿ فَأَمِنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىُّ الْأُمِّىُّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ .

وقال هو ﷺ فى الإخبار بوجوب الإيمان به : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » وقال فى حديث آخر له فى موقف آخر : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بى وبما جئت به فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » .

ومعنى الإيمان به ﷺ التصديق بنبوته ورسالته التى جاء بها من عند الله تعالى ، وأن كل ما جاء به من الدين ، وما أخبر به عن الله تعالى هو حق وصدق ، ولا يكتفى بالنطق باللسان ، والقلب منكر لذلك غير مصدق به ، بل لا بد من مطابقة القلب للسان .

ومن مظاهر الإيمان به ﷺ طاعته ومحبه وموالاته وبقاى الحقوق العشرة .

(ب) محبته ﷺ :

إن محبته ﷺ واجبة بالكتاب والسنة ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تُرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنْ آلِهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١) .

فهذه الآية دليل واضح على وجوب محبته ﷺ لما فيها من التهديد الشديد على من أثر على حب الله ورسوله حب غيرهما من الأهل والمال والولد . وقال ﷺ فى حديث الصحيح : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » .

ولما سمع عمر رضى الله عنه هذا الحديث قال للرسول ﷺ لأنت أحب إلى من كل شيء إلا نفسى التى بين جنبي ، فقال له النبى ﷺ : « لن يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » ، فقال عمر والذى أنزل عليك الكتاب لأنت أحب إلى من نفسى التى بين جنبي فأجابه الرسول قائلا : « الآن يا عمر » أى بلغت حقيقة الإيمان .

وقال ﷺ : « ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار » .

ومعنى محبته ﷺ : إثارة ما يحب ﷺ على ما يحب العبد .

(١) الآية من سورة التوبة .

مظاهر محبته ﷺ :

ومن مظاهر محبته ﷺ ما يلي :

- (١) طاعته ، والاقتداء به ، ومحبة ما جاء به ودعا إليه ، ونصرته في دينه ونصرة المؤمنين به من آل بيته وصحابته والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .
- (٢) توقيره وتعظيمه عند ذكره وذكر شمائله ، وعند الوقوف على قبره للسلام عليه وعلى صاحبيه ، وعند الجلوس في مسجده والصلاة فيه ، وذلك بخفض الصوت ، وغض البصر ، وعدم ارتكاب أى حدث فيه من قول أو عمل ، وعدم إقراره أو الرضا به .

علامات حبه ﷺ :

من علامات حبه ﷺ :

- (١) كثرة ذكره فإن من أحب شيئا أكثر من ذكره .
- (٢) كثرة الشوق إليه إذ كل محب يحب لقاء حبيبه ويتشوق إلى لقائه .
- (٣) البكاء عند ذكره شوقا وحنينا إليه ﷺ .

(جـ) طاعته ﷺ :

إن طاعته ﷺ واجبة بأمر الله تعالى في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ ^(١) وبقوله عز وجل : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ^(٢) ويدل على عظم شأن طاعته ﷺ قوله تعالى : ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ ^(٣) وقوله :

(١) سورة محمد ﷺ .

(٢) النساء .

(٣) النساء .

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾^(١) وقوله :
﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾^(٢) .

ومعنى طاعته ﷺ : فعل ما أمر به ، وترك ما نهى عنه من اعتقاد أو قول أو عمل ، إذا كان الأمر للوجوب والنهى للتحريم ، فإن كان الأمر للندب ، والاستحباب والنهى للتنزيه فلا معصية في الفعل ولا في الترك .

مظاهر طاعته ﷺ :

من مظاهر طاعته ﷺ :

(١) التمسك بسنته ، والاهتداء بهديه ، وذلك كالمحافظة على رغبة الفجر وسنة الوتر والرواتب مع الفرائض ، والمحافظة على صلاة الجماعة والرغبة في الصف الأول والذي يليه ، ونافلة الضحى ، والصلاة بعد الوضوء ، وترك الصلاة في الأوقات المنهى عن الصلاة فيها .

(٢) الالتزام بحسن السمات وخفض الصوت ، ونظافة الثوب والجسم ، وتحري الصدق في القول والعمل .

(٣) طلب الحلال في الطعام والشراب واللباس والنكاح .

(٤) حب المساكين والإحسان إليهم ، وزيارة القبور للترحم عليهم والاستغفار لهم والتذكر بحالهم .

(٥) الالتزام بمبدأ : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٣) .

(١) الجن .

(٢) النور .

(٣) الحشر .

وعبداً : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه »^(١) .

(د) متابعتة ﷺ :

إن متابعتة ﷺ في المعتقد والقول والعمل واجبة وهي الدين كله ، ومخالفتة في ذلك هي الخروج من الدين كله إذ قال تعالى : ﴿ وَاتَّبِعُوا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾^(٢) فمتابعتة ﷺ سبيل الهداية ، وتركها سبيل الغواية ، وقد اشترط تعالى لحبه العبد أن يتابع العبد رسوله في كل ما جاء به قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ . ومعنى المتابعة للرسول ﷺ أن يكون اعتقاد العبد وقوله وعمله تابعاً لاعتقاد رسول الله ﷺ وعمله ، فلا يخالفه في شيء من ذلك ، بتقديم ولا تأخير ولا زيادة ولا نقصان .

ومن مظاهر المتابعة له ﷺ ما يلي :

(١) أن لا يبدع المسلم بدعة ، وأن لا يعمل ببدعة ابتدعها غيره مهما كان هذا المبتدع إلا أن يكون أحد الخلفاء الراشدين الأربعة أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً رضى الله عنهم أجمعين وذلك لقوله ﷺ : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » .

(٢) رد كل قول لقوله ، وترك كل تشريع لشرعه ، والإعراض عن كل ما خالف هديه في الاعتقاد والقول والعمل . والأخذ بكل ما صح عنه وثبت نسبته إليه ﷺ وقد قالت عائشة رضى الله عنها : صنع رسول الله ﷺ شيئاً

(١) مسلم وغيره .

(٢) من سورة الأعراف .

ترخص فيه فتنزه عنه قوم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فحمد الله ثم قال : « فما بال أقوام يتنزهون عن شيء أصنعه ؟ فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية » .

(٣) التمسك بالسنة الواجبة والمستحبة على حد سواء .

فضل المتابعة :

وفي بيان فضل المتابعة نورد الحديث الآتي :

روى الترمذى وابن ماجه عنه ﷺ : « التمسك بستى عند فساد أمتى له أجر مائة شهيد » . وقوله ﷺ : « إن بنى إسرائيل افترقوا على اثنتين وسبعين ملة وإن أمتى ستفترق على ثلاث وسبعين كلها فى النار إلا واحدة » قالوا : وما هى يا رسول الله ؟ قال : « الذى أنا عليه ^(١) اليوم وأصحابى » ، رواه الترمذى وابن ماجه بألفاظ مختلفة . والحديث دليل على فضل المتابعة للرسول ﷺ وأصحابه فى العقيدة والعبادة والسلوك ، إذ خلاف ذلك يفضى بالعبد إلى النار .

(هـ) الاقتداء به ﷺ :

لقد أمر تعالى رسوله بالاقتداء بمن سبقه من الأنبياء والرسل فقال عز وجل : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ ﴾ وأمرنا تعالى نحن أيها المسلمون بالاقتداء به ﷺ فقد قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ أى قدوة صالحة فاقفوا به . ورتب تعالى هدايتنا على طاعته والاقتداء به فقال عز وجل : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ . ولازم هذا أن ترك

(١) فى لفظ « هم الذين يكونون على ما أنا عليه اليوم وأصحابى » . وهو الصحيح ، وإن كان لفظ الحديث دالا عليه ولو لم يذكر ، وفى لفظ : « افترقت النصارى بعد أن افترقت اليهود » .

الاقتداء به ﷺ مفض بصاحبه إلى الضلال الموجب للهلاك في الحياتين ، وهو كذلك . فهم هذا سلف هذه الأمة فالتزموا بطاعته ﷺ ومتابعته والاقتداء به .

وهذه مظاهر تلك المتابعة وذلك الاقتداء :

● صلى عمر بن الخطاب فكأنما قيل له في ذلك فقال : أنا أفعل كما رأيت رسول الله ﷺ يفعل .

● قرن علىّ بين الحج والعمرة على عهد عثمان رضى الله عنهما فقال له عثمان ترى أنى أنهى الناس عنه وتفعله !! فقال علىّ : لم أكن أدع سنة رسول الله ﷺ لقول أحد من الناس .

وقال مرة : ألا إني لست بنبيّ ، ولا يوحى إليّ ولكنى أعمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ .

● وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول : القصد في السنة^(١) خير من الاجتهاد في البدعة ، يريد أن المتابعة للنبيّ ﷺ ، وإن اقتصد العبد في العمل الصالح ولم يكثر منه خير من عمل كثير في غير متابعة للرسول ﷺ .

● وكان أبيّ بن كعب رضى الله عنه يقول : إن اقتصاداً في سبيل^(٢) وسنة خير من اجتهد في خلاف سبيل وسنة ، وموافقة بدعة ، وانظروا أن يكون عملكم إن كان اجتهداً واقتصاداً أن يكون على منهج الأنبياء وستهم .

● روى أحمد أن ابن عمر رضى الله عنهما روى يدير ناقته في مكان فسئل عنه فقال : لا أدري إلا أنى رأيت رسول الله ﷺ فعله ففعلته .

(١) يريد أن القليل من العمل الموافق للسنة خير من الكثير المخالف لها .

(٢) المراد من السبيل سبيل الله تعالى الذي هو سبيل المؤمنين .

● وقال أبو عثمان الحيرى : من أَمَرَ السنة على نفسه قولاً وفعلًا نطق بالحكمة ، ومن أَمَرَ الهوى على نفسه نطق بالبدعة .

والمقصود من هذا كله أن الاقتداء بالرسول ﷺ واجب فعله محقق للنجاة من الهلاك ، وتركه مقتضى له والعياذ بالله تعالى ، فالخير كل الخير فى اتباعه ﷺ والاقتداء به فى الصغير والكبير ، والقليل والكثير . وفى كل الأحوال وسائر الظروف .

(و) توقيره ﷺ :

إن توقير النبى ﷺ واجب أكيد ، إذ خلافه ، وهو الاستخفاف به ﷺ ما هو من الكفر ببعيد ، بل هو كفر عتيد . أمر تعالى بتوقير نبى ﷺ فى قوله : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ ﴾ .

فالتعزير النصرة والتوقير للتعظيم والإجلال وهذه له ﷺ ، والتسبيح لله عز وجل وهو تنزيهه تعالى عن النقائص والشريك والشبيه والنظير والصاحبة والولد .

فما أرسل الله تعالى رسوله مبشِّرًا ونذيرًا إلا ليؤمن الناس به تعالى وبرسوله ويعزروه الرسول أى ينصروه ، ويوقروه أى يجلوه ويعظموه بما يليق بمنصبه الرفيع ومقامه السامى الشريف .

ومعنى توقيره ﷺ تعظيمه وإجلاله والإكبار من شأنه والرفع من قدره حتى لا يدانيه أحد من الناس . وكون أصحابه قد عرفوا قدره فأجلوه وعزروه ووقروه فليس ذلك عائداً لكونه فيهم وبينهم فحسب بل هو لما أوجبه الله تعالى عليهم ، وأفاضه فى نفوسهم وأجراه على ألسنتهم من حبه وتقديره وإجلاله وتعظيمه .

ومن مظاهر توقيره ﷺ ما أمر الله تعالى به وأرشد إليه في كتابه العزيز كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أى لا تقولوا قبل أن يقول ، وإذا قال فاستمعوا له وأنصتوا ، فلا يحل لأحدهم أن يسبق بقوله قوله ، ولا برأيه رأيه ، ولا بقضائه قضاءه بل عليهم أن يكونوا تابعين له في كل ذلك . وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ فقد منعهم في هذا الخطاب من رفع أصواتهم فوق صوته لمنافاة ذلك للأدب معه والوقار له ، كما منعهم من الجهر بالقول له إذا خاطبوه وكلموه لما في ذلك من سوء الأدب والجفاء والغلظة المنافية للإجلال والتوقير والتعظيم وقوله تعالى : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ فقد نهاهم عن ندائه باسمه العَلَم : يا محمد ، وأرشدهم أن يدعوه بلقب النبوة والرسالة نحو يا نبي الله ، ويا رسول الله ، وبأحب كناه إليه نحو يا أبا القاسم ، واستجاب أصحابه البررة لأمر الله تعالى فقال أبو بكر الصديق ، والله يا رسول الله لا أكلمك بعدها إلا كأخى السرار^(١) ، وفعلوا لما نزلت هذه الآية كان عمر إذا حدثه حدثه كأخى السرار فما كان يسمع الرسول حتى يستفهمه ، ليبين مراده من كلامه ، ونزل فيهم قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ .

مظاهر توقيره :

ومن مظاهر توقير الأصحاب رضوان الله عليهم لنبئهم ﷺ ما يلي :

● حدث عمرو بن العاص يوما فقال : ما كان أحد أحب إليّ من رسول

(١) أى كلاما خفيا كالمسارة التى لا يسمعا غير من ساره بها من الحاضرين .

الله ﷺ ، ولا أجل في عيني منه وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له ، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت ؛ لأنني لم أكن أملأ عيني منه .

● روى الترمذی عن أنس قوله : ما كان رسول الله ﷺ يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار وهم جلوس فيهم أبو بكر وعمر فلا يرفع أحد منهم إليه بصره إلا أبو بكر وعمر فإنهما كانا ينظران إليه وينظر إليهما ويتسمان إليه ، ويتسم إليهما .

● روى عن أسامة بن شريك قال أتيت رسول الله ﷺ وأصحابه حوله كأن على رؤوسهم الطير .

● قال عروة بن مسعود حين وجهته قريش إلى رسول الله ﷺ يوم صلح الحديبية ورأى من تعظيم أصحاب رسول الله ﷺ له ما رأى ، وأنه لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ، وكادوا يقتتلون عليه ، ولا يبصق بصاقاً ولا يتنخم نخامة إلا تلقوها بكفهم فدلکوا بها وجوههم وأجسادهم ، ولا تسقط منه شعرة إلا ابتدروها ، وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحدّون إليه النظر تعظيماً له . فلما رجع إلى قريش قال : يا معشر قريش إني جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكاً من قوم قط مثل محمد في أصحابه ، فهذا الذي حكاه عروة بن مسعود رضى الله عنه وهو حق ثابت أكبر مظهر من مظاهر توقير أصحاب رسول الله ﷺ لنبيهم ﷺ وآله وصحبه وسلم تسليماً .

(ز) تعظيم شأنه ﷺ :

إن المراد من تعظيم شأن النبي ﷺ : احترام وإكبار كل ماله تعلق به ﷺ كاسمه وحديثه ، وسنته ، وشريعته وآل بيته ، وصحابته وأفراد أمته ، ومسجده وقبره ، وكل ماله اتصال به من قريب أو بعيد ، إذ كل هذا داخل

تحت وجوب توقيره وحبه وتعظيمه كما هو مندرج تحت حرّامات الله ، والله يقول : ﴿ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ ، ويدل لذلك ويشهد له أن الله تعالى نهى عن رفع الصوت بحضرته ، وأمر بغضه بين يديه ولم يأذن بأن يدعى كما يدعى غيره ، وذلك لما له من الفضل والتفوق على سائر الناس .

ولنستعرض الآن مواقف الصحابة والتابعين في هذا الشأن لنزداد يقيناً بوجوب تعظيم شأنه ﷺ كله . وهذه مظاهر ذلك :

مظاهر تعظيم حديثه :

● روى عن عبد الرحمن بن مهدى أنه كان إذا قرأ حديث رسول الله ﷺ أمر الحاضرين بالسكوت ، وقال : لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﷺ ، يرى أنه يجب له الإنصات عند قراءة حديثه كما يجب ذلك عند سماع قوله ﷺ .

● ما روى عن جعفر بن محمد الصادق ، وكان كثير الدعاة والتبسم أنه إذا ذكر عنده النبي ﷺ اصفرَّ وجهه ، وما رُئِيَ يحدث عن رسول الله ﷺ إلا على طهارة .

● ما روى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه إذا حدث فقال : قال رسول الله ﷺ علاه كرب ، وتحذر العرق من جبينه رضى الله عنه وأرضاه .

● مرَّ مالك بن أنس إمام دار الهجرة رحمه الله مرَّ على أنى حازم وهو يحدث فجازاه ولم يقف عنده وعلل لذلك بقوله : إني لم أر موضعاً أجلس فيه فكرهت أن آخذ حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم ، وكان رحمه الله تعالى إذا أراد أن يحدث بحديث رسول الله ﷺ اغتسل وتطيب ولبس أحسن ثيابه ، ثم خرج فحدث .

مظاهر تعظيم آل بيته ﷺ :

إن من مظاهر تعظيم آل بيت الحبيب ﷺ — الذين قال الله فيهم : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ وقد أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا — ما يلي :

- قول أبي بكر الصديق رضى الله عنه: ارقُبوا محمدًا ﷺ في أهل بيته ، وقوله : والذى نفسى بيده لقراءة رسول الله أحب إلىَّ أن أصل من قرابتى .
- ما روى أن زيد بن ثابت الأنصارى ، رضى الله عنه قد قبل يد ابن عباس وقال هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا .

مظاهر تعظيم أصحابه ﷺ :

إن تعظيم أصحابه ﷺ من تعظيمه فداه أبى وأمى إذ لولا صحبتهم له ما عظموا هذا التعظيم الخاص دون غيرهم من سائر الناس .

ومن مظاهر تعظيمهم ما يلي :

- قول مالك بن أنس رحمه الله تعالى من غاظه أصحاب رسول الله ﷺ فهو كافر لقول الله تعالى فيهم : ﴿ لَيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ .
- قول عبد الله بن المبارك خصلتان من كانتا فيه نجا : الصدق وحب أصحاب محمد ﷺ .

• قول أبى أيوب السَّخْتِيَّانى : من أحب أبا بكر فقد أقام الدين ، ومن أحب عمر فقد أوضح السبيل ، ومن أحب عثمان فقد استضاء بنور الله ، ومن أحب عليًّا فقد أخذ بالعروة الوثقى ومن أحسن الثناء على أصحاب محمد ﷺ برىء من النفاق ، ومن انتقص أحدًا منهم فهو مبتدع مخالف للسنة والسلف الصالح ، وأخاف أن لا يرفع له عمل إلى السماء حتى يحجم جميعًا ويكون قلبه سليما .

مظاهر تعظيم آثاره ﷺ :

ومن مظاهر تعظيم آثار الحبيب ﷺ ما يلي :

● من أنه كانت لأبي مخذرة قصة في مقدم رأسه إذا قعد وأرسلها وصلت إلى الأرض فقبل له : ألا تحلقها ؟ قال لم أكن بالذى يحلقها وقد مسها رسول الله ﷺ بيده .

● ما روى أن خالد بن الوليد رضى الله عنه كانت له قلنسوة فيها شعرات من شعر رسول الله ﷺ فسقطت منه في بعض حروبه فشد عليها شدة أنكرها عليه أصحابه لكثرة من قتل فيها فقال : لم أفعلها من أجل القلنسوة بل لما فيها من شعر رسول الله ﷺ . لئلا أسلب بركتها ، وتقع في أيدي المشركين !!

● قول مالك : من قال تربة المدينة رديئة يضرب ثلاثين دِرَّةً ويُحبس . وقال ما أحوجه إلى ضرب عنقه تربة دفن فيها رسول الله ﷺ يزعم أنها رَدِيئة !!

● قول الرسول ﷺ : « من حلف على منبرى كاذبًا فليتبوا مقعده من النار » .

ففى هذا شاهد قوى على وجوب تعظيم منبر رسول الله ، إذ هو أثر من آثاره ﷺ .

● قوله ﷺ : « في المدينة كل المدينة . من أحدث فيها حدثًا أو آوى محدثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف^(١) ولا عدل » . وقوله : « صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام » .

(١) أى لا يقبل منه نفل ولا فرض حتى يتوب .

(ح) وجوب النصح له ﷺ :

إن لوجوب النصح له ﷺ أدلة من الكتاب والسنة مثل قوله تعالى من سورة التوبة : ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ فذكر النصح لرسوله وأنه نافع لصاحبه رافع عنه الحرج ما دام ناصحاً لله ولرسوله غير غاش ولا خادع بهما .

ومثل قول الرسول ﷺ : « الدين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله » فجعل النصح له ديناً .

معنى النصح : أنه إرادة الخير للمنصوح له ، ولا يتم هذا إلا بعد تخلص النفس من كل الشوائب حتى تصل إلى درجة تريد فيها الخير كاملاً لمن تريده له .

والنصيحة لرسول الله ﷺ تكون بأمر هي مظاهر لها وهي :

(١) التصديق بنبوته المثمر لطاعته في أمره ونهيه ، ومؤازرته ونصرته ، وحمايته حياً وميتاً وإحياء سنته بتعليمها بعد العمل بها ، والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه ﷺ .

(٢) شدة المحبة له ولأهل بيته ، وكافة أصحابه ، وموالاته من يواليه ويوالي أهل بيته وأصحابه في صدق ، ومعاداة من يعاديه ويعادى أهل بيته وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين .

(٣) إبلاغ رسالته بعده ونشر دعوته وإقامة شريعته ، وإعزاز أهل ملته وإذلال أهل بغضته وعداوته من الكافرين بدينه والكائدين لأمته وملته .

(ط) محبة أهل بيته وصحابته :

إن محبة أهل بيت رسول الله ﷺ ومحبة أصحابه من محبته ﷺ ، وما دامت محبته واجبةً فمحبة ما يحب واجب أكيد أيضاً ، وعليه فما أحب رسول

الله من لم يحب أهل بيته وأصحابه ، إذ كان ﷺ يحبهم . وحسبنا في التدليل على وجوب محبة أهل بيت رسول الله ﷺ ومحبة أصحابه إيراد الأحاديث والآثار الآتية :

• ما حدث به زيد بن أرقم رضى الله عنه إذ قال ، قال رسول الله ﷺ : « أنشدكم الله أهل بيتي » أى أسألكم بالله وأقسم به عليكم قالها ثلاثا . وسئل زيد بن أرقم عن أهل بيته فقال : هم آل على وآل جعفر وآل عقيل ، وآل العباس .

• قوله ﷺ للعباس : « والذى نفسى بيده لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ورسوله ومن آذى عمى فقد آذانى ، وإنما عم الرجل صنو^(١) أبيه » .

• قوله ﷺ فى أسامة بن زيد والحسن بن على : « اللهم إني أحبهم فأحبهما » .

• قول أبى بكر الصديق رضى الله عنه أقبروا محمداً فى أهل بيته .

• قوله ﷺ لأم سلمة : « لا تؤذينى فى عائشة » .

• قول عمر بن عبد العزيز لعبد الله بن الحسن بن حسين إذا كانت لك حاجة فأرسل إلى ، أو اكتب فىنى أستحى من الله أن يراك الله على بائى . فهذا تعظيم وأى تعظيم من عمر لأهل بيت رسول الله ﷺ .

• قول عمر لابنه عبد الله لما أعطى أسامة ثلاثة آلاف وخمسمائة وأعطى ولده عبد الله ثلاث آلاف فقال لم فضّلت على ؟ فوالله ما سبقنى إلى مشهد ، قال : لأن زيدا كان أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك وأسامة أحب إليه

(١) الصنو : المثل .

منك فآثرت حبّ رسول الله ﷺ على حبّي !!

كانت تلك الأخبار الموجبة لحب أهل بيت رسول الله ﷺ . وأما أصحابه رضوان الله عليهم ففي كتاب الله ما يوجب حبهم وتقديرهم والترضى عنهم ، وما يحرم انتقاصهم ، والظعن فيهم ، والنيل من كرامتهم ، فقد قال تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ . فهل يرضى الله عن عبده ويجوز السخط عليه من قبل عباده ؟؟ اللهم لا ، لا ، وقال تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ . إلى قوله : ﴿ لَيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ . فهل يمدح الله تعالى أقواما ويشنّى عليهم في كتابه ويجوز ذمهم وعدم إجلالهم وتقديرهم ؟ اللهم لا ، لا .

● قوله ﷺ في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما : « اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر » .

● قوله ﷺ : « لا تسبوا أصحابي فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه^(١) » .

● قوله ﷺ في الأنصار : « اعفوا عن مسيئهم واقبلوا من محسنهم » .

● قول سهل بن عبد الله التستري رحمه الله تعالى لم يؤمن بالرسول من لم يوقّر أصحابه . ولم يُعزّز^(٢) أوامره .

● قول مالك بن أنس إمام دار الهجرة : من غاظه أصحاب محمد فهو كافر لقوله تعالى : ﴿ لَيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ .

(١) المد : الحفنة ، والنصيف نصفها .

(٢) فينصرها ويقويها ويجلّها ويعظمها .

● قوله وقول غيره أيضا : من أبغض أصحاب رسول الله ﷺ وسبهم لا حق له في فيء المسلمين لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فالذين في قلوبهم غل على أصحاب رسول الله ﷺ لا حق لهم في الفىء ، إذ يخرجون بهذه الآية الكريمة من سورة الحشر . وهذا فقه عظيم ، وفهم لكتاب الله كبير سديد .

(ى) الصلاة عليه ﷺ :

هذا آخر الحقوق العشرة الواجبة لرسول الله ﷺ صاحب هذه السيرة العطرة ، الواجبة له على كل مؤمن ومؤمنة ، وهو الصلاة والسلام عليه ﷺ . إن هذا الحق الواجب الأكيد ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ من سورة الأحزاب وقال رسول الله ﷺ « رغم أنف امرئ ذكرت عنده فلم يصل على » وقال : « صلوا على حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغنى » ، وقال له أصحابه رضى الله عنهم أما السلام عليك فقد عرفناه فكيف نصلى عليك ؟ قال : قولوا : « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد » . فالصلاة عليه ﷺ واجبة في الجملة وتتأكد عند ذكره ﷺ ، وفي التشهد الأخير من كل صلاة . وجاء في فضلها قوله ﷺ : « من صل على مرة صلى الله عليه بها عشرة » . وقوله : « إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن ثم صلوا على أى قولوا اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ثم سلوا لى الوسيلة والفضيلة أى قولوا : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقامًا محمودًا الذى وعدته ، فإن من فعل ذلك حلت له شفاعتى يوم القيامة » .

المواطن التي تستحب فيها الصلاة عليه ﷺ :

إن هناك مواطن كثيرة تستحب فيها الصلاة على النبي ﷺ نجملها إزاء النقاط الآتية :

● قبل الدعاء وبعده ، فالداعي يبدأ دعاءه بحمد الله والثناء عليه ، ثم يصلى على النبي ﷺ ، ثم يدعو بما شاء من الخير ثم يختم دعاءه بالصلاة على النبي ﷺ ، لما ورد : « الدعاء بين الصلاتين على لا يرد » . ولقول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه إذا أراد أحدكم^(١) أن يسأل الله شيئاً فليبدأ بحمد الله والثناء عليه بما هو أهله ثم يصلى على النبي ﷺ ، ثم ليسأل فإنه أجدر أن يُنجح أى يفوز باستجابة دعائه .

● يوم الجمعة وليلتها ؛ إذ روى النسائي بسنده أن النبي ﷺ أمر بالإكثار من الصلاة عليه يوم الجمعة ، وورد ليلتها أيضاً .

● عند سماع ذكره أو كتابته لحديث : « رغم أنف امرئ ذكرت عنده ولم يصلى على » .

● عند دخول المسجد بأن يقول بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اللهم اغفر لى ذنبى وافتح لى أبواب رحمتك ، وعند الخروج كذلك إلا أنه يقول وافتح لى أبواب فضلك بدل رحمتك .

● وبعد التكبيرة الثانية من صلاة الجنائز ؛ إذ الأولى يقرأ بعد الفاتحة ، والثانية يصلى بعدها على النبي ﷺ الصلاة الإبراهيمية وهى التى يصلى بها فى التشهد الأخير من كل صلاة فريضة أو نافلة .

(١) ورد بهذا اللفظ أو بقریب منه مرفوعاً وصحيح الإسناد وهو أن النبي ﷺ سمع رجلاً يدعو فى صلاته فلم يصلى على النبي ﷺ فقال النبي ﷺ : « عجل هذا » ثم دعاه فقال له ولغيره « إذا أراد أحدكم الخ » .

صِيغَ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ :

لقد ورد في الصلاة على النبي ﷺ صِيغٌ كثيرة بعضها مرفوع إلى النبي ﷺ ، وبعضها مأثور عن السلف الصالح ، وبعضها محدث مبتدع^(١) . ونظرًا لذلك فإننا نكتفى بذكر أعلى الصلاة وذكر أدناها . فأعلى الصلاة وأفضلها على الإطلاق الصلاة الإبراهيمية التي علمها رسول الله ﷺ أصحابه كما تقدم قريبًا إذ قال لهم : « قولوا . اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد » وأدنى الصلاة عليه ﷺ : اللهم صل على محمد وسلم تسليما لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ .

فاللهم صل على محمد عبدك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً . ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

المدينة المنورة في ١٤٠٧/١١/٢٠ هـ

(١) من تلك الصلوات المحدثه صلاة الفاتح عند الطائفة الشيعانية .

فهرس الكتاب

الصفحة	الموضوع
٥	المقدمة
٧	خريطة مكة
٨	أرض النبوة
٨	الدوحة الكريمة
٩	وقفه قصيرة
١١	ثمره القصّة
١٢	بداية أمر مكة
١٢	عبرة
١٢	عمارة مكة
١٣	عبرة
١٤	نتائج وعبر
١٥	بناء إبراهيم عليه السلام للبيت العتيق
١٦	نتائج المقطوعة
١٦	بداية أمر الحبيب ﷺ
١٧	إسماعيل عليه السلام وذريته
١٧	نتائج وعبر هذه المقطوعة من السيرة العطرة
١٨	سلسلة الطهر « النسب الشريف »
١٨	العرب البائدة

١٨	العرب العاربة
١٩	العرب المستعربة
٢٠	عودة سريعة إلى النسب الشريفة
٢٢	شجرة النسب الشريف
٢٣	قبل الفجر الحمدي
٢٤	الحالة السياسية في بلاد العرب
٢٧	حقائق وعبر
٢٨	الحالة الاقتصادية في بلاد العرب
٢٩	نتائج المقطوعة من السيرة العطرة
٢٩	الحالة الاجتماعية في بلاد العرب
٣٠	العادات السيئة للعرب
٣٢	العادات الحسنة للعرب
٣٤	نتائج وعبر هذه المقطوعة من السيرة العطرة
٣٥	الحالة الدينية في بلاد العرب
٣٦	الأصنام والتماثيل
٣٩	عمل العرب مع أصنامهم
٣٩	نتائج وعبر هذه المقطوعة من السيرة العطرة
٤١	البدع الدينية في عهد الجاهلية
٤٣	نتائج وعبر
٤٤	النصرانية واليهودية في بلاد العرب
٤٧	نتائج وعبر
٤٧	الحنفاء في بلاد العرب

٤٩	نتائج وعبر
٥٠	خريطة البلاد العربية وقبائلها مفرقة فيها
٥١	تباشير الصباح
٥١	دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام
٥١	أخذ الميثاق له ﷺ
٥٢	بشارات الكتب الإلهية به ﷺ
٥٥	شهادات أهل الكتاب له ﷺ
٥٦	هتاف الجن بالبشرى
٥٨	حادثة أصحاب الفيل
٦١	طلوع الفجر المحمدى أو الميلاد السعيد
٦٣	نتائج وعبر
٦٣	الحمل والميلاد
٦٥	نتائج وعبر
٦٦	رضاع الحبيب ﷺ ومراضعه
٦٩	نتائج وعبر
٦٩	كفلاء الحبيب ﷺ
٧٠	نتائج وعبر
٧١	مظاهر الكمال المحمدى
٧١	أول تلك المظاهر : الاستسقاء به
٧٢	نتائج وعبر
٧٢	ثانى تلك المظاهر أنه ﷺ لم تكشف له عورة قط
٧٣	نتائج وعبر

- ٧٣ ثالث تلك المظاهر أنه ﷺ قد بغضت إليه الأوثان وكل أنواع الباطل
- ٧٤ نتائج وعبر
- ٧٤ ورابع تلك المظاهر هو تحكيم قريش له ﷺ في أعظم خلاف لها
- ٧٥ نتائج وعبر
- ٧٥ وخامس تلك المظاهر اعتراف بحيرا الراهب بكماله ﷺ
- ٧٧ نتائج وعبر
- ٧٧ وسادس تلك المظاهر حضوره ﷺ حلف الفضول
- ٧٩ نتائج وعبر
- ٧٩ وسابع الكمالات هو رغبة خديجة فيه وزواجها به ﷺ
- ٨٠ خطبة الزواج الميمون
- ٨١ نتائج وعبر
- ٨٢ دنو ساعة طلوع الشمس المحمدية
- ٨٢ طلوع الشمس المحمدية
- ٨٤ نتائج وعبر
- ٨٤ أشعة الشمس المحمدية تضيء دار خديجة وتطلع على ورقة بن نوفل
- ٨٧ نتائج وعبر
- ٨٧ فتور الوجى وعودته
- ٨٨ نتائج وعبر
- ٨٨ صور الوجى المحمدى
- ٩٠ نتائج وعبر
- ٩٠ بدء الحبيب ﷺ دعوته
- ٩٢ نتائج وعبر

٩٣	إسلام الصديق وأثره في الدعوة المحمدية
٩٤	نتائج وعبر
٩٥	أفواج السابقين بعد الأولين
٩٧	نتائج وعبر
٩٨	الجهر بالدعوة بعد الإسرار بها
٩٩	نتائج وعبر
٩٩	قصة إسلام حمزة رضى الله عنه
١٠٠	قصة إسلام عمر رضى الله عنه
١٠١	ارتفاع ضوء الشمس المحمدية ، وعشًا أبصار المشركين
١٠٩	نتائج وعبر لعروض المشركين الخمسة
١١٠	خيبة أمل المشركين تتحول إلى نقمة على المستضعفين من المؤمنين
١١٢	نتائج وعبر
	المستهزئون بالحبيب ﷺ وما أنزل الله تعالى بهم
١١٢	من أليم العذاب
١١٩	نتائج وعبر
١١٩	أول هجرة في الإسلام
١٢٢	نتائج وعبر
١٢٣	إرسال قريش وفدها إلى النجاشي
١٢٥	نتائج وعبر
١٢٦	هجرة أبى بكر الصديق رضى الله عنه الأولى
١٢٧	نتائج وعبر
١٢٧	في شعب أبى طالب

١٢٩	نتائج وعبر
١٣٠	اشتداد حلوة الليالي والأيام عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام
١٣١	نتائج وعبر
١٣٢	خروج الحبيب ﷺ إلى الطائف يطلب النصره لدينه
١٣٤	نتائج وعبر
١٣٥	الإسراء بالحبيب ﷺ والعروج به إلى الملكوت الأعلى
١٣٩	نتائج وعبر
١٣٩	ثلاث آيات من آيات النبوة المحمدية
١٤١	نتائج وعبر
١٤٢	الخروج بالدعوة خارج مكة
١٤٣	نتائج وعبر
١٤٤	تدابير إلهية لظهور الإسلام
١٤٩	نتائج وعبر
١٥٠	لطائف أمور قبل هجرة الحبيب ﷺ
١٥٦	هجرة الحبيب ﷺ إلى طيبة الطيبة
١٥٩	نتائج وعبر
١٦٠	الطريق إلى المدينة
١٦٢	عودة إلى مسامرة الركب الميمون
١٦٤	نتائج وعبر
١٦٥	في طيبة دار الحبيب ﷺ
١٦٥	الحبيب ﷺ في قباء
١٦٦	أول عمل بقاء للحبيب ﷺ
١٦٧	نتائج وعبر
١٦٨	استقبال الأنصار للحبيب ﷺ وعظيم فرحهم وحفاوتهم به
١٧٠	نتائج وعبر

الصفحة	الموضوع
١٧٠	بناء المسجد النبوى وشرف المدينة وأهلها
١٧٣	نتائج وعبر
١٧٤	جهود الحبيب ﷺ فى الإصلاح والتأسيس والبناء بالمدينة النبوية
١٨٠	نتائج وعبر
١٨١	أحداث بعضها مفرح ، وبعضها مخزن
١٨١	الصلاة والأذان
١٨٢	نتائج وعبر
١٨٣	وفاة كلثوم بن الهدم وأسعد بن زرارة رضى الله عنهما
١٨٤	نتائج وعبر
١٨٤	أول مولود للمهاجرين
١٨٥	نتائج وعبر
١٨٥	بناء الحبيب ﷺ بأحب نسائه إليه
١٨٦	نتائج وعبر
١٨٦	آخر أحداث هذه السنة « الأولى من الهجرة » ثلاث سرايا
١٨٧	نتائج وعبر
١٨٧	سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم رضى الله عنه
١٨٨	نتائج وعبر
١٨٨	سرية سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه
١٨٨	نتائج وعبر
١٨٩	ظهور العداء الشديد وبدء الصراع الداخلى
١٨٩	منافقو اليهود

الصفحة	الموضوع
١٩١	مناققو المشركين
١٩٤	الأعداء المعلنون عداءهم من اليهود
١٩٥	نتائج وعبر
١٩٦	جدليات اليهود ، ومظاهر عنادهم
١٩٨	نتائج وعبر
١٩٩	وكاليهود نصارى نجران يجادلون ويعاندون
٢٠١	نتائج وعبر
٢٠٢	الحالة الصحيّة بدار الهجرة
٢٠٤	غزوة الأبواء
٢٠٥	غزوة بواط
٢٠٥	غزوة العشيرة
٢٠٦	غزوة بدر الأولى
	سريّة عبد الله بن جحش رضى الله عنه إلى نخلة
٢٠٧	بين مكة والطائف
٢١٠	نتائج وعبر
٢١٠	غزوة بدر الكبرى
٢١٤	تدبير حربى
٢١٥	تدبير آخر
٢١٦	تدبير سابق
٢١٧	عودة إلى المعسكر الإسلامى
٢١٨	تدبير صالح
٢١٨	تقارب المعسكرين
٢١٩	في معسكر الكفر

٢٢٠	في معسكر الإسلام
٢٢١	التقاء الفريقين
٢٢٢	المبارزة قبل الالتحام
٢٢٣	نهاية سعيدة
٢٢٤	آية محمدية
٢٢٥	جيف المشركين
٢٢٥	توبيخ الحبيب ﷺ لأعدائه
٢٢٦	خلاف الأجابة وحسمه
٢٢٧	بشائر النصر
٢٢٧	طلوع البدر
٢٢٨	أيهما خير القتل أو الفداء
٢٢٩	كرم محمدى
٢٣٠	صدى هزيمة المشركين في مكة
٢٣١	من أصدقاء المعركة وآثارها
٢٣٣	هجرة زينب رضى الله عنها
٢٣٤	إسلام أبى العاص وكيف كان
٢٣٨	شرف أهل بدر
٢٣٩	نتائج وعبر
	أهم ما وقع من أحداث في السنة الثانية من هجرة
٢٤٢	الحبيب ﷺ
٢٤٤	خريطة تحدد موقع بدر بين مكة والمدينة
٢٤٥	غزوة بنى قينقاع

٢٤٧	نتائج وعبر
٢٤٨	غزوة الكُدر
٢٤٨	نتائج وعبر
٢٤٩	غزوة السويق
٢٥٠	نتائج وعبر
٢٥١	أحداث السنة الثالثة من هجرة الحبيب ﷺ
٢٥١	غزوة ذي أمر
٢٥٢	نتائج وعبر
٢٥٢	غزوة الفرع
٢٥٣	نتائج وعبر
٢٥٣	سرية زيد بن حارثة إلى القرد
٢٥٤	نتائج وعبر
٢٥٥	سرية محمد بن مسلمة لقتل كعب اليهودي
٢٥٧	نتائج وعبر
٢٥٨	غزوة أحد
٢٦٥	سبب الهزيمة
٢٦٨	مواقف في أحد ومواقف
٢٧٢	نتائج وعبر
٢٧٤	غزوة حمراء الأسد
٢٧٧	نتائج وعبر
٢٧٨	أهم ما وقع من أحداث في السنة الثالثة من هجرة الحبيب ﷺ

٢٧٩	خريطة تبين موقع أحد من المدينة النبوية على صاحبها
٢٨٠	أفضل الصلاة وأزكى السلام
٢٨٠	أحداث السنة الرابعة من هجرة الحبيب ﷺ
٢٨٢	حدث الرجيع المؤلم
٢٨٣	نتائج وعبر
٢٨٥	حدث بئر معونة الجلل
٢٨٥	نتائج وعبر
٢٨٨	سرية عمرو بن أمية الضمري
٢٨٩	نتائج وعبر
٢٩٢	غزو بني النضير
٢٩٢	نتائج وعبر
٢٩٣	عبرة خاصة
٢٩٥	غزوة ذات الرفاع
٢٩٥	نتائج وعبر
٢٩٦	غزوة السويق
٢٩٦	نتائج وعبر
٢٩٧	أهم ما وقع من أحداث في السنة الرابعة
٢٩٨	من هجرة الحبيب ﷺ
٢٩٨	أحداث السنة الخامسة
٢٩٨	غزو دومة الجندل
٢٩٩	نتائج وعبر
٢٩٩	غزوة الخندق أو الأحزاب
٢٩٩	سبب وقوعها

٣٠١	حفر الخندق
٣٠٢	آيات تظهر أثناء الحفر وبعده
٣٠٣	موقف مخز للمنافقين
٣٠٤	عمل شرير يقوم به ابن أخطب
٣٠٥	رحمة نبوية تتجلى في عرض صالح
٣٠٦	بداية المعركة
٣١١	نتائج وعبر
٣١٢	غزوة بنى قريظة
٣١٥	عرض مرفوض — وآخر مقبول
٣١٦	عثرة كريم أقالها الله جل جلاله
٣١٧	من المستشفى إلى المحكمة
٣١٩	تنفيذ الحكم
٣١٩	القرضية العجب
٣٢٠	وقرطى أعجب
٣٢١	أموال بى قريظة
٣٢٢	ريحانة الحبيب ﷺ
٣٢٢	وفاة سعد بن معاذ رضى الله عنه
٣٢٣	نتائج وعبر
	أهم ما وقع من أحداث في السنة الخامسة
٣٢٤	من هجرة الحبيب ﷺ
٣٢٤	أحداث السنة السادسة من هجرة الحبيب ﷺ
٣٢٥	غزوة بنى لحيان

الصفحة	الموضوع
٣٢٦	نتائج وعبر
٣٢٦	غزوة ذى قرد
٣٢٨	نتائج وعبر
٣٢٩	غزوة بنى المصطلق من خزاعة — أو المُرَيْسِع
٣٣٠	فتنة أرادها ابن أبيّ ولكن الله سلّم
٣٣١	موقف متحفظ
٣٣٢	لا عجب في غدر الكافر
٣٣٢	حادثة الإلفك
٣٣٦	نتائج وعبر
٣٣٧	عمرة الحديبية ، وبيعة الرضوان
٣٣٩	وفد خزاعة
٣٣٩	سفارة قریش
٣٤٠	غضبة صادقة
٣٤٢	سفير النبي ﷺ
٣٤٢	إساءة وإحسان
٣٤٢	سفارة أعظم
٣٤٣	بيعة الرضوان
٣٤٤	سفارة وهدنة
٣٤٤	عمر رضى الله عنه ينكر
٣٤٤	توبة عمر
٣٤٥	كتابة وثيقة الصلح ونصها
٣٤٦	أبو جندل يستصرخ
٤٤٦	التحلل من الإحرام
٤٤٧	آثار المصالحة

- ٣٤٨ نتائج وعبر
- مجموعة السرايا الآتية ، سرية عكاشة ، سرية محمد بن مسلمة ، سرية أنى عبيدة ، سرية زيد بن حارثة
- ٣٥٠ سرية كرز بن جابر الفهري
- ٣٥١ مكاتبة الرسول ﷺ الملوك والرؤساء
- ٣٥١ أسماء حاملي كتبه ﷺ
- ٣٥٢ نماذج من كتبه ﷺ
- ٣٥٥ نتائج وعبر
- ٣٥٧ خريطة غزوات الشمال خير ودومة الجندل وتبوك
- ٣٥٨ أهم أحداث السنة السابعة من هجرة الحبيب ﷺ
- ٣٥٨ غزوة خير
- ٣٦٠ خطبة تشريع حكيم
- ٣٦١ دعوة نبوية مستجابة
- ٣٦١ آخر حصن يفتح
- ٣٦٢ مواقف يحسن أن تذكر
- ٣٦٤ نتائج وعبر
- ٣٦٥ غزوة وادي القرى
- ٣٦٦ نتائج وعبر
- ٣٦٦ ما تم من أمور هامة عند العودة من غزوة خير
- ٣٦٩ سبع سرايا تبعث إلى أنحاء مختلفة
- سرية أنى بكر الصديق — سرية عمر بن الخطاب
- ٣٦٩ سرية بشير بن سعد الأنصاري

الصفحة	الموضوع
٣٧٠	سرية غالب الكلبي — سرية بشير بن سعد الأنصارى
٣٧١	سرية عبد الله بن رواحة — سرية عبد الله بن حذافة
٣٧٢	نتائج وعبر
٣٧٢	عمرة القضاء
٣٧٣	زواج الحبيب ﷺ
٣٧٤	الكرم المحمدى
٣٧٤	نتائج وعبر
٣٧٥	لطيفة
٣٧٥	سرية ابن أبى العوجاء
٣٧٦	نتائج وعبر
٣٧٦	أهم أحداث هذه السنة غير الغزوات والسرايا
٣٧٧	أهم أحداث السنة الثامنة من هجرة الحبيب ﷺ
٣٧٧	سرية غالب
٣٧٨	نتائج وعبر
٣٧٨	سرية شجاع ، سرية عمرو بن كعب
٣٧٩	إسلام كل من خالد وعمرو وعثمان
٣٨٠	نتائج وعبر
٣٨٠	سرية ذات السلاسل
٣٨١	سرية عمرو بن العاص — وسرية الخطب
٣٨٢	نتائج وعبر
٣٨٢	سرية أبى قتادة
٣٨٣	سرية أبى قتادة إلى إضم
٣٨٤	غزوة مؤتة

الصفحة	الموضوع
٣٨٦	إخبار النبي ﷺ بالواقعة
٣٨٧	امرأة جعفر تحدّث
٣٨٧	نتائج وعبر
٣٨٨	غزوة الفتح : فتح مكة — أسبابها
٣٩٠	التجهيز والإعداد
٣٩١	المسير إلى مكة
٣٩٢	بحر الظهران
٣٩٣	استعراض القوة للإرهاب
٣٩٤	دخول القوات إلى مكة
٣٩٥	من القبة إلى المسجد
٣٩٦	مظاهر الكرم المحمدي
٣٩٦	المجرمون الثمانية
٣٩٧	البيعة على الإسلام
٣٩٨	الإنسان قبل الإيمان
٣٩٨	ذكريات فيها عبر وعظات
٤٠٠	نتائج وعبر
٤٠٢	غزوة خالد بن جذيمة
٤٠٣	نتائج وعبر
٤٠٣	حدثان هامان عقيب الفتح
٤٠٤	غزوة هوازن
٤٠٥	رأى صائب لم يُقبل
٤٠٥	عيون ترى الملائكة
٤٠٦	خروج النبي ﷺ إلى هوازن

٤٠٦	طلب جاهليّ مرفوض
٤٠٧	شماتة ذوى الضغائن
٤٠٨	ودارت المعركة
٤٠٩	أنباء ذات خطر متفرقة
٤١١	نتائج وعبر
٤١٢	حصار الطائف
٤١٣	أحداث يحسن ذكرها
٤١٣	نتائج وعبر
٤١٤	قسمة غنائم حنين
٤١٦	من لا يعطى خير ممن يُعطى ، موجدة الأنصار
٤١٧	واعتمر الحبيب ﷺ
٤١٨	نتائج وعبر
٤١٩	أهم أحداث سنة ثمان من هجرة الحبيب ﷺ
٤٢٠	إسلام كعب بن زهير بن أبى سلمى
٤٢٢	نتائج وعبر
٤٢٣	غزوة تبوك — أسباب هذه الغزوة
٤٢٤	التعبئة العامة
٤٢٤	جمع المال لخوض المعركة
٤٢٥	اعتذار كاذب ، واعتذار مردود
٤٢٥	تخلف من غير شك
٤٢٦	البكاءون
٤٢٦	مسير الحبيب ﷺ

٤٢٦	المثبطون
٤٢٧	أبو خيثمة يفوز
٤٢٨	من أعلام النبوة
٤٣١	المقام المبارك
٤٣١	خطبة نبوية جامعة
٤٣٣	إيجائيات نبوية
٤٣٤	حدث هام
٤٣٥	ياليتنى كنت صاحب الحفرة
٤٣٥	مسجد الضرار
٤٣٦	الرهط المتخلف
٤٣٧	نتائج وعبر
٤٣٩	غزوة طيء وإسلام عدى
٤٤٠	نتائج وعبر
٤٤١	قدوم عروة بن مسعود الثقفى
٤٤٢	نتائج وعبر
٤٤٢	قدوم وفد ثقيف
٤٤٣	شروط مرفوضة
٤٤٣	قضاء ديون من مال الطاغية
٤٤٤	عهد لابن أبى العاص
٤٤٤	نتائج وعبر
٤٤٥	قدوم الوفود على الحبيب ﷺ
٤٤٦	وفد بنى أسد ، وفد بلى ، وفد تميم

- ٤٤٧ جفاء هذا الوقد وسوء أدبه
- ٤٤٨ قدوم وفد عبد القيس
- ٤٤٩ قدوم وفد بنى حنيفة
- ٤٤٩ قدوم وفد رسل ملوك حمير
- ٤٥٠ قدوم وفد بهراء ، ووفد عذرة
- ٤٥١ قدوم وفد ذى مرة ، ووفد سعد بن بكر
- ٤٥٢ قدوم وفد الأزد
- ٤٥٢ قدوم وفد طيء
- ٤٥٣ عبر ونتائج
- ٤٥٤ حج أئى بكر الصديق بالناس
- ٤٥٤ نتائج وعبر
- ٤٥٥ أهم أحداث السنة التاسعة من هجرة الحبيب ﷺ
- ٤٥٦ ودخلت السنة العاشرة من هجرة الحبيب ﷺ
- ٤٥٦ بعث خالد بن الوليد إلى بنى الحارث بن كعب بنجران
- ٤٥٧ نتائج وعبر
- ٤٥٧ وصول وفد نصارى نجران
- ٤٥٨ نتائج وعبر
- ٤٥٨ قدوم وفود عديدة على الرسول ﷺ
- ٤٥٨ وفد سلامان ، وفد غسان ، وفد عامر ، وفد الأزد
- ٤٥٩ وفد مراد
- ٤٦٠ إرسال فروة بن عمرو الجذامى رسولا
- ٤٦١ قدوم وفد زبيد ، وفد عبد القيس ، وفد كندة
- ٤٦٢ وفد محارب ، وفد عبد عيس وغيرهم
- ٤٦٣ نتائج وعبر

- ٤٦٣ إرسال النبي ﷺ علياً إلى اليمن وإسلام همدان
- ٤٦٤ بعث النبي ﷺ أمراء على الصدقات
- ٤٦٥ نتائج وعبر
- ٤٦٥ حجة الوداع
- ٤٦٩ نتائج وعبر
- ٤٧٠ ودخلت السنة العاشرة من هجرة الحبيب ﷺ
- ٤٧٠ بعث جيش أسامة إلى الشام
- ٤٧١ نتائج وعبر
- خاتمة الجهاد الحمدي ببيان عدد غزواته
- ٤٧١ وسراياه ﷺ
- ٤٧٣ مرض الحبيب ﷺ ووفاته
- ٤٧٤ في بيت عائشة رضي الله عنها
- ٤٧٦ اشتداد الكرب وكمال الصديق رضي الله عنه
- ٤٧٧ غسل الحبيب ﷺ وكفنه ودفنه
- ٤٧٨ بكاء ودموع على الحبيب ﷺ
- ٤٨٠ الذات المحمدية
- ٤٨١ الرسم الكريم للحبيب محمد ﷺ
- ٤٨٢ أسماء الذات المحمدية
- ماله علاقة بالذات المحمدية ؛ كالزوجات والأولاد
- ٤٨٣ والموالى ، والممتلكات له ، كالمراكب وأنواع السلاح
- ٤٨٣ أزواجه ﷺ
- ٤٨٦ أولاده ﷺ

الصفحة	الموضوع
٤٨٧	موالى الحبيب ﷺ
٤٨٩	إملاء رسول الله ﷺ
٤٩٠	كتابه ﷺ
٤٩٢	أسماء خيله ﷺ
٤٩٣	أسماء بغال الحبيب ﷺ
٤٩٣	أسماء إبله ولقاحه ومناحه ﷺ
٤٩٣	أسماء سلاح الحبيب ﷺ
٤٩٤	الخصائص المحمدية
٤٩٤	النبوة ،الوحى
	نوم العينين دون القلب ، إباحة الله تعالى له نكاح
	أكثر من أربع زوجات ، وصال الصيام ، حرمة أكل
٤٩٥	الصدقة ، وقيام الليل
٤٩٦	عدم إرثه ﷺ ، هبة النكاح ، حرمة نكاح نسائه بعده ﷺ
٤٩٧	المعجزات المحمدية
٤٩٨	القرآن الكريم
٤٩٩	انشقاق القمر ، نزول المطر بدعائه
٥٠٠	نبوع الماء من بين أصابعه ﷺ ، فيضان ماء بئر الحديبية
٥٠١	قدح لبن روى فقاماً من الناس ببركته ﷺ
٥٠٣	امتلاء عكة سمن بعد فراغها
٥٠٤	الطعام القليل يشبع العدد الكثير
٥٠٥	تكاثر الطعام
٥٠٥	توفيه دين جابر الذى استغرق كل ماله
٥٠٦	انقياد الشجر له ﷺ

- ٥٠٧ حنين الجذع شوقا إليه ﷺ
- ٥٠٨ تسبيح الحصى في يديه وسلام الشجر عليه ﷺ
- ٥٠٩ سلام الحجر عليه ﷺ
- ٥٠٩ سجود البعير له ﷺ
- ٥١٠ شهادة الذئب برسالته ﷺ
- ٥١١ توقير الوحش له ﷺ واحترامه
- ٥١٢ احترام الأسد لمولاه ﷺ
- ٥١٣ نطق الغزالة ووفائها له ﷺ
- ٥١٤ خروج الجن من الصبي بدعائه ﷺ
- ٥١٤ شفاء الضير بدعائه ﷺ
- ٥١٥ شفاء على رضي الله عنه بتفاله في عينه ﷺ
- ٥١٥ رده عين قتادة بعد تدليها على خده ﷺ
- ٥١٦ شفاء الصبي بفضل سوره ﷺ
- ٥١٦ تحول جذل الخطب سيفا
- ٥١٦ صدق إخباره بالغيب ﷺ : قوله ﷺ للمرأة « قري في بيتك فإن الله يرزقك الشهادة » فقتلت شهيدة في بيتها
- ٥١٦ وقوله في الحسن : « إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين » فكان كما أخبر ، وقوله لسراقة : « كيف بك إذا ألبيت سوارى كسرى » فكان كما أخبر
- ٥١٧ قوله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تقتل فئتان أمرهما واحد » . فكان ما أخبر به . وقوله : « إن هذا قبر أبي رغال وإن معه غصنا من ذهب » فحفر فوجد ما قال حقا . قوله لخباب : « والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب ... » . فكان كما أخبر . وقوله : « منعت العراق » الحديث . فكان كما أخبر
- ٥١٨

- وقوله : « الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم يؤتى الله ملكه من يشاء » . فكان الأمر كما أخبر
- ٥١٨ قوله في عثمان : « وبشره بالجنة على بلوى تصيبه » . فكان الأمر كما قال . وقوله لفاطمة رضى الله عنها : « أنها أول أهله لحوقا به » . فكان كما أخبر . وقوله لنسائه : « كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوآب » .
- ٥١٩ فكان الأمر كما أخبر
- وقوله في عليّ رضى الله عنه : « والذي يضربك يا عليّ على هذه » . فكان الأمر كما أخبر . وقوله : « سيكون في هذه الأمة بعث إلى السند وبعث إلى الهند » .
- ٥٢٠ فكان ما أخبر به ﷺ
- قوله ﷺ في سهيل بن عمرو : « عسى أى يقوم مقاما يسرك يا عمر » . فكان ما أخبر به . وقوله : « ستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة » فافترقت كما أخبر
- ٥٢١ الأخلاق الحمذية التى فيها أسوة للمؤمنين
- ٥٢٢ الآداب الحمذية
- ٥٢٣ الأخلاق الحمذية
- ٥٢٥ الكرم الحمذى
- ٥٢٧ الحلم الحمذى
- ٥٢٨ العفو الحمذى
- ٥٣٠ الشجاعة الحمذية
- ٥٣٢ الصبر الحمذى
- ٥٣٤ العدل الحمذى

٥٣٦	الزهد المحمدى
٥٣٧	الحياء المحمدى
٥٣٩	أدب مخالطته ﷺ وحسن عشرته
٥٤٢	خشية الحبيب ﷺ وطول عبادته
٥٤٢	مظاهر خشيته ﷺ
٥٤٣	مظاهر طول عبادته
٥٤٤	التواضع المحمدى
٥٤٥	مظاهر التواضع المحمدى
٥٤٧	المزاح المحمدى
٥٥٠	الفصاحة المحمدية
٥٥٤	الرحمة المحمدية
٥٥٤	الرحمة العامة
٥٥٥	مظاهر الرحمة المحمدية الخاصة
٥٥٦	الوفاء المحمدى
٥٥٧	وفاءه ﷺ
٥٥٧	صلته رحمه ﷺ
٥٥٩	خاتمة في بيان حقوق الحبيب ﷺ
٥٥٩	الإيمان به ﷺ
٥٦٠	محبه ﷺ
٥٦١	مظاهر محبه ﷺ
٥٦١	علامات محبه ﷺ
٥٦١	طاعته ﷺ

٥٦٢	مظاهر طاعته ﷺ
٥٦٣	متابعته ﷺ
٥٦٤	فضل متابعته ﷺ
٥٦٤	الافتداء به ﷺ
٥٦٦	توقيزه ﷺ
٥٦٧	مظاهر توقيزه ﷺ
٥٦٨	تعظيم شأنه ﷺ
٥٦٩	مظاهر تعظيمه
٥٧٠	مظاهر تعظيم أهل بيته ﷺ
٥٧٠	مظاهر تعظيم أصحابه
٥٧١	مظاهر تعظيم آثاره ﷺ
٥٧٢	وجوب النصح له ﷺ
٥٧٢	محبة أهل بيته وصحابته
٥٧٥	الصلاة عليه ﷺ
٥٧٦	المواطن التي تُستحب فيها الصلاة عليه ﷺ
٥٧٧	صيغ الصلاة على النبي ﷺ

مصادر الكتاب

- (١) سيرة ابن هشام والسهيلي عليها .
- (٢) الكامل لابن الأثير .
- (٣) البداية والنهاية لابن كثير .
- (٤) مختصر السيرة للشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ،
رحمهم الله أجمعين ، وجزاني الله وإياهم بما يجزى به المحسنين .

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٥	٦	كان به رفعه	كان به قبل رفعه
١٨	١٠	وجليس	جديس
١٩	٩	ارفد	ارفخشد
٥٢	١١	يقبضه الـ	يقبضه الله
٥٤	٤	اركان	اركون
٥٤	٥	الد جبار	اله جبار
٥٤	١٥	عبتكم	عاقبتكم
٥٧	١٤	ككذابها	ككاذبها
٥٤	١١	: خامسا
٦٨	٨	محنثا	متحنثا
٦٨	١٠	يطوف با ابن	يطوف فقال يا ابن
٨٧	١٨	والعـ	والعري
٩١	١٩	في	فيه
١١٦	٦	فاذا غيره	فاذا رأى غيره
١٢٤	١٢	جاء عيسى	جاء به عيسى
١٢٦	٣	وراء	ورأى
١٢٩	١١	محي	محا
١٣٣	٥	ويصيحون به بالحجارة	ويصيحون به ويرمون به بالحجارة
١٤٠	١٢	بلغ الجوع	بلغ بهم الجوع
١٥١	٢٤	مكة هو	مكة وهو
١٥٣	١٢	يزاران	يزاران
١٥٨	٢٠	الدبل	الدبل
١٦٧	١٥	« دانونا »	« رانونا »
١٧٣	٦	سلك واديا	سلك الأنصار واديا
١٨٥	٩	بفضل والتكبير	بفضل الله والتكبير
١٩٢	١٧	مزيع	مربع

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٩٥	٢٠	وليد	وليد
٢٠٩	٢	يمنع	يمنع
٢١٩	٢	يحرر	يحرر
٢٢٥	١٥	الكثيب	الكثيب
٢٣٩	٢٢	الأنصارى	الأنصار
٢٤٠	٥	أماكن وتقدير	أماكن وجوده وتقدير
٢٤٠	٥	وحزر قوته	وحزرها
٢٤٠	٥	مدى تقدر عليه	مدى ما تقدر عليه
٢٤٠	٨	ينتفع في شأن	ينتفع بها في شأن
٣٣٥	٢٠	حسان ابن	حسان بن
٣٤٠	١٦	إني جاءهم	أن جاءهم
٣٧٣	١١	دخل المسجد واضطجع أصحابه	فلما دخل ﷺ اضطجع واضطجع أصحابه
٣٧٥	١٣	ولما رضع	ولما رجع
٣٥٠	٢٥	واسروا	واسرى
٣٥٠	٢٤	الحموم	الجموم
٤٤٠	٣	حاتم	عدى بن حاتم
٤٤٠	١٣	حاتم	عدى بن حاتم
٤٤٦	١٣	عني	غني
٤٥٧	١٨	إلا	ألا
٤٨٦	٦	إلا قاتل	ألا قاتل
٤٨٧	٣	هو ورضيع	وهو رضيع
٥٤٦	٣	واجب فعله	واجب وفعله
٥٧٣	١٣	اقبروا	ارقبوا
٥٧٥	١٨	من صل	من صلى
٥٢٩	٥	مصلتنا	مصلت
٥٢٩	١٦	بذلك	الوحي بذلك

طبع بترخيص وزارة الإعلام
رقم ٦٤٢/م/ج
وتاريخ ١٤٠٩/٣/٥ هـ